



T.C.

İNÖNÜ ÜNİVERSİTESİ

SOSYAL BİLİMLERİ ENSTİTÜSÜ

TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANA BİLİM DALI

ARAP DİLİ VE BELÂGATI BİLİM DALI

**EBU'L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI  
TEMALAR**

(1909-1849/1327-1266)

DOKTORA TEZİ

DANIŞMAN

**Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin POLAT**

HAZIRLAYAN

**Ahmed ELHAMMUD**

**MALATYA-2023**

T.C.  
İNÖNÜ ÜNİVERSİTESİ  
SOSYAL BİLİMLERİ ENSTİTÜSÜ  
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANA BİLİM DALI  
ARAP DİLİ VE BELÂGATI BİLİM DALI

**EBU'L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI  
TEMALAR**

(1909-1849/1327-1266)

**DOKTORA TEZİ**

HAZIRLAYAN

**Ahmed ELHAMMUD**

DANIŞMAN

**Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin POLAT**

**MALATYA-2023**

الجمهورية التركية

جامعة إينونو

قسم الدراسات العليا - العلوم الإسلامية الأساسية

شعبة اللغة العربية والبلاغة

أبو الهدى الصيادي وأغراضه الشعرية

(1266-1327هـ/1849-1909م)

رسالة علمية مُعدّة لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية والبلاغة


إعداد

أحمد إبراهيم الحمود

إشراف

الدكتور حسين بلات

ملطية 2023م

 İNÖNÜ ÜNİVERSİTESİ SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ	<b>KABUL ONAY FORMU</b>	Doküman No	İNÜ-KYS-FRM-142
		Yayın Tarihi	19.08.2019
Revizyon No			
Revizyon Tarihi			
Sayfa No		1 / 1	

**İNÖNÜ ÜNİVERSİTESİ  
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ MÜDÜRLÜĞÜ**

**EBU'L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE  
ALDIĞI TEMALAR**

DOKTORA TEZİ

DANIŞMAN  
Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin POLAT

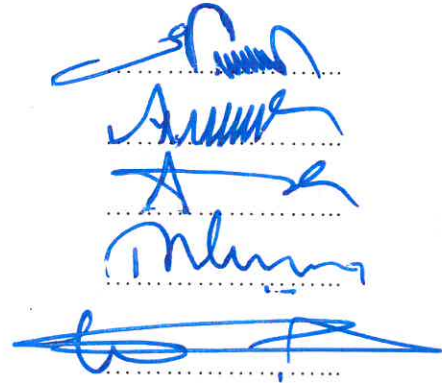
HAZIRLAYAN  
Ahmed ELHAMMUD

Jürimiz tarafından 01/12/2023 tarihinde yapılan tez savunma sınavı sonucunda bu tez **oybirliği** ile başarılı bulunarak Temel İslam Bilimleri Anabilim Dalı Arap Dili Ve Belâgati Bilim Dalı Doktora Tezi olarak kabul etmiştir.

**Jüri Üyelerinin Unvanı Adı Soyadı**

1. Prof. Dr. Sabri TÜRKMEN (Başkan)
2. Prof. Dr. Atik AYDIN (Üye)
3. Prof. Dr. Abdulhadi TİMURTAŞ (Üye)
4. Prof. Dr. Kurkut ÇEÇEN (Üye)
5. Dr. Öğr. Hüseyin POLAT (Üye)

**İmza**



**O N A Y**

Bu tez, İnönü Üniversitesi Lisansüstü Eğitim-Öğretim Yönetmeliği'nin ilgili maddeleri uyarınca yukarıdaki jüri üyeleri tarafından kabul edilmiş ve Enstitü Yönetim Kurulu'nun .../.../20... tarih ve 20.../..... sayılı Kararıyla da uygun görülmüştür.

**Prof. Dr. Suzan ERGÜN  
Enstitü Müdürü**

# ONUR SÖZÜ

Dr. Hüseyin POLAT danışmanlığında hazırladığım “EBU’L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI TEMALAR” isimli tezin bilimsel ahlâk ve geleneklere aykırı düşecek bir yardıma başvurmaksızın kendi çalışmam olduğunu ve her alıntıya kaynak gösterdiğimi taahhüteder, bunu onurumla doğrularım.

Ahmed ELHAMMUD

MALATYA 2023

## الإهداء

■ إلى مِدَادِ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ وَالْقَلَمِ، مَنْ لَوْلَاهُ مَا بَدَتْ لِي نَارُ الْعِلْمِ وَالْحُبِّ عَلَى عِلْمٍ .....  
الأعزَّ والدي الأجد السَّامي.

■ أنتم وضعتم لنا أسسًا وقاعدَةً أنتم بنيتُم وراعيتُم بُنياني  
إلى التي استعدبت لآمالي كلَّ ألمٍ، مَنْ لَوْلَاهَا مَا قَرَأْتُ حَرْفًا وَلَا حَطَّطْتُ بِقَلَمٍ .....  
الرؤوف الرؤوم والدي الماجدة السَّامية.

■ هذي القِطَافُ جَنِينَاهَا بِفَضْلِكُمْ أنتم غرستُم شُجَيْرَاتِي وَبُسْتَانِي  
إلى جَدِّي الحاج خليل برهان الدِّين جابر أفندي رحمهُ اللهُ، وأحسبُ أنَّ أحدًا في هذه الدُّنيا  
لن يبتهج بي ابتهاجَهُ لو كان بيننا في علمنا هذا الذي لا زالت تُدَثِّرُنَا فِيهِ دَعَوَاتُهُ.  
■ إلى دوحَةِ الآمالِ وطيبِ عَبَقِ الأيَّامِ واللِّيالِ، خالاتي الكريمتِ شَهْرَةَ، كوثر، إيمان.  
■ إلى رفيقِ دربي وشقيقِ قلبي، أخي الحافظ محمد بهاء الدِّين.  
■ إلى معادنِ الصَّفَاءِ ومنابعِ الطَّهْرِ والنَّعَاءِ، أخواتي الحافظاتِ كوثر، هدى، نور.

أحمد إبراهيم الحُود

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله، سيّدنا ونبينا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ ومن  
والاه..... أمّا بعد:

فإنّه قد شاعَ في كثيرٍ مما سَطَّرَهُ أربابُ التاريخِ للأدبِ العربيِّ ونُقَّادُهُ أنّ أزهى عصورِ الأدبِ  
العربيِّ هو العصرُ العبَّاسيُّ؛ وجَرَ هذا الحكمُ أحكامًا نقديةً قَوِّموا بها ما تلاه من العصورِ المتأخِّرةِ،  
فَرَمِيَ العصرُ العثمانيُّ بِسِمَةِ التَّأخُّرِ والانحطاطِ، وقد يكونُ التسليمُ المُطلقُ لهذه الأحكامِ لا يزالُ  
صعبَ المنالِ، إذ هي في بعضِ جوانبها مَحَطُّ مُراجَعَةٍ ومحلُّ تدقيقٍ وإمعانٍ نَظَرٍ.

إلا أنّ شيوعَ تلك الأحكامِ وكثرةَ تَرَدِّدِها لدى دارسي الأدبِ، قد أسدَلَ أستارًا على شعراءِ  
مُتأخِّرينَ، فَحَجَبَتْ تلك الأستارُ روائِعَهُم وأخفَّت بدائِعَهُم، ولا وَزَرَ لتراثِهِم الشِّعريِّ سوى أنّه لم يكن  
من نتاجِ عصرٍ مُتَقَدِّمٍ، فبقيت دواوينُهُم وآثارُهُم تحت طَيِّ التَّسيانِ والإهمالِ؛ ولعلَّ الشَّاعِرَ مُحَمَّدًا أبا  
الهْدَى الصِّيَّادِيَّ واحدٌ من أولئك الذين لم يَحْظُ تراثُهُم الأدبيُّ الشِّعريُّ بنصيبٍ من دراسةٍ أو بحثٍ  
على امتدادِ ما يزيد على قرنٍ من الزَّمانِ، بل إنّ بعضَ دواوينه الشِّعريَّةِ لم تَرَ النُّورَ إلى يومِ النَّاسِ هذا،  
وأما التي قُدِّرَ لها أن تُطَبَعَ في حياةِ الشَّاعِرِ وتُقَدَّمَ إلى مُحِبِّي الأدبِ فقد تَقَدَّمتْ عهدُها إلى أن لم يبقَ  
من نُسخِها إلا ما هو حبيسُ المكتباتِ الكُبرى في تركيا وفرنسا وأمريكا وألمانيا.

ومن هنا نَبَعَتْ أهميةُ البحثِ، لكونه أوَّلَ دراسةٍ أكاديميَّةٍ سلَّطت الضَّوءَ على التُّراثِ الشِّعريِّ  
لأبي الهْدَى، وفصَّلَت القولَ في أغراضِ شعرِهِ، وتَلَمَّست نواحي الجمالِ الأدبيَّةِ فيه، فهو بحثٌ جديدٌ  
من جِهَةٍ، متناولٌ لشخصيَّةٍ جديرةٍ بالاهتمامِ من جِهَةٍ أُخرى، فلا ريبَ أنّ مُستشارَ داهيةِ السُّلاطينِ

العثمانيين عبد الحميد الثاني (ت. 1336هـ/1918م) وأحد أهم من لازمه والتصق به طوال فترة حكمه الحربي بأن يعتنى بما له من شعر، إذ قد ينكشف بالشعر من الجوانب الوجدانية ما لا يكمن في غيره من الآثار، ولا تنجلي به أفكار أبي الهدى فحسب وإنما أفكار عينية ممن هم على شاكليه من الفئة التي اعتمد عليها السلطان عبد الحميد أيضاً؛ إلى جانب تأكيد هذه الدراسة أن الشعر العربي لم يُصَب تماماً بالعقم الأدبي الجمالي في عصر من العصور، سواءً تأخر العصر أم تقدّم، ولعله كان لهذه الأسباب التأثير الكبير في دفع الباحث إلى اختيار البحث موضوعاً لرسالته، إضافةً إلى كونه خدمةً للغة القرآن الكريم ولدارسيها والمهتمين بعلومها، ورغبةً في إحياء التراث الأدبي للعلماء المسلمين في عهد الدولة العثمانية.

ولما كان هذا البحث الأول في دراسة شعر أبي الهدى والأغراض التي انبنى عليها، فإن الباحث لم يعثر على دراساتٍ سابقةٍ تناولت الموضوع بعينه أو أطرافاً منه؛ اللهم إلا ما كان من عمل يوسف النبهاني (ت. 1350هـ/1932م) في ترتيب أغراض ديوان "الفيض المحمدي" - باكورة أشعار أبي الهدى - الصادر في إستانبول سنة 1298هـ/1881م؛ إلى جانب ما بُث في بعض البحوث من إشاراتٍ عامّةٍ إلى عموم الأغراض التي شاعت في العصر الأدبي العثماني، ككتاب الدكتور عمر موسى باشا "تاريخ الأدب العربي في العصر العثماني" الذي صدر في دمشق سنة 1989م، وقد أفاد البحث من دراسات المتخصصين في دراسة تاريخ الحقبة الزمنية التي عاشها أبو الهدى، كدراسات الدكتور محمد حرب التي منها كتاب "السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار" الصادر في دمشق سنة 1990م، ومنها كتابه الآخر "مذكرات السلطان عبد الحميد" الصادر في دمشق سنة 1991م، ومما أفاد منه البحث ما سطره يراع أبو الهدى في كتابه "الفرقان" - الصادر في مصر سنة 1906م - من سطورٍ أبانت شيئاً من حياته ونشأته العلمية والاجتماعية، وعضد هذا ما

خَطَّتُهُ أَنَامِلُ الْمُؤَرِّخِينَ لتراجم أعيان ذاك العصر، كعبد الرَّزَّاق البيطار (ت.1335هـ/1916م) في كتابه "حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر" الصَّادر في دمشق سنة 1961م، وكأدهم آل جُنديّ (ت.1397هـ/1977م) في كتابه "أعلام الأدب والقرن" الصَّادر في دمشق سنة 1954م، وكلُّ هذه الآثار قد أشارت إلى حقيقة شخصية أبي الهُدَى، التي هي دِعامَةُ هذه الدِّراسَةِ.

وقد انتقي لهذا البحث من بين مناهج البحث منهج البحث الوصفي التحليلي القائم على الاستقراء، ولكون المادة الشعرية غزيرة في عموم دواوين أبي الهُدَى حيث ضمت مئات القصائد وما ربَّأ على عشرة آلاف بيتٍ فقد تحتم - بعد استقراء كلِّ تلك الدواوين - الاصطفاء والانتقاء لعيناتٍ من تلك الأبيات تضمُّها خيمة الأغراض الرئيسيَّة التي أقرها الشَّاعرُ بنفسه لما اطلَّع على "ديوان الفيض المحمدي"، إذ إنَّ ما عداها بدأ ثانويًّا إمَّا لانبثاقه عنها أو لكونه مُنتثرًا في تضاعيف قصائدها؛ وقد كانت عمليَّة الاختيار تقوم على انتقاء أوضح الأبيات دلالَةً على العرَضِ الرِّئيسِ التي تُبرزُ مقدرة الشَّاعرِ على تصوير ما يجولُ في داخله، مع مُراعاة الدُّوقِ العامِّ المُستحسنِ لدى عموم أهلِ صنعة الأدب والشعر، إلى جانب تركيزٍ على جماليَّاتِ الصَّنعةِ البلاغيَّةِ والبديعيَّةِ التي اصطبغت بها الأشعارُ المختارة لكلِّ عَرَضٍ.

ولمَّا كان البحثُ مُنقسِمًا إلى شطرين هما شخصيَّةُ أبي الهُدَى أوَّلًا، وأغراضه الشَّعريَّة ثانياً، فقد كانت **خطةُ البحثِ** مُكوَّنةً من مُقدِّمةٍ ومدخلٍ وفصلين وخاتمةٍ. تناولت **المقدِّمة** أهميَّة البحثِ وأسبابَ اختياره وتبيان منهج البحثِ وخُطَّته، وتناول **المدخل** تمهيدًا موجزًا يُعرِّفُ بمزيَّة اللُّغة والشَّعرِ ومكانتيهما في عصرِ أبي الهُدَى، ثم أُتبع **بالفصل الأوَّل** (أبو الهُدَى الصِّيادي: حياته وآثاره العلميَّة ودواوينه)، الذي ضَمَّنَ تمهيدًا ومبحثين، الأوَّل منها تكلم على حياة أبي الهُدَى بمراحلتيه العُمريَّتين بدايةً في حلب وانتهاءً في إسطنبول، والثَّاني حُصِّصَ للحديث عن آثاره العلميَّة والكلام على أهمِّها

وما تَصَمَّنَتْهُ، وبُيِّنَ المخطوطُ منها والمطبوعُ والمفقودُ، ثم انتُقِلَ إلى الكلامِ على دواوينه الشعريَّة. ثم بُدِيََ بعد ذلك **بالفصلِ الثَّاني** (أغراضُه الشعريَّة) المتكوِّن من تمهيدٍ اهتمَّ بتبيانِ مفهومِ الشعرِ وتوضيحِ معنى الغرضِ الشعريِّ وتنوُّعه على مرِّ العصور، لكي يتسنى لأغراضِ أبي الهدى أن تُنسبَ بِدِقَّةٍ إلى العصرِ الأدبيِّ الذي تنتمي إليه، ثم تلا التمهيد ثمانية مباحثٍ وُزِّعَتْ عليها أغراضُه الرئيسيَّة؛ فكان المبحثُ الأوَّلُ مخصوصًا بغرضِ الدُّعاءِ وما ضَمَّه من مناجاةٍ وتضرُّعٍ إلى ربِّ العالمين وتوحيدٍ وتقديسٍ لذاته العليَّة، وحُصِّصَ المبحثُ الثَّاني لغرضِ المديحِ النَّبويِّ، وكان أطولَ المباحثِ إذ تعدَّدت محاورُ مَدْحِهِ النَّبويَّة ما بين محورٍ تقليديٍّ وآخرٍ اختصَّ بمدحِ جوانبٍ من شخصيَّة النَّبيِّ الأكرم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وقد تلاه المبحثُ الثَّالثُ الذي اعتنى بغرضِ المديحِ العامِّ لأصنافٍ ممن اختصَّهم أبو الهدى بمدحِهِ من الصَّحابة وآل البيت النَّبويِّ والعثمانيِّين وعلى رأسِهِم السُّلطان عبد الحميد الثَّاني وغيرِهِم من طبقاتِ الفُضلاءِ؛ ثم أعقبه المبحثُ الرَّابِعُ في غرضِ الغزلِ الذي فُصِّلَ الكلامُ عليه وعلى نوعيه الآخرَين النَّسيبُ والتَّشبيبُ؛ والمبحثُ الخامسُ كان لغرضِ الوعظِ الذي تفرَّعَ عنه النَّصحُ والإرشادُ إلى حُسنِ المعاملةِ الخاصَّةِ والعامَّةِ وانجَلَّت فيه نصائحُه لأربابِ التَّصوُّفِ وتزهيدهُ بالدُّنيا وما دوَّنه من حِكَمٍ وصلَّ إليها عبرَ تجربته الطَّويلةِ في الحياة؛ وأمَّا المبحثُ السَّادسُ فقد كان لغرضِ الهجاءِ الذي قُبِّمَ موزعًا على الأفرادِ والفئاتِ التي عاينَ فسادها وخاصَّةً من المتصوِّفَةِ المُدَّعين، وما عدَا ذلك من هجائه للزَّمانِ لما حَفَلَ به من ظواهرِ الفسادِ؛ وقد كان المبحثُ السَّابعُ مخصوصًا بغرضِ الرِّثاءِ؛ والمبحثُ الثَّامنُ الأخيرُ قد اعتنى بما سوى ذلك من الأغراضِ الأخرى التي لم تَرَقَ إلى أفرادٍ كُلتٍ منها بمبحثٍ خاصٍّ؛ ثم أُتمِّيَ البحثُ **بخاتمةٍ** ضُمَّنت أهمَّ ما وصلَ إليه البحثُ من النَّتائج.

ولا يسعني في ختامِ هذه المقدمَةِ إلا أن أتقدَّم بما يقتضيه الوفاءُ من الشُّكرِ الجزيلِ والدُّعاءِ الوفيرِ والتَّقديرِ الكبيرِ لأستاذي المشرفِ رئيسِ قسمِ اللُّغة العربيَّة والبلاغة الدكتور حسين بُللات الذي

كان لي كالوالد الحنون طوال مرحلة الدراسة، ولم يزل يُتابعني ويحثني على إتمام البحث ويُسهّل لي كلّ صعبٍ، كما يطيبُ لي أن أتوجّه بعظيم الامتنان إلى أستاذي الرّاقى العميد الأستاذ الدكتور صبري تركمان الذي أشرفَ أيضًا على البحث ونصّحني بالاهتمام بالمصادر غير العربيّة والاستقاء منها، ويروقُ لي التّوجّه بالشّكر إلى رئيس قسم الأدب التّركيّ الإسلاميّ الأستاذ الدكتور كوركوت جاجان الذي تفضّلَ برسم خطة البحث والإشرافِ عليه وحقّه بمزيد عنايةٍ واهتمامٍ منذ البدء إلى حين إتمامه ومناقشته.

وإني إذ يقفُ بي جوادُ اليراعِ على ربوعِ أشعارِ أبي الهدى الصّيّاديّ، فلا أدعي لهذا البحثِ كمالًا تامًّا، ولكن حسبي أنّي بذلتُ ما بوسعي لتجنّبِ الخطأ، ولغزارةِ الفوائد، وبذلتُ جهدًا ليس بالسهلِ القليلِ للإمساكِ بزمامِ أغراضهِ الشّعريّة، بعد أن سعتُ بدأبٍ للحصولِ على آثارهِ الأدبيّة ونفّضتُ عنها ما غطّأها من غبارِ الأيام، وحرصتُ أن يكونَ البحثُ مُحيطًا بجميعِ أشعارِ هذا الرّجلِ، ليُضافَ بهذا البحثِ شيءٌ من العلمِ إلى مكتبةِ اللّغة العربيّة وآدابها، ويُساهمَ في نماءِ بحوثها، وبخاصّةٍ ما يتعلّقُ بأدبِ عهدِ الدّولة العثمانيّة، إذ لكلِّ عهدٍ فُرسائهُ من الأدباءِ الشّعراءِ الذين لم يعدْ منهم عصرٌ من العصور؛ والله أرجو أن يكونَ عملي مُكملًا بالتّوفيقِ وجليّة الإخلاص، فهو حسبي ونعم الوكيل.

أحمد إبراهيم الحُود

malatyadurra@gmail.com

## الملخص

أطروحة دكتوراة

أبو الهدى الصيادي وأغراضه الشعرية

أحمد إبراهيم الحمود

المشرف: الدكتور حسين بولات

يتناول البحث شخصيةً طبقت شهرتها الآفاق في أواخر العصر العثماني، إلا أن تراثها الشعري لم يحظ بدراسة أكاديمية مستقلة منذ ذلك العهد إلى حين كتابة هذا البحث، تلك هي شخصيته أبي الهدى الصيادي مستشار السلطان عبد الحميد الثاني وأحد الخواص المقربين إليه.

فصدر البحث أولاً بقبس من حياة الصيادي، وأتبع بالكلام على أهم آثاره العلمية التي أتيح الوصول إليها، وعرج على دواوينه التي نفض عنها - لأول مرة - غبار الإهمال. ثم جرى البحث ثانياً في تراثه الشعري الذي بُث في تلك الدواوين، للوقوف على الأغراض الشعرية التي انطوت أشعاره تحت قباها، ومحاوله تلمس شيء من نواحي الجمال البلاغية التي نُشر طيها في ثنايا تلك الأشعار، ولا يبراز ما رفقت به من الأشكال، إضافة إلى تبيان المحاور الرئيسية التي قام عليها بُنيان الأغراض.

وقد تبين خلال البحث أن أبا الهدى انتظم نظاماً أغراضه الشعرية في عقد أغراض العصر العثماني، وأفيد أن أغزر نتاجه كان قد صبّه في أغراض المديح النبوي والمديح والوعظ، ولعل أبرز ما لُمح من عوامل مؤثرة في شعره هو عامل التصوف وعامل الحزن المتواصل الذي جرّته عليه الغربة وأحداث ذلك الزمان.

الكلمات المفتاحية: الشعر العربي، الأغراض الشعرية، أبو الهدى، المديح النبوي، الوعظ.

## ÖZET

DOKTORA Tezi

EBU'L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI TEMALAR

Ahmed ELHAMMUD

Danışman: Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin POLAT

Bu çalışma, Osmanlı'nın son dönemlerinde meşhur olmuş, Sultan II. Abdülhamid'in en yakınlarından biri ve danışmanı olan Ebu'l-Hudâ es-Sayyâdî ile ilgilidir. Hakkında daha önce çalışma yapılmış olmasına rağmen geride bıraktığı şiir mirasıyla alâkalı özgün ve kapsamlı bir incelemeye konu olmaması çalışmamıza onu konu olarak seçmemizde etkili olmuştur.

Çalışmada ilk olarak Sayyadî'nin hayatı hakkında bilgi verilerek günümüze ulaşan önemli ilmî eserleri incelenmiştir. İkinci olarak onun şiir mirası ele alınmıştır. Böylece Ebu'l-Hudâ'nın edebî eserlerinin üzerindeki tozlar kaldırılarak şiir birikiminin nüfuz ettiği kıymetli müktesebatının gün yüzüne çıkarılıp analizinin yapılmasına çalışılmıştır. Bu çerçevede onun şiirlerine egemen olan manzum temaların vurgulanmasıyla şiirlerinin karakteristiklerinden olan belâgat inceliklerinin yakalanması amaçlanmıştır, haiz olduğu biçimsel ve inşâî hususiyetlerin açıklığa kavuşturulması hedeflemiştir.

Bu çalışma ile Ebu'l-Hudâ'nın şiirine hâkim olan temaların, Osmanlı'nın ilgili dönemindeki şiir temalarıyla bağlantılı olduğu belirlenmiştir. Eserlerinin çoğunda tematik olarak nebevi övgü, öğüt ve methin seçilmiş olduğu ortaya konulmuştur. Şiirlerinin içerdiği ana unsurlara bakıldığında ise tasavvuf, gurbetin sebep olduğu hüznün ve ait olduğu asrın yaşanmışlıklarının ağır bastığı görülmektedir.

**Anahtar Kelimeler:** Arap Şiiri, Şiir Temaları, Ebu'l-Hudâ, Nebevi Övgü, Öğüt.

## ABSTRACT

PH.D Thesis

ABU AL-HUDA AL-SAYYĀDI AND HIS POETRY OBJECTIVES

Ahmed ELHAMMUD

Supervisor: Dr. Hüseyin POLAT

This research deals with a personality whose fame was spread across the horizons in the late Ottoman era. His poetic legacy however has not yet been subject to any independent academic research since that era up until this current research. The man in question is no other than Abu Al-Huda Al-Sayyādi, an advisor to sultan Abdul Hamid the second and one of his close inner circle.

This research aims firstly to give a small glimpse into the life of Al-Sayyādi followed by a few words on his most important academic contributions that were able to be procured. This research then takes a pause at his literary works which remained for a long time covered by the dusts of neglect are only now being brought forth. Secondly this research looks into his poetic writings that can be found throughout his literature, specifically looking at the objectives of his poetry that are contained under the domes of his works. This whilst also trying to touch upon some of the grammatical and rhetorical beauty that one may find concealed within his poetry as well as highlighting the many forms in which this beauty is presented. Furthermore, it aims to clarify the main principles/axioms upon which these poetic objectives are built.

It became apparent during the course of the research that Abu al Huda organised his poetry and its objectives in accordance to what was needed during his time. It is reported that his most prolific writings were poured out in the genres of ‘Prophetic praise’, panegyric and didactic poetry. Perhaps the most prominent influencing agent that can be gleaned from his poetry is that of Sufism as well as the continuous sadness that afflicted him due to his exile and the events of his time.

**Key words:** Arabic poetry, Poetry Objectives, Abu Al-Huda, Prophetic praise, Preaching.

## المحتويات

I .....	ONUR SÖZÜ
II .....	الإهداء
III .....	المقدمة
VIII .....	الملخص
IX .....	ÖZET
X .....	ABSTRACT
XI .....	المحتويات
XV .....	الاختصارات
1 .....	المدخل

### الفصل الأول

(أبو الهدي الصيادي: حياته وآثاره العلمية ودواوينه)

6 .....	تمهيد: الجو العام في عصره
12 .....	المبحث الأول: حياته
13 .....	1 المرحلة الأولى
20 .....	2 المرحلة الثانية
32 .....	المبحث الثاني: آثاره العلمية ودواوينه
33 .....	1 آثاره العلمية
46 .....	2 دواوينه
46 .....	أ. ديوان الفيض المحمدي
48 .....	ب. ديوان فرة العين

49	ج. ديوان التّبيان .....
52	د. ديوان مرآة الشُّهود .....
54	هـ. ديوان الرّوض البسيم .....
54	و. ديوان روضة العرفان .....
56	ز. ديوان الدُرِّ المنتظَم .....
57	ح. ديوان أزهار الحديقة .....
58	ط. ديوان اللؤلؤ والمرجان .....
59	ي. نَوَائِحُ الحِكْم .....
60	ك. منظومة آيات العرفان .....
62	ل. منظومة زاد القيامة .....
65	3 ملاحظاتٌ في دواوينه الشّعريّة .....

## الفصل الثّاني

### (أغراضُ الشّعريّة)

68	تمهيد: حول مفهومَي الشّعر والغرض الشّعريّ .....
68	1 الشّعر .....
72	2 الغرض الشّعريّ .....
79	المبحث الأوّل: غرض الدّعاء .....
101	المبحث الثّاني: غرض المديح النّبويّ .....
106	1 مطالع المدائح .....
115	2 محاور المدائح .....
116	أ محور المدح العام .....

137	ب محور التَّشَوُّق والشَّكْوَى والتَّشْفُعُ .....
146	ج محور المعجزات .....
150	د محاور أخرى .....
153	3 خواتيم المدائح .....
<b>157</b>	<b>المبحث الثالث: غرض المديح .....</b>
158	1 مدح آل البيت والصَّحابة .....
159	أ آل البيت .....
167	ب الصَّحابة .....
181	2 مدح العثمانيين .....
200	3 مدح الفضلاء .....
<b>212</b>	<b>المبحث الرابع: غرض الغزل .....</b>
214	1 التشبيب .....
218	2 الغزل .....
231	3 التَّسْبِيب .....
<b>246</b>	<b>المبحث الخامس: غرض الوَعظ .....</b>
248	1 التَّصْحح والإرشاد .....
250	أ المعاملة الخاصَّة .....
253	ب المعاملة العامَّة .....
268	ج التَّصَوُّف .....
272	2 التَّزْهِيد بالدُّنْيَا .....
278	3 الحِكْمَة .....

289	المبحث السادس: غرض الهجاء .....
293	1 هجاء الأفراد .....
296	2 هجاء الفئات .....
296	أ فئة المعارضين والمُعرضين .....
300	ب فئة المتصوِّفة .....
304	ج فئة الحُساد .....
308	3 هجاء الرِّمان .....
331	المبحث السابع: غرض الرِّثاء .....
349	المبحث الثامن: أغراضٌ أخرى .....
360	الخاتمة .....
364	المصادر والمراجع .....

## الاختصارات

ت	: تاريخ الوفاة
د.ت.ب	: ديوان التّبيان
د.ت.ن	: بدون تاريخ ومكان التّشّير والنّاشر
د.ت	: بدون تاريخ
د.ر.ب	: ديوان الرّوض البسيم
د.ر.ت	: ديوان الدّر المنتظم
د.ر.ح	: أزهار الحديقة
د.ر.ع	: ديوان روضة العرفان
د.ر.ق	: ديوان قرّة العين
د.ر.م	: ديوان اللؤلؤ والمرجان
د.ف.م	: ديوان الفيض الحمدي
د.م.ش	: ديوان مرآة الشّهود
د.ن	: بدون ناشر
ص	: الصّفحة
ق.ه	: قبل الهجرة
ك.ح	: كان حيّاً سنة
م	: العام الميلادي
ه	: العام الهجري

## المدخل

إنَّ من جُمْلَةِ المَزَايَا التي تَمَيَّزَ بها الإنسانُ على غيرِهِ من المخلوقاتِ مَزِيَّةُ اللُّغَةِ، فهي أخصُّ الخصائصِ التي مَنَحَتْهُ إيَّها القُدْرَةُ الإلهيَّةُ، وفي عالمِ الشَّهادَةِ كان الكائن الحيُّ الوحيدَ القادرَ على النُّطْقِ والتَّعبيرِ باللُّغَةِ، إذ هي قَرِينَةُ التَّفكيرِ بل وعَاوُذُهُ، والوسيلةُ التي بها يُعبَّرُ عنه وعن العواطفِ والأحاسيسِ التي تختلجُ في الصُّدُورِ؛ فلا بدَّعَ أن يفتَرَنَ القسمُ الإلهيُّ بمزِيَّةِ اللُّغَةِ المنطوقَةِ عندما قال الحقُّ تبارك وتعالى: "فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ"<sup>1</sup>.

وعَلَّتِ اللُّغَةُ العربيَّةُ جميعَ اللُّغاتِ بمزِيَّةِ الشَّرْفِ الأسمى، لَمَّا نَزَلَ بها وحيُّ السَّمَاءِ، فنالتَ بهذا الشَّرْفِ العظيمَ مَزِيَّةَ العالَميَّةِ، بمُخاطَبَتِها جميعَ أجناسِ البشريَّةِ، على اختلافِ ألسِنَتِهِم وألوانِهِم، لِمَا أُودِعَ فيها من مُميَّزاتٍ وخصائصَ ليست في سواها من اللُّغاتِ، فهي أوفَرُ اللُّغاتِ مادَّةً وأوسَعُها مذهبًا وأحظاها خِدْمَةً وأكثرها ترتيبًا وأغزرها علومًا،<sup>2</sup> وقد يستعصي على النَّفسِ أن تُعبِّرَ بلُغَةٍ ما عما يجولُ في أعماقِها، ويُثقلُ كلُّ لسانٍ عن الإفصاحِ عما يخطرُ ببالِ صاحِبِهِ، فلا يُنقِذُ من وهدةِ هذه اللُّججِ إلا اللُّغَةُ العربيَّةُ، فتُسعِفُ بالتَّعبيرِ عن أدقِّ الدَّقائِقِ التي يرنو إليها المرءُ وتُنسابُ على لسانِهِ بسلاسةٍ في الألفاظِ وأناقَةٍ في التَّرَكيبِ، وهذه الميزةُ جعلتها لغَةً سخِيَّةً مِعطاءً تستوعبُ حاجاتِ الشُّعوبِ على امتدادِ الأزمانِ وتعاوُبِ الأجيالِ.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> الدَّارِيات 7/51.

<sup>2</sup> يُنظَر: محمَّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1414هـ/1994م)، "قطع"، 86/8؛ محمَّد بن إدريس الشَّافعي، الرِّسالة، تحقيق: أحمد شاكر، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، 1357هـ/1938م)، 42/1.

<sup>3</sup> يُنظَر: محمَّد خليل جيجك، ثراء المعنى في القرآن الكريم (القاهرة: دار السَّلام، 1999م)، 29.

وقد اعتمد بعض مؤرّخي أدب اللغة العربيّة تسمية مجموع الكلام الجيّد منها "أدباً"، وقسموه إلى نثرٍ وشعرٍ،<sup>4</sup> ورفّع الشعْرُ إلى مرتبةٍ عاليةٍ من مراتب الأدب، ويظهرُ علوّ هذه الرتبة حتى في صدر الإسلام، فعليُّ بن أبي طالب (ت. 40هـ/660م) رضي الله عنه رآه "مِيزَانَ الْقَوْلِ"، وعمر بن الخطّاب (ت. 23هـ/644م) رضي الله عنه أمرَ بتعلّمه؛ وقد لا يُمكنُ الوصولُ إلى كُنْهِ هذا الاهتمام إلا إذا ما بُيِّنَ أنّهم عَنَوْا بكلامهم الشعْرَ الذي "يدلُّ على معالي الأخلاقِ وصوابِ الرّأيِ ومعرفة الأنساب"،<sup>5</sup> والشعْرُ كان عُدةً للسلفِ والخلفِ في فهمِ الذّكرِ الحكيمِ، وإذا ما استعجمَ عليهم شيءٌ من الآياتِ فإنّهم يهرعون إليه كي يتسنى لهم أن يقتبسوا منه قَبَسًا يُنيرُ لهم طريقَ الفهمِ للكلامِ القُدسيِّ؛ فلا غرو أن يحظى الشعْرُ بمزيدِ اهتمامٍ وخالصِ عنايةٍ، فاخصَّ بروايته زوارة أخذوا على عاتقهم العناية بأشعار من قبلهم فارتحلوا إلى البوادي لروايتها - كأبي عمرو بن العلاء (ت. 159هـ/776م) وأبي عمرو الشيباني (ت. 206هـ/821م) -، وانبرى آخرون لتقييد ما وقّعت عليه أعينهم من عيونِهِ فخلّدوها في سَجَلِ الآدابِ آثارًا خالدةً انتقيت من الأشعارِ العاليةِ، فكانت "المُفضّليّات" - للمُفضّل الضبيّ (ت. 168هـ/784م) - و"الأصمعيّات" - للأصمعيّ (ت. 216هـ/831م) - و"الحماسة" - لأبي تمام (ت. 231هـ/845م) - التي نُسجَ على منوالها حماساتٌ أُخرى؛<sup>6</sup> ثم توالى من بعد ذلك أقوامٌ آخرون اهتمّوا بمعاييرِ اختطّوها لأنفسِهِم وللسالّكينِ دربَ دراسةِ الشعْرِ والشُعراءِ، فكانوا صيارفةً نقدِهِ، المُتصدِّينَ لتبيينِ صِرْفِهِ من بهرجه، ولم تزل تتعاقبُ أجيالُ المهتمّينَ بالشعْرِ جيلاً بعدَ جيلٍ على مدى ثلاثة عشر قرناً؛ ولا غرو أن تهتمَّ أُمَّةٌ بترائها الأدبيّ إذ لم يقم تاريخُ الحضارةِ لأيٍّ من الأممِ الرّاقيةِ إلا

<sup>4</sup> يُنظر: عمر فُروخ، تاريخ الأدب العربيّ (بيروت: دار العلم للملايين، 1981م)، 35/1، 42.

<sup>5</sup> يُنظر: الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في تحاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، (بيروت: دار الجليل، 1401هـ/1981م)، 28/1، 29.

<sup>6</sup> كحماسة البحتريّ وابن الشّجريّ وأبي العباس الجراوي.

على أربع أعمدة هي: الأدب والسياسة والدين والعلم، وما قيام تاريخ العرب إلا على دعامة أدبية محضّة ثم جاء الدين فاستتبع السياسة والعلم،<sup>7</sup> ولعلّ روح الدعامة الأدبية المُشار إليها هو الشعر العربي، إذ قد يُكوّن صورةً واضحةً يُورّخ خلالها دقائق العصر الذي ينتمي إليه، فلا يُعبّر عن جانب جماليّ لغويّ وآخَر وجداليّ فحسب، وإتّما يُعبّر أيضاً عن تدفّق أمواه الأفكار التي ترسّخت في أذهان النَّاس، ويُقدّم لقارئه نافذةً يُطلُّ منها على الظواهر الاجتماعية التي سادت في الزّمان الذي قيلت فيه تلك الأشعار.

وبالوصول إلى القرن التاسع عشر الميلاديّ يُلمّخ أنّه قد تميّز ببدايةٍ مخاضٍ لموجةٍ اهتمامٍ جديدةٍ جادّةٍ في تأصيلِ التّاريخ للأدب العربيّة، مُردّفةً بجهود استشرافيةٍ قامت بنبش التّراث الأدبيّ الشعريّ والنثريّ للعربيّة بشكلٍ خاصٍ وللعلوم والفنون الإسلاميّة بشكلٍ عامٍ؛ لذا فإنّ تيّاراً من شعراء هذا العصر قد كانت لهم جولاتٌ ومحاولاتٌ -بعضُ النّظر عن إخفاقها أو نجاحها- لإحداث ثورةٍ في الشعر العربيّ لإنعاشه والعودة به إلى أوج تألّفه في عصورٍ سابقةٍ ازدهر فيها على ألسنةٍ فحول الشعراء، فتدقّق بغزارةٍ نتاجهم الشعريّ في سبيل ذلك،<sup>8</sup> وما إن أطلّ القرن العشرين حتى وُلدت تيّاراتٌ أخرى في طوائف الشعراء تسرّبت من خلال أربابها إلى الشعر العربيّ مذاهبٌ أدبيّةٌ جديدةٌ تَبلّورت من انعكاس التأثير الأوروبيّ في الفكر العربيّ في الشّرق الأوسط؛<sup>9</sup> وقد أدرك الشّاعر المقصود بالدراسة -أبو الهدى الصّيّادي- أواسط القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولعلّ الفترة التي عاشها والتّراث الشعريّ الذي أنتجّه كانا كفيّلين بإمكانيةٍ إطلاق الحكم بأنّ أدبه كان مصبوغاً بصبغة

<sup>7</sup> يُنظر: مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العرب، تحقيق: عبد الله المنشاوي وآخرين، (مصر: مكتبة الإيمان، د.ت)، 16/1.

<sup>8</sup> ومن هؤلاء محمود سامي الباروديّ الذي يُمكن أن تُقارَن غزارة شعره بغزارة شعر أبي الهدى.

<sup>9</sup> كالكلاسيكية والرّومانسيّة والواقعيّة وغيرها، يُنظر: عبّاس محمود العقّاد، دراسات في المذاهب الأدبيّة والاجتماعيّة (القاهرة: نهضة مصر، 2006م)،

12، 36؛ سلمى الجيوسي، الاتّجاهات والحركات في الشعر الحديث، مُترجم: عبد الواحد لؤلؤة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2007م)،

47؛ محمّد مندور، في الأدب والنّقد (القاهرة: نهضة مصر، 1988م)، 96.

المدرسة التقلديّة التي شقّت لمنتسبيها درب السّير على حُطَى الأوائل من فحول الشعراء؛ ولمعرفة موقع شعره في تراث هذين القرنين يسعى هذا البحث إلى الإلمام بصورةٍ صحيحةٍ لشخصيّة الشّاعر أبي الهُدَى قبل التّعَمُّق في شعره، ولهذا فإنّ ما سيتلو هذا المدخل من الصّفحاتِ يطمحُ إلى التّعريف بالشّاعر وما تركه من آثارٍ علميّةٍ وأدبيّةٍ، قبل أن ينطلقَ في ميادين تراثه الشّعريِّ وما قام عليه بُنيانه من الأغراض والمجاور.

# الفصل الأول

(أبو الهدى الصياديّ:

حياته وآثاره العلميّة ودواوينه)

## تمهيد: الجو العام في عصره

إنَّ دراسة آثارِ شخصيَّةٍ ما والخوض في غمار نشاطاتها لها أشدُّ الارتباط وأوثقُهُ بالزَّمان الذي عاشت فيه، بل وتلك البيئة التي وُلِدَت من رَجْمها ونشأت وتَرَعَرَعَت في وسطِ أجوائها؛ إذ إنَّ الباحثَ يتحتَّم عليه بدايةً تسليطُ الضَّوءِ على تلك البيئة والفترة الزَّمنيَّة التي لا بُدَّ أنَّها تركت بصمتها الواضحة على أبناء ذلك الجيل عمومًا، وتلك الشَّخصيَّة المدروسة خصوصًا، والمعنيُّ بالبيئة ذلك الجوّ العامُّ الذي أحاط بها؛ فما الآثار التي كُتِبَت إلا فرغ عن التَّصوُّرات والانطباعات التي سادت في ذاك الزَّمان.

وبالعودة إلى المصادر التَّاريخيَّة يُلمَحُ أنَّه بحلول مطلع القرن العاشر الهجريّ دخلت بلاد الشَّام طوعًا تحت حُكم العثمانيِّين، فبالتحديد قبل معركة مرج دابق (922هـ/1517م)، كانت بلاد الشَّام قد سئمت المماليك وظلمهم، حالها كحال مصر<sup>10</sup>، وتَشَوَّفت نفوسُ أهلها إلى رايةٍ عادلةٍ تحفُّق فوق بلادهم، وقد عمدَ أهالي حلب قُبيل تلك المعركة إلى تلقين أولادهم هُتافَ "ينصرَكَ اللهُ العظيم يا سلطان سليم" على الرِّغم من أنَّهم لمَّا يكونوا قد خرجوا من سلطَة المماليك بعد؛ وقام أهل حلب بمراسلة السُّلطان سليم الأوَّل (ت. 926هـ/1520م) وبعثوا إليه بعريضة<sup>11</sup> كتبها القضاة والأعيان باسم الشَّعب الحلبيِّ بَيَّنوا فيها أنَّهم ضاقوا دَرعًا بالمماليك المخالفين للشَّرع الحنيف والعدالة -على حدِّ قولهم-، وقد كان لحلب وبلاد الشَّام عمومًا ما أرادت، حيثُ بُسِطَ نُفوذ السُّلطنة العثمانيَّة عليها بدون قتالٍ بل بإرادة الشَّعب وطلبه،<sup>12</sup> واستمرَّ العثمانيُّون في حكمها منذ ذلك الحين وصولًا إلى

<sup>10</sup> يُنظَر: محمَّد حرب، العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة (القاهرة: المركز المصريّ للدراسات العثمانيَّة وبحوث العالم التُّركي، 1994م)، 139.

<sup>11</sup> وهي لا تزال محفوظةً في الأرشيف العثمانيِّ بمتحف طوب كابي في إسطنبول برقم 11634 (26)؛ يُنظَر: حرب، العثمانيُّون في التَّاريخ، 140.

<sup>12</sup> يُنظَر: زكريا سليمان يُيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين (جدة: عالم المعرفة، 1991م)، 69.

الأيام التي عاش فيها الشاعر، التي عاصرَ فيها ثلاثةً من السلاطين العثمانيين هم: عبد العزيز الأول (ت. 1293هـ/1876م) ومراد الخامس (ت. 1322هـ/1904م) وعبد الحميد الثاني.

وإنَّ الاستقراءَ للتَّاريخ يُظهِرُ أنَّ بلادَ الشَّامِ -التي يُنسَبُ إليها الشَّاعر- لم تكن يوماً موحَّدةً إدارياً عبر كلِّ مراحلِ التَّاريخِ العثمانيِّ، وأما كانت مُقسَّمةً إلى عدَّة ولايات هُنَّ: (حلب، دمشق، طرابلس، صيدا)، إلا أنَّه في زمان الشَّاعر سنة 1281هـ/1864م أصدرَ السُّلطان عبد العزيز الأول ما يُعرَفُ بـ: "قانون الولايات" وبموجبه انقسمت بلاد الشَّام بين ولايتين كبيرتين إحداهما ولاية حلب وامتدَّت شمالاً لتشملَ من أراضي الأناضول (ديار بكر وغازي عنتاب)، والثَّانية ولاية دمشق وهي تُشرفُ إدارياً على (صيدا وطرابلس) وينطوي تحتها ألوياً ثلاثةً (جبل لبنان، دير الزُّور، القدس)،<sup>13</sup> وفي عهد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عُرِفَت ولايةُ دمشق بولاية سوريا، وبقيت ولاية حلب على حالها، وظهرت ولايةٌ ثالثةٌ هي ولاية بيروت الشَّاملة للقسم السَّاحليِّ كَّله من بلاد الشَّام،<sup>14</sup> وقُدِّرَ للشَّاعر أن يعيشَ القسمَ الأوَّلَ من حياته على أرض ولاية حلب.

وقد كانت سياسة العثمانيين لولاية حلب تقوم على قدرٍ كبيرٍ من الاهتمام حتى إنَّه ليكادُ السُّلطان العثمانيُّ يُشرفُ عليها مباشرةً بنفسه، فهو الذي يستقبلُ عرائض الشكاوى من أهلها ويتولَّى النَّظرَ فيها بنفسه في بعض الأحيان، ويحرصُ كلَّ الحرصِ على تعيين أفضل وزرائه ولاةً على هذه الولاية ويقوم بالتَّدخُّل بتعيين الفُضاة عليها.<sup>15</sup>

<sup>13</sup> يُنظر: أحمد المُرسى الصَّفصافي، "الدَّولة العثمانيَّة والولايات العربيَّة"، المجلة التَّاريخيَّة المغربيَّة، 29، 30، (1983م)، 338، 339.

<sup>14</sup> يُنظر: يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني (بيروت: دار النَّهار، 1991م)، 50، 51، 52.

<sup>15</sup> يُنظر: محمَّد التَّونجي، "التَّفَاعُل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب"، مؤتمَر الحياة الاجتماعيَّة في الولايات العربيَّة في العهد العثمانيِّ، تحرير: عبد الجليل التَّميمي، (تونس: مركز الدِّراسات والبحوث العثمانيَّة والمورسكيَّة والتَّوثيق والمعلومات، 1988م)، 214.

وَيُكْمِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ شُعُوبَ الْوَلَايَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مِنْذِ مَنْتَصَفِ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ قَدْ نَالُوا - وَلَوْ بِشَكْلِ جَزِيٍّ - نَوْعًا مِنَ الْمَشَارَكَةِ فِي الْحُكْمِ، إِذْ كَانَ يُعَيَّنُ عَلَى وِلَايَاتِهِمْ وَالٍ هُوَ بِمَثَابَةِ رَئِيسٍ رَسْمِيٍّ أَوْحَدٍ لِإِدَارَةِ الْوَلَايَةِ، وَهَذَا الْوَالِي لَهُ - إِلَى جَانِبِ سُلْطَتِهِ - أَنْ يَرَأْسَ مَجْلِسًا لِإِدَارَةِ الْوَلَايَةِ، وَيَنْضَمَّ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ الْقَاضِي الشَّرْعِيُّ وَ"الدَّفْتَرْدَار" <sup>16</sup> وَالْمَفْتِي، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْأَعْضَاءُ الْأَصْلِيُّونَ، وَيُضَافُ إِلَيْهِمُ الْوُجُهَاءُ الَّذِينَ يَقُومُ الشَّعْبُ بِانْتِخَابِهِمْ لِمُدَّةِ سَنَتَيْنِ؛ وَأَمَّا الْأَلْوِيَّةُ التَّابِعَةُ لِلْوَلَايَةِ فَقَدْ كَانَ يَرَأْسُ كُلِّ لَوَاءٍ شَخْصٌ يُعَيَّنُهُ الْوَالِي بِإِرَادَةٍ سُلْطَانِيَّةٍ يَسْمَى "الْمُتَصَرِّف"، وَأَمَّا مَا يَتَّبَعُ لِهَذِهِ الْأَلْوِيَّةِ فَيُسَمَّى "قَضَاءً" وَيُعَيَّنُ عَلَيْهِ شَخْصٌ يَسْمَى "القَائِمَقَام" <sup>17</sup>.

وَإِذَا مَا كَانَ الْكَلَامُ عَنِ الْجَوِّ الْعَامِّ فِي قَلْبِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي زَمَانِ الشَّاعِرِ فِي عَاصِمَتِهَا إِسْتَانْبُولِ - الَّتِي قَضَى أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ مِنْ حَيَاتِهِ عَلَى أَرْضِهَا -، فَإِنَّ الْمُطَّلِعَ عَلَى التَّارِيخِ الْعُثْمَانِيِّ يَجِدُ أَنَّ السَّلَاطِينَ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ الزَّمَانِيَّةِ - وَمَا سَبَقَهَا بِقَلِيلٍ - قَدْ سَارُوا خَطَوَاتٍ نَحْوَ الْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ وَالْإِدَارِيِّ وَحَاطَلُوا جَاهِدِينَ مَحَاوَلَاتٍ لِلنُّهُوضِ بِالدَّوْلَةِ عَلَى الْمَنْهَجِ الْغَرْبِيِّ الْأُورُوبِيِّ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ فَتَحَ الطَّرِيقَ لِذَلِكَ هُوَ السُّلْطَانُ سَلِيمُ الثَّلَاثِ (ت. 1222هـ/ 1808م) الَّذِي قَامَ مِنْهَجُهُ عَلَى الْإِسْتِلْهَامِ مِنْ "أُورُوبَا" بِقَصْدِ أَخْذِ تِكْنُولُوجِيَّاتِهَا الْعُلْيَا، وَكُلُّ الَّذِينَ جَاؤُوا بَعْدَهُ - مِنَ السَّلَاطِينَ - قَلَّدُوهُ <sup>18</sup>، وَحَرَكَةُ التَّجْدِيدِ اكْتَسَبَتْ أَهْمِيَّةً بَالِغَةً بَعْدَ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ (1214هـ/ 1799م)، حَيْثُ بَدَأَتْ الْقَوْمِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ الَّتِي تَخْضَعُ تَحْتَ رَايَةِ الْعُثْمَانِيِّينَ تَتَطَلَّعُ نَحْوَ اسْتِقْلَالِهَا <sup>19</sup> وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ دَوَافِعِ

<sup>16</sup> لَقِبَ عُثْمَانِيٌّ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَتَوَلَّى مَهْمَةَ الْإِشْرَافِ وَالنَّظَرِ فِي الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ، يُنْظَرُ: عَبْدِ الْعَزِيزِ مُحَمَّدٍ عَوْضٍ، الْإِدَارَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ فِي وِلَايَةِ سُورِيَّةِ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ الْمَعَارِفِ، 1969م)، 90.

<sup>17</sup> لَقِبَ عُثْمَانِيٌّ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَتَوَلَّى مَهْمَةَ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ الْمُلْكِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ وَالضَّابِطَةَ فِي الْقَضَاءِ، يُنْظَرُ: عَوْضٍ، الْإِدَارَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ، 98؛ الْحَكِيمُ، سُورِيَا وَالْعَهْدُ الْعُثْمَانِيَّ، 49.

<sup>18</sup> يِلْمَازْ أُوْرْتُونَا، تَارِيخُ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، مَتْرَجَمٌ: عَدْنَانُ مُحَمَّدٌ سَلْمَانٌ - مُحَمَّدُ الْأَنْصَارِيُّ، (إِسْتَانْبُولُ: مَنَشُورَاتُ فَيصَلِ لِلتَّمْوِيلِ، 1988م)، 646/1.

<sup>19</sup> يُنْظَرُ: أُوْرْتُونَا، الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ، مَتْرَجَمٌ: عَدْنَانُ مُحَمَّدٌ سَلْمَانٌ - مُحَمَّدُ الْأَنْصَارِيُّ، 655/1.

هذا التَّطَلُّعِ -سواءً أخرجِيَّةً كانت أم داخلِيَّةً- فإنَّ التَّجديد بدأ في عهد السُّلطان سليم الثَّالث واستمرَّ في عهد السُّلطان محمود الثَّاني (ت.1255هـ/1839م) وصولاً إلى ولده السُّلطان عبد العزيز الأوَّل السَّاري على نَهجِ والدِهِ، حيثُ قام بتنظيم الولايات العثمانيَّة وإنشاء محكمة قضايِيَّة عُليَّا، وفي عهده تمَّ إنشاء مجلس سُورى للدَّولة، وكذلك تمَّ إنشاء مدرسة "عَلَطَه سَراي" التي كانت لُغة التَّدريس والدِّراسة فيها اللُّغة الفرنسيَّة، وكانت تضمُّ طلابًا عثمانيِّين أغلبهم أتراك وفيهم من الأرمن واليونانيِّين والعرب، وأغلب طلابها من المسلمين لكنَّها ضمَّت طلابًا من الدِّيانات الأخرى -اليهوديَّة والنَّصرانيَّة-، وكلَّ ذلك مُراعاةً للإصلاح والتَّوفيق بين فئات المجتمع العثمانيِّ، وهؤلاء الشَّباب يُوكَلُ إليهم القيامُ بعبءِ الوظائف المُهمَّة في الدَّولة؛<sup>20</sup> لكنَّ أيَّام السُّلطان عبد العزيز الأوَّل انتهت بعزله واغتياله من قِبَل الدَّائرة الرِّسميَّة المُحيطة بِهِ،<sup>21</sup> ليخلفه أخوه السُّلطان مراد الخامس الذي لم يستمر في الحكم سوى ثلاثة وتسعين يومًا ليُعزَل بعدها من السُّلطنة،<sup>22</sup> ثمَّ يتسلَّم زِمَامَ الحكم مكانه أخوه السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ذلك الشَّاب الذي زار أوروبا سابقًا، وأدرك بعمق فهمه سياساتها تجاه الدَّولة العثمانيَّة،<sup>23</sup> ولعلَّه أدرك بحدسه النَّاقب حقيقة الموقف السياسيِّ الأوروبيِّ من كلِّ الإصلاحات العثمانيَّة الذي يظهرُ جليًّا بقول وزير الخارجيَّة البريطانيِّ اللورد كلارندون (ت.1287هـ/1870م): "إنَّ الطَّريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيِّين هي بإزالتهم من سطح الكرة الأرضيَّة كليًّا"؛<sup>24</sup> لذا فإنَّ مَنْ يمرُّ بمدكراتِ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني يجد أنَّه ينتقد بِشِدَّةٍ كلَّ مَنْ انبهر بالمظاهر الغربيَّة

<sup>20</sup> يُنظر: إسماعيل أحمد ياغي، الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلاميِّ الحديث (الرِّياض: مكتبة العبيكان، 1996م)، 158، 159.

<sup>21</sup> يُنظر: إبراهيم حسنين، سلاطين الدَّولة العثمانيَّة (الإسكندريَّة: دار التَّعليم الجامعي، 2014م)، 466، 467.

<sup>22</sup> يُنظر: حسنين، سلاطين العثمانيَّة، 469.

<sup>23</sup> يُنظر: حسنين، سلاطين العثمانيَّة، 472.

<sup>24</sup> ياغي، الدَّولة العثمانيَّة، 159.

الأوروبّيّة، في حين أنّ الذي يُعوّل عليه - برأيه - هو التّركيزُ على التّطوُّر والتّقدّم الذي وصلوا إليه؛<sup>25</sup> ووفقَ هذه الرّؤية سار السُّلطان عبد الحميد الثّاني في سياسته بإصلاح الدّولة والنّهوض بمؤسّساتها بل وإنشاء الجديد منها حيثُ سعى إلى بناء مدرسةٍ علميّةٍ إلى جانب كلّ مسجدٍ يُبنى في الولايات العثمانيّة، وأنشأ الجامعات ودار المُعلِّمات والمدارس العلميّة والعسكريّة والمؤسّسات الطّبيّة والثّقافيّة، وأرسلَ البعثات العلميّة إلى أوروبا على أملٍ أن ترجع هذه البعثات لتنهض بالدّولة العثمانيّة.<sup>26</sup>

وعلى الرّغم من وجود هذه الحركة الإصلاحيّة فمن المُمكن أن يُقال: إنّ الجوّ العامّ في ذلك العهد وما سبقه بسنواتٍ كان مُضطرباً جدّاً، سلطانٌ يُقتل وسُلطانٌ يُعزل، واضطراباتٌ تعمُّ عدّة ولاياتٍ بتمرّدٍ داخليٍّ وتدخّلٍ خارجيّ، كالحركة الوهابيّة وثورة البلقان وتمرّد الأرمين،<sup>27</sup> وتكُلف الدّولة بعبء القيام بقمع هذه التّمردات، وخوض الدّولة العثمانيّة -مُجبرّةً- الحرب ضدّ روسيا (1294هـ/1877م) التي انتهت بخسارة الدّولة العثمانيّة رغمّ بسالة جنودها وشجاعتهم، وسقوط عددٍ من المدن الهامّة بيد الرُّوس حتى قرعت جيوشهم أبواب العاصمة إسطنبول.<sup>28</sup>

كلُّ هذه الاضطرابات السّياسيّة، دفعت السُّلطان عبد الحميد الثّاني إلى اتّباع سياسةٍ خاصّة، حيثُ قام بإبطال المجلس النّيابيّ العثمانيّ المُسمّى "مجلس المبعوثان" (1295هـ/1878م)، رغمّ كونه هو من أنشأ هذا المجلس، لأنّه رأى فيه سبباً للانجرار وراء تهور أعضاءه الذين ورطوا الدّولة في الحرب الرُّوسيّة، وعلى الرّغم من إبطاله للمجلس النّيابيّ فإنّ هذا الإبطال لم يمنعه من الإبقاء على الدّستور

<sup>25</sup> يُنظر: محمّد حرب، مذكّرات السُّلطان عبد الحميد الثّاني، (دمشق: دار القلم، 1991م)، 164.

<sup>26</sup> يُنظر: حرب، مذكّرات عبد الحميد، 164، 165، 166.

<sup>27</sup> سيف الله آراباجي، السُّلطان عبد الحميد الثّاني مشاريعه الإصلاحيّة وإنجازاته الحضاريّة، مترجم: عبير سليمان، (القاهرة: دار النيل، 2011م)،

79.

<sup>28</sup> من هذه المدن الهامّة: أدرنه، قارص، أردخان، بلوثة؛ يُنظر: آراباجي، السُّلطان عبد الحميد، مترجم: عبير سليمان، 81، 82.

-القانون الأساسي- الذي أنشأته حكومته نزولاً عند رغبة الدول الأوروبية بعد مؤتمر الترسنة (1293هـ/1876م)،<sup>29</sup> ولا يُجانب الصواب إذا ما قيل: إنَّ السلطان عبد الحميد الثاني قد أمسك بمقاليد السلطنة وحده، وحاول أن يلتمَّ شعث الشعوب العثمانية تحت معنى مؤجِّدٍ لهم ورابطٍ يجمعهم تحت مُسمَّى الجامعة الإسلامية، وصمدَ لإنقاذ الدولة العثمانية خلال مدَّة حكمه الفرديّ التي زادت على ثلاثين عامًا،<sup>30</sup> والمعنى المُراد هنا من الحكم الفرديّ هو ما قام به السلطان من اتِّباع سياسة الرِّبط لكلِّ أمور الدولة الإداريّة والعسكريّة والماليّة بل كلّ سلطة الباب العالي بالقصر الذي يقطن فيه والاطِّلاع بنفسه على كلّ هذه الأمور من قُرْب، وقد كان الشاعِر خلال تلك المُدَّة التي ربّت على ربع قرنٍ من الزَّمان من ألصق الشَّخصيّات بالسلطان عبد الحميد الثاني وأشدّها تأثيراً.<sup>31</sup>

---

<sup>29</sup> يُنظر: أحمد آق كوندوز وآخرون، الدولة العثمانية المجهولة (إستانبول: مطبعة ماس، 2008م)، 428.

<sup>30</sup> يُنظر: محمّد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار (دمشق: دار القلم، 1990م)، 54، 55.

<sup>31</sup> يُنظر: أرباجي، السلطان عبد الحميد، مترجم: عبير سليمان، 76، 78؛ حرب، مذكرات عبد الحميد، 148؛ قسطاكي الحمصي، أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر (حلب: المطبعة المارونيّة، 1925م)، 105.

## المبحث الأول: حياته

من رحم تلك الأوقات العصبية أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وما تمخّض عنها من تعيُّراتٍ في بداية القرن العشرين قُدِّرَ لأبي الهُدَى أن يولّد، ويعيشَ حياته في قلب تلك الأحداث، فلم يكن بعيداً عنها بل ربّما كان في بعض الأحيان في خِضَمِّ معامعها، وإنّه لَمِنَ حُسْنِ الطَّالِعِ أن يُوجَدَ بين أيدي الباحثين سطورٌ ليست بالكثيرة، منها ما كان قد كتبه الشّاعر بقلمه مُتحدِّثاً عن شيءٍ من سيرته، ومنها ما كتبه بعضُ أهلِ عصره المُتخصِّصين بالتَّاريخ لتلك الأحداث وأعلامها، حيث تكلّموا فيها عن بعض الجوانب المتعلّقة بنسبه ونشأته ونبذةٍ من حياته الأولى وشيءٍ من أخبار القسم الثّاني من حياته واتّصاله بالدولة العثمانيّة وأربابها الكبار، إلى أن وصلَ موصلاً لم يصل إليه أحدٌ من العرب بل وحتى التُّرك في ذلك الوقت، يظهر هذا جليّاً في كلام قسطاكي الحمصيّ (ت.1360هـ/1941م) حيثُ قال إنّه -يعني أبا الهُدَى-: "ظَلَّ في صحابةِ عبد الحميد باقعة<sup>32</sup> السّلاطين من آل عثمان زهاءَ ثلاثين سنةً في صُعودٍ متوالٍ ورفعةٍ مكانٍ، ولم ينلَ أحدٌ من الأُمَّة العربيّة لا بل التُّركيّة ما ناله عنده من المنزلة الرّفيعة والحظوة السّنيّة"<sup>33</sup> ورصدَ آخر مثل هذا الحال فلمّا بسطَ الكلام على الشّخصيّات العربيّة الأربعة التي ارتقى اتّصالها ببلاط السّلطنة العثمانيّة أيّام السّلطان عبد الحميد الثّاني عدَّ أبا الهُدَى في صدرهم وقال: "إنّه ما وضعَ عربيٌّ -مهتماً كان حسبه

<sup>32</sup> الدّاهية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م)، "بقع"، 1187/3.

<sup>33</sup> قسطاكي، أدباء حلب، 105.

ونسبه - جبهته منذ تأسست السلطنة العثمانية حيث تطأ الآن أقدامهم وما مدَّ عربيُّ بصره حيث  
يُمدون".<sup>34</sup>

غير أنَّ التعريفَ بحياة أبي الهدى ونشأته مهمةٌ لا يخلو طريقها من الوعورة والعنت، فهي  
ليست من السهولة بمكان، إذ إنَّ من يريد الخوض في غمار هذه الشخصية سيصطدم بمقولات كثيرة  
متضاربة، رُفِعَ بها الرجلُ على لسان من أحبه إلى أعلى مكان، وحُفِضَ بلسان خصومه إلى أسفل  
مكان، وقد حرص الباحث على أن ينأى بقلمه عن الانخراط فيما تضادَّت فيه مقولات الفريقين  
واكتفى بما ترجَّح عنده وراه أقرب للصواب، لأنَّ الهدف من هذا التعريف أن يكون مُمهِّدًا للدخول  
إلى آثاره ومؤلفاته، العلمية منها بشكلٍ مختصرٍ والأدبية منها على وجه الخصوص.

## 1 المرحلة الأولى

كانت ولادة الشاعر في قرية "خان شيخون"<sup>35</sup> من أعمال قضاء "معرّة النعمان"<sup>36</sup> -المُلحقة  
فيما بعد بولاية حلب-،<sup>37</sup> لثلاث ليالٍ حَلَّت من رمضان سنة 1266هـ أي في النصف الثاني من  
القرن الثالث عشر الهجري وهو ما يوافق سنة 1849م،<sup>38</sup> لأبوين كريمين من سُكَّان تلك البليدة،

<sup>34</sup> يُنظر: إبراهيم بن عبد الخالق المويلحي، ما هنالك من أسرار البلاط العثماني، تحقيق: أحمد حسين الطماوي، (القاهرة: المركز العربي للإعلام والنشر،  
د.ت)، 252.

<sup>35</sup> أعظم قرى قضاء معرّة النعمان وأشهرها واسمها القديم "خالس" والجهة الموجودة فيها تُشير إلى أنها كانت قديمًا من أجَلِ البلدان عمرا، يُنظر:  
كامل بن حسين العزبي، نهر الذهب في تاريخ حلب (دمشق: دار القلم، 1419هـ/1999م)، 326/1.

<sup>36</sup> مدينة بين حلب وحماة وصفها ياقوت بأنها مدينة قديمة مشهورة وكبيرة مليئة بأشجار الزيتون والتين، يُنظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم  
البلدان (بيروت: دار صادر، 1995م)، 156/5.

<sup>37</sup> يُنظر: حسن حسني الطويراني، القول الفصل (مصر: المطبعة العمومية، 1313هـ/1895م)، 42.

<sup>38</sup> يُنظر: عبد الرزاق بن حسن البيطار الميداني، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق: محمد بهجة البيطار، (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة  
العربية بدمشق، 1993م)، 76.

فأسمياهُ مُحَمَّدًا وَكُنِيَاهُ بِأبي الهُدَى، وقد صارت كُنْيَتُهُ هذه عَلَمًا عليه، وأُمُّه هي صالحَة بنت حسين الدُرَيْي بن إبراهيم آغا أحد سُكَّان قرية حاجي باشا قرب أنطاكيا،<sup>39</sup> وأبوه هو حسن وادي (ت.1312هـ/1894م) بن علي بن خزام بن علي آل خُزام بن حسين برهان اللّدين (ت.1146هـ/1733م) الذي هو أحد أحفاد أحمد الصيّاد (ت.670هـ/1271م) بن مُمَهَّد الدَّولة عبد الرّحيم بن سيف اللّدين عثمان ويُرفَع نسبُه إلى الحَسَن رِفَاعَةَ المَكِّي بن المهدي بن أبي القاسم الذي هاجر من مكَّة مُرْتَحِلًا إلى المغرب (317هـ/929م) فارًّا من بطش القرامطة وفتنتهم العظيمة في مكَّة، وينتهي نسب رِفَاعَةَ هذا إلى الحُسَيْن بن علي (ت.61هـ/680م) رضي الله عنه وهو ابن بنت رسول الله فاطمة الزَّهراء (ت.11هـ/632م) رضوان الله عليها.<sup>40</sup>

ومَّا سَبَقَ يُخَلِّصُ إلى أَنَّ الشاعَرَ يُنسَبُ إلى رِفَاعَةَ ولهذا يُنَعَتُ بـ: "الرِّفَاعِيّ"، ويُنسَبُ إلى جدِّه المُسمَّى أحمد الصيّاد فيُنَعَتُ بـ: "الصيّاديّ"؛ وقد أثبت للشاعر ولعائلته النسبة "الحسينية" إلى آل البيت النَّبَوِيّ جملةً من نُقباء الأشراف من زمان جدِّه أحمد الصيّاد وصولًا إلى زمانه الذي عاش فيه أيَّام السُّلطان عبد الحميد الثَّاني الذي وُصِّى له شجرة نسبه مُصَادِقًا عليها بالطُّغراء السُّلطانيّ العُثمانيّ، وكثيرًا ما كان يعتزُّ بهذه النِّسبة ويسوق عددًا من شهادات هؤلاء النُّقباء في مصر والشَّام والعراق والحجاز،<sup>41</sup> كما أثبت هذه النِّسبة الحُسينية أهلُ عصره من المؤرِّخين كأحمد عزَّت باشا العمريّ<sup>42</sup> (ت.1310هـ/1892م) وحسن حسني باشا (ت.1315هـ/1897م) الذي ألَّفَ كتابًا كاملاً

<sup>39</sup> يُنظر: محمد أبو الهدي الصيّادي، الفرقان الدامغ بالحق أباطيل أهل البهتان (مصر: مطبعة الهلال، 1324هـ/1906م)، 88.

<sup>40</sup> يُنظر: عزّ اللّدين أحمد الواسطيّ الفاروثي، التَّفحة المسكية في السُّلالة الرِّفَاعِيَّة الرُّكْبِيَّة (إستانبول: مطبعة محمد أسعد نومرو، 1301هـ/1883م)، 5؛ الصيّادي، الفرقان، 25؛ حسن حسني، القول الفُصل، 32-33.

<sup>41</sup> يُنظر: الصيّادي، الفرقان، 50، 51، 52، 53، 54.

<sup>42</sup> يُنظر: أحمد عزَّت باشا الموصليّ العمريّ، العقود الجوهريّة في مدائح الحضرة الرِّفَاعِيَّة (مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م)، 3، 11.

في إثبات نسبه وفضله،<sup>43</sup> وعبد الرزاق البيطار وهو من قال في حقه: "الحسيب الذي علا حسبه دُرُوة العُلاء، والنسيب الذي اشتهر نَسبه بين المَلا"، إلى أن قال عنه إنَّه "هُمامُ بنُ هُمامٍ وهلمَّ جرًّا لا تَقِفُ عند حدِّ حتى تَصِلَ إلى أشرفِ جدِّ، فليس في نَسبه إلا ذو فضلٍ وحِلْمٍ حتى تَقِفَ على باب مدينةِ العِلْمِ"،<sup>44</sup> وأثبتت نسبته هذه الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني عبد القادر بن نقيب الأشراف في حلب تقيّ الدّين آل القدسي (ت.1309هـ/1892م) الذي كان يرى نسبه الحسينية من أصحّ النَّسب المشهورة إذ أفترتها نقابات الأشراف في جميع الجهات.<sup>45</sup>

وقد نشأ أبو الهدى -حسب ما يذكر عن نفسه- في كنف والده نشأة اجتماعية محترمة، حيث حاز والده على قدرٍ من الاحترام بين القبائل العربية في تلك البلدة "خان شيخون"، إذ كان من المشايخ القائمين بمنهج التصوف من خلال ما يُعرف حينئذ بالزّاوية التي كان من الشائع آنذاك أن يردها الضيوف ويأوي إليها المسافرون والغرباء من كلِّ مكانٍ، ويقوم والده بخدمتهم وإكرامهم وذلك سيرًا على حُطى أسلافه من الأشراف آل الصيّاد، وقد كان لأبي الهدى أيضًا نصيبٌ من الاحترام في البيئة الاجتماعية في خان شيخون لا سيّما إذا عُرف أنّ أوّل وظيفةٍ رسميةٍ قد وُجّهت إليه بقرارٍ من محكمة ولاية سوريا كانت التّولية على بلدة "خان شيخون" سنة (1285هـ/1868م) وهو لم يزل بعدُ في التاسعة عشرة من عمره؛ ويبدو أنّ مكانته الاجتماعية المحترمة لم تكن بالمقصورة على بُليدته فحسب، بل كان مُحترّمًا في ما تعدّى حدودها من البلدان، وإذا ما التمس تحقيقُ هذا الكلام، فمن المُمكن أن يكون الدليل عليه ما وُجدَ مُثبّتًا في ديوان شاعر العراق في ذلك الوقت عبد الغفّار بن عبد الواحد الأخرس (ت.1290هـ/1873م) -وهو تلميذ مفتي العراق أبي التّناء

<sup>43</sup> يُنظر: حسن حسني، القول الفصل، 21.

<sup>44</sup> يُنظر: البيطار، حلية البشر، 74.

<sup>45</sup> يُنظر: عبد القادر بن تقيّ الدّين القدسي الحلبي، الكوكب المنير في ترجمة الأستاذ أبي الهدى الشّهير (د.ت.ن)، 6.

الألوسي (ت. 1270هـ/1854م) -، فإنه قد امتدح أبا الهدى بقصيدةٍ واصفًا إيَّاهُ فيها بأبي العلوم والكرم والهداية والمكانة العالية، ومدحَ مزاياه التي تحلَّى بها من جمالِ الشَّيمِ ووُفُورِ الدِّينِ والشَّرَفِ الباذِخِ في الحِلِّ والتَّرحالِ، ثمَّ أعقبها بأنَّه فخورٌ به، فصيحٌ شعْرُهُ بمدحِهِ ومدحِ أسْرَتِهِ أحرَسٌ عن مدحِ مَنْ سِوَاهُمْ، حيثِ تَضَمَّنَتْ قصيدته -التي نَظَمَهَا في استقبالِه لَمَّا قَدِمَ بغداد- قوله في تضاعيفها:

كأبي القدرِ المُعلَّى والهدى والنَّدى والعِلْمِ مرفوعِ الدُّرَا  
يا كريمِ الطَّبَعِ يا كنزِ التُّقَى يا شريفَ القدرِ أنِّي حَضْرَا  
واقبلِ العبدَ مُحِبًّا خَالِصَ الـ قَلْبِ لا زَالَ بِكُمْ مُفْتَخِرَا  
فهو عن مدحِ سِوَاكُمْ أحرَسٌ وبكُمْ أَفصحُ حِرْبِ الشُّعْرَا<sup>46</sup>

وقد أُرِخَتْ هذه القصيدة في ديوان الأحرَس سنة (1283هـ/1866م) ويظهر من خلالها أنَّ أبا الهدى قد قصدَ بغداد في تلك السَّنَةِ وهو في ربيعِهِ السَّابِعِ عَشَرَ لزيارةِ أستاذهِ محمدِ مهدي بهاء الدِّين بن عليِّ الرُّدَيْنِيِّ -الشَّهيرِ بالرَّوَّاس- (ت. 1287هـ/1870م)؛ وفي هذه القصيدة شاهدٌ على شيءٍ من مكانته ومكانة أسْرَتِهِ في المُجْتَمَعِ الحلبِيِّ والعراقيِّ البغدادِيِّ آنذاك.

وما زالت مكانته تعلو بعد ذلك، فلم يقف ارتقاؤه في المراتب عند تولِّي خان شيخون فحَسَب، بل بعد تولِّيه لهذا المنصب بسنتين وبالتَّحديد سنة (1287هـ/1870م) تقلَّد منصب نقيب الأشراف في قضاء جسر الشُّغور التَّابع لولاية حلب ثمَّ تولَّى منصبَ القضاء فيها سنة (1289هـ/1872م)، ثمَّ تقلَّد منصب نقيب الأشراف في عموم ولاية حلب سنة (1291هـ/1874م) بمقتضى قرارٍ من نقيب الأشراف في عموم الدَّولة العثمانيَّة، ثمَّ أوكلَ إليه بقرارٍ رسميٍّ النَّظْرُ في نقباء

<sup>46</sup> عبد الغفَّار بن عبد الواحد الأحرَس، الطَّرَاز الأَنْفَس في شعر الأحرَس (د.ت.ن)، 170، 171.

أشراف ولايات سورية وبغداد والبصرة وديار بكر وذلك في أواخر سنة (1292هـ/1875م) وعمره لم يتجاوز حينذاك السادسة والعشرين.<sup>47</sup>

وممَّا سبق ذكره فإنَّه لِيُمْكِنُ القولُ: إنَّ نشأةَ أبي الهدى الاجتماعية كانت نشأةً ليست بالمهينة إطلاقاً؛ إذ إنَّه رجلٌ ينتمي إلى أسرة ذات قدرٍ في نفوس مجتمَعِ خان شيخون، فهي أسرة شريفة، كان لها من المُحبِّين مَنْ هم خارج أسوار تلك البُلَيْدَة، والنِّسْبَةُ الحسينيَّةُ أسبَعَت على أبي الهدى رونقاً جعله صاحبَ منصبٍ نقيب الأشراف، إضافةً إلى ما تمتَّعت به ذاته من كريم الأخلاقِ ووفورِ تمسُّكٍ بالدين، وإنَّ الإنصافَ ليستنطقُ المتأملُ سائلاً: أيعقلُ أن يكونَ مدحُ شاعر العراق الأخرس لأبي الهدى مُجرَّدَ كلامٍ مرصوفٍ؟ بل ما الذي كان ينتظرُه الأخرس من شابٍ حَدَثَ ليمدحه ويثني عليه؟ أم أنَّ لأبي الهدى شأنًا مرموقًا عاليًا سبقه إلى العراق فلمِحْ لمن يتأملُ تلك الأبيات؟

وقد كان من الطبيعيِّ أن يسيرَ أبو الهدى على نهج أسلافه ويتأثرَ بالجوِّ الصُّوفيِّ السائدِ في الدائرة القريبة التي عاش ضمنها، وهي بيتُ والدِه حسن وادي وزاويته التي كان أبو الهدى يقوم بخدمة ضيوفها -على اختلاف طبقاتهم- بنفسه؛ حيثُ يتحدَّثُ واصفًا نشأته هذه: "وقد شَبَّتُ في حجر الوالدين، مقبولَ الوجه والجاه، فإذا رأني الرائي الغريب في خان شيخون لم يكِدْ يتوسَّم أنِّي من أبناء ذلك الوطن، بل يحسبُ أنِّي مُسافرٌ من أعيان أبناء المُدُن الكبيرة العظيمة لحسنِ الثوب والحشمة وكثرة ما لي في قلوبِ أهلِ وطني من الرِّعاية والحُرمة".<sup>48</sup>

<sup>47</sup> يُنظر: حرب، السلطان عبد الحميد، 189؛ الصيادي، الفرقان، 10؛ الهلال، "السيد محمد أفندي أبو الهدى الصيادي"، (1/يونيو/1893م)، 369.

<sup>48</sup> يُنظر: الصيادي، الفرقان، 10.

وإذا ما نَحَى الكلام منحى الحديث عن النِّشأة العلميَّة له، فإنَّه لِيَتَبَادَرُ إلى الأذهان ما خطَّه قلمُ أبي الهدى مُترجِّمًا طَرَفًا من نشأته تلك حيثُ قال: إِنَّهُ لَمَّا بلغ عامه السَّادس ختم القرآن الكريم في ثلاثة أشهر، ثمَّ أتقن القراءات السَّبع وهو لم يتجاوز بعدُ ربيعَه السَّابع،<sup>49</sup> وقد ذكَّر أنَّه تَعَلَّمَ التَّجويد مُتَتَلِمًا في حلقة شيخ القُرَّاء في بلدته الذي ذكره باسمه "محمود بن الحاج طه المَعَرِّي" كما ذكَّر أنَّه تَعَلَّمَ على يديه الخطَّ العربيِّ، وقرأ عليه أيضًا في علم النَّحو متنَ الأجروميَّة وشرحها لخالد الأزهرِّي (ت. 905هـ/1499م)، وفي علم الفقه قرأ عليه "متن الغاية والتَّقريب" للقاضي أبي شجاع (ت. 500هـ/1106م) على المذهب الشَّافعيِّ، وذكَّر أنَّه تَتَلَمَّدَ على أستاذٍ آخر هو "حسن الفُتُوحيِّ الجنديِّ" فقرأ عليه الفقه الشَّافعيِّ، ثمَّ حفظ عددًا من المتون المتداولة في بلاده منها ألفيَّة ابن مالك الأندلسيِّ (ت. 672هـ/1274م) ومنها ألفيَّة "صفوة الزَّيد" لأحمد بن أرسلان الرَّملي (ت. 844هـ/1440م)،<sup>50</sup> ثمَّ توسَّع في قراءة كتب الفقه الحنفيِّ، أمَّا كتب علم الحديث النَّبويِّ فقد تعمَّق في مُطالعتها، وكان نصيبه من حفظ الحديث النَّبويِّ النَّصيب الوافر، يقول أبو الهدى مُؤكِّدًا ذلك: "وحفظتُ الألوفا الكثيرة من أحاديث صاحب الطَّلعة المُنيرة"، وقد ذكَّر أنَّه تنقَّلَ بين حماة وحلب ونواحي إدلب وجسر الشُّغور أثناء طلبه للعلم،<sup>51</sup> ويبدو أنَّ دراسته لم تكن لِتَقِفَ عند ذلك القدر من العلوم بل تابعَ هَمَله من العلوم الأخرى، فقرأ كتب علم الكلام والتَّوحيد والتَّفسير وبالغ - حسب قوله - في الحكمة النَّظريَّة والفلسفة الإسلاميَّة والتَّصوُّف والتَّاريخ وعلم الأنساب.

<sup>49</sup> يُنظَر: محمد أبو الهدى الصِّيَّادي، ضوء الشَّمس في قولِهِ بُني الإسلام على خمس، تحقيق: محمد سليم الحَمَّامي، (دمشق: المطبعة العلميَّة، 1394هـ/1974م)، 23/1.

<sup>50</sup> يُنظَر: الهلال، "السَّيِّد محمد أفندي أبو الهدى الصِّيَّادي"، 371.

<sup>51</sup> يُنظَر: الصِّيَّادي، الفرقان، 9.

وقد أخذ أبو الهدى على عاتقه أن يسرد أسانيدَه المُتَّصِلَةَ إلى أمهاتِ الكُتُبِ المُعْتَمَدَةِ في علوم التفسير والحديث والفقهِ حيثُ عقَدَ فصلاً خاصاً لهذا الأمر ذكر فيها إجازاته بأسانيدِها إلى مؤلِّفي كتب التفسير "كالبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت. 745هـ/1344م)، والدّر المنثور لجلال الدين السيوطي (ت. 911هـ/1505م)، ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (ت. 605هـ/1210م)"، وغيرهم من المفسرين، وكذلك ذكر إجازاته بكتب الحديث السنّة والمسانيد، وختّم بذكر إجازاته بكتب الفقه الحنفي والشافعي وكتب التصوف.<sup>52</sup>

وإلى جانبِ هذا كُلِّهِ فقد كان لأبي الهدى اليدُ الطُولَى بالاطِّلاعِ على علوم اللُّغة والمنطق والجدل والأدب وفنونه والبراعةِ فيها،<sup>53</sup> وقد ذُكِرَ في ترجمته أن محفوظاته الشعريّة كانت تربو على مئة ألف بيتٍ من الشعر؛<sup>54</sup> فلا ريب أن يقول خير الدين الزركلي (ت. 1396هـ/1976م) فيه: إنّه أشهر علماء الدّين في عصره، وإنّه من أذكى النَّاسِ، وله إلمامٌ بالعلوم الإسلاميّة، ومعرفةٌ بالأدب، وإنّه كان صاحبَ ظُرفٍ وتصوّفٍ،<sup>55</sup> ووافقَ الزركلي في كلامه المُحدِّث محمد عبد الحي الكتّابي (ت. 1382هـ/1962م) ونعتَهُ ب: "أشهر علماء العرب" في إستانبول ذلك العصر،<sup>56</sup> وتابعه في هذا أدهم آل جنديّ فقد اعترف لأبي الهدى بجدّة الدّكاء وفصاحة اللّسان وخارق الدّهاء وشموخ العبقرية، بل إنَّ الجنديّ لمّا أراد أن يثبتَ ترجمةَ أبي الهدى بين أعلام الأدب والفنّ ابتداءً ترجمته بالتعبير عن سروره بحُسنِ الحظِّ الذي حاله بأن يكتُبَ هذه الصّفحة المُشرقة من التّاريخ، ثمّ صدرَ كلامه بقوله:

<sup>52</sup> يُنظر: الصّبيّادي، الفرقان، 57.

<sup>53</sup> يُنظر: محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المديح النبويّ (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2003م)، 343؛ الصّبيّادي، الفرقان، 9.

<sup>54</sup> يُنظر: الهلال، "السّيّد محمد أفندي أبو الهدى الصّبيّادي"، 371؛ الصّبيّادي، ضوء الشّمس، 24/1.

<sup>55</sup> يُنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، 2002م)، 94/6؛ وصاحب ظُرفٍ بمعنى صاحب كياسة وفطنة، يُنظر: الجوهري، "ظرف"، 1398/4؛ ابن منظور، "ظرف"، 228/9.

<sup>56</sup> يُنظر، محمد عبد الحي الكتّابي، فهرس الفهارس، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982م)، 163/1.

"إذا سألتني أن أصِفَ لكَ عواملَ السِّحرِ في نفسِه الوثَّابَة وخلا بَة روحِه فقد كَلَّفَتني شَطَطًا، ذلك هو موضِعُ الإعجازِ في مواهبه التي سَمَت بِه إلى أوجِ العُلا"، ثمَّ تابعَ الجُنديّ كلامَه عنه قائلاً: "كان عِصامِيًّا حَلَقَ نفسَه بمواهبِ القُدَّة، وإيَّ أُحَيِّي فيه العبقرِيَّة المُتَوَثِّبَة للعُلا"،<sup>57</sup> وقد ذهبَ محمَّدُ توفيق البكريّ (ت.1351هـ/1932م) مذهبًا بعيدَ الشَّأو مُبرِّزًا إعجابه بأبي الهُدَى فشَبَّهَهُ بعلمِه وحكْمِه وذكائِه وأخلاقِه بأسماءَ لامِعَة من العصورِ السَّالِفَة،<sup>58</sup> أمَّا زكي محمَّد مجاهد (ت.1400هـ/1980م) فقد وصَفَه بأنَّه "البحرُ الزَّاحِرُ في اللُّغة العربيَّة"،<sup>59</sup> ورغمَ أنَّه أثبتَ إتقانه للُغتين التُّركِيَّة والفارسيَّة حتى صارَ شاعرًا في كليهما، مع إلمامِه بالفرنسيَّة، إلا أنَّ كلامَه يحتاجُ إلى شيءٍ من التَّوقُفِ، إذ لم يُثبت هذه المعلومة أحدٌ غيره، ولم يَقمَ عليها دليلٌ لا في كلامِ أبي الهُدَى عن نفسِه، ولا في ما وصلت إليه الأيدي من آثارِ أبي الهُدَى.

وإنَّ مَنْ يُلقي نظرةً على ما سَطَّرته أناملُ مَنْ تعرَّضَ لذكرِ طرفٍ من أخبارِ أبي الهُدَى على الرِّغمِ من اختلافِ آرائهم ونظراتهم فيه بين مادِحٍ وقادِحٍ ومنجِدٍ ومُغَوِّرٍ، ليكادُ يلمَحُ شبهَ إجماعٍ منهم على الإقرارِ والاعترافِ لهُ بالدِّكائِ الخارقِ والعبقرِيَّةِ القُدَّة، وسَعَةِ المَدَارِكِ، والفضلِ الجَمِّ.

## 2 المرحلة الثَّانية

إنَّ بدايةَ الطَّرِيقِ لمعرفةِ تفاصيلِ هذه المرحلةِ الثَّانية من حياةِ الشَّاعرِ تستوجِبُ البَحْثَ في العِلاقَة الوطيدَة التي وُثِّقت بين أبي الهُدَى والسُّلطان عبد الحميد الثَّاني؛ وهي عِلاقَة تعودُ بالنَّظرِ إلى

<sup>57</sup> يُنظر: أدهم آل جندي، أعلام الأدب والفن (دمشق: مطبعة مجلّة صوت سوريا، 1954م)، 310/1، 311.

<sup>58</sup> كالشَّعبيِّ والمُغيرة بن شُعْبَة والسُّموأل وغيرهم؛ يُنظر: محمَّد توفيق البكري، صهاريج اللؤلؤ، تحقيق: أحمد بن أمين الشنقيطي - أبو بكر محمَّد لطفي المصري، (مصر: مطبعة الهلال، 1906م)، 40، 41.

<sup>59</sup> يُنظر: زكي محمَّد مجاهد، الأعلامُ الشَّرقيَّة في المئة الرَّابعة الهجريَّة (مصر: مطبعة حجازي، 1955م)، 118/3.

أصل ارتباط أبي الهدى بالدولة العثمانية، فقد كان رجلاً معدوداً من رجالها قبل زمن السلطان عبد الحميد الثاني أصلاً، وقد تلقى عدّة ترقياتٍ رسميةٍ قبل أن يرتقي عبد الحميد الثاني العرش، ثم لم تزل الترقيات السلطانية العثمانية تنهال عليه بعد ارتقاء عبد الحميد وتوليّه السلطنة إلى آخر أيامه، "حيث كان قد حظي عند السلطان عبد الحميد بالقبول، حتى صار من كبار ثقافته، وقلده مشيخة المشايخ، وكانت له الكلمة العليا عند السلطان في نصب القضاة والمفتين وذلك زهاء ثلاثين سنة".<sup>60</sup>

وقد سبقت الإشارة في ترجمة أبي الهدى الرسمية التي نُشرت في مواضع عديدة من المؤلفات -بل حتى في بعض الجرائد الرسمية لَمَّا ذاع صيته- إلى أن أوّل وظيفةٍ رسميةٍ تقلدها كانت سنة (1285هـ/1868م) وهي تولّيه على بلدته خان شيخون، ويبدو أن هذه الوظيفة كانت "تُعطي لصاحب الثقة العمومية والمنزلة في القلوب"،<sup>61</sup> ثم ما لبث أن ترقى في منصب نقابة الأشراف، وإلى جانب هذا الترقى كان عضواً لمجلس المعارف ومجلس التدقيقات الإدارية في ولاية حلب سنة (1292هـ/1875م) بموجب أمر الوزير أسعد مخلص باشا (ك.ح. 1293هـ/1876م) والي ولاية حلب الذي رأى فيه من النباهة والدكاء ما ليس في غيره من الشباب.<sup>62</sup>

وفي هذه الفترة الممتدة منذ أن كان في التاسعة عشرة من عمره إلى الثامنة والعشرين، ظهرت بوضوح صلته بالدولة العثمانية، فهو رجلٌ من رجالها الذين لا يُجهلون؛ ويُضاف إلى ذلك كله أن السلطان عبد العزيز الأول كان قد منحه بموجب فرمانٍ عالٍ سنة (1289هـ/1872م) رتبة مولويةٍ إزمير وسنه لم يتجاوز إذ ذاك ثلاثاً وعشرين سنةً، كما منحه سنة (1292هـ/1875م) بمقتضى فرمانٍ عالٍ معاشاً خصوصياً مضافاً إلى معاشه الرسمي كنقيب النقباء الأشراف في ولاية حلب؛ وكذلك قام

<sup>60</sup> يُنظر: درنيقة، معجم الأعلام، 343.

<sup>61</sup> يُنظر: محمد أبو الهدى الصيادي، التاريخ الأوحّد (مصر: مطبعة المحروسة، د.ت)، 140.

<sup>62</sup> يُنظر: الصيادي، التاريخ الأوحّد، 140.

الصَّدر الأعظم بتعيينه رئيسًا للقومسيون -اللجنة- الخصوصيِّ المُشكَّل لفضِّ النزاعات وحلِّ المشاكل بين المُزارعين وحسم الخلافات بين الأعيان وأكابر التُّجَّار، وتجدُر الإشارة إلى أنَّ أبا الهدى في هذه الفترة كان قد زار إستانبول مرَّتين الأولى سنة (1287هـ/1870م) والثَّانية سنة (1291هـ/1874م).<sup>63</sup> وبحلول سنة (1294هـ/1876م) وُجِّهت إليه رتبة الحرمين الشَّريفيين بموجب فرمان من السُّلطان عبد الحميد الثَّاني الذي لم يكن قد مضت على تسنُّمه سُدة السُّلطنة سنة واحدة بعدُ،<sup>64</sup> وفي تلك السَّنة كان أبو الهدى قد حطَّ رحالَه في إستانبول في مُهمَّة متعلِّقة ببعض مصالح نقابة الأشراف التي كان معنيًا بها، وفي أثناء تلك الزَّيارة دُعِيَ لِمُقَابَلَةِ السُّلطان عبد الحميد، فمَثَلَ بين يديه للمرَّة الأولى، فكان أن أغدق السُّلطان عليه العطاء وقضى له حوائجَه، وطلَّب منه أن يحضِر لمقابَلته مرَّةً أو مرَّتين في الأسبوع طَوال فترة إقامته في إستانبول.

ويبدو أنَّ هذا الشَّاب ذا الثَّامنة والعشرين ربيعًا قد ملأ عينَ السُّلطان الشَّاب عبد الحميد إعجابًا واستطاع أن يشُدَّ اهتمامَه في تلك الإقامة اليسيرة التي قضاها في إستانبول، ويُمكن القول إنَّ هذا الإعجاب يُلَمَّحُ في موقف السُّلطان من أبي الهدى لَمَّا جاءه مُستأذِنًا في القُفُول والسَّفر إلى وطنه حيثُ منَعَه من السَّفر والرُّجوع إلى حلب، وأمرَ بتنصيبه "رئيسًا لمجلس المشايخ في دار الخلافة" بمقتضى تذكرةٍ رسميَّةٍ حرَّرها شيخُ الإسلام في ذلك الوقت قرَه حَليل أفندي (ت. 1297هـ/1880م).<sup>65</sup>

وعلى الرَّغم من أنَّ التَّرجمة الرسميَّة لأبي الهدى ذكَّرت أنَّ اللِّقاء الأوَّل بالسُّلطان عبد الحميد الثَّاني كان عن طريق المُشير نافذ باشا (ك.ح. 1295هـ/1877م)،<sup>66</sup> إلَّا أنَّ دائرة المعارف الإسلاميَّة

<sup>63</sup> يُنظر: الصِّيَّادي، التَّاريخ الأوحد، 141.

<sup>64</sup> يُنظر: شيت طوفان بوزينار، "الصِّيَّادي"، موسوعة إسلاميَّة لوقف الدِّيَّانة التُّركي، (أنقرة: نشر وقف الدِّيَّانة التُّركي، 1989م)، 217/36.

<sup>65</sup> يُنظر: الصِّيَّادي، التَّاريخ الأوحد، 142.

<sup>66</sup> يُنظر: الصِّيَّادي، التَّاريخ الأوحد، 141.

التُرْكِيَّة أشارت إلى أنَّ المفتاح الذي دخل به أبو الهُدَى على القصر السُلطانيّ هو صديقه عبد القادر آل القدسيّ حفيد مفتي حلب محمّد آل القدسيّ، إذ أفادت أنَّ أبا الهُدَى أُقيلَ من وظيفة نقابة الأشراف فسافرَ إلى إستانبول مع عبد القادر آل القدسيّ فكان سبباً في مثوله بين يدي السُلطان عبد الحميد الثّاني في القصر السُلطانيّ، وهذا اللّقاء هو الذي أتاح لأبي الهُدَى أن يتقلّد منصب رئاسة مجلس المشايخ في دار الخلافة،<sup>67</sup> ولعلَّ مما يُؤيّد هذا الرّأي بل يُرَجِّحُه على ما سواه، هو حال عبد القادر آل القدسيّ وما له من مكانةٍ أهلتُه أن يتسنّم العديد من المناصب المُهمّة في الدّولة العثمانيّة؛ فقد تقلّد منصب قائم مقام "غازي عنتاب" وكذلك "بره جيک"، كما تولّى منصب مفتّش العدليّة في ولاية "طرابزون"، وعيّن رئيساً لبلديّة ولاية حلب ونائباً في مجلس المبعوثان، إلى أن صار الكاتب الخامس ثمّ الثّاني في البلاط الملكيّ العثمانيّ،<sup>68</sup> مما يعني أنَّ عبد القادر آل القدسيّ رجلٌ ذو مكانةٍ وأهميّةٍ بالغةٍ في الدّولة تُؤهّله نوعاً ما لوصل من أراده رجال القصر السُلطانيّ بل وبالسُلطان نفسه، ولعلَّ هذا هو الواقع الذي حصل بينه وبين أبي الهُدَى، فقد ذكر محمّد زكي مجاهد أنَّ القدسيّ قد ربطته صداقةٌ حميمةٌ ومودّةٌ صادقةٌ بأبي الهُدَى ملؤها الإخلاص والوفاء، ولذلك فلا يُجانب الصّواب إذا ما قيل: إنَّ للقدسيّ يداً لا تُنكر في فتح الباب أمام أبي الهُدَى في عاصمة السّلطنة العثمانيّة وتوطيده والتّعريف به لكبراء رجالها.<sup>69</sup>

وقد شاءت الأقدار أن تُتوفّي والدّة أبي الهُدَى في أواخر تلك السّنة فيستأذن أبو الهُدَى بالرجوع إلى حلب، لكنّه بعد إقامته في وطنه مدّةً لم تتجاوز أربعة أشهر ما لبث أن تلقّى رسالةً تلغرافيّةً بعث بها السُلطان عبد الحميد إلى والي حلب يستقدّم فيها أبا الهُدَى إلى إستانبول "مُعزّراً

<sup>67</sup> يُنظر: بوزينبار، "الصّيادي"، 217/36.

<sup>68</sup> يُنظر: مجاهد، الأعلام السّريّة، 82/4.

<sup>69</sup> يُنظر: مجاهد، الأعلام السّريّة، 82/4؛ محمّد راغب الطّبّاخ، إعلام الثّبلاء بتاريخ حلب الشّهباء (حلب: دار القلم العربي، 1988م)، 411/7.

مُكْرَمًا مصطحبًا في عودته رَقِيمَ تَوْصِيَّةٍ بالأمر العالي من الباشكاتب -رئيس الكُتَّاب- في القصر  
بجتم علي فؤاد بيك أفندي (ك.ح. 1295هـ/1877م) -أحد موظفي دائرة "المابين" في القصر  
السُّلْطَانِيّ-،<sup>70</sup> حيث كان بعض الحاسدين قد أشاعَ حول غياب أبي الهدى الشائعات الكاذبة،<sup>71</sup>  
وبموجبِ هذا الاستقدام السُّلْطَانِيّ عادَ أبو الهدى إلى إستانبول مُفَارِقًا وَطَنَهُ وأهله وعشيرته إلى غير  
رجعةٍ، حيثُ كان القدرُ قد خبأَ له أن لا يعودَ إلى وطنه مرّةً أخرى بعد هذه الرحلة، وأن يقضي  
باقي حياته -التي امتدّت أكثر من ثلاثين عامًا- في إستانبول، وليكون ألمع الشخصيات التي كانت  
بجانِبِ السُّلْطَانِ عبد الحميد<sup>72</sup> وأقرب الرّجالات التي نالت الحظوة الكبيرة عنده.<sup>73</sup>

وفي بداية هذا القدوم الأخير إلى إستانبول أنزلَ السُّلْطَانُ أبا الهدى ضيفًا في بيت عثمان  
بيك أفندي (ك.ح. 1295هـ/1877م) -أحد موظفي دائرة "المابين" في القصر-، ثمَّ خصَّصَ لَهُ منزلًا  
خاصًا به وأمرَ باستقدام أُسرته من حلب إليه؛ ثمَّ بدأت بعد ذلك مرحلة الالتصاق الحقيقي بين أبي  
الهدى والسُّلْطَانِ؛<sup>74</sup> فلم يزل يرتقي من رتبةٍ إلى رتبةٍ أعلى ومن تكريمٍ إلى آخر بعضها العلمي والآخر  
شرفيًّا، ويتقلّد أرفع النياشين -الأوسمة- في الدولة العثمانية؛ ويحسُنُ ذِكْرُ هذه النياشين والرُّتب التي  
حصَلَ عليها مُؤرَّخَةً بالسَّنَةِ التي أُعْطِيَهَا فيها، بالترتيب:<sup>75</sup>

(1) رُتْبَةُ إستانبول الرّفيعة (1296هـ/1879م)

<sup>70</sup> يُنظَر: بوزينار، "الصِّيَادِي"، 217/36.

<sup>71</sup> يُنظَر: الصِّيَادِي، التَّارِيخُ الأَوْحَد، 142؛ الطَّوِيرَانِي، القَوْلُ الفَصْل، 45.

<sup>72</sup> يُنظَر: محمّد إلهامي (تحرير)، السُّلْطَانُ عبد الحميد الثَّانِي فِي المَذَاكِرَةِ العَرَبِيَّةِ، (إستانبول: دار الأُصول العِلْمِيَّة، 2019م)، 400/1.

<sup>73</sup> يُنظَر: ماري دكران سركو، دمشق في فترة السُّلْطَانِ عبد الحميد الثَّانِي (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010م)، 29.

<sup>74</sup> يُنظَر: الصِّيَادِي، التَّارِيخُ الأَوْحَد، 142؛ الطَّوِيرَانِي، القَوْلُ الفَصْل، 45.

<sup>75</sup> يُنظَر: "الرّجْمَةُ الرّسْمِيَّة"، الصِّيَادِي، التَّارِيخُ الأَوْحَد، 142، 143، 144؛ بوزينار، "الصِّيَادِي"، 217/36؛ آل جندي، أعلام الأدب والفن،

- (2) النيشان المجيدي الثاني (1296هـ/1879م)
- (3) قاضي عسكر أناضولي (1296هـ/1879م)<sup>76</sup>
- (4) النيشان المجيدي الأول (1296هـ/1879م)
- (5) النيشان العثماني الثاني (1298هـ/1881م)
- (6) قاضي عسكر الروملي (1302هـ/1884م)<sup>77</sup>
- (7) النيشان العثماني الأول (1303هـ/1885م)
- (8) ميدالية الامتياز الذهبية والفضية (1305هـ/1887م)
- (9) النيشان العثماني المرصع (1306هـ/1888م)
- (10) ميدالية اللياقة الذهبية (1306هـ/1888م)
- (11) نيشان الافتخار المرصع (1313هـ/1895م)

<sup>76</sup> من الرتب العلمية المرموقة التي يُخاطبُ صاحبها رسمياً بأسمى ألقاب التَّعْظِيم والتَّفْخِيم مثل "سيدي صاحب السَّماحة"، ويُشترطُ لِحيازة هذه الرتبة أن يكون الرَّجلُ ضليعاً بالفقه وعلوم الشريعة ومُتَّصفاً بالنزاهة والاستقامة، وتقوم الدولة بسداد كافة احتياجاته المادية، وقاضي عسكر الأناضولي هو من يتولَّى عدَّة مهام منها مُهمَّة تنصيب القضاة والأئمة والمفتين والفصل في القضايا الوقفية والتركات في الولايات العثمانية الممتدة في عموم آسيا ومصر، إضافةً إلى كونه عضواً في مجلس كبار السياسيين الإداريين في الديوان الملكي السلطاني "ديوان همايون"؛ يُنظر: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية (القاهرة: دار غريب، 2000م)، 134، 137-139؛ محمد إشبيري، "قاضي عسكر"، موسوعة إسلامية لوقف الديانة التركي، (أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م)، 140/25-142؛ أحمد موجو، "ديوان همايون"، موسوعة إسلامية لوقف الديانة التركي، (أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م)، 9/430-432.

<sup>77</sup> يتولَّى صاحب هذه الرتبة ذات المهام الموكلة لقاضي عسكر الأناضولي، ولكن قراراتها تخص الولايات العثمانية في أوروبا، وقد كان الجهاز القضائي العثماني العام تحت إشراف قاضي العسكر -الروملي والأناضولي- وشيخ الإسلام، يُنظر: بركات، الوظائف العثمانية، 137؛ عوض، الإدارة العثمانية، 111.

ولم تكن هذه النياشين أو الميداليات مقصورةً على أبي الهدى وحده بل تعدته لتشمل أفراداً ممن قدم إليه من عائلته إلى إستانبول؛<sup>78</sup> وإلى جانب هذا كله تجدر الإشارة إلى أنّ أبا الهدى منذ أن قدِمَ إستانبول كان قد باشرَ نشاطاتٍ علميةً في التدريس والتأليف، ففي سنة (1296هـ/1879م) كان قد تلقى الأمر من السلطان عبد الحميد بتدريس مادّة العقائد وشروحها ومادّة الحديث النبوي بحضور السلطان لهذه الدروس بصورةٍ خصوصيةٍ،<sup>79</sup> كما انتدب لتدريس الأمراء العثمانيين -شهادة- أركان العلوم الشرعية سنة (1300هـ/1883م)، وانتدب سنة (1301هـ/1883م) لتأليف بعض الكتب الشرعية فأتمّ تأليفها خلال سنةٍ واحدةٍ، وعلى ضوء هذا الجهد العلمي نال رتبة قاضي عسكر الروملي، وكان قد ترأس سنة (1304هـ/1886م) اللجنة العلمية في القصر لفحص بعض الشؤون العلمية الشرعية.<sup>80</sup>

وقد كانت شخصية السلطان عبد الحميد الثاني وما حازة من نظرةٍ سياسيةٍ ثابتةٍ محطّ انتباهٍ لافتٍ لكلِّ من أمعن النظرَ فيها، وقد أشار الدكتور سيف الله أرباجي إلى أنّ المسيرة التي سار بها السلطان عبد الحميد الثاني في سياسته للدولة يُمكن أن تُلخّصَ بأنّها ربطتُ لكلِّ أمور الدولة على اختلاف شؤوناتها بالقصر الساكن فيه، ليُمسك بكلِّ مقاليد السلطنة في يده، ويُدير الدولة من وراء جدران ذلك القصر، فكان يحرص على أن يُحيطَ بكلِّ شاردةٍ وواردةٍ، حتى أنّه "كان يطّلع بنفسه على السيرة الذاتية لكلِّ موظّفٍ مطلوبٍ تعيينه وإذا لم ترقه يرفض تعيينه"، كما أنّه كان "يسأل عن

<sup>78</sup> منهم نجله حسن خالد، وأخواه عبد الرزاق ونور الدين، وصهره سيف الدين الكيلاني، يُنظر: الطويراني، القول القصل، 48؛ عبد العزيز العظمة، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، (لندن: رياض الرئيس للكتب والنشر، 1987م)، 151.

<sup>79</sup> يُنظر: الصيّادي، التاريخ الأوحّد، 142.

<sup>80</sup> يُنظر: الصيّادي، التاريخ الأوحّد، 143، 144.

كلّ شيءٍ ويَدَقِّقُ في طباعِ كلِّ شخصٍ، وكان أصحابُ الكفاءةِ يَحْظُونَ باعتمادهِ أكثرَ من الآخرين".<sup>81</sup>

وإذا ما استصحبَ الذَّهْنُ هذه العَقْلِيَّةَ الحميديَّةَ في تقديمٍ وتأخيرِ الشَّخصِيَّاتِ من حوله؛ فلا بُدَّ أن يلمَحَ مما سَبَقَتْ الإشارةُ إليه الثِّقَّةَ التي أولاها السُّلطانُ لأبي الهُدَى داخلَ هذا القصرِ الذي رُبِّطَتْ به كلُّ شؤوناتِ الدَّولةِ، ومما يُؤكِّدُ هذه الثِّقَّةَ أنَّ السُّلطانَ عبد الحميد كان قد خصَّصَ منزلاً خاصّاً قريباً من القصرِ لينتقلَ إليه أبو الهُدَى ويسكنَ فيه،<sup>82</sup> وليكونَ هذا المنزلُ في ما بعد هو المأوى لكبارِ الوجهاءِ من ضيوفِ السُّلطانِ، وعلى وجهِ الخصوصِ العربِ منهم، وقد أشارت ابنة السُّلطانِ عبد الحميد الأميرةُ عائشة عثمان أوغلو (ت. 1380هـ/1960م) إلى تقديرِ والدها لذكاءِ أبي الهُدَى واعتمادهِ عليه في الشُّؤونِ السِّياسِيَّةِ الخاصَّةِ بالعربِ،<sup>83</sup> حيث كان أبو الهُدَى دائماً بقربِ السُّلطانِ وإلى جانبه في موافقهِ<sup>84</sup> إلى أن لُقِّبَ بـ: "مُسْتَشَارِ المَلِكِ"؛<sup>85</sup> ولم يُخفِ السُّلطانُ في مُذكَرَاتِهِ تقديرَه لأبي الهُدَى بأنَّه "الحَلِيْبِيُّ الذي يلقي الاحترامَ في كلِّ البلادِ العربيَّةِ"<sup>86</sup> وليسَ فقط داخلَ أسوارِ القصرِ السُّلْطانيِّ.

ومن الممكنِ القولُ إنَّ من أهمِّ الجوامعِ التي جمَعَتْ بين الرِّجلينِ التَّقارُبِ العمريِّ بينهما،<sup>87</sup> إضافةً إلى القواسِمِ الفكريَّةِ والرُّوحِيَّةِ، والتَّطلُّعاتِ المُشترَكةِ بين الشَّخصِيَّتينِ، فالسُّلطانُ عبد الحميد

<sup>81</sup> يُنظَر: آرياجي، السُّلطانُ عبد الحميد، 77، 78.

<sup>82</sup> يُنظَر: بوزينار، "الصِّيَّادِي"، 217/36.

<sup>83</sup> يُنظَر: الأميرةُ عائشة عثمان أوغلو، والدي السُّلطانُ عبد الحميد الثَّاني، مترجم: صالح سعداوي الصَّالح، (عمَّان: دار البشير، 1991م)، 81.

<sup>84</sup> يُنظَر: آرياجي، السُّلطانُ عبد الحميد، 76.

<sup>85</sup> يُنظَر: حرب، السُّلطانُ عبد الحميد، 189.

<sup>86</sup> يُنظَر: حرب، مذكَّرات عبد الحميد، 148.

<sup>87</sup> ولادةُ السُّلطانِ 1842 وولادةُ أبي الهُدَى 1849.

بعد ارتقائه لعرش السلطنة أخذ على عاتقه النهوض بجسد الدولة العثمانية المنهك، عبر ما سماه الدكتور محمد حرب "الاتجاه إلى داخل الأمة لإصلاح الدولة"، وذلك بتجميع المسلمين ضمن حركة واحدة يقودها شعور إسلامي موحّد في كلّ البلاد الإسلامية يواجه أطماع الأعداء المتربّصين بالدولة العثمانية،<sup>88</sup> وهي الرؤية التي صرّح بها السلطان بقوله: "إنّ الإسلام هو القوّة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء"،<sup>89</sup> ولم يفهم المعسكر الأوربيّ هذه الرؤية إلا بالهجمة المضادّة حيث رأوا في عبد الحميد أنّه "كان يهدف من سياسته الإسلامية إلى تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادّة يقوم بها المسلمون ضدّ هجمة العالم الغربيّ التي استهدفت عالم المسلمين".<sup>90</sup>

ولم يكن تسليط الضوئ على هذه الرؤية السياسيّة الإسلاميّة التي تحرك عبد الحميد لتحقيقها في فكرة "الجامعة الإسلاميّة"، إلا لإبراز حقيقة إيمان أبي الهدى بالفكرة ذاتها، بل وتصديده لأن يكون من أخلص الصادقين لتحقيق أهداف هذه الرؤية، فقد كان "المستشار الأوّل للسلطان في تنظيم أمور حركة الجامعة الإسلاميّة" بل ورئيس اللجنة المركزيّة لهذا المشروع التي يُشرف عليها مباشرة السلطان عبد الحميد.<sup>91</sup>

لكنّ ما يسترعي الانتباه هو أنّ تلك المكانة العالّية وهذا القرب الشّديد من السلطان لم يكونا كفيّلين يجعل حياة أبي الهدى هانئة خاليّة من الهموم والأكدار، بل على العكس تمامًا، فإلى جانب سياط العُربة التي كان يكتوي بنيرانها بعيدًا عن والدِه وقومِه ووطنِه، فقد رُمي بحراب أعداء السلطان

<sup>88</sup> حرب، السلطان عبد الحميد، 169.

<sup>89</sup> حرب، مذكرات عبد الحميد، 31.

<sup>90</sup> يُنظر: حرب، السلطان عبد الحميد، 169؛ إحسان ثريّا صيرما، السلطان عبد الحميد الثّاني وسياسة الجامعة الإسلاميّة، مترجم: كمال أحمد خوجة، (pdf: د.ت.ن)، 34.

<sup>91</sup> حرب، السلطان عبد الحميد، 190.

عبد الحميد الثاني وكيلت له أقذع التُّهم والشَّتائم من ذات القوس التي رمّت السُّلطان بِسِهامِها، فهو بنظرٍ خصومه نصيرُ الاستبداد وخائن القومية العربية، ولم يكن منشأ كل تلك الاتِّهامات إلا الحسد،<sup>92</sup> ويرى الدكتور محمّد حرب أنّ العُصص التي تجرّعها أبو الهدى من حملات التَّشويه وسيل الاتِّهامات أكثرها من تلفيق بعض أبناء وطنه الحاسدين له بسبب ما وصل إليه، وبعضها لا تخرج عن نطاق النزاعات الأسريّة التي استعرت نارها في حلب تلك الفترة.<sup>93</sup>

ولمّا مرضَ في أيّامه الأخيرة بمرض القلب لازم البيت ولم يخرج منه مُدَّة من الرّمن فلجّت خصومُه وحُسادُه بالإشاعة -فريّة- أنّه قد عقد العزم على مُغادَرة البلاد العثمانية واللّجوء إلى بلادٍ أخرى وترك السُّلطان عبد الحميد، فما كان منه إلا أن كتبَ مقالةً نُشِرت في الجرائد الرّسميّة بعنوان "الخائن الخائف"، أعلنَ فيها عن استمراريّة مُساندته للدولة العثمانية ووقوفه إلى جانب السُّلطان عبد الحميد، واستعداده لأيّ مُساءلةٍ أو تحقيقٍ، فأوقفَ فترةً وجيزةً مع ولده حسن خالد (ت.1355هـ/1936م) ثم أطلقَ سراحهما لمّا ثبتَ بشكلٍ قطعيٍّ براءتهما من التُّهم التي وُجِّهت إليهما؛<sup>94</sup> ومما تجدر الإشارة إليه أنّه لمّا وصلت أيدي الاتِّحاد المُعارض للسُّلطان عبد الحميد إلى مخازن السُّلطان الخاصّة ومُحافظِ أوراقه تبيّن لهم عكس ما كانوا يظنُّونه من التُّهم التي رمّوا بها شخصَ أبي الهدى، بل وجدوا في بعض تلك المُحافظِ "أوراقاً كلّها تخوّف السُّلطان من بطش الله تعالى، وتحدّره من سوء العواقب في أثناء عرضه له إزالة بعض المظالم"،<sup>95</sup> وبذلك يكون الرّمن قد قشعَ عجاجة الاتِّهامات الوهميّة عن حقيقته النَّاصعة فأبانت أنّه كان مُخلصاً ناصحاً أميناً للسُّلطان طيلة ثلاثين

<sup>92</sup> يُنظر: بوزينار، "الصّيادي"، 217/36.

<sup>93</sup> يُنظر: حرب، السُّلطان عبد الحميد، 190.

<sup>94</sup> آل جندي، أعلام الأدب والفن، 312/1.

<sup>95</sup> إبراهيم محمّد الرّاوي، بلوغ الأرب في ترجمة السيّد الشّيخ رجب وذريته أهل الحسب (بيروت: مطبعة جريدة الإقبال، 1330هـ/1912م)، 88.

عامًا "لم يُخاطبه في مدّة اتصاليه إلا بما فيه نفع الأمة والدولة ورعاياها"؛<sup>96</sup> ولم يزل هذا دأبه مع السلطان طوال تلك المدّة التي أمضاها في إستانبول.

وبعد إعلان الدّستور العثمانيّ الجديد وقبل نزول السلطان عبد الحميد عن العرش بفترة وجيزة اشتدّت وطأة المرض على أبي الهدى بعد مُغادرته إستانبول إلى جزيرة الأمراء، وداهمه فيها مرضُ الاستسقاء، فعاجله الأجل لست ليالٍ حَلَّت من ربيع الأوّل سنة (1327هـ/1909م)، وواراهُ الثّرى في "بشكطاش" بمدينة إستانبول؛ وقد سُطّرت في رثائه المراثي، ومن أشهرها قصيدة إبراهيم بن محمّد الرّاويّ العراقيّ (ت. 1365هـ/1946م) التي قال في مطلعها:

تعالوا بنا نذريّ الدّموع الجوّاريا      وننشُد في هذا المُصابِ المراثيا  
مُصابٌ أصابَ الدّينَ غاربٌ<sup>97</sup> سهمه      ففرّح منّا بالدّموعِ المأقيا<sup>98</sup>  
وذلك فقدُ الفضلِ فقدُ أبي الهدى      على مثله فليبكِ مَنْ كانَ باكيًا<sup>99</sup>

ولعلّ من أحمرّ ما قيلَ في رثائه قولُ الشّاعرِ الطّرابلسيّ عبد الحميد الرّافعيّ (ت. 1350هـ/1932م) من مرثيةٍ فيه طويّلة:

وربّ صُدورٍ لو تُعاضُ عن الثّرى      لما كانَ إلا في الصّدورِ قبورها  
خليليّ هل بعدَ الإمامِ أبي الهدى      يَباتُ سَخِينُ العينِ وهو قَريها  
مَصَى العَلَمُ المنشورُ للرّشدِ وانطوت      سَمَواتُ فضلٍ غابَ عنها مُنيرها

<sup>96</sup> يُنظر: حرب، السلطان عبد الحميد، 190.

<sup>97</sup> الغارب هو القسم الأعلى من كلّ شيءٍ، يُنظر: ابن منظور، "غرب"، 644/1.

<sup>98</sup> جمع واحدُه موقٌ وهو مؤخّر العين وقيل مقدّمها، يُنظر: ابن منظور، "مأق"، 235/10.

<sup>99</sup> الرّاوي، بلوغ الأرب، 95.

مَضَى الْعَيْلَمُ<sup>100</sup> الْمَقْصُودُ لِلْعِلْمِ وَالنَّدَى إِذَا اشْتَدَّ بِالْهِيمِ<sup>101</sup> الْعِطَاشِ حُرُورُهَا<sup>102</sup>  
لَقَدْ أَدَهَشَ الدُّنْيَا سَنَاهُ وَإِنْ تَكُنْ أُمِيلَتْ عَلَى بَعْضِ الْعَيُونِ سَتُورُهَا<sup>103</sup>  
وَبَعْدَ مُضِيِّ ثَلَاثَةِ عَقُودٍ عَلَى دَفْنِهِ فِي إِسْتَانْبُولِ نُقِلَ جِثْمَانُهُ إِلَى وَطَنِهِ - حَلَبَ - لِيُدْفَنَ فِي بَيْتِ عَائِلَتِهِ  
الصِّيَادِيَّةِ الَّذِي لَا يَزَالُ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا مَقَرًّا لِلدَّائِرَةِ الرَّسْمِيَّةِ لِلْإِفْتَاءِ فِي مَدِينَةِ حَلَبِ السُّورِيَّةِ.<sup>104</sup>

---

<sup>100</sup> البحر، يُنظر: ابن منظور، "علم"، 421/12.

<sup>101</sup> جمع واحدُه أهيم وهيماء ويعني به العطشى، يُنظر: ابن منظور، "فنس"، 183/6.

<sup>102</sup> هي الرِّيحُ الحارَّةُ التي تمبُّ في اللَّيْلِ فتكون كالسَّمومِ في النَّهَارِ، يُنظر: ابن منظور، "حرر"، 177/4.

<sup>103</sup> الرَّاوي، بلوغ الأرب، 95.

<sup>104</sup> يُنظر: آل جندي، أعلام الأدب والفن، 313/1؛ الرَّاوي، بلوغ الأرب، 88.

## المبحث الثاني: آثاره العلميّة ودواوينه

لم يزل دأبُ العلم وأهله وشأنُ الأدبِ والتّاهلين من كأسه الانكباب على معينِ القراءة والإبحار في محيطِ الكُتب والمُصنّفات مُطالعين لها تارةً ومنفّحين ما حَبَبَتْه ثناياها تارةً أخرى، ولربّما انشئوا لنثر ما انقدح في أذهانهم من دُزر الأفكار أو جواهر الأشعار لِيُزَيِّتُوا بها الطُّروس؛ فكانت أعمارهم القصيرة جَمَعًا لسيولٍ من الإنتاجِ فكريًا وأدبًا وعلمًا، ويشهدُ لذلك ما سَطَّرَ في صحائفِ تراجمهم قديمًا وحديثًا، فقد بلَغَ أبو الوفاء ابن عقيلِ الحنبليّ (ت.513هـ/1119م) في كتابٍ واحدٍ -وهو كتاب الفنون- ثمانمئةً مجلّدةً<sup>105</sup> سوى ما كتبه من المؤلّفات الأخرى، ولمّا قُسمت مؤلّفات مُحمّي الدّين يحيى بن شَرَفِ التّوّويّ (ت.676هـ/1277م) على سِنِي عُمُرِهِ منذ ولادته إلى وفاته كان نصيب كلِّ يومٍ تأليفُ كُرّاسَتين،<sup>106</sup> ولم يخلُ من هذا الحال المُتأخِّرون المعاصرون لزمان أبي الهدى كعبد الحيّ اللّكنويّ (ت.1304هـ/1886م) الذي ألّف أكثرَ من مئةٍ مؤلّفٍ، وكذلك مَنْ جاء بعد أبي الهدى كأشرفِ التّهانويّ (ت.1362هـ/1943م) الذي رَبَتَ مؤلّفاتُهُ على ألْفِ مؤلّفٍ؛<sup>107</sup> وهذا كُلهُ باغتنام الأوقات والحرص على ملئها بما ينفع.

ويبدو للتّناظر في سيرة أبي الهدى أنّه مَن سارَ على هذا المنوال، ولعلَّ عاملاً الغربة والبعد عن مَربَعِ الوطنِ وديارِ الأهل، كانا من العوامل المُهمّة التي جعلته يتّجه بقوّة إلى العلم والأدب مُطالِعًا ومؤلّفًا، وناظرًا وناظرًا، ولم يكن وجودُهُ في قلب عاصمة الدُّنيا -إستانبول- ولا جماها السّاحر بأخذٍ لُلبِّهِ ولا بصارفٍ لَهُ عن العلم والأدب على الرّغم من تمام قيامه بالوظائف الرّسميّة التي أُنيطت به، وها هو ذا يصفُ بلسانه حالَهُ الذي استمرَّ عليه منذُ قدومه إلى إستانبول قائلاً: "إني والله الفضلُ والمِنَّةُ

<sup>105</sup> يُنظر: زين الدّين بن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: عبد الرّحمن العبيكان، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2005م)، 345/1.

<sup>106</sup> يُنظر: عبد الغني الدّقَر، الإمام التّوّويّ (دمشق: دار القلم، 1994م)، 157.

<sup>107</sup> يُنظر: عبد الفتّاح أبو غُدّة، قيمة الرّزمن عند العلماء (حلب: مكتب المطبوعات الإسلاميّة، د.ت.ن)، 82.

لم أتقيد بحب طعامٍ أو شرابٍ ولم أذكرُ أبني تَشَهَّيْتُ أو طلبتُ طعامًا وتمنَّيتُ، بل أنا على سيرتي في وطني، ولم أُقيد همَّتي للنوم والقيام بوطاءٍ لَيِّنٍ وغطاءٍ جميلٍ، وأمضيتُ السنين العديدة وها أنا لم أخرج من بيتي لا لسوقٍ ولا لِمُنْتَزَهٍ ولا لِمَحَلِّ فُرْجَةٍ، بل حديقةً نظري الكتبُ، أقرأُ وأكتبُ تصنيفًا وتأليفًا، وأنظُمُ الشَّعْرَ وأرصِّعُ الصَّحَافَ بالنَّثرِ"؛<sup>108</sup> فإذا كان هذا وصفُ الرَّجُلِ لحاله فلا غرو من أن يغزُرَ نتاجُ قلمه فيربو على مئتي عُنْوَانٍ نَشَرَ طَيِّها في علومٍ شتى من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ وعقيدةٍ وتاريخٍ وأنسابٍ وحكمةٍ وتصوِّفٍ وأدبٍ منثورٍ ومنظومٍ، ولا يبعدُ عن الصَّوابِ إذا ما قُسمتِ عموم تلك العُنْوَانَاتِ على قسمين: علميٍّ وأدبيٍّ.

## 1 آثاره العلميَّة

إنَّ الرَّاعِبَ في الاطِّلاعِ على نتاجِ هذا الرَّجُلِ سيصطدمُ بيدِ الفقدِ والضَّياعِ التي أتت بتغييبِ غالبِ تلكِ المؤلِّفاتِ بسببِ الحَقبةِ التي مرَّتْ بطروفها القاسيةُ على السُّلطانِ عبد الحميد الثَّاني ومن كان مُلتصِّفًا به من حاشيَّته، ولم يبقَ من تلكِ الآثارِ العلميَّةِ والأدبيَّةِ إلا ما سمحت الأيَّامُ بحفظه في مديريَّةِ المتاحفِ والمكتباتِ ببلديَّةِ إستانبول الكبرى أو على رفوفِ المكتباتِ الوطنيَّةِ والجامعاتِ العالميَّةِ الأجنبيَّةِ.<sup>109</sup>

ومن حسنِ الطَّالعِ أنَّ ذاكرةَ الأيَّامِ قد احتفظتْ بتلكِ العناوين، وذلك من خلالِ كتابٍ لأبي الهدى مُسمَّى بـ: "خُلاصةُ البيانِ في حُكمِ نوعِ الإنسانِ" طُبِعَ في حياتِه -وبالتَّحديدِ قبل عامٍ من

<sup>108</sup> يُنظر: الصَّيَّادي، الفرقان، 96.

<sup>109</sup> يُنظر: آل جندي، أعلام الأدب والفن، 313/1؛ وقد وجدَ بعضُ من مؤلِّفاته مخطوطًا أو مُصوَّرًا عن المطبوع في: المكتبة الوطنيَّة الفرنسيَّة، والمتحف البريطاني، والمكتبة البريطانيَّة، ومكتبة برلين، ومكتبة أوقاف حلب، ومكتبة الكونغرس الأمريكي، ومكاتب جامعات هارفرد وبرنستون وميشيغان والينوي بأمريكا، وجامعة ليدن بهولندا، وجامعة الإمام محمَّد بن سعود بالرياض، والجامعة الأمريكيَّة ببيروت، والجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنورة، ومكتبة أسعد أفندي، ومكتبة دار الكتب القطريَّة، والمكتبة التيموريَّة، والمكتبة الظاهريَّة بدمشق، ومكتبة الإسكندريَّة.

وفاته - سنة (1326هـ/1908م) بمطبعة كلمة الحق في مدينة إستانبول، وقد وصلت يدُ البحث إلى هذا الكتاب فألفته مُترجماً إلى اللغة العثمانية عن الأصل العربي المطبوع بمصر سنة (1321هـ/1903م)، وقد سُردت في صدر صفحاته عنوانات مؤلفات أبي الهدى المخطوط منها والمطبوع إلى ذلك الحين، مُرتبةً على مجموعات حسب الإطار العام الذي كُتبت ضمنه في التفسير أو الحديث أو الفقه أو التصوف وتجاوزت تلك العناوين معني عنوان<sup>110</sup> ولم يكن رصد تلك المؤلفات مقصوراً على الكتاب المذكور آنفاً، فقد سُرد طرف منها في نهاية ديوانه الدر المنتظم المطبوع سنة (1322هـ/1904م) وأشير فيه إلى أن أكثر تلك المؤلفات قد طُبِع،<sup>111</sup> وقد ذكر طرفاً من مؤلفاته مُعاصره إبراهيم بن محمد الراوي العراقي،<sup>112</sup> ويوسف إيلان سركيس (ت.1351هـ/1932م)،<sup>113</sup> وأفاد محمد بن عمر الحريري (ت.1330هـ/1912م) أن مؤلفات أبي الهدى قد "حرّز أكثرها الطبع"،<sup>114</sup> ولربما عادَ هذا إلى موقع أبي الهدى ومكانته في قلب عاصمة الدولة العثمانية إستانبول حاضرة الثقافة والعلم آنذاك، وما توفّر فيها من كُتبٍ أثيرة، وحُصّ بذلك المكتبات السلطانية العثمانية العامرة بما أُهدى ويُهدى إليها من آثار العلماء من شتى أصقاع المعمورة؛ إضافةً إلى وجود المطابع الوفيرة فيها، التي كان لها بفضل مساعيه دورٌ كبيرٌ في إصدار العديد من الكتب العربية الثمينة.<sup>115</sup>

<sup>110</sup> يُنظر: محمد أبو الهدى الصبيدي، خلاصة البيان في حكم نوع الإنسان (إستانبول: مطبعة كلمة الحق، 1326هـ/1908م)، 22.

<sup>111</sup> محمد أبو الهدى الصبيدي، ديوان الدر المنتظم مختصر براهين الحكم (د.ن، 1326هـ/1908م)، 302؛ المؤلف نفسه، ديوان الرّوض البسيم، (د.ن، 1322هـ/1904م)، 75-76.

<sup>112</sup> يُنظر: الراوي، بلوغ الأرب، 82.

<sup>113</sup> يُنظر: يوسف إيلان موسى سركيس، معجم المطبوعات العربية والمُعربة (مصر: مطبعة سركيس، 1346هـ/1928م)، 355/1.

<sup>114</sup> يُنظر: محمد بن عمر الحريري، نتيجة المفاخر في أخبار بني رفاعة السادة الأكابر (ميشيغان: مكتبة جامعة ميشيغان، Public Domain، 595)، 79.

<sup>115</sup> يُنظر: صوت الشعب، "الحسيب النسيب أبو الهدى الصبيدي"، (5/كانون الأول/1931م)، 1.

ومن الجدير بالذكر أنّ من أهمّ الكُتُب التي خطّها قلم أبي الهدى كتابان مُهمّان نال كُلُّ منهما فائقَ عنايةٍ وعظيمَ أثرٍ لَمَّا رأى النورَ لأوّل مرّةٍ وتلقّته الأيدي في المُجتمَع آنذاك.

أمّا الأوّل فهو الكتاب الموسوم بـ: "داعي الرّشاد لسبيل الاتّحاد والانقياد" وفيه يلّمح النّاظر كونَ أبي الهدى في قلب الحدّث السّياسيّ في تلك الأيّام الحميديّة التي عطلّ في أنثائها السُّلطان عبد الحميد المجلس النّيابيّ العثمانيّ -مجلس المبعوثان- وسبقَ ذلك أن حطّت الأساطيل الرّوسيّة مراسيها حول عاصمة الخلافة إستانبول وثارَت نائرةُ النَّاسِ على نفردِ السُّلطان بالحكم وأخذه لِحامِ الأمور وربط زمامها بسلطة الباب العالي، مما جعل أبا الهدى يُجرِّدُ قَلَمَهُ في هذا الكتاب ليُدافع عن موقفِ السُّلطان داعياً إلى وجوب طاعته والانقياد لأوامره والالتفاف حوله، فهو بنظره الخليفة الأوحَد للمسلمين وآخرُ قلعةٍ تلتجئُ إليها أمّة الإسلام التي تكالَبَ عليها "البُغاة والأعداء الظالمون"، ولهذا فهو يرى أنّ على كلِّ مسلمٍ مُهندٍ أن يسعى جهده "لإخماد نار الفتن التي تدور في المسلمين" بكلِّ ما أوتيَ من قوّةٍ ولو بكلمةٍ "تدفع دسيسةَ الفاتنين المعترضين والمُنسَلِّين من جمعيّة الاتّحاد"، وينعتُ هذه الفئة الفاتنة بأنَّ أربابها هم "القائمون على ساق الهوى والجهالة والأفكار الفاسدة والأقاويل الكاذبة"<sup>116</sup> ويمكنُ القولُ: إنّ هذا الكتاب هو تلخيصٌ للجانب الفكريّ والحركيّ الذي قام به أبو الهدى في خدمة مشروع "الجامعة الإسلاميّة"<sup>117</sup> إضافةً إلى أنّ هذا الكتاب قد جعلَ قلم أبي الهدى ينطبع بطابع الفكر الإسلاميّ القائم على وحدة الأمّة الإسلاميّة بكافة عناصرها وشتّى قومياتها، وهذا يعني أنّه كان يسير عكسَ التّيّار الذي بدأت أصواتُ أربابه تتعالى آنذاك وتُصعّى لها المسماعُ في البلاد العربيّة عبر وسائل الإعلام المُتاحة آنذاك، وهو التّيّار الدّاعي إلى تعزيزِ القوميّة العربيّة والمنادي

<sup>116</sup> محمّد أبو الهدى الصّيّادي، داعي الرّشاد لسبيل الاتّحاد والانقياد (د.ت.ن)، 16، 20، 22.

<sup>117</sup> يُنظر: حرب، السُّلطان عبد الحميد، 190.

بضرورة النهوض ضدّ غيرها من القوميّات التي يراها هذا التّيّار مُحْتَلَّةً ظالِمَةً، في حين أنّ أبا الهُدَى كان يرى أنّ هذه الأفكار ما هي إلاّ دعواتٌ مرفوضةٌ تهدف لانسلاخ المسلمين من جسد الأُمَّة الإسلاميّة الواحد المُتَمَثِّل بالخلافة العثمانيّة، وتجزُّ إلى الانزلاقِ -عَرَّارًا- للوقوعِ بفخاخ الأعداءِ المُتَرَبِّصِينَ شَرًّا بأُمَّة الإسلام؛ وهذه المناهضة لهذا التّيّار لا شكَّ أنّها ستقدِّفُ به في مرمى أقدع الأوصاف من القوميّين العرب ومن سار سيرهم من المُعادين للخلافة العثمانيّة عمومًا وللسلطان عبد الحميد الثّاني على وجه الخصوص، والكتاب يدلُّ على أنّ أبا الهُدَى قد اعتنقَ هذه الرّؤية في مرحلةٍ مُبَكِّرَةٍ من حياته، إذ طُبِعَ هذا الكتاب بعدَ سنة (1293هـ/1876م).

وأما الكتاب الثّاني فهو الموسوم بعنوان: "ضوء الشّمس في قوله صلّى الله عليه وسلّم بُني الإسلام على خمس"، وهو يلي الأوّل في الشّهرة وفي زمن التّأليف، فقد انتهى من تأليفه سنة (1300هـ/1883م)، وقُدِّرَ للكتاب أن يرى النور بأوّل طبعةٍ في زمن المؤلّف سنة (1301هـ/1883م) في مطبعة محرّم أفندي البوسنويّ، والثّانية طُبِعَت بعد ما يقربُ من قرنٍ من الزّمان في دمشق سنة (1394هـ/1974م)، وفي هذا الكتاب تكلمَ على أركان الإسلام الخمس شارحًا لأحكامها على المذاهب الأربعة الشّيبيّة مُضَمِّنًا شرحَ الأحكام بفرائد الحِكم ولطائف الإشارات، فهو كتابٌ فقهيٌّ مُحَرَّرٌ مسائلُهُ على المذهب الحنفيّ ومن ثمّ قورنت بالمذاهب الأخرى،<sup>118</sup> وقد قدّمه أبو الهُدَى نبراسًا للأُمَّة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغارها -حسبما يرى شيخ قرّاء بلاد الشّام حسين خطّاب (ت.1408هـ/1988م)- وحظيَ بنصيبٍ وافٍ من تقاريط العلماء سواءً في حياة المؤلّف كالفقيه خير الدّين نعمان بن محمود الألوسي (ت.1317هـ/1899م) ونقيب السّادات بمكّة ومفتيها علوي بن أحمد السّكّاف (ت.1335هـ/1916م)، أو بعد وفاته حيثُ صُدِّرت الطّبعة الثّانية للكتاب بتقاريط

<sup>118</sup> يُنظر: الصيّاديّ، ضوء الشّمس، 31/1، 64، 484، 489، 511، 339/2، 343.

لجملة من علماء العصر في بلاد الشام يُذكر منهم حسن حبنكة الميداني (ت. 1398هـ/1978م) الذي وجد الكتاب "نفساً فريداً في بابه حوى من المسائل الفقهية المعتمدة والحكم المفيدة والمواظ المؤثرة ما تفرّق في كثير من الكتب العلمية والمؤلفات النادرة ولخص ما طال الكلام فيه من مسائل التوحيد"؛ وفي هذا الكتاب يبرز إطلاع أبي الهدى الواسع والبعيد الغور على العلوم الشرعية إضافة إلى الجانب الصوفي الذي سكب من معينه الصافي على دقائق الأحكام ليغدو الكتاب ضياءً للقلوب ومهدباً للنفوس،<sup>119</sup> وقد انتظم سلك تلك المقاصد العلمية كلّها برائق لسان أبي الهدى الأدبي الناثر لها والمضمن لثناياها شيئاً من رقيق الأشعار.<sup>120</sup>

وقد يكون من الحسن أن يلحق بالأثرين المذكورين آنفاً كتابه الموسوم بعنوان: "صوت الهزار وزيق العذار"، الذي طبع في حياته بمطبعة التمدن سنة (1320هـ/1903م)، وطرزه أبو الهدى على نسق يجعله "روضةً بديعةً تُسلي خاطر القاتر" فلم يبوّبه أو يجعله على فصول، بل جعله سطرًا واحدًا طويت في ثناياه لطائف الحكم "وملتقطات الدرر" ومتفرقات من الأبيات الشعرية البليغة؛ والباعث على إلحاقه بالأثرين السابقين المشهورين، هو ما يشد انتباه القارئ فيه إلى بعض الإشارات التي يلمح فيها ما ترسخ في ذهن أبي الهدى من رؤية أخلاقية وسياسية راصدة للمظاهر التي سادت ذلك العصر، فبين نبذته لشعار الحرية أو الوطنية المطروح في بلاد مصر إذ لم يره إلا ستاراً أسدله الأجنبي لغرس برائته في جسد المجتمع المسلم، لكي يُرخى له العنان في هدم القيم والأخلاق والدين والشرف والأشراف، فيتسنى له بذلك أن يبسط نفوذه الغاشم على تلك الديار بكل سهولة،<sup>121</sup> ورغم أن أبا

<sup>119</sup> يُنظر: الصيادي، ضوء الشمس، 8/1، 15، 43.

<sup>120</sup> يُنظر: الصيادي، ضوء الشمس، 118/1، 136-137، 142، 185، 346/2.

<sup>121</sup> يُنظر: محمد أبو الهدى الصيادي، صوت الهزار وزيق العذار (مصر: مطبعة التمدن، 1321هـ/1903م)، 22-23.

الهْدَى قد بسطَ الكلام في معاني الصِّدْقِ والصِّدَاقَةِ والوفاء<sup>122</sup> إلا أنَّ أبرزَ ما يلمَحُهُ النَّاطِرُ في تلك الصَّفحات هو ما لَمَحَ إليه من أنَّ مِيزَةَ النَّسَبَةِ الشَّرِيفَةِ إلى آلِ البَيْتِ النَّبَوِيِّ لا تشفَعُ لصاحبها في أن يستهينَ بعهدِ الوفاءِ ويخونَ من أحسنَ إليه ويغدرَ بمن أَعَدَّقَ بالإكرامِ عليه، ثم لا يلبثُ أن يُعَرِّجَ إلى أنَّ الخِيانَةَ العُظْمَى إمَّا هي خِيانَةُ "خليفةِ النَّبِيِّ في العصر، الإمامِ الذي وَّلاه اللهُ على المُسلمين السُّلطانِ عبد الحميد"،<sup>123</sup> وقد يكون هذا العرض من أبي الهُدَى مثارًا للاهتمام، حيث لا يُدرى أكانَ بكلماتِهِ يُشيرُ إلى ما قد استشفَّه من ساحةِ الأحداثِ في دارِ الخِلافةِ العثمانيَّة؛ فقد تمخَّضت الأيَّامُ - بعد كتابتِهِ لهذه السُّطورِ بسنواتٍ عِدَّةٍ - عما صَدَّقَ رُؤْيَتَهُ للأحداثِ السِّياسيَّةِ التي بدت واضحةً في سطورِ هذه الكتابِ إذا ما ضُمَّ إليها ما قبلها في "داعي الرِّشاد".

تلك كانت هي أبرزُ مضامينِ ما وقفَ الباحثُ عليه من الكُتُبِ التي سَطَّرَها أناملُ أبي الهُدَى، وأمَّا الكُتُبُ الأخرى فسيُكتَفَى بسرِّدِ عناوانِها حسب ورودها في صدرِ كتابِهِ "خلاصة البيان"، ومُضافًا إليه ما عداها مما وصلَ إليه الباحثُ من عناوانِ أُخرى؛ وقد يحسنُ قبلَ السَّرْدِ الفِطْنَةَ إلى أنَّ عناوانِ مؤلِّفَاتِهِ كانت تُذَكِّرُ طائفةً منها في ذيلِ خواتيمِ كُتُبِهِ المطبوعَةِ إلى جانبِ ما أشارَ إليه مترجمو أبي الهُدَى من أسماءِ تلك العناوانِ؛ وهي:

"نفحة الرِّحمن في تفسير القرآن، الصِّراطُ المستقيم في تفسير بسم الله الرِّحمن الرِّحيم، ضوء الشَّمْس في معاني بُنْيِ الإسلام على خمس، شفاء القلوب بكلامِ النَّبِيِّ المحبوب،<sup>124</sup> الحقيقة الباهرة في

<sup>122</sup> يُنظر: الصِّبَّادِي، صوت الهِزَار، 24.

<sup>123</sup> يُنظر: الصِّبَّادِي، صوت الهِزَار، 26، 30-31.

<sup>124</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة جريدة الفلاح، 1313هـ/1895م).

أسرار الشريعة الطاهرة،<sup>125</sup> الحقيقة المحمدية في شأن سيد البرية، فصول الحكماء،<sup>126</sup> آداب المسلمين  
 المأخوذة عن سيد المرسلين، التحفة الهدائية في السنن النبوية،<sup>127</sup> الفخر المخلد،<sup>128</sup> أسرار أسماء الله  
 الحسنى، فرقان البيان، حكم التوحيد، الفرائد في العقائد،<sup>129</sup> الديانة المحمدية، الدرر النضيد في  
 التوحيد، شفاء صدور المؤمنين، شرف القواعد، قواعد النظر، عقائد السادة الحنفية، حجة المتكلمين،  
 الأبحاث الزائفة، أحكام التقليد، حكمة اختلاف المذاهب، فرقان القلوب،<sup>130</sup> أسرار سياسة الشريعة،  
 أحكام السياسة، طريق الصواب،<sup>131</sup> نور الإسلام، أخبار المصافحة، خواص ذكر الله، التفحات  
 المحمدية في الأحاديث الأربعين الأحمديّة،<sup>132</sup> أسانيد الواسطيين، أحاديث أكابر واسط، الثبوت  
 الخاص، حكم التواتر، نسب النبي صلى الله عليه وسلم، أنساب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أحكام الأركان الخمسة،  
 آية الله الكبرى، الأخلاق المحمدية، أسرار فاتحة الكتاب، أسرار سورة الإخلاص، أسرار الملاحم،  
 معنى الشروع، بركة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، أصول الحنفية، أصول الشافعية، علم حال (حنفي)،  
 علم حال (شافعي)، البارقة،<sup>133</sup> البارقة الثانية، الكليات الهدائية، الرقائق، حل مشكلات الأخيار،  
 طريق السلامة،<sup>134</sup> حكم الفلسفة، فضيلة الحكمة،<sup>135</sup> المدينة الإسلامية، أسرار الهجرة النبوية، روح

<sup>125</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة هندية، 1323هـ/1905م).

<sup>126</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة هندية، 1324هـ/1906م).

<sup>127</sup> مخطوط، (المملكة المتحدة، المتحف البريطاني، OR9090)

<sup>128</sup> مطبوع، (بيروت: المطبعة اللبنانية، 1305هـ/1887م).

<sup>129</sup> مطبوع، تحقيق: أمير خرنوب، (دمشق: دار الدقاق، 1440هـ/2019م).

<sup>130</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة الهندية، 1323هـ/1905م).

<sup>131</sup> مطبوع، (إستانبول: مطبعة المعارف، 1302هـ/1884م).

<sup>132</sup> مطبوع، (مصر: المطبعة العلمية، 1313هـ/1895م).

<sup>133</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

<sup>134</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

<sup>135</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

الحكمة،<sup>136</sup> حديقة المعاني،<sup>137</sup> خلاصة البيان،<sup>138</sup> تسلية البال في أحكام منافذ الخيال،<sup>139</sup> فصول  
الحكمة، البرهان الصادق،<sup>140</sup> أخلاق المسلمين، الإرشاد العام، حكم التساوي، الرقائق الرؤاسية،<sup>141</sup>  
النصيحة القدسية،<sup>142</sup> الأجوبة المسكتة، لزوم محبة المصطفى، ذكرى الحبيب، أسرار الإخلاص،  
كشف الغطاء، بر الوالدين، صوت الهزار وزيق العذار،<sup>143</sup> العبرة في حكم الهجرة،<sup>144</sup> صوت العندليب،  
لوعة يعقوب، حال البادية، فلسفة التاريخ الأحمدي، حديقة الأنس، أحكام الفراسة، سياحة القلم،  
أسرار القيامة، حكم الحب الصادق، معرفة الشعوب، بغية أولي الأفهام،<sup>145</sup> لمعة النصر في لزوم  
الصبر،<sup>146</sup> أسرار الوجود، نور الإنصاف،<sup>147</sup> تحقيق مسألة الجهة، وجوب تقديم العلماء، أحكام  
المدنية، كشف نقاب الإشكال، الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف، تنوير الأبصار،<sup>148</sup>  
الروض البسام،<sup>149</sup> النخبة في أحكام النسبة،<sup>150</sup> بطون الآل الكرام، المشجر الأكبر، المشجر الثاني،

---

<sup>136</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م).

<sup>137</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة الإصلاح، د.ت).

<sup>138</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة الإصلاح، د.ت).

<sup>139</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>140</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م).

<sup>141</sup> مطبوع، تحقيق: محمد نورس الكيلاني، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1324هـ/1906).

<sup>142</sup> مطبوع، تحقيق: محمد نورس الكيلاني، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1324هـ/1906).

<sup>143</sup> مطبوع.

<sup>144</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>145</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>146</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>147</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م).

<sup>148</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م).

<sup>149</sup> مطبوع، (الاسكندرية: مطبعة الإهرام، 1310هـ/1892م).

<sup>150</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

قواعد التَّسَابُة، خزانة الأمداد،<sup>151</sup> سلسلة الإسعاد، ذخيرة المَعَاد،<sup>152</sup> عقود الجواهر، بارقة العرفان، حبّ الوطن، البارقة الكبرى، غاية المدارك، سلسلة النّجاح، شؤون الفاروق، نضارة الحاضرة في آداب المُحاضِرة،<sup>153</sup> النُّور المُبين، نور السُّنَّة، تطبيق حكم الطريفة العليّة على الأحكام الشَّرعيّة النّبويّة،<sup>154</sup> الغارة الإلهيّة،<sup>155</sup> إبهات الجاحد،<sup>156</sup> فضائل العلماء، العناية الرّبانيّة،<sup>157</sup> الواعظ المُعرب عن حقيقة المسلم المُتأدّب،<sup>158</sup> الحقّ المبين،<sup>159</sup> برهان الرّحمن، الشّرف الباذخ، أسرار حزب الجوهرة، قلائد الرّبرجد،<sup>160</sup> بلاغ المرام، قلادة النّحر،<sup>161</sup> الكوكب الدّرّي، نُحفة المُوحّدين، الطريفة الرّفاعيّة،<sup>162</sup> شوارذ الأدب، نفحات الإمداد،<sup>163</sup> أسرار الأرواح، التّحفة الجامعة، حكّم الصّالحين، فرحة الأحاب، راحة الأرواح،<sup>164</sup> غنيّة الصّادقين، القلادة العسجديّة، قلادة الجواهر،<sup>165</sup> غنيّة الطُّلاب، الكليّات

<sup>151</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة الواعظ، 1326هـ/1908م).

<sup>152</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1307هـ/1889م).

<sup>153</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>154</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>155</sup> مطبوع، (القاهرة: المطبعة الميريّة بولاق، 1310هـ/1892م).

<sup>156</sup> مطبوع، (د.ن، 1322هـ/1904م).

<sup>157</sup> مطبوع، تحقيق: أحمد رمزة جحا، (دمشق: د.ن، 1428هـ/2007م).

<sup>158</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن).

<sup>159</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>160</sup> مطبوع، تحقيق: أحمد رمزة جحا، (دمشق: د.ن، 1429هـ/2008م).

<sup>161</sup> مطبوع، (مصر: المطبعة العمومية، 1315هـ/1897م)

<sup>162</sup> مطبوع، تحقيق: محمد بدر الدين التّعساني، (مصر: مطبعة السعادة، 1325هـ/1907م).

<sup>163</sup> مطبوع، (بيروت: مطبعة المعارف، د.ن).

<sup>164</sup> مطبوع، (مصر: المطبعة المصريّة، 1321هـ/1903م).

<sup>165</sup> مطبوع، (بيروت: المطبعة الأديّة، 1301هـ/1883م).

الأحمدية،<sup>166</sup> الثور الجلي، آداب القوم، بارقة الهداية، هداية الساعي،<sup>167</sup> القواعد المرعية،<sup>168</sup> العقد  
 التّضيد،<sup>169</sup> راتب الطّريقة، نفثة مصدر،<sup>170</sup> سلاسل رجال الخرقه، كلمة شهادة لا إله إلا الله، تعطير  
 المَحاضر،<sup>171</sup> وسيلة العارفين،<sup>172</sup> وسيلة المرسلين، معنى المحبّة، حضرة الإطلاق،<sup>173</sup> الفجر المُنير،<sup>174</sup>  
 خلوة متكين، محبّة السّالكين،<sup>175</sup> الشّمس اللّماعة، حكمة التّصوف، واجبات السّلوك، سرّ  
 الحال،<sup>176</sup> رياضة الأسماع،<sup>177</sup> السّيرة الرّفاعيّة، حديقة الفتح، المقام الأمتع، وجوب الطّاعة، اللّباب  
 الجامع للعجب العجّاب، الفرقان الدّامغ بالحقّ أباطيل أهل البهتان،<sup>178</sup> فرقان المعاني، تاريخ الخلفاء،  
 حال الخلفاء الأربعة، مشاهير الأولياء في ديار الشّام، الكوكب الزّاهر،<sup>179</sup> تعطير المَشام،<sup>180</sup> القول  
 الفصل ليس بالهراء ولا بالهزل،<sup>181</sup> بهجة الزّمان، حال دمشق، الرّحلة البغدادية، مفاخر البيت العثماني،

<sup>166</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة الواعظ، 1326هـ/1908م).

<sup>167</sup> مطبوع، (إستانبول: د.ن، 1289هـ/1872م).

<sup>168</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة محمّد أفندي مصطفى، 1305هـ/1887م)

<sup>169</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة محمّد أفندي مصطفى، 1307هـ/1889م).

<sup>170</sup> مطبوع، تحقيق: أمير خرنوب، (دمشق: د.ت).

<sup>171</sup> مخطوط، (الولايات المتّحدة الأمريكيّة، جامعة برنستون، 2447 els no).

<sup>172</sup> مطبوع، تحقيق: محمود محمّد الدّرّة، (دمشق: د.ن، 1422هـ/2001م).

<sup>173</sup> مطبوع، (د.ن، 1301هـ/1883هـ).

<sup>174</sup> مطبوع، (القاهرة: مطبعة بولاق، 1300هـ/1882م).

<sup>175</sup> مطبوع، تحقيق: أحمد رمزة جحا، (دمشق: دار الدّقاق، 2020م).

<sup>176</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

<sup>177</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة التّمذّن، 1321هـ/1903م).

<sup>178</sup> مطبوع.

<sup>179</sup> مطبوع، (إستانبول: مطبعة المعارف، 1313هـ/1895م).

<sup>180</sup> مطبوع، تحقيق: حسن بن عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دار البشائر، 2005م).

<sup>181</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ت).

عجائب الزّمان، السّهم الصّائب، المدد النبويّ، رياضة العقول، الكنز المُطلَسَم،<sup>182</sup> نزهة أهل النّظر في الأخبار اللّطيفة والسّممر، حكّم العامّة، توحيد المَشارب وإن جَهَلها المُؤارب، رِقّة الانتقال لسابحة الطّرف دون المقال، السُّكوت إذا العيون تتكلّم، لطائف الإشارات، الكلمات المُفردّة، سلاسل القوم،<sup>183</sup> الكلمات الطّيّبات، صريح الكلام في حكم عالم المنام،<sup>184</sup> ألواح الأفكار، مسامرة النّظر، الكلام المُبهم، محجّة العظماء،<sup>185</sup> حُسْنُ التّعبير ولطف التّقرير، عقود الأماس،<sup>186</sup> بهجة الحضرتين،<sup>187</sup> رياضة الخيال في ضروب الأمثال، غنية الطّالِبين في إيضاح طريق المشايخ العارفين،<sup>188</sup> النقاط جواهر الآداب من سفاسف التُّراب، بلاغة قريش، الدُّر المنظوم في شأن بني مخزوم، غاية المطلوب، منظوم الدّراري الثّمينة في سيرة ساكن المدينة، منظوم معارضة الزّمان، ديوان بلبل الأفرح، ديوان براهين الحِكم، (ديوان اللؤلؤ والمرجان، أزهار الحديقة، نوابغ الحِكم، منظوم زاد القيامة في أخبار المظلل بالغمامة، منظوم آيات العرفان، ديوان روضة العرفان، ديوان الفيض المحمّدي، ديوان الرّوض البسيم، ديوان مرآة الشّهود، ديوان قُرّة العين، ديوان الدُّر المنتظم، ديوان التّبيان)"<sup>189</sup>.

وبالاستقراء والاطّلاع على ما توفّر بين يدي الباحث من مؤلّفات أبي الهُدَى يُلاحظ ما

يلي:

<sup>182</sup> مطبوع، (القاهرة: المطبعة العلميّة، 1313هـ/1895م).

<sup>183</sup> مطبوع، (مصر: مطبعة السّعادة، 1325هـ/1907م).

<sup>184</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

<sup>185</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

<sup>186</sup> مطبوع، (مصر: المطبعة العموميّة، 1315هـ/1897م).

<sup>187</sup> مطبوع، تحقيق: محمّد كامل الكيّالي، (حلب: مطبعة النّهضة العربيّة، د.ت).

<sup>188</sup> مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1390هـ/1970م).

<sup>189</sup> يُنظر: الصّبّاويّ، خلاصة البيان، 22؛ وما وُضِعَ بين قوسين سيأتي الحديث عنه مُفصّلاً ضمن الدّواوين الأدبيّة.

- اصطباغٌ مؤلَّفات أبي الهدى - حتى العلميَّة منها- بالصَّبغة الأدبيَّة حيث كان قلمُ أبي الهدى لا يخلو من الأساليب البلاغيَّة البديعيَّة في نثره وخاصَّةً في مقدِّمات كُتبه<sup>190</sup> بل حتى في اختياراته لعنواناتها، كما لم يخلُ أغلبها من الشِّعر العربيِّ سواءً كان من نظمِه أو من نظمٍ غيره؛<sup>191</sup> ولا تخلو بمجمليها من النَّفس الصُّوفيِّ والمصطلحات الصُّوفيَّة.
- إنَّ الكمَّ الكثير من العناوين التي تُسرِّدُ في قائمة مؤلَّفاتِه ليس بالضرورة أن يكون كلُّ عنوانٍ منها يندرجُ تحتَه المجلِّدات الضَّخمة أو الصَّفحات الكثيرة؛ فبعض تلك الآثار التي بين الأيدي كان ضخمًا -قد يصلُ إلى مجلِّدين-،<sup>192</sup> وبعضها الآخر يَصِحُّ أن يُطلَق عليه بلسان اليوم أنَّه مقالةٌ علميَّةٌ أو خاطرةٌ أدبيَّةٌ لا تتجاوز ثلاثين أو عشرين صفحةً.<sup>193</sup>
- مرَّ أنَّ أبا الهدى كان مُتمتِّعًا بذاكرةٍ تزخرُ بفيضٍ واسعٍ من المحفوظات المتنوعَّة المجالات، إضافةً لعينين طالما جالتا في نوادر الكُتبِ ونفائس المخطوطات التي كانت تُعْبُّ بها المكتبة السلطانيَّة، فمن الشِّعر فقط كان قد حَفِظَ مئة ألف بيتٍ؛ ويبدو أنَّ غالبَ كُتبه كانت من عُبابِ هذه الذَّاكرة الرَّاخِرة بالمحفوظات، وبهذا قد صرَّح في آخر ما خطَّه قلمُه وهو على فراش الموت -في رسالةٍ أسماها "الفِلْدَة الخضراء"- حيث قال فيها: "كُتبتُها وأنا أسيرُ الفراش، قليلُ الانتعاش، حليفُ همومٍ يكاد يرجفُ لها الطَّودُ العظيم، ويرقُّ لما في رِقِّ معناها قلبُ العَريم، لم أستعِن بها بآلَةٍ، بل -كعادتي- لم أنظر بكتابٍ

<sup>190</sup> يُنظر: محمَّد أبو الهدى الصِّيَّادي، حضرة الإِطلاق في مكارم الأخلاق (د.ن، 1301هـ/1883م)، 10-11؛ المؤلِّف نفسه، صوت الهزار،

3؛ المؤلِّف نفسه، ديوان روضة العرفان المُدَيَّلة منظومائة منشور الدَّرر الحسان (د.ن، 1322هـ/1904م)، 2-3.

<sup>191</sup> يُنظر: الصِّيَّادي، صوت الهزار، 6، 7، 10؛ المؤلِّف نفسه، أزهار الحديقة، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط وآخرين، (دمشق: د.ن،

1395هـ/1975م)، 55، 83، 150.

<sup>192</sup> منها: ضوء الشَّمس، قلادة الجواهر، غنية الطَّالِبين.

<sup>193</sup> منها: البارقة، تسلية البال، لمعة النَّصر، نضارة الحاضرة، نفثة مصدر.

أنقل منه، أو أُنطرح مع ذي رواية أروي عنه، بل هي من محفوظاتي التي امتنَّ الله عليَّ باستيادتها خزانة الفؤاد"<sup>194</sup> وفي كلامه يُلمح حجم الألم الذي تملك قلبه في منفاه الأخير -جزيرة الأمراء-، وهو يشاهد رأي العين تماوي جسد الدولة التي اجتمعت عليها معاول الشرق والغرب.

- وبناءً على ما سبق تقريره من أن أبا الهدى كان يكتب مما تفيض به ذاكرته الزاخرة وقريحته الشعريّة المتوقّدة، على الرّغم مما كان يعانیه من آلام العُربة والفقْد والمرض والسّهام الموجّهة له وللخِلافة التي يُدافع عنها وعن رأسها السُّلطان عبد الحميد؛ فإنّ هذا ربما يُعلّل ما قد يجده قارئٌ من نزرٍ لاحٍ فيه اضطرابٌ في بعض سطورٍ كتبه؛ ولم يكن أبو الهدى يناسٍ استماعة القارئِ عُذراً، فخاطبَ قارئه قائلاً: إنّ ما خطّته يدي "من فكري الذي زلّله صادمُ السّقمِ فارتعدَ ومادّ، فما شوهدَ من الغلطِ في بعض الجُمَلِ فالعذرُ بذلك أكبرُ من الغلطِ وإنّ جلّ"،<sup>195</sup> ويقول في موضعٍ آخر: "ولا بُدّ للصّارمِ من نَبوةٍ، وللفكرِ الحاذقِ من هفوةٍ، فما الظنُّ بمثلِ فكرٍ سدّت منافذَ لطائفه كَتائِفُ الهُمومِ، وانسدّت عليه من غيومِ الأغراضِ المُظلمةِ غياهُبُ الهُمومِ، فالعذرُ العذرُ كرامِ الأدباءِ إذ تعثرون في هذا الدِّيوانِ على الهفواتِ وخذوا ما طاب فإنّ الكريم لا ينظر إلى العثرات".<sup>196</sup>

<sup>194</sup> يُنظر: محمد أبو الهدى الصّبّادي، الفلانة الخضراء، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: المطبعة العلميّة، 1389هـ/1969م)، 3، 4.

<sup>195</sup> الصّبّادي، الفلانة الخضراء، 4.

<sup>196</sup> يُنظر: محمد أبو الهدى الصّبّادي، ديوان التّبيان الجامع بين الحكمة والبيان (مصر: المطبعة العموميّة، 1315هـ/1897م)، 4.

- ويُضافُ إلى جميع ما سبقَ أنّ تلك المؤلفات العلمية قد حَظِيَتْ باستحسانِ علماءِ وأدباءِ كبارٍ في بلادِ الشَّامِ ومصرِ والحجازِ والمغربِ العربيِّ وغيرها، ويظهرُ هذا فيما حَظَّتْهُ أقلامُ كُُلٍِّ منهم من تقارِيطَ دُيِّلتَ بها تلك المؤلفات.<sup>197</sup>

## 2 دواوينه

إنَّ هذه الآثارَ التي أمكِنَ الوصولُ إليها قد تَنَوَّعتْ ما بينَ منثورٍ ومنظومٍ، وإن كانَ الكَمُّ الأكبرُ منها يندرجُ في بَوْتَقَةِ النَّظْمِ الشَّعْرِيِّ عبرِ دواوينٍ مُتَفَرِّقَةٍ، كما قد حُصِّتْ بعضُ القصائدِ أو المنظوماتِ ذاتِ الطَّابعِ الدِّينِيِّ الخاصِّ بإفرادها ضمنَ رسائلٍ طُبِعَتْ بشكلٍ مُستَقِلٍّ، وقد أثبتتْ عنواناتِ دواوينه في أكثر من موضعٍ من كُتُبِهِ، كما صُدِّقَتْ بعضها بتقارِيطِ جُمَلَةٍ من الأعيانِ؛ ولم يكن -في غالبِ هذه الآثارِ- ثَمَّةَ دليلٍ يُجَدِّدُ الرِّمَنَ الدَّقِيقَ الذي حَظَّ فيه قَلَمُ أبي الهُدَى أثرَه الأدبيِّ، فلم يُتَّخَ ترجيحٌ مُعَيَّنٌ يُرْتَبُّ به أقدمُ تلك الآثارِ على غيره؛ ومما تجبُّ الفِطْنَةُ إليه أنّ آثارًا أدبيَّةً أُخرى -سبقَ المرورُ عليها في عنواناتِ آثاره- لا يزالُ الفقدانُ يطويها في غياهبِ الضِّياعِ، منها النَّثْرِيُّ مثل "شوارد الأدب"، ومنها الشَّعْرِيُّ مثل "ديوان بلبل الأفرح" ومنظومة "الدَّراري الثَّمينة في سيرة ساكن المدينة"، ولعلَّ أبرزها ديوانٌ يُعَدُّ أكبرَ دواوينه الشَّعْرِيَّةِ وهو المُسَمَّى "ديوانُ بَراهينِ الحِكمِ"؛ وقد سَنَحَتْ توارِيطُ طَبَعَاتٍ ما تَوَفَّرَ من هذه الآثارِ أن يكونَ ترتيبها وفق ما يلي:

### أ. ديوان الفيض المُحمَّدي

لعلَّ الأشعارَ التي ضَمَّنَتْها دَفَّتًا هذا الدِّيانَ هي أقدم ما وصلت إليه الأيدي المُلْتَمِسَةَ لشعر أبي الهُدَى، مما يعني أنّ أبا الهُدَى نَظَّمَ هذه الأشعارَ وهو في عنفوانِ شبابهِ قبل أن يبلغَ الثَّلاثين من

<sup>197</sup> من ذلك ما فُرِطَتْ به كتب: نور الإنصاف، شفاء القلوب، ضوء الشَّمس.

عمره، إلا أن هذا الديوان لم يكن أبو الهُدَى جامعَهُ بنفسِهِ، بل إنَّ جامعَ هذه الأشعار هو رئيس محكمة الحقوق ببيروت القاضي يوسف بن إسماعيل النَّبْهَائِيّ الذي استأذَنَ أبا الهُدَى في أن يجمع أشعارَهُ وَيُنَسِّقَها ليضمَّها ديوانٌ يوضع بعد طبعِهِ في مكتبة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، فأذِنَ لَهُ أبو الهُدَى بذلك،<sup>198</sup> وبعد جمع تلك الأشعار وترتيبها تحت عنوان "ديوان الفَيْض المُحمَّدِيّ والمَدَد الأحمَدِيّ"، قام النَّبْهَائِيّ بعرضه على أبي الهُدَى فَصَحَّحَ ما فيه من تصحيفٍ ونَقَحَهُ وراجَعَهُ ووافق على نشره فَطُبِعَ بمطبعة الجوائب بإستانبول سنة (1298هـ/1881م)، بمجلدٍ واحدٍ يقع في مئتي صحيفة، كانت الأشعار فيه خاليةً من أيِّ ضبطٍ في الشَّكل، ولم تكن تلك الأشعار مُرتَّبةً وفق الحروف الهجائية بل صُنِّفَتْ بترتيبٍ على حسب موضوعاتها؛ وبما أنَّ نسخةَ إستانبول هي التي وَقَعَتْ في يدِ أبي الهُدَى ونالت تصحيحَهُ وموافقَتَهُ فقد كانت هي النُّسخةُ المعتمَدةُ في هذا البحث، وأُهمِّلت الطَّبعةُ الأخيرةُ التي صَدَرَتْ في بيروت سنة (2021م) بتحقيق عبد الله محمود عمر.

وقد قام النَّبْهَائِيّ بالتَّقديم لهذا الديوان بمقدمةٍ تكَلَّمَ فيها على فضلِ الشِّعر وأنواعِهِ، ثمَّ أثنى على أبي الهُدَى وشعرِهِ، ولم يُغفلِ الثَّناء على السُّلطان عبد الحميد؛ وساقَ أشعارَ أبي الهُدَى مصنَّفةً على سبعةِ أبواب: <sup>199</sup>

- الباب الأوَّل: لأشعار التَّوحيد والدُّعاء والابتهاال إلى الله.
- الثَّاني: لأشعار المديح النَّبويِّ وهو أوسع الأبواب في هذا الديوان - حيث بلغ فيه أكثر من ستين صحيفةً -.
- الثَّالث: لأشعار المدح التي أفردتها لآل البيت النَّبويِّ وذكر شمائلهم وسجايهم.

<sup>198</sup> يُنظر: محمَّد أبو الهُدَى الصِّيَّادِي، ديوان الفَيْض المُحمَّدِيّ والمدد الأحمَدِيّ، إعداد: يوسف النَّبْهَائِيّ، (إستانبول: مطبعة الجوائب، 1298هـ/1881م)، 5.

<sup>199</sup> يُنظر: د.ف.م، 3، 6، 7.

- الرَّابِع: لأشعار المدح التي أفردتها لصحابة رسول الله وذكر أوصافهم وأخلاقهم، وهو أقلُّ الأبواب حظوةً بالأشعار - حيث نال تسع مقطوعاتٍ توزَّعت على أربع صفحات-.
- الخامس: لأشعار المدح التي أفردتها لأهل العلم والصَّلاح والتُّقى من أعيان الأُمَّة المُحمَّديَّة.
- السَّادس: لأشعار تنطوي ضمن أغراض متنوّعة بين الرِّثاء والمديح والهجاء والفخر والحكمة والوعظ والزُّهد.
- السَّابع: لأشعار الغزل والنَّسب، وهو يلي باب المديح النَّبويِّ في السَّعة وكثرة الأبيات. ومن المُمكن القول إنَّ الموضوعات التي نظم فيها أبو الهُدَى شعره بشكلٍ عامٍّ لا تكاد تتجاوز ما بَوَّها به النَّبهايِّ في هذا الدِّيوان، إذ ينطبق هذا التَّبويب على المجموع العامِّ لشعر أبي الهُدَى في ديوان الفيض المُحمَّديِّ وغيره من جملة الدَّواوين الأخرى.

## ب. ديوان قُرَّة العَيْن

هذا الدِّيوان يلي سابقه في القَدَم إذ أشار أبو الهُدَى إلى أنَّه قد انتهى من نظمه وترتيبه سنة (1301هـ/1883م)، وطُبِع في المطبعة العثمانيَّة في إسطنبول سنة (1302هـ/1884م)، بمجلدٍ واحدٍ يقع في أربع وستين صحيفةً، تحت عنوان "قُرَّة العَيْن في مدح الإمام أبي العَلَمين"، ولم يُراعَ في ترتيب قصائده أيُّ ترتيبٍ لا على الحروف الهجائيَّة ولا على غيرها، ولم تُمَيِّز القصائد بفصلٍ خاصٍّ بها ولا

الموشّحات كذلك، بل وُجِدَت القصيدة الطويلة بجانب التخميسة القصيرة لبيتين أو أكثر وقد يتلوها موشّحٌ تُفْتَحُ بعده قصيدةٌ أخرى على قوافٍ مُخْتَلِفَةٍ وموضوعاتٍ متفرّقة<sup>200</sup>.

ويُلَمَح من خلال عنوان هذا الديوان أنّ أبا الهُدَى أراد له أن يكون خالصًا مُجَرَّدًا لمدح أبي العَلَمين، وهذا الشّخص أحدُ أعلام أجداده وهو أحمد الرِّفاعي (ت. 578هـ/1182م) -صاحب الطَّرِيقَة الصُّوفِيَّة-، وبالإمكان أن يُقال إنَّ هذا المدح من أبي الهُدَى لجدّه يحملُ في ثناياه غرض الفخر أيضًا، إذ الرّجل يفخر بإظهار مزايا جدّه الحُسَيْنِيّ ويُحِرُّ في الثناء عليها.

ومما يسترعي الانتباه في هذا الديوان هو ما تميّز به من وجود الموشّحات التي يُمكنُ القول إنّها كانت لخدمة الإنشاد الدينيّ، مما يعكس للنّاظر صورة ذلك الجوّ الصُّوفيّ الطُّرقيّ المُحيط بأبي الهُدَى في تلك الفترة؛ وقد حظي الديوان بتقريظٍ واحدٍ للمدرّس بالجامع الأمويّ آنذاك محمّد صالح بن أحمد سعيد المُنيّر (ت. 1321هـ/1903م).

### ج. ديوان التّبيان

هذا الديوان ثالث أقدم مجموعة شعريّة يُوصَل إليها من شعر أبي الهُدَى بقريضة تاريخ طباعته، وقد قام بجمع أشعاره وترتيبها أبو الهُدَى نفسه وسَمَّاهُ "التّبيان الجامع بين الحكمة والبيان"، ثم طُبِعَ تحت عنوان "التّبيان"، وذلك بالمطبعة العموميّة بمصر سنة (1315هـ/1897م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في مئةٍ وخمسين صحيفةً، ولم يُراعَ فيه ضبط الشّكلِ في القصائد.

<sup>200</sup> يُنظر: محمّد أبو الهُدَى الصّبيّانيّ، ديوان قَرّة العين في مدح الإمام أبي العَلَمين (إستانبول: المطبعة العثمانيّة، 1302هـ/1884م)، 11، 12، 14، 19.

وقدّم أبو الهدى لهذا الديوان بمقدّمة أدبيّة عرّف فيها الشّعر من منظوره الأدبيّ أنّه: "نتيجة العقل وعقيلة الفضل وزبدة الأفكار وخزانة الأسرار وأموذج الهَمَم ومرآة الشّيم وجاذبة الأبواب وفاكهة الأنجاب وسيف الخُطباء ونسمة الأريحيّة التي تهزُّ أطوار العُظماء"، ثمّ أشار إلى أهميّة الشّعر ورفع من شأنه فربط بين قوله تعالى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"<sup>201</sup> وبين الحديث النبويّ: "إنّ من الشّعرِ حكمة"<sup>202</sup>، ولم يُغفل أبو الهدى أن يلفت الأنظار إلى أنّ غرْبته وبعده عن أهله وقبيلته كانتا من أهمّ المُثيرات لأشجانه الشاعريّة التي دفعته لينظّم في فنون الشّعر عدّة دواوين كان منها هذا الديوان الذي هدّبه وقدمه للقراء "ليكون طرفه إلى سوق الأدب وتحفة يطربُ بها أهل الميل لأداب العرب".<sup>203</sup>

وأبرز ما يميّز هذا الديوان ليس ترتيبُ قصائده على حروف الهجاء فحسب، بل ما قام به أبو الهدى من الإشارة إلى أسبابِ نظمه للكثير من تلك القصائد، وذكره للوقائع المرتبطة بها،<sup>204</sup> ويكاد الديوان يخلو من الموشّحات سوى ثلاثٍ منها،<sup>205</sup> إضافةً إلى تضمينه لثلاثة نصوصٍ نثريّة، الأوّل كان رسالةً بعثها إلى شخصيّاتٍ مرموقّة في الدّولة يُعلّق فيها تعليقاً على مسألة لغويّة<sup>206</sup> دار التّقاش فيها بينه وبينهم ويظهر فيها اطلاعُه الحثيث على كتب اللّغة والبلاغة العربيّة؛ والنّص النثريّ

<sup>201</sup> البقرة 2/269

<sup>202</sup> محمّد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصّحيح، إعداد: محمّد زهير النّاصر، (بيروت: دار طوق النّجاة، 1422هـ/2001م)، "الأدب"، 78 (رقم 6145).

<sup>203</sup> يُنظر: د.ت.ب، 2، 4.

<sup>204</sup> يُنظر: د.ت.ب، 20، 32، 127.

<sup>205</sup> يُنظر: د.ت.ب، 44، 117.

<sup>206</sup> الشخصيّات هي الوزير جودت باشا وقاضي العسكر إبراهيم كمورجي ووكيل درس المشيخة الإسلاميّة بدار الخلافة عاصم أفندي، والمسألة هي قضية تعدّي اسم الفاعل "متمثل" بنفسه أو بحرف جر.

الثاني يتضمن تعليقه على مسألة عقديّة يُفصّل فيها معاني التوحيد ويردّ مذهب أهل الوحدة المطلقة  
ويبيّن بطلانهُ قائلاً:

والوحدة الصّرف وهم من يقول بها بعير فرّق تعدّي الحقّ أو كفراً

وأما النصّ الثالث فلم يكن إلا خاطرةً خاطرت له في تحقيق عبارة "ربّ علم ثمرته جهل"،

حيث نظم في معناها بيتين ومن ثمّ علّق عليها.<sup>207</sup>

ومما يستدعي الاهتمام تنوع موضوعات هذا الديوان وتوزّعها على أغراض الشعر كافة مع  
جودة النظم والسبك قياساً بديواني الفيض المحمّدي وقرة العين، ولربما يعود هذا إلى غنى التجربة  
الشعرية عند أبي الهدى وتطورها عبر مرور عقد ونصف من الزمان على نظم أشعار الديوانين السابقين؛  
ولعلّ كثرة التقاريف التي نالها هذا الديوان تُفسّر ما ذكر، حيث قرّظهُ مجموعة من الأدباء والعلماء  
وأساتذة العربية منهم: الشاعر عبد الله فريح القبطي المصريّ (ت. 1325هـ/1907م) و أسمى تقريظه  
ب: "قلائد العقيان"<sup>208</sup> إلى التبيان، ومنهم الشاعر الموسيقار الملاً عثمان الموصليّ  
(ت. 1341هـ/1923م)، ومنهم الصّيدلانيّ الأديب نقولا حدّاد (ت. 1373هـ/1954م)، وآخرون من  
علماء مصر والأزهر، كلُّهم أثنوا على هذا الديوان وسجّلوا ذلك بالتشّير والنظم وأرّخوا زمان طبعه  
وأجزلوا المدح لناظمه أبي الهدى.<sup>209</sup>

<sup>207</sup> يُنظر: د.ت.ب، 11، 51، 60.

<sup>208</sup> هو الذهب الخالص والعسجد وقيل أنّه الذهب الذي ينبت نباتاً ولا يُستَدَاب، يُنظر: ابن منظور، "عفا"، 81/15.

<sup>209</sup> يُنظر: د.ت.ب، 135.

## د. ديوان مرآة الشُّهود

وهو ثاني أضخم مجموعةٍ شعريّةٍ لأبي الهُدَى، انتهى من جمعه وترتيبه سنة (1315هـ/1906م)، وطُبِعَ تحت عنوان "مرآة الشُّهود في مدح سلطان الوجود"، وذلك في مصر بالمطبعة العموميّة سنة (1316هـ/1907م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في مئتين وثمانين صحيفةً، رُتِبَت قصائدهُ وفق الحروف الهجائيّة، وضُبطت بالشكّل، وأُفردَ القسمُ الأخير من الدِّيوان للموشّحات التي زادت على العشرين.<sup>210</sup>

وفي مُقدِّمة هذا الدِّيوان ينوّه أبو الهُدَى أنّ الباعث له على جمع هذه الأشعار هو إشارةٌ والِدِه إليه بجمع أشعاره المُتعلِّقة بغرض المديح النبويّ على وجه الخصوص، فتحركت همّته لذلك وقام بجمع هذا الدِّيوان وتنسيقه وترتيبه.

وأهمّ ما يلفت النّظر في هذا الدِّيوان هو ظاهرة النّفس الطّويل لقصائده، لا سيّما إذا عُرف أنّ أوّل قصيدةٍ افتُتِحَ بها الدِّيوان كانت تربو على ثلاثمئة بيتٍ ومطلعها:

لَكَ فِي مَهْمِهِ<sup>211</sup> التَّجَلِّي البهَاءُ يَا نَبِيًّا نُؤَابُهُ الْأَنْبِيَاءُ

ويُضافُ إلى هذه القصيدة أختها في الطّول، وهي التي شَطَّرَ بها أبو الهُدَى قصيدةً شرف الدِّين البوصيريّ (ت. 696هـ/1294م) المُسمّاة بـ: البُرّة - والمشهورة باسم "البُرّة" وغيرها من الأسماء-،<sup>212</sup> وهي قصيدةٌ ذاتُ حظوةٍ لدى شعراءِ العربيّة من لدن صاحبها إلى عصر أبي الهُدَى،

<sup>210</sup> يُنظَر: محمّد أبو الهدى الصّبّادِي، ديوان مرآة الشُّهود في مدح سلطان الوجود (مصر: المطبعة العموميّة، 1316هـ/1907م)، 212.

<sup>211</sup> واحدُ المَهَامِه، وهي المفازة المُترامية الأطراف، يُنظَر: الجوهري، "مهه"، 2250/6.

<sup>212</sup> يُنظَر: رابع بوحوش، البُنيّة اللّغويّة لبرّة البوصيريّ (الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1982م)، 11.

تخميسًا وتشطيرًا وشرحًا ومعارضةً،<sup>213</sup> وقد بلغت مع تشطير أبي الهُدَى إلى ثلاثمئةٍ وعشرين بيتًا،<sup>214</sup> ومطلعها:

(مَولايَ صَلِّ وَسَلِّمْ دائِمًا أَبَدًا)      على نَبِيِّكَ رَبِّ التَّاجِ والعَلَمِ  
مَولايَ جُدْ بِتَحِيَّاتٍ مُبارَكَةٍ      (على حَبيبِكَ خَيْرِ الخَلقِ كُلِّهِم)

ويبدو أنَّ هذا التَّشطيرَ انفردَ بفائقِ عنايةٍ من ناظِمِهِ، فبعد أن أنْهاهُ سنة (1308هـ/1890م)، قام بطبعِهِ في كُرَّاسَةٍ صَغِيرَةٍ بَلَغَتْ ثَماني عَشْرَةَ صَحيْفَةً بالإسْكَندريَّةِ بالمطبعةِ الحَلَميَّةِ سنة (1309هـ/1891م)، أي أنَّ هذا التَّشطيرَ قد رأى النُّورَ قبلِ إِعادَةِ نَشْرِهِ مرَّةً أُخْرى مُكرَّرًا في ديوانِ مرآةِ الشُّهُودِ ضمنِ قافيةِ حرفِ الميمِ.<sup>215</sup>

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ هذا الدِّيوانَ على الرَّغْمِ من تجريدِ أبي الهُدَى فيه قَلَمَ نظْمِهِ لغرضِ المديحِ النَّبويِّ فإنَّ هذا لم يجرمِ النَّاظِرَ في تلكِ القِصائِدِ من لَمَحِ أَغراضٍ أُخْرى في ثناياها، وإن كان الغرضُ الرَّئيسُ من تلكِ القِصائِدِ هو المديحِ النَّبويِّ؛ وأمَّا الموشَّحاتُ فقد تجرَّدتْ كُلُّها لغرضِ المديحِ النَّبويِّ وأُشْرِبَتْ شيئًا من الغزلِ الرَّقيقِ والنَّسيبِ، وقلَّ تداخلُ أَغراضٍ أُخْرى ضمنِ تلكِ الموشَّحاتِ. وحظيَ هذا الدِّيوانُ بتقاريطٍ عديدةٍ من أَقطارِ شتَّى من الشَّامِ وأزهرِ مصرِ والجزائرِ والمغربِ ومن هؤلاءِ المُقرِّطينِ عبدُ الرَّزاقِ البيطارُ وعضوُ لجنةِ كبارِ علماءِ الأزهرِ مفتيِ المالكيَّةِ أحمدُ الجيزاوي (ت. 1323هـ/ 1905م) وعبدُ الرَّحمنِ محمَّدُ عَليشِ المالكيِّ (ت. 1346هـ/ 1928م) والقاضي عبدُ الرَّحمنِ عَليشِ (ك. ح. 1316هـ/ 1907م) وجماعةٌ آخرونِ.

<sup>213</sup> يُنظَر: أحمد بن حجر الهيثمي، العُمَدَةُ في شرحِ التُّرُودَةِ، تحقيق: بسَّامُ بارود، (عَمَّان: دار الفتح، د.ت)، 44، 54، 57.

<sup>214</sup> يُنظَر: د.م.ش، 5، 6، 159.

<sup>215</sup> يُنظَر: محمَّد أبو الهُدَى الصَّبَّادِي، تشطيرِ التُّرُودَةِ (الإسْكَندريَّة: المطبعة الحَلَميَّة، 1309هـ/1891م)، 2.

## هـ. ديوان الرّوض البسيم

وهو ديوانٌ صغيرٌ الحجم جمعه أبو الهُدَى وطُبِعَ سنة (1322هـ/1904م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في ثمانٍ وسبعينَ صحيفةً تحت عنوان "ديوان الرّوض البسيم" ولم يُعَلَمَ مكان النّشر والنّاشِر، ورتّبت قصائدهُ وفق قوافيها على الحروف الهجائية، وتراوحت بين القصّر والطول فأطولها همزيّة افتتح بها الدّيوان وصلت إلى مئة بيت ومطلعها:

"ماردّدت في الأيكة<sup>216</sup> الورقاء إلا ورُدّدَ للشّجّي بُكاء<sup>217</sup>"

وقصّرت بعض أشعار الدّيوان حتى لم تتجاوز البيت والبيتين، ولم يُرَاعَ في جميع الدّيوان ضبط الشّكل، ولم تُردّف صَفحاته الأخيرة بأيّ تقريظ؛ وقد غلبَ على هذا الدّيوان الطّابع العزّي الرّقيق، وإليه أشار أبو الهُدَى في صدرِ الدّيوان حيثُ قال: "إنّه جمع فيه شعره "رقيق المبنى لطيف المعنى".<sup>218</sup>

## و. ديوان روضة العرفان

هذا الدّيوان كسابقه في صغر الحجم إذ جمعه أبو الهُدَى ورتّبه فطُبِعَ سنة (1322هـ/1904م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في ثمانٍ وسبعينَ صحيفةً تحت عنوان "ديوان روضة العرفان المديّلة منظوماته بمنثور الدرر الحسان"، ولم يُعَلَمَ مكان النّشر والنّاشِر، واشتمل هذا الدّيوان على تسعٍ وعشرينَ قصيدةً مُرتّبةً وفق قوافيها على الحروف الهجائية لكلِّ حرفٍ قصيدةٌ واحدةٌ، وصُدّرت مقدّمتهُ بقصيدتين، وتراوحت

<sup>216</sup> الشّجرة الكثيفة الملتقّة، وهي واحدُ الأيكِ، يُنظَر: الجوهري، "أيك"، 1573/4.

<sup>217</sup> د.ر.ب، 3.

<sup>218</sup> يُنظَر: د.ر.ب، 2.

قصائدُ الديوان بين القصرِ والطولِ ولم تُلمح فيما بينها قصيدةٌ فارعة الطول كما في الدواوين السابقة،  
وخلت هذه الطبعة من ضبطٍ للشكل وكثرت فيها الأخطاء الإملائية والمطبعية.

ويتميزُ هذا الديوان عن غيره من دواوين أبي الهدي بالامتزاج بين نتاجه الأدبي، الشعري منه  
والنثري، فقد أعقب كل قصيدة بتعليقٍ لطيفٍ على معنى من المعاني التي وردت فيها، وتارةً يتلو  
القصيدة بخاطرةٍ سنحت لباله أحب أن يُشير إليها، مُستشهدًا بكلام أهل العلم والأدب السابقين  
وأشعارهم التي تؤيد ما يذهب إليه، ولذلك فيمكن القول: إنه ديوانٌ مزدوجٌ بين نثر الرجل ونظمه؛  
ويُضاف إلى هذا أن من مميزات قصائده غلبة الطابع الحكمي عليها إضافةً للطابع العزلي في كثيرٍ من  
الأحيان وخلوه من أغراضٍ أخرى تمامًا كالرثاء مثلاً.<sup>219</sup>

وقد يحسنُ الاستشهادُ بقطعةٍ من نثره الأدبيّ عرّضَ فيها حقيقةً فناء الدنيا وتحول أحوالها  
وتقلُّبها فقال:

"هذه الأكوان حقائقٌ حكيمٌ لرفائقٍ فهم "إتّما يتذكرو أولو الألباب"،<sup>220</sup> ظلالٌ ورأها زوالٌ،  
وخيالٌ يعقبه انتقالٌ، من أمعن النظرَ في ماضيه رفعَ الهمة عن آتیه، وما حرصَ على ما هو فيه، لا  
تبدو في نسيجه فرحةٌ إلا واندمجَ فيها ترحةٌ، ولا انبلجَ من سمكه صبحٌ وجدانٌ إلا احلوك فيه ليلٌ  
فقدانٌ، طربقُ فراقٍ ما فيه رفاقٌ، دوامُ الحالِ فيه مُحالٌ، حالٌ حائلٌ وظلٌّ زائلٌ".<sup>221</sup>

<sup>219</sup> يُنظر: د.ر.ع، 3، 4، 8.

<sup>220</sup> الرّعد 19/13.

<sup>221</sup> د.ر.ع، 4.

## ز. ديوان الدرّ المنتظم

وهو أضخم مجموعة شعريّة وصلت إليها الأيدي من أشعار أبي الهُدَى، طُبِعَ سنة (1322هـ/1904م) تحت عنوان "ديوان الدرّ المنتظم مختصرُ براهين الحكَم" بمجلدٍ واحدٍ يقع في اثنتين وثلاثمئة صحيفة، ولا يُعرف مكان النّشر والنّاشر، ورُتبت قصائده وفق قوافيها على الحروف الهجائيّة، ولم يُراعَ فيه ضبط الشّكل، ولم يُردف بأيّ تقريبٍ على الرّغم من أنّه الأكبر حجمًا بين دواوين أبي الهُدَى، كما خلا من النّثر فيما عدا المُقدّمة والخاتمة التي ذيلهُ بها بشيءٍ من الكلام على الشّعر العربيّ وموضوعاته، وفي صفحاته الأخيرة ذُكرت ترجمةُ أبي الهُدَى الرّسميّة وأشيرَ فيها إلى سلسلة نسبه الحسينيّ، وسُردت عناوين مؤلّفاته.

وقد عمد أبو الهُدَى إلى اختصاره من ديوانٍ له آخر كثير المادّة ضخّم الحجم صعب الحمل -على حدّ قوله- وهو "ديوان براهين الحكَم"، فقام بتنسيقه وترتيبه مُختصرًا ليسهل تداوله بين الأيدي، وأودعهُ "الأساليب الأدبيّة الرّقيقة والأعاجيب العرفانيّة الرّشيقة".

وأبرز ما يميّز به هذا الدّيوان غزارة الموضوعات التي دارَ في فلكها شعرُ أبي الهُدَى، وتراوح ما أودعَ فيه من الأشعارِ بين الطُّول والقصر، بينما ندرت فيه الموشّحات، ومما يسترعي الانتباه في هذا الدّيوان أنّ ناظمه كان يحرصُ على تأريخ الوقائع التي نظم لأجلها هذه الأشعار، عبر ذكر التّوقيت السنويّ أو بذكر سبب النّظم لغالب تلك القصائد والأبيات.<sup>222</sup>

<sup>222</sup> يُنظر: د.ر.ت، 2، 3، 92، 261، 395.

## ح. ديوان أزهار الحديقة

وهو مجموعة شعرية لطيفة انتهى أبو الهدى من ترتيبها وتنسيقها سنة (1323هـ/1905م)، وطُبعت في زمانه، ثم طُبعت مرّة ثانية سنة (1395هـ/1975م)، بتحقيق الأستاذ عبد الحكيم عبد الباسط وآخرين، تحت عنوان "أزهار الحديقة" بمجلد واحد يقع في مئتي صحيفة، وقد روعي في غالب أبياتها ضبط الشكل، وفي كثير من المواضع لم يحرص المحققون على عزو الأبيات إلى مظانها أو إلى قائلها؛ على أن البحث قد اعتمد هذه الطبعة المُحقّقة، لعدم توفّر النسخة التي طُبعت في زمان المؤلف.

والديوان قائم على فكرة مُنقّدة في ذهن أبي الهدى، قوامها أن يأتي بلطائف أشعار الحكماء والبلغاء والشعراء وفضلائهم بمن سبقوه في العصور السابقة على اختلاف أزمانهم حتى بمن عاصره من الفضلاء، فيذكر قصائدهم أو مقطوعاتهم أو حتى يتيم أبياتهم - بعد نسبتها إليهم - ثم ينسج على منوالها تذييلاً من نظمه فيأتي بالبيت أو البيتين أو يسترسل فيتمها بالقصيدة الكاملة، أو يكتفي بتشطير أو تخميس لأبيات السابقين، فيزيد معانيها غزارةً بمعانٍ أحر ويأتي بصورٍ مُختلفةٍ أو يوضح ما غمض وأغلق من مراداتها التي نُظمت لأجلها، ولعل أكثر من اهتم بسوق أشعاره هو أستاذه العراقي بهاء الدين الرّواس؛ وقد يُعرض عن كلّ ما سبق فيأتي بقصائد له مُفردةٍ أو بمقطوعاتٍ لم يلحقها بقول أحد من السابقين.

ومما يلفت النظر في هذا الديوان سعة اطلاع أبي الهدى على الأدب وعصوره بدءاً من العصر الجاهلي إلى زمانه، إضافة إلى أن اختياراته تُبرز ذائقته الشعرية، إذ اختيّر الأشعار ليس من السهولة

بمكانٍ فقد قيلَ في أبي تمامٍ واختياراته في حماسته أنه فيها "أشعرُ منه في شعره"،<sup>223</sup> لأهميته باب الاختيار والانتقاء من سجلّ الأدب العربي؛ وإلى جانب هذا كله فقد كانت موضوعات الشعر التي اختارها متنوّعةً يغلب عليها النفس الحكمي والصوفي والغزلي.<sup>224</sup>

## ط. ديوان اللؤلؤ والمرجان

الذي يظهر للباحث أنّ هذا الديوان لم يُطبع لا في حياة الناظم ولا بعدها، وقد عُثِرَ على مخطوطةٍ لهذا الديوان محفوظةٍ بدار الكتب والوثائق القومية في مصر برقم: (75277ز)، مكتوبةٍ بخطٍ واضحٍ، نُسِّقت فيه القصائد وفق القوافي على الحروف الهجائية، وزادَ عددها على العشرين، ولم يُلَمَح فيها تخميسٌ أو موشحٌ، ولم يُراعَ فيها ضبطُ الشكل، ولم يُعرف اسمُ ناسخها، وبلغت عدد صحائفها تسعًا وأربعين صحيفةً.

وقد أشار أبو الهدى في مُقدِّمة هذا الديوان إلى أنه عزمَ على أن يكون ديوانًا جامعًا لمنظوماتٍ شعريّةٍ في المديح النبويّ مُرتبّةٍ وفق قوافيها على الحروف الهجائية، ولم يقتصر على القصائد المدحية التي نظمها هو فحسب، وإمّا ضمَّ إلى جانبها مدائحَ نبويّةً أُخرَ من نظم أستاذه الرّؤاس، وحرصَ في كلّ قافيةٍ على تقديم قصائد أستاذه أوّلًا ومن ثمّ الإتيان بقصائده، وكان يسمّي القصيدة التي من نظم أستاذه بـ: "اللؤلؤة"، والتي من نظمه هو بـ: "المرجانة"، ولعلَّ هذا الترتيب هو الذي وراء عنوان الديوان، حيثُ سمّاهُ: "ديوان اللؤلؤ والمرجان في مدائح حبيب الرّحمن عليه صلوات الملك الدّيّان".<sup>225</sup>

<sup>223</sup> عبد القادر بن عمر البغدادي، خزائن الأدب ولُبُّ أُنابِ لسانِ العَرَب، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418هـ/1997م)، 357/1.

<sup>224</sup> يُنظر: در.ح، 6، 11.

<sup>225</sup> يُنظر: محمد أبو الهدى الصّبّادي، ديوان اللؤلؤ والمرجان في مدائح حبيب الرّحمن عليه صلوات الملك الدّيّان (القاهرة: دار الكتب والمخطوطات والوثائق القومية المصرية، 75277ز)، 2، 3، 49.

إلا أنّ هذه المخطوطة التي وصلت إليها يدُ البحث لم تصل قصائدها إلى كافّة الحروف الهجائيّة، بل وصلت فيها القوافي إلى حرف الحاء، ولا يُدرى أهو نقصٌ لم يُتممه ناسخُ المخطوطة؟، أم هو نقصٌ في المخطوطة نفسها؟، أم أنّ أبا الهُدَى لم يتمّ مشروع ديوانه هذا؟، ولم يُلح في الأفق - إلى الآن - ما يُرِجِحُ واحدًا من هذه الاحتمالات الواردة على الآخر.

## ي. نَوَابِغُ الْحِكْمِ

رسالةٌ لطيفة الحجم، مزدوجةٌ بين النثر والنظم، انتهى يراعُ أبي الهُدَى من رَقْمِهَا سنة (1323هـ/1905م)، وطُبِعَتْ في مصر بمطبعة علي سكر سنة (1326هـ/1908م)، وتقع في ستِ وثلاثين صحيفةً، وتحتوي على تخميسٍ واحدٍ وخمسة عشرَ قصيدةً شعريّةً، لم تُرتَّب على الحروف الهجائيّة، بل على حسب موضوعاتها، ولم يُراعَ في كامل الرِّسالة ضبط الشَّكل وختّت من أيّ من علامات التَّرقيم.

وحقيقة الرِّسالة هذه إنّما هي عُصارةٌ خُلصّةٌ تجرِّبُ رجلٍ جرَّب الحياة وخبرها بكلِّ أطوارها خفضًا وارتقاءً، كدراً ونقاءً، وخالط النَّاس على اختلاف طبقاتهم وأشكالهم، وتمايُرِ عِلّاتهم وألوانهم، وعائِنَ وعائِنَ صنوفَ طبائعهم وتعدَّدَ أغراضهم، وخبرهم حقَّ الخبرة، ثم خرج للقارئ بخلصة ما عاينه وما عاناه في زمانه لينصحه ويعطيه حقائق حياة ذلك العصر، ومن هنا فلن يُتعدَّ عن الحقيقة إن قيل إنّ الرِّسالة هذه مرآةٌ لذك الزَّمان عكست صورَهُ وحقائِقَهُ بلسان الحكيم العاقل.

وقد حرص أبو الهُدَى في هذه الرِّسالة ألا يأتي إلا بكلامه، ولم يُلحِق به أيّ كلامٍ آخر، لا للسَّلَف ولا للخَلَف، على الرِّغم من أنّها لم تتعد عن ساحلِ بحرِ أفهامهم ومعانيهم؛ ويسترعي الانتباه أنّ الرِّجُل صاغ الرِّسالة بصورة الحكَم، الحكمة تلو الأخرى، على تنوعٍ في موضوعاتها، مُراعياً في كُلِّ

ذلك بلاغة العبارات وموشّياً لها بالمُحَسِّنَات البديعيّة والسَّجْع والمَجَاز، مُضْفِياً عليها بذلك الصَّبْغَةَ الأديبيّة؛ وتخلَّل ذلك إتيانه ببعض قصائده وأبياته التي نظمها متناسبَةً مع مقام كلِّ حكمَةٍ من تلك الحِكم، وقد أفرَدَ الكلام على الشِّعر بقصيدةٍ مطلعها:

هل الشِّعْرُ إلا حكمةٌ ورقيقةٌ تُفاضُ لذي السَّمعِ النَّقيِّ الذي يدري<sup>226</sup>

وفي هذه القصيدة بين جميع أنواع الشِّعر -برأيه- ثم ساق بعد هذا على كلِّ نوعٍ من الأنواع الشِّعريّة التي ذكرها قصيدةً أو أبياتاً له كي تكون مثلاً على هذا النوع، وبهذا يصحُّ أن يُقال: إنَّ هذه الرِّسالة احتوت على اختيارات نفائس قصائد أبي الهُدَى التي يراها تصلح أن تكون أمودجاً على ذاتيّته الشِّعريّة وسليقته الأديبيّة.<sup>227</sup>

### ك. منظومة آيات العرفان

وهي منظومةٌ شعريّةٌ، انتهى أبو الهُدَى من نظمها سنة (1302هـ/1884م)، وجاوزت أبياتها مئة بيتٍ، وطُبعت في ذاتِ السنّة في إستانبول بمطبعة مهرا، بكرّاسةٍ لطيفةٍ تقع في بضع عشرة صحيفَةً، تحت عنوان "آيات العرفان في مولد سيّد ولد عدنان عليه أفضل الصّلاة والسّلام كلَّ آن"، ومطلع المنظومة:

نحمدُ اللهَ لَدَى بَدءِ الكلامِ      وعلى سِرِّ الوَرَى أَرْكِي السّلامِ  
وعلى الآلِ الميامينِ الخِيارِ      وعلى الأصحابِ أصحابِ الفَخارِ<sup>228</sup>

<sup>226</sup> يُنظر: محمد أبو الهُدَى الصَّبَّادِي، نوابغ الحِكم (مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م)، 23.

<sup>227</sup> يُنظر: الصَّبَّادِي، نوابغ الحِكم، 2، 13، 25، 29.

<sup>228</sup> محمد أبو الهُدَى الصَّبَّادِي، آيات العرفان في مولد سيّد ولد عدنان (إستانبول: مطبعة مهرا، 1302هـ/1884م)، 2.

ويُتضح من خلال عنوانها الغرض الذي قامت عليه وهو نظم قصّة المولد النبويّ، وقد أشار زكي مبارك (ت. 1371هـ/1952م) إلى اندراج هذا النوع من النظم ضمن موضوع المديح النبويّ،<sup>229</sup> وإن كان هذا النوع يعني بما يتعلّق بأخبار ولادة النبيّ الكريم على وجه الخصوص، ولم يكن شأن النّظم غريباً في هذا الاعتناء، بل هو شأن العديد من السّابقين الذين اعتنوا بقصّة المولد النبويّ، من أمثال ابن الجزريّ (ت. 833هـ/1429م)<sup>230</sup> وابن حجر الهيتمي (ت. 974هـ/1566م)،<sup>231</sup> وملاً عليّ القاري (ت. 1014هـ/1605م)<sup>232</sup> وغيرهم ممّن قبلهم وممن جاء بعدهم -على اختلافٍ مناهجهم في تناول القصّة؛<sup>233</sup> وإذا كان الحافظ ابن ناصر الدّين الدّمشقيّ (ت. 842هـ/1438م) وغيره قد صاغوا القصّة بأسلوبٍ أدبيّ نثريّ،<sup>234</sup> فإنّ أبا الهدى صاعَ قصّة المولد النبويّ بالأسلوب الأدبيّ الشّعريّ، واختار لمنظومته بحر الرّمّل، ولربما كان السّبب في هذا الاختيار هو ما يحمله وزنه العروضيّ من نغم غنائيّ بسيطٍ<sup>235</sup> يتناسب مع الأجواء الإنشاديّة في البيئة الصّوفيّة التي أحاطت بالنّظم، إلا أنّ عين النّاطر لا تقع في هذه المنظومة على أبوابٍ أو فصولٍ مُحدّدة تُنبئُه بموضوعات المنظومة، وإنّما يُلمح الانتقال بين موضوعاتها من خلال تكرار البيت الذي يقول فيه:

<sup>229</sup> يُنظر: زكي مبارك، المديح النبويّة (القاهرة: دار المحجّة البيضاء، 1354هـ/1935م)، 200.

<sup>230</sup> يُنظر: أبو الخير محمّد بن الجزري، عرف التّعريف بالمولد الشّريف، تحقيق: محمّد أبو الخير الملقى، (بيروت: دار الحديث الكتّانية، د.ت)، 7.

<sup>231</sup> يُنظر: أحمد بن حجر الهيتمي، المُختصر من إتمام التّعنة الكبرى على العالم بمولد سيّد ولد آدم، تحقيق: مُرّهف عبد الوهّاب الهوّاس، (د.ت.ن)، 3.

<sup>232</sup> سمّاه "المورد الرويّ في المولد النبويّ"؛ يُنظر: ملا عليّ بن سلطان القاري، مجموع رسائل الملا عليّ القاري، إعداد: ماهر أديب حبوش وآخرين، (إستانبول: دار اللباب، 1437هـ/2016م)، 373.

<sup>233</sup> يُنظر: عبد الرّحيم بن الحسين العراقي، المورد الهني في المولد السنّي، تحقيق: عمر أعميري، (القاهرة: دار السّلام، 1431هـ/2010م)، 63، 88.

<sup>234</sup> يُنظر: شمس الدّين بن ناصر الدّين الدّمشقيّ، مورد الصّاديّ في مولد الهاديّ، تحقيق: إبراهيم راشد المريخي، (القاهرة: الدّار الغنّاء، 1429هـ/2008م)، 29.

<sup>235</sup> يُنظر: أحمد الهاشمي، ميزان الدّهّب في صناعة شعر العرب، تحقيق: علاء الدّين عطية، (دمشق: دار البيروني، 1427هـ/2006م)، 81.

## فَعَلَى الْمَخْتَارِ هَادِي الْكَائِنَاتِ وَعَلَى آلٍ وَصَحْبٍ صَلَوَاتُ

فبعد افتتاحه لها بالحمد والصلوات والصعود إلى ذكر أشرف السمات للنبي الكريم، انتقل إلى بدء خلق الله للخليقة، ثم إلى ذكر نسيه الطاهر من سفاح الجاهلية، وحمل أمه آمنة به وما رافق مولده من إرهابات، وفي ختام المنظومة دعا الناظم للسلطان عبد الحميد "أمير المؤمنين" و"ملك الأمة" و"عز المسلمين"، وأنهاها بالصلاة والسلام على النبي الكريم.<sup>236</sup>

### ل. منظومة زاد القيامة

وهي منظومة طُبعت سنة (1323هـ/1905م) في مصر بمطبعة الظاهر في كراسٍ يقع في عشرين صحيفةً، تحت عنوان "قصيدة زاد القيامة في شيء من أخبار الحبيب المظلل بالعمامة"، صُدّرت بمقدمة لناظمها بيّن فيها غرضه من نظمها؛ وفاق عدد أبياتها ثلاثمئة بيتٍ مضبوطة بالشكل، اختار لها ناظمها وزن البحر الخفيف،<sup>237</sup> واستهلها بمطلع يقول فيه:

هي ذي الشمسُ أشرقت للعبادِ فَضَحَ الضُّوءُ جَحَدَ أَهْلِ الْعِنَادِ<sup>238</sup>

وفي هذه القصيدة يصبُّ الناظم اهتمامه على أخبار السيرة النبوية وأحداثها، فينشر ما انطوت عليه كُتُبُ السِّيَرِ والمغازي من حياة النبي الكريم وأخباره، بدايةً بذكر نسب النبي الطاهر صلى الله عليه وسلم وإرهابات مولده، وتتنقّل أبيات المنظومة بين أحداث حياته من رضاعته إلى يئمه وصولاً إلى شبابه، وسفره للشّام والإرهابات التي رافقت بعثته، وما تلا ذلك من الدّعوة إلى الإسلام وهداية الخلق

<sup>236</sup> يُنظر: الصّبّادي، آيات العرفان، 4، 15.

<sup>237</sup> يُنظر: الهاشمي، الميزان، 95.

<sup>238</sup> محمد أبو الهدى الصّبّادي، قصيدة زاد القيامة في شيء من أخبار الحبيب المظلل بالعمامة (مصر: مطبعة الظاهر، 1323هـ/1905م)، 3.

لمنهج الحق وإعراض بعضهم وإقبال الآخرين، ويتخلل الأبيات مدح للنبي الكريم وشمائله وشييمه وأخلاقه ومُعجزاته، وإشادةً بجهاده بذكر غزواته وسراياه ضد أعداء الدين، ولمّا انتهى أبو الهُدَى إلى وفاته شرعَ بمدح شريعته المُطَهَّرة من كلِّ زيغٍ وضلالٍ، ثمَّ اختتمها بشكوى الزمان المرير الذي تعدَّت عليه فيه الهموم والأكدار، ورَجَا أن ينالَ شفاعَةَ النَّبِيِّ الكَرِيمِ، ليختتمَ المنظومةَ بقوله:

قل بِذَيْلِي مَطْوِيٌّ نَشْرُ أَمَانٍ      كلَّ آنِ أَبُو الهُدَى الصِّيَادِي<sup>239</sup>

ولا غروَ أن يُفردَ أبو الهُدَى من شعره نصيباً للسيرة النبوية والشمائيل، -وهو الذي طالما سرَّح نظره في حدائق كتبها-، فإذا كانت السيرة النبوية قد بُدئَ بتدوينها -نثرًا- في القرن الأول للهجرة، فإنَّه من المُهمِّ معرفةُ أنَّ نظم السيرة النبوية والشمائيل تأخَّرَ عدَّةَ قرونٍ حتى بدأ في القرن الخامس الهجري، ولعلَّ أولَ ما يلوح في سماء هذه المنظومات قصيدةُ أبي محمَّد عبد الله بن زكريا الشُّقْرَاطِسيِّ (ت. 466هـ/1073م) التي كانت عدَّتُها مئةً وثلاثةً وثلاثينَ بيتًا، افتتحها بقوله:

الحمد لله مِنَّا باعِثِ الرُّسُلِ      هدى بأحمدَ مِنَّا أحمدَ السُّبُلِ<sup>240</sup>

ثمَّ توالَتْ بعده المنظومات بين مُكثِرٍ بأبياتها ومُقلِّ، إلى أن وصلت أشهرها إلى ألفِ بيتٍ، وبعضها انمالت عليها الشُّروح والحواشي -كألفيَّة الحافظ زين الدِّين عبد الرَّحِيمِ العراقيِّ (ت. 806هـ/1403م)-،<sup>241</sup> وقد رصَدَ-لا على سبيل الحصر- جلال شوقي هذه المنظومات فقيَّدَ أكثرَ من مئةٍ وأربعين

<sup>239</sup> الصِّيَادِي، زاد القيامة، 19.

<sup>240</sup> يُنظر: أبو محمَّد عبد الله الشُّقْرَاطِسي، القصيدة الشُّقْرَاطِسيَّة، تحقيق: نزار حَمَّادي، (تونس: دار الإمام ابن عرفة، د.ت)، 3.

<sup>241</sup> يُنظر: زين الدِّين عبد الرَّحِيمِ العراقيِّ، نظم الدرر السَّنِّيَّة في السِّبْرِ الرَّكِّيَّة، تحقيق: محمَّد علوي المالكي، (جدَّة: دار المنهاج، 1426هـ/2005م)،

منظومةً في السِّيرِ والشَّمائلِ، على امتداد العصور منذ القرن الخامس إلى نهاية القرن الرَّابِعِ عشرِ الهجريِّ.<sup>242</sup>

ومن الممكن أن يُقال إنَّ منظومةَ أبي الهُدَى لا تقومُ في جوهرها على تفصيل أدقِّ دقائق السِّيرة كما حصل في بعض مطوَّلات المنظومات - مثل ألفية العراقيِّ -، بل تقوم على سرد تلك الأحداث سردًا موشئًا بحليَّة الصَّنعة الأدبيَّة، ولعلَّ ما يدلُّ على ذلك أنَّ أبا الهُدَى لمَّا وصل به المَطاف إلى ذكر غزوات النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتفى بتعدادِ أسمائها فقط؛ فقال:

وَبِيدِرٍ زَهَا لَهُ بَدْرٌ نَصْرٍ وَأَصْحَابِهِ أُسُودُ الْجِهَادِ  
بِنِي قَيْنُقَاعٍ أَفَلَتْ حَيَالًا كَمِ بِيَأْسٍ دَاسَتْ رُؤُوسَ الْأَعَادِي  
جَنْدَلُ الْمَارِقِينَ<sup>243</sup> فِي غَزْوَةِ الْجَنْدِ سِلْ سُلْطَانُ عَزْمِهِ الْوَقَادِ  
أَيَّدَتْهُ الْآيَاتُ وَالْمَدْدُ الْوَضَا حُ فُلُونُ الْأَعْدَاءِ لُونُ الْجِسَادِ<sup>244</sup>

وكأنَّ أبا الهُدَى أراد لمن يلمح هذه الأبيات أن يجول في ميدان البيان الأدبيِّ والصَّنعة البديعيَّة التي رفَلت بها، وترك لروح السَّماع أن تستقي من معاني الحبِّ المُتدَقِّقة من بين جوانبها، وبهذه العينيَّة من الأبيات قد يؤكِّد أنَّ الخوض في التَّفاصيل لم يكن غرضًا أساسًا فيها.

<sup>242</sup> يُنظر: جلال شوقي، "منظومات السِّيرة النَّبويَّة حتى نهاية القرن الرَّابِعِ الهجريِّ"، مجلة مركز بحوث السُّنَّة والسِّيرة 2/2 (1407هـ/1987م)، 532، 614.

<sup>243</sup> صرَّعَهم وطعَّعَهم وأرضَّهم أرضًا، يُنظر: أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصِرة (بيروت: دار عالم الكتب، 2008م)، "جندل"، 404/1.

<sup>244</sup> الصِّيَّادِي، زاد القِيامة، 14-15؛ والجِسَادُ من أسماء الرِّعفران وغيره من كلِّ صُبغة حمراء شديدة الحمرة أو صفراء شديدة الصَّفرة، يُنظر: ابن منظور، "جسد"، 121/3.

### 3 ملاحظات في دواوينه الشعريّة

إنّ المُطَّلِعَ على دواوين أبي الهُدَى سيلمَحُ عدَّةَ ظواهرٍ لعلَّ أهمُّها:

■ حرصُهُ على تسميةِ هذه الدَّواوين وعدم إهمالها، مُخَالِفًا بذلك ما دَرَجَ عليه غالبُ الشعراءِ الأوائلِ.

■ تفاوتُ هذه الدَّواوين في القِصْرِ والِطَّوْلِ، كما تفاوتت الأشعارُ ما بين أبياتٍ يتيمةٍ ونُتْفٍ شعريّةٍ أو مقطوعاتٍ قصيرةٍ أو قصائدٍ مُطوَّلةٍ؛<sup>245</sup> وقد حَظِيَ ديوان "الدُّرِّ المنتَظَم" بالنَّصيبِ الأوفى من غزارةِ الأشعار، وفي مُقابلِهِ لم يحظَ ديوانُ "روضَةِ العرفان" إلا بثمانٍ وعشرين قصيدةً فقط؛ ولَمَّا كان جُلُّ هذه الدَّواوين طُبِعَ قبل ما يزيد على قرنٍ من الزَّمان، فقد كان غالِبُها يحتاجُ إلى إعادةِ نظرٍ في ضبطِ الكلماتِ، ومزيدِ تدقيقٍ في الاقتباساتِ والتَّضميناتِ والتَّشطيراتِ أو التَّخميساتِ التي قامَ بها الشَّاعرُ نافيلاً من سَبَقِهِ دون أن يُحيلَ القارئَ إلى مظانِّ هذه التَّقولاتِ أو حتى أن يُشيرَ إليها.

■ وإنَّ تنوُّعَ هذه الدَّواوين لم يكن سَبَبًا في تنوُّعِ أغراضِ أشعارها المودَّعةِ فيها، بل قد اقتصرَ بعضها على غرضٍ مُعيَّنٍ دونَ غيره من الأغراضِ؛<sup>246</sup> كما يُلَمَحُ أنَّ الأشعارَ التي تندرجُ تحتَ غرضٍ مُعيَّنٍ قد تكونُ في ديوانٍ ما مفقودةً تمامًا، أو ربما نادرةً أو ضحلةً المعاني، وفي آخرٍ غزيرةً تصلحُ للتَّدقيقِ والتَّعمُّقِ فيها؛<sup>247</sup> مما يعني أنَّ من أرادَ الإمامَ بأغراضِ

<sup>245</sup> البيت الواحد يُسمَّى بيتيًّا، والبيتان والثلاثة تنفَّة، والأبيات السَّبعة قطعَةٌ، فإن تجاوزت الأبيات ذلك سُمِّيَت قصيدًا، واستحسن الرَّافعي قَصْرَ مُسمَّى القصيدة على ما جاوزَ عشرين بيتًا؛ يُنظر: الرَّافعي، *آداب العرب*، 29/3؛ عيسى علي العاكوب، *موسيقا الشعر العربيّ* (دمشق: دار الفكر، 1421هـ/2000م)، 52.

<sup>246</sup> كديوان قَزَّة العين المقصور على غرضِ المديح، وديوان مرآة الشَّهود المقصور على غرضِ المديح النَّبويِّ.

<sup>247</sup> فديوان روضة العرفان خلا من غرضِ الرِّثاءِ تمامًا، ولم يَرِدْ غرضُ الوعظِ في ديوان الفيضِ المُحمَّديِّ إلا نادرًا.

الشاعر فإنه سيظفر بها إذا ما نظر في مجموع دواوينه كلها، ولم يقصر نظره على واحدٍ من هذه الدواوين ويهمل بقيتها.

■ وظاهرة التكرار هي أبرز الظواهر في جملة دواوين أبي الهدي، فلربما تكررت القصيدة الواحدة في أكثر من ديوان، ولعل أكثر الدواوين تداخلاً في تكرار القصائد ديوان "الفيض المحمدي" وديوان "مرآة الشهود"، وفي بعض الأحيان تختلف رواية بعض أبيات القصائد اختلافاً بسيطاً عن رواية ديوان آخر.

■ كما أن هذه الدواوين دلت على غزارة الإنتاج الشعري لأبي الهدي، فقد ربا عدد أبياتها على عشرة آلاف بيت، استوفت كل أوزان البحور الشعرية إضافة إلى بعض أوزان الموشحات؛ غير أن الأمر الأبرز الذي يلاحظ على جملة هذه الأبيات، هو ترددها على وتيرتين مختلفتين هما النظم والشعر، فليس من الصواب أن يطلق على هذا الكم الكبير من الأشعار كلها مسمى الشعر - وإن كان هو الأغلب في عمومها-، كما أن الإنصاف لا يسمح بوصفها كلها بالنظم المتبدل؛ وهذا يؤدي بالضرورة إلى الوقوف على مفهوم الشعر بمعناه الحقيقي وتمييز افتراقه عن مفهوم النظم؛ وهي مهمة الصفحات القادمة.

# الفصل الثَّاني

## (أَغْرَاضُهُ الشَّعْرِيَّةُ)

## تمهيد: حول مفهومي الشعر والغرض الشعري

لَمَّا كَانَ جَوْهَرُ الْبَحْثِ قَائِمًا عَلَى رُكْنَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ هُمَا الشَّاعِرُ وَأَغْرَاضُهُ الشَّعْرِيَّةُ، لَمْ يَكُنْ بَدًّا مِنَ الْمُرُورِ أَوَّلًا عَلَى مَفْهُومِ الشَّعْرِ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى كَيْفِيَّةِ تَقْيِيمِ نِتَاجِ أَبِي الْهَدَى الشَّعْرِيِّ وَفَقَ هَذَا الْمَفْهُومَ؛ وَمِنْ ثَمَّ الْمُرُورُ عَلَى مَفْهُومِ الْغَرَضِ الشَّعْرِيِّ ثَانِيًا، لَكِي يُسَلِّطَ الضَّوْءَ عَلَى الْعَصْرِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ تُعْزَى إِلَيْهِ أَغْرَاضُ الشَّاعِرِ وَتَنْتَمِي إِلَيْهِ.

### 1 الشَّعْرُ

إِنَّ لَفْظَ الشَّعْرِ فِي اللُّغَةِ يَأْتِي بِمَعْنَى الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ وَالْفِطْنَةَ لَهُ، وَهُوَ وَاحِدُ الْأَشْعَارِ؛<sup>248</sup> أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْإِصْطِلَاحُ فَبشَكْلِ عَامٍّ يُمَكِّنُ أَنْ يُطْلَقَ هَذَا الْمُسَمَّى -بِحُجُورًا فِي التَّعْرِيفِ- عَلَى كُلِّ "كَلَامٍ مُوزونٍ مُقَفَّى مُقَيَّدٍ بِشَرْطَيْنِ اثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا وَضْعُهُ عَلَى سَبِيلِ الْقَصْدِ، وَ الثَّانِي دِلَالَتُهُ عَلَى مَعْنَى"،<sup>249</sup> وَالْقَيْدُ الْأَخِيرُ جَعَلَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فَيَصَلُّا بَيْنَ الشَّعْرِ وَمَا سِوَاهُ مِمَّا جَرَى عَلَى الْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ مِنْ غَيْرِ دِلَالَةٍ عَلَى مَعْنَى حَيْثُ يَرَى قُدَامَةُ أَنَّهُ "لَوْ أَرَادَ مَرِيْدٌ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا عَلَى هَذِهِ الْجِهَةِ لِأَمْكَانٍ وَمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ"؛<sup>250</sup> وَهَذَا التَّعْرِيفُ لِلشَّعْرِ يَصْدُقُ عَلَيْهِ إِذَا مَا أُرِيدَ تَمْيِيزُهُ عَنْ قَسِيمِهِ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ -النَّثَرِ-؛ فَالشَّاعِرُ يَشُقُّ لِكَلَامِهِ طَرِيقًا آخَرَ مُغَايِرًا لَطَرِيقِ النَّائِرِ، إِذْ هُوَ لَمَّا أَرَادَ إِبْصَالَ مَا يَرِنُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَفْكَارِ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَحْتَوِيَ حَتْوًا فِي مَسَامِعِ الْمُتَلَقِّينَ، بَلْ عَمَدًا إِلَى كَسْوَتِهَا بِثَوْبِ الْأَوْزَانِ لِتَلَدَّ فِي الْأَسْمَاعِ وَتَكْتَسِي رَوْنًا خَاصًّا يَزِيدُ مِنْ قَابِلِيَّةِ النُّفُوسِ فِي تَلَفُّفِهَا وَالْإِنْجِذَابِ نَحْوَهَا.

<sup>248</sup> يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "شَعْرٌ"، 699/2؛ مَرْتَضَى مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ الزُّبَيْدِيِّ، تَاجُ الْعُرُوسِ مِنْ جَوَاهِرِ الْقَامُوسِ، تَحْقِيقُ: مَصْطَفَى حِجَازِي وَآخَرِينَ، (الكويت: دار الهداية، 1965م)، "شعر"، 176/12.

<sup>249</sup> يُنْظَرُ: عَلِيٌّ بْنُ مُحَمَّدِ الشَّرِيفِ الْجَرَجَانِيِّ، التَّعْرِيفَاتُ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ عِيُونِ الشُّودِ، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م)، 127؛ جَارِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو الزُّمَّحْشَرِيِّ، الْقَسْطَاسُ فِي عِلْمِ الْعُرُوسِ، تَحْقِيقُ: فخر الدِّينِ قِبَاوَةَ، (بيروت: مكتبة المعارف، 1410هـ/1989م)، 21.

<sup>250</sup> قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ، نَقْدُ الشَّعْرِ (إِسْتَانْبُولُ: مَطْبَعَةُ الْجَوَائِبِ، 1302هـ/1884م)، 3.

إلا أنّ كلمة النُّقَادِ لم تتفق في رؤية هذا التعريف لائتفاً بحقيقة مُسمّى الشعر، لأنهم رأوا الشعرَ ترجماناً لِلَعَةِ العواطفِ والمشاعرِ والرُّؤى الممتزجة بالمواقف والأفكار،<sup>251</sup> فلا يكفي أن تكون الكلمات المرصوفة إلى بعضها البعض والمترابطة ضمن قالب الأوزان كفيلاً لبث روح الحياة في الكلام وإمكان إطلاق مُسمّى الشعرِ عليه، وإنما ما وافق هذا الوصف سُمِّيَ بالمعنى الأدقِّ "نظماً"، وهو المُمَيِّزُ له عن النَّثر؛ أمّا إذا أُريدَ للنَّظم أن يرقى إلى مراقي الشعرِ فلا بُدَّ أن تُبثَّ بين جنابِ جسده روح الحياة ليصحَّ أن يُطلقَ عليه مُسمّى الشعرِ، وما روحه هذه إلا المعاني المُستطرِّفة والاستعارات والتشبيهات والأمثال حتى إذا ما توفّرت فيه، وضمَّ إليها أناقة في اللَّفظ وجودة في السِّبكِ ودقّة في التَّعبير وسعة في الخيال فعندئذٍ صحَّ أن يُسمّى "شعرًا"، ولذلك قال فيه ابن قُتيبة (ت. 276هـ/889م) أنّه "ما حَسَنَ لفظُهُ وجادَ معناه"،<sup>252</sup> فبتوافُرِ هذه الشُّروط لا يُمكنُ أن يُعدَّ نظماً عادياً وإنما هو الشعرُ الذي حُقَّ فيه وصفُ ابن طباطبا (ت. 322هـ/934م) بأنّه "الوشى المُنمّم، والعقدُ المُنظَّم، والرياضُ الزَّاهرة"<sup>253</sup>؛ وقد شقَّ أبو نصر الفارابيّ (ت. 339هـ/950م) لنظريته لمفهوم الشعرِ طريقاً على ذات النَّسقِ الذي أُشيرَ إليه آنفاً، وزادَ عليه بأن عدَّ الشعرَ فناً مُستقِلاً من جُملةِ الفنون، له أدوائُهُ الخاصَّةُ به التي أعظمها مُحاكاةُ الواقعِ والمهارةُ في استخدامِ الأشياءِ التي تُصوِّره ببراعةٍ، وأدناها هو النَّعمُ والإيقاعُ الموسيقيّ العروضيّ؛<sup>254</sup> ولو وُقِفَ عند ما أشارَ إليه الفارابيّ من "الأشياء" التي تُصوِّرُ الواقعَ وتُحاكيه فإنَّ تفسيرها لن يكونَ سوى عنصرِ الخيالِ بقسميه، اللذين أحدهما: هو التَّخيُّلُ المتمثِّلُ بمَلَكَةِ ازدانت بها عقليةُ الشاعرِ، وثانيها: هو التَّخيُّلُ المتمثِّلُ بالأثرِ الذي يتركه النَّصُّ الشِّعريُّ في نفسِ المُتلقِ، إذ الإنسانُ

<sup>251</sup> يُنظر: محمد صالح الشنطي، فن التحرير العربي ضوابطه وأماطه (حائل: دار الأندلس، 1422هـ/2001م)، 231.

<sup>252</sup> يُنظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (القاهرة: دار المعارف، 1386هـ/1967م)، 65/1.

<sup>253</sup> محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز المناع، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت)، 7؛ والمنعم أي المُزخرف المنقوش، يُنظر: الزبيدي، "نم"، 11/34.

<sup>254</sup> يُنظر: محمد بن محمد الفارابي، جوامع البعير، تحقيق: محمد سليم سالم، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971م)، 172.

المُتَلَقِّي للخطاب -أيّ خطابٍ- "كثيراً ما تتبع أفعاله تَحْيَلَاتِهِ أَكْثَرَ مما تتبع ظنّه أو علمه"،<sup>255</sup> فلا يبعد أن تتبع من هذه النقطة أهمية الشِّعْرِ؛ ولا غرو أن يتبارى فيه الشعراء وتتفاوت فيه درجاتهم حسبما وُفِّقَ كُلُّ منهم في تحقيق التّوازن بين جميع العناصر الشِّعْرِيَّة -المُحاكاةُ والخيالُ والإيقاع العروضيّ-، إذ التّأثيرُ مقرونٌ بالتّوفيقِ بينها جميعاً دون إهمالٍ واحدٍ منها على حسابِ الآخرِ،<sup>256</sup> وبناءً على ما سَبَقَ فَيُمْكِنُ التّقريرُ بأنّ الشِّعْرَ هو مزيجٌ من عناصرٍ يعتصرها قائلها ليس من نتاج عقله فحسب وإنما من نتاج قلبه أيضاً، ليكون بهذا شعراً صرفاً يعلو على منزلة النّظم.<sup>257</sup>

وبتقريرِ هذا المفهوم لمصطلح الشِّعْرِ فإنّه ليس من الصّوابِ تعميمُ مُسَمَّى "الشِّعْرِ" على كلِّ التّرِكَةِ الأدبيّةِ المنظومةِ التي ضَمَّتْهَا صَفَحَاتُ دواوين أبي الهُدَى، إذ إنّ هذا المُقَرَّرَ لمفهوم الشِّعْرِ ليس من السّهولةِ بمكانٍ أن يرقى إليه كلُّ منظومٍ للشّاعرِ، فإنّ فيه ما نَبَأَ عن هذا المُقَرَّرِ ولم يستوفِ جميعَ عناصرِهِ المُقَرَّرَةَ آنفاً، بل كان نتاجاً نزلَ إلى رُتَبَةِ النّظْمِ العاديّ الذي لم يأتِ إلا بعنصرِ الوزنِ والإيقاعِ العروضيّ، ولا تكادُ دواوينُهُ تخلو من نزرٍ يسيرٍ جرى على هذه الشّاكلةِ، نحو قوله ناصِحاً واعظاً:

كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ فَإِنْ فَلَازِمٌ      بَابِ مَوْلَاكَ إِنَّهُ هُوَ بَاقِي  
وَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِالصِّدْقِ وَالرُّهْدِ      دِ وَحُسْنِ الْأَفْعَالِ وَالْأَخْلَاقِ<sup>258</sup>

<sup>255</sup> محمّد بن محمّد الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق: عثمان محمّد أمين، (القاهرة: مطبعة السّعادة، 1350هـ/1931م)، 27.

<sup>256</sup> يُنظَر: أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا، الحكمة العروضية، تحقيق: محسن صالح، (بيروت: دار الهادي، 1428هـ/2007م)، 106؛ محمّد علي التّهانوي، كَشَافُ اصطلاحات العلوم والفنون، مترجم: عبد الله الخالدي، تحقيق: علي دحروج، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996م)، 1030/1، 1033.

<sup>257</sup> يُنظَر: جابر عصفور، مفهوم الشِّعْرِ دراسةٌ في التّراثِ التّقاليديّ (القاهرة: مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1995م)، 189، 191؛ عبد الرّؤوف أبو السّعد، مفهوم الشِّعْرِ في ضوء نظريّات التّقاليديّ (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 15.

<sup>258</sup> د.ف.م، 22.

ونحو قوله في نتفة شعريّة أخرى:

حُبُّ سَلْمَانَ حِينَ صَحَّ لِأَهْلِ الْبَيْتِ ذِي الْمَنْصَبِ الْعَزِيزِ الْمُثَنَّى  
فَالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَظَّمَ هَذَا الْحُبُّ قَدْرًا وَقَالَ (سَلْمَانُ مِنَّا)<sup>259</sup>

فيلحظُ في كلا المثالين أنَّ أبا الهُدَى أرادَ تقريرَ فكرةٍ سنحتَ لباله فلم يَشَأْ إلا أن يلبسَها ثوبَ الوزنِ العروضيِّ -البحر الخفيف-،<sup>260</sup> ويقدمها للمساميحِ دون آيةٍ حليّةٍ أخرى من تشبيهٍ أو استعارةٍ أو بديعٍ أو خيالٍ يُدَلِّلُ طريقها إلى المساميحِ؛ وشاعرٌ كأبي الهُدَى لم يخفَ عليه أن يرى الشّعْرَ بأنّه "نتيجةُ العقلِ وعقيلةُ الفضلِ، وجاذبةُ الألبابِ وفاكهةُ الأنجابِ"<sup>261</sup> ولم يغب عن باله أن يراه "ترجمةً خيالٍ، وطلائعَ بالٍ، وحكايةَ حالِ الوجدانِ والرُّوحِ، يصيرُ الغائبُ به كالحاضرِ"،<sup>262</sup> قد لا يُمكنُ تعليلُ وجودِ مثل هذه التوعّية من النّظمِ في تراثهِ المنظومِ إلا إذا ما أُخذَ بعين الاعتبارِ عنصر "الدُّرْبَةِ"، إذ هو العنصرُ الذي عدّه القاضي الجرجانيُّ (ت.392هـ/1001م) مادةً أساسيةً مُقويةً لأسبابِ الشّعْرِ -وهي الطُّبَعُ والرِّوَايَةُ والدِّكَاؤُ-،<sup>263</sup> فحينئذٍ قد تُفسَّرُ ظاهرةُ النّظمِ العاديِّ في تراثِ أبي الهُدَى الأدبيِّ بإرجاعها إلى مِرَاسِهِ ودُرْبَتِهِ في ميادينِ الأدبِ، فأبياتُ نَظْمِهَا أبو الهُدَى في صِغَرِهِ وبدايةِ مَسِيرَتِهِ الشّعريّةِ لا ترقى أن تتسنّمَ ذرّوةً مكانةً قصيدةٍ نَظْمِهَا في مراحلٍ مُتأخِّرةٍ من سِنِّي حَيَاتِهِ، بعد أن صَقَلَتْهُ التَّجَارِبُ وزادَتْ من إذكاءِ قَرِيحَتِهِ المطالعاتُ وقوّت من مَلَكَتِهِ الشّعريّةِ وأهلَّتَهُ إلى الإنتاجِ الأدبيِّ المنظومِ الذي

<sup>259</sup> د.ف.م، 146؛ وذيلُ العجزِ الأخير "سلمانُ مِنَّا" أثرُ يُروى عن رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، يُنظر: محمّد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المُستَدْرَك على الصّحّاحين، تحقيق: مُصطَفَى عبد القادر عَطَا، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1411هـ/1991م)، 691/3، (رقم 6541).

<sup>260</sup> يُنظر: الهاشمي، الميزان، 95.

<sup>261</sup> يُنظر: د.ت.ب، 2، 134.

<sup>262</sup> يُنظر: د.ر.ب، 69.

<sup>263</sup> يُنظر: علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، الوساطة بين المُتَنَبِّيِّ وخصومِهِ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم -علي محمّد البجاوي، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت)، 15.

يرقى إلى مراقبي الشِّعر الذي طَمَح إليه واعتنقَ رؤيةً واضحةً لتذوُّقِهِ فجعلته يقولُ فيه مُعظِّمًا شأنَهُ: إنَّهُ "أنموذج الهمم ومراة الشِّيم، ونسمة الأريحية"<sup>264</sup> التي تَهزُّ أطوار العُظَمَاء، فكم حلَّ عقلاً وطيبَ بالاً"<sup>265</sup> ويؤكدُ هذا التعليلَ لوجودِ ظاهرة النِّظم العاديِّ إشارةً أبي الهُدَى إلى حرصِهِ على تنقيَةِ نتاجِهِ الأدبيِّ عما كان قد نظَّمهُ أيَّام الصِّبا في بدايات مسيرتِهِ الشِّعريَّة، وإلى اقتصارِهِ على ما يُطابق ما ارتسَمَ في فهمِهِ وذائقتِهِ للشِّعر،<sup>266</sup> مما يُؤكِّدُ أنَّ عنصرَ الدُّرَّة والمِراسِ قد لعبَ دورًا في نتاج أبي الهُدَى الأدبيِّ المنظوم، ولكنَّ هذا الحرصَ الذي أشارَ إليه أبو الهُدَى لم يكن شفيعًا في خلِّو دواوينِهِ من النِّظم العاديِّ الذي قد يبرز تارةً في بعض جنباَتها.

## 2 الغرض الشِّعريِّ

قد يحسُنُ بدايةً تذكُّرُ أنَّ أصلَ كلمة "غرض" في اللُّغة تعني - كما يرى ابن دريد(ت.321هـ/933م) - كلَّ ما امْتُنِلَ للزَّمي وتُجمَعُ على أَعْرَاضٍ كَسَبَبٍ وأسَبَابٍ،<sup>267</sup> و نصَّ الجوهريُّ (ت.393هـ/1003م) والصَّعَايِي (ت.650هـ/1252م) على أنَّ الغرضَ هو "الهدف الذي يُرمى فيه"،<sup>268</sup> وقد وَرَدَ في سجع أهل البلاغة: المرءُ "إذا فاتته العَرَضُ فَتَّه العَرَضُ"، وبهذا يأتي للكلمة معنَى آخر هو الضَّجْرُ والمِلالُ، وفعلُهُ يتعدَّى بحرف الجرِّ "من" فيُقَالُ: عَرَضْتُ من فلان بمعنى مَلَلْتُ منه، ويُضَافُ إلى هذا معنَى آخر هو الشُّوق حيث يقول الرُّمَحْشَرِيُّ (ت.538هـ/1143م): "ومنه غَرَضْتُ

<sup>264</sup> سَعَةُ الخُلُقِ والانبساط لفعل الأفعال الحميدة، يُنظر: ابن منظور، "ريح"، 467/2.

<sup>265</sup> يُنظر: د.ت.ب، 2؛ الصِّيَّادِي، صوت الهزار، 41-42.

<sup>266</sup> يُنظر: د.ر.ق، 40.

<sup>267</sup> يُنظر: أبو بكر محمَّد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللُّغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م)، "رضغ"، 749/2.

<sup>268</sup> يُنظر: الجوهري، "غرض"، 1093/3؛ الحسن بن محمَّد الصَّعَايِي، العباب الزَّاحِر والبَّاب الفَاخِر، تحقيق: محمَّد حسن آل ياسين، (العراق: دار الرُّشيد، 1981م)، 650.

إلى لِقَائِكَ، عُدِّيَ بحرف الجرّ "إلى" لتضمينه معنى اشتقتُ وحننتُ؛<sup>269</sup> وما يهمُّ البحثُ ويعنيه مما سبق من المعاني هو المعنى الأوّل -الهدف-، الذي يمكنُ أن يُطلقَ عليه مُسمّى "الغاية" التي يُتحرّى إدراكها على قول زين الدّين المناويّ (ت.1031هـ/1621م).<sup>270</sup>

وإذا كانت الغاية هي المعنى الأنسب -لغةً- لكلمة الغرض، فهذا يُفضي إلى إمكانيّة القول: إنّ العَرَضَ الشّعريّ في الاصطلاح هو الغاية التي قصدّها الشّاعر والهدف الذي رمى إليه من وراء ما نظّمه من الأبيات والقصائد؛ غير أنّ هذا المُصطلح بمعناه المُشار إليه قد ظفّر بتسمياتٍ أُخرى، فهو البابُ بلسان أبي تمام -أوّل من فسّم الشّعْرَ ورثبهُ على عشرة أبوابٍ في حماسيّته-،<sup>271</sup> وهو الرّكن والنّوع عند ابن رشيق القيروانيّ (ت.456هـ/1064م)،<sup>272</sup> وفي بعض الأحيان سُمّي صِنْفًا أو فنًّا؛<sup>273</sup> وعلى الرّغم من تنوّع التّسميات بين أغراضٍ وأبوابٍ وأنواعٍ وفنونٍ وصنوفٍ وموضوعاتٍ، فكُلّها تلتقي على المعنى الاصطلاحيّ المذكور آنفًا، فهي مُسمّياتٌ مختلفةٌ لمعنى اصطلاحيّ واحدٍ.

وبتحديد المعنى اللّغويّ والاصطلاحيّ للأغراض الشّعريّة، يصلُ المطاف إلى تنوّع هذه الأغراض وتعدّدِها، فإذا ما أُريدَ سبْرُ هذه الأغراض فسيرُجَعُ إلى صيّاغَةِ الأدب من نُقَادِهِ ومُؤرّخيه؛ فمنهم قائلٌ: إنّ جميع الأغراض الشّعريّة تنبُع من أصلٍ واحدٍ رئيسٍ ألا وهو "الوصف"، إذ يصحُّ اندراجها كلّها ضمنه، فالشّاعرُ بتعبيره عما يدورُ بداخله من المشاعر أو الأفكار إنّما هو واصِفٌ لها

<sup>269</sup> يُنظر: جار الله محمود بن عمرو الرّمحشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمّد باسل عيون السّود، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1419هـ/1998م)، "غرض"، 699/1.

<sup>270</sup> يُنظر: زين الدين عبد الرّؤوف بن علي المناوي، التّوقيف على مهمّات التّعريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، (القاهرة: عالم الكتب، 1410هـ/1990م)، 251؛ الرّيدي، "غرض"، 451/18.

<sup>271</sup> يُنظر: أبو تمام حبيب بن أوس الطّائي، ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد حسن بسج، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1418هـ/1998م)، 7.

<sup>272</sup> يُنظر: القيروانيّ، العُملة، 120/1-121.

<sup>273</sup> يُنظر: فروخ، تاريخ الأدب، 48/1.

لا غير، وإلى هذا ذهب عمر فروخ (ت. 1407هـ/1987م)<sup>274</sup> مُتَابِعًا الْقِيروَانِيَّ فِي رَأْيِهِ الْقَائِلِ: إِنَّ "الشِّعْرَ إِلَّا أَقْلَهُ رَاجِعٌ إِلَى الْوَصْفِ"<sup>275</sup> وبسبب اتِّسَاعِ مُسَمِّي الْوَصْفِ وَكَوْنِهِ يَنْطَبِقُ عَلَى جَمِيعِ أَغْرَاضِ الشِّعْرِ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَفْصِيلِ لِكُونِهِ شَامِلًا عَمُومَهَا، فَسُمِّيَ وَصْفُ الْبَشَرِ بِالْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْصُوفُ مِنْهُمْ مِيتًا سُمِّيَ وَصْفُهُ بِالرِّثَاءِ، وَإِنْ كَانَ امْرَأَةً سُمِّيَ وَصْفُ جَمَالِهَا بِالغَزْلِ، فَإِنْ كَانَ الْوَصْفُ لَشَكْوَى هَجْرَانِهَا وَبُعْدِهَا وَتَدَلُّلِهَا سُمِّيَ نَسِيبًا، وَاسْتَقْلَّ وَصْفُ الْخَمْرِ بِاسْمِ الْخَمْرِيَّاتِ، وَوَصْفُ الصَّيْدِ بِالطَّرْدِيَّاتِ، وَلَمْ يَبْقَ لِمُطَلَقِ مُسَمِّي الْوَصْفِ إِلَّا وَصْفُ الطَّبِيعَةِ وَمَا تَفَرَّغَ مِنْهَا.

وَمِنَ النُّقَادِ قَوْمٌ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الشِّعْرَ كُلَّهُ قَائِمٌ عَلَى غَرَضَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا "الْمَدْحُ وَالْهَجَاءُ"، وَالبَاقِي مِنْ غَالِبِ الْأَغْرَاضِ إِثْمًا هُوَ مُتَفَرِّغٌ عَنْهُمَا،<sup>276</sup> وَمِنْهُمْ مَنْ رَتَّبَ الشِّعْرَ فَرَادَ أَغْرَاضَهُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ مِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ غَرَضًا، وَمِنْهُمْ مَنْ رَتَّبَهُ عَلَى أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ، وَرَغِمَ هَذَا فَقَدْ رَأَى مِصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِيِّ (ت. 1356هـ/1937م) أَنَّ هَذِهِ الْأَبْوَابَ أَوْ الْأَغْرَاضَ مُتَدَاخِلَةٌ مِنْ حَيْثُ الْوَصْفُ الشِّعْرِيُّ؛<sup>277</sup> وَلَعَلَّ غَرَضَ الْمَدِيحِ هُوَ الْأَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا مِنْ بَيْنِ الْأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ حَيْثُ جَعَلَهُ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ (ت. 395هـ/1005م) فِي صَدْرِهَا ثُمَّ أَرَدَفَهُ بِالْأَغْرَاضِ الْآخَرَى وَهِيَ: "الْهَجَاءُ، وَالْوَصْفُ، وَالنَّسِيبُ"، ثُمَّ يَلِي هَذِهِ الْأَغْرَاضَ فِي كَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ غَرَضِ الرِّثَاءِ وَالْفَخْرِ وَهِيَ فَرَعٌ عَنِ الْمَدِيحِ -حَسَبِ رَأْيِ الْعَسْكَرِيِّ-.<sup>278</sup>

<sup>274</sup> يُنظَرُ: فُرُوحٌ، تَارِيخُ الْأَدَبِ، 49/1.

<sup>275</sup> الْقِيروَانِي، الْعُمَدَةُ، 294/2.

<sup>276</sup> الْقِيروَانِي، الْعُمَدَةُ، 121/1.

<sup>277</sup> يُنظَرُ: الرَّافِعِيُّ، آدَابُ الْعَرَبِ، 69/2.

<sup>278</sup> يُنظَرُ: أَبُو هَلَالِ الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَسْكَرِيِّ، الصَّنَاعَتَيْنِ، تَحْقِيقُ: عَلِيِّ الْبَجَاوِيِّ -مُحَمَّدُ إِبرَاهِيمَ، (بِירוْتِ: الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ، 1419هـ)، 121.

ولربما كان من الحسن الإشارة إلى أن هذه الأغراض بتنوعها واختلافها شهدت مدًا وجزرًا، وضيغًا واتساعًا، واحتفالًا وإهمالًا، وموتًا وولادةً، على امتداد العصور الأدبية، فالشاعر الجاهلي لم تخلُ جلُّ قصائده من وقوفٍ على طللٍ وبكاءٍ عليه، لكنَّ أبا نواس (ت. 198هـ/813م) ومن سار سيرة في العصر العباسي لم يعد الاحتفال بهذا الغرض يعني لهم شيئًا بل صار مُستهجنًا في عيونهم، فمات في عصرهم هذا الغرض وولِدَ غرضٌ وصفِ الرِّياضِ والحدائقِ النَّضرة؛ كما أنَّ وصفَ الخمر الذي وجدَ له مُتَّسَعًا في قصائدِ العصر الجاهليِّ قد ضاقت به حروفُ الشِّعر في العصر الإسلاميِّ، ثم لم يلبث أن امتدَّ مرَّةً أُخرى في العصر العباسيِّ ليستقلَّ بقصائدِ اتَّخذته غرضًا مُستقلًّا فسُمِّيَتْ بالخمريَّاتِ؛ أمَّا غرضُ الغزلِ المُدكَّر فلم يكن ليُعرفَ قبل العصر العباسيِّ بل هو غرضٌ وُلِدَ فيه على ألسنةِ شعرائه المُحدِّثين ثم انتقل إلى غيرهم في العصور التي تَلَتْهُ.<sup>279</sup>

ثم إنَّه إذا ما تقرَّرَ تنوعُ الأغراضِ الشِّعريةِ وتوزُّعها على العصورِ الأدبيةِ وتمدُّدها في بعضِ العصورِ وانحسارها في أُخرى، فسيؤدِّي إلى ضرورةِ تحديدِ العصرِ الأدبيِّ الذي ينتمي إليه أبو الهُدَى، لمعرفةِ الأغراضِ التي سادت في ذلك العصر، ومن ثمَّ تحديدِ موقعِ أبي الهُدَى في كلِّ غرضٍ من هذه الأغراضِ، وما أكثرَ من النَّظْمِ فيه وما أقلَّ.

فبالرَّغمِ من أنَّ الأدبَ هو ثمرةٌ فكريَّةٌ عاطفيَّةٌ نَضجت عند أربابها عبر مرورها بفتراتٍ زمنيَّةٍ مُتتاليَّةٍ، إلا أنَّه لا يُمكنُ لهذه الثَّمرةِ الفكريَّةِ العاطفيَّةِ أن تلبسَ ثوبًا وتخلعَ آخرَ بسقوطِ دولةٍ وقيامِ أُخرى، بل لا بُدَّ أن تبقى فيها آثارٌ من ماضيها، ثم لا تلبث مع مرور الزَّمنِ أن تبدأ بالتَّزييِّ بقالِبٍ جديدٍ يتناسب مع زمانها الحاضر - إذ الزَّمنُ هو إناءُ الأفكارِ فتتلوَّنُ بلونه وتنصبُ بقوالبه -، وبهذا

<sup>279</sup> يُنظر: فُروخ، تاريخ الأدب، 40/2.

يُعلمُ أنَّ تقسيم الأدب العربيِّ حسبَ العصورِ السياسيَّةِ التي مرَّت عبر تاريخ العرب فيه تجوُّزٌ كثيرٌ،<sup>280</sup> بل إنَّ مصطفى الرَّافعيَّ رفضَ ذلك التَّقسيمَ وردَّه تمامًا وعدَّه من صنع العقليَّةِ الاستشراقيَّةِ؛<sup>281</sup> ولكن مع هذا كلِّه فقد رأى شوقي ضيف (ت. 1426هـ/2005م) أنَّ أكثرَ مؤرِّخي الأدب العربيِّ اعتمدوا له التَّقسيمَ السياسيَّ على خمسةِ عصورٍ، واصطلحوا على تسمية الفترة الممتدَّة منذ بدء الحملة الفرنسيَّة على مصر (1213هـ/1798م) إلى هذه الأيامِ بـ: "العصر الحديث"؛<sup>282</sup> وزاد بالتفصيلِ عمر فُروخ بأن قسَّم هذا العصر الحديث إلى قسمين، فسَمَّى الأوَّل المُمتمدَّ بين 1800م و1875م "عصر النَّهضة العربيَّة"، وما جاء بعد هذه الفترة من نتاجٍ أدبيٍّ فقد سمَّاهُ "الأدب المعاصر"؛<sup>283</sup> إلا أنَّ محمَّدًا الخفاجي (ت. 1427هـ/2006م) كان له رأيٌ آخر لعلَّه أكثرُ دِقَّةً من غيره، حيثُ لم يرتضِ أن يُسمَّى النتاج الأدبيَّ العربيَّ قبل أخريات القرن التَّاسع عشر أدبًا حديثًا، وذلك برأيه يعود إلى أنَّ الظروف الاجتماعيَّة والسياسيَّة والثَّقافيَّة لم تكن لتسمح بظهور أدبٍ حديثٍ، بل كان نتاجُ الشعراء والأدباء في تلك الحِقبةِ إمَّا هو في حقيقتهِ تقليدٌ وامتدادٌ للعصر العثمانيِّ قبله، إذ لم يزل الشعراء فيه يُحاكون من قبلهم في أغراضهم وأسلوبهم نثرًا وشعرًا؛<sup>284</sup> وبناءً على كلام الخفاجي يمكنُ القول: إنَّ أبا الهدى على الرَّغم من تصنيفه زمنيًّا في عداد شعراء العصر الحديث، إلا أنَّه ينتمي بنتاجه الأدبيِّ إلى العصر العثمانيِّ.

<sup>280</sup> يُنظر: أحمد محمد الحوفي، الأدب العربيُّ وتاريخه (القاهرة: دار المعارف، 1977م)، 24.

<sup>281</sup> يُنظر: الرَّافعي، آداب العرب، 13/1.

<sup>282</sup> شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيِّ (القاهرة: دار المعارف، 1960م)، 14/1.

<sup>283</sup> يُنظر: فُروخ، تاريخ الأدب، 58/1.

<sup>284</sup> يُنظر: محمَّد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربيِّ الحديث ومدارسه (بيروت: دار الجيل، 1412هـ/1992م)، 56/1.

وإطالة على الأغراض الشعريّة في العصر العثمانيّ، يلمح المُطَّلَعُ جميعَ الأغراضِ التَّقليديّةِ القديمة ومعانيها، ولكنّها جاءتْ مكسوّةً بأسلوبٍ خاصٍّ بزَمَانِ شعرائها النَّاطِمين لها، فهم لم يقتصروا على الأغراضِ التَّقليديّةِ من مدحٍ وهجاءٍ وغزلٍ ورتاءٍ وغيرها من الأغراضِ، بل أضافوا إليها الأغراضِ الجديدة التي لم تكنْ بالمعروفةِ بشكلها الجديد في عصورٍ سابقةٍ، مثل غرض "التَّأريخ" حيثُ صار الشاعر يُورِّخُ لكلِّ حَدَثٍ مُهمٍّ يَمُرُّ به في حياته، وقد ازدهر فنُّ التَّأريخِ في مُعظمِ موضوعاتِ القصائدِ إلى أن صارَ له أربابُه المُتخصِّصون به من أمثال البهلول عبد الرَّحمن بن محمَّد الشَّاكر (ت. 1163هـ/1750م)،<sup>285</sup> ومحمَّد قيادو التُّونسيّ (ك.ح. 1276هـ/1859م)،<sup>286</sup> كما شهَّدَ غرضُ المديحِ النَّبويِّ اهتمامًا بالغًا في هذا العصر ومَن برَعَ فيه بهاء الدِّين الرَّوَّاسُ أستاذُ أبي الهُدَى، ومعاصِرُه يوسف النَّبهايّ،<sup>287</sup> وكذلك بلغتِ القصائدُ الصُّوفيّةُ أوجهاً الفنِّيَ العالِي بأقلامِ شعرائها ومنهم شيخُه الرَّوَّاسُ أيضًا،<sup>288</sup> وعبد الغني النَّابلسيّ (ت. 1143هـ/1731م)، وكثرتِ الموشَّحات على ألسنةِ ناظميها من مُتصوِّفةِ ذلك العصر، كما اتَّجَهَ الشعراءُ إلى فنِّ مُستحدَثٍ آخَر هو تضمين اللِّغزِ في أشعارهم وصناعة الأَحاجي فيها، كما أنَّهم أكثرُوا في أشعارهم من الشَّكوى وأتَّجَّهوا نحو ذواتهم بعد ما شهدوه من قسوةِ الزَّمانِ وفسادِ أهلهِ مما جعلَ بعضَ أشعارهم تصطبَعُ بالغرِبةِ وتكتوي حروفها بنارِ الاغترابِ؛ ويُضَافُ إلى هذا كُلِّهِ أنَّ شعراءَ العصر العثمانيّ ومَن سارَ سيرتهم مَن بعدهم كانوا جامعين بين صَنعَتَي النَّثرِ والشِّعرِ آخذين من كلِّ عِلْمٍ بطَرَفٍ؛<sup>289</sup> وليس ببعيدٍ أن يكون أبو الهُدَى معدودًا من جملةِهم،

<sup>285</sup> يُنظر: أبو الفضل محمَّد خليل المراديّ، سلك الدُّررِ في أعيان القرنِ الثَّاني عشر (بيروت: دار ابن حزم، 1408هـ/1988م)، 310/2.

<sup>286</sup> يُنظر: الرَّافعيّ، آداب العرب، 343/2.

<sup>287</sup> يُنظر: محمَّد محمود كالمو، الأدب العربيّ عبر العصور (تركيا: منشورات كليّة التَّربيّة بجامعة أديمان، 2018م)، 26.

<sup>288</sup> يُنظر: محمَّد بهاء الدِّين الرَّوَّاس، ديوان معراج القلوب إلى حضرات الغيوب، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: المطبعة العلميّة،

1389هـ/1969م)، 291.

<sup>289</sup> يُنظر: عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربيّ العصر العثمانيّ (دمشق: دار الفكر، 1409هـ/1989م)، 77، 78، 80، 126.

سارٍ على نهجهم في كلِّ هذه الأغراض، إذ انتظمَ نظْمُهُ في عِقْدِ كلِّ تلك الأغراض التي مرَّ ذِكْرُهَا، فصَدَّقَ ما حَطَّه قَلْمُهُ من الأغراضِ الشِّعْرِيَّةِ الرَّأْيِي الْقَائِلِ بِالْحَاقِ شِعْرَاءِ حِقْبَةِ أَبِي الْهُدَى بِشِعْرَاءِ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، ودمغَ نتاجهم الأدبيِّ الشِّعْرِيِّ بِمحاكاةِ أغراضٍ من سَبَقَهُمْ من شعراءِ ذلك العصر.

وإنَّ مما يجدرُ ذكره في مطلعِ الكلامِ على أغراضِ أبي الهُدَى الإِشَارَةُ إلى أنَّ شعْرَهُ على الرَّغْمِ من كونه قد جمعه جُلُّهُ بنفسِه وأودَعَهُ في عِدَّةِ دواوينٍ إلا أنَّه لم يحرص على ترتيبه على الأغراضِ الشِّعْرِيَّةِ، بل ولا على أيِّ ترتيبٍ آخر، كما في بعضِ الدَّواوين -مثل ديوانِ الدُّرِّ المنتظم-؛ وهذا جعلَ الطَّرِيقَ وَعِرًّا تَكْتَنِفُهُ الْمَشَقَّةُ على مَنْ سَعَى مَحَاوِلًا تَصْنِيفَ شِعْرِهِ وَتَرْبِيئَهُ على حسبِ الأغراضِ الشِّعْرِيَّةِ؛ وقد سَبَقَتْ الإِشَارَةُ إلى اعْتِمَادِ ما أَقْرَهُ أَبُو الْهُدَى بِنَفْسِهِ من الأغراضِ الرَّئِيسَةِ التي رَتَّبَ على نِظَامِهَا النَّبْهَائِيُّ بِاكَوْرَةِ أَعْمَالِهِ -ديوانِ الْفَيْضِ الْمَحْمَدِيِّ-، وقد تَفَاوَتْ أَغْرَاضُهُ في رَتْبِ الْإِكْتِثَارِ وَالْإِقْلَالِ، فَتَصَدَّرَ غَرَضُ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ الْمُرْتَبَةَ الْأُولَى في غَزَاةِ الْأَشْعَارِ، بينما جَاءَتْ أَغْرَاضُ الْمَدِيحِ الْعَامِّ وَالْغَزْلِ ثمَّ الْوَعْظِ في الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ، وَيُمْكِنُ إِجْمَالُ الْأَغْرَاضِ وَتَرْبِيئِهَا وَفَقَّ مَا يَأْتِي:

(1) الدُّعَاءُ	(5) الْوَعْظُ
(2) الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ	(6) الْمَهْجَاءُ
(3) الْمَدِيحِ	(7) الرِّثَاءُ
(4) الْغَزْلُ	(8) أَغْرَاضُ أُخْرَى

وإِفْرَادُ مَبْحَثٍ خَاصٍّ لِمَا سِوَى الْأَغْرَاضِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا، إِنَّمَا هُوَ لِلْعِنَايَةِ بِمَا تَفَرَّقَ مُنْتَشِرًا فِي عُمُومِ الدَّواوينِ من الْأَشْعَارِ التي انطَوَّت تحتِ أَغْرَاضٍ قَلَّتْ نِسْبَةُ وَرُودِهَا -حتى وصلَ بعضُهَا إلى درجَةِ النُّدْرَةِ- وذلك إذا ما قيسَتْ غَزَاةُ وَرُودِ أَشْعَارِهَا بِسَالِفِهَا من الْأَغْرَاضِ الْمُفْرَدَةِ بِمَبَاحِثٍ خَاصَّةٍ.

## المبحث الأول: غرض الدعاء

قد يحسنُ قبل الخوض في غمار الغرض الفِطْنَةُ إلى أنّ الدعاء في أصل اللّغة هو طلب إحضار الشّيء،<sup>290</sup> أو طلبُ الفعلِ، ويأتي بمعنى النِّداء،<sup>291</sup> والفرقُ بين النِّداء والدُّعاء أنّ الأوّل يكون برفع الصّوت والثّاني يكون برفعه وخفضه،<sup>292</sup> وجمعُ الدُّعاءِ أدعيّةٌ، وأصلُهُ من الفعلِ (دَعَا) الذي إذا تعدّى باللام فهو لطلب نوالِ الخير، وإن تعدّى بعلى فهو لطلب نزول الشّرّ؛ فدعاء المؤمن ربّه رغبةٌ إليه لاستجلابِ خيرٍ أو صدٍّ لشّرٍّ؛<sup>293</sup> والاجتهادُ في الدُّعاءِ يُسمّى الابتهاال؛<sup>294</sup> ويمتدُّ معنى الدُّعاءِ في اللّغة ليشملَ معاني أُخر كالاستغاثةِ والنّدى والصّياحِ والتّشويقِ والسّوقِ إلى الشّيءِ وإمالةِ الشّيءِ إلى الدّاعي بالصّوت والكلام؛<sup>295</sup> والمعنى المقصودُ المرادُ في هذا الغرضِ هو الابتهاال والرّغبة إلى الله؛ وإنّ الثّمسَ المعنى الاصطلاحيّ للدُّعاءِ فإنّ من أقرب ما عرّف به الدُّعاءُ هو تعريفُ المناويّ له حينما قال: هو "لسانُ الافتقارِ بشرحِ الاضطرار" و"طلبُ المرادِ بنعتِ الفؤاد"، و"طلبُ كشفِ الغمّة"،<sup>296</sup> فهو بذلك يقترب به من الأصل اللّغويّ لِيُقَرَّرَ أنّه ترجمةُ الإنسان لمطالبه التي تعترّك في داخله وعرضها بالتّوجّه إلى الله بلسان التّدلُّلِ والعبوديّة، ورجاؤه أن يدفَع الضّرّ عنه ويُمدّه بالعون.<sup>297</sup>

<sup>290</sup> يُنظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (الاسكندريّة: دار الدّعوة، د.ت)، "دعا"، 286/1.

<sup>291</sup> الجوهري، "دعا"، 2336/6.

<sup>292</sup> يُنظر: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الفروق اللّغويّة، تحقيق: محمّد إبراهيم سليم، (القاهرة: دار العلم والتّحفاة، د.ت)، 38.

<sup>293</sup> يُنظر: ابن منظور، "دعا"، 258/14؛ الزّبيدي، "دعو"، 46/38.

<sup>294</sup> يُنظر: الزّحشريّ، أساس البلاغة، 85/1.

<sup>295</sup> يُنظر: مصطفى وآخرون، "دعا" 286/1؛ أحمد بن فارس الرّازي، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السّلام هارون، (بيروت: دار الفكر، 1399هـ/1979م)، 279/2.

<sup>296</sup> المناوي، التّعريف، 166.

<sup>297</sup> يُنظر: حمد بن محمّد الخطّابي، شأن الدُّعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، (القاهرة: دار التّحفاة العربيّة، 1412هـ/1992م)، 4.

وغرضُ الدُّعاءِ في الشِّعرِ العربيِّ ضاربٌ في القِدَمِ على ألسنةِ الشُّعراءِ حتى قبل بزوغ فجرِ الإسلامِ، فتارةً يَرِدُ في أبياتٍ مُتَّفِرِّقَةٍ على لسانِ مَنْ تَحَنَّفَ من الجاهليِّينَ، كقولِ وَرَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ (ت.11ق.هـ/611م) في تمجيدِ الإلهِ الخالقِ تبارك وتعالى واللياذِ بِهِ:

فسبحان من تهوي الرياحُ بأمره      ومَن هو في الأيامِ ما شاء يفعل<sup>298</sup>

وقوله المنسوبِ إليه:

سبحانه ثم سبحاناً يعودُ له      وقبلُ سبَّحه الجوديُّ والجَمَدُ<sup>299</sup>

وتارةً أُخرى يُلمَحُ الدُّعاءُ في أشعارِ بقيَّةِ الجاهليِّينَ غيرِ المُتَحَنِّفِينَ، حيثُ دَعَا اللهُ لأنفسِهِم ولأحبائِهِم، فها هيَ الخنساءُ (ت.24هـ/644م) تدعو لأخويها صخر ومعاوية فتقول:

فَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ صَخْرًا وَعَهْدَهُ      وَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ رَبِّي مُعَاوِيَا

وَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ صَخْرًا فَإِنَّهُ      أَخُو الجودِ بَيْنِي لِلْفِعَالِ العَوَالِيَا

سَقَى اللهُ أَرْضًا أَصْبَحَتْ قَدِ حَوَّهْمَا      مِنَ المُسْتَهْلَاتِ السَّحَابِ العَوَادِيَا<sup>300</sup>

وإلى جانبِ دُعاءِ الشُّعراءِ لاستجلابِ الخيورِ، فقد دعوا على خصومِهِم بالويلِ والشُّرورِ، ومن ذلك قولُ الشَّاعرِ المُحَضَّرِمِ الحُطَيْيَةِ (ت.45هـ/665م) داعياً على خصمِهِ مخاطباً لها:

جَزَاكَ اللهُ شَرًّا مِنْ عَجُوزٍ      وَلَقَاكَ العُقُوقُ مِنَ البَيْنِيَا

<sup>298</sup> أبو القاسم علي بن حسن بن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمر غرامة العمروي، (بيروت: دار الفكر، 1415هـ/1995م)، 11/63.

<sup>299</sup> مصعب بن عبد الله الزبيرى، نَسَب قريش، تحقيق: ليفي برونسسال، (القاهرة: دار المعارف، 1402هـ/1982م)، 208؛ ويُنسَب البيتُ إلى أمية بن أبي الصلت وغيره، يُنظر: سيبويه عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408هـ/1988م)، 326/1.

<sup>300</sup> الخنساء تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، تحقيق: حمدو طماس، (بيروت: دار المعرفة، 1425هـ/2004م)، 120.

تَنَحِّي فَاجْلِسِي مِنَّا بَعِيدًا أَرَاخَ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَا<sup>301</sup>

وإذا كان غرضُ الدُّعاءِ حاضرًا حتى في الجاهليَّةِ فلا بدَّ أن يستمرَّ ويشتدَّ عُودُهُ بعد إشراقِ نورِ الإسلامِ، ويبرزُ في قصائدِ الإسلاميينِ ومَن جاءَ بعدهم في العصورِ التي تلتَ عصرهم وصولًا إلى عصرِ أبي الهُدَى.

إلا أنَّ هذا الغرضَ لمَّا كان مُعَبَّرًا عن علاقةٍ تقوم بين عبدٍ ورَبِّه المعبودِ، فقد استلزمَ من المُعَبِّرِ عن هذه العلاقةِ، والمُترجمِ لهذه الصِّلَّةِ الفريدةِ، أن يمتلِكَ لسانًا معنويًّا يَخْتَلِفُ عن ذلك اللِّسانِ الذي اعتادَ أن يسرِّحَ يمينه ويسرِّه في ميادين الألفاظِ مُعَبَّرًا عن علاقةِ المخلوقين فيما بينهم من مدحٍ وثناءٍ وغزلٍ وهجاءٍ وغيرها من الأغراضِ، إذ ثمةَ فرقٌ فيما بين الموقفينِ، وتفاوتٌ بين المقامينِ، فالتَّواصلُ هنا مع الخالقِ وليسَ مع المخلوقين؛ ولعلَّ هذا هو السَّببُ الكامِنُ وراءَ قِلَّةِ أشعارِ هذا الغرضِ إذا ما قيسَتِ بأشعارِ الأغراضِ الأخرى في عمومِ الأدبِ العربيِّ، فغرضُ الدُّعاءِ غالبًا ما يكون حضورُهُ في مُقتطفاتِ شعريَّةٍ عند الوُعَاظِ والرُّهَّادِ خاصَّةً مَن ترهَّدَ من الشعراءِ الذين رجعوا من تيههم في دروبِ العصيانِ وآبوا إلى ربِّهم من أمثالِ أبي نُؤاسٍ (ت. 198هـ/814م)، وأبي العتاهيةِ (ت. 211هـ/826م).

وقد كان هذا الغرضُ حاضرًا في شعرِ أبي الهُدَى ماثلاً أمام الناظرِ فيه بوجوهٍ مُختلفةٍ وضروبٍ متنوِّعةٍ، تمتدُّ حينًا لتكونَ في قصائدِ دعائيَّةٍ مُستقلَّةٍ، وتقتصر حينًا آخَرَ فتبلغ قطعًا أو نُتقًا مصوَّعةً لغرضِ الدُّعاءِ والتَّوجُّهِ إلى الله تعالى، وفي بعض الأحيان تختبئ الأبياتِ الدُّعائيَّةُ بين أبياتِ قصيدةٍ مُتعدِّدةِ الأغراضِ.

<sup>301</sup> الحُطَيْبَةُ جرول بن أوس العبسيِّ، ديوان الحُطَيْبَةِ، تحقيق: حمدو طمَّاس، (بيروت: دار المعرفة، 1426هـ/2006م)، 144.

ولعلَّ المنظومة الرَّائِيَّةَ أَوَّلُ بَارِزٍ مِنَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ - القَصَائِدِ الدُّعَائِيَّةِ الْمُسْتَقْلَةِ - وهي التي صُدِّرَ بِهَا أَوَّلُ دَوَائِبِهِ وَتَقَعَ فِي سَبْعَةٍ وَسَبْعِينَ بَيْتًا، وَيَبْدُو أَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ مَا نَظَّمَهُ أَبُو الْهَدَى فِي رِبْعَانِ شِبَابِهِ، وَمَطْلَعُهَا:

بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ      وَصَلَّيْتُ تَعْظِيمًا عَلَى الْكَامِلِ الْقَدْرِ  
دَخَلْتُ بِأَسْمَاءِ الْإِلَهِ لِبَابِهِ      أُؤَمِّلُ بِالْأَسْمَاءِ مِنْ بَابِهِ جَبْرِي<sup>302</sup>

وَيَبَيِّنُ مِنْ هَذَا الْمَطْلَعِ أَنَّ أَبَا الْهَدَى يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ مَتَوَسِّلًا إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَشْرَعُ بَعْدَ هَذِهِ الْبَدَايَةِ بِسَرْدِهَا عَلَى التَّرْتِيبِ الْوَارِدِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ<sup>303</sup>، مَعَ حِرْصِهِ عَلَى أَنْ يُرْدِفَ كُلَّ اسْمٍ بِدَعْوَةٍ تَتَنَاسَبُ مَعَهُ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ أَتَى بِاسْمِ "الْمُحْيِي" طَالِبًا حَيَاةً لُبِّهِ بِالْفِكْرِ، وَدَعَا بِاسْمِ "الْمُمِيتِ" أَنْ يَمُوتَ عَلَى حَسَنِ الْخِتَامِ ذَاكِرًا مُوَحِّدًا، وَأَمَّا اسْمُ "الْمُقَدِّمِ" فَجَاءَ بِهِ مَشْفُوعًا بِطَلَبِ التَّقَدُّمِ وَالْعُلُوِّ فِي الرَّتَبِ، وَاسْمُ "الْمُوَخِّرِ" شُفِعَ بِالدُّعَاءِ عَلَى الْأَضْدَادِ بَأَنْ يَكُونَ التَّأَخُّرُ حَلِيفَهُمْ دَائِمًا، وَرَجَا بِاسْمِ اللَّهِ "الْأَوَّلِ" أَنْ تَحْسُنَ خَاتِمَةُ عَمْرِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، فَقَالَ:

مَعِيدٌ وَمُحْيِي فَآخِي بِالْفِكْرِ مُهْجِي      مُمِيتٌ أَمْتِي نَاطِقَ الْقَلْبِ بِالذِّكْرِ  
وَمُقْتَدِرٌ كُنَّ لِي وَبِالْقُدْرَةِ أَكْفِي      مُقَدِّمٌ قَدَمِي بِشَأْنِي عَلَى غَيْرِي  
مُوَخِّرٌ أَخَّرَ رَكْبَ ضِدِّي عَنِ الْمُنَى      وَيَا أَوَّلُ اخْتَمَ لِي بِحَسَنِ انْتِهَاءِ عُمْرِي<sup>304</sup>

<sup>302</sup> د.ف.م، 8.

<sup>303</sup> يُنظر: محمد بن ماجة القزويني، سنن ابن ماجة، إعداد: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ت)، "الدُّعَاءُ"، 34 (رقم 3861).

<sup>304</sup> د.ف.م، 9.

واستمرَّ على هذه الشَّكلة في سردِ الأسماءِ الحُسنى جميعها -إلا اسم "الجليل" فلم ينل مكانه بين الأبيات-،<sup>305</sup> مع ملاحظة صبغه لمنظومته ببعض المُحسِّنات البديعية اللفظية، كالجناس (بدأت/ مبدأ، أسماء/ الأسماء، مقدّم/ قدّمني، مؤخّر/ أخّر، مُقتدِر/ القُدرة)، والطِّباق (قدِّم/ أخّر، أحي/ أمت، مُحيي/ مُميت).

ثم ذيلَ المنظومة بالدُّعاء له ولوالديه وأساتذته والصلاة والسلام على النَّبي وآله وأصحابه العشرة، وختم المنظومة بالدُّعاء للسُّلطان عبد الحميد وجنوده وتمنى من الله أن يدوم العدل في مملكه وأن يُكفى الزَّمانَ وشروءه، وقال في الختام:

بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى دَعَاكَ أَبُو الْهَدَى      وَتَرْجَمَهَا ضِمْنَ الْقَصِيدَةِ بِالشِّعْرِ  
فِيَا رَبِّ خُذْهَا بِالْقَبُولِ لِأَنِّي      بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ<sup>306</sup>

ومما أفرَدَ أبو الهُدَى من القصائد الكاملة لغرض الدُّعاء من بدايتها إلى نهايتها، تلك القصيدة المختوم بها ديوانه "التَّبيان"، التي يقول في مطلعها المُفعم بوسع الأمل وحسن الرِّجاء بالله:

رَفَعْتُ يَدَيَّ وَالْقَلْبُ رَاحَ مُنَاجِيًا      أَغِثْ يَا عَظِيمَ الطَّوْلِ<sup>307</sup> وَاقْبَلْ دُعَائِيَا  
لِحَاثُ إِلَيْكَ ارْحَمِ صَمِيمِ ضِرَاعَتِي      وَحَاشَاكَ مَا خَيَّبَتْ يَا رَبِّ رَاجِيًا<sup>308</sup>

وفيها يُصوِّرُ إخلاص التَّجاءِ وتَضَرُّعِهِ لمولاه مُسِنِدًا للقلب المناجاة الصَّادقةَ وذلك من طريق المجاز العقليِّ، مع أنَّ المناجي هو صاحبُ القلب، ولكن لما كان القلب محلَّ الخشوع وصدق اللِّجوءِ

<sup>305</sup> لربما يكون سقط البيت المتضمن له أثناء طباعة الديوان أو أنه سقط من قلم الناظم.

<sup>306</sup> د.ف.م، 11.

<sup>307</sup> الطَّوْلُ بالفتح هو المُنْ والعطاء ومنه طال على المرء وتطوّل، يُنظَر: الجوهري، "طول"، 1755/5.

<sup>308</sup> د.ت.ب، 132.

اقتضت الملاسة والعلاقة الحتمية بين القلب وصاحبه أن يؤتى بهذا المجاز العقلي ليدل الشاعر على كمال الصديق في هذا الدعاء، وأما القلب الجسماني فقد مدَّ كفَّ الرجاء للإله الذي لا يخيب من أرتجائه؛ وتصويره لصدق دعائه وحسن آماله بمولاه، دفعه لتصوير الحالة الاضطرارية التي يكتوي بنيرانها فقال:

دعوتك والجلِّي<sup>309</sup> أحاطت بذلتي وشنت أمامي خيلها وورائيا  
تناهيني الأسقام حتى كأنني أشابه مرطاً مسه الدهر باليا  
بليت بأنواع الهموم لهمة علت بي فمزق بانتصارٍ بلايا<sup>310</sup>

فأبو الهدى بأبياته يستمطر الإغائة الإلهية للمضطر الداعي، فيعرض حالة لمولاه بأنه العبد الذليل الذي هجمت عليه الدواهي العظام، واستعار -استعارةً مكنيةً مرشحةً- لهذه الدواهي وصف الهجوم والجيوش التي أقبلت بخيلها ورجلها عليه فأحاطت به من كل جانب، ناهيك بالأسقام التي تسابقت إلى شخصه المنهك الذي شبّهه -بعد أن ذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه (الاهتراء)- تشبيهاً مرسلًا مجملًا بأنه صار كالخرقة البالية التي اهترأت بتعاقب الأيام الصعبة عليها، ثم جاء بحسن التعليل لتحدر هذه الهموم عليه، إذ ما كانت تلك البلايا لتحل في ساحته لولا الهمة التي أعلت من شأنه فارتفع إلى قمة المجد فصار هدفًا لسنوف البلايا والهموم التي يرجو من الله تفتيتها ومحوها بالنصر والفرج القريب، وفي بيته الأخير سلك درب الاستعارة المكنية حيث جعل البلاء قميصًا، ثم حذفه وذكر صفةً من لوازمه وهي التمزق، فطلب من الله تمزيق حلة البلايا التي خلعتها عليه الأيام؛ ولم

<sup>309</sup> الأمر العظيم، الجوهري، "جلل"، 1658/4.

<sup>310</sup> د.ت.ب، 132.

يقف بتصوير حالته عند هذا بل استدعى صوراً تشبيهيةً أخرى، تجعل الناظر إليها ينعطف عليه بالرفقة والشفقة لحاله، فاستطرد قائلاً:

وَأَصْبَحْتُ كَالضَّبِّ الْمُحَاطِ بِمَوْجَةٍ يُرَى طَامِسًا حِينًا وَآخَرَ عَالِيًا  
وَكَالْحَوْتِ فِي قَفْرِ تَعْلَعَلِ حَرُّهُ وَلَمْ يُلْفِ إِلَّا أَنْتَ يَا رَبَّ رَاعِيًا  
تَنَكَّرَتِ الْأَيَّامُ حَتَّى كَأَنَّهَا عَدَّتْ بَانْقِلَابَاتِ الشُّؤُونِ لَيَالِيًا<sup>311</sup>

فهو يصوّر أنه وصل إلى أوج الاضطرار وقمته، لذا فقد استدعى التشبيه التمثيلي لتصوير حالته في الكرب مع اشتداد الاضطرار مُشَبِّهًا لها بصورتين، فما حاله الاضطراريُّ هذا إلا كحال ضبِّ صحراويٍّ أحاطت به أمواج المياه من كلِّ مكانٍ فبدأت تلفظه تارةً فيعلو فوقها، وتبتلعه تارةً أخرى فيهوي في أعماقها، وهو يكاد يختنق إذ البيئة المائيةُّ ليست بيئته، ويتابع أبو الهدى تشبيه حاله بصورةٍ مُعَاكِسَةٍ لسابقيتها فهو كالحوت الذي أُخْرِجَ من بحرِهِ إلى أعماق القفار اللاهبة فوا عجبًا هل له غير إغاثة الله وعونه، فما كان القفر يومًا بيئته للحوت ابن البحار، ولا الماء بمناسب للضبِّ ابن القيا في القفار، فكانَّ أبا الهدى أراد أن يقذف بمُخَيَّلَةِ القارئ وسطَّ جوه الذي عاش فيه من ضنك الاضطرار، فهو كما مثل بالمثلين -الضبِّ والحوت- في بيئة تكاد تخنقه من أوداجه إذ ليست الأجواء بأجوائه ولا النَّاسُ بناسه ولا المكان بمكانٍ له، فتغيّرت حاله، حيث قلبت له الأيام ظهرَ المِجَنِّ، فصارت أوقائه مُدْهِمَةً سوداء من الهموم والأكدار والمصائب المنحدرة فوق رأسه؛ وتعكسُ مرآة الكلمات الواردة في هذه الأبيات انقلابات أحواله واضطرابها من خلال الطِّبَاق (الأيام/ الليالي، طامس/ عالي)؛ وبعد كلِّ هذا انثنى لسانُ اضطراره منادياً مولاه:

إلهي تَدَارَكْنِي بِلُطْفِكَ إِنِّي ضَعِيفٌ وَقَدْ حَمَلْتُ ضَعْفِي الْمَسَاوِيَا

<sup>311</sup> د.ت.ب، 133.

جعلتُ لِقَلْبِي من تَجَلِّيكَ حَضْرَةً تُنَاجِيكَ فَاجْعَلِي بِذِكْرِكَ نَاجِيًا  
 وَنَوَّزَ حَيَاتِي بِالْخُشُوعِ وَبِالرِّضَا وَأَكْمِلْ عَلَيَّ دِينَ النَّبِيِّ مَمَاتِيَا  
 وَلَا تُقْصِنِي عَنِ إِثْرِ أَشْرَفِ مُرْسَلٍ لِأَقْضِي وَأَلْقَى الْمُصْطَفَى الطُّهْرَ رَاضِيًا<sup>312</sup>  
 فغايته ما يرجوه أبو الهدى بدعائه هو أن يشمل اللطف الإلهي أجزاء كُله، فقد هدَّ ضعفه تحمُّله  
 للخطايا، إلا أنَّه جعل من قلبه لسانًا بل حضرةً يناجي الله فيها بالذكر والدعاء عسى أن يحظى  
 بالنَّجاة وحسن الختام عند موافاة الأجل المحتوم، إذ إنَّ أقصى ما يرنو إليه هو ألا يشطَّ عن النَّهْجِ  
 السَّيِّئِ من الاتِّباع لسنة النَّبِيِّ الأكرم، وغاية ما يطمحُ إليه أن يُثَبِّتَ المولى حُطاه إلى أن يلقى النَّبِيَّ  
 الكَرِيمَ عليه السَّلام يوم القيامة ويحظى ببقياه ورضاه؛ ويظهرُ في دعواته عدمُ إهماله لمُحَسِّنَاتِ ألفاظها  
 ومعانيها، فقد أتى بالمبالغة لما جعل القلبَ حضرةً مناجاةً للرَّبِّ الكَرِيمِ بَرَكَ تَعَالَى، وَضَمَّنَ ألفاظه  
 الطَّبَاقَ (حياتي/ مماتي)، والجِناسَ النَّاقِصَ والاشتقَاقِيَّ (ضعيف/ ضعفي، تجلِّيك/ تناجيك/ ناجيًا).  
 وفي موضعٍ آخر كانَ لسانُ حالِهِ يعترفُ بالعجزِ والتَّقْصِيرِ والإفلاسِ أمامَ رَبِّ النَّاسِ،  
 فصحائفُ كتابِهِ اسوَدَّتْ بما نُشِرَ في مطوِّبِهَا من الخطايا والدُّنُوبِ، ولم تبقَ لَهُ وسيلةٌ إلا الوقوفُ  
 بالذُّلِّ في باب الخالقِ العزیزِ بَرَكَ تَعَالَى، فقال:

تَنَكَّرَ مَنِّي الحَالُ والطَّوْرُ والزِّيُّ ونشُرُ ذنوبي في صحايفي مَطْوِي  
 وما لي سوى ذُلِّي ببابك حُجَّةٌ إلهي وإني في فنائك مَرْمِي  
 إذا ما انتهى عُمري أَمْتِنِي مُوَحِّدًا عَلَى المِلَّةِ السَّمْحَاءِ يَا بَرُّ يَا حَيُّ<sup>313</sup>

<sup>312</sup> د.ت.ب، 133.

<sup>313</sup> د.ر.ت، 290.

فهو منطرحٌ بذِّله في ساحة الجود الإلهيِّ وباب الكرم الربَّانيِّ وأقصى ما يرجوه هو حسن الختام عند موافاة الأجل على التَّوحيد والإيمان، وباستعارته التَّصريحِيَّة للجود الإلهيِّ وجعله فناءً يُنزل به أضفى على الأبيات جَماليَّةً تُعَبِّرُ عَمَّا انطوى في صدره من فسيح الأمل بقبول الدُّعاء وتحقيق الرِّجاء.

وفي غرض الدُّعاء حرصَ أبو الهدى في غالبِ المواضع على التَّكلم بذات اللِّسان، وهي لسان المُذنب الخاطئِ الخالي الوفاض من الأعمال الصَّالحات، ولم يفتأ جاعلاً هذا الحال هو السَّبب في إحاطته بأنواع الهموم والبلايا، ولهذا فما ثمة بابٌ إلا بابُ الإله، ولا ثمة رجاءٌ إلا به وبِعظيم عفوه وغفرانه، ومن أكثر ما طلب أبو الهدى في دعائه هو الغفران لذنوبه والثبات على النهج السنِّي السُّنيِّ وحسن الختام على الإيمان، ففي القصيدة التي مطلعها:

لَمَنْ أَشْتَكِي إِلَّا إِلَى اللَّهِ دَائِبًا وَأَرْفَعُ آمَالِي لَهُ وَرَجَائِيَا<sup>314</sup>

يُكْرِرُ هذه المعاني مرَّةً أُخرى ويبسطُ خوفه من الحساب يوم القيامة ويأملُ من الله أن يُحسِنَ ختامه، ويحتم القصيدة بالصَّلاة والسَّلام على النَّبي وآله، ويأتي بمعنى آخر، وهو أنه مُستَمسِكٌ بعروة صدق المَحَبَّة لله ولرسوله ولعترته الطَّاهرين، وما في جعبته من شيءٍ سواها، فيقول:

إِذَا مَا بَدَتْ يَوْمَ الْحَسَابِ مَعَائِي بِرَحْمَتِكَ اسْتُرْ كُلَّ مَا كَانَ بَادِيًا  
وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ إِمَامِ الْبِرِّيَا سَادَةً وَمَوَالِيًا  
فِي نِي سَوِي حُيِّي لَهُ وَلَا لَهُ وَحَبِّكَ رَبِّي لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا<sup>315</sup>

<sup>314</sup> د.ر.ع، 77.

<sup>315</sup> د.ر.ع، 78.

وقد ضُمَّت الأبيات طباق التَّضاد (سادة/ موالِي، عليّ/ لي)، وأمَّا المعنى المذكور من التَّمسُّك بالمَحَبَّة كوسيلةٍ تُرَجَى بها النِّجاةُ، وقصرِ كلِّ آمالِه عليها، فقد جاءَ في شعرِ السَّيِّدِ الحِميرِي (ت. 173هـ/789م) ما يقرُّبُ من هذا المعنى، حيث قال:

وَإِذَا الرِّجَالُ تَوَسَّلُوا بِوَسِيلَةٍ فوسيلتي حُيِّ لآلِ مُحَمَّدٍ<sup>316</sup>

وتكرارُ المعاني التي وَرَدَت على ألسِنَةِ الشُّعراءِ السَّابِقِينَ أمرٌ ظاهرٌ في غرضِ الدِّعاءِ، ففي ثنايا شعره يبدو للنَّاظِرِ تكرارُه للمعنى الذي أتى به قبله أبو نُؤاسَ لَمَّا قال:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمَ

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَيَمَنُ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ<sup>317</sup>

وَرَدَ منسوجًا على منواله في مُحَمَّسَةٍ لأبي الهُدَى؛ وكِلا الشَّاعِرِينَ في أبياتهما اعترفاً بالخطأ وارتكاب الذُّنُوبِ مع بسَطهما عظيمِ الأملِ ليقينهما بجزيلِ العفو الإلهيِّ، وكلاهما خاطبا المولى عَ وَهَلْ بَطَلَبُ قَبُولهما على عَصِيانِهِم، فالرَّبُّ تبارك وتعالى إذا لم يقبلِ إِلَّا الصَّالِحِينَ فَمَنْ ذا الذي سيقبلِ الطَّالِحِينَ وَيُثَقِّلُ عَثَرَتِهِمْ إذا ما أُغْلِقَ في وجههم بابُ العُفْرِانِ الإلهيِّ؛ يقول أبو الهُدَى:

إلهي بذنبي رُجوعي إليك وشكواي رُدَّتْ بِذُلِّي لَدَيْكَ

وكلُّ اتِّكالي بأمرِي عليك فسامحْ فجوْدُكَ جَمُّ جَزِيلِ

وَإِنِّي فَقِيرٌ وَأَهِي طَوِيلِ

إلهي إذا كُنْتَ لِلْمُحْسِنِينَ فَمَنْ لِعَبِيدِ أَتَوْا مُذْنِبِينَ

إلهي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ دَعْوَتُكَ فَارْحَمْ نِدَاءَ الْحَاجِلِينَ

<sup>316</sup> د.ر.ع، 77.

<sup>317</sup> أبو نؤاس الحسن بن هانئ، ديوان أبي نؤاس، تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي، (أبو ظبي: دار الكتب الوطنيَّة، 1431هـ/2010م)، 716.

فريدٌ وعنه تَنَحَّى الخليل<sup>318</sup>

غَيْرَ أَنَّ أبا الهُدَى فِي أَيْبَاتِهِ قَدْ تَوَسَّعَ فِي شَرْحِ حَالِهِ وَزَادَ عَلَى أَبِي نَوَاسٍ بَأَنَّ بَالِغَ بِالْأَنْطِرَاحِ فِي رِحَابِ الْكِرْمِ الْإِلَهِيِّ، فَهُوَ الْعَبْدُ الَّذِي طَالَتْ لِيَالِيهِ بِالْأَهَاتِ وَحِيدًا مُفْلِسًا، وَتَحَلَّتْ عَنْهُ الْأَيْدِي الْحَانِيَّةُ وَالصَّدِيقَةُ، فَجَاءَ حَجًّا مُعْتَرِفًا لِإِلَهِهِ رَاجِيًا رَحْمَتَهُ مَتَوَكِّلًا بِكَلِمَتِهِ عَلَيْهِ عَسَى أَنْ يُقْبَلَ دَعَاؤُهُ وَيَحْصُلَ رَجَاؤُهُ؛ وَلَرَبَّمَا أَخَذَ الْقَارِيءُ مِنْ إِطْنَابِ أَبِي الهُدَى بِأَسْلُوبِ التَّكْرَارِ لِكَلِمَةِ (إِلَهِي) وَشَرَحَهُ لَوَحْدَتِهِ وَبَيَانِهِ لِحَجَلِهِ مِمَّا بَدَرَ مِنْهُ، دَلِيلًا يُوَكِّدُ صِدْقَ مَشَاعِرِهِ فِي الرَّغْبَةِ إِلَى مَوْلَاهُ وَالْإِبْتِهَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَفِي مَعْرِضِ الْكَلَامِ عَلَى الْقَصَائِدِ الَّتِي خَصَّصَهَا أَبُو الهُدَى لِعَرَضِ الدُّعَاءِ، يُلَمَّحُ أَنَّ مَا سَبَقَ عَرَضُهُ مِنْ مَطَالِعِ الْقَصَائِدِ قَدْ اسْتُهْلَتْ بِالْدُّعَاءِ وَلَمْ تَحْظَ بِتَمَهِيدٍ قَبْلَ الْخَوْضِ فِي غَمَارِ الْعَرَضِ، إِلَّا أَنَّ أبا الهُدَى لَمْ يَسِرْ هَذَا السَّيْرَ فِي كُلِّ قَصَائِدِهِ، فَهَذِهِ قَصِيدَةٌ دُعَائِيَّةٌ أُخْرَى اسْتَهْلَهَا بِمَطْلَعٍ يَخْتَلِفُ عَنِ سَابِقِ مَطَالِعِ الْقَصَائِدِ، حَيْثُ قَالَ:

سَارَتْ تُرْمِزِمُ<sup>319</sup> لِلْحَمَى الرُّكْبَانُ وَأَعَاقِنِي التَّسْوِيفُ وَالْحِرْمَانُ  
يَا سَائِقِ الْأَطْعَانِ<sup>320</sup> يُجْهِدُهَا وَقَدْ طَارَتْ لِسَاحَةِ حَبِّهَا الْأَطْعَانُ  
هَلَّا اتَّكَدَتْ<sup>321</sup> لِيَذِي عَنَاءٍ ضَالِعٍ<sup>322</sup> تَبِعَ الْهَوَى إِنَّ الْهَوَى حُسْرَانُ  
وَاحْسَرْتِي ذَنْبِي طَمًا وَتَفَجُّعًا نَارِي تَوُجُّ<sup>323</sup> وَمَدْمَعِي هَتَّانُ<sup>324</sup>

<sup>318</sup> د.م.ش، 154.

<sup>319</sup> زمزم الحادي ترتم ودندن، وتزومم الجممل هدر، يُنظر: مصطفى وآخرون، "زمزم"، 400/1.

<sup>320</sup> جمع واحد طعينة وهي الهودج الذي فوق الراحلة سواء أكانت فيه امرأة أم لم تكن، يُنظر: الجوهري، "ظعن"، 2159/6.

<sup>321</sup> أي هلا تأتيت، يُنظر: ابن منظور، "أود"، 75/3.

<sup>322</sup> مُذْنِبٍ أَوْ مَائِلٍ عَنِ الطَّرِيقِ، يُنظر: الزبيدي، "ضلع"، 421/21.

<sup>323</sup> من أجاج أجيحًا، والأجيح هو تلهب النار واضطرامها، يُنظر: الجوهري، "أجاج"، 297/1.

<sup>324</sup> من هتن أي صب صبًا، وهو من المطر فوق الهطل، يُنظر: ابن منظور، "هتن"، 430/13.

يَارِبِّ لَا تَقْطَعْ رَجَائِي مِنْكَ يَا مَنْ مِنْ نَدَاهُ يُؤَمِّلُ الْإِحْسَانَ<sup>325</sup>

ففي هذا المطلع يُلحِظُ أَنَّ أبا الهُدَى تفرَّدَ به عن سوابقه من سالفِ المَطَالِعِ بأن جعله مطلعاً رمزياً، فلربما كان أبو الهُدَى قد عَنَى برمزِيَّةِ الحمى المنازِلِ العالِيَةِ في الدَّارِ الآخِرَةِ، حيث سارت إليها ركبان المؤمنين الصَّالِحِينَ، في حين أَنَّ رِكَابَهُ قد أَعَدَّتْهَا الدُّنُوبُ والتَّسْوِيفُ وَاِتِّبَاعُ الهَوَى، فلم يَقوَ على اللَّحَاقِ بِرُكْبِ الصَّلَاحِ والفلاح، ولذلك فقد اشتعلت في حشاه نار الأسي والنَّدَمِ على ما فاته، ففاضت عيونُه بالدُّمُوعِ السَّاكِبَةِ، ولكنَّ ما يُبْرِدُ لظى أحشائه يَقِينُهُ أَنَّ بابَ الرَّجَاءِ في الله والأوْبَةِ إليه لا يزال مفتوحاً، وأنَّ المؤمِّلَ بِرَبِّ العالمين لا يخبِ؛ ويسترعي الانتباه في هذا المطلع إيداعُ أبي الهُدَى فيه جملةً من الاستعارات، حيث استعار للدُّنُوبِ وصفَ الطُّمُوءِ وللمدَامِعِ التَّهْطَالِ ولِلأَطْعَانِ الطَّيْرَانَ وكلُّ ذلك على سبيل الاستعارة المكنِيَّةِ؛ ومن هذا المطلع الذي استهلَّ به القصيدة خلصَ أبو الهُدَى إلى غرض الدُّعاء في باقي أبياتها راجياً لإحسان وتحقيق الآمال.

وإذا كانت القصائد هي الشَّكْلُ الأوَّلُ لغرض الدُّعاء، فإنَّ الشَّكْلَ الثَّانِي لهذا الغرض هو القِطْعُ الدُّعَائِيَّةُ التي تُخَلِّتُ القصائد المتنوعَةَ الأغراض، ومن ذلك قول أبي الهُدَى في قصيدته المطوَّلة التي مطلعها:

لَكَ فِي مَهْمِهِ<sup>326</sup> التَّجَلِّيُ البهَاءُ يَا نَبِيَّاً نُؤَابُهُ الأنبياءُ<sup>327</sup>

يقول في أواخر أبيات هذه القصيدة مُنتَقِلاً إلى غرض الدُّعاء:

<sup>325</sup> د.ر.ت، 249.

<sup>326</sup> المفازة، يُنظَرُ: الجوهري، "مهه"، 2250/6.

<sup>327</sup> د.م.ش، 6.

رَبِّ إِنِّي مَدَحْتُ عَبْدَكَ طَهَ وَبَطَهَ يَسْتَشْفِعُ الْفُقَرَاءُ  
نَقِي سِرِّي يَا رَبِّ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ فَبِسِرِّي مِنْ زَلَّتِي أَصْدَاءُ  
وَتَدَارِكُ عَجْزِي بِقُدْرَتِكَ الْعُظْمَى فَإِنَّ مَطِيَّتِي هَزَلَاءُ  
الغِيَاثَ الْغِيَاثَ يَا رَبِّ فَالرَّكَّ سُبُّ أَمَامٍ وَالْعَزْمُ مِنِّي وَرَاءُ<sup>328</sup>

ويلاحظُ حسنُ تخلُّصِهِ بالانتقالِ من غرضٍ إلى آخر، والشُّروعِ في الدُّعاءِ والطلبِ من المولى أن يُصَفِّيَ باطنَهُ من الكَدْرِ والآثَامِ، ويصفُ هَمَّتَهُ في المسيرِ إلى الله بالعجزِ والضعفِ عن الطَّاعاتِ والصَّالحاتِ ويسطُّ أبو الهُدَى أمامَ القارئِ صُورًا بالغةَ الدِّلالةِ على فتورِ هذه الهِمَّةِ حيثُ كَتَبَ عنها بِإِتْيَانِهِ بلفظِ (المطِيَّةِ) التي تُركبُ في المسيرِ لكَرِّ الضَّعْفِ والعَجْزِ قد هَدَّأَ منها القُوَى، حتى صارت مطيَّةً هزيلةً لا يُعْتَمَدُ عليها في السَّيرِ إلى منازلِ الهُدَى، مما جعله يستطرِدُ ويجأُ - بأسلوبِ الإطنابِ - مُكْرِرًا طلبِ الغوثِ والإعانةِ من الله في نَحْوِ هذه العزيمةِ المُتخلِّفةِ عن الرِّكبِ الذي هو كنايةٌ عَمَّنْ تَقَدَّمَ أمامَهُ من قافلةِ السَّارِبِينَ في دربِ الصَّلاحِ والفلاحِ، ويجعلُهُ عزيمةً مُتَهَيِّجَةً إلى الوراثةِ استعارةً مكنيةً توكِّدُ ما يحرصُ عليه دائماً من التَّكَلُّمِ بلسانِ العجزِ والاضطرارِ في شعرهِ الدُّعائيِّ.

وقد كان أبو الهُدَى في شعرهِ الدُّعائيِّ -بالإضافةِ إلى تكلُّمِهِ بلسانِ العجزِ وعرضِ فقرهِ لمولاه- يحرصُ أيضاً على التَّوسُّلِ إلى الله بكلِّ ما يُتوسَّلُ بِهِ إليه، فتوسَّلَ إلى الله بالأسماءِ الحُسنى - كما مرَّ ذِكرُهُ - وتوسَّلَ إليه بالقرآنِ الكريمِ وبعظَمَةِ الأمرِ الإلهيِّ وبالقدرةِ الرِّبانيَّةِ على الإيجادِ والإفناءِ وبالعطاءِ الإلهيِّ الذي أكرمَ به الله الأنبياءَ والمرسلينَ، وبالمرسلينَ جميعاً وبسيِّدِهِم كُلِّهِم سراجِ الهُدَى أبي الزَّهراءِ عليه السلام؛ حيثُ يقولُ في مطلعِ قصيدَةٍ مُتنوِّعةٍ الأغراضِ استهلَّها بالدُّعاءِ، مُستعيراً للهَمَّ صورةَ النَّارِ

<sup>328</sup> د.م.ش، 22، 23.

التي تذيب الأحشاء، من طريق الاستعارة المكنية، لينطلق خيال القارئ حيث شاء في تصوّر ثقل وطأة هذا الهمّ الذي نزل بساحة صدر أبي الهدى فراح يبتّ شكواه إلى مولاه أرحم الراحمين:

لَكَ أَشْكَو يَا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ دَاءَ هَمِّ أَذَابَ لِي أَعْضَائِي<sup>329</sup>

ثم انثنى متوسلاً لقبول دعائه، مُبتَهلاً بخضوع وانكسارٍ، عسى أن يجبر مولاه ما انكسر من صلب صبره وعزمته، ويرأب ما تصدّع من كلِّ كُله:

وَأُنَاجِيكَ بَانْكِسَارٍ وَوَدِّ فَاجْبِرِ الْكَسْرَ يَا مُجِيبَ الدُّعَاءِ

بِمَعَانِي الْقُرْآنِ فِي عَالَمِ الْأَمْرِ بِمَجْلَى حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ

بِخَوَافِي أَسْرَارِ غَيْبِكَ بِالْإِبْدَاعِ بِالطَّمْسِ بِالْفَنَاءِ بِالْبَقَاءِ

بِتَدَلِّي فَيُوضِ عِزَّتِكَ الْعُظْمَى إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ

وَبِهِمْ كَلِّهِمْ وَبِأَعْظَمِهِمْ جَاءَ هَا سِرَاجَ الْهُدَى أَبِي الرَّهَاءِ<sup>330</sup>

وقد زخرت أشعاره الدعائية بالتوسلات، فلم تقف عند هذا المقدار بل تعدته إلى التوسل بأمرٍ أخرى يراها من عجائب التكوين والتصريف الإلهي في هذه الأكوان، فبعد أن توسل إلى الله بذاته المقدسة وبِعظمته الجليلة وبكتابه الكريم وبرسوله، توسل إليه بمحبته لأبويه وبصدق دعواتهم له، وبالأسرار التي جاء القرآن ليبرزها ويفتق رتقها في هذا الوجود، وتوسل إليه بالعزائم الصادقة التي مالت بكلياتها إلى ربها حتى حكّت ميل الأفنان في الأفياء، واستشفع بأنين العاشقين الحقيقيين للجمال الأقدس وبأنين قلوبهم التي أذاها ألم الغرام، وبما انطوت عليه قلوب الصادقين من علوم، فقال في موضع آخر:

<sup>329</sup> د.م.ش، 31.

<sup>330</sup> د.م.ش، 31.

فوسيلتي لك قدسُ ذاتِكَ سيّدي وحبيبك المختارُ والقرآنُ  
 ومحبتّي للوالدين ومنهما حسنُ الدُعاءِ فلي بذاك أمانُ  
 بجليل طَوْلِكَ يا قديمٍ بِكُلِّ ما قد جاءَ يُبرِزُ سرَّهُ الفُرقانُ  
 بكلامِكَ القُدسيِّ بالهِمَمِ التي مالتْ إليك كأثما أغصانُ  
 بحنينِ ركبِ العاشقينِ إليك حيا سئ تُذيبها الآلامُ والأحزانُ  
 بفنونِ أصحابِ القلوبِ كأثمهم أشجارُ معرفةٍ لها أغصانُ<sup>331</sup>

وبتشبيهه المرسل المفصل - بذكره لأداة التشبيه (كأن) ووجه الشبه (الميلان) - لعزائم الصادقين بالأغصان، واستعارته المكنية لأحزان العاشقين وصف إذابة النيران، وبالإضافة إلى تشبيهه المرسل المُجمل - بذكره لأداة التشبيه وحذفه لوجه الشبه (الإثمار) - لفنون أرباب القلوب الطاهرة بأشجارٍ تدلّت منها أغصانها، كلّ هذا قد يأخذ بالمتأمل في رحلةٍ إلى أعماقِ شخصيّة أبي الهُدَى، فيكاد يكشف ما انطوى عليه قلبُ الشاعِرِ من تعظيمٍ ومحبةٍ لعزيمة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، والعاشقين الحقيقيين للباقي القديم الذين يحبُّهم ويحبُّونه، كما يُلتمسُ إجلالُهُ لبِضاعَةِ أهل القلوب وما حوته قلوبُهُم من طهرٍ أثمرَ طبّباتِ الفنون والمعارف؛ فقدّم بين يدي دعائه أعظمَ ما انطوى عليه قلبُهُ من عظيم الوسائلِ وراح ينجي مولاَهُ بلسان الرجاءِ قائلاً:

اغفر ذنوبي واجتذب قلبي إلى عليّك يا رحمنُ يا دَيّانُ  
 والطف بحالي حينَ أحشُرُ في غدٍ حينَ الحسابِ يقومُ والميزانُ<sup>332</sup>

وإذا كان أبو الهُدَى في شعره الدُعائيّ وتوسُّلاته قد دعا لنفسه ولغيره ولعامّة المسلمين ولسلطاتهم، فقد امتدّ بتوسُّلاته ليشمل الدُعاء على أعدائه أيضاً، ومن ذلك ما نَظّمه من الدُعاء

<sup>331</sup> د.ر.ت، 251.

<sup>332</sup> د.ر.ت، 251.

على رجلٍ مفترٍ على أعيانِ رجالاتِ حلب، فانبهرى أبو الهُدَى بقصيدةٍ مُستَقَلَّةٍ يدعو عليه، فقال فيها بعد أن قَدَّمَ بين يديها تَوَسُّلَهُ واستغفاره من ذنوبه:

دَمَّرَ عَدُوًّا بَغَى وَاصْرَفَ مَكَائِدَهُ عَنَّا وَشَتَّتَهُ حَتَّى لَا يَرَى حَلْبًا  
وَاضْرِبُهُ جَهْرًا بِسَيْفِ الْعَدْلِ يَا حَكَمًا يُرْجَى إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْعَبْدِ وَاضْطَرَّ بِهَا  
يَا مَنْ إِلَيْكَ التَّجَاءُ الْخَاشِعِينَ أَعِثْ بِحُزْنِهِ مِثْلَمَا عَاجَلْتَ قَوْمَ سَبَا<sup>333</sup>

وبدعائه على عدوه أن يُعَاجِلَهُ اللهُ بالعذاب كما عاجلَ قَوْمَ سَبَا،<sup>334</sup> إشارةً منه إلى اشتراكِ عدوه مع أولئك القومِ بنفسِ الفِعَالِ والخِصَالِ، مما يعني أنَّ عدوه قد جحدَ إنعامَهُ عليه، وجازى الإحسان بالكُفْرانِ، فَحَقَّقَ للشَّاعِرِ أن يرغبَ إلى رَبِّهِ لِيُغَيِّثَهُ بتعجيلِ العِقَابِ على هذا العدوِّ الباغِي كما عاجل أولئك القومِ.

ومن دعائه على مَنْ بَغَى عليه، وقد ضَمَّنَ البيتَ الكناية عن إضرارِ الباغي نارِ العداوةِ والبغي عليه (زنده الواري)، لذا فقد طَلَبَ من الله أن يُخِمِدَ هذه النَّارَ، ويصيبَ تلكَ اليدَ الباغيةَ بالشَّلَلِ فلا تمتدَّ إليه بالبغي مرَّةً أُخرى؛ فقال:

وَكُفَّ يَدَ الْبَاغِي عَلَيْنَا وَشَلَّهَا لِيخْمَدَ عَنْ رَعْمٍ لَهُ زَنْدُهُ الْوَارِي<sup>335</sup>

وَيُحْيِلُ إِلَى النَّاطِرِ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الدُّعَائِيَّةِ أَنَّ أبا الهُدَى قد تعرَّضَ خلالَ حَيَاتِهِ لشيءٍ من الظُّلمِ والأذِيَّاتِ والحياناتِ وكفرانِ العَشِيرِ، ولذلك يستطيع النَّاطِرُ أن يقرأ بين السُّطورِ الألمَ الكبيرَ الذي

<sup>333</sup> د.ت.ب، 20؛ وكلمة "المكائد" هكذا وردت في الديوان، والصواب أن تكون بتسهيل الهمز "مكايد"، إذ الياء أصلية في لفظ "مكيدة".

<sup>334</sup> يُنظر: سبأ، 15/34.

<sup>335</sup> د.م.ش، 104؛ والزند هو العود الذي يُقدحُ به النَّارَ، الجوهري، "زند"، 481/2؛ والواري من وري الزند إذا خرَّجت ناره، يُنظر: الجوهري، "ورى"، 2522/6.

اجتاح جوانح الشَّاعرِ، فدفعه إلى هذا الدُّعاءِ على أعدائه، ومن ذلك دعاؤه على خائنٍ غدَّارٍ مَكِرٍ  
بالتَّدْمِيرِ والقَهْرِ والذُّلِّ والخِذْلانِ:

وَأُخَذَ بِسَهَامِ المَكْرِ يَا رَبَّ خَائِنًا      تَعَدَّى حُدُودَ الحَقِّ وَاِنْسَابَ بِالمَكْرِ  
وَصُبَّ عَلَيْهِ الذُّلَّ وَاقْطَعَ حِبَالَهُ      بِسَيْفِ التَّجَلِّيِّ وَاَسْقَاهُ لَوْعَةَ القَهْرِ  
وَسَرَبَلُهُ<sup>336</sup> بِالخِذْلَانِ وَاِمْحَقَّهُ عَاجِلًا      فَعَوْنُكَ يُرْجَى لِلْإِغَاثَةِ وَالنَّصْرِ<sup>337</sup>

ويُلاحَظُ في دَعَائِهِ على الخِصُومِ التَّفَاهُتُ إلى وِصْفِهِم، فَالبَاغِي نَصَبَ لَهُ فِخَاخَ المَكَايِدِ وَشَبَّ لَهُ نيرانِ  
العِدَاوَةِ وَالْحَقْدِ، وَالتَّخَفَ بِزُرْدِ الخِذَاعِ وَالمَكْرِ، وَتَعَدَّى كَلَّ الحُدُودِ في بَغْيِهِ وَعِدَوَانِهِ، فَجاءَ الدُّعَاءُ  
بِحُلَّةِ الاسْتِعَارَاتِ وَالتَّشْبِيهَاتِ قَاسِيًا قَدِ يَحْكِي شِدَّةَ مَا قَاسَاهُ أَبُو الهُدَى مِنْ ذَلِكَ الخِصْمِ؛ حَيْثُ شَبَّهَ  
-تَشْبِيهًا بليغًا بِجامعِ (الإِصَابَةِ)- المَكْرَ الإِلهِيَّ بِالسِّهَامِ الَّتِي تَرْمِي مَنْ بَغَى وَطغَى فَتَعَدَّى الحُدُودَ،  
وَكَذَلِكَ اسْتَعَارَ لِلذُّلِّ صِفَةَ هَطُولِ المَاءِ وَصَبِّهِ، وَأَمَّا القَهْرُ فَقدِ اسْتَعَارَ لَهُ المَاءَ ثُمَّ حَذَفَهُ وَذَكَرَ شَيْئًا  
مِنْ لَوَازِمِهِ وَهِيَ السُّقْيَا الَّتِي يَأْمَلُ أَنْ يَتَجَرَّعَ مِنْهَا خِصْمُهُ، وَمَا الخِذْلَانُ إِلَّا قَمِيصٌ أَمَلَّ أَبُو الهُدَى أَنْ  
يَتَسَرَّبَلَ بِهِ مَنْ بَغَى عَلَيْهِ وَيَتَدَرَّعَ بِهِ -وَكَلَّ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ-، فِيمَا جَاءَتْ الاسْتِعَارَةُ  
التَّصْرِيحِيَّةُ جَاعِلَةً لِمَكْرِ الخِصْمِ حِبَالًا رَجَا الشَّاعِرُ مِنْ اللَّهِ قَطْعَهَا بِتَجَلِّيِ العِدَالَةِ الإِلهِيَّةِ الَّتِي جَعَلَ مِنْهُ  
بِالتَّشْبِيهِ البليغِ -بِحَذْفِ الأَدَاةِ وَوَجْهِ الشَّبْهِ (القَطْعِ)- حُسَامًا بَتَّارًا يَقْطَعُ الخَائِنِينَ المَاكِرِينَ، عَلَّ أَنْ  
يُشْفَى غَلِيلُهُ وَتَقَرَّ عَيْنُهُ بِمَجَازَاةِ اللَّهِ لِهَذَا البَاغِي، إِذِ انْتَقَامَ اللَّهُ وَعَدَالَتُهُ وَنَصْرُهُ لِلْمَظْلُومِينَ لَمْ تَزَلْ غَايَةً  
الْأَمَالَ وَمَطْمَحُ الأَنْظَارِ وَثِيئَةُ القُلُوبِ المَكْلُومَةِ.

<sup>336</sup> أَلْبِشُهُ سَرِبَالَ الخِذْلَانِ، وَالسَّرِبَالُ هُوَ القَمِيصُ أَوْ اللِّبْرُ، يُنْظَرُ: ابنُ مَنظُورٍ، "سَرِبَالٌ"، 335/11.

<sup>337</sup> د.ر.ت، 130.

وَتُعَدُّ النَّتْفُ الدُّعَائِيَّةَ الشَّكْلَ الثَّلَاثَ لغرض الدعاء، ومنها نُتْفَةٌ يرفع بها شكواه إلى الله من هموم الزَّمان التي استعار لها وصفَ الحملِ الثَّقِيلِ الذي أثقلَ بالَعَنَا كاهلَهُ، فراح يستغيثُ طالبًا كشفَ الكُربِ ودفعَ العَطَبِ، ولا ريبَ فالرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ أولى بعبيده وأحنى عليه من الأمِّ برضيعها، فيقول:

إلهي لقد قلتَ وحقِّكَ حيلتي وأقلِّقني دَهْرِي وأثقلني هَمِّي  
أعْثني وفرِّجْ يا مُهَيِّمُنْ كُربتي فإنَّكَ أولى بالرَّضِيعِ من الأمِّ<sup>338</sup>

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ ابنَ منظورٍ قسَّم الدعاءَ على ثلاثةٍ أضربٍ: أحدها طلبُ العفوِ ومدُّ يدِ الاستغفارِ، وثانيها طلبُ الحاجاتِ ومدُّ يدِ الافتقارِ، وكلاهما أخذَ مكانًا في شعرِ أبي الهُدَى الدُّعائيِّ - كما مرَّت عليهما السُّطورُ السَّابِقةُ -، وأمَّا الضَّربُ الثَّلَاثُ من الدعاءِ فهو توحيدُ الله تعالى وتمجيدُ ذاته العليَّةِ،<sup>339</sup> وهذا الضَّربُ لم تخلُ منه أشعارُ أبي الهُدَى الدُّعائيَّةِ، فمن ذلك قوله:

عقولُ الوَرَى تاهتْ بِسُلْطَانِكَ الأعلى وحارَتْ بِمعنى شَأْنِ عِنوانِكَ الأَجَلَى  
وقد خَضَعَ الأَكوانُ خَوْفًا لِعِزِّكَ الـ عَظِيمِ وَقَادَاتُ المَلا سَجَدَتْ ذُلًّا  
وَبَرَّقَعَتِ سِرَّ الدَّاتِ فِي سِرِّكَ الذي تَطَرَّرَ بِاللُّطْفِ الحَفِيِّ وما انْحَلَّ  
صِفاتُ لِداتٍ تَلِكُ جَلًّا جِلاها هُا المَنعُ والإِعطاءُ وَالوَضْعُ والإِغْلا<sup>340</sup>

<sup>338</sup> د.ت.ب، 91.

<sup>339</sup> يُنظَر: ابن منظور، "دعا"، 257/14.

<sup>340</sup> د.ف.م، 11، 12.

ولربما إذا لحت عينُ القاريِّ هذه الأبيات فإنَّ من أوَّل ما يمتلئُ أمامها كلماتُ أبي بكرِ الصِّديِّقِ (ت. 13هـ/634م) رضي الله عنه: "العجزُ عن دَرَكَ الإدراكِ إدراكٌ"،<sup>341</sup> وقولُ أبي إسحاق النَّفزيِّ الغرناطيِّ (ك. ح. 580هـ/1184م):

كَبَّرَ وَقَدَّسَ وَنَزَّهَ مَا أَطَّقَتْ فَلَمْ يَصِلْ إِلَى مَلِكِ الْأَمْلاكِ أَمْلاكُ  
كُلُّ يُعْرَفُ بِأَنَّ الْعَجْزَ قَيْدُهُ وَالْعَجْزُ عَنْ دَرَكَ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ<sup>342</sup>

فعايةُ ما أرادَهُ أبو الهُدَى بأبياتِهِ هو أن ينقلَ هذه الحقيقة، فالذَّاتُ الإلهيَّةُ لا يُعرَفُ كُنْهَها، والعقولُ مُعقَّلةٌ من أن تَصِلَ إلى سرِّ سُلطانها، والذَّاتُ الإلهيَّةُ تحجَّبتُ باللَّطفِ فلا تُدرِكها الأبصارُ، وهي ذاتٌ جليلةٌ تفرَّدتْ بالخفِضِ والرَّفَعِ وبالسَّلْبِ والعطاءِ، فأنتَ للذي برَزَ من العدمِ وحُلِقَ من التُّرابِ أن يُدرِكَ ذاتَ ربِّ الأربابِ جلِّ وعلا. ولكنَّ إنَّما هو التَّمجيدُ والتَّقديسُ وإظهارُ العبوديَّةِ بالوقوفِ في ساحاتِ العجزِ أمامَ القدرةِ الإلهيَّةِ التي بُسِطَ سُلطانُها على الأكوانِ وما حوتَهُ من المُكوِّناتِ، إذ لا سلطانَ لقدرةٍ أخرى فوقَ سلطانِ دولةِ القَدَرِ الإلهيِّ، وفي هذا يقول:

يا مَنْ إِلَيْكَ بَسَطْتُ كَفَّ رَجَائِي وَرَفَعْتُ آمَالِي بِصَدَقِ دُعَائِي  
لَكَ دَوْلَةُ الْأَقْدَارِ وَالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ نَافِذُ الْأَحْكَامِ فِي الْأَشْيَاءِ  
سُلْطَانُ قُدْسِكَ عَزَّ شَأْنُكَ حَاكِمٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ بَلْ وَكُلِّ سَمَاءٍ<sup>343</sup>

<sup>341</sup> طاهر بن محمَّد الإسفراييني، التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النَّاجية عن الفِرَقِ المالكين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (بيروت: دار عالم الكُتب، 1403هـ/1983م)، 160.

<sup>342</sup> أبو عبد الله محمَّد لسان الدِّين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف علي الطَّويل، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1424هـ/2003م)، 1/195.

<sup>343</sup> د.ر.ت، 10، 11.

ومن ثمة يمكن القول: إنَّ أبا الهُدَى قد استوفى في شعره جميعَ ضروبِ الدُّعاءِ التي أوردَها ابن منظور، من استغفارٍ وافتقارٍ وتوحيدٍ للذَّاتِ الإلهيَّةِ وتمجيدٍ لها. وآخرُ ما يُمكنُ أن يُشارَ إليه في هذا الغرض إلحاقُ الشَّعريَّةِ، ولعلَّ من أبرزها ما ألحقه بقول أبي عبد الله محمَّد بن زيد اللَّحَميِّ (ت. 307هـ/919م) الذي قال داعياً مولاه:

يا ربِّ صَفْحًا وِعُفْرانًا وَمَعْدِرَةً لِمُذنبٍ كَثُرَتْ مِنْهُ المَعَاذِيرُ  
يُيَكِّيه إِجْرَامُهُ طَوْرًا وَيُضْحِكُهُ رِجَاؤُهُ فَهُوَ مَحْزُونٌ وَمَسْرُورٌ<sup>344</sup>

ففي هذه الأبيات يعمد أبو عبد الله إلى وصف حالته من التَّقْصيرِ والدُّنُوبِ، ويجمع بطريق الطِّباقِ بين التَّقْيِيزِ الضَّحْكِ والبكاءِ، والحزنِ والسُّرُورِ، كنايةً منه عن تقلُّبه بين الخوفِ والرَّجاءِ؛ فجاء أبو الهُدَى مُلحِقًا بهذه الأبيات قوله:

وظلمةُ الدَّنْبِ إنْ طَمَّتْ فَتَامَتْهَا<sup>345</sup> فحُبُّ عِبْدِكَ طَهَّ المِصْطَفَى النُّورُ  
ارْحَمْ لِأَجْلِ أَبِي الزَّهْرَاءِ صَادِعِي فَلَوْلُو الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِي مَنثورُ  
واجبُرْ كَسِيرَ فَوَادِي إِنْني وَجِلُّ عَلَيْكَ حُسْنُ رِجَائِي الدَّهْرَ مَقْصُورُ<sup>346</sup>

وبهذا يكون قد تابع اللَّحَميِّ في الإتيانِ بالطِّباقِ، ولكنَّ الطِّباقَ الذي أتى به كان بين نورِ الحبِّ للرَّسولِ الكريمِ وظلمةِ الدُّنُوبِ، وفي هذا تشبيهٌ بليغٌ للمحبَّةِ بالنُّورِ الفريدِ المُفْرَدِ وللذُّنُوبِ بالظُّلُماتِ الكثيفَةِ، ثم مضى مُسترسلاً راجياً بنورِ المحبَّةِ أن تُمَحِّقَ ظُلُماتُ الدُّنُوبِ، وتوسَّلَ إلى الله بالمِصْطَفَى أن يرحمَ حاله، وجاء بالمبالغةِ فجعل من الدُّنُوبِ صادِعَةً<sup>347</sup> ليكفِّي بذلك عن عِظَمِها الذي قصَمَ

<sup>344</sup> ابن القطاع علي بن جعفر السَّعدي الصَّقَلِي، الدُّرَّةُ الخَطِيْرَةُ في شعراءِ الحِمْيَرِ، تحقيق: بشير البَكَّوش، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1415هـ/1995م)، 213.

<sup>345</sup> من قَتَمَ قَتَامَةً وهو سوادٌ ليس بشديد؛ يُنظَر: ابن منظور، "قَتَم"، 460/12.

<sup>346</sup> د.ر.ح، 35.

<sup>347</sup> من الصَّدَعِ وهو الشَّقُّ في الشَّيْءِ الصَّلْبِ؛ يُنظَر: الرِّيبيدي، "صدع"، 320/21.

كُلُّهُ وشَقُّ عليه أحوالُهُ، واستعار - مُصَرِّحًا - للدموع لفظة اللؤلؤ المنتور، ليشير بذلك إلى مزجِه لدعائه بين خوفِه ورجائه الذي حَسُنَتْ به آمالُهُ فقصرها طول المَدَى على مولاه الكريم تبارك وتعالى.

ومما سَبَقَ عَرَضُهُ من تناول أبي الهُدَى لغرضِ الدعاء يُمكن أن يُستخلصَ ما يلي:

■ إنَّ هذا الغرض جاءَ في شعرِ أبي الهُدَى على ثلاثة أشكالٍ: (القصائد والقِطَع والنُتف)؛ وتنوَّعتِ مطالِعُ القصائدِ، وضمَّنت خواتمها الدعاءَ أو الصَّلَاةَ والسَّلَامَ على النَّبيِّ الأكرم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

■ وضمت أشعارُ الغرضِ في صُلْبِها كُلَّ ضروبِ الدعاءِ، وشملت دُعاءَ الخيرِ ليس للشَّاعرِ فحسب بل ربما تعدَّته إلى غيره، وابتهلَ فيها بتوسُّلاتٍ كثيرةٍ قدَّمتها بين يدي دَعَوَاتِهِ؛ إلى جانبِ اشتغالها على دعاءِ الشَّرِّ على خصومِهِ وأعدائِهِ الذين ظلموهُ.

■ وقد جاءت تلك الأشعارُ الدُّعائيةُ ونورُ الأملِ بالإجابةِ يلمعُ بينَ حروفِها، فقد تَكَرَّرت فيها معاني الرَّجاءِ مثل: (حاشاك ما خيَّبتَ راجئًا، لي واسعُ الرَّجا، عونك يُرجي، بسطتُ كفَّ رجائي)، ودلالاتُ الأملِ بالاستجابةِ مثل: (أؤمِّلُ جبري، من نَدَاهُ يُؤمِّلُ الإحسانُ، إنَّك أولى بالرَّضيعِ من الأمِّ، يا مُجيبَ الدعاءِ)، كما لم تخلُ مما يدلُّ على الآلامِ والأحزانِ التي اعتلجت في أعماقِ أبي الهُدَى؛ وبناءً على هذا يمكنُ القولُ إنَّها جاءت أشعارًا ممزوجةً بالأملِ والألم؛ وعمومُ ألفاظِهِ لم تحوِ الغريبَ أو الوحشيَّ، أمَّا التَّراكيبُ فقد كانت سهلةً واضحةً لا تستعجمُ على القارئِ.

■ والمُنتبِعُ لتلك القصائدِ الدُّعائيةِ يلحظُ أنَّ أبا الهُدَى اختارَ لها -جُلَّها- القوافي المُطلَّقة الممدودة (آماليا، جبري، منشور، دعائي، الأجلي، سبأ، الواري) التي قد تكون علامةً إلى

طول آهاتِهِ مع امتداد أنفاسِهِ بهذه الأبيات الدُعائيَّة، مما يجعلها تُضارع ما أطلقَهُ من

طول الأمل بالإجابة والإعانة المُنتظرة من رَبِّهِ الكَرِيم.

■ كما يُلحَظُ أنَّ أبا الهُدَى في هذا الغرضِ لم يُعَدِمِ أشعارَهُ من حُلَّةِ بلاغيَّةٍ جميلةٍ من الصُّورِ

البيانيَّةِ والتَّشبيهِاتِ والاستعاراتِ، كما أنَّه قد أودعها بعضَ ما يُزيِّئُها من توشِيَّاتِ

المُحسِّناتِ البديعيَّةِ اللفظيَّةِ والمعنويَّةِ، ولم يُلحَظْ في ذلك إسرافاً في الصَّنعةِ البديعيَّةِ ولعلَّ

هذا يعودُ إلى ما قُدِّمَ ذِكرُهُ من أنَّ طبيعةَ هذا الغرضِ تجعلُهُ مختلفاً عن غيره من الأغراضِ

لارتباطِهِ بمُخاطبةِ الخالقِ العظيمِ الذي يعلمُ السِّرَّ وأخْفَى.

## المبحث الثاني: غرض المديح النبوي

قبل الإبحار في عُبابِ هذا الغرضِ قد يكونُ من الحَسَنِ المَرُورِ على معناه اللُّغويِّ والاصطلاحِيِّ؛ فالمدحُ لغةً: لفظَةٌ أعمُّ من الحمدِ،<sup>348</sup> أصلُها من (انمَدَحَتِ الأرضُ) أي اتَّسَعَتْ،<sup>349</sup> فكأنَّ القائلَ: مَدَحْتُ الرَّجُلَ يَقْصِدُ وَسَعَتْ أَمْرُهُ<sup>350</sup> أو شُكِرَهُ،<sup>351</sup> والمدحُ هو الثَّناءُ على الشَّخصِ "بما فيه من الصِّفَاتِ الجميلةِ خَلْقِيَّةً كانت أو اختياريَّةً"،<sup>352</sup> والتَّمدُّحُ تَكْلُفُ المديحِ وفخرُ المُتمدِّحِ بما ليس فيه، وأمَّا لفظَةُ المديحِ فتُطلَقُ على ما يُمدَّحُ به من الشَّعْرِ، ومرادُها المِدْحَةُ والأمدوحةُ،<sup>353</sup> وتُجمَعُ لفظَةُ المديحِ على أمادِيحٍ ومَدَائِحٍ؛<sup>354</sup> فإذا ما التُّفِتَ إلى المعنى الاصطلاحِيِّ للمديحِ النَّبويِّ فسيمكُنُ تَعْرِيفُهُ بأنَّه: شِعْرُ الثَّناءِ الحَسَنِ الجميلِ المقصورِ على شمائلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الخَلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ، وسياحةُ الشُّعراءِ بشعرِهِم في ما امتنَّ به اللهُ عليه من خصائصٍ وتشريفٍ لم يَنَلْهُ أحدٌ من المخلوقين قبلَهُ ولا بعده؛ وهذا يجعلُ منه بابًا بديعًا من أبوابِ الأدبِ الرَّفيعِ، ولونًا فريدًا من ألوانِهِ إذ اختصَّ بالتَّعبيرِ عن العواطفِ الدِّينيَّةِ الصَّادِقَةِ.<sup>355</sup>

<sup>348</sup> أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (بيروت: المكتبة العلميَّة، د.ت)، 566/2.

<sup>349</sup> أحمد بن فارس الرَّايزي، مُجْمَلُ اللُّغَةِ، تحقيق: زهير سلطان، (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، 1406هـ/1986م)، 826/2.

<sup>350</sup> أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري، الألامع العزيري شرح ديوان المتنبي، تحقيق: محمد سعيد المولوي، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة، 1429هـ/2008م)، 558.

<sup>351</sup> الفيومي، المصباح، 566/2.

<sup>352</sup> الفيومي، المصباح، 566/2.

<sup>353</sup> يُنظَر: الرِّبدي، "مدح"، 111/7.

<sup>354</sup> يُنظَر: ابن منظور، "مدح"، 589/2.

<sup>355</sup> مبارك، المدائح، 17.

وَمَنْ يَتَّبِعْ هَذَا الْغُرُضَ يَجِدُ أَنَّهُ مَرَّ بِأَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، اِحْتَوَى كُلُّ طَوْرٍ فِيهَا جَمَلَةً مِنَ الْمَعَانِي تَلَوَّنَتْ أَلْوَانُهَا بِصِبْغَةِ الْعَصْرِ الَّذِي قِيلَتْ فِيهِ تِلْكَ الْأَشْعَارُ؛ فَالَنَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَخْلُ عَصْرٌ مِنْ عَصُورِ الْأَدَبِ مِنْ مِدْحَةٍ شِعْرِيَّةٍ نُظِمَتْ فِي جَنَابِهِ الْعَزِيزِ.

إِلَّا أَنْ مِدْحَةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لَا شَكَّ أَنَّهَا تَخْتَلِفُ عَنْ مِدْحَةِ قِيلَتْ فِيهَا بَعْدَهُ، وَمِدْحَةُ قِيلَتْ فِي صَدْرِ الْعَصُورِ تَخْتَلِفُ عَنْ أُخْرَى جَاءَتْ فِي عَصْرِ مُتَأَخِّرٍ عَنْهُ، وَلَا يُقْصَدُ بِهَذَا الْاِخْتِلَافِ اِخْتِلَافٌ جَوْهَرِيٌّ، فَالْكُلُّ يَمْدَحُ الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ، وَلَكِنَّ اِخْتِلَافَ وَقَعَ فِيهَا اِنْعِقَادَ فِي قُلُوبِ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ وَالْخِصَائِصِ الَّتِي انْبَرَأُوا لِإِبْرَازِهَا وَالتَّعْيِي بِهَا.

وَقَدْ يَكُونُ قَلَمُ الْبَحْثِ مُضْطَرًّا إِلَى تَعْيِينِ الْأَنْمَاطِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الْمَدِيحُ النَّبَوِيُّ وَصَوْلًا إِلَى عَصْرِ أَبِي الْهُدَى، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَضَعَ بِدِقَّةٍ مَدَائِحَ أَبِي الْهُدَى فِي مَوْضِعِهَا الصَّحِيحِ، وَيُنَسِّبُهَا إِلَى الطَّرَازِ الَّذِي اِتَّمَتَ إِلَيْهِ وَرَفَلَتْ بِثَوْبِهِ، وَقَامَ بِنَاؤُهَا عَلَى مَعَانِيهِ.

فَفِي الطَّرَازِ الْأَوَّلِ قَبْلَ ظَهْوَرِ الْإِسْلَامِ جَاءَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ لِيَمْدَحَ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ مُحَمَّدًا بَنَ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدْحًا تَقْلِيدِيًّا، حَيْثُ قَامَ فِي ذَهْنِهِ أَنَّهُ الشَّخْصِيَّةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُتَخَلِّقَةُ بِشَرِيفِ الْأَخْلَاقِ مِنْ كَرَمٍ وَأَمَانَةٍ وَرَافَةِ بِالْيَتَامَى وَالْمُحْتَاجِينَ وَرَحْمَةٍ بِالْكَبَارِ وَالصِّغَارِ وَشَجَاعَةٍ وَإِعَانَةٍ لِلْعَشِيرَةِ وَكَوْنِهِ مَفْخَرَةً لَهَا، وَلَمْ يَتَعَدَّ تَصَوُّرُهُ أَبْعَدَ مِنْ هَذَا، وَمِنْ ذَلِكَ مِدْحَةُ أَبِي طَالِبٍ (ت. 3 ق. هـ/ 619م) إِذْ فِيهَا مَا يُمَثِّلُ هَذَا الطَّوْرَ، بِقَوْلِهِ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالٌ<sup>356</sup> الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

<sup>356</sup> ثَمَالُ الْقَوْمِ هُوَ غِيَابُهُمْ وَمَنْ يَقُومُ بِأَمْرِهِمْ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "ثَمَالٌ"، 4/1649.

يلوذُ به الهُلاَفُ<sup>357</sup> من آلِ هاشِمٍ فهُم عندَهُ في رحمةٍ وفواضِلِ<sup>358</sup>

ومن هذا الطِّرازِ قولُ طالبِ بنِ أبي طالبٍ (ت. 2/هـ/624م) -وهو لم يزلْ بعدُ على دينِ قُريشٍ-:

فما إن جَنِينا في قريشٍ عَظِيمَةً سَوى أن حَمِينا حَيرَ مَنْ وَطِئَ التُّرْبَا

أَحا ثِقَةً في النَّائِبَاتِ مُرَّرًا<sup>359</sup> كَرِيمًا نَشا<sup>360</sup> لا بَخِيلاً ولا ذَرَبًا<sup>361</sup>

ففي هذا المدحِ لم يطُرقِ الشَّاعِرُ بابَ مَيِّزَاتِ دِينِيَّةِ اخْتِصَّ بها نَبِيُّ كَرِيمٍ، من رِسالَةِ سَماوِيَّةٍ ومُعجِزاتِ تَأْيِيدِيَّةٍ أو عِطاءاتِ رِبايَّةٍ، وإمَّا قِصرَ المدحِ على أوصافٍ قد يُشارِكُهُ فيها أيُّ ممدوحٍ آخَر. في حين أنَّ الطِّرازَ الثَّاني جاءَ بعدَ الإسلامِ ليَكونَ المَدِيحُ النَّبَوِيُّ فيه ليسَ تَعبيراً عن مِشاعرِ المَحَبَّةِ لِإنسانٍ كَاملٍ فحسب، وإمَّا دِفاعٌ عن عَقيدَةٍ قَائِمَةٍ في ذاتِ المَدِحِ، تَدفَعُهُ لِلجِهادِ بِهذا المَدِحِ أَمامَ مَنْ كَفَرَ ولم يَقبلِ الإِيمانَ بِالرَّسولِ المُرسَلِ من عندِ اللَّهِ المُؤَيَّدِ بِالْمَلائِكَةِ، وصاحبِ المُعجِزاتِ، ولِهذا الطِّرازِ شِعارُوه المُنبِؤونَ في سَاحاتِهِ، وَبِتَقَدُّمِ طَليعتِهِم الصَّحابةُ الكِرامَ رضوانَ اللَّهِ عليهم<sup>362</sup> عبدُ اللَّهِ بنِ رِواحَةَ (ت. 8/هـ/629م) وحِسانَ بنِ ثابتٍ (ت. 54/هـ/673م) القائلُ:

أَعُرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ حَاطِمٌ من اللَّهِ مَشهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ

<sup>357</sup> جمعُ واحِدُهُ الهُلُوفُ بمعنى الطَّاعِنِ في البَيتِ، يُنظَرُ: ابنُ منظورٍ، "هَلَفٌ"، 9/350.

<sup>358</sup> مُحَمَّدُ بنُ عَمرِ بِحَرِّ الحَضْرَمِيِّ، حَدائِقُ الأَنْوارِ وَمِطالِعُ الأَسْرارِ في سِيرةِ النَّبِيِّ المُخْتارِ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ غَسانِ عَزقُولِ، (جَدَّة: دارُ المِناهجِ، 1436/هـ/2016م)، 181.

<sup>359</sup> كَرِيمٍ، يُنظَرُ: الجِوهَرِيُّ، "رِزا"، 1/53.

<sup>360</sup> مُرادُفُ النَّشْءِ إلا أَنَّهُ يَكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ والنَّشْءِ لا يَكونُ إلا في الخَيرِ بِشِكلٍ خاصٍّ، يُنظَرُ: الجِوهَرِيُّ، "نِشا"، 6/2501.

<sup>361</sup> أبو الفِداءِ إِسْماعِيلُ بنُ كَثيرٍ، البِدايَةِ والنِّهايَةِ، تَحْقِيقُ: عبدُ اللَّهِ عبدُ المَحسَنِ التَّرَكِيِّ، (مِصر: دارُ هِجرِ، 1424/هـ/2003م)، 290/5؛ وَرِجالٌ ذَرَبٌ أي حادَّةُ اللِّسانِ وفاحِشُهُ، يُنظَرُ: ابنُ دَرِيدِ، "بَدَرٌ"، 1/304.

<sup>362</sup> يُنظَرُ: أبو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ عبدِ السَّلَامِ الجِزائِيُّ التَّالِدِيُّ، الحِمْاسَةُ المِغْرِبِيَّةُ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ رِضوانِ الدَّايَةِ، (دِمَشق: دارُ الفِكرِ، 1411/هـ/1991م)، 41/1.

وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللَّهُ نَحْمَدُ<sup>363</sup>

ويعدو هذا الطراز من كونه مديحًا نبويًا إلى كونه وسيلة إعلامية تُجابه الفريق الآخر المضاد

للإسلام ورسوله وأصحابه، ومن ذلك قول كعب بن مالك (ت. 50هـ/670م) رضي الله عنه:

فينا الرسول شهابٌ ثمَّ يتبعُهُ نورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ

نُجْدُ الْمُقَدَّمِ<sup>364</sup> مَاضِي الهمِّ<sup>365</sup> مُعْتَرِمٌ حِينَ الْقَلُوبِ عَلَى رَجْفٍ مِنَ الرُّعْبِ

ليسَا سِوَاءَ وَشْتَى بَيْنَ أَمْرِهِمَا حِزْبُ الْإِلَهِ وَأَهْلُ الشِّرْكِ وَالنُّصْبِ<sup>366</sup>

بهذه الكلمات القتالية يُجابه كعب الطرف المضاد للإسلام ونبيه، ويأخذ بالأسماع إلى ذكر تقديم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقَدُّمِهِ وإقدامه وعزمه وعزماته في الجهاد ضدّ المشركين، ويُلحظ في هذا الطراز تركيزه على المسائل العقديّة من نِجَاةٍ فِي الْجَنَّةِ وَهَلَاكِ فِي النَّارِ، وانقسام الخلق إلى فريقين فريق الإيمان وفريق الكفر.

وَأَمَّا الطَّرَازُ الثَّلَاثُ فَقَدْ عَدَا المديحُ النَّبَوِيُّ فِيهِ ظَاهِرَةٌ فَنِيَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ الْأَدَبِ، بَلْ غَرَضًا رِئِيسًا لَهُ شِعْرَاؤُهُ الْمُتَصَدُّونَ لِمَعَانِيهِ الَّتِي زَادَتْ عَلَى الطَّرَازِينَ الْأَوَّلِينَ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى يُمَكِّنُ الْقَوْلُ: إِنَّ تَرْكِيزَهُمْ فِي هَذَا الطَّرَازِ صَارَ عَلَى مَعَانٍ دُونَ أُخْرَى؛ وَلَعَلَّ بَدَايَةَ انبثَاقِ هَذَا الطَّرَازِ كَانَتْ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ،<sup>367</sup> وَيَسْتطِيعُ الْمُتَتَبِعُ لِهَذَا الْغَرَضِ أَنْ يَلْمَحَ هَذَا الطَّرَازَ بِأَجْلَى صَوْرِهِ فِي

<sup>363</sup> حستان بن ثابت الأنصاري، ديوان حستان بن ثابت، تحقيق: عبده مهنا، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1414هـ/1994م)، 54.

<sup>364</sup> رجلٌ نَجْدٌ أَي شَدِيدُ الْبَاسِ، يُنظَرُ: عَلِيٌّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سَيِّدِ الْمَرْسِيِّ، الْمُخَصَّصُ، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1417هـ/1996م)، 274/1.

<sup>365</sup> الرَّجُلُ الْمَاضِي الْهِمَّةَ وَالْعَزِيمَةَ أَي الْمُجَدِّدَ فِي أُمُورِهِ، يُنظَرُ: ابْنُ دُرَيْدٍ، "زعم"، 817/2.

<sup>366</sup> كعب بن مالك الأنصاري، ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق: سامي مكّي العاني، (بغداد: مكتبة النهضة، 1386هـ/1966م)، 174.

<sup>367</sup> يُنظَرُ: ضَيْفٌ، تَارِيخُ الْأَدَبِ، 409/5.

القرنين السادس والسابع، إذ وصل فيه المديح النبوي إلى قمة الازدهار - من الناحية الفنية -، فمدح هذين العصرين برزت فيها بوضوح معالم المديح النبوي، وبني في أبياتها صرخ من التقليد والأصول التي صار مهمًا لكلٍ مديح للجناب النبوي أن يدخل في أفنائها، ويسير على خطى ناظميها الذين كُتبت لهم الشهرة في التخصص في هذا الغرض.<sup>368</sup>

وقد اشتمل هذا الطراز الثالث على كل ما ضمته الأعماط السابقة من المعاني وبرزت فيه أخرى جديدة زادت عليها. ويمكنُ مديح أبي الهدي أن تُنمى إلى هذا الطراز الأخير، بما ضمته من المعاني، وما بُنيت عليه من الشكل العام؛ إذ لم يكن أبو الهدي بمقلد في هذا الغرض، بل قد أكثر منه وخصص له ديوانًا كاملاً،<sup>369</sup> وإن كان قد سار على خطى من سبقه في المديح النبوي فإن هذا لم يمنعه من أن يتفنن في مديح جديدة ويزيد عليها عددًا ليس بقليل من الموشحات التي خلدها الزمن إلى اليوم هذا.<sup>370</sup>

وتقتضي إرادة الإحاطة بهذا الغرض الإمام به من كل جوانبه، ومن أبرزها المطالع الاستفتاحية للمدح ومحاورها التي دارت عليها والخواتيم التي حُتمت بها للوصول إلى فكرة عامة عن المديح النبوي في شعر أبي الهدي.

<sup>368</sup> يُنظر: محمود سالم محمّد، المديح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي (دمشق: دار الفكر، 1417هـ/1997م)، 18.

<sup>369</sup> هو ديوان امرأة الشهود.

<sup>370</sup> منها موشح "يا إمام الرسل ياسندي" وموشح "يا أيها النبي" ولقد أفرد الشاعر هذه الموشحات فصلاً كاملاً في ديوانه المخصص لغرض المديح النبوي، يُنظر: د.م.ش، 212.

## 1 مطالع المدائح

إنَّ الدُّخُولَ إِلَى غَرَضِ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ عِنْدَ أَبِي الْهُدَى يَسْتَلْزِمُ بَدَايَةَ النَّظَرِ فِي الْمَطَالِعِ الَّتِي اسْتَهَلَّ بِهَا مَدَائِحَهُ النَّبَوِيَّةَ، إِذْ هِيَ أَوَّلُ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْعْيُونَ فِيهَا؛ وَلَمْ تَكُنْ تَلِكِ الْمَطَالِعِ لَتَتَّخِذَ قَالِبًا مُعَيَّنًا أَوْ شَكْلًا مُوَحَّدًا فِي كُلِّ مَدَائِحِ أَبِي الْهُدَى بَلْ قَدْ تَنَوَّعَتْ إِلَى عِدَّةِ أَشْكَالٍ.

فَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَطَالِعِ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ الشَّعْرَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ اسْتِهْلَالِ بَذْرِ الْأَمَاكِنِ وَسَاكِنِيهَا وَالْأَطْلَالِ وَتَذَكُّرِ قَاطِنِيهَا وَالْوُقُوفِ بِسَاحَاتِهِمْ؛ فَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي مَطْلَعٍ:

عُجِبَ بِالرَّكَائِبِ سَاحَةَ الْجَرَعَاءِ<sup>371</sup>      وَانزَلَ بِتِلْكَ الْبُقْعَةِ الْفَيْحَاءِ  
وَأَنْحَ بِعَيْسِكَ<sup>372</sup> حَوْلَهَا فَلَأَهْلِهَا      فَضْلًا عَلَى الْخُدَّامِ وَالْأَمْرَاءِ  
قَدْ أَعْرَقُوا الدُّنْيَا بِرَأْفَتِهِمْ كَمَا      دَاسُوا بِبَاسِ جِبْهَةِ الْجَوْزَاءِ<sup>373</sup>  
قَوْمٌ رَأْسُهُمُ الرَّسُولُ الْمُصْطَفَى الـ      مَبْعُوثٌ بِالْآيَاتِ وَالْأَنْبَاءِ<sup>374</sup>

فَهُوَ يَطْلُبُ مِنْ رَفِيقِهِ أَنْ يَجْعَلَ مَسِيرَهُ لِلْجَرَعَاءِ وَنَزْوَلَهُ بِسَاحَتِهَا وَبِقَوْمِهَا الْكِرَامِ، الَّذِينَ بَالِغٌ فِي وَصْفِ رَأْفَتِهِمْ فَاسْتَعَارَ لَهَا وَصْفَ الْإِغْرَاقِ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَجْعَلَ غُلَا عَزِّهِمْ وَشَدِيدَ مَنَعَتِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ يُحَدُّ بِحُدُودِ الْغَبْرَاءِ بَلْ تَجَاوَزَ بِهِ هَامَ السَّمَاءِ، فَاسْتَدْعَى لِأَيَّاتِهِ الْكِنَايَةَ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى تِلْكَ الْمَنَعَةِ وَذَلِكَ الْبَاسُ (دَاسُوا جِبْهَةَ الْجَوْزَاءِ)، وَشَفَعَ ذَلِكَ بِالِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ أَعَزَّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ -

<sup>371</sup> اسم مكان والجرعاء معناها الزاوية من الرمل، يُنظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: محمد إبراهيم حور - وليد محمود خالص، (أبو ظبي: الجمع الثقافي، 1418هـ/1998م)، 1070/3.

<sup>372</sup> جمع أعيس وهي الإبل البيضاء التي خالط بياضها شقرة، يُنظر: الجوهري، "عيس"، 954/3.

<sup>373</sup> نجم يُقال إنه يتوسط السماء، يُنظر: الجوهري، "جوز"، 871/3.

<sup>374</sup> د.ف.م، 42.

الجوزاء- جَسَدًا له جَبْهَةٌ تُوطَأُ من ممدوحيه الأَعَزَّة، ولا غرَوَ فعزُّهم من مُقَدِّمِهِم ورأسِهِم المُصطفى  
المُجتبي عليه السلام؛ ومن هنا التَّفَتَ أبو الهُدَى بحسنِ تَحُلُّصِ ليشرَع في المديحِ النَّبويِّ بعد هذا المطالع.  
ومن مُقَدِّماتِهِ بين يدي المديحِ النَّبويِّ ما استهلَّ به بعض القصائدِ من الفخر بالشَّرَفِ الباذخ  
والمجد الشَّامخ، ومن أبرز هذه المطالع قولُهُ:

كَيْفَ لا تَزْدَهِي بِنَا العَلِيَاءِ      ولنا المجدُ طِينَةٌ وِرداءُ  
أُمَّةٌ (خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)      والنَّاسُ بَعْدَهَا أَكْفَاءُ  
قَامَ مِنْهَا فِي الأَعَصْرِ السُّودِ أَقْمَا      رُجَالٌ لَهَا الشُّمُوسُ حِذَاءُ  
نَصَرُوا شِرْعَةَ الإِلَهِ وَنَابُوا      عَن نَّبِيِّ عَزَّتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ<sup>375</sup>

وهو مطلعٌ فخريٌّ بالأُمَّةِ المُحمَّدِيَّة، التي صارَ الفخارُ معدنًا لها وحلَّةً تُسرِبُها بعد قول ربِّ العالمين  
عَلَّوْا: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"<sup>376</sup> وقد رَصَعَهُ النَّاطِمُ بالاستعارات والاقْتباس، فالعلياء استعار  
لها وصف الزَّهْوِ والافتخار -من طريق الاستعارة المكنية- لِيُبَالِغَ في سَمَاتِ الفخرِ التي حُبِيَّتْ بها الأُمَّة  
فجعل العلياء هي التي نفتخر بهم، واستجلب التشبيه البليغ للمجدِ بالطِّينَةِ والرِّدَاءِ، وكأنَّه يجعل من  
المجدِ خصوصيَّةً لأُمَّتِهِ وأصلاً ممتزجاً بها، وأمَّا عصورُ الجاهليَّةِ فقد كَتَبَ عنها بالأعصرِ السُّودِ التي  
تَنَوَّرَتْ بالرجالِ الأَفْذادِ من الأُمَّةِ المُحمَّدِيَّة الذين شَبَّهَهُم تشبيهاً بليغاً -بإهماله لأداة التشبيه ووجه  
الشَّبه (النور)- بالبدورِ الطَّالِعَةِ التي تُنِيرُ دياجي الظُّلمِ والجهلِ بأنوارِ العدلِ والعلمِ التي حاكَتِ طالِعَةَ  
نورِ الشَّمْسِ، ويُطِنُّبُ مُسْتَطَرِّدًا في مدحِهِم بأنَّهم ناصرُوا الدِّينَ وورَّاثِ نَبِيِّ العالمين الذي ازدَهَتْ به

<sup>375</sup> د.م.ش، 40.

<sup>376</sup> آل عمران، 110/3.

كلُّ الأنبياءِ والمُرسلين؛ وينطلقُ بعد هذا المطلعِ الفخريِّ، من حسن التَّخلُّصِ بالعجزِ الأخيرِ إلى غرضِ المديحِ النَّبويِّ.<sup>377</sup>

ومن أنواعِ مُقدِّماتِ المدائحِ النَّبويَّةِ عند أبي الهُدَى، ذلك التَّوَعُّ الذي جَرى به مجرى قصائدِ المِدَحِ التَّقليديَّةِ التي تُبدأُ بالغَزَلِ قبل التَّعرُّضِ للممدوحين، الذي دأبَ عليه شُعراءُ المديحِ النَّبويِّ منذُ "بانتُ سَعادٌ"،<sup>378</sup> فكان أن أودَّعه أبو الهُدَى مطالعِ مدائحِهِ النَّبويَّةِ، وحرصَ على أن تكونَ المطالعُ متراوِحَةً بين الغزلِ الرِّقيقِ والنَّسيبِ الرَّائقِ المضبوطانِ بالحشمةِ،<sup>379</sup> وهذا الضَّبْطُ للمطالعِ الغزليَّةِ للمِدَحِ مما يُشترطُ على المادِحِ للجنابِ النَّبويِّ الالتزامُ بِهِ، حيثُ ترى عائشةَ الباعونيَّةَ (ت. 922هـ/1516م) أنَّ ما خالفَ الانضباطَ والحشمةَ والرِّقَّةَ في هذا المقامِ "مُشعَّرٌ بِقِلَّةِ الأَدَبِ" وعدمِ الاحترامِ للنبيِّ الكريمِ عليه السلام؛<sup>380</sup> ومن أمثلةِ هذه المُقدِّماتِ الغزليَّةِ ما قاله أبو الهُدَى في مطلعِ مدحةٍ نبويَّةٍ:

لِللهِ من ريمِ الحُجُونِ<sup>381</sup> شُرُودٍ      هُفًا عليه هَجَرْتُ طيِّبِ رُقُودي  
يَرْتُو وَيَرمي من قِسيِّ حَواجِبِ      نَبَلِ الجُفُونِ بِقَلبي المَكْمُودِ<sup>382</sup>  
وَحَلَفْتُ أَنِّي لا أَميلُ عن الهوى      حاشايَ أنقُضُ ذِمَّتِي وَعُهودِي

<sup>377</sup> تجدر الإشارة إلى أنَّ هذه القصيدة قد نالت تحميسًا من أحد الشعراء المعاصرين لأبي الهُدَى وهو محمد رشيد الطرابلسي، يُنظر: محمد رشيد بن عبد اللطيف الزائف الطرابلسي، تحميس القصيدة الغراء (طرابلس: مطبعة البلاغة، د.ت)، 2.

<sup>378</sup> إشارة إلى قصيدة البردة الأولى المشهورة التي أنشئت أمام النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ومطلعها:

"بانت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ      مُتيمِّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ"

يُنظر: كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي الفاعور، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1417هـ/1997م)، 60.

<sup>379</sup> يُنظر: تقي الدِّين أبو بكر بن حجَّة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، (بيروت: مكتبة الهلال، 1406هـ/1986م)، 36/1.

<sup>380</sup> يُنظر: عائشة بنت يوسف الباعونيَّة، شرح الفتح المبين (القاهرة: المطبعة الخيريَّة، 1304هـ/1886م)، 312.

<sup>381</sup> موضعُ بمكَّة، يُنظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي-إبراهيم السَّامرائي، (بيروت: مكتبة الهلال، د.ت)، "حجن"، 82/3.

<sup>382</sup> من الكَمَد وهو أشدُّ الحزن، يُنظر: ابن سيده، المخصَّص، 89/4.

وهَجَرْتُ إِلا مَدَحَ أَشْرَفِ مُرْسَلٍ سِرِّ الْوُجُودِ وَعِلَّةِ الْمَوْجُودِ<sup>383</sup>  
فمُسْتَهْلُ الْقَصِيدَةِ هُنَا نَسِيبٌ مُحْتَشَمٌ مُؤَدَّبٌ، خِلا مِمَّا يُخَالِفُهُ وَيُنَاقِضُهُ مِنَ الْعَزْلِ بِالْمُرْدَانِ أَوْ الْوَصْفِ  
الْحِسْبِيِّ الْفَاحِشِ، فَالْمُحْبُوبُ مَا هُوَ إِلا ظِيٌّ "الْحَجُون" ذَلِكَ الْمَكَانُ الْمُرْتَبِطُ بِالذِّيارِ الْمُقَدَّسَةِ، إِذْ ذَكَرُ  
تلكِ الْمَواطِنِ وَمَا ارْتَبَطَ بِهَا مِنْ أودِيَةِ وَشِعَابٍ - كَسَلَعٍ وَلَعَلَعٍ وَالْعَقِيقِ وَرَامَةِ- مِمَّا يَتَعَيَّنُّ عَلَى الشَّاعِرِ  
التَّعْنِي بِهِ فَهُوَ الْأَلِيقُ فِي مَقَامِ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ وَعَلَى وَجْهِ الْخِصُوصِ فِي صَدْرِ الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ حَسْبِ مَا يَرَى  
ابن حُجَّةَ الْحَمَوِيِّ (ت. 837هـ/1433م)؛<sup>384</sup> فِلا غَرَابَةٌ أَنْ يَكُونَ الظِّيُّ حِجَازِيًّا نَافِرًا أَسْهَرَ لَيْلَ الشَّاعِرِ  
وَأَفْقَدَهُ لِذِيذِ الْمَنَامِ، لِحَمَالِهِ الْأَخَاذِ وَعَيُونِهِ السَّاحِرَةِ الَّتِي جَعَلَ مِنْ حَوَاجِبِهَا قَوْسًا رَامِيَّةً سَهَامُهَا  
الْأَلْحَاطُ الْفَاتِكَةُ - عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ-، وَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْقِسِيُّ لِتَضْرِبَ إِلا إِنْسَانَ قَلْبِهِ  
الْمَحْزُونِ، الَّذِي أَقْسَمَ النَّاطِمُ عَلَى أَنْ لا يَمِيلَ بِهِ عَنِ الْحُبِّ وَلا يَنْبَذَ عَهْدَ الْعَشْقِ الْمَبْرَمَةَ مَعَ الْمُحْبُوبِ،  
الَّذِي تَرَكَ مِنْ أَجْلِهِ كُلَّ مَا عَدَاهُ، غَيْرَ أَنَّهُ عَادَ أَدْرَاجَهُ مُسْتَدْرِكًا لِيَقُولَ: تَرَكَتُ كُلَّ شَيْءٍ إِلا مَدِيحَ  
المُصْطَفَى الْمُحْتَبَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَعَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ يَمْضِي قُدُماً فِي مَدْحِهِ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ جَامِعًا بَيْنَ الْمَطْلَعِ الْغَزَلِيِّ  
وَحَسَنِ التَّخْلِصِ إِلَى الْغَرَضِ الرَّئِيسِ.

وَمِنْ جَمِيلِ مَطَالِعِهِ الَّتِي حَوَتْ أَرْقَ رَائِقِ النَّسِيبِ، مَا وَصَفَ بِهِ شَجْوَهُ الَّذِي أَثَارَهُ صَادِقُ  
الْحُبِّ، وَعَرَّجَ عَلَى تَجَرُّعِهِ لِعُصَصِ جَرَّهَا عَلَيْهِ وَلَوْعُهُ بِمُحْبُوبِهِ رِيمِ الْغَرِيِّ، حَيْثُ مَضَى وَاصِقًا مَا خَامَرَ  
فَوَادَهُ مِنْ لَوَاعِجِ الْعَشْقِ وَدَوَاعِي الْحُبِّ وَالْغَرَامِ مَا أَدَّاهُ إِلَى أَنْ يَسْتَعِيرَ لَهُ وَصْفَ ذَاتِ عَاقِلَةٍ مَثَلَتْ بَيْنَ  
يَدَيْهِ ثُمَّ حَذَفَهَا وَذَكَرَ شَيْئًا مِنْ لَوَازِمِهَا وَهِيَ الْمَنَاجَاةُ - عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ-، ثُمَّ جَرَى عَلَى  
عَادَةِ الْمَادِحِينَ فِي نَسِيبِهِمْ فَتَشَوَّقَ إِلَى دِيَارِ نَجْدِ النَّائِيَةِ الَّتِي يَشْمُ شَدَا رِيَاضِهَا الْجَمِيلَةَ، مُشَبِّهًا آثَارَهَا  
تَشْبِيهًا مُرْسَلًا مُجَمَّلًا - لَمَّا ذَكَرَ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ وَحَذَفَ وَجْهَ الشُّبْهِ الْجَامِعِ بَيْنَ الْعَنْصَرَيْنِ (الْجَمَالِ)-

<sup>383</sup> د.م.ش، 97.

<sup>384</sup> يُنظر: الحموي، خزانة الأدب، 38/1.

بالرُّموز التي تُشيرُ إلى النَّبيِّ الكَرِيمِ عليه السَّلَامُ؛ وقد زادَ من حُسْنِ هذا النَّسِيبِ ما أتى به من المُحَسِّنَاتِ البديعيَّةِ التي زَيَّنَتِ المَطْلِعَ من جناسٍ (يُنَاجِي/النَّجِي) وطِباقي (المَشُوق/الحَلِّي) وإطنابٍ بأسلوبِ التَّكرارِ (العَرِي)؛<sup>385</sup> فقال مُستفْتِحًا القصيدَةَ بالتَّصريحِ (صَفِيي/ الحَلِّي):

تَرَفَّقْ بِي فَدَيْتُكَ يَا صَفِيي وَلَا تَقْسِ المَشُوقَ عَلَى الحَلِّي  
 وَسَاعِدْنِي عَلَى غُصَصِي<sup>386</sup> فَإِنِّي وَلَعْتُ بِرِيمٍ مُنْعَرَجِ العَرِي  
 يُنَاجِي العِرَامُ لَهَا بِفَكْرِي فَوَا لَهْفَاهُ مِنْ ذَاكَ النَّجِي  
 أَشُمُّ مِنَ العَرِي عَرَارَ<sup>387</sup> نَجْدٍ عَلَى شَطَطِ<sup>388</sup> النَّوَى بَعْدَ العَشِي  
 كَأَنَّ لَطَائِفَ الأَثَارِ مِنْهُ رُؤُوزٌ قَدْ أَشْرَنَ إِلَى النَّبِي<sup>389</sup>

وَفِي بَيْتِهِ الأَوَّلِ اقْتِرَابٌ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ البُرْعِيِّ (ت. 803هـ/1400م) لَمَّا التَّمَسَّ أَيْضًا مِنْ رَفِيقِهِ الرِّفْقَ بِهِ، إِذْ مَا حَالَ الشَّجِي بَعِينَهُ السَّاهِرَةَ كَحَالِ الحَلِّي بَعِينَهُ الغَافِيَةَ، فَقَالَ فِي مَدْحَةِ نَبَوِيَّةٍ لَهُ:

تَرَفَّقْ بِي فَدَيْتُكَ يَا رَفِيقِي فَمَا عَيْنُ سُوَيْهَرَةٍ كَوَسْنَا<sup>390</sup>

وَيُلَحِّظُ حَسَنَ التَّخْلُصِ مَرَّةً أُخْرَى فِي البَيْتِ الأَخِيرِ وَانطِلاقُ أَبِي الهُدَى مِنْهُ مُسْتَطْرِدًا فِي المَدِيحِ النَّبَوِيِّ بَعْدَ تَمْهِيدِهِ لَهُ بِهَذَا المَطْلِعِ مِنَ النَّسِيبِ.

<sup>385</sup> موضع في الكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يُنظر: ياقوت، البلدان، 196/4.

<sup>386</sup> واحدهُ الغُصَّةِ وهي الشَّجِي والحزن، يُنظر: الجوهري، "غصص"، 1407/3.

<sup>387</sup> نباتٌ طيبُ الرِّيحِ وهو التَّرْجِسُ البَرِّي، يُنظر: ابن منظور، "عرر"، 560/4.

<sup>388</sup> مجاوزة القدر في كلِّ شيءٍ، ابن منظور، "شطط"، 334/7.

<sup>389</sup> د.م.ش، 210.

<sup>390</sup> عبد الرَّحِيمِ بن أحمد البُرْعِيِّ، ديوان البُرْعِيِّ، تحقيق: علي الهواري، (القاهرة: مطبعة التَّقَدِّمِ العِلْمِيَّةِ، 1324هـ/1906م)، 93.

ومُقَدِّماتُ أبي الهُدَى لمُدائِحِهِ لم تَسِرْ على وتيرةٍ مُوحَّدةٍ، كما لم تكن مُنحصِرةً في مجالٍ واحدٍ، فقد يُرى مُفتتِحًا مدائِحَهُ بمطَّلَعٍ يودِعُ فيه عرضَ حالِهِ، فينتَهَدُ ليصوغَ كلماتٍ تكاد تُسمعُ أجيح ما اضطرَّم في صدره من الآلام التي ألهبتها فيه أعداؤه؛ وبذلك يكون قد أضفى على القصيدة الطَّابعَ الدَّائِيَّ، ليجعلها مُتنفِّسًا لتباريح أسقامِهِ، ومن هذا الشَّكل قولُهُ في مطلع:

وَهَى حَمَلِي وَضِفْتُ لِثِقَلِ حَوْبِي<sup>391</sup> وَعَزَّ الصَّبْرُ مِنْ أَلَمِ الدُّنُوبِ  
 وَمَا لِي مُنْجِدٌ يَحْمِي حَمَائِي وَيُطْفِي لِي بِنُصْرَتِهِ هَيْبِي  
 وَقَدْ قُوبِلْتُ مِنْ رَهْطِ الأَعَادِي وَأَهْلِ الحَقْدِ بالعَجَبِ العَجِيبِ  
 وَأَفْشُوا الإِفْتِرَا وَبَعَوْا وَجَارُوا وَجَاؤُونِي بِبُغْضِهِمُ الغَرِيبِ  
 هُنَالِكَ ضَقْتُ ذَرْعًا مِنْ هُمُومِي وَقَدْ رَوَّحْتُ نَفْسِي بِالنَّحِيبِ<sup>392</sup>

والمطلع يطوي في طبيَّته وصفَ الحالة التي ألقت بِرحالها في صدرِ النَّاطِمِ، بعد أن جعلها تمثُلُ أَمَامَ القَارِي لَمَّا استعار -استعارةً مكنيَّةً- للاثام التي ارتكبتها وصفَ الحمل الثَّقِيلِ، وجعلَ للدُّنُوبِ آلامًا مُبرِّحةً لا طاقةَ له بالصَّبْرِ عليها، ثم كَتَبَ عن هُمومِهِ وأكدارِهِ بلهيبِ النَّارِ؛ فانجَلَّت بهذا المطلعِ الحالةُ النَّفْسِيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ عند أبي الهُدَى، التي حَرَّكته مدفوعًا إلى المديحِ النَّبَوِيِّ، إذ إنَّ نَفْسَهُ أَلَمَّتْهُ بارتكابِ الدُّنُوبِ، ولم تمتدِّ لنصرتِهِ يدُ تُطفئُ اضطرَامِ الآمِهِ المتوقِّدة، ولكي يَتَسَنَّى له شرحِ آلامِهِ الدَّائِيَّةِ وحالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ التي أثَّرَ فيها حُسَّادُهُ فقد أَطْنَبَ في الكلامِ عليهم، إذ هم العُدَاةُ والحاقِدُونَ الذين رموه عن قوسٍ واحدَةٍ بسهامِ الافتراءِ والبغي والإشاعاتِ الكاذِبَةِ، فزَجُّوا به في جُبِّ من الهَمِّ والأحزانِ، وقد سَعَى أبو الهُدَى في عجزِ البيتِ الأخيرِ إلى استخدامِ أسلوبٍ بُدئَ بِدَايَةٍ مُطْمَعَةٍ وَحُتِمَ بِنَهَائِيَّةٍ مُؤَيِّسَةٍ،

<sup>391</sup> إثمِي وذنوبي، يُنظَر: الجوهري، "حوب"، 116/1.

<sup>392</sup> د.ف.م، 66.

إذ بدأ بوصف حالته التي طمَع فيها بالاستراحة، غير أنّها لم تكن إلا بالنّحيب؛ وبهذا ازداد انجلاءً صورة حالته النفسيّة الداخليّة بوضوح عند القارئ -عبر ما أتى به من الإطناب والاستعارة والكناية-؛ ثم لم يلبث أن وثب بأبياته من عمق هذا الحزن الذي خيم على قلبه المكمود، فخاطب نفسه كي تنهض من جديد: أن قومي من وهدة الأحزان فإنك على النهج السامي السني نهج المصطفى عليه السلام:

وقلتُ لِنَفْسِي ارْتاحِي وَحَلِّي عَناءِكِ وارْكِنِي<sup>393</sup> طَبَعًا وطِيبِي  
لَكَ اتَّضَحَتْ طَرِيقُ النُّجْحِ حَقًّا بظَلِّ عِنايةِ الهادِي الأديبِ  
إمامِ المرسلين حمى البرايا مُغيثُ المُلتجِي حصنِ الغريبِ  
أبو الزُّهراءِ أبو الأكوانِ جدُّ الـ حُسينِ ابنِ النّجيبِ<sup>394</sup>

فبعد استهلاله قصيدته بمطلع عرض الحال ومخاطبته لنفسه وتطمينه لها بالتغاضي عن كل آلامها ينتقل بحسن تخلص إلى غرض المديح للنبي الكريم مُقدّم الرُّسلِ أجمعين وعود الغبراء الرّحمة الشّاملة للعالمين أجمعين.

ومن مُقدّماتِه شكلٌ آخر يقترب به من الشّكل السّابق لكنّه لا يجعل من عرض حاله سبباً للانتقال إلى الممدوح بل يعرض حالة الزّمان وما وصلت إليه من التّردّي في وهاد الفساد والحزّي ويجعل من هذا العرض طريقاً للوصول إلى المدح؛ ومن أمثلة ذلك قوله مُستهللاً قصيدته ومُخاطباً لمحبوّته "نعم"، وذلك جرياً على عادة الشعراء في مخاطبة محبوبهم:

يا نُعم ضائِعَةُ المكارِمِ تُنشُدُ ولكلِّ يومٍ في تَقْلِبِهِ عَدُ

<sup>393</sup> من ركن بمعنى سَكَنَ، يُنظَر: الجوهري، "ركن"، 2126/5.

<sup>394</sup> د.ف.م، 66.

والحرُّ يُبَصِّرُ فِي الزَّمَانِ غَرَائِبًا نَكَدًا<sup>395</sup> يَكَادُ لَهَا يَذُوبُ الْجَلْمَدُ<sup>396</sup>  
وَلِرَبِّ وَقْتٍ رَحْتُ أَنْضَحُ<sup>397</sup> دَمْعِي فِيهِ وَجَمْرٌ حَشَّاشَتِي يَتَوَقَّدُ<sup>398</sup>

فالمطلعُ هذا يعرِّضُ حالةَ زمانِ الشَّاعِرِ المُزْمِنِ بالأدواءِ، وما حَمَلَتْ أَيَّامُهُ من ولادةِ لغرائبٍ وعجائبٍ يراها الأحرارُ فتكادُ تذوبُ مُهَجُّهُمْ مما يُعَايِنُونَهُ وَيُعَاوَنُونَهُ، فَكَنَّى بِقَوْلِهِ (يَذُوبُ الْجَلْمَدُ) عن غرائبٍ مظاهرٍ ذاكَ العصرِ وفجائعهِ وشِدَّتِهَا التي تفلُقُ الصَّخرَ القاسيَ فينَقِطِرُ أَسَى من بأسِهَا؛ وَلَكُمْ قَد مَرَّ من وقتٍ اتَّقَدَّتْ فِيهِ نيرانُ الكَمَدِ في صدرِ أبي الهُدَى، فهو ذاكَ الصَّدْرُ الذي بِالْعِ فِي تَشْبِيهِ حَشَّاشَتِهِ وَاتَّقَادِهَا كَمَدًا وَحُزْنًا بِالْجَمْرِ الْمُتَّقَدِ الْمُضْطَرِّمِ -عبر التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ بِجَامِعِ الْاِتِّقَادِ وَالْإِتْلَافِ-، فإذا به قد راح يسكبُ دَمْعَهُ أَسَى وَحُزْنًا من هذا الزَّمَانِ؛ وَلَكِنَّهُ عَادَ لِيُطْفِئَ ذَاكَ الْاضْطِرَامَ مُقْتَبِسًا مَعْنَى من معاني قوله تبارك وتعالى: "حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ"<sup>399</sup>:

وَبِكُلِّ غَلْغَلَةٍ الشُّؤُونِ<sup>400</sup> فَحَسْبُهُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا الْحَبِيبِ مُحَمَّدٌ  
صَدْرُ النَّبِيِّينَ الْأَعْظَمِ رَأْسُهُمْ سُلْطَانُهُمْ وَلَهُ عَلَى الْكُلِّ الْيَدُ<sup>401</sup>

فهو قد انثنى بهذه الأبيات لِيُعَبِّرَ عن كونه رجلاً لم يُعَلِّقْ آمالَهُ على هذا الزَّمَانِ وَمَعَامِعِ شُؤُونَاتِهِ، بل إِنَّ آمالَهُ اتَّصَلَتْ بِرَسُولِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ، وَمَنْ نَمَّ يَلْتَفِتُ مُسْتَدْعِيًا بِالْمَجَازِ الْمُرْسَلِ ذِي الْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ (له على الكلِّ اليدُ) ما يُفَصِّحُ عن مَقَامِ الْجَنَابِ النَّبَوِيِّ الْأَكْرَمِ، فيمدحه بأنَّه ذو الإحسانِ الجَمِّ والعطاءِ

<sup>395</sup> كلُّ أمرٍ عادَ على صاحبه بشرٍّ، ونكُدُ العيشَ اشتدادُهُ وَتَعَسَّرُهُ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "نكد"، 427/3.

<sup>396</sup> الصَّخْرُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "جلمد"، 459/2.

<sup>397</sup> من النَّضْحِ بمعنى الرَّشِّ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "نضح"، 618/2.

<sup>398</sup> د.ر.ت، 73.

<sup>399</sup> التَّوْبَةُ، 59/9.

<sup>400</sup> اختلاطها ودخول بعضها ببعض، يُنْظَرُ: ابن دريد، "غلغل"، 217/1.

<sup>401</sup> د.ر.ت، 74.

الأئمة الذي شَمَلَ جميعَ العالمين - المُعَبَّر عنهم بلفظة "الكُل" - إذ هو المبعوث إليهم أجمعين، ولا بدَّع فهو سيِّدُ الأنبياءِ عليه وعليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وعلى هذه الشَّاكِلَة ينطلقُ في أبياتِ القصيدةِ مُسْتَطَرِّدًا في ميادين غرضِ المديحِ النَّبَوِيِّ.

ومما يسترعي الانتباه أنَّ أبا الهُدَى لم يَقْصُرْ مُقَدِّماتِ مدائِحِهِ على الأشكالِ التي مرَّ ذِكْرُهَا، بل لربما باشَرَ المديحِ النَّبَوِيِّ من أوَّلِ بيتٍ في المِدْحَةِ، مستعمِلًا صِبْغَةَ الخِطَابِ المُباشِرِ للرَّسُولِ الكَرِيمِ عليه السَّلَامُ، مَادِحًا سُمُوَّ قَدْرِهِ العَالِي، ومن ذلكَ قولُهُ مُضَمِّنًا مطلعَهُ بالجناسِ الاشتقَاقِيِّ (علاء/ العلياء، سما/ السَّما/ تَسَامَى) والتَّصْرِيحِ (الأنبياء/ الإصطفاء):

يا نبيًّا عَلا على الأنبياءِ      بمقامِ التَّعْظِيمِ والإِصْطِفَاءِ  
وَسَمًا وارْتَقَى السَّما وتَسَامَى      قَدْرُهُ في المَرَاتِبِ العَلياءِ<sup>402</sup>

وقد استهلَّ مِدْحَتَهُ في موضعٍ آخَرَ بتفديّةِ رسولِ الله إذ هو الرَّحْمَةُ المرسَلَةُ للعالمين، فقال:

روحي وأرواحُ مَنْ في الكائِناتِ فِدَا      لظِلِّ بابِ الذي عَمَّ الوجودَ نَدَا<sup>403</sup>

ويُلاحَظُ بتناولِ هذه المطالعِ التي مرَّتِ التَّنوُّعُ الذي حظَّيتِ به مُقَدِّماتُ المدائِحِ النَّبَوِيَّةِ عند أبي الهُدَى، وتعدُّدِهَا إلى سِتَّةِ أَشْكالٍ، وقد كان في كُلِّ مَرَّةٍ يُحَسِّنُ التَّخْلُصَ في الدُّخُولِ من المطالعِ إلى الغرضِ الأساسِ الذي بُنيَ لأجلِهِ صَرَخُ الأمدوحة؛ ولعلَّ التَّساوُلَ المُلِحَّ الذي يبرزُ بعد هذا الاستطلاعِ للمطالعِ، عما كَمَنَ وراءَها من المحاورِ التي دارتِ في فَلَكِهَا هذه المَدائِحِ عند أبي الهُدَى، وهو ما ستتناوله السَّطورُ القادمة.

<sup>402</sup> د.م.ش، 36.

<sup>403</sup> د.م.ش، 36.

## 2 محاور المدائح

إنَّ من أوَّل ما يتبادرُ إلى الأذهان - إذا ما طَافَتْ في مضامين محاور المديح النَّبويِّ عموماً-، هو تذكُّرُ مَدْحِ الخالقِ العظيم لهذا النَّبيِّ الكريمِ عليه السلام، وخلودِ هذا المدحِ بقرآنٍ يُتلى إلى يومِ الدِّينِ، فلا لسانَ لمخلوقٍ يصلُ إلى شامخِ سمِّ ثناءٍ "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"،<sup>404</sup> ولن تُخَطِيَّ عَيْنٌ حفاوةَ خطابٍ "يا أَيُّها الرُّسُولُ"<sup>405</sup> و"يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا"،<sup>406</sup> ولا علوَّ شرفٍ "لَعَمْرُكَ"،<sup>407</sup> فهي آياتٌ مدَّت بأسبابها إلى المادحين كي يرتقوا إلى عالي سمائها، لتتدفَّق بعد هذه الآياتِ أفواجُ الشعراءِ بسبيلٍ من المدائح النَّبويَّةِ، التي قد تكون صروحٌ محاورها قد أُقيمت على أساسِ أمدَّتْهُ الآياتِ الآنيَّةِ بمنبعٍ من معانٍ ما انفكَّ الشعراءُ يستقون منها في أشعارهم المديحيَّةِ، إذ من الممكن القول: إنَّ الآيةَ الأولى هي أصلٌ للمحور المتكلم على شمائل النَّبيِّ الكريمِ عليه السلام، والثَّانية أصلٌ للمحور المتكلم على رسالته وشرفها وما تعلق بها، والثَّالثة أصلٌ للمحور المتكلم على هديه وسيرته ومدحه بسامي الأوصاف، وأمَّا الأخيرة فقد تكونُ أصلًا للكلام على ما وهبه الله من خصوصياتٍ لم يُعطها أحدٌ سواه. غيرَ أنَّ محاورَ المديح النَّبويِّ لها ميزاتها الذي وُضِعَ على لسان الممدوح الأكرم صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: "لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ"،<sup>408</sup> وإلى هذا أشارَ شرف الدِّين البوصيري (ت. 696هـ/1296م) بقوله:

<sup>404</sup> القلم، 4/68.

<sup>405</sup> المائدة، 41/5.

<sup>406</sup> الأحزاب، 46/33.

<sup>407</sup> الحجر، 72/15؛ والقسمُ محمولٌ في هذا الموضعِ على أنَّه قَسَمَ من ربِّ العالمين بحياةِ نبيِّه عليه السلام مما يدلُّ على أنَّه أكرم الخلق على الله، يُنظر: فخر الدِّين محمد بن عمر الرَّازي، التفسير الكبير (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، 156/19.

<sup>408</sup> البخاري، "أحاديث الأنبياء"، 48 (رقم 3445)؛ والإطراء هو مدحُ الرَّجلِ بما هو ليس فيه ولا له، فالنَّصارى مدَّحت عبداً من عبيد الله بأنَّه إله وابن إله، يُنظر: ابن منظور، "طرا"، 6/15.

دَعَّ مَا أَدَعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمِ<sup>409</sup>

وبهذا البيت يُعْلَمُ أَنَّ أَشْهَرَ الْمُدَّاحِ يُبَيِّنُ إِطْلَاقَ الْعِنَانِ لِلْمَادِحِينَ مَا لَمْ يُطَقِّفُوا فِي الْمِيزَانِ، فَيَتَجَاوَزُوا بِهِ حَدَّهُ الْمَعْلُومَ كَمَا تَجَاوَزَتِ النَّصَارَى بِقَوْلِهَا فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَقَدْ تَعَدَّدَتِ مَحَاوِرُ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ عِنْدَ أَبِي الْهَدَى وَتَشَعَّبَتِ فِي مَدْحِ كُلِّ مَا تَعَلَّقَ بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ مِنْ هَدْيٍ وَدَعْوَةٍ وَمُعْجَزَاتٍ وَشَمَائِلِ خَلْقِيَّةٍ وَخُلُقِيَّةٍ وَمَا مَرَّ بِهِ مِنْ أَحْدَاثٍ فِي سَفَرِهِ وَحَضْرِهِ وَحَرْبِهِ وَسِلْمِهِ، إِلَى جَانِبِ مَا سَكَبَهُ الشَّاعِرُ مِنْ فَيْضِ مَشَاعِرِهِ وَمَا بَثَّهُ مِنْ أَشْوَاقٍ إِلَى دِيَارِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِلَّا أَنَّ الْمُتَتَبِعَ لِمَدَائِحِ أَبِي الْهَدَى يَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ: إِنَّ أَبْرَزَ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ مَدَائِحُهُ مِنْ مَحَاوِرٍ كَانَتْ فِي الْمَدِيحِ الْعَامِ، وَالْمُعْجَزَاتِ وَالتَّشْوِيقِ وَالتَّشْفِيعِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَحَاوِرٍ أُخْرَى تَرَدَّدَتْ فِي تَضَاعُيفِ مَدْحِهِ النَّبَوِيِّ، مِمَّا سَتَتَوَلَّى السُّطُورُ الْقَادِمَةُ بِبَيَانِهَا.

## أ محور المدح العام

حقيقته هذا المحور تنشأ من المدح التقليدي المعروف من قِبَلِ الشُّعْرَاءِ لِمَمْدُوحِيهِمْ، وَلَكِنَّهَا هُنَا تَزِيدُ عَلَيْهِ بِمَا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ الْمَمْدُوحِ وَاخْتِلَافُهُ عَنِ أَيِّ مَمْدُوحٍ آخَرَ، فَهُوَ هُنَا رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَسَيِّدُ وَوَلَدِ آدَمَ وَوَاحِدُ الْخَلْقِ فِي أَخْلَاقِهِ وَمَكَانَتِهِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي لَا تُسَامَى؛<sup>410</sup> فَالْقِيَمِ الْمَطْرُوحَةِ فِي هَذَا الْمَدْحِ لَيْسَتْ تِلْكَ الْقِيَمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ فَحَسَبَ -عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَغَ فِيهَا

<sup>409</sup> شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، ديوان البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، 1374هـ/1955م)، 193.

<sup>410</sup> يُنظَر: محمد بن عبد الباقي الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1996م)، 239/5.

أعلى قَمَّتْهَا- بل طُرِحَ إلى جانبها القِيمَ الدِّينِيَّةَ؛ ولأجلِ هذا كَلِّهَ فيمكن القول: إِنَّ المحور هو (محور المدحِ الخالصِ للنَّبِيِّ الكَرِيمِ بِشَكْلِ عَامٍّ، مع إبراز ما انطوى عليه أبو الهُدَى من خالصِ المحبَّةِ لَهُ).

ولعلَّ من أوَّلِ ما يلمَعُ في أفقِ هذا المحور تلك القصيدَةُ التي استهلَّها بمطلعِ مَدْحِيٍّ، يُبرِّزُ أعظَمَ القِيمِ الدِّينِيَّةِ مشفوعَةً بِقِيمٍ تقليديَّةٍ أخرى جاءت إلى جانبها، حيث قال بعد أن أتى بالتَّصْرِيحِ في أوَّلِ بيتٍ لِيُطْرِبَ الأَسْمَاعَ:

لجأتُ بأعتابِ الحبيبِ ابنِ هاشمٍ      إمامِ صُدُورِ المُرسَلينِ الأكارِمِ  
رسولِ الرِّضا ربِّ المعالي محمَّدٌ      مُثِيبُ الغيِّ مفتاحِ كنزِ العَنَائِمِ<sup>411</sup>

واستطرَدَ بعد هذا المطالعِ ماضِيًا في مدحِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأبياتٍ رَكَزَتْ على القِيمِ الدِّينِيَّةِ والمكانةِ العالِيَةِ له وما حَبَّاهُ اللهُ بِهِ من نورٍ وهُدَى استضاءَ به العالمون، فكان لهذا النَّبِيِّ الكَرِيمِ الرُّتْبَةُ التي دونها كلُّ المراتبِ حيثُ عَلَتْ على العُلا، ولئن كانَ هذا النَّبِيُّ الكَرِيمِ يَمُوجُ بِحَرِّ عِلْمٍ وثَمَى وهدايةٍ ورحمةٍ لكلِّ العالمين فلا شكَّ أَنَّهُ سَيِّدُ كُلِّ مَنْ تقدَّمَ منهم ومَن تأخَّرَ بل وزينُهُم وتاجُهُم؛ يقول في هذه المعاني:

سراجُ بطاحِ القِبْلَتَيْنِ وكوكبُ الـ      وجودِ ومصباحِ الهدى للعوالمِ  
لَهُ الدَّوْلَةُ العُظْمَى لَهُ الرَّفْعُ<sup>412</sup> الذي      تَسَامَى على العُلْيَا بأعلى الدَّعَائِمِ  
هو البحرُ بِحَرِّ العِلْمِ والدِّينِ والتُّقَى      وبحرِ المعاني والهدى والمراجِمِ  
ومولى أَسَاتِيدِ الوجودِ وتاجُهُم      وأعظُمُهُم من كلِّ ماضٍ وقَادِمِ<sup>413</sup>

411 د.ف.م، 61.

412 البساط أو جانب الفسطاط أو جانب الخيمة، يُنظَرُ: ابن منظور، "رف"، 126/9.

413 د.ف.م، 62.

ولعلَّ أبا الهُدَى قد حرصَ في هذه الأبيات على تَلَمُّسِ التَّشْبِيهَاتِ الَّتِي تَنسَابُ مَعَ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ: "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ"<sup>414</sup> فتابعَ بذلك ما قاله غيرُ واحدٍ من المُفَسِّرِينَ بِأَنَّ النُّورَ هُوَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،<sup>415</sup> ولذلك فقد جَاءَتِ تَشْبِيهَاتُهُ مَنَسِجَمَةً مَعَ هَذَا فَاتَى بِالْفَافِظِ (السِّرَاجِ، المِصْبَاحِ، الكَوْكَبِ) وَكُلُّهَا مَشْتَرِكَةٌ بِالنُّورِ، وَفِي وَصْفِهِ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ بِالْبَحْرِ وَالتَّاجِ لِأَسَاتِيدِ الْوُجُودِ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ -إِذْ أَهْمَلِ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ وَوَجْهَ الشُّبْهِ (السَّعَّةُ وَالجَمَالُ وَالعِظَمَةُ)-، وَبَتَكَارِهِ لِلْأَلْفَاظِ (الْبَحْرِ، الْوُجُودِ، الْهُدَى) تَرْسِيخٌ لِمَعْنَى وَتَأَكِيدٌ مُؤَثِّرٌ فِي السَّمَاعِ قَدْ يُبْرِزُ مَا انطَبَعَ فِي ذَهْنِ أَبِي الْهُدَى مِنْ حُبِّ وَمِنْ تَعْظِيمِ وَتَبْجِيلِ لِمَمْدُوحِ الْأَكْرَمِ صَاحِبِ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَثْنَى عَلَيْهِ خَلَّاقُهُ الْعَظِيمِ، فَلَا مَجَالَ لِمُتَكَلِّمٍ أَنْ يَصِلَ إِلَى كُنْهِ هَذِهِ الْعِظَمَةِ، وَلِذَلِكَ انْتَهَى أَبُو الْهُدَى لِيُعَبِّرَ عَنِ أَنَّ خِلَالَ هَذَا النَّبِيِّ وَشَمَائِلُهُ عُلَّتْ عَلَى سَمَاوَاتِ الْمَعَالِي حَتَّى تَقَاصَرَتْ عَنْهَا الْكَلِمَاتُ وَالْأَشْعَارُ، فَقَالَ:

معالیه لا تُحصَى وآياتُ فضلِهِ مُطَرَّرَةٌ مِنْ مَجْدِهِ بِالْمَكَارِمِ  
مَظَاهِرُهُ الْعَلِيَا وَأَوْصَافُ ذَاتِهِ تَسَامَتْ عَنِ التَّعْرِيفِ فِي شِعْرِ نَاطِمٍ<sup>416</sup>

وَيَامَعَانِ النَّاطِرِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرِ يَجِدُهُ لَمْ يَكُنْ جَدِيدًا فِي الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ، فَلَطَالَمَا كَرَّرَهُ الْمَادِحُونَ مُعَبِّرِينَ عَنِ عَجْزِ كَلِمَاتِهِمْ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِسَامِي صِفَاتِهِ وَشَرِيفِ أَخْلَاقِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِّيِّ (ت. 750هـ/1349م):

414 المائدة، 15/5.

415 يُنظَرُ: جلال الدِّينِ الْحَلِّيِّ - جلال الدِّينِ السُّيُوطِيِّ، تَفْسِيرِ الْجَلَالِينَ (القاهرة: دار الحديث، 1416هـ/1996م)، 139؛ الحسين بن مسعود الغفوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد التمر وآخرين، (الرياض: دار طيبة، 1409هـ/1988م)، 33/3؛ علي بن أحمد الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان داوودي، (دمشق: الدار الشامية، 1415هـ/1995م)، 313.

416 د.ف.م، 62؛ وتكرَّرَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ بِرَوَايَةٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي دِيْوَانِ آخَرَ، فَجَاءَ الْعَجْزُ الْأَوَّلُ "لَقَدْ هَطَلَتْ مِنْ أَفْقِهِ بِالْمَكَارِمِ" وَالصَّدْرُ الثَّانِي "فَمَظْهَرُهُ الْأَعْلَى وَسُلْطَانُ ذَاتِهِ"، يُنظَرُ: د.م.ش، 183.

ولو أَنِّي وَقَّيْتُ وَصَفَكَ حَقَّةً فَيَا الْكَلَامُ وَضَاقَتِ الْأَوْزَانُ<sup>417</sup>

ومنه قول البوصيري:

لو أَجْمَعَ الْخَلْقُ أَنْ يُحْضُوا مَحَاسِنَهُ أَعْيَتْهُمْ جَمَلَةٌ مِنْهَا وَتَفْصِيلُ<sup>418</sup>

بل إِنَّ أبا الهُدَى كَرَّرَهُ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلًا:

أَعْيَا الْعُقُولَ فَلَنْ تُحِيطَ بِوَصْفِهِ دَهْرًا وَلَوْ سَمَحَتْ بِكَلِّ نِظَامٍ

ضَاقَتْ صِحَافُ الْغَيْبِ فِي سَفَرِ الْعَمَى عَنْهُ فَأَيْنَ الرَّقْمُ بِالْأَقْلَامِ<sup>419</sup>

فكلُّ ما سَبَقَ من الأبيات يُشِيرُ إلى معنى تَفَرُّدِ جَمالِ شَمَائِلِهِ وَأوصافِهِ حتى تَقاصَرَتْ عن وصفها العقول وتَلَكَّأتْ فيها فصاحُ الألسنة ولم تبلغها بلاغة الكلمات؛ ولعلَّ هذا المعنى تردَّدَ ما يقربُ منه على ألسنة الصَّحابة الكرامِ لَمَّا ترجمت شيئًا من كوامن محبَّتهم بوصف هذا النَّبِيِّ الكريم، إذ إنَّ أحدهم ليرنو إلى طَلَعَتِهِ المنيرة فيقول: "كَأَنَّ الشَّمْسَ تجري في وجهه وإذا ضحك يتألأأُ في الجُدُر"،<sup>420</sup> ويقول الآخر: "بل مثل الشَّمْسِ والقمر"،<sup>421</sup> "كَأَنَّ عرقه اللَّؤلؤ"،<sup>422</sup> وما إن يشرع أحدُهم مسترسلًا في نعتِ أوصافِهِ حتى يرجع القهقري مُعَبَّرًا عن عجزِهِ عن الإحاطة بتلك الصِّفات قائلًا: "لم أرَ قبْلَهُ

<sup>417</sup> صفِّي الدِّين عبد العزيز بن سرايا الحلبي، ديوان صفِّي الدِّين الحلبي (بيروت: دار صادر، د.ت)، 82.

<sup>418</sup> البوصيري، ديوان البوصيري، 183.

<sup>419</sup> د.م.ش، 186.

<sup>420</sup> عياض بن موسى اليحصبي، التَّيْفَا بتعريف حقوق المصطفى (بيروت: دار الفكر، 1409هـ/1988م)، 61/1.

<sup>421</sup> يُنظَر: مسلم بن الحجاج، المسند الصَّحيح، إعداد: محمَّد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ/1991م)، "الفضائل"،

2344.

<sup>422</sup> مسلم، "الفضائل"، 2330.

ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم"،<sup>423</sup> ولقد أحجم خالد بن الوليد (ت. 21هـ/642م) رضي الله عنه عن تفصيل وصفه عليه السلام واعتذر، ف قيل له: أجمل، فقال: "الرسول على قدر المرسل"،<sup>424</sup> ودفع هذا الحال ابن حجر الهيتمي إلى أن يُقر بأن "مما يتعين على المكلف أن يعتقد أن كمالات نبينا لا تُحصى، وأنّ المادحين له ما جاؤوا إلا بغيض من فيض إذ لا وصول لغايته".<sup>425</sup>

إلا أنّ أبا الهدي في مدحه لأخلاق هذا النبي الكريم وشمائله لم يكن بجاعل لها مماثلةً لصفات أيّ ممدوح إطلاقاً، بل كان يحرص على تمييزها بأنّها في النبي صلى الله عليه وسلم أصليةً طبيعيةً وليست عارضةً كسببيةً كما هي عند غيره من الممدوحين، فلا يمكن لأحد أن يرقى إلى غلاها، ومن ترداده لهذا المعنى قوله مخاطباً النبي الكريم عليه السلام:

وقد طبعت بطينتك المعالي وحكم الطبع ليس به مراء  
ترعرع<sup>426</sup> فيك طبع ما تننى لغيرك فاق من ذهبوا و جاؤوا<sup>427</sup>

فالبارئ ببارك تعالى قد فطر حبيبه صلى الله عليه وسلم على أسمى الطبائع وأعلى الأخلاق، فهي ليست تطبعاً يُكتسب من البيئة والمجتمع المحيط به وإنما أخلاقه طبع أصيل يعرج به دائماً لعلّي الفعّال لأنّ "الطبع جاذب متفاعل بينما التّطبع مجذوب مُفتعل مُتكلف لا يلبث أن يزول مع الاسترسال"،<sup>428</sup>

<sup>423</sup> محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، إعداد: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1416هـ/1996م)، "المناقب"، 8 (رقم 3637).

<sup>424</sup> يُنظر: أحمد بن محمد القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت)، 5/2.

<sup>425</sup> يُنظر: أحمد بن حجر الهيتمي، المنح المكنية في شرح الحمزية (القاهرة، مطبعة التّقدم، 1326هـ/1908م)، 2.

<sup>426</sup> نَسْأ، أصله من الرّعزة وهي حسن شباب الغلام، يُنظر: ابن منظور، "رِع"، 128/8.

<sup>427</sup> د.ر.ت، 7.

<sup>428</sup> يُنظر: علي بن محمد الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملوك وسياسة الملوك، تحقيق: حسن الساعاتي - هلال السرحان، (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، 267.

ولم يشأ أبو الهُدَى أن يقفَ في وصفِ عِظَمِ هذا الطَّبَعِ عندَ حَدِّ محدودٍ ولكنَّهُ أرادَ لخيالِ القارئِ أن يسبَحَ في تصوُّره لعِظَمَةَ هذا الطَّبَعِ وتجدُّره في هذه الذَّاتِ النَّبَوِيَّةِ، فاستعار له -استعارةً مكنيَّةً- وصفَ التَّرعُّعِ، فانتقلَ بالأخلاقِ من المعنى المجرَّدِ الجامدِ إلى المعنى الحِسِّيِّ المتحرِّكِ، فالأخلاقُ الطَّبَعِيَّةُ عندَ هذا النَّبِيِّ ما هي إلا إنسانٌ نشأ في هذه الذَّاتِ المحمَّديَّةِ وراح ينمو ويكبر كلَّ آنٍ؛ فلا بدَّ أن يكونَ الطَّبَعُ المحمَّديُّ واحدًا مُتَّفَرِّدًا لم يُحْزَهِ أوَّلٌ ولا آخِرٌ من المخلوقين، وفي عجزِ البيتِ الأوَّلِ أتى بالإطنابِ عبرَ أسلوبِ التَّذييلِ (الطَّبَعُ ليس به مرأى) الذي أكَّدَ المعنى الذي وردَ في صدره (طُبِعَتْ بطينتك المعالي) وزادَهُ تقويَةً في الأسماع. ويتكرَّرُ هذا المعنى مرَّةً أُخرى على لسانِ أبي الهُدَى، لكنَّهُ يزيدُ عليه معنًى آخَرَ حيثُ مدَّحَ النَّبِيَّ بما حَصَّهُ اللهُ به من إيصالِ هذه الأخلاقِ إلى الخَلَاتِقِ، وقيامِهِ بدعوةِ الخَلْقِ للتَّحَلِّيِ بها، وكأنَّ عجزَ البيتِ الثَّاني ضمَّ اقتباسًا يُشيرُ إلى معنى قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"<sup>429</sup>:

وَحَصَّهُ اللهُ بِكُلِّ حَاصِلَةٍ عَظِيمَةٍ بِالسَّعْيِ لَنْ تُكْتَسَبَا

طَوَى بِهِ اللهُ الْمَعَالِي كُلَّهَا وَهَزَّهُ لِنَشْرِهَا فَانْتَدَبَا<sup>430</sup>

وبالنَّظَرِ إلى هذين البيتين والذين سبقهما يمكن ملاحظة أنَّ القيمةَ التَّقْلِيدِيَّةَ -التي هي حسن الأخلاق- لم تأتِ مُجَرَّدَةً في المديح النَّبَوِيَّةِ عندَ أبي الهُدَى بل أُضِيفَتْ إليها الخِصُوصِيَّةُ الدِّينِيَّةُ التي امتنَّ اللهُ بها على نبيِّه الكَرِيمِ، وعلى هذا جَرَى في جُلِّ مَدْحِهِ النَّبَوِيَّةِ؛ ومن ذلك أنَّ المادحين قد ساروا بمدحِ النَّاسِ الطَّيِّبَةِ بِشَرَفِ النَّسَبِ وطهارةِ الأَصْلِ، فجاءت هذه القيمةُ التَّقْلِيدِيَّةُ في المَدْحِ النَّبَوِيَّةِ عنده مكسوَّةً بصِغَةِ الخِصُوصِيَّةِ المحمَّديَّةِ، فالنَّبِيُّ الأَكْرَمُ عليه السَّلَامُ لا يُدَانِيهِ أَحَدٌ بِشَرَفِ المَحْتَدِ ولا

<sup>429</sup> أحمد بن عمرو البزَّار، البحر الرَّخَّار، إعداد: محفوظ الرحمن زين الله وآخرين، (المدنية المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1427هـ/2006م)،

364/15 (رقم 8949).

<sup>430</sup> د.م.ش، 51.

بطهارة النسب وهو القائل: "خرجت من نكاحٍ ولم أخرج من سفاحٍ من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نسبًا وخيركم أبا"، "وأنا خيركم قبيلًا وخيركم بيتًا"،<sup>431</sup> ولمَّا تناول أبو الهدي هذه القيمة في مدحه كان يُكرِّرُ صبغها بخصوصية زائدة وهي أن النسب شرف برسول الله وليس العكس، ومن هذا قوله وقد استعار -استعارةً تصریحيةً- لفظ (القلادة) لسلسلة النسب الهاشمي النبوي الأطهر الأجد الذي تشرفت به الفروع والأصول:

شَرَفُ الْعَصَائِمِ فِي قِلَادَةِ هَاشِمٍ وَالْفَخْرُ لِلآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ<sup>432</sup>

وقد عاد في موضع آخر ليؤكد المدح بما يُشبهه الذم فأتى باستدراكٍ بعد صفة المدح لمجد النسب النبوي ليذكر تشريف رسول الله للنسب بتمامه، حتى غدا أصل الفخار لمن تقدّمه من أصوله، فزادهم شرفاً إلى شرف:

وَنَاهِيكَ بِالْمَجْدِ الْمُؤْتَلِ<sup>433</sup> فَخْرُهُ لآبَائِهِ لَكِنْ حَبَا أَصْلَهُمْ فَخْرًا  
أَقَامَ لَهُمْ فِي ذُرْوَةِ الْعَزِّ مَنْصِبًا يَحْطُّ عَلَى أَعْتَابِ سُدَّتِهِ الْبَدْرَا<sup>434</sup>

ويلمح في البيت الأخير جمال الصورة البيانية في الاستعارة التصريحية المرشحة التي جعلت للعزّ قمةً يُبنى عليها منصبٌ له أعتابٌ، وشفعها باستعارته للبدر صفة الوقوف على هذه الأعتاب -من طريق الاستعارة المكنية-، ليصعد بفكر القارئ إلى علوِّ المجد الذي أناله رسول الله لسلسلة آبائه حتى شرف

<sup>431</sup> يُنظر: عبد الكريم بن محمد السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن اليماني وآخرين، (حيدر أباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1382هـ/1962م)، 14/1؛ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلنجي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/1984م)، 169/1.

<sup>432</sup> د.ر.ت، 5.

<sup>433</sup> المجد الأصيل الضارب في القدم، يُنظر: ابن منظور، "أتل"، 9/11.

<sup>434</sup> د.ر.ب، 24.

بِهِ نَسَبُهُمْ وازدان عَزُهُمْ؛ وهذه الفكرة كثيراً ما تَرَدَّدَت عند المادحين السَّابِقِينَ، فمن ذلك قول أبي  
النَّاء شهاب الدِّين الحلبي (ت. 725هـ/1325م):

بِكَ كَرَّمَ اللهُ الجُدودَ وطَهَّرَ الـ آباءَ إِذْ ولِدُوكَ جِيلاً جِيلاً<sup>435</sup>

وقول عائشة الباعونية لما مَدَحَت النَّسَبَ الطَّاهِرَ وما حازه من عظيم كمال المفاخر بالنبي الأكرم  
عليه السلام:

أَنِّي وَطَهُ بِدُرِّ أَفْقِ سَمَائِهِ وَلَهُ بِهِ فَخْرٌ وَأَيُّ فَخَارٍ<sup>436</sup>

وهذا يعني أنَّ أبا الهُدَى في هذا المحور لم يحد عن إثر مَنْ سَبَقَهُ من المادحين للجناب النَّبويِّ، وكرَّرَ  
ما حرصوا عليه من إبراز القِيمِ المدحِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ بصبغة الخصائص المحمَّديَّة؛ فإن كان الممدوحون  
يُمدِّحون بالأخلاقِ الحَسَنَةِ فَإِنَّ مِدْحَ أَبِي الهُدَى - كسابقه - قائمةٌ على أَنَّ رسولَ الله هو منبعُّها بل  
كأنَّها منه فاضت إلى غَيْرِهِ، فترى ابن حجر الهيتمي لما تطرَّقَ إلى مدحِ سخاءِ النَّبيِّ الأكرم، استشهدَ  
ببيتٍ يجعلُ جُزءاً من الكرمِ المحمَّديِّ يغمُرُ بفيضه كُلَّ أجزاءِ الدُّنيا:

لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَرَ جُودِهَا عَلَى الْبِرِّ كَانَ الْبِرُّ أُنْدَى مِنَ الْبَحْرِ<sup>437</sup>

ولذلك فإنَّ أيَّ صِفَةٍ يمدِّحُ بِهَا النَّبِيَّ المُجْتَبَى فهو الدُّرُوةُ فيها تَحَقُّقاً وهو المعيارُ لها أساساً، وكلُّ خُلُقٍ  
محمودٍ في البرِّيَّةِ فرسولُ الله قد علا به على أربابه، وينجلي هذا المعنى في مِدْحِ أَبِي الهُدَى، فلئن كانت

<sup>435</sup> شهاب الدِّين محمود بن سليمان الحلبي، أهني المنايح في أسنى المدايح (القاهرة: مطبعة جريدة الشورى، د.ت)، 9.

<sup>436</sup> عائشة بنت يوسف الباعونية، مولد النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تحقيق: عبد القادر عمر نهبان، (دمشق: المطبعة الحفنيَّة، 1301هـ/1883م)،  
21.

<sup>437</sup> نسبهُ ابن حجر لحسان لكنَّ الصَّحيح أنَّ قائلَهُ هو بكر بن النَّطَّاح؛ يُنظَر: الهيتمي، العُمدة، 202؛ محمَّد بن يزيد المبرِّد، الكامل في اللُّغة  
والأدب، تحقيق: محمَّد إبراهيم، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1417هـ/1997م)، 95/3.

العَدَارَى رمزًا للحياء فإنَّ رسولَ الله "أشدُّ حياءً من العذراءِ في خدرِها"،<sup>438</sup> وهكذا فهو بكلِّ فضلٍ أخرى وكلِّ حسنٍ فعنه يُروى؛ حيث يقول في هذا المعنى، وقد قام بتكبير أخلاقِ المصطفى عليه السلام وتووينها (صدق، بر، رافة، عفو) في إشارةٍ منه يُدللُّ بها على عظمةِ هذه الأخلاقِ وكما لها بعد أن دلت على إرادةِ التعظيمِ قرينةً تمجيدِ المادحِ للممدوحِ عليه السلام بأنَّه نظامُ المعالي الآتي بأصنافِ العلوم والأفضال:

نظامُ المعالي رُوحُ كُلِّ حقيفةٍ إمامُ النَّبِيِّينَ العِظامِ أبو الزَّهْرَا  
أتى بصنوفِ العلمِ والفضلِ والتقى وكان لفرطِ الفضلِ أحيًا من العذرا  
فأخلاقُه صدقٌ وبرٌّ ورافةٌ وعفوٌ به من كلِّ ذي قُدرةٍ أخرى<sup>439</sup>

ويُلحظُ إتيانه بمدحِ تلك الصفاتِ العليةِ رافلةً بقالبِ الجملِ الإسميةِ التي تُفيدُ ثبوتَ تلك الصفاتِ المجيدةِ ودوامها في ذاتِ الممدوحِ، كما شُفِعَ عجزُ البيتِ الأخيرِ بأسلوبِ الإطنابِ عبر الاحترازِ بأنَّ الممدوحَ كان عفواً عن قُدرةٍ، فلا يتأتَّى للأذهان أن يتسرَّبَ إليها أنه عفوٌ من غيرِ قُدرةٍ.

ولمَّا ورَدَ البوصيريُّ موردَ المدحِ لصفاتِ النَّبيِّ الأكرمِ أتى لها بتشبيهاتٍ مُفصَّلةٍ مُرسَّلةٍ، فجعل جمالَ المصطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالزَّهرِ وعلوَّ مقامِهِ ومكانتِهِ كالبدْرِ وكرمه كالبحرِ وقوَّةَ عزمَتِهِ وشجاعَتِهِ كقوَّةِ أهلِ الزَّمانِ أجمعِهِم،<sup>440</sup> فقال:

كالزَّهرِ في ترفٍ والبدرِ في شرفٍ والبحرِ في كرمٍ والدَّهرِ في همِّ<sup>441</sup>

<sup>438</sup> محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، إعداد: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1409هـ/1989م)، 467.

<sup>439</sup> د.ر.ب، 23.

<sup>440</sup> يُنظر: الهيثمي، العمدة، 298.

<sup>441</sup> شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، الكواكب الدررية في مدح خير البرية، تحقيق: يوسف النبهاني، (طنجة: دار الحديث الكائنية، د.ت)،

لكنَّ أبا الهُدَى لم يشأ في مدحِهِ أن يجعلَ لهذه الأخلاقِ شبيهاً يُشَبَّهُ بهِ أبداً، إذ لَمَّا وَرَدَ مَدَحَ شَجَاعَةِ المصطفى وشِدَّةِ عزمِهِ وعزيمَتِهِ وفيضِ كرمِهِ، راحَ يُسائلُ نفسَهُ ويخرجُ بهذا الاستفهامِ عن مقتَضاهُ الحقيقيِّ، ومرادُهُ من ذلك إظهارُ شيءٍ من التَّعظيمِ والتَّفخيمِ لصفاتِ الجَنابِ النَّبويِّ، إذ ما هيبةُ مُدَلِّهِمِ الدِّياجي ورَهْبَتُها؟ بجانبِ مناقبِهِ، وما هيبةُ القِفارِ بِجَحافلِ عساكرِها؟ أمامَ الهيبةِ العظيمةِ لذاته الشَّريفةِ، وما شجاعةُ الضَّرغامِ المنتَفِضِ؟ إذا ما لاحَت شجاعةُ النَّبيِّ الأكرمِ، وما همَّةُ أهلِ الزَّمانِ؟ وما فيضُ سخاءِ البحرِ؟ بل من هم سادَةُ الدُّنيا والآخِرَةِ؟ مُقابلَ هذا السَّيِّدِ العَظيمِ الأَفخَمِ،<sup>442</sup> ومضى مُتتابعاً باستعارةٍ جعلت كلَّ مَنْ ذُكِرُوا قد أعارَهُم المصطفى جناحاً من أخلاقِهِ التي أكرمَهُ اللهُ بها، وبهذا الجناحِ المصطفويِّ حلَّقوا طائرين في سماءاتِ الفضائلِ والمحاسِنِ:

وبأسُ عزمِكَ كم آثارُهُ نَشَرَتْ من عالمِ الطَّيِّ أحكاماً وأدواراً  
 ما الخيلُ ما اللَّيلُ ما البيداءُ<sup>443</sup> إن قَعَلْتِ بالجُنْدِ ما الأسدُ الضَّاري إذا نارا  
 ما الدَّهرُ ما البحرُ ما الدُّنيا وضرُّها إذ كُلُّهُم بِجَنَاحٍ منك قد طارا<sup>444</sup>

وفي ميدانِ هذا المحورِ كان أبو الهُدَى يهتُمُّ بمدحِ المكانةِ العاليةِ والخصائصِ المحبِّوبِ بها هذا النَّبيِّ الكريمِ عليه السلام، مُستلهمًا ذلك مما وردَ في كُتُبِ السَّيرَةِ النَّبويَّةِ، فهو النَّبيُّ الذي رَجَا جُدَّهُ بتسميته أن "يحمَدَهُ أهلُ السَّماءِ والأرضِ" وكان له ذلك، إذ لكثرةِ الخصالِ الشَّريفةِ والصِّفاتِ المُنيقةِ التي تجمَعُ

<sup>442</sup> لعلَّه اقتَبَسَ هذا المعنى من الحديثِ الذي رواه بإسنادٍ جيِّدٍ قوِيَّ ابنُ كثيرٍ وأبو يَعلى وابنُ عساكرٍ وأبو نعيمٍ وغيرُهُم من قولِ الملائكةِ لبعضِهِم في حادثةِ شَقِّ صدرِهِ الشَّريفِ عليه السلام: "دَعُوهُ فَلَوْ ورنتموه بأَمَنته كلَّها لَرَجَحَهُم"؛ يُنظر: جلالُ الدِّينِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بَكْرٍ الشُّبُوطيِّ، الخصائصُ الكُبرى (بيروت: دارُ الكُتبِ العلميَّةِ، د.ت)، 96/1؛ ابنُ كثيرٍ، البدايةُ والنهايةُ، 413/3.

<sup>443</sup> يظهر في هذا البيت ما يُسمِّيه البلاغيُّون بالتَّشابُه، فهو -على اختلافِ بينِ الغرضين- قَريبٌ من قولِ المتنبي:

"الخيَلُ واللَّيْلُ والبيداءُ تعرفني والسَّيْفُ والرُّمْحُ والقرطاسُ والقَلَمُ"

يُنظر: حَبَّكَة، البلاغةُ، 2/555؛ أحمدُ بنُ الحسينِ المتنبيِّ، ديوانُ المتنبيِّ (بيروت: دارُ بيروت للطباعة، 1403هـ/1983م)، 332.

<sup>444</sup> د.ف.م، 37.

كلُّ ما تفرَّقَ منها في ذاتِهِ اللَّطِيفَةِ، صارَ مُحَمَّدُ الأَرْضَ مَحْمُودَ السَّمَاءِ، والرَّسُولُ الَّذِي أَنشَأَ عَلَيْهِ اللهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِلِ حَتَّى فِي الزَّبُورِ - حَسَبَ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ السِّيَرِ -<sup>445</sup>

مُحَمَّدُ الأَرْضِ مَحْمُودُ السَّمَاءِ أَحْيَدُ<sup>446</sup> الكُلِّ أَحْمَدُ أَهْلِ الجَاهِ وَالشَّانِ  
 بَحْرُ المَكَارِمِ سُلْطَانُ الأَكَارِمِ عِيدُ<sup>447</sup> الكَائِنَاتِ مُعِينُ العَاجِزِ العَاقِبِ  
 أَشْتَاتُ أَشْرَفِ أَنْوَاعِ الصِّفَاتِ بِهِ<sup>448</sup> بَجَمَعَتِ فَهُوَ مَوْلَى كُلِّ بُرْهَانِ  
 وَجَاءَ يُذَكِّرُ فِي الإِنْجِيلِ مَظْهَرُهُ<sup>449</sup> مَعَ التَّنَا بِرَمُوزٍ بَعْدَ تَبْيَانِ  
 وَفِي الزَّبُورِ وَفِي التَّوْرَةِ مِدْحَتُهُ<sup>448</sup> مَسْطُورَةٌ وَلِسَانُ المَدْحِ رَبَّانِي

ثمَّ يَسْتَطِرِدُ فِي مَدِيحِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصَوِّرًا أَهْلَ الأَرْضِ وَهَمَّ يَفَاخِرُونَ بِهِ مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ، بِلِ إِنَّ العِبْرَاءَ لَتُفَاخِرُ فِيهِ الحِضْرَاءُ وَتَعْلُو عَلَى ثُرَيَّاها بِالنَّزْرِ الَّذِي ضَمَّهُ، وَيَحَاوِلُ أَبُو الهُدَى بِاقْتِبَاسِهِ لِلآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ المَعَانِي المَجْرَدَةِ فِي الآيَاتِ صُورًا حَسِيَّةً تُمَثِّلُ أَمَامَ النَّاظِرِ فِينجَلِي مَعْنَاهَا بِصُورَةٍ أُخْرَى تَطْبَعُ فِي الأَذْهَانِ مَا قَامَ فِي عَمقِ ذَاتِهِ وَنَفْسِيَّتِهِ مِنْ تَعْظِيمِ لِحُصُوصِيَّاتِ رَسولِ اللهِ، فَعَمَدَ إِلَى الآيَةِ الَّتِي اخْتَصَّ اللهُ بِهَا نَبِيَّهُ بِالْحِفْظِ وَالْحِمَايَةِ بِقَوْلِهِ مُحَاطِبًا لَهُ: "وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"،<sup>449</sup> فَجَعَلَ مِنْ مَعْنَى العِصْمَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الآيَةِ قَلْعَةً حَفِظَ وَرَعَايَةَ رَبَانِيَّةِ سُورَتِ بُجْدِرَانِهَا الطَّلَعَةَ البَهِيَّةَ لِهَذَا النَّبِيِّ الأَكْرَمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَصَمَتْهُ وَصَانَتْهُ مِنْ كُلِّ طَارِقٍ شَرٍّ:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ) اِحْتَاطَتْ بِطَلْعَتِهِ لِلْحِفْظِ مِنْ كَيْدِ ذُرَى زُورٍ وَجُهْتَانِ

<sup>445</sup> يُنظَرُ: عَلِيٌّ بِنُ إِبرَاهِيمِ الحَلِيبِيِّ، إِنْسَانُ العِيونِ فِي سِيرَةِ الأَمِينِ المَأْمُونِ (بِيرُوتِ: دارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، 1427هـ/2006م)، 307/1.

<sup>446</sup> أَصْلُهُ مِنَ الفِعْلِ حَادَ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْنِي الَّذِي يَمْنَعُ نَارَ جَهَنَّمَ عَنِ أَقْتَبِهِ وَبِمِيلِ بَهْمِ عَنُهَا، يُنظَرُ: الحَلِيبِيُّ، سِيرَةُ الأَمِينِ، 307/1؛ ابْنُ مَنْظُورٍ، "حِيدٌ"، 159/3.

<sup>447</sup> الأَسِيرُ، يُنظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "عَنَا"، 101/15.

<sup>448</sup> د.ف.م، 55.

<sup>449</sup> المائِدَةُ، 67/5.

سُلْطَانُ حَضْرَةِ قُدْسٍ ضِمْنَ حَضْرَتِهِ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مُلْكٌ سُلَيْمَانِي  
بَاهَتْ بِهِ النَّاسُ أَمْلَاكَ السَّمَا شَرْفًا وَالْأَرْضُ سَامَتْ دُرَى الْعَلْيَا بَعْلَوَانِ<sup>450</sup>

وفي البيت الثاني مَدَحَ الخصوصية التي اُخْتَصَّ بها رسولُ الله من العروجِ إلى حضرةِ القُدسِ الأقدسِ في سَمَاوَاتِ الْعُلَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ وَمَا أَكْرَمَهُ بِهِ رَبُّهُ مِنْ جَزِيلِ الْعَطَايَا وَتُحْفِ الْإِكْرَامَاتِ الَّتِي لَمْ يُعْطَهَا مَخْلُوقٌ قَطًّا، وَيُلَمَّحُ فِيهِ أَيْضًا كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَبُو الْهُدَى أَنْ يَصِلَ بِهَذَا الْمَعْنَى الْمُرَادِ إِلَى الدَّرْوَةِ الْقَصْوَى مِنْ خِلَالِ الْكِنَايَةِ الَّتِي أَتَى بِهَا (مُلْكٌ سُلَيْمَانِي)، وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنْ مُلْكٍ لَمْ يُعْطَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، كَالَّذِي طَلَبَهُ نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ مِنْ رَبِّهِ فَأَعْطِيَهُ -لَمَّا قَالَ: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"<sup>451</sup>-، فَجَاءَ أَبُو الْهُدَى بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ وَلَمْ يَجْعَلْ حَضْرَةَ الْإِكْرَامِ الَّتِي نَالَهَا النَّبِيُّ مُلْكًا سُلَيْمَانِيًّا بَلْ جَعَلَ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا مُلْكًا سُلَيْمَانِيًّا لَمْ يَنْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ؛ وَأَمَّا الْمَعْنَى الَّتِي تَضَمَّنَهُ الْبَيْتُ الْأَخِيرُ فَقَدْ سَاقَهُ مُكْرَّرًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَقَالَ:

لَقَدْ تَاهَتْ الْأَفْكَارُ فِي طَوْلِ<sup>452</sup> سِرِّهِ وَبَاهَتْ بِهِ الْخُضْرَاءُ فِي مَجْدِهَا الْعَبْرِ<sup>453</sup>

وَلَيْنَ كَانَ أَبُو الْهُدَى قَدْ اتَّخَذَ مِنَ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ مُلْهِمًا لِمَدْحِهِ، فَقَدْ اسْتَلْهَمَ - كَمَا ظَهَرَ أَنْفَاءً - الْكَثِيرَ مِنَ الْمَعَانِي وَالصُّوَرِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَدْحُهُ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ بِأَنَّهُ (الْأُذُنُ الْوَاعِيَةُ) الَّتِي

450 د.ف.م، 55.

451 ص، 35/38.

452 من العلو والفضل والسعة، يُنظَر: ابن منظور، "طول"، 414/11.

453 د.ر.ب، 23.

امتلاّت فهماً لأسرار القرآن، وهو اقتباسٌ من قوله تعالى: "وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ"،<sup>454</sup> "وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاَعِيَّةٌ":<sup>455</sup>

وَأَنْتَ دَائِرَةُ الْعِلْمِ الْمُقَدَّسِ وَالْ (أُذُنٌ) الَّتِي كَلَّ أَسْرَارِ الْكِتَابِ وَعَتَّ<sup>456</sup>

ومن ذلك أيضاً ما جاء به لَمَّا مَدَحَ أَسْمَى خَصَائِصَهُ الشَّرِيفَةَ وَهِيَ رِسَالَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي بَلَّغَهَا لِلبَشَرِيَّةِ فَنَوَّرَ الظُّلُمَاتِ بِهَا وَرَفَعَ رَايَاتِ الْعَدْلِ وَالهُدَى فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَاسْتَلْهَمَ أَبُو الْهُدَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ"<sup>457</sup> فَذَكَرَهَا مِنْ بَيْنِ خَصَائِصِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، فَقَالَ مَادِحًا مُضْمِنًا لِأَبْيَاتِهِ الْاسْتِعَارَةَ الْمَكْنِيَّةَ لَمَّا أَتَى لِلظُّلْمِ بِوَصْفِ الْحُجُبِ الَّتِي تُمَزَّقُ بِيَدِ مَمْدُوحِهِ الْأَكْرَمِ، وَأَتَى بِلَفْظَةِ (الْعَتَمِ) لِيُكْنِيَ بِهِ عَنِ الشَّرِكِ وَظُلْمَاتِهِ:

جَاءَ وَالنَّاسُ فِي ظُلَامٍ وَظُلْمٍ وَضَلَالٍ وَمُنْكَرٍ وَفَسَادٍ  
كَشَفَ الْعَتَمَ مَرَّقَ الظُّلْمَ أَهْدَى بِالْهُدَى لِلْقُلُوبِ نَوْرَ اعْتِقَادٍ<sup>458</sup>

ومن المعاني المقتبسة من القرآن ما استلهمه من قوله تبارك وتعالى لَمَّا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَن يَدْخُلُوا الْقَرْيَةَ وَأَمْرَهُمْ بِقَوْلِ "حِطَّةٌ"<sup>459</sup> لِتُغْفَرَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ، فَأَخَذَ أَبُو الْهُدَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ خِلَالِ اقْتِبَاسِ

<sup>454</sup> التوبة، 61/9.

<sup>455</sup> الحاقة، 12/69.

<sup>456</sup> د.ف.م، 46.

<sup>457</sup> آل عمران، 81/3.

<sup>458</sup> الصيادي، زاد القيامة، 4.

<sup>459</sup> يُظَر: البقرة، 58/2.

التلميح<sup>460</sup> ليصف النبي الكريم بباب حطّة تُغفر عنده ذنوب المؤمنين إذا ما قصدوه ليستغفر لهم، فقال:

شَمْسُ سَرَى فِي فِجَاحِ الْمُلْكِ لَامِعَهَا وَعَيْلَمٌ<sup>462</sup> أَعْرَقَ الْأَمْلَاكَ سَاجِمُهُ<sup>463</sup>  
فَالنَّاسُ وَالْمَلِكُ الْعُلُوِّيُّ جَحْفَلُهُمْ<sup>461</sup> بِيَابِ حِطَّتِهِ حُطَّتْ عَوَالِمُهُ<sup>464</sup>

والقارئ لهذه الأبيات يترك سمعة الجرس الموسيقيّ المُجَلِّج الذي اختاره الشاعر لئِنَسِبَ المعنى المدحِيّ الذي أرادَهُ، وتكاد الكلمات تترك بعاطفة المحبّة المتأججة في جوانح أبي الهدى، فهو يبسط للعيون صورة المدح للحبيب الكريم صلّى الله عليه وسلّم ويُنسبُه بالشَّمس التي سَطَعَت أنوارها في فضاء ملك الله، وبالبحر الكبير الذي عمّت هوائها أنوار رسالته العوالم الدنيويّة والعُلويّة، لذا فكلُّ البرايا تقف بأدبٍ على أعتابِ بابه العالي يرجون رحمة الله باستغفار نبيّه لهم، ويبدو أنّ جاء بهذا المعنى مُعتمداً باقتباسه على قوله تبارك وتعالى: "وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا"،<sup>465</sup> لذا فقد كرّر المعنى في موضع آخر، مُضيفاً إليه وصفاً آخر لهذا الباب، ومادِحاً للحبيب بخصوصيّة قَسَم ربِّ العالمين بِعَمْرِه الشَّرِيف كما جاء في قوله تعالى: "لَعَمْرِكَ إِنَّهُمْ لَنفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ"،<sup>466</sup> فخاطب النبي الكريم مادِحاً:

<sup>460</sup> يُنظر: عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة، البلاغة العربيّة (دمشق: دار القلم، 1416هـ/1996م)، 536/2.

<sup>461</sup> الجحفل هو الجيش الكبير وتجحفل النَّاس أي تجمّعوا، ولعلّ المقصود في البيت جمْعُهُم الكبير، يُنظر: ابن منظور، "جحفل"، 102/11.

<sup>462</sup> بحر، يُنظر: ابن منظور، "علم"، 421/12.

<sup>463</sup> سيّأله، وأصله من سَجَمَ بمعنى سأل وأمطر، يُنظر: ابن منظور، "سجم"، 280/12.

<sup>464</sup> د.ف.م، 44.

<sup>465</sup> التّساء، 64/4.

<sup>466</sup> الحجر، 72/15.

أنت والله الذي في بابِه عَظَمَ العَابِي<sup>467</sup> وَذَلَّ العُظَمَا  
 أنت والله الذي شَأْنًا لَهُ فِيهِ حَلَّاقُ البرَايَا أَقْسَمَا  
 أنت والله رُؤُوفٌ كَلَّمَا جَاءَ بِالذَّنْبِ مُحِبٌّ رَحِمَا<sup>468</sup>

ولأنَّ المقامَ مقامَ بسطِ المدحِ للجنابِ النَّبويِّ ومخاطبتهِ فقد أطنبَ أبو الهُدَى بأسلوبِ التَّكرارِ اللَّقسَمِ  
 وضميرَ الخطابِ في الأبياتِ إمعانًا منه في ذكرِ تفصيلاتٍ جديدةٍ عند كلِّ تكرارٍ ليحلوا لدى الأسماعِ  
 تأكيدُ مديحه للجنابِ النَّبويِّ الأكرمِ، ثم عرَّجَ على وَصِفِ بابِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبابِ الذي  
 يتساوى عند أعتابِ عدالتِهِ جميعُ الخلقِ، فيُعزُّ كلُّ صاحبِ حقٍّ وإن كان ذليلاً، وَيصعُرُ كلُّ مَنْ عدلَ  
 عن الحقِّ وإن كان عظيمًا؛ وقد كَرَّرَ مدحَ عدالةِ النَّبيِّ الكريمِ بما يقربُ من هذا المعنى حينما قال  
 مُستعملاً الجنسَ (مَهَّدَ/مَهَّدَ) والطَّباقَ (العبد/الحرَّ):

ومَهَّدَ مَهَّدَ الأَمَنِ للنَّاسِ كُلِّهِمْ ففي الحقِّ سَاوَى العَبْدُ بَيْنَ المَلَا الحُرِّ<sup>469</sup>  
 وقد يسترعي الاهتمامَ -من كلِّ ما سبقَ- أَنَّ النَّصيبَ الأوفى في هذا المحورِ انصبَّ أكثرُهُ  
 على مدحِ الصِّفَاتِ الخُلُقِيَّةِ، على أَنَّ أبا الهُدَى لم يكن ليُهْمَلِ الصِّفَاتِ الخُلُقِيَّةِ تمامًا، فقد تحلَّلَ  
 قصيدتهُ في السِّيرةِ النَّبويَّةِ -زاد القيامةَ- قِطْعَةً ضَمَّتِ اقتباساتٍ مما انتثرَ من أوصافٍ للمصطفى عليه  
 السلام في كُتُبِ الشَّمائِلِ النَّبويَّةِ، من وصفِ وجهِهِ وعينِهِ وعُنُقِهِ وطُولِهِ ومَشِيهِ، حيث قال في تضاعيفها  
 المدحيَّة:

وجهُهُ طالِعُ الصَّبَّاحِ يفيضُ النُّورُ من لَمَعِ ضَوئِهِ الوَقَادِ

<sup>467</sup> الأسير، يُظَر: الجوهري، "عنا"، 2440/6.

<sup>468</sup> د.ف.م، 50.

<sup>469</sup> د.ر.ب، 24.

أَبْيَضُ الْإِبْطِ لَمْ يُخَامَرَ<sup>470</sup> بِلَوْنٍ      مِثْلَمَا النَّاسِ حُسْنُهُ ذُو انْفِرَادٍ  
رَبْعَةٌ كَانَ إِنْ وَصَفْنَاهُ لَكِنْ      هُوَ إِنْ قَامَ أَطْوَلَ الْأَفْرَادِ  
غَيْرُ ذِي أَحْمَصٍ<sup>471</sup> لَهُ قَدَمٌ قَدْ      تُفْرِغُ اللَّيْنَ فِي الصُّخُورِ الصِّلَادِ<sup>472</sup>  
وَلدى مَشِيهِ الْأَرْضِ تُطَوَى      فَيْرَى الْإِقْتِرَابُ فِي الْإِتِّعَادِ  
أَزْهَرُ اللَّوْنِ جَيِّدٌ الْجَيِّدِ وَالْوَجْدِ      بِأَحْدَاقِهِ لَطِيفُ السَّوَادِ<sup>473</sup>

ولربما لم تكن بغية الأبيات إلا نظم المنشور من شمائل المصطفى الخليفة التي جاءت عن الصحابة الكرام من أنه عليه السلام كان "أزهر اللون، وله نورٌ يعلوه"،<sup>474</sup> مربوعاً لا بالطويل ولا بالقصير،<sup>475</sup> جميل العنق كأنَّ جِيدَهُ جَيِّدٌ دُمِيَّةٌ فِي صَفَاءِ الْفِضَّةِ،<sup>476</sup> وما روي من صفة بياض إبطيه،<sup>477</sup> وطَيَّ الْأَرْضِ لَهُ، وممدح أبي الهُدَى لجمال العينين بالسَّوَادِ، وإطنابه بأسلوب الاحتراز بأنه سوادٌ لطيفٌ - فلا يتسرَّب إلى ذهن السامع أنَّه سوادٌ من عِلَّةٍ أو داءٍ-، وبهذا الاحتراز يبرز حرصُ أبي الهُدَى على الإتيان بالمعنى الذي وُصِفَ به النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ بأنه كان أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ وليسَ بِأَكْحَلِهِمَا؛<sup>478</sup> وعلى الرَّغْمِ من اندراج الأبيات هذه ضمن قالب المديح النبوي، لكنَّ من الممكن ملاحظة اقترابها من الوصف المنظوم أكثر

<sup>470</sup> خالط وداخل، يُنظر: أحمد مختار، "خمر"، 659/1.

<sup>471</sup> الأخص من القدم هو الموضع الذي لا يلتصق بالأرض عند الوطء لها، وهي صفةٌ مخصوصةٌ من صفات الحسن التي حُصِّ بها النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ؛ يُنظر: أحمد بن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشَّمائل، تحقيق: أحمد الزبيدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998م)، 68.

<sup>472</sup> الحجارة الصلبة الملساء، يُنظر: الجوهري، "صلد"، 498/2.

<sup>473</sup> الصيادي، زاد القيامة، 7.

<sup>474</sup> يُنظر: الترمذي، الشَّمائل المحمديَّة، 22.

<sup>475</sup> يُنظر: الترمذي، الشَّمائل، 16.

<sup>476</sup> يُنظر: الترمذي، الشَّمائل، 22.

<sup>477</sup> يُنظر: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشَّيباني، المُسنَد، إعداد: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421هـ/2001م)، 43/22، (رقم 14138).

<sup>478</sup> يُنظر: الترمذي، الشَّمائل، 136؛ ومعنى أكحل الأولى من الكحل وهو سوادٌ خلقيُّ يعلو منابت أهداب العين، والثانية من الكحل المعروف، يُنظر: الزبيدي، "كحل"، 317/3.

من شعر المديح، إلى جانب ما أُردفت به هذه الأوصاف من خصائص جلاها أبو الهدي لما أطنب بأسلوب الاحتراز، فالنبي الكريم وإن كان (ربعةً) فقد كان يعلو كل من قاربه مهما كان طولُه، وهو وإن كانت عيناه دعجواتان فإن السواد الذي فيهما (لطيفٌ) يزيدُ حسنهُ حسناً.

ويستجمع أبو الهدي كل ما سبق من المعاني الفضيلة والصفات الأثيلة التي طواها الله في أكرم العباد، والمصطفى المختار من جملة الأجواد، فيخاطبه مادحاً:

جَلَسْتَ عَلَى مَنْصَةِ كُلِّ فَضْلٍ      لَدَيْكَ مَلُوكٌ رُتِبَتْهَا قِيَامٌ<sup>479</sup>  
وَيَخَاطِبُهُ عَلَى ذَاتِ الْمَنَوَالِ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلاً:

فَأَنْتَ رُوحُ بَنِي الدُّنْيَا وَعَيْنُ بَنِي الْـ      أُخْرَى وَأَعْظَمُهُمْ شَأْنًا وَمَقْدَارًا  
بَسَطْتَ ذِكْرًا جَمِيلاً رَكِبَ مِدْحَتِهِ      فِي كُلِّ فَحٍّ عَمِيقٍ طَيِّبٍ سَارًا<sup>480</sup>

وقد لا يُتعدُّ عن الصواب إذا ما قيل إنَّ أبا الهدي اختصر كل ما أسلف ذكره من معانٍ بهذا المحور في هذين الموضعين، إذ في الأوَّل استعار -استعارةً تصريحيَّةً- للفضائلِ مَنْصَةً وملوكًا يملكون زمام أعاليتها ومدح النَّبيِّ العظيم عليه السلام بأنَّه الجالسُ على تلك المنصَّة والمتربِّع على عرشها وأساطينُ ملوك الفضائلِ متواضعون متضائلون أمام فضله وقدره العالي؛ وأمَّا الموضع الثَّاني فيلاحظُ في البيت الأخير منه أنَّ ما تحتملُه الكلمات من معانٍ تترك خيالَ القارئ ليسرَّحَ حقيقةً في دروبٍ طويلةٍ ممتدَّةٍ تنتشر على أطرافها حلاً جمالِ هذا النَّبيِّ الأكرم عليه السلام، ولعلَّ هذا ما أرادَه أبو الهدي من استعارته للذكر النَّبويِّ العطرِ وصفَ البساطِ الذي يمتدُّ على مَرِّ الأيامِ والدُّهورِ، واستدعى للمدحِ استعارةً تصريحيَّةً

479 د.م.ش، 221.

480 د.ف.م، 37.

جعلت منها ركبًا يسير، في كلِّ ما تتخيَّله العقول من فجاجِ الحُسنِ والجمالِ الوهبيِّ الإلهيِّ الذي حُقَّ لصاحبه المصطفى عليه السلام أن يكون به أعظمِّ العالمين في الدارين.

وعلى الرَّغمِ من أنَّ (عاطفة المحبَّة) عند الشَّاعر لم تكن لتخفى بين جميع أبيات المدح فقد خلغَ عليها أسبغَ حُللِ مشاعر المحبَّة الصادقة، إلا أنَّ بوحه بفيضانها ووصفه لهدير موجها في صدره عبرَ أبياتٍ مُستقلَّةٍ في ثنايا هذه المدح، يجعل من الكلام عليها جزءًا ثانيًا لهذا المحور المدحي.

ولربَّما كانت انعطافاتُ أبي الهُدَى بين أجزاءِ مدحه وتعريجه نحو البوح بعواطفه أشبه ما يكون بما أطلقَ عليه أحد علماء النَّفس مُسمًى "الوثبات النَّفسية" عند الشَّاعر، إذ في طريقِ نظمه للقصيدَة لا يُمكنُ أن تنسابَ إليه أبياتها كلها بدفقةٍ واحدة، بل إنَّ نفسيته تثبُّ إلى مجموعةٍ من الأفكار والعواطف فتُبدعُ في وصفها أبياتٍ معدودةٍ قد تطول أو تقصر، ثم ما تلبث أن تقفَ قليلًا لتعود مرَّةً أخرى إلى جملةٍ جديدةٍ من الأفكار والمعاني، وهكذا دواليك إلى أن يُفرغَ الشَّاعرُ كلَّ ما في جُعبته من الأفكار والأحاسيس.<sup>481</sup>

وقد كان بوحه بعواطفِ المحبَّة مُتنوعًا ومُتعدِّدًا على وجوه، فتارةً تكلمَ بلسانه مُخاطبًا النَّبيِّ الأكرم عليه السلام ليُعبرَ عن حاله الخاصِّ وتفرُّده بمحبته لمحبيه النَّبيِّ الفريد في شؤوناته وأوصافه، كقوله:

أنتَ الوحيدُ بشأنِهِ وصِفَاتِهِ وأنا بِحُبِّكَ في الأنامِ وحيدُ  
كم صيغَ من شعري لِحُسْنِكَ سيدي عقدُ تنظَّم في القريضِ نضيدُ  
ولقد ملأْتُ بكِ الدَّفَاتِرَ ناثِرًا دُرًّا ومنكُ به تحلَّى الجيدُ<sup>482</sup>

<sup>481</sup> يُنظر: مصطفى سويف، الأسس النَّفسية للإبداع الفُتحي في الشعرِ خاصَّة (القاهرة: دار المعارف، 1959م)، 226.

<sup>482</sup> د.ت.ب، 32.

فقد أتى في البيت الأوّل بالجملة الإسميّة الدّالة على الثّبوت والاستمرار في حقيقة تفرّد شؤونات ممدوحه (أنت الوحيد)، ولم يشأ لها إلا أن ترفل بأسلوب الحصر -لَمَّا حَلَّى الخبير المُسنَد (الوحيد) بلام التعريف- لتنطبع في ذهن السّامع عظمة مخاطبه الممدوح الأكرم عليه السلام ولتستبين حقيقة شؤوناته المُتفرّدة، ثم التفت من الخطاب إلى التّكلم عن ذاته فساق بالجناس (الوحيد/وحيد) ما يوضّح تفرّده هو الآخر في الهيام بممدوحه الفريد؛ ثم خرّج في البيت الثّاني بالاستفهام عن مقتضاه الظاهر إلى معنى الإخبار عن كثرة مدحه لمخاطبه الكريم، فبدأ كأنه يستعطفه، إذ هو الذي نظم الأشعار في مدحه عقوداً من الجوهر، ونثر بأوصافه ومن فياض بحر حسنه الدرر الحسان؛ وقد ضمت أبياته استعارةً تصريحيةً يجعله من حروف شعره عقداً نضيداً، ثم أردفت الاستعارة بالتشبيه البليغ في البيت الأخير فانتقل من توصيف شعره المدحي إلى نثره فجعل منه ذرّاً تتحلى بحلى جوده الأجياد.

وقد يتكلّم بلسان الرّمز ويخاطب النّبّي الأكرم بصيغة الجمع مُعظّماً مُبجّلاً دون أن يذكر اسمه، ويقصر أبو الهدى الكلام في أبياته على وصف صادق أحاسيسه ومشاعره، مما يترك في انطباع القارئ تصوّراً لتلك المحبة العظيمة التي هدّرت أمواجها في تحيط روح الشّاعر، بعدما كساها حُلةً بيانيةً ضافيةً من الاستعارات والكنايا والمحسنات البديعية -من جناس ناقص (فرّق/فرق) واشتقائيّ (بصارعنا/يصرعنا)، وطباق التّضاد (جمع/فرق)-:

متى شمّ الحبُّ لكم نسيماً	تلت عيناه آي المرسلات
عشقناكم ولا عتب علينا	فكلُّ اللطف في تلك الصّفات
لكم بقلوبنا ولةٌ مُلحّ	أحدٌ من السّيوف الماضيات
يُصارعنا فيصرعنا بجمع	لَهُ فَرَقٌ طَوَى فِرَقَ الشّتات <sup>483</sup>

<sup>483</sup> د.ر.ب، 11.

وتكاد هذه الأبيات تجلي أمام مُتأملِها صورةً تحكي لَه حالَ العاشِقِ الصَّادِقِ الوالِه بأشرفِ المخلوقين عليه السلام، فنسيْمُ ذِكْرِ المحبِوبِ الأعظَمِ عليه السلام إذا ما مرَّ شَدا عِطْرِهِ بالمحِبِّ فَإِنَّ عَيْنِيهِ لتفيضان بسيلِ الدُموعِ التي تَرَشَّحَتْ من لَهيبِ حَشَاشَةِ المُحِبِّ المُتَقَدِّدَةِ شوقًا، فاستعارَ لهاتين العينين -استعارةً مكنيَّةً- وصفَ التَّالي للقرآن الكريم، وكَتَى بسورةِ المُرسَلات عن استرسالِ سبيلِ دموعِهِ شوقًا لمعشوقِهِ العظيم الذي لا يُلامُّ على فرطِ هيامِهِ وعشقِهِ له فقد تجمَّعت أَشْتاتُ الفَضائلِ ومحاسِنُ الشَّمائلِ في ذاتِهِ الشَّرِيفَةِ، ثم يَلْتَفُتُ من تصويرِ الحَالَةِ الخَارِجِيَّةِ مُنتَقِلًا إلى تصويرِ الحَالَةِ الدَّاخِلِيَّةِ في أعماقِ نَفْسِهِ، وينتقي بِدِقَّةٍ الوصفَ الأعلى من العشق وهو "الولَه"،<sup>484</sup> ثم يُضْفِي على هذا الولَه -بالاستعارةِ المكنيَّة- وصفَ المحارِبِ المُصارِعِ الشَّدِيدِ البأسِ، ويسترسِلُ باستطرادٍ يصفُ فيه هذا الولَهَ بأنَّهُ ولَهٌ مُتَقَدِّدٌ اشْتَدَّتْ سَوْرَتُهُ في سويداءِ قلبِهِ حتى صارتَ أَحَدًا من السُّيُوفِ البواتِرِ، فكأنَّ ساحةَ قتالٍ قد قامت في أرجاءِ هذا القلبِ فصَرَغَ الولَهُ كلَّ ما سواه من الأوصافِ والمشاعِرِ الأخرى، حتى صارَ قلبًا خالصًا صِرْفًا للمحبِوبِ الأعظَمِ عليه السلام، ومما يسترعي الانتباه في البيت الأخير اصطلاحًا "الجمع والفرق"، فلربما كان أبو الهُدَى يريدُ أن يُعبِّرَ عما يفعله هذا الوله من تهيؤٍ لتلقِّي الإحسان والكرم الرِّبائِيِّ للعبد الذي تَمَكَّنَ في قلبِهِ خالصُ الحَبَّةِ، فيجتمعُ عليها بعد أن كان مُفترقًا عنها بما سواها؛<sup>485</sup> وهذه المعاني التي انطوى عليها البيت الأخير تُبرِّزُ أثرَ التَّصَوُّفِ في شعرِ الشَّاعِرِ بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ. ولربما تمثَّلت هذه المحبَّة بلسان التَّفديَّةِ للحبيب الأكرم عليه السلام، بل تعدَّت تلك التَّفديَّةُ حاكيةً أسمى ما وصلَّت إليه المحبَّة الصَّادِقَةُ الخالِصَةُ عند الشَّاعِرِ، فَلَمَّحَ كان خالد بن الوليد رضي الله عنه قد قَدَفَ بروحِهِ وسطَ المعامِعِ كي يستردَّ مَغْفَرًا فيه شعراتٌ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّ أبا الهُدَى لِيَفدي بروحِهِ

<sup>484</sup> شِدَّةُ الوجدِ إلى درجةٍ يكادُ يفقدُ فيها الوالِهَ عقلَهُ لفرطِ محبَّتِهِ، يُنظَرُ: الجوهري، "وله"، 2256/6.

<sup>485</sup> يُنظَرُ: الجرجاني، التَّعريفات، 82.

عُبَارًا مَسَّ نَعْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذ يَرَاهُ بَعَيْنَيْهِ الْوَاهِتَيْنِ عُبَارًا شَرِيفًا فَاقَ التَّبَرَ وَأَزْرَى بِالْأَمْلَاسِ وَالذَّرَّ عِنْدَ كُلِّ  
مُحِبِّ وَالِهِ، فَرَاخَ يَقُولُ:

رُوحِي فِدَاءُ تَرَابِ نَعْلِكَ إِنَّهُ شَرَفًا يَفُوقُ عَصَائِمَ الْأَمْلَاسِ  
أَنَا مِنْ عِلَاقَاتِ الْوَرَى عَارٍ وَمِنْ أَمْرَاطِ حُبِّكَ بِالْمَفَاخِرِ كَاسِي<sup>486</sup>

وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي أَوْضَحَ أَبُو الْهَدَى حَالَهُ فِي الْمَحَبَّةِ فَجَعَلَ مِنَ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تَرِبُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ثِيَابًا  
تُكْسَى، لَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ لِدَاتِهِ أَنْ تَكْتَسِيَ بِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الثِّيَابِ، فَاسْتَعَارَ -اسْتِعَارَةً تَصْرِيحِيَّةً- لِمَحَبَّتِهِ  
لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ وَصَفَ الْكِسْوَةَ، فَأَبَانَ عَنْ كَوْنِهِ عَارٍ مِمَّا سِوَى تِلْكَ الْكِسْوَةِ الْفَخْرِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْجَنَابِ  
الْأَفْحَمِ النَّبَوِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي بَرَزَتْ فِيهَا جَلِيلَةٌ عَاطِفَةٌ الْمَحَبَّةِ، مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَبُو الْهَدَى بِلِسَانِ جَمِيعِ الْمَحِبِّينَ  
لِلنَّبِيِّ الْمَصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجَعَلَ أَرْوَاحَ الْمَحِبِّينَ بِنَفْطَرَتِهَا يَتَمَلَّكُهَا الْحَنِينَ وَيَسُوقُهَا سَائِقُ الشَّقِّ إِلَى هَذَا  
الْحَبِيبِ وَلَا يَدَعُ فَهُوَ حُجَّةُ الدِّيَانِ وَمِثَالُ الْقُرْآنِ، فَكَيْفَ لِلْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ أَلَّا تَهَيِّمَ بِذِكْرِهِ وَتَتَنَعَّشَ  
بِجَمِيلِ أَوْصَافِهِ:

حَبِيبٌ لَهُ الْأَرْوَاحُ حَنَّتْ بِكُونِهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ عَنْ ذِكْرِهِ أَبَدًا صَبْرًا  
كَأَنَّ الْفَضَاءَ الْبَحْتَ وَالْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ صِحَافٌ لَهُ وَالْخَلْقُ وَجَدًا لَهَا تَقْرَأُ<sup>487</sup>

وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي يَبْلُغُ أَبُو الْهَدَى الشَّأْوَ الْقَصِيَّ فِي تَصْوِيرِهِ الْبَدِيعِ لِشُؤْنَاتِ الْمُؤَهِّمِينَ بِالْجَنَابِ النَّبَوِيِّ  
الَّذِينَ بَلَّغُوا أَسْمَى رُتَبِ الصِّدْقِ فِي مَحَبَّةِ الْحَبِيبِ الْأَكْرَمِ، فَإِذَا كَانَ عَاشِقًا لَيْلَاهُ يَقُولُ:

<sup>486</sup> د.م.ش، 128؛ والأمرات والمرط جمع واحد مرط وهي ملحفة يؤنزل بها، يُنظر: ابن دريد، "رطم"، 759/2.

<sup>487</sup> د.ر.ب، 22.

أريدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكأَمَّا تَمَثَّلُ لي ليلي بكلِّ سَبِيلٍ<sup>488</sup>

حيثُ خيالٌ ليلي لا يكادُ يفارقُ عيني مُحِبِّها وكأنَّه يراها أينما توجَّهَ في كلِّ الدُّروب، فهل ستكونُ حالةُ المحبِّينَ الصَّادقينَ بأقلِّ من هذا العاشقِ؟!، بل إنَّهم يرونَ الحبيبَ وأنوارَ رسالتهِ تملأُ الأكوانَ، حتى لَعِنَ الأَرْضَ والسَّماءَ وما بينهما ما هي إلا صحائفٌ يتملَّى بها المحبُّونَ فيقرأونَ منها سطورًا لا يسعُ شرحها إلا دموعُ الشَّوقِ والحبِّ والولِّه المنحدِرة من عيونهم. وبهذا يكونُ أبو الهُدَى في مدحِهِ جَمَعَ بين الكلامِ على حالتهِ العاطفيَّةِ وصدقِ محبِّتهِ للنَّبِيِّ الأكرم، والكلامِ على أحوالِ غيره من العاشقينَ المحبِّينَ للجنابِ النَّبويِّ.

وبناءً على كلِّ ما سَبَقَ يمكنُ القولُ إنَّ المحورَ الأوَّلَ انبنى على جُزأين، أحدهما تضمَّنَ المدحَ العامَّ للجنابِ النَّبويِّ عبرَ إيرادِ القيمِ المدحيَّةِ التَّقليديَّةِ - الكرم، الشَّجاعة، العقل، الحياء، العزم، طهارة المحتدِّ، الرَّأفة، العدالة، وغيرها من حميد الصِّفات والفضائل - مع الحرصِ على طبعها بطابع الخصوصيَّة الدِّينيَّة التي ميَّزتها عن غيرها من القيمِ الاجتماعيَّة وربطتها بالعطاءِ الإلهيِّ الوهبيِّ، وتخلَّلَ هذا المحورُ من المديحِ العامِّ قطعةً واحدةً في مدحِ الصِّفاتِ الخلقيةِ تكادُ تكون من الوصفِ المنظومِ أقربَ منها إلى المدحِ، وأمَّا الجزءُ الثَّاني من المحورِ فقد ظهر فيه كيف كان أبو الهُدَى يحاول فيه شرحَ توقُّدِ عاطفةِ المحبَّةِ المشتعلة بين جوانحه وما اكتنفَ قلبه من حالةِ الولِّه بالنَّبِيِّ الكرمِ عليه السلام.

## ب محور التَّشَوُّقِ والشَّكوى والتَّشَفُّعِ

وترجعُ جذوره إلى الوضعِ العامِّ المحيطِ بالشَّاعر من جميعِ النَّواحي، فلو نُظِرَ إليه من النَّاحية الاجتماعيَّة لأبصرتُهُ العيونُ مُلَمَّي على ساحلِ الاغترابِ بعيدًا عن الأهلِ والوطنِ يتجرَّعُ عُصَصَ

<sup>488</sup> كُنَيْزٌ بن عبد الرحمن الخزاعي، ديوانٌ كَثِيرٌ عَزَّة، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار المعرفة، 1391هـ/1971م)، 108؛ والبيت يُنسبُ للمتوكِّل

اللَّبْثي، يُنظر: يحيى الجبوري، شعر المتوكِّل اللَّبْثي (بغداد: مكتبة الأندلس، 1971م)، 273.

الآلام من فراق أبويه اللذين غادرا عالم الدنيا قبل أن يجتمع لهما به شمل، ولم ترأف به عيون الحسد فسوّرتة بأسوارٍ من الهموم، وأمّا الحقد فقد سلّقه أهله بالسنة حدادٍ ما فتى أبو الهدى يُشيرُ في أشعاره إلى فريتها وطيش أصحابها؛ ولم تكن الناحية السياسية بأحسن من أختها فقد مرّ أنّه كان بوسط معامعها جنباً إلى جنبٍ مع السلطان عبد الحميد الثاني،<sup>489</sup> وكان يرى بأن عينه الأيدي وهي تُمسكُ المعاول هادمةً الدولة العثمانية - آخر معاقل المسلمين بزعمه - التي أهلك جسدّها الخطر الجاثم عليها من أعداء الدّاخل والخارج، إلى جانب ما رافق ذلك من تدهورٍ للأوضاع الاقتصادية في عموم أرجاء الدولة بسبب ما تمّ به من أحداثٍ جسام، مما جعل الناحية النفسية عند أبي الهدى تفقد شيئاً من الهدوء الذي يتمتّع به من لم يبصر حقيقة ما يجري كما كان يُبصرها هو عن كُتبٍ في الباب العالي إلى جانب السلطان.

ويرى بعضُ النُّقاد - كعمر موسى باشا - أنّ هذا الاضطراب للأحوال السياسية والاجتماعية والنفسية سببٌ رئيسٌ في تحريك قرائح الشعراء وتشبيب عواطفهم الدينية وجعلهم يفتنون إلى المدح النبوي، وعلى وجه الخصوص ما هرعوا إليه في مدحهم من التشفّع برسول الله وكأنهم يشكون إليه ما حلّ بأمتهم من تدرّي الأحوال وهجوم الأهوال،<sup>490</sup> وما حفّل به النتاج الأدبي الأندلسي يمكن أن يكون شاهداً على هذا الرأي،<sup>491</sup> ويُضافُ إلى جانب التشفّع والشكوى ما صاحبهما من التشوّق إلى ديار الحبيب وتمّي زيارتها بعد أن حالت القفار والبحار والأهوال دونها، حتى اشتهر بعضهم - كأبي القاسم بن الجدي (ت. 515هـ/1121م) ولسان الدين بن الخطيب (ت. 776هـ/1374م) - بإرسال الرسائل إلى

<sup>489</sup> يُنظر: ص 27-28.

<sup>490</sup> يُنظر: باشا، الأدب العثماني، 408؛ سالم، المدائح، 22؛ ضيف، تاريخ الأدب، 409/5.

<sup>491</sup> يُنظر: ضيف، تاريخ الأدب، 370/8.

الحجرة النبوية، معيّرين عن امتلاء قلوبهم بالشوق واستجدائهم للشفاعة من النبي الكريم؛<sup>492</sup> ولتضافر كل تلك العوامل التي أشار إليها النقاد وانطباقها على حال أبي الهدي فمن الممكن أن يُعتمد القول: إنها السبب وراء بروز هذا المحور في مدحه النبوية.

ويبدو أنّ بُعد المزار بين أبي الهدي وديار الحبيب لم يكن وحده هو المحرك لدواعي أشجانه وأشواقه بل إنّ الرّجل لم يتأت له أن يحجّ أو يزور تلك البقاع طوال حياته، ولذلك فلطالما كانت أشواقه تهمس في أذنيه حديثاً ملؤه الأمل بالوصول إلى ذيك الحمي والاحتفال برؤية ربوع الحبيب المصطفى عليه السلام لتبرّد جمره الأشواق المستعرة في خافقه إلى تلك الديار الطاهرة؛ فمن هذه الشاكلة قوله مُشبهًا تشبيهاً بليغاً - بإهماله لأداة التشبيه ووجه الشبه بين العنصرين (الشفاء) - تُراب أرض طيبة بكحل الإثم الذي يُداوي عينيه المشتافتين، ثم شفع هذا التشبيه البليغ بأخر مثله فشبّه قلبه بالعين الناظرة المرتقبة برق أرض الحبيب المتألم، ليجعل من هذا التشبيه دلالةً تؤكد هذا الشوق المُحرق والتوق المُقلق إلى تلك الديار:

أه على تقبيل أعتابه فتربها لمقلتي إثم  
للبارق اللّماع من طيبة مُقلّة قلبي دائماً ترصد  
يعدني الظنُّ بقربي لها متى أراه يُنجز الموعد<sup>493</sup>

وكأنه في البيت الأخير قد استبطاً تحقيق الأمل بالزيارة فخرج بالاستفهام عن حقيقته ليعبّر عن ذلك الاستبطاء، فقد كان أبو الهدي في تشوقٍ دائمٍ وتلهّفٍ عارمٍ إلى ربوع الحجاز، حتى لكأنه بقلبه وقد

<sup>492</sup> يُنظر: ضيف، تاريخ الأدب، 422/8، 480؛ شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، 1388هـ/1968م)، 355/6، 361؛ محمد بن الأبار، الحلة السّياء، تحقيق: حسين مؤنس، (القاهرة: الشركة العربية، 1963م)، 284/2.

<sup>493</sup> د.ر.ت، 97.

ارتحل بعواطيفه ومشاعره نائياً عنه إلى الأبد، مُرْتَجِلاً إلى تلك الحياض الطاهرة، فيصِفُ حالته في الغربية وما اكتنفه في ربوعها من أشواقٍ إلى أرض الحبيب الأكرم، مُضَمِّناً بيتيه التَّجْنِيسَ الاشتقائيَّ (فارقته/فروق) وطباقَ التَّنَافُضِ (حقيقة/مجازي):

لي فؤادٌ فارقته بفروق<sup>494</sup> فسرى طائراً لأرض الحجاز

غاب عني حقيقةً ولعمري قمتُ بعده بقلبٍ مجازي<sup>495</sup>

فقلبه مُعلَّقٌ أبداً بتلك الرياضِ الحجازيةِ وهي كنايةٌ مُنبئةٌ عن عِظَمِ مُشْرِفِ تلك الربوعِ العامرةِ والرياضِ الطاهرةِ الممدوحِ الذي حلَّ فيها وهو الحبيبُ الأكرمُ عليه السلام، وصوَّرَ حالةَ اضطرامِ الشوقِ في مُهجَّتِهِ بإسناده فعلَ السرى والغيابِ إلى القلب - من طريقِ المجازِ العقليِّ -، بعد أن جعل هذا القلبَ - بالتشبيهِ البليغِ - طائراً أخذَهُ الحنينُ مُغادِراً إستانبولَ إلى الدِّيارِ الحجازيةِ، أمَّا القلبُ الذي في صدرِهِ فلم يبقَ فيه من أثرِ الحياةِ إلا تلك التَّبَضُّاتُ التي تجعلُ منه شكلاً بلا معنى أو مجازاً بلا حقيقةٍ؛ وهو بهذين البيتين يقتربُ مما قاله أبو فراس الحمدانيّ (ت. 357هـ/967م):

إِنَّ فِي الْأَسْرِ لَصَبًّا دَمْعُهُ فِي الْخَدِّ صَبُّ

هُوَ فِي الرُّومِ مُقِيمٌ وَلَهُ فِي الشَّامِ قَلْبٌ<sup>496</sup>

فكلاهما نأياً عن حلب الشام، ورمت بهما أيّامُ البعادِ في أرضِ الرُّومِ، وكلاهما قيَّدتُهُ الظروفُ ومنعته من أن يقفل عائداً إلى بقاعِ أحبَّتِهِ، فغدَّتِ قوالبُ جِسومِهِم في أرضِ اغتِرابِهِم، وأمَّا قلوبُهُم فقد غادرتهم مُرْتَجِلاً إلى مواطنِ أحبَّتِهِم ومرايعها.

<sup>494</sup> لَقَبٌ من ألقاب مدينة إستانبول، يُنظر: ياقوت، البلدان، 4/258.

<sup>495</sup> د.م.ش، 127.

<sup>496</sup> أبو فراس الحارث بن سعيد الحمداني، ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق: سامي الدَّهان، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1945م)، 25/2.

وتعودُ المعاني الصُّوفِيَّةُ لتبرزَ مرَّةً أُخرى فتلْمَحُ في ثنايا التَّشَوُّقِ عندَ أبي الهُدَى، فهو في موضِعِ  
 آخِرِ جعلِ الارتحالِ القلبيِّ إلى طيِّبةٍ وربوعِها سببًا في خلوِّ القلبِ عن "السِّوَى" وهو في قاموسِ  
 التَّصَوُّفِ كلُّ ما سوى الله،<sup>497</sup> فكانه بقلبه وقد تَطَهَّرَ عن الفانيات بهذا الارتحالِ لمحَبَّةِ الله ورسوله،  
 وهو يُقسِمُ على هذا باقتباسِ أتى به من قوله برك تعال: "والنَّجْمِ إِذَا هَوَى \* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا  
 غَوَى"،<sup>498</sup> فيقول:

والنَّجْمِ من سَمَكِ<sup>499</sup> الغيوبِ إِذَا هَوَى ما ضَلَّ قلبي في هَوَاكَ وما غَوَى  
 طَارَتْ بِهِ لِبِقَاعِ طَيِّبَةٍ لَهْفَةً قَطَعَتْهُ فِي كُلِّ الشُّؤُونِ عَنِ السِّوَى<sup>500</sup>

ولربما هاجت به الأشواق فعصفت بذهنيه، وتوقدت مشاعرُ التَّلهُّفِ فألقت به عند تلك  
 الأعتاب، فراح يتخيَّلُ حالتهُ وقد حطَّت به عصا التَّسيارِ في تلك الرِّحابِ الطَّاهِرةِ، فانكبَّ ليُقْبِلَ  
 تَرَى تلكم الأرضِ الطَّيِّبَةِ، فها هو ذا وقد تراحمت عليه سيولُ المشاعرِ الفياضة فتارةً يضحك سرورًا  
 وتارةً أُخرى يبكي شاكياً، ويبالغُ في الغلِّوِّ واصفًا بكاءً فينفخ الرُّوحَ في الجمادِ جاعلاً منه يبكي رثاءً  
 له ورقةً عليه، فراح أبو الهُدَى يصيحُ وجدًا مخاطبًا النَّبِيَّ الأكرمِ عليه السَّلامِ، بقطعةٍ زخرت بالخللِ البيانيَّةِ،  
 حيثُ استعار -استعارةً مكنيَّةً- للجمادِ وصفَ البكاءِ، وكثي عن عزيمتهِ بعنانِ الفرسِ ليشرحَ بهذه  
 الكنايةِ حالَ عزيمتهِ التي أقعدَها الوزرُ وسدَّ عليها انطلاقتها في ميادين الحياة، أمَّا العناء فقد أسندَ إليه  
 فعلَ الاعتراضِ والقطعِ -من طريقِ المجازِ العقليِّ-، وإنَّ هذا الإسنادَ ليُجْعَلُ المُتَأَمِّلُ لكلماتِ الشَّاعرِ  
 يُلاحِظُ ما أرادَ إبرازَهُ من الأثرِ القويِّ للعناءِ الذي كانَ به لَمَّا امتطى فرسَ عزيمتهِ، فجعله يقطعُ عنانَ

<sup>497</sup> يُنظر: المناوي، التَّعاريف، 199.

<sup>498</sup> النَّجم، 1/53.

<sup>499</sup> السَّقْفُ العالِي، يُنظر: الجوهري، "سمك"، 1592/4.

<sup>500</sup> د.م.ش، 204.

هذه الفرس ويعترضها، وكلُّ ذلك مُشعرٌ بثقلٍ وطأةِ العناءِ الذي حلَّ بالشاعرِ فأثقلَهُ عن المسيرِ إلى ديارٍ ممدوحه الحبيب الأكرم عليه السلام؛ وليحسُن نغمُ هذه القطعة في الأسماع فقد أتى بالجناس الاشتقائي (عينائي/عنّ/العنان/عنائي، ييكي/باكيًا/بكائي)، وطباق التناقض (باكيًا/ضاحكًا)، وأسلوب الترادف<sup>501</sup> (ولوغًا/ولوها) المؤيد لما يريدُ شرحه من مشاعر الحبِّ والشوقِ والحنين، فقال:

ليت شعري والحادثاتُ خيالٌ هل ترى قطُّ يثرَبًا عينائي  
وأراني مُمرِّغًا حرَّ حدي حولَ أعتابِ دارِك الفيحاءِ  
باكيًا ضاحكًا ولوغًا ولوها ذا حُشوعٍ يُيكي الجمادَ بُكائي  
وأناديك يا حبيبي وروحي وبهائي وبهجتي وضيائي  
أنا عبدٌ قد أثقلتني دنوبي ولوزري عنّ العنانَ عنائي<sup>502</sup>

وفي البيتين الأخيرين يتضحُ لحوق أبي الهدى بركب الشعراء الذين أبرزوا في مدائحهم الشكوى وعرضوا الحالة المتردئة التي حلت بساحتهم، فأنتمجوا لونًا أدبيًا خاصًا يزهو بين أغراض الشعر العربي عمومًا والمديح النبوي خصوصًا بأحرّ اللواعج الصادقة والمشاعر الجياشة بالحبِّ والحنين،<sup>503</sup> فأبو الهدى هنا يشكو إلى النبيِّ ذنوبه وأوزاره التي أثقلت كاهله فتعكّرت حالته المعنوية الروحية، ولربما عرضَ في موضعٍ آخر حالته النفسية التي أضنت بقلبه الحزون، شاكيًا ما أوقده الحسناؤ في قلبه من نارٍ أجبجها الاغتراب في بلاد الرُّوم، وزاد من أوارها تذكُّره لأبيه الشيخ المسنِّ الملتاع من فراق ولده، فراح يشكو حالته إلى الرسول، مُعتنياً بالإطنابِ في شرح انكساره عبر تكرار لفظ (الانكسار)، فقال:

<sup>501</sup> يُنظر: سيبويه، الكتاب، 24/1؛ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المُنهر في علوم اللّغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور،

(بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ/1998م)، 316/1.

<sup>502</sup> در.ت، 9؛ وعنّ بمعنى اعترض، يُنظر: الجوهري، "عنن"، 2166/6.

<sup>503</sup> يُنظر: بكري شيخ أمين، تحليلٌ بلاغيٌّ وجماليٌّ في نصوصٍ أدبيّةٍ (بيروت: دار العلم للملايين، 2004م)، 100.

وحَسَادِي عَلَيَّ عَدُوا بَزُورٍ وَطَاشُوا يَا ابْنَ أَمِنَةَ وَحَاوُوا  
وما لي في بلادِ الرُّومِ خِلٌّ يُوَسِّينِي إِذَا صَارَ الْمَصَارُ  
وَجُنْحِي آهٍ وَالْهَقْيُ كَسِيرٌ وَيَجْرِي إِلَيْكَ الْإِنْكَسَارُ  
أَبُ لِي فِي الْحِمَى شَيْخٌ كَبِيرٌ عَرَاهُ لِفُرْقَتِي ثُمَّ انْكَسَارُ<sup>504</sup>

ففي شكواه التي بَنَّهَا لِيشرحَ حالتهُ استعارَ -استعارةً مكنيةً- لذاتهِ وصفَ الطَّائِرِ الذي هَاضَ جناحَهُ تعدي الحَسَادِ وبغيتهم عليه وطيشهم، وهو ما حرصَ دائماً على تكراره من أوصافهم، فهم مخرومو المروءة، يرى أَنَّ الموتَ يهونُ أمام الانحطاطِ إلى حضيضهم، وبحرصه على ذكرهم في شكواه أكثرَ من مرَّةٍ يمكنُ أن يُلمَحَ الأسى والعنا الذي عاناهُ منهم، حيثُ يقولُ شاكياً في موضعٍ آخر، مُكَنِّياً بالسَّهامِ عن افتراءاتِ عُدائِهِ وحاسديه:

وأعداءٌ ولو كانوا رجالاً لَلدَّ إِلَيَّ إِذْ تُرْمَى السِّهَامُ  
ولكن من طَعَامٍ<sup>505</sup> النَّاسِ رُدُّوا لِي جَوَابٌ لَهُمْ يَهونُ لَهُ الْحِمَامُ  
أبا الزَّهراءِ يَا شَرَفَ البَرَايا وَيَا مَنْ شَأْنُ دَوْلَتِهِ الدَّوامُ<sup>506</sup>

وتنجلي شكواه بشكلٍ أوضح في موضعٍ آخر فتبدو فائضةً بمعاني الاغتراب حاكيةً ما جرَّت عليه غرْبَتُهُ من الوحدة والافتقار، حيث لا صديق صدوق، ولا قريب ولا نسيب، ولا مُعين ولا مَعِين يستندُ إليه بمالٍ أو جاهٍ، وقد عَلَّتِ الأصواتُ اللَّاذِعَةُ من فقهه الشَّامتين حتى كدَّرته وكلَّ مُحِبِّ لَهُ، فراح يبيثُ شكواه أثناء مدحه للنَّبِيِّ الأكرم، قائلاً:

لقد سَمِيتَ الأعداءَ بما حرَّكَ القضا عَلَيَّ من البلوى وكدَّرَ حُلَّاني

<sup>504</sup> د.م.ش، 105.

<sup>505</sup> أرذال النَّاسِ وأوغادهم؛ ابن منظور: "طعم"، 368/12.

<sup>506</sup> د.ر.ت، 221.

فلا نصرهً بالمال حتى تشدَّ لي عصابةً ظهري أو تشيِّدَ أركاني  
ولا عصبهً من آل عمِّي قويهً أقول رجائي أو أعانُ بإخواني  
ولا مخلصًا زينَ الصداقة صادقًا صديقًا يُعاني سقمَ كربِي وأشجاني<sup>507</sup>

وإنَّ الواقِفَ إزاءَ هذه الأبيات وما سبقها من شكوى أبي الهُدَى ليشعرُ بأنَّها شكوى غريبٍ بعيدٍ  
فقدَ يدًا حانيةً تربتُ على ظهره المثقل بالحمول، وقد مزَّقت كبدهُ خناجرُ الحُسَّاد والحاقدين، فراح  
يقذفُ بأحزانه في بحور الشعر، وكأنَّه يتكلَّم مع ذاتٍ إنسانِيَّةٍ باتت تستمعُ إليه بأذنٍ صاغِيَةٍ وترأفٍ  
بجاله، وقد زاد من تمكُّنِ هذا الشُّعور لديه وأذكت من توقُّدِ عواطفه الصَّادِقة وألهبت مشاعره وشائج  
النِّسبةِ الحُسينِيَّة التي تربطه بالنبيِّ الكريم عليه السلام التي طالما لهجَ بها في شكاويه، كقوله:

إليكِ علَّت بسلسلتي جُدودٌ يبضعنك الحسين لها انتظام<sup>508</sup>

ومنها شكواه واصفًا لحالِ غُربته وعائلته في بلاد الرُّوم -إستانبول-:

وحولي عيلةٌ وصغارُ آلٍ لهم نَسبٌ إليك به الفخارُ

عسى بجليلِ قدرِكَ عندَ ربِّي أرى فرجَ الصُّباحِ له ازدهارُ<sup>509</sup>

وبذلك يكونُ أبو الهُدَى قد ميَّزَ مدائحهُ النُّبويَّة بأن انتقلَ بها من الطَّابع التَّقليديِّ العامِّ إلى الطَّابع  
الدَّائيِّ، الذي يبرزُ جليًّا في هذا المحور من خلالِ مجاوزته من المديح إلى الكلام عن ذاته وغُربته والوحدة  
التي كان يمرُّ بها، والفرق الذي عاشَ فيه، ويُضافُ إلى ذلك كلِّه ما أشارَ إليه من مُعاناته من تطاولِ  
حُسَّاده عليه ورميهم له بسهامِ الافتراءات. وإلى جانبِ هذا التَّشوق والشُّكوى كانت تبرزُ - كما في  
آخر بيتٍ - معاني (التَّشْفَع) إلى الله بجاه النبيِّ الكريم والتَّوسُّل به في انكشافِ ليلِ الكرب، ومن

<sup>507</sup> د.ف.م، 65.

<sup>508</sup> د.ر.ت، 221.

<sup>509</sup> د.م.ش، 105.

الأشكال التي برزَ فيها التَّشْفَعُ عند أبي الهُدَى ما كان يستحضرُهُ في أبياتِهِ من موقفِ الحشرِ وأهوالِهِ ثم ينثني بعدها ليطلبَ الشَّفاعةَ من الرِّسولِ الكريمِ، كقولِهِ مخاطبًا له، ومُمكنًا عن تلك الشَّفاعةِ بذيلِ العرِّ الذي يَتَشَبَّثُ به الخلائقُ:

يَتَشَبَّثُونَ بِذَيْلِ عَرِّكَ كُلُّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَلِيمُهُمْ وَخَلِيلُهُ  
وَتَقُولُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ (أَنَا لَهَا) وَالخَلْقُ تَحْتَ يَدِ الْقَضَاءِ ذُهُولُ  
فَيَقَالُ مِنْ بَابِ الْمَهِيْمِ لِلوَرَى هَذَا قَوْلُ عِنْدَنَا وَفَعُولُ<sup>510</sup>

وهو بهذه الأبيات مُقتبسٌ للصَّورةِ الوارِدَةِ في الحديثِ النَّبويِّ من أَنَّ النَّاسَ يَهْرَعُونَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِلَى أُولِي الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ فَلَا يَجِدُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فعندئذٍ يقولُ المصطفى "أنا لها"، وينادي عليه رَبُّهُ: "ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ" فيقولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أُمَّتِي أُمَّتِي"<sup>511</sup> فهذه هي الشَّفاعةُ التي طَلَبَهَا مِنْ قَبْلِ الصَّحَابِيِّ سَوَادُ بْنُ قَارِبٍ (ت. 15هـ/636م) رضي اللهُ عَنْهُ فِي شِعْرِهِ الَّذِي قَالَ فِيهِ مُخَاطَبًا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ بِمُغْنٍ فَنِيلاً عَنِ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ<sup>512</sup>  
وعلى هذا السَّنَنِ انْتَهَى أَبُو الْهُدَى بَعْدَ أَنْ سَافَرَ بِكَلِمَاتِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَرَصَاتِ لِيَطْلُبَ تِلْكَ الشَّفَاعَةَ  
مُخَاطَبًا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ، مُسْتَعْمِلًا الْجِنَاسَ الْاِشْتِقَاقِيَّ (حَمَلَهَا/مَحْمُولٌ) وَالتَّرَادُفَ (بِكَاءٍ/عَوِيلٌ):

هَا أَنْتَ نُصْرَةٌ عَاجِزٌ مِثْلِي أَتَاكَ لَهُ بِكَاءٍ تَلْهُفٍ وَعَوِيلٍ  
وَأَنَا أَقْلٌ ضَعْفٍ أُمَّتِكَ الَّتِي هِيَ فِي ظِلَالِكَ حَمَلُهَا مَحْمُولٌ<sup>513</sup>

<sup>510</sup> د.ف.م، 40.

<sup>511</sup> البخاري، "التَّوْحِيدُ"، 36 (رقم 7510).

<sup>512</sup> يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي البجاوي، (بيروت: دار الجليل، 1412هـ/1992م)، 675/2.

<sup>513</sup> د.ف.م، 41.

وإذا كان هذا المحور قد انبنى على ثلاثة أجزاءٍ فإنَّ الرَّابِطَ الجامع الذي يظهرُ في كلِّ منها ليس فقط دافع الحنين والمحبة التي تفيض بها الكلمات، وإنما ذلك التَّدلُّل الذي لم تخلُ منه جميع أبيات المحور، وما رافقه من ألفاظٍ تدلُّ عليه من ضعفٍ وبكاءٍ وعجزٍ وانكسارٍ.

## ج محور المعجزات

ومما دارت عليه محاور مِدَحِ أَبِي الهُدَى الكلامُ على (المُعْجِزَات) التي أَيْدَ اللهُ بها نبيّه، حيثُ يرى المُتأمِّلُ في مدائحه تناثرًا بين ثنايا أبياتها لقبسٍ من أخبارِ المعجزات البَيِّنَات التي حَفَلَتْ كَتَبُ السَّيْرِ بنشرِ عبيرها، ولعلَّ أبرزَ مُعْجِزَةٍ نالت القِسْطَ الوافرَ في مدائحه هي معجزةُ الإسراءِ والمعراج، ولا غرورَ فقد نالت هذه المعجزةُ النَّصيبَ الأوفى لدى أربابِ فنِّ المديح النَّبَوِيِّ،<sup>514</sup> ولربما رجَّعَ هذا الاهتمام إلى أنَّها أشهرُ المعجزات وأظهرُ البراهين حيثُ أُعْطِيَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ في ليلة الإسراء ما لا يُحِيطُ به الحدُّ،<sup>515</sup> حتى رجَّحَ ابنُ تَيْمِيَّةَ (ت.728هـ/1328م) تفضيلَ ليلة الإسراء والمعراج-بالنِّسْبَةِ لِلنَّبِيِّ عليه السَّلام- على ليلة القدر.<sup>516</sup> وقد برَّعَ أبو الهُدَى في تصويرِ تلك اللَّيْلَةِ ووصفِ سَحَّاحِ الجودِ الإلهيِّ الذي أُكْرِمَ فيه رسولُ الله لَمَّا رَقَا السَّمَوَاتِ الطِّبَاقَ، وشاهدَ ما تضيقُ عنه الأوراقُ، فكلَّتْ عيونُ الزَّمانِ عن أن تُبَصِّرَ مُنتَهَى شَرَفِ عِلاهِ ومقامِهِ السَّامِي دُرَاه، فقال:

أنتَ الذي لَمَّا رُفِعَتْ إلى السَّما بِرِكَابِكَ العَالي مشى جبريلُ  
أنتَ الذي عن مُنتَهَى عليك طَرُّ فُ الدَّهرِ في كُليِّ الشُّؤونِ كليلُ

<sup>514</sup> ويكفي أن يُعَلِّمَ إفرادُ البوصيريِّ لها فضلًا خاصًّا بما في بُرْدَتِهِ المشهورة، ثم انسحب ذلك على كلِّ من عارضها أو زادَ عليها مُشْطَرًّا أو مُخْتَسِنًا أو مُسَبِّحًا.

<sup>515</sup> يُنظر: أحمد بن حجر الهيتمي، شرح متن القصيدة الممزجة للبوصيري (القاهرة: المطبعة الخيرية، 1307هـ/1889م)، 79.

<sup>516</sup> يُنظر: أحمد بن عبد الحليم بن تَيْمِيَّةَ، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عطا - مصطفى عطا، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1987م)، 477/2.

أنت الذي رُفِعَتْ لَكَ الرَّايَاتُ فِي الْـ مَلَكُوتِ إِذْ خِيلُ الْقَبُولِ بَجُولُ  
أنت الذي صُفِّتْ لَكَ الْأَمْلاكُ فِي الْـ عَلِيَا وَكُلُّ هَيْبَةٍ مَذْهُولٌ<sup>517</sup>

والأبيات تجعل من حادثة المعراج التي تناقلتها كُتُبُ السِّيَرِ مَشْهَدًا تنجلي أحداثُ ليله المضىءِ أمام العيون، فهذا هو النَّبِيُّ الكَرِيمُ بِمَرْكَبِهِ السَّامِيِ ووراءه جبريل يخرقُ ملكوت السماء ويقرَعُ بابها فتفتح له الملائكة التي اصطفت بوقارٍ مُسْتَبْشِرَةً بقدوم هذا النَّبِيِّ العظيم، وكأنَّ لهذا الاحتفاء الملكوتيّ أعلامًا نُصِبَتْ فرحًا بقدوم سيِّدِ أهل القبول عند ربِّ العالمين؛ ولكي يتأتَّى للكلمات أن تُعْرَبَ عن باذخِ مجدِ هذا الإكرام فقد أتى أبو الهُدَى مُسْتَعِيرًا لِلدَّهْرِ -استعارةً مَكْنِيَّةً- عَيْنًا كَلَّتْ عن أن تُدْرِكَ غايةَ المجدِ التي وَصَلَ إليها ممدوحُهُ الأعظمَ عليه السَّلامُ، أمَّا القبول الذي نالهُ فقد شَبَّهَهُ تشبيهاً بليغًا -بإهماله لأداة التَّشْبِيهِ ووجه التَّشْبِه (الجولان والانتشار)- بحافل الخيل المنحدرة في ساحات السماء تؤذُنُ بوفودِهِ؛ ولأنَّ المقامَ مقامَ بسطِ مدحِ الحبيب الأكرم فقد حَسُنَ الإتيانُ بأسلوبِ الإطنابِ عبر التَّكرارِ لضمير الخطاب في كلِّ بيتٍ، فأتى به مُرَدِّفًا لكلِّ تفصيلًا جديدًا من المديح، ليحلَّو في آذان السَّامعين، ولما لهذا التَّكريرِ من أَمَارَاتٍ تدلُّ على احتدامِ العاطفةِ الصَّادِقةِ في أعماقِ الشَّاعرِ.

ومن المعراجِ إلى الإسراءِ ينتقلُ أبو الهُدَى مادِحًا ما تضافرت عليه الرِّوايات<sup>518</sup> من تقدُّمِ النَّبِيِّ الأكرمِ على جميعِ الأنبياء والمرسلين، لَمَّا صَلَّى بِهَمِّ إمامًا في بيت المقدس ليلة الإسراء، فَلَكَّانَ مقامَ النَّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ تمثِّلَ ببيداءٍ واسعةٍ امتلأت أرجاؤها بقوافل الأنبياء المرسلين، فقام في جمعهم المصطفى إمامًا مُتَفَرِّدًا كأنه القائدُ لجحافلهم أجمعين؛ حيثُ يقول:

<sup>517</sup> د.ف.م، 39.

<sup>518</sup> يُنظر: محمد بن يوسف الشَّامي، سبيل الهُدَى والرَّشاد في سيرة خيرِ العباد، تحقيق: عادل عبد الموجود - علي معوض، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1414هـ/1993م)، 112/3.

طَلَعَتْ بِنَبْعَةٍ<sup>519</sup> الشَّرْفِ الْمُعَلَّأِ رَسُولًا جُنْدُهُ الرُّسُلُ الْكَرَامُ  
وَفِي دَسْتِ<sup>520</sup> الرِّسَالَةِ قُتِمَتْ فَرْدًا لِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ الْإِمَامُ  
لِمَجْدِكَ فِي مَعَارِجِ التَّدَايِي مَقَامٌ لَا يُدَانِيهِ مَقَامٌ<sup>521</sup>

ومعجزة الإسراء والمعراج لم يُقَصَّرَ عليها هذا المحور فقد تعدَّها إلى مدح المعجزات الأخرى التي وهبها الله لنبيه المصطفى، فمن ذلك مدح معجزة انشقاق القمر إلى نصفين،<sup>522</sup> وحبس الشمس له عليه السلام؛<sup>523</sup> وهي المعجزة العظيمة التي يرى الخطَّابِيُّ (ت. 388هـ/998م) أنَّها معجزةٌ "لا يكادُ يعدُّها شيءٌ من معجزات الأنبياء، لأنَّها ظَهَرَتْ في ملكوت السَّماءِ"،<sup>524</sup> وفي هذا المعنى يقول أبو الهُدَى:

وَأَتَى رَفِيعُ جَنَابِكَ السَّامِي الْعُلَا بِمَاثِرٍ مَا شَابَهَا التَّمثِيلُ  
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمُنِيرُ كِلَاهُمَا وَا فَاكٌ فِي ذَيْلِ الْخُضُوعِ يَسِيلُ  
وَبَدَا بِأَمْرِ الْإِنْشِقَاقِ عَجَائِبُ شَقَّتْ حِجَابَ الْكُفْرِ فَهُوَ هَزِيلٌ<sup>525</sup>

ويُلحِظُ إلى جانبِ مدحِ أبي الهُدَى للمعجزات ما يكسوه لأبياتِهِ من الخُللِ البيانيَّةِ، فها هنا قد أتى بأسلوبِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، إذ جعلَ الشمسَ والقمرَ إنسانينَ تَشَرَّفَا بموافاةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ فَاتِيَاهُ طَائِعِينَ قد لَبَسَا ثوبَ الخُضُوعِ والانقيادِ، كما استعارَ -استعارةً مكنيَّةً- لعجائبِ معجزة انشقاقِ القمرِ

<sup>519</sup> الشَّجَرَةُ، يُنظَرُ: الجوهري، "نبع"، 1288/3.

<sup>520</sup> أصلها دشت وهي لفظةٌ فارسيَّةٌ مُعرَّبةٌ معناها الصَّحراءُ، يُنظَرُ: عبد الله بن قتيبة الدَّينوري، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، (بغداد: مطبعة العاني، 1397هـ/1977م)، 341/2.

<sup>521</sup> د.ر.م، 221.

<sup>522</sup> يُنظَرُ: البخاري، "تفسير القرآن"، 54 (رقم 4864)؛ محمَّد بن سيِّد النَّاسِ البَعْرِيُّ، عيون الأثر في فنون المَعَازِي والشَّمَائِلِ والسِّيَرِ، تحقيق: إبراهيم رمضان، (بيروت: دار القلم، 1414هـ/1993م)، 134/1.

<sup>523</sup> يُنظَرُ: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، إعداد: حسام الدين القدسي، (القاهرة: مكتبة القدسي، 1414هـ/1994م)، 296/8 (رقم 14096).

<sup>524</sup> يُنظَرُ: أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز، (القاهرة: المكتبة السِّلَفِيَّة، د.ت)، 185/7.

<sup>525</sup> د.ف.م، 39.

وصفَ السَّيْفِ البَّتَّارِ حينَ يشقُّ الحُجُبَ، بعد أن شَبَّهَ تشبيهاً بليغاً الكُفْرَ بالحجابِ الهزيلِ - إذ أهملِ  
الأداةَ ووجهَ الشَّبهِ (التَّعْطِيَّةُ) -، وفي دمجِهِ للفظيَّ الشَّمْسِ والقَمَرِ يكونُ قد أتى بالمحسنِ البديعيِّ  
مراعاةَ النَّظيرِ، وضمَّه إلى الجناسِ الاشتقاقِي (الانشقاق/شَقَّتْ)؛ ثم تابعَ على ذاتِ المنوالِ مدحَهُ  
لمعجزاتٍ أُخْرَ، كسَلامِ الجمادِ على المصطفى،<sup>526</sup> وانقيادِ الأشجارِ وسعيها إليه،<sup>527</sup> وتفجُّرِ الماءِ من  
بين أصابعِهِ الشَّريفةِ عليه السلام،<sup>528</sup> الذي جاءَ بذكره مشفوعاً بالاحتراسِ حيثُ وصفَهُ بالطَّيِّبِ فهو  
كالعسلِ طيباً، إذ يُسْتَعْرَبُ نبعُهُ صافياً من غيرِ منابِعِهِ الاعتياديَّةِ:

حَيَّتِكَ ألسِنَةُ الجَمَادِ فأفصَحَتْ نُطْقاً به الإيجازُ والتَّرتيلُ  
ولأمرِكَ الأشجارُ سعيّاً قد أتتْ ويقودُها التَّعْظِيمُ والتَّبْجِيلُ  
وسَقَيْتَ ماءً طيباً من كَفِّكَ السَّنِّ سَمَحِ الكَرِيمِ فكأسُهُ مَعْسُولٌ<sup>529</sup>

وقد عمدَ في موضعٍ أُخْرَ إلى مدحِ معجزةِ القرآنِ المحفوظةِ إلى آخرِ أيَّامِ الدُّنيا لتشهدَ على  
صِدْقِ هذا النَّبِيِّ الأَكْرَمِ ومعجزاتِهِ جميعها، فقد أحرَسَ باهرُ بيانها أفصحَ الألسُنِ العربيَّةِ، وانعجمت  
أمامَ معانيها مَصَافِعُ البُلغاءِ من البريَّةِ، فقال:

ولهُ القرآنُ أعلى شاهدٍ قائمٌ بالمعجزاتِ الأبديةِ  
أحرَسَ الفُصْحَ بما في سِلكِهِ نَظَّمَ الآيَ عقوداً جوهريَّةَ  
فكأنَّ العُربَ عَجِمَ حينما تنجلي منه المعاني العربيَّة<sup>530</sup>

<sup>526</sup> يُنظر: مسلم، "الفضائل"، 2277؛ الترمذِي، "المنقب"، 6 (رقم 3626).

<sup>527</sup> يُنظر: مسلم، "الزهد والرقائق"، 3012.

<sup>528</sup> يُنظر: البخاري، "المنقب"، 25 (رقم 3572).

<sup>529</sup> د.ف.م، 40.

<sup>530</sup> د.م.ش، 208.

ولم يخرج محور المدح للمعجزات عن هذه الأساليب التي مرَّ عليها، ولكنَّ من الجدير بالذكر أنَّ منظومته الموسومة بـ زاد القيامة قد تضمَّنت مدحًا للمعجزات المحمَّديَّة ولكنها كانت أقرب إلى النظم منها إلى الشعر.

## د محاور أخرى

لم تقتصر مدائح أبي الهُدَى على ما سبق من المحاور - وإن كانت تلك هي الأبرز فيها-، وإنما دارت على محاور أخرى قد تقلُّ كمًّا شعريًّا عن تلك، فهي بذلك لا ترقى إلى إفراذٍ كلِّ منها بمحورٍ خاصٍّ، ومن أجل هذا فقد لا يُتَّعدُّ عن الصَّواب إذا ما سُمِّيت بالمضامين المدحيَّة التي حوت أفكارًا تختلِفُ عن المحاور السَّابقة. ومن جملة تلك المضامين ما عمدَ إليه أبو الهُدَى من مدحٍ خاصٍّ بجهادِ النَّبيِّ المصطفى وعزيمته في قِراع أعدائه، ولم يخلُ مديحُه هذا من صورٍ بيانيَّةٍ تزيد المديح طربًا في الأسماع؛ ومن ذلك أنَّه لَمَّا مدَّح جهادَ المصطفى وتوطيده لأركان الدِّين أتى - من طريق الاستبعا<sup>531</sup> - بذكر الغزوات التي انتصر فيها ثم تابع يمدحُ تمزيقه جموع أهلِ الهوى، ولَمَّا ذكر فتحه لمكة استتبع بجعل الدنيا تننورُ به وبرسالتِهِ السَّماويَّة، فقال:

وأقامَ رُكنَ الدِّينِ بالعزمِ الذي      ذلَّتْ لَهُ الآسَادُ فِي البِيْدَاءِ  
وإذْكَرَ حُنِينًا حِينَ أَحْنَى ظَهَرَ جَحْدِ      قَلْبِهَا وَمَزَّقَ عُصْبَةَ الأَهْوَاءِ  
وبفتحِ مَكَّةَ ضَاءَتِ الدُّنْيَا بِهِ      مُذْ جَاءَهَا بِعِمَامَةٍ سَوْدَاءِ<sup>532</sup>

<sup>531</sup> يُنظر: حَبْنَكَة، البلاغة، 429/2.

<sup>532</sup> د.ف.م، 43؛ وثبت أنَّ المصطفى عليه السلام لما فتح مكة دخلها وعليه العمامة السوداء ولوأوه كان أسودًا، يُنظر: محمد بن عمر الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جوس، (بيروت: دار الأعلمي، 1409هـ/1989م)، 824/2.

وفي مدح الجهادِ حرصَ أبو الهدى على الإتيان بالألفاظِ الجزلةِ القويّةِ (عقنقل، هدر، عوجاء، أحدب، جلّ) وهي كلماتٌ يكادُ يرتطم جرسها الموسيقيّ بالآذان فيعبرُ إليها قوّةً وشدّةً المعنى الذي أرادَهُ من مدحِ عظمتِ جهادِ النَّبيِّ الأكرمِ وعزيمتِهِ، ومن ذلك قولُهُ وقد قدّم بين يدي مديحِهِ ما يُعبّرُ عن جليلِ محبّتهِ ففداهُ بأبيه وأمه:

بأبي وأمي كم أثارَ عقنقلاً<sup>533</sup> هدرت نوابه على الأعداءِ  
واستلَّ أحدبَ همّةٍ نبويّةٍ جلت فقومَ أحدبِ العوجاءِ<sup>534</sup>

وفي البيت الأخير مدحَ عزيمةِ النَّبيِّ الأكرمِ فجعلها صارماً مسلولاً -على سبيل الاستعارة التّصريحية- وجعل من سيفِ هذه العزيمة يُعدّلُ كلَّ مائلٍ معوجٍ، ليُكَيِّ بالمعوجِ عن مِلّةِ الشّركِ والضّلالِ، وحلّى هذه المعاني بِخُلَى الجناسِ اللفظيِّ التّامِ (أحدب/ أحدب)، ولَمَحَ طباقُ التّناقُضِ بين لفظي (قوم/ العوجاء).

ومما تضمّنته مدحُ الشّاعرِ من المضامينِ الفكريّةِ، فكرةُ النُّورِ المحمّديِّ وأولّيّتهِ وكونِ الوجودِ لم يكن ليُخلَقَ لولاهُ، وهي الفكرةُ التي تردّدت كثيراً منذ القرن الرّابع الهجري<sup>535</sup> وأدّكتها البيئَةُ الصُّوفيّةُ، وعُدَّ محيي الدّينِ بن العربيِّ (ت. 640هـ/1442م) في مقدّمة المتغنّين بها وأبرزهم،<sup>536</sup> ويرى محمود سالم محمّد أنّ التصاق هذه الفكرة بالمديحِ النّبويِّ وصدور الجَمِّ الغفيرِ من المادحين عنها -غيرِ مبالغين بصحّةٍ أو بطلانٍ- هو أنّ هذه الفكرة "تتجاوب مع تحليق الخيال، ومع المبالغة الشّعريّة، وقد مدّهم

<sup>533</sup> الكيبُ المُتراكمُ المُتداخِلُ المُتَعَقِّلُ بعضُهُ ببعضِ، الزّبيدي، "عقل"، 37/30.

<sup>534</sup> د.ر.ت، 5.

<sup>535</sup> يُنظر: ضيف، تاريخ الأدب، 351/7.

<sup>536</sup> يُنظر: شوقي ضيف، فصول في الشّعر ونقده (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 232.

أصحاب السيرة والخصائص والدلائل بفيضٍ من هذه الروايات"،<sup>537</sup> ولعلَّ مما يؤيد رأيه ما تكرَّر في جمعٍ من المصادرٍ من شعرٍ لعَمِّ النَّبِيِّ الكَرِيمِ عليه السلام العَبَّاسِ بن عبد المَطَّلِبِ (ت.32هـ/653م) رضي الله عنه يتضمَّنُ تردادَ فِكْرَةِ خَلْقِ نوره قبل بروز آدَمَ في الجِنان؛<sup>538</sup> وأبو الهُدَى لم يكن ببعيدٍ لا عن البيئَةِ الصُّوفِيَّةِ ولا عن كُتُبِ السِّيرِ، فلا غرو أن تظهرَ هذه الفكرة في مدائِحِه، فمن ذلك قولُه مادِحًا للنَّبِيِّ الأكرمِ بأنَّه الثُّورُ الذي أبرَزَ اللهُ ضيائَهُ قبل خَلْقِ الأكوانِ واصطفاهُ خاتَمًا للنُّبُوَّةِ قبل خَلْقِ آدَمَ:

الحبيُّبُ الذي تَأَلَّقَ بدرًا في سَمَا الغيبِ والوجودِ هَبَاءُ

والذي عَزَّ بالنُّبُوَّةِ إذ آ دَمُ قَبْلَ البروزِ طِينٌ وماءٌ<sup>539</sup>

ومما يُلحِقُ أيضًا بغرضِ المديحِ النَّبَوِيِّ ما كان ينظمُه أبو الهُدَى لدى زيارتهِ للأثارِ النَّبَوِيَّةِ المحفوظَةِ في إستانبولِ حيثُ كان يزورها دوريًّا برفقةِ السُّلطانِ عبد الحميدِ الثَّانِي، فمن ذلك ما قاله لَمَّا زار أثرَ الخِرقةِ الشَّرِيفَةِ المنسوبةِ للنَّبِيِّ الأكرمِ:

شَمَمْنَا لطيفَ المسكِ من رُحْبِ خِرْقَةٍ لأشرفِ ساداتِ الوجودِ ابنِ هاشِمِ

وفُزْنَا ووطننا والإشارةُ أثبتتِ حصولَ الأمانِ واتِّصالَ المكارِمِ<sup>540</sup>

<sup>537</sup> سالم، المدائِح، 249.

<sup>538</sup> وهي قولُه:

مِنْ قَبْلِهَا طَبَّتْ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصِّفُ الوَرِقُ  
كُمُ هَبَطَتِ البِلَادُ لَا بَشَرٌ أَنْتَ وَلَا مُضَعَّةٌ وَلَا عَلَقُ

يُنظَرُ: سليمان بن أحمد الطَّبراني، المعجم الكبير، إعداد: حمدي عبد المجيد، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د.ت)، 213/4 (رقم 4167)؛ البيهقي، الدلائل، 268/5؛ الشَّامِي، سُبُلُ الهُدَى، 69/1؛ أحمد بن علي المقرئ، إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد التَّمِيسِي، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1420هـ/1999م)، 190/3، 194.

<sup>539</sup> د.م.ش، 41.

<sup>540</sup> د.ف.م، 85.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ جَمِيعَ مَا سَبَقَ عَرْضُهُ قَدْ أَلَمَّ بِأَبْرَزِ الْمَحَاوِرِ وَأَهَمِّ الْمَعَانِي الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا الْمَدَائِحُ النَّبَوِيَّةُ عِنْدَ أَبِي الْهُدَى فِي صُلْبِهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ سُبِقَ هَذَا الْعَرْضُ بِالْكَلامِ عَلَى مَطَالِعِ تِلْكَ الْمَدَائِحِ، وَقَدْ بَقِيَ الْكَلَامُ عَلَى الْخَوَاتِيمِ الَّتِي حُتِّمَتْ بِهَا، وَخِلَاصَةَ مَا يُمْكِنُ اسْتِنْتَاجُهُ أَحْيَرًا، وَسَتَتَوَلَّى السَّطُورِ الْقَادِمَةَ هَذِهِ الْمَهْمَةُ.

### 3 خواتيم المدائح

يُلاحَظُ فِي أَغْلَبِ الْمَدَحِ عِنْدَ أَبِي الْهُدَى أَنَّهَا حَظِيَّتْ بِنُوعَيْنِ مِنَ الْخَوَاتِيمِ، فَإِنَّمَا أَنْ تُحْتَمَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَتَابِعِيهِمْ وَالصَّالِحِينَ، أَوْ أَنْ تُحْتَمَ بِدَعَوَاتِ يَرْجُو الشَّاعِرُ تَحْقِيقَهَا مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ أَحْرَزَ فِي كُلِّ تِلْكَ الْخَوَاتِيمِ بَرَاعَةَ الْمَقْطَعِ وَالْحِتَامِ، حَيْثُ كَانَتْ أَيْبَاتُهُ الْأَخِيرَةَ تَطْرُقُ الْأَسْمَاعَ فَتَجْعَلُ النَّفُوسَ تَعَلَّقَ بِهَا وَتَتَحَرَّكَ بِالشَّوْقِ إِلَى الْمَزِيدِ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي؛ وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ قَوْلُهُ خَاتِمًا:

وعليك صلى الله ما لمع الضُّحَى      وكسائه من ثوبِ الظَّلَامِ حُمُولُ  
والآلِ والأصحابِ مَنْ بِنَبَاتِهِمْ      جُمِعَتْ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ شَمُولُ  
ما أنشدَ العبدُ الضَّعِيفُ أَبُو الْهُدَى      شرحَ الحامِدِ فِي ثَنَاكَ طَوِيلُ<sup>541</sup>

فَهُوَ حَتَّى فِي الْخِتَامِ يَأْتِي بِصُورٍ جَمِيلَةٍ تَرْتَاحُ لَهَا الْعَيُونُ وَتَحَلُو فِي الْأَسْمَاعِ، فَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَعَلَهُمَا مُتَمَدِّينَ أَبَدًا كَلِمًا لَمَعَ شُعَاعُ الضُّحَى صَبَاحًا أَوْ أَخْمَلَ ضَوْعَهُ سِوَادُ الدُّجَى مَسَاءً، وَقَدْ اسْتَعَارَ لِذَلِكَ الشُّعَاعِ وَصَفَ اللَّبَاسِ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ، وَشَبَّهَ الظَّلَامَ بِالثُّوبِ الَّذِي يَكْتَسِيهِ هَذَا الشُّعَاعُ -بِالتَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ الَّذِي حُدِفَ مِنْهُ وَجْهَ الشَّبْهِ (التَّغْطِيَّةُ وَالسِّتْرُ)-؛ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ الصَّلَاةَ

<sup>541</sup> د.ف.م، 41.

والسَّلام يمتدَّانِ مدى الأزمان كلِّما أبَّ غريبٌ إلى وطنِهِ أو كلِّما سارت المطايا نحو مكَّة المكرَّمة،  
ليظهر مرَّةً أُخرى شيءٌ من أثرِ العُربةِ التي عَلِقَتْ في نفسِيَّةِ الشَّاعرِ وأثَّرت في مَدِيحِهِ، حيث قال:

مدى الدهرِ ما وافى غريبٌ لأهلهِ      وما سارت الرُّكبانُ يوماً لمكَّة<sup>542</sup>

ومن أمثلة الخواتيم الدُّعائيَّة قولُه وقد أمَّلَ من الله أن يتلَطَّفَ به وبأسرَّتِهِ ومَن لآدَ به من قومِهِ، وأن  
يُحسِنَ ختامَهُم جميعًا في "مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ"<sup>543</sup> ترعاهم رعاية الرَّحمنِ وعنايتُهُ الأبدِيَّة:

وتشملي وعائلي وقومي      يدُ الرَّحمنِ باللَّطفِ الحَفِيِّ  
بسِدْرَةِ مَقْعَدِ الصِّدْقِ المَعْلَى      بعينِ اللهِ في عيشِ هَنِيِّ  
لدى آبائنا عقدًا فعقدًا      لفاطِمَةَ وسَيِّدِنا علي<sup>544</sup>

ويسترعي الانتباه تأكيدُه المتكرِّر لِنسبَتِهِ الحسينيَّةِ واهتمامه بها ليس فقط في مضامين المحاور بل حتى  
في خواتيم المَدَحِ.

ومن جميع ما سبق يمكن أن يُخلَصَ إلى التَّناجِحِ التَّالِيَةِ:

■ إنَّ غرضَ المديحِ النَّبويِّ قد نالَ قسطًا وافِرًا من شعرِ أبي الهُدَى وأكثرَ منه حتى احتوى  
على معانٍ وأفكارٍ متنوِّعةٍ، جعلت من مديحِهِ يندرجُ تحتِ كُلِّ طرازٍ من الطُّرُزِ التي مرَّ  
بها المديحُ النَّبويُّ عبرَ العصورِ، على الرَّغمِ من كونِ مديحِهِ يميلُ إلى الطُّرازِ الثَّالثِ الذي  
جُعِلَ فيه المديحُ النَّبويُّ غرضًا بل فنًّا مُستَقِلًّا له أركانهُ ولَبِنائُهُ التي يقومُ عليها صرْحُ  
قصائِدِهِ المَدْحِيَّةِ.

<sup>542</sup> د.م.ش، 75.

<sup>543</sup> القمر، 55/54.

<sup>544</sup> د.م.ش، 212.

- ومن أكثر ما اهتمَّ به أبو الهُدَى في مَدْحِهِ هو مدح الصِّفَات الخُلُقِيَّة، بينما نَدَرَ تناولُهُ للصِّفَات الخُلُقِيَّة إلا بأبياتٍ هي إلى التَّظْمِ والوصفِ أقربَ منها إلى المَدْح والشِّعْرِ.
- وقد أبرزت مدائحُ أبي الهُدَى إطلاَعًا منه على كتب السِّيرِ والشَّمَائِلِ، بالإضافة إلى أشعارٍ غيره من المادحين حيثُ تلاقى معهم في معانيهم المدحِيَّة ولربَّما زادَ عليها بما يُميِّزها عنهم؛ وقد جرَّه هذا إلى الإكثارِ من الاقتباسات من القرآن الكريم والحديث الشَّريف.
- كما تميَّزت قصائدُ هذا الغرض - إلى جانب سيرها على مسار المدح النَّبويِّ التَّقليديِّ الذي سار عليه المادحون - بما طَبَعها به أبو الهُدَى من الطَّابعِ الدَّائِي لَمَّا تحدَّثَ عن نفسه من خلال الشُّكوى والألم والاعتراب، حيثُ ضَجَّتْ مقاطعُ مدائِحِهِ بكلِّ ذلك.
- وبرزَ أثرُ التَّصوِّفِ جليًّا في مدائِحِهِ من خلال الاصطلاحات الصُّوفيَّة التي تحلَّلتها - كاصطلاحاتِ زُحرت بها قواميسُ التَّصوِّفِ: (السُّوى، الفَرْق، الجَمع) - ومن خلال الأفكار التي ورَدَت فيها - كفكرة أوليَّة النور المحمَّديِّ -.
- ولُوَحِظَ أنَّ اللَّبَنَاتِ الأولى التي قام عليها تعبيرُهُ الشِّعريِّ من الألفاظ والتَّراكيب كانت تتناسب مع كلِّ مقامٍ ومع كلِّ وثبةٍ نفسيَّةٍ من وثبات القصائدِ في مقاطعِها، ففي مقام بسط المديح والمعاني القويَّة، أتى بالكلمات الغريبة المجلجِلة ذات الجرس الموسيقيِّ المؤثِّر في الأسماع، وعلى العكس من هذا لَمَّا كان يتعرَّض للمعاني الرِّقيَّة في المديح فقد أتى بما يُناسب مقامها من الرِّقَّة واللِّطف، إلا أنَّ أكثرَ ما تردَّدَ من الألفاظِ هو تلك التي دلَّت على التَّدلُّل والانكسار؛ وأمَّا التَّراكيب فقد جاءت متينةً قويَّة السِّبكِ متماسكةً ومتآخيةً مع الألفاظ ولم يشدَّ أبو الهُدَى عن هذا السَّنَنِ إلا نادِرًا.

- لم تعدم تعابيره من كسوة الصّور البيانيّة والحلّل البديعيّة، وقد كادت استعارات أبي الهدي تطلق لخيال القارئ العنان ليسرّح في ميدانٍ من التّصوّرات، مما يجعل بالإمكان أن يُقال: إنّ بعض أبيات المدائح قد حمّلت معانٍ تزيد على كلماتها.
- ولعلّ آخِر ما يُمكن الإشارة إليه في هذا الغرض ليس امتزاج العاطفة بمشاعر الحبّ والإجلال تارةً والحبّ والحزن تارةً أخرى فحسب، وإنّما هو ذلك الصّدق الحقيقيّ في العاطفة أي أنّها "تبعثُ عن سببٍ صحيحٍ غير زائفٍ ولا مُصطنعٍ"،<sup>545</sup> ويبدو أنّ أبرز العوامل التي أثّرت هذا الصّدق هو عامل النّسبة الحسينيّة التي طالما كرّر ذكرها في أبياته، إضافةً إلى عوامل الاغتراب وما جرّته عليه من أحوالٍ طالما ردّد ذكرها في تضاعيفٍ مدحه النبويّة.

<sup>545</sup> أحمد الشّايب، أصول النّقد الأدبيّ (القاهرة: مكتبة النّهضة، 1994م)، 190.

## المبحث الثالث: غرض المدح

سَبَقَ التَّعَرُّضُ لمعنى المدح وتعريفه لغويًا واصطلاحيًا بأنه التَّنَاء على الأشخاص بما فيهم من صفاتٍ جميلةٍ محمودَةٍ؛<sup>546</sup> وغرض المدح من الأغراض الأصيلَّة في الشِّعر العربيِّ عَدَّهُ أبو الحسن الرُّمائيِّ (ت. 384هـ/994م) من الأغراض الخمسة التي قام عليها الشِّعر العربيِّ،<sup>547</sup> ولعلَّ ذلك لما حَظِيَ به هذا الغرض من مزيدِ عنايةٍ من الشُّعراء إذ قَلَّما أهملَهُ نابهٌ منهم، حيثُ كانوا "يتباهون بالمدح ويفتخرون به".<sup>548</sup>

وَمَنْ يَطَّلِع على تناول أبي الهُدَى لهذا الغرض يجدُ أنَّه ما اتَّخَذَ شخصيَّةً واحِدَةً أفردَهَا بمدحِهِ دون غيرها، بل مدَحَ العديد من الشَّخصيَّات، على اختلافٍ في مرَّاتِها ومكاناتها، غيرَ أنَّه من الممكن تصنيفُ هذه الشَّخصيَّات الممدوحة إلى فئاتٍ وفق ما يلي:

■ مدح آل البيت والصَّحابة

■ مدح العثمانيِّين

■ مدح الفضلاء

وكلُّ فئةٍ من هذه الفئات التي حَظِيَتْ بالمدح قد تَضَمَّتْ أشعارها عددًا من الأفكارِ والجزئيَّاتِ والأشكالِ، ستتولى السِّطورُ القادمةُ بيانَ كُلِّ منها على حِدَةٍ.

<sup>546</sup> يُنظَر: ص 101.

<sup>547</sup> والأخرى هي: التَّسبيح والهجاء والفخر والوصف، يُنظَر: القيرواني، العُمدة، 1/120.

<sup>548</sup> نجم الدِّين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبيِّ، جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات الصِّناعة)، تحقيق: محمد زغلول سلام، (الاسكندرية: منشأة المعارف، د.ت)، 350.

## 1 مدح آل البيت والصَّحابة

إنَّ جذورَ هذا المدح تعودُ إلى غرضِ المديحِ النَّبويِّ، حيثُ اقترنَ مدحُهُم بمدحِ رسولِ الله منذ صدرِ الإسلام؛ ولعلَّ غالبَ المدائحِ النَّبويَّةِ قد استطرَدَ فيها قائلوها مُعَرِّجينَ إلى مدحِ الصَّحابةِ وآلِ البيتِ، فلطالما ذُكِرَ مدائحُهُم بالسَّلامِ والتَّرضيِّ عليهم وعنهم؛ غيرَ أنَّ أفرادَ الشُّعراءِ لقصائدٍ مخصوصةٍ بمدحِ آلِ البيتِ أو الصَّحابةِ قد يجعلُ تلكَ القصائدُ تخرجُ من إطارِ غرضِ المديحِ النَّبويِّ إلى إطارِ غرضِ المدحِ العامِّ -على الرَّغمِ من أنَّ مدحِ هذه الفئَةِ نَبَعٌ من التصاقها بالنَّبِيِّ الأكرمِ عليه السَّلامِ-.

وقد حَظِيَّتْ هذه الفئَةُ بنصيبٍ وافٍ من شعرِ أبي الهُدَى سواءً بالقصائدِ المستقلَّةِ أم بالمقاطعِ التي استطرَدَ فيها بمدحهم ضمنَ القصائدِ الطَّوالِ، ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ الرَّجَلَ قد انطوى على عظيمِ التَّبجيلِ والمحَبَّةِ للفريقينِ -الصَّحابةِ والآلِ- فلم يَلِ إلى فريقٍ دونَ آخرٍ؛ ولعلَّ أوَّلَ ما يبتدُرُ النَّاطِرُ في مدحه هذا هو قصيدتُهُ التي دَمَجَ فيها المديحَ للفريقينِ، فقال وقد شَبَّهَهُما -تَشْبِيهًا مُرْسَلًا مُجْمَلًا، بذكرِ الأداةِ وإهمالِ وجهِ الشَّبهِ (الدِّلالةُ العادِلَةُ)- بالميزانِ المبيِّنِ لحقيقتِهِ حَبِّ النَّبِيِّ الكَرِيمِ، وكلُّ مَنْ طَفَّفَ في هذا الميزانِ فقد تجاوزَ حدودَ الدِّينِ المبيِّنِ:

الآلُ والأصحابُ كَقَتانٍ حُبِّ طه الطُّهرِ كالميزانِ  
مَنْ مَالَ عنِ واحِدَةٍ فقد طَعَى والدِّينُ محفوظٌ من الطُّغيانِ  
أكابرُ الدِّينِ دعائمُ التُّقى أقمارُ سَمَكِ عَالِمِ الإمكانِ  
وهم لوجهِ الدِّينِ دونَ مِرْيَةٍ برغمِ أهلِ الجحدِ مُقْلَتانِ<sup>549</sup>

فهو بعد أن شَبَّهَهُم تشبيهًُا بليغًا بأقمارٍ تلوح في أعالي الكون -حيثُ أهملَ أداةَ التَّشْبِيهِ ووجهَ الشَّبهِ (النُّورِ)- استعار -استعارةً مكنيَّةً- للدِّينِ وجهَ إنسانٍ وجعل له عينين هما الصَّحابةُ والآلُ الكرامُ، ثم

<sup>549</sup> د.ر.ب، 57.

انثنى بعد هذا مُبرِّزاً محبته لهم جميعاً، فجعلهم نورَ العيون وحياة القلوب، وبيّن أمله بأن يُحشَرَ في زمرتهم يوم القيامة، من خلال إتيانه بالجملة الإسمية التي تُفيد الثبوت، ليؤكد ثبات الأمل وشدة الرجاء في أن يُحشَرَ في زمرة الصالحين - الصحابة وآل البيت - فقال:

ساداتنا والرُّوحُ في قلوبنا وفي العيونِ ضوءُها التُّوراني

فنحنُ في غَدٍ لدى رُكبناهم أنعم بها والله من رُكبنا<sup>550</sup>

غير أن هذه المحبة للفريقين لم تكن بمانعة من تخصيص بعض القصائد لمدح الصحابة وأخرى لمدح آل البيت، وقد يحسُن تناول كلٍّ على حدة فيما يلي:

## أ آل البيت

من الممكن أن يُقال: إن مدح آل البيت قد برز جلياً في أيام مُبكرة من عمر دولة الإسلام، مع انحياز الآراء القائلّة بأحقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآل البيت من بعده في الخلافة، ليناوئ الشُعراء بذلك بني أمية، وبالتالي فإنّ هذا النوع من المدح قد انصبَّ بالصبغة السياسيّة فصار شعراً سياسياً، وقد اختار بعضُ الشُعراء لشعره أن يكون رايةً منصوبةً لآل البيت، ولعلَّ خير من مثَّل هذا التوجّه هو الكميّ بن زيد الأسديّ (ت. 126هـ/744م) صاحب القصائد "الهاشميّات"<sup>551</sup> في آل البيت؛ فافترق الشُعراء بالمدح لآل البيت إلى مدح سياسيٍّ وآخر دينيٍّ؛ وقد شقَّ أبو الهدى لنفسه طريقَ المدح الدينيِّ، وبالاطِّلاع على مدائجه يظهرُ للنّاظر أنّه مدح آل البيت بشكلٍ عامٍّ، ومدح شخصيّاتٍ منهم بشكلٍ خاصٍّ.

<sup>550</sup> د.ر.ب، 57.

<sup>551</sup> يُنظر: محمّد محمود الرافعي، شرح الهاشميّات (مصر: مطبعة شركة التّمدن الصّناعيّة، د.ت)، 4؛ أحمد محمّد الحوفي، أدب السّياسة في العصر الأمويّ (بيروت: دار القلم، د.ت)، 182.

وتلمع في سماء تلك المدائح التي اختصت بمدح عامّة آل البيت قصيدته التي افتتح مطلعها بمدحهم بعلوّ المجد والشجاعة في ساحات الوعى، وقد ملأ المطلع بالطباق (طارف/تليد، قريب/بعيد، قدم/جديد، والد/وليد)، فقال:

سبقوا البرية طارفاً وتليداً<sup>552</sup> وعلوا عليهم والدًا ووليدًا  
قومٌ إذا اجتذبوا أعنة خيلهم جعلوا قريب الغالين بعيدًا  
خلقت أحاديث الزمان وذكرهم تلقاه مع قدم الزمان جديدًا<sup>553</sup>

فهو يراهم السابقين في ميادين المجد من غابر الأزمان إلى حاضرهما، والذين سمو على جميع الناس صغارًا وكبارًا، كيف لا؟ وهم أسود الوعى من تنحني لشدة بأسهم هامت الصناديد، ولئن أفلت أمجاد الأمجاد السابقين فهؤلاء الرجال الأفاضل الذين سطرت ذكرى أمجادهم في كتاب الخلود فلا يخلفه تقادم الأزمان بل يزيدُه ألقًا ولمعانًا في سماوات العلاء والفخار، ويكفيهم من الشرف الباذخ أنهم آل الرسول وأنجال البتول:

سربا لهم في الحرب هيكل ذكرهم والغير يجعل للحروب حديدًا  
ما الناس إلا هم لعمري إنهم جعلوا لأيام البرية عيدًا  
أشبال أحمد آل حيدرة الوعى<sup>554</sup> أنجال فاطمة كفاك جدودًا<sup>555</sup>

ويستطرد في مدح شجاعتهم فيجعل ما هجرت به ألسنتهم من الذكر لمولاهم مبارك وتعالى هو الدرع الذي تسربلوا به في المعارك خلافاً لمن تسربل بالحديد، ثم شفع التشبية بأسلوب القصر الإضافي

<sup>552</sup> الطارف هو الجديد والتألد هو القديم، يُنظر: ابن منظور، "تلد"، 99/3.

<sup>553</sup> د.ف.م، 97.

<sup>554</sup> الحرب، الجوهرى، "وعى"، 2526/6.

<sup>555</sup> د.ف.م، 98.

فجعل من مدح آل البيت مُحَرَّجًا مخرج الحصرِ المخصوصِ بالنفي وبالأداة (إلا)، وما ذلك إلا ليؤكدَ حكم مدحهم أنهم النَّاسُ الحقيقيُّون وهذا من كمال زيادة الاعتناء بشأن مدحهم، ثم انعطَفَ بعد ذلك إلى التَّشْبِيهِ البليغ - بإهماله لأداة التَّشْبِيهِ ووجه الشَّبه (البهجة والسرور) -، فلئن كان غيرهم من البشر أياً ما فإنهم هم الأعياد بين سائر الأيام، وهذان المعنيان يقتربان كثيراً من قول أستاذه الرَّوَّاس لَمَّا قَالَ مَفْتَخِرًا بلسانِ أهل البيت:

دروغٌ غيرنا حديدٌ وترى أجسامنا بذكره مُدَّرَعَةٌ  
والقومُ كالأيامِ يا صويحي ونحْنُ بينهم كيومِ الجُمُعَةِ<sup>556</sup>

فكلاهما قد جعل من ذكر الله درعاً لهم إذا ما لبس النَّاسُ الحديد، وكلاهما جعل سائر النَّاسِ أياً ما، لكنَّ الرَّوَّاسُ شَبَّهَ آلَ البيتِ بيومٍ مخصوصٍ هو يومُ الجُمُعَةِ، وشَبَّهَهُمُ أبو الهُدَى بالأعياد؛ في دلالةٍ تزيد من إعلاء شأنهم بمدحهم بالتَّمْيِيزِ والخصوصية.

ويعضي أبو الهُدَى في مدح آل البيت بالعلم الوافر والفضل الجَمِّ الذي شاع في الإسرار والإجهار، ويُضفي عليهم صفة الإعراض عن كلِّ ما سوى الله وعدم الالتفات إلى ما عداه من الفانيات، ويقول إنهم لَمَّا تركوا هوى نفوسهم وقهروها اندلَّت لهم كلُّ النفوس الأخرى وصارت لهم كالعبيد، وفي هذا المديح يبرز ما انطوى عليه أبو الهُدَى من تربية صوفيةٍ مُعْظَمَةٍ لشأن ترك "السيوى"<sup>557</sup> وطرح أهواءِ النفوس:

<sup>556</sup> محمد بهاء الدِّين الرَّوَّاس، ديوان مشكاة اليقين ومحجة المتقين (دمشق: دار الفكر، د.ت)، 178.

<sup>557</sup> اصطَلَحُوا على أنَّ السيوى هو كلُّ ما سِوى الله، يُنْظَر: ص 141.

أُسُودٌ وَسَادَاتٌ سُرَاةٌ<sup>558</sup> أَمَاجِدٌ مَنَاقِبُهُمْ جَهْرًا نَمَتَ وَسَمَتَ سِرًّا  
 سَبَاحٌ بِعَابِ الْعَيْبِ غَابُوا عَنِ السِّيَوى وَخَلُّوا الْهَوَى فَاَسْتَعَبَدُوا الْعَبْدَ وَالْحَرَّ  
 هُمْ مَوْجَةُ الْبَحْرِ الْجَلِيلِ الَّتِي عَلَى سَوَاحِلِ أَلْبَابِ الْوَرَى قَدَفَتْ دُرًّا<sup>559</sup>

وقد اختار أبو الهُدَى تنكير الصِّفَاتِ الَّتِي مَدَحَهُمْ بِهَا (أُسُودٌ، سُرَاةٌ، سَادَاتٌ، أَمَاجِدٌ، سَبَاحٌ) لِيُدَلَّ  
 بِذَلِكَ عَلَى عِظَمَةِ هَوْلَاءِ الْأَفْرَادِ وَتَبَوُّئِهِمْ لِأَرْفَعِ مَكَانَةٍ فِي كُلِّ صِفَةٍ مَدَحَهُمْ بِهَا، وَبِتَعْرِيفِهِ لِلْمَنَاقِبِ  
 وَإِتْيَانِهِ بِهَا مَسْوُوقَةً بِتَرْكِيْبِ الْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ (مَنَاقِبُهُمْ سَمَتَ وَنَمَتَ) دَلٌّ عَلَى تَأْكِيدِ تَأْصُلِ وَثُبُوتِ هَذِهِ  
 الْمَنَاقِبِ فِي آلِ الْبَيْتِ وَعَدَمِ ارْتِبَاطِهَا بِزَمَنِ دُونَ آخَرَ وَكَأَنَّهَا قَائِمَةٌ بِذَوَاتِهِمْ مَدَى الْأَزْمَانِ، وَفِي الْبَيْتِ  
 الْأَخِيرِ رَسَمَ صُورَةً فَنِيَّةً تَنْقُذُ إِلَى ذَهَنِ السَّمَاعِ بَعْدَ قَلْبِهِ، فَلَرِمَا كَانَ أَبُو الْهُدَى قَدْ عَنَى بِالْبَحْرِ الْجَلِيلِ  
 كِنَايَةً عَنِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، وَشَبَّهَ مَمْدُوحِيهِ مِنْ آلِ الْبَيْتِ بِالْأَمْوَاجِ الْهَدَّارَةِ الْمُتَحِفَّةِ لِعُقُولِ الطَّالِبِينَ بِدُرِّ  
 تِلْكَ الْعُلُومِ النَّبَوِيَّةِ الْجَلِيلَةِ، فَهُوَ بِذَلِكَ صَوَّرَ الْعِلْمَ بِصُورَةِ الْبَحْرِ وَجَعَلَ الْعُقُولَ سَوَاحِلًا مُحِيطَةً بِهِ وَمَا  
 الْأَمْوَاجُ إِلَّا آلُ الْبَيْتِ، وَالْفَوَائِدُ الَّتِي تَأْتِي مِنْهُمْ هِيَ الْجَوَاهِرُ الَّتِي تُقَدَفُ عَلَى سَوَاحِلِ ذَاكَ الْبَحْرِ.

وَقَدْ تَعَدَّى مَدْحُ أَبِي الْهُدَى لِآلِ الْبَيْتِ عَمُومًا إِلَى مَدْحِ شَخْصِيَّاتٍ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ،  
 فَخَصَّ بِالْمَدْحِ زَيْنَ الْعَابِدِينَ عَلِيًّا بَنَ الْحُسَيْنِ (ت. 95هـ/713م)، فَجَعَلَ مَشَاعِرَهُ تَطِيرُ بِجَنَاحِ الشِّعْرِ إِلَى  
 رِحَابِ ذَلِكَ الْإِمَامِ وَرَاحَ يَمْدُحُهُ مُفْتَتِحًا قَصِيدَتَهُ بِقَوْلِهِ:

إِلَى أَعْتَابِ زَيْنِ الْعَابِدِينَا سَرَّتْ أَرْوَاحُ حَزْبِ الْعَاشِقِينَا  
 لَهُ الشَّرْفُ الْمَوْرَثُ مِنْ حُسَيْنِ إِمَامِ بَنِي الرَّسُولِ الطَّاهِرِينَا

<sup>558</sup> ذُوِي الْمَرْوَةِ وَالشَّرْفِ وَالسَّخَاءِ وَالرَّيَاسَةِ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ: "سُرَاةٌ"، 378/14.

<sup>559</sup> د.ف.م، 109.

وأبرزَ مظهرَ الهادي بطورٍ تجلَّت فيه نفحةُ طورِ سينا<sup>560</sup>  
فأبو الهدى ابتدرَ القصيدَ دونَ آيةٍ مُقدِّماتٍ، مما قد يدلُّ على توقُّدِ عاطفةِ المحبَّة، وكأنَّ التَّعبيرَ عنها  
شغله عن أيِّ شيءٍ سواها، فعبرَ عن سريانِ أرواحِ المحبين العاشقين لآل البيت إلى رحابِ زين  
العابدين، ذي المجد الأثيل من لدن أبيه الحسين وجده المصطفى عليه السلام، الذي كان خيرَ وارثٍ لعلمه  
ولحالهِ النَّبويِّ، حتى لكأنَّه انجلى رافلاً بثوبِ الاتِّباعِ السَّنيِّ الذي يحكي طوراً من الإكراماتِ الإلهيةِ  
والعطاءاتِ الرَّبانيَّةِ التي يمنُّ الله بها على عباده المقرَّبين، حيثُ كتى بقوله (تجلَّت فيه نفحةُ طورِ سينا)  
أنَّ هذا الممدوح يُصدِّقُ تلك النَّفحةَ الرَّبانيَّةِ التي أكرمَ الله بها نبيَّهُ موسى جانبَ الطُّورِ الأيمن.

ومن شمله أبو الهدى بمدحِهِ من أعيانِ آل البيت موسى الكاظم بن جعفر الصَّادقِ  
(ت. 183هـ/799م)، حيثُ راحَ يمدِّحُه بأصالةِ المحمَّد وشرفِ النَّبوةِ الموصولةِ بالنَّبيِّ الهاشميِّ وبضعتهِ  
الرَّهراء، فقال:

أَسَدٌ حُسَيْنِي الْفَضِيلَةَ سَيِّدٌ      ضَخْمُ الْمَفَاخِرِ فِي عَصَائِبِ هَاشِمٍ  
قَمَرٌ غَدَا يُجَلَى بِرُجِّ عَنَايَةٍ      سَامِي السَّنَا مِنْ كَلِّ عَيْبٍ سَالِمٍ  
فَعَلَّتْ عَنِ التَّشْبِيهِ نَفْحَةُ جُودِهِ      بَيْنَ الْوَرَى بَعْرَابَةٍ أَوْ حَاتِمٍ  
دُخْرِي الْهَرَبُ الْأُرُوعُ الْفَحْلُ الَّذِي      يعلو ارتفاعاً عن تحيُّلِ نَاطِمٍ<sup>561</sup>

فالكاظم هو السَّيِّدُ الَّذِي وَرِثَ الْمَجْدَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى طَلَعَ فِي بُرْجِ الْفَخَارِ مُتَأَلِّقًا بَعْلَوٍ لَمْ يَشُبْهُ أَيُّ  
عَيْبٍ، فَهُوَ الَّذِي سَمَّتْ مَفَاخِرُهُ حَتَّى جَلَّتْ عَنِ التَّشْبِيهِ بغيرِهِ، حَيْثُ أَتَى بِالتَّشْبِيهِ الضَّمْنِيِّ، فَإِذَا كَانَ  
الطَّائِي حَاتِمٌ (ت. 46ق.هـ/605م) وَعُرَابَةُ الْأَوْسِيُّ (ت. 60هـ/680م) يُضْرَبُ بِهُمَا الْمَثَلُ فِي الْجُودِ

<sup>560</sup> د.ر.ت، 270.

<sup>561</sup> د.ر.ب، 53.

والسَّخَاء،<sup>562</sup> فَأَنَّى لكرمهما وجودهما أن يَرْقى إلى فيَّاضِ جودِ كَفِّ موسى الكاظمِ وهل يُشَبَّهُ البَحْرُ  
بالْقَطْرِ؟، أم كيف لمفاخرِهِ أن تُحيطَ بها الأَخِيْلَةُ إذ هي التي جَلَّتْ عن أن تُحيطَ بها أشعارُ شاعرٍ أو  
نَظْمُ ناظِمٍ؛ وقد جاءَ في البيتِ الأخيرِ بالبديعةِ المعنويَّةِ المُسمَّاةِ بحسنِ التَّعديدِ حيثِ استدعى  
لممدوحِهِ صفاتٍ مدحيَّةً مُفردَةً مُعرَّفَةً مُتلائِمَةً في معاني القوَّةِ والإجلالِ فيما بينها (ذخري، الهزبر،  
الأروع، الفحل)، فتجاوَرَت مُتراصَّةً إلى بعضها البعض محشودَةً للدَّلالةِ على فائقِ تعظيمِ المادِحِ  
لممدوحِهِ وإعجابِهِ بشمائلِهِ وخصالِهِ.

وممن مدحهم أبو الهُدَى من أعيانِ أهلِ البيتِ عليِّ الرِّضا بنِ موسى الكاظمِ  
(ت.203هـ/818م)، إذ ألحَقَ مديحَهُ بما يُنسَبُ لأبي نواسٍ لَمَّا سئِلَ عن عدمِ مدحه لعليِّ الرِّضا  
فأجابَ:

قلتُ: لا أستطيعُ مدحَ إمامٍ كان جبريلُ خادِمًا لأبيه<sup>563</sup>

فألحَقَ به أبو الهُدَى ما يقربُ من معناه، فجعل مديح هذا الإمامِ فخراً يفخرُ به ناظِمُهُ، وكيف لا  
وأبوه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي كان بيئُهُ مهبطاً للملائكةِ ومُنزلاً لرحماتِ السَّماءِ وبركاتِ القرآنِ:

إنَّ مدحَ الرِّضا عليِّ لعمري يفخرُ المادِحُ المفاخرُ فيه

كعبةُ الأَمَنِ مهبطُ الرُّوحِ جبريدٍ لَ الأَمِينِ بيتُ أبيه<sup>564</sup>

<sup>562</sup> يُنظَر: الزركلي، الأعلام، 151/2؛ المحسن بن علي التَّنُوخي، المستجد من فعلات الأَجواد، تحقيق: أحمد فريد الزبيدي، (بيروت: دار الكتب  
العلمية، 1426هـ/2005م)، 64.

<sup>563</sup> شمس الدين بن خلِّكان، وَفَيَاتِ الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، 1970م)، 270/3؛ (والبيت لم أجدهُ في ديوانِ أبي  
نواس).

<sup>564</sup> د.ر.ح، 147.

وقد فَطِنَ المادحون إلى تَهْمَةِ الرَّفْضِ المَوْجَّهَةِ إِلَيْهِمْ إذا ما هم بادروا إلى مدح آل البيت وأعيانهم من الأئمة، فراحوا ينفون ما أُصِقَ بهم، معبرين عن ولائهم الشَّريف الأَسْنَى لآل البيت، ومنهم الشَّافِعِيُّ (ت.204هـ/819م) فيما نُسِبَ إليه أنه نفى أن تكون محبة آل البيت رفضاً، ولئن كانت كذلك بزعم الزاعمين فقد راح يُشْهِدُ الإنس والجنَّ على أنه رافضيٌّ، فقال:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَيْشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِيٌّ<sup>565</sup>

وتبعه أبو الهدي الذي خاطب حُسادَه الذين رموه بتهمَة الرِّفْضِ لما انطوى عليه من محبة علي المرتضى وآل بيته، فقال:

حَسِبَ الجَاهِلُ الحُسُودُ بَأَنَّ الـ حُبَّ لِلْمُرْتَضَى وَلِلآلِ رَفْضًا  
مَا دَرَى أَنَّ حَظَّهُ قَدَّمَ الرَّاءِ ءَ وَقَبَلَ التَّقْدِيمَ قَدْ كَانَ فَرَضًا<sup>566</sup>

فهو يُعَلِّلُ اتِّهامه بالرِّفْضِ تعليلاً لطيفاً، إذ يجعل الحاسد سيء الحظِّ في حبِّ أهل البيت حيثُ قَدَّمَ حرفَ الرَّاءِ على حرفِ الفاءِ فصار (رفضاً) بعد أن كان (فرضاً)، لذا يجد الناظر في مدح أبي الهدي تكراره لهذا المعنى من أن محبة أهل البيت فرضٌ دينيٌّ على كلِّ مؤمنٍ، وقديماً ردَّدَ الفرزدق (ت.110هـ/728م) هذا المعنى فقال:

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَقُرْبُهُمْ مَنجَى وَمُعْتَصِمٌ<sup>567</sup>

<sup>565</sup> أبو القاسم الحسين بن علي المغربي، أدب الخواص، تحقيق: حمد الجاسر، (الرياض: دار اليمامة، 1400هـ/1980م)، 96.

<sup>566</sup> د.ف.م، 159.

<sup>567</sup> الفرزدق همام بن غالب، ديوان الفرزدق، تحقيق: علي فاعور، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1407هـ/1987م)، 511.

وقد جاء أبو الهدى بالمعنى ذاته مسوقاً مع الاقتباسات القرآنية التي تُشيرُ إلى فضل أهل البيت، وجاعلاً من محبتهم حبل النجاة يوم القيامة، فقال وقد شبه حُبهم -تشبيهاً بليغاً- بحبل السلامة الذي يُتَشَبَّثُ به إن ما أُريدت النجاة في الآخرة:

موَدَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ فَرَضٌ كَمَا يُدْرَى      وَحُبُّهُمْ حَبْلُ السَّلَامَةِ فِي الْآخِرَى  
وَقد نَزَلَ الْقُرْآنُ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ      وَفِي (قُلْ تَعَالَوْا) زَادَهُمْ رُحْمًا قَدْرًا  
وَفِي آيَةِ (الْقُرْبَى) وَفِي (هَلْ أَتَى) أَتَى      لِمَجْدِهِمْ شَأْنٌ سَمَا فِي الْوَرَى ذِكْرًا<sup>568</sup>

فهو يمدحهم بعروجهم إلى أفق المعالي لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي بُيُوتِهِمْ، وجاءت آيات الذكرِ مُعْظَمَةً لَشَأْنِهِمْ، مشيراً إلى الآيات القرآنية الثلاثة، التي أوَّها: هي قول الله محاطباً نبيّه المصطفى عليه السلام بشأن أهل الكتاب: "فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ"،<sup>569</sup> فلم يكن من النبيِّ الكريم إلا أن أتى بالحسن والحسين وعليٍّ وفاطمة رضوان الله عليهم لِيُباهِلَهُمْ، فما إن رأوهم حتى قال قائلُهُم: "إِنِّي لِأَرَى وَجُوهًا لَوْ سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَزِيلَ جَبَلًا مِنْ مَكَانِهِ لَأَزَالَهُ"<sup>570</sup> ثم أشار إلى الآيات الأخرى وهي قوله تبارك وتعالى: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى"،<sup>571</sup> وقوله: "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"،<sup>572</sup> حيث أشار المفسِّرون إلى أنَّها نزلت في أبي الآل الكرام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه،<sup>573</sup> وفي تلك الآيات

<sup>568</sup> د.ف.م، 103.

<sup>569</sup> آل عمران، 61/3.

<sup>570</sup> أبو إسحاق أحمد التُّعَلِّي، تفسير التُّعَلِّي، تحقيق: الطَّاهر بن عاشور، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1422هـ/2002م)، 85/3.

<sup>571</sup> الشورى، 23/42.

<sup>572</sup> الإنسان، 8/76.

<sup>573</sup> يُنظر: البغوي، المعالم، 294/8.

جميعاً يرى أبو الهدى إشاراتٍ إلى علو رفعة أهل البيت، وتخليد ذكريهم، فما كان منه إلا أن سخر تلك الآيات باقتباسٍ ليزيد من قوة حضور مديحه وأثره في نفوس المتلقين.

ويمكن القول بناءً على ما سبق: إن المديح لآل البيت عند أبي الهدى كان مُقيِّداً بمذهبه السنيّ المعتدل فلم يميل كُلَّ الميل فيذهب مذهب الإفراطِ القائلِ بعصمة آل البيت وتنزيههم عن المعاصي، أو الحطِّ من رتبة غيرهم من الصحابة الكرام.

### ب الصحابة

سبقت الإشارة إلى أن أبا الهدى جعل محبة الفريقين -الآل والصحب- كفتان لا يُطَقَّف مؤمنٌ خالص الإيمان فيهما، فلا غرو أن يكون قد أفرد للصحابة حظاً وافراً من مدائحه، وهي التي جاءت تارةً بمقاطع تخللت القصائد الطوال، وتارةً أخرى بقصائد مُستقلة كلُّ واحدةٍ منها تمدح فرداً من أفرادهم وعلمًا من أعلامهم. فمما مدح به جمع الصحابة الكرام، مقطعٌ تضمنته قصيدته التي يقول في مطلعها:

ما الرّاد من دار العُروُر بزادٍ إلا التّقى وخلائقُ الرّهّاد<sup>574</sup>

فهو بعد أن استهلها بهذا المطلع الذي يُرعب في الآخرة ويُرهد في الدنيا ومتاعها الزائل ثم استطرّد في التحذير من المغترّين بالغرور، أحسن التخلّص إلى مدح الصحابة بعد أن وصم طوائف المغترّين بأنهم الضالّون عن منهج السّلامية، ثم عرج إلى هذا المنهج المُقامة أركانه من قبيل أعظم النقاد، فقال مُستطرّداً:

لم يهدهم رأيٌ سليمٌ للذي درجت عليه أعظمُ النّقاد

<sup>574</sup> د.ر.ع، 27.

فأولئك النُّقَّادُ قومٌ طَوَّرَهُمُ طَوْرُ النَّبِيِّ وَحَزَبِهِ الْأَمْجَادِ<sup>575</sup>  
 ومن أعاضِمِ النُّقَّادِ الَّذِينَ عَرَفُوا حَقِيقَةَ الدُّنْيَا التَّمَّتْ شَارِعًا فِي مَدْحِ جُمْلَةِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ،  
 الَّذِينَ هُمْ حَزْبُ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، فَمَدَحَ جِهَادَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ وَنَشْرِ دِينِ الْهُدَى،  
 فقال:

صَانُوا حِمَى الدِّينِ الْمُبِينِ بِعَزْمِهِمْ وَحَمُوا مَعَالِمَهُ مِنَ الْأَضْدَادِ  
 نَهَضُوا لِإِعْلَاءِ الْهُدَى فَسَيُوفُهُمْ فِي اللَّهِ لَمْ تَدْخُلْ إِلَى الْأَعْمَادِ  
 مَحَقُوا قَتَامَ<sup>576</sup> الظَّالِمِينَ فِي الْوَعَى مَزَجُوا بِيَاضَ رِقَائِهِمْ بِسَوَادِ  
 فَكَأَنَّما الْقَرْيُوسُ<sup>577</sup> كَعْبَةٌ أَنَسِهِمْ فِي سُوحِ مَعْرَكَةٍ وَعَجَّ جِهَادِ<sup>578</sup>

وهنا يُبْرِزُ أَبُو الْهُدَى مَدَى اهْتِمَامِهِ بِمَدْحِ جِهَادِ الصَّحَابَةِ مِنْ خِلَالِ إِتْيَانِهِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى  
 عِظَمِ ذَلِكَ الْجِهَادِ وَبَلُوغِهِ الذَّرْوَةَ فِي كُلِّ وَصْفٍ أَتَى بِهِ (نَهَضُوا، مَحَقُوا، كَعْبَةٌ أَنَسِهِمْ)، فَالصَّحَابَةُ نَهَضُوا  
 بِأَمْرِ الْجِهَادِ مَتَيْقِظِينَ وَقَامُوا بِمَهْمَّتِهِ أتمَّ الْقِيَامِ، لَتَعْلُو رَايَاتُ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَتُصَانَ بِيضَةُ الْإِسْلَامِ،  
 وَيَاخْلَصِيهِمْ لَمْ يُعَمِّدْ سَيْفٌ لَهُمْ فِي قِرَابِهِ كِنَايَةً عَنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَكُنُوا مُخْلِدينَ إِلَى الْأَرْضِ وَزِينَةَ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا  
 الرَّائِلِ، فَقَدْ تَنَقَّلُوا مِنْ حَرْبٍ إِلَى حَرْبٍ لَتَعْلُو كَلِمَةُ الْعَدْلِ وَيُحَى الظَّالِمُونَ مُحَوًّا لَا يَبْقَى مَعَهُ أَيُّ أَثَرٍ  
 لَهُمْ، وَفِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ سَاقِ التَّشْبِيهِ الْمُرْسَلِ الْمُجْمَلِ -بِحَذْفِهِ لَوْجَهُ الشَّبْهِ (التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ)-  
 فَجَعَلَ مِنْ سُرُوجِ الْخَيْلِ لَيْسَتْ ذَرْوَةٌ لَدَّتْهُمْ بَلِ الْكَعْبَةِ الَّتِي يَقْصِدُونَهَا حُبًّا وَإِجْلَالًا لَيْتَمَّ لَهُمُ الْأَنْسُ  
 وَالْإِرْتِيَاخُ فِي سَاحَاتِ الْوَعَى.

<sup>575</sup> د.ر.ع، 27.

<sup>576</sup> السَّوَادُ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "قَم"، 460/12.

<sup>577</sup> حِنُو السَّرْجِ، وَالْقَرْبُوسَانُ هُمَا مَتَقَدِّمُ السَّرْجِ وَمَوْخَرُهُ، وَهُمَا فِي سَرَجِ الْخَيْلِ كَالشَّرْحَيْنِ فِي رِحْلِ الْإِبِلِ، يُنْظَرُ: الرَّيْبِيدِيُّ، "قَرْبِس"، 361/16.

<sup>578</sup> د.ر.ع، 27.

ومن مدح جمع الصحابة ينتقل أبو الهدي فيخصص مدحا مستقلة في أعيانهم، حيث نال الخلفاء الأربعة قسطاً من مدائحهم، وإلى جانبهم خالد بن الوليد وأبو أيوب الأنصاري (ت. 52هـ/674م) رضوان الله عليهم، وقد كانت المدح ضمن مقاطع في قصائده الطوال، أو في قصائد خاصة بكل شخصية على حدة. وفي طليعة الممدوحين الصديق أبو بكر رضي الله عنه، فقد مدحه أبو الهدي بقصيدة مفردة جاءت بواحدٍ وثلاثين بيتاً، استهلها بقوله:

بعزم أمير المؤمنين أبي بكرٍ لقد خفقت للدين ألوية النصر  
حبيب رسول الله صديقه الذي طوى حبه في حالي العسر واليسر  
وهام به في مذهب الصديق مؤقناً به قبل أن تبدؤ الشؤن من الخدر<sup>579</sup>

ويلاحظ أن أبا الهدي قد تجاوز مرة أخرى التقليد المتبع لدى عامة الشعراء من التمهيد بالنسيب وغيره، واستفتح القصيد بالمدح المباشر لعزيمة خليفة المسلمين الأول، الذي جعل رايات الحق مرفقة خفاقة، وهي كناية تحكي نصر المؤمنين ودين الإسلام، ومضى أبو الهدي مختاراً لممدوحه المعاني الدينية البحتة التي ارتبطت بعلاقته برسول الإسلام وهيامه بهذا الرسول الكريم وتجاذب المحبة بينهما، وصدق يقينه وإيمانه به في كل الأحوال، وفي عجز البيت الأخير كناية عن أن إيمانه وتصديقه كان قبل أن يستوي زرع الدين على سوقه ويشتد أمره؛ ثم يستطرذ إلى مدح حال أبي بكر وعزيمته الشماء بعد وفاة النبي الأكرم وما نهض به من حزم بقتال أهل الردة في القرى والبوادي، فقال:

ولما قضى المختار قام مقامه وأحكم أمر الدين في المدين والفقر  
ولولاه شل العزم وانقصم الرجا وفل نظام الحكم في النهي والأمر  
وراح بأمرات القناعة زاهدا كأحمد أفنى العمر في ذلك الإثر<sup>580</sup>

<sup>579</sup> د.ر.ت، 119؛ والخدر واحد الأудар ويأخذ به الستارة والحجاب وكل ما يوارى، يُنظر: أحمد مختار، "خدر"، 618/1.

<sup>580</sup> د.ر.ت، 120.

ولتقوية المعنى الذي أرادَهُ في البيت الأوَّل من مدحٍ لعزيمةِ الصِّدِّيقِ وحزمِهِ، عمد أبو الهُدَى إلى تلكَ المعاني المجرَّدة - من همةٍ ورجاءٍ وسياسةٍ - فنفعَ فيها روحَ الحياة، فجعل من عزيمةِ أهل الإسلام ذاتًا أصابها الشَّلَل لولا أن تدارَكها ماضي همةِ الصِّدِّيقِ، ومن رجاءِ أهل الإسلام ذاتًا انقصَمَ ظهرُها لولا صارمُ عزمه، أمَّا نظامُ الحكم فقد جعلهُ حُسامًا أصابتهُ فُلُوقُ التَّفَلُّتِ والانفراطِ لولا ثاقبُ رأيه - وكلُّ ذلك على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ -، ثم انبرى يخلعُ على ممدوحِهِ حُلَّ السَّيرِ على إثرِ الهادي أحمدَ عليه السلام فجعلَ القناعةَ - بالتشبيهِ البليغِ - والرُّهدَ حُلَّةً قد تزيَّا بها الصِّدِّيقُ وراح يرفلُ بها عُمرُهُ كُلُّهُ إلى أن لقيَ الله.

وخلال مدحِهِ النَّبويَّةِ الطَّويلة التي يقولُ في مطلعِها:

لَكَ فِي مَهْمِهِ<sup>581</sup> التَّجَلِّي البهَاءُ يَا نَبِيًّا نُؤَابُهُ<sup>582</sup> الْأَنْبِيَاءُ

يستطرِدُ أبو الهُدَى فيها منتقلًا إلى مقطعٍ يمدحُ فيه الصِّدِّيقَ فينتقلُ بأسلوبِ التَّفريعِ من الصِّفَاتِ الدِّينيَّةِ إلى الصِّفَاتِ التَّقليديَّةِ التي منها - الكرمُ والجود -، مُحْيِيًا البيت الأوَّلَ بإطنابِ التَّكريرِ (الكلُّ/سيِّدُ الكلِّ) وكأنَّه يتلَدَّدُ بتكرارِ هذه المفاخرِ التي حازَهَا ممدوحُهُ الصِّدِّيقُ:

بِإِذْلِ الْكُلِّ فِي هَوَى سَيِّدِ الْكُلِّ لِ وَيَتَلَوُ صَدَقَ الْغَرَامِ السَّخَاءُ

شَيْمٌ تَنْصَحُ الْعَبِيرَ وَمِنْهَا لَاحٌ لِلْعَيْنِ جَنَّةٌ خَضْرَاءُ<sup>583</sup>

وبتعريجهِ على الصِّفَاتِ الحميدةِ أجمعها لهذا الممدوحِ أوجَزَ فاستعارَ لها ندى الورود التي ترشُّحُ بالشَّدَى العاطرِ - على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ -، واستعارَ لهذه الأخلاقِ نضارةَ الجنانِ الخضرِ التي يزدهي

<sup>581</sup> المفازة، يُنظر: الجوهرى، "مهه"، 2250/6.

<sup>582</sup> د.م.ش، 6.

<sup>583</sup> د.م.ش، 18.

أَلْفُهَا فِي عِيُونِ النَّاطِرِينَ - مِنْ طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ -؛ جَاعِلًا مِنَ الْمَدْحِ عِبْرَ اسْتِخْدَامِهِ لِهَاتَيْنِ  
الاسْتِعَارَتَيْنِ قُوَّةً مُؤَثِّرَةً فِي الْمُتَلَفِّي تَوْكِيدَ عِظَمِ هَذَا الْمَمْدُوحِ، وَتَغْرُسُ فِي أَفْئِدَةِ السَّامِعِينَ لِهَذَا الْمَدْحِ غَرْسَ  
الْحُبَّةِ وَالْإِجْلَالَ لَهُ.

وَيَبْنَعُ الصِّدِّيقُ فِي الْمَدِيحِ الْفَارُوقُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الَّذِي نَالَ قَصِيدَةً مُفْرَدَةً مِنْ أَبِي  
الْهُدَى جَاءَتْ بِثَلَاثَةِ وَثَلَاثِينَ بَيْتًا، ابْتَدَرَ مَطْلَعَهَا بِالْمَدِيحِ الْمُبَاشِرِ دَوْمًا تَمْهِيدًا، قَارِنًا السَّلَامَ عَلَى أَمِيرِ  
الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٍ مَفْحَرَةَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، مُوَشِّيًا الْمَطْلَعُ بِالتَّصْرِيحِ قَائِلًا:

عَلَيْكَ دَهْرًا سَلَامٌ اللَّهُ يَا عَمْرُ ففِيكَ لَا زَالَ دِينُ اللَّهِ يَفْتَخِرُ

عَالِي الْجَنَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو حَفْصٍ كَرِيمِ الْخِصَالِ الْأَوْرَعِ الْخَطِرُ<sup>584</sup>

ثَانِي الْوُزِيرِينَ وَالْقَرْمُ<sup>585</sup> الْمُهَابُ وَمَنْ مِنْ أَرْزِهِ قَامَ عَنِ دِينِ الْهُدَى وَزُرُ<sup>586</sup>

وَيَحْشِدُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي وَالَّذِي يَلِيهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي يُمدِّحُ بِهَا مَمْدُوحَهُ، فَتُضْفَى عَلَيْهِ صُورَةٌ مِنْ  
صُورِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، فَالْفَارُوقُ هُوَ السَّيِّدُ الْمَهِيْبُ الَّذِي لَا يُدَانِي شَرْفًا وَسُؤْدَادًا، وَهُوَ الرَّفِيعُ الشَّانِ  
وَالْحَمِيدُ الشَّمَائِلِ الَّذِي يَرُوقُ فِي عَيْنِ كُلِّ نَاطِرٍ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بِمَمْدُوحِهِ إِلَى مَدْحِ الصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي  
نَالَهَا فَهُوَ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ عَيْنَ الْوَرَعِ حَتَّى صَارَ مِثَالًا لَهُ، وَهُوَ الْوَزِيرُ الثَّانِي لِلْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامِ وَالْجَبَلُ  
الشَّامِخُ الَّذِي بَعَزَمَهُ وَهَمَّتِهِ أَنْهَدَّ جَبَلٌ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْأَخْطَارِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَلَا  
يُنْسَى أَبُو الْهُدَى تِلْكَ الْمَآثِرَ الَّتِي تَلَأَلَتْ بِهَا كَتَبَ التَّارِيخِ عِنْدَمَا أَتَتْ بِتَرْجُمَةِ الْفَارُوقِ، فَجَعَلَهَا - مِنْ  
طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ - تَعْصُ بِمَا امْتَلَأَتْ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَآثِرِ الْعُمَرِيَّةِ:

<sup>584</sup> الْخَطِرُ هُوَ الْعَالِي الشَّرَفِ وَالْمَقْدَارِ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "رُوع"، 251/4.

<sup>585</sup> السَّيِّدُ الْمَكْرُمُ الَّذِي لَا تَعْتَرِيهِ ذُلَّةٌ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "قَرْمٌ"، 2009/5.

<sup>586</sup> د.ر.ت، 120.

آيَاتِكَ الْبَيْضُ لَا تُحْصَى مَفَاخِرُهَا غَصَّتْ بِهَا كُنُتُ الْإِسْلَامِ وَالسَّيْرِ  
(لو كان بعدي نبي) في الحديث أتى بشأن عَزِّكَ إِرْغَامًا لِمَنْ كَفَرُوا  
فَرَحْمَةً تَجْعَلُ الْأَطْفَالَ فِي مَرَجٍ وَأَسُسَ عَدَلٍ لَدَيْهِ يَرْجُفُ الْحَجَرُ<sup>587</sup>

وقد وصف آياته ومآثره بناصع البياض كنايةً عن حُسْنِهَا ورفيع شرفها النَّقِيَّ الذي لم تشبهه شائبةٌ من النَّقَائِصِ أو المعايير، ولتأييد هذا المعنى حرصَ على أن يستحضرَ في البيت الثَّانِي الاقتباسَ من كلام النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطَّاب"،<sup>588</sup> ثمَّ عرَّجَ إلى الميزان الفاروقي المنصوبِ في رعيته فنكَّرَ الرَّحْمَةَ التي حواها قلبه إعظامًا لشأنها الذي امتدَّ ليشملَ حتى صغار الرَّعِيَّةِ، وعَرَّفَ شِدَّةَ الْعَدْلِ ليدلَّ على عِظَمِهِ وشموله كلِّ أركانِ دولته، واستعار -استعارةً مكنيةً- وصفَ الْارْتِبَافِ لِلْحَجَرِ لِيُبْرَزَ بَاهِرَ قُوَّةِ تِلْكَ الْعَدَالَةِ الْفَارُوقِيَّةِ التي ازدانت بها مناقبُ الْفَارُوقِ، وهي تلك المناقبُ التي مدحها في موضعٍ آخرَ ضمنَ مقطعٍ في مدحةٍ نبويةٍ قال فيها:

ما ذكّرنا منه المناقب إلا أسكرتنا من دورها صهباء<sup>589</sup>

فهو يجعلُ من سموّ تلك المناقبِ العُمريَّةِ وجمالِ تلك المآثرِ الْفَارُوقِيَّةِ سُلافاً تُثْمِلُ الْحَاضِرِينَ إذا ما جال ذكّرها في مسامعهم؛ ويؤكدُ هذا المعنى المراد بأسلوبِ الْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ لِيُعْلِيَ عبرَ هذا الأسلوبِ شأنَ مناقبِ ممدوحه الْفَارُوقِ رضي الله عنه.

<sup>587</sup> د.ر.ت، 120.

<sup>588</sup> أبو عبد الله أحمد بن حنبل الثَّيْبَانِي، فضائل الصَّحابة، تحقيق: وصيِّ الله مُحَمَّد عَبَّاس، (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، 1403هـ/1983م)، 436/1، (رقم 694).

<sup>589</sup> د.م.ش، 18؛ وَالصَّهْبَاءُ هي الخمرُ المعصورةُ من العنب الأبيض، يُنظَرُ: أحمد مختار، "صهب"، 1326/2.

وقد أنال أبو الهُدَى رابع الخلفاء علياً رضي الله عنه الحظَّ الوافر من مدائحِهِ، فقد أفردَهُ بعدة قصائد<sup>590</sup> مُستقلَّةٍ سوى التثف الصِّغار التي أودعت في ثنايا دواوينهِ، كمثل تلك التي يُخاطبُ فيها مَنْ يكيُلُ له اللومَ في محبةِ عليٍّ، فراح يُخاطبه مُقرِّعاً مُتَعَجِّباً من قُبْحِ كلامِهِ:

عَجَبًا من قائلٍ حبُّ عليٍّ لك دأبٌ قلتُ يا هذا الخليلي  
قد تطاولتَ بقولٍ سمج<sup>591</sup> أنا ديني في الوري حبُّ علي<sup>592</sup>

فأبو الهُدَى إذا ما كان قد رأى محبةَ آل البيت فرضاً فلا غروَ من أن يرى محبةَ عليٍّ ديناً وفرضاً، لا سيَّما وهو أبو الآل ومُقدِّمُهُم، ووزيرُ نَبَعَةِ مجدِهِم المصطفى عليه السلام، والنَّائِلُ لشرفِ مؤاخاتِهِ ومُصاهرتِهِ ومُصافاتِهِ؛ ولهذا فهو ينبري في مديحِهِ بموضعٍ آخر من قصيدةٍ مُفردةٍ، مُسبِّلاً عليه هذه الصِّفات وجاعلاً منها إكسيرَ شفاءٍ لمن ابتليَ بعُضالٍ داءٍ أعماهُ عن ضوءِ هذه المناقب، فيقول مُضَمِّناً أبياتَهُ ما يُطربُ السَّمعَ من الجناسِ الاشتقائي (روح/راح/روحي):

عَلِمُ الآلِ وصِنُو المصطفى روحُ تريقِ السَّقَامِ المعضِلِ  
حُبُّهُ رَاحِي وَرُوحِي أبداً رأسُ مالي حين ييدو عَمَلِي<sup>593</sup>

فهو يُرَكِّزُ على محبةِ هذا الإمام ويجعلُ من هذه المحبةِ دُخْرًا لَهُ عند عرضِ الأعمالِ على الله، وهذا المعنى مما ردَّدتَهُ كثيراً ألسنةُ الشعراءِ، حيثُ جعلوا من المحبةِ للمصطفى عليه السلام ومَنْ يلوذُ بِهِ من عتْرَتِهِ الطَّاهرةِ زادًا لهم يومَ المعاد، كقول أحمد الكيواني (ت. 1173هـ/1760م):

<sup>590</sup> يُنظر: د.ف.م، 114-116؛ د.ر.ت، 159، 179، 181؛ د.ر.ع، 65.

<sup>591</sup> من السَّماجة وهي الفُبح، يُنظر: الجوهري، "سمج"، 322/1.

<sup>592</sup> د.ر.ح، 173.

<sup>593</sup> د.ر.ت، 181.

مالي سوى حُيِّي لآل مُحَمَّدٍ أَمَلٌ به أرجو فَكَأَكْ صِفَادِي<sup>594</sup>

وقول ابن الوردي (ت. 749هـ/1349م) وقد جعل محبَّتهم دُخْرَهُ وإكسيرَ الغفران لخطاياها الجمَّة:

وماليَ إلا حبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فكم جَمَعُوا فضلاً وكم فُضِّلُوا جَمَعًا  
محبَّتُهُمْ تَرِيأَقُ زَلَّاتِي التي يُحَيِّلُ لي مِنْ سِحْرِهَا أَنَّمَا تَسْعَى<sup>595</sup>

أما أبو الهُدَى فقد جعلَ من محبَّة المصطَفَى وهيامِهِ بصنوهِ أَبِي الآلِ الكِرَامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ذخرَهُ المتينَ وزادَهُ ليومَ الدِّينِ، فقال من قصيدةٍ مُفَرَّدَةٍ استهلَّ مطلعها بشرحِ غرامِهِ وهِيَامِهِ المتوقِّدِ، فاستعارَ - استعارَةً مكنيَّةً - للغرامِ وصفَ الإنسانِ الذي يمشي إلى أن حطَّتْ به الرِّحالُ في قلبِ الشَّاعرِ، لِيُعَبِّرَ عن تغلغلِ تلكِ المحبَّةِ والصَّبَابَةِ بممدوحِهِ في قلبِهِ الوَلُوهِ، ثم أحسنَ التَّخْلِصَ إلى مدحِ عَلِيٍّ رضي الله عنه - الذي كَتَبَ عنه إعظامًا بساكنِ النَّجَفِ -، بعدَ أن كرَّرَ حرفَ النِّداءِ (يا) ليرنَّ في سمعِ القارئِ صوتٌ ممتدٌّ يحكي شِدَّةَ ما يعانِيهِ الشَّاعرُ من هذا التَّلَهُفِ والتَّشَوُّقِ:

سارَ العَراِمُ بقلبي فاستَقَرَّ بهِ يا طولَ وجدي ويا آهي ويا هُفَي  
وليسَ لي في عَدِي ما أستعينُ بهِ إذا سئِلْتُ عن التَّفْرِيطِ والسَّرْفِ  
سوى وُلُوهِ بطةِ المصطَفَى أبداً وصدقُ حُيِّي لُدُخْرِي ساكنِ النَّجَفِ<sup>596</sup>

ثم يستطرِدُ مادِحًا هذا الإمامَ ومُعَبِّرًا عما انطوت عليه سريرتُهُ من بالغِ الغرامِ وخالصِ المحبَّةِ التي امتزجت بروحِهِ وعُجِنَتْ بدماءِ قلبِهِ وسرَّتْ في كُلِّ أَرْجاءِ ضميرِهِ وسِرِّهِ، ويُشيرُ مرَّةً أُخرى ولكن

<sup>594</sup> أحمد بن حسين الكيواني، ديوان أحمد الكيواني، تحقيق: عمر نبهان، (دمشق: المطبعة الحنفيَّة، 1301هـ/1883م)، 68؛ والصِّفَادُ واحدُ الأصْفَادِ وهي القيود، يُنظَرُ: أحمد مختار، "صفا"، 1301/2.

<sup>595</sup> زين الدِّينِ عمر بن الوردي، ديوان ابن الوردي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (القاهرة: دار الآفاق العربيَّة، 1427هـ/2006م)، 263.

<sup>596</sup> د.ر.ت، 159.

بطرفٍ خَفِيٍّ إلى الأَصَالَةِ العَلَوِيَّةِ التي حازَهَا بالانتسابِ إلى هذا الإمامِ إذ مدَحَهُ فجعلَهُ أصلَ المجدِ الذي قد حيزَ لَهُ، وذلكَ بعد أن استعارَ للمجدِ وصفَ البيتِ وذكرَ لازِمَهُ وهو العمودُ - من طريق الاستعارة المكنيَّةِ -، ثم أَرَدَفَ بذكر صفاتِ المدحِ الأخرى فهو حَيَدْرَةُ الشَّجَاعَةِ ساميَ المقامِ وإمامِ سَادَةِ الأُمَّةِ من السَّلَفِ الماضينَ:

عمودٌ مَجْدِي الوَصِيُّ الأروغ<sup>597</sup> الأسدُ الـ عاليَ الجنابِ إمامُ السَّادَةِ السَّلَفِ  
وَفِي عَهْدٍ بقلبي ذِكْرُهُ أبداً يجري وفي طَيِّ رُوحِي والضَّمِيرُ وَفِي<sup>598</sup>

وقد ظهرَ في البيتِ الأخيرِ البديعِيَّةُ اللَّفْظِيَّةُ التي أتى بها فردَّ بها العجزَ على الصِّدْرِ (وفي/وفي) زيادةً في جماليَّةِ مدحِهِ لممدوحِهِ وتقويَّةً لانبلاجِ العاطِفَةِ الصَّادِقَةِ التي دفعتهُ لمدحِهِ؛ ولَمَّا كانت الشَّجَاعَةُ هي أبرزُ الصِّفَاتِ التي التصَّفتَ بهذا الممدوحِ فَإِنَّ أبا الهُدَى لم يكنِ بِمُهْمِلٍ لها في مدحِهِ فقد كَرَّرَهَا في موضعٍ آخَرَ من قصيدةٍ أُخرى زادت على أربعين بيتاً، استهلَّها بالمدحِ المباشرِ للصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ التي على رأسها أَنَّهُ أميرُ المؤمنينِ ورابعُ أئِمَّةِ المسلمين، ومدحَهُ قُرْبَةً يحوِّزُها من قلٍّ زادَهُ من أمثالِ المادِحِ، حيثُ قال:

كنزُ المُقِلِّ سلاحُ الخائفِ الوَجِلِ مدحُ الإمامِ أميرِ المؤمنينِ عَلِيٍّ<sup>599</sup>

ثم تعرَّضَ بعد ذلكَ لمدحِ صفةِ الشَّجَاعَةِ فاخترَ لها الكلماتَ ذاتِ الجرسِ المجلجلِ والحروفِ الجهريَّةِ والمعاني القويَّةِ التي ترنُّ في الأسماعِ قبل أن تستقرَّ في القلوبِ (جحجج الكتائبِ، الفقار، العجج، الموج، جموع، مدور) وكلُّها يحكي قوَّةَ تلكِ الصِّفَةِ وتمكُّنَها لدى الإمامِ علي:

<sup>597</sup> الأروغ من الرجال الذي يتعجب كلُّ من ينظر إليه من حسبه وكماله، يُنظر: ابن منظور، "روع"، 135/8.

<sup>598</sup> د.ر.ت، 159.

<sup>599</sup> د.ر.ت، 179.

رُبَّ الْعَجَائِبِ جَحْجَاحٌ<sup>600</sup> الْكَتَائِبِ فَيْدٌ يَاضُ الْمَوَاهِبِ وَالْحَلَّالُ لِلْعُقُلِ  
 كَمَ مَرَّةٍ مَرَّ فِي صَفِّ وَعَارِضُهُ بَدِي الْفِقَارِ فَصَارَ الصَّفُّ فِي شَلِّ  
 وَثَارٍ وَالْعَجُّ يَرْمِي مِنْ مُدَوَّرِهِ مَوْجًا فَرَدَّ جُمُوعَ الْعَيِّ بِالْفَشَلِ<sup>601</sup>  
 فهو يمدح الإمام بأنه "الحلال العقد" وكأنَّ لام التعريف تحكي الكمال لرجاحة هذا العقل، وهي التي  
 جعلته يفلُّ كلَّ العقل التي عُقِلَتْ عن إدراكها عقول العقلاء، حتى قال قائلهم إذا ما استعصت عليه  
 عُقْدَةٌ مُشْكِلَةٌ: "فَضِيَّةٌ وَلَا أبا حَسَنٍ لها"<sup>602</sup>؛ ثم راح أبو الهُدَى يَصوِّرُ أمام ناظري القارئ ساحة  
 الوعى وقد ثار النَّفْعُ فوق كتائبها واصططمت فِرْقُهَا مُتَحَفِّزَةً، فكم من مرَّةٍ انحدَرَ الإمام هادِرًا يَمُرُّ  
 بِالصَّفِّ فيقْدُ بَدِي الْفِقَارِ<sup>603</sup> جموع فرسانه فيتركهم وقد سُلووا بعزمه وشيلت جموعهم أشلاء متبعثرة.  
 ولربما أراد الشاعِرُ أن يُؤكِّدَ ما سَبَقَ من معاني القوَّة والشَّجَاعَةِ لمُدوِّحِهِ وعمد إلى أن يُلقِي بنفسية  
 القارئ شيئًا من التَّهْوِيلِ والتَّعْظِيمِ لهذه الصِّفَاتِ، فيلجأ إلى الإتيان بكلمات غريبة أو وحشية ترنُّ في  
 سمع المتلقِّي، كمثل (الزَّعْزَعَانِ، التَّهْتَهَانِ، القسطل، العقنقل<sup>604</sup>)، وقد سلك هذا السَّبِيلَ في ممدوحه  
 الإمام عليٍّ لَمَّا قال:

وَسَيِّدِنَا عَلِيٌّ ذُو الْأَيْدِي إِذَا دَهَمَ الْوَعَا بِالزَّعْزَعَانِ<sup>605</sup>  
 يَخْبُ بِمُكْفَهَّرِ دَمِ الْأَعَادِي وَحَاصِلُ ضَرِيهِمْ كَالْتَّهْتَهَانِ<sup>606</sup>

<sup>600</sup> مفرَّدُ الجَحْجَاحَةِ من الرِّجَالِ وهو السَّيِّدُ السَّمْحُ الكَرِيمُ، يُنظَرُ: ابن منظور، "ججحح"، 420/2.

<sup>601</sup> د.ر.ت، 159.

<sup>602</sup> محمَّد بن يزيد المبرِّد، المُتَعْتَبُ، تحقيق: محمَّد عبد الخالق عظيمية، (بيروت: عالم الكتب، د.ت)، 363/4.

<sup>603</sup> اسم للسَّيْفِ الذي يكون فيه الخُفْرُ الصَّغَارُ الحِصَانِ، يُنظَرُ: ابن منظور، "فقر"، 63/5.

<sup>604</sup> الكنَّيب، الزُّبَيْدِي، "عقل"، 37/30.

<sup>605</sup> من الزَّعْزَعَةِ وهي تحريكُ الشَّيْءِ بِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ، يُنظَرُ: الجوهري، "زاع"، 1225/3.

<sup>606</sup> لعلُّهُ من التَّهْتَهَةِ وهي لَكِنَّةٌ في اللِّسَانِ، فيكونُ المَضْرُوبُ لِشِدَّةِ الضَّرْبِ لَكِنًّا من الخوفِ وهولِ الصَّدْمَةِ، أو أنَّ شِدَّةَ الضَّرْبِ والطَّعَانِ من الممدوح

مُشَبَّهَةٌ بالخِيَالِ إذا ما اعْتَمِدَ معنى التَّهْتَهَةِ بِأَها الأَبَاطِيلِ والتُّهْمَاتِ، يُنظَرُ: الجوهري، "تهته"، 2229/6؛ ابن منظور: "تهته"، 482/13.

إذا ما قَسَطَلٌ<sup>607</sup> نَشَرْتُهُ زُرُقُ الـ حِوَاغِرِ فَوْقَ أَبْطَالِ الطِّعَانِ  
وَنَارَ عَقْنَقُلُ البِيدَاءِ حَتَّى غَشَاهَا حِينَ جَلَجَلَ بالدُّخَانِ<sup>608</sup>

فالأبيات تُزجُّ بالقارِي المتلَقِّي في ساحةِ الحربِ، وتغمِسُهُ في وسط أجواءِ المعاركِ، فلِكَانَ حروفَهَا وكلماتُهَا تصطكُ ببعضِها وترنُّ كما لو أنَّهَا صَنجُ الحروبِ، بل إنَّ أبا الهُدَى حرصَ على الاختيارِ الدَّقِيقِ، فحتى الأفعالُ قد أخذتْ بأعناقِهَا جميعًا معاني القوَّةِ والسِّدَّةِ (دَهَمَ، حَبَّ، نَارَ، غَشَى، نَشَرَ، جَلَجَلَ)، فالممدوحُ في ساحةِ الوغَا ما كانت التفتاتُ وَحركاتُهَا لتكونَ عاديَّةً وإِنَّمَا هي الحَبَبُ فكأنَّه من العاديَّاتِ من بناتِ الرِّيحِ، راحَ يَسْبِخُ في بحرٍ من دمَاءِ الأعداءِ، بعد أن عمَّ الغبارُ فضاءَ ساحاتِ القتالِ من وقعِ الخيولِ، وماجتْ كتائبُ الجحافلِ في تلكَ القِفَارِ حَتَّى لِيُحَيِّلُ لِمَن يرمقُهَا من بعيدٍ كأنَّ دُخَانًا قد عَلَاهَا وَغَشَى صفوفِهَا، وفي عَصَبِ تلكَ السَّاعَةِ أرعدتْ وأبرقتْ شجاعَةٌ فتى الهيجاءِ عَلَيَّ ذِي الأيادي البِيضَاءِ.

ولمَّا مضى أبو الهُدَى قُدُمًا في تعدادِ صفاتِ مديحِهِ للإمامِ عَلِيٍّ وصلَّ به المطافُ إلى الوقوفِ عن الإطنابِ في تعدادِهَا، فتوقَّفَ وكأنَّ بأنوارِ بوارِقِ تلكَ المناقبِ العَلَوِيَّةِ قد خطفتُهَا فراحَ يقولُ:

مناقبُ لو رَأَتْهَا الشَّمْسُ لَانْحَجَبَتْ دَهَشًا ولو أَنَّهُا في دَارَةِ الحَمَلِ<sup>609</sup>

وفي هذا البيت استعارَ -استعارَةً مكنيَّةً مُرَشَّحَةً- للشَّمْسِ وصفَ الإنسانِ العاقلِ الذي يرى، ليُقَالُ: إنَّ مآثرَ الممدوحِ ومناقِبُهُ علَّتْ وسمتْ شرفًا وألقًا حتى لعينِ الشَّمْسِ -وإن كانت في أوجِ توهُّجِهَا

<sup>607</sup> الغبار، الجوهرى: "قسطل"، 1801/5

<sup>608</sup> د.م.ش، 198.

<sup>609</sup> د.ر.ت، 179؛ ودارَةُ الحَمَلِ لعلَّهَا أولُ برجٍ من منازلِ الكواكبِ وكأنَّ الشَّمْسَ تكونُ في أوجِ توهُّجِهَا وتألُّقِ شعاعِهَا الذهبيِّ، يُنظر: كمال الدين محمد بن موسى الدَّمِيرِي، المقصد الأتم في شرح لامية العجم، تحقيق: هاني الميران - عباس الجراخ، (عَمَّان: دار الرضوان، 1433هـ/2012م)، 221.

وضيائها- لتخجلُ اندهاشاً ويُعشى بصَرُها فتتوارى بحجائبها إذا ما بدت لمقلتيها أنوارُ هذه المناقب  
العلوية الهاشمية.

ومن الإمام عليٍّ تحبُّ بالنَّاطِرِ الأشعارُ إلى الخليفةِ الثالثِ عثمانَ بنِ عفَّانَ (ت. 35هـ/656م)  
رضي الله عنه فلا يلمحُ مديحهُ إلا في موضعين ربما يكون السِّياقُ في القصيدةِ استلزامَ أن يُمرَّ على مديحِهِ،  
ولذلك اكتفى الشَّاعرُ بسرِّ صفاتِهِ الحميدةِ فقط، من نيلهِ لَشَرَفِ مصاهرةِ النَّبيِّ الأكرمِ، وكونِهِ ذا  
المحتدِ الأصيلِ القُرشيِّ وصاحبِ العِفَّةِ والكَرَمِ الجليلِ:

صهْرُ طه على ابنتيه وفي هـ      ذا اختصاصٍ من ربِّه وانتقاءُ  
قرشيُّ زاكِي الشَّمائِلِ وَضًا      حُ المُحَيَّا مُهذَّبٌ مِعْطَاءُ<sup>610</sup>

وفي الموضعِ الآخرِ يُضيفُ إلى حميدِ خِصَالِهِ ومزاياه ما أكرمه اللهُ به من نيلِ مقامِ الشَّهادةِ:

شهيْدُ الدَّارِ محمودُ المزايا      رفيعُ القدرِ محمودُ المعاني<sup>611</sup>

ومن أعيانِ الصَّحابةِ الذين خصَّهم الشَّاعرُ بالمديحِ سيفُ اللهِ خالد بن الوليد رضي الله عنه، ويُرجَّحُ  
أنَّ من دواعي هذا التَّخصيصِ من بين الأعيانِ هي تلك العلاقةُ بهذا الممدوحِ، فقد ربطتُهُ به صلةُ  
القرباةِ إذ هو - حسبما ذكَّرَ أبو الهُدَى - جَدُّهُ من جهةِ الأمومةِ،<sup>612</sup> ومن أجلِ هذه القُرْبَةِ فقد كان  
له مزيدُ تَعَلُّقٍ بهذا الممدوحِ، فجاءتِ مِدْحَتُهُ بما يزيد على ثلاثين بيتًا، استهلَّها بمطلعٍ فرَّ فيه من لَظَى

<sup>610</sup> د.م.ش، 18.

<sup>611</sup> د.م.ش، 198.

<sup>612</sup> يُنظر: الصَّبَّادِي، الفرقان، 44.

الزَّمانِ وأتعايه إلى نعيم النَّظَرِ في شمائلِ هذا الممدوح، سليل السَّادَةِ الأُمجادِ، صاحبِ الهِمَّةِ الفَعَساءِ  
والبأسِ الشَّدِيدِ والعقلِ الرَّشِيدِ، فقال:

نَدَبْتُ لِهَمِّي والزَّمانِ المُعانِدِ شمائلِ سيفِ اللهِ ذي البأسِ خالدِ  
سليلاً الصَّنَاديدي<sup>613</sup> الأُلى آلِ غالِبِ جُدودُ رسولِ اللهِ أهلُ المشاهِدِ  
أخو الهِمَّةِ العُلياءِ والعزمِ والحِجاءِ<sup>614</sup> أبو الفَتكِ بالأعداءِ يومَ الشَّدائِدِ<sup>615</sup>

ثم يستطرِدُ في مديحِهِ وهو يصبُّ اهتمامَهُ على الشَّجاعةِ التي بجمَّعتْ أشتاتُ معاليها فيه حتى عَدَا  
يُلَقَّبُ بحقِّ سيفِ اللهِ الذي لم تفلُهُ معامِعُ المعاركِ، فمضى يُعَدِّدُ الفُتوحَ التي أجزاها اللهُ على يديه،  
مُوشِّياً أبيانَهُ بالتَّشبيهِ المرسلِ المُجمَلِ - بحذفه لوجه الشَّبه (الاستساغة) - فالسُّمُّ يُكرِّعُ كأنَّهُ ماءٌ طيِّبٌ  
مُستَساعٌ، ثم شَفَعَ التَّشبيهِ بالجناسِ (أعرق/العراق، كسرى/كسيرا، فرسان/الفرس)، والطِّباقِ (أبقت/لم  
تُبِقْ)، فقال:

وأعرقَ في فتحِ العراقِ خيولُهُ فلم تُبقِ للأعداءِ عزمَ مُطارِدِ  
وفرسائِهِ في الفُرسِ أبقتْ مآثِراً تَعالَتْ على كَيوانِهِمِ وعُطارِدِ<sup>616</sup>  
وأصبحَ كِسرَهُمِ كَسيراً بسيفِهِ وفي جمرِهِ اللَّهَّابِ خِزِيَةُ حَمامِ  
وقد شَرِبَ السُّمَّ النَّقِيعَ<sup>617</sup> مُبَسِّمِلاً فكانَ كماءِ طيِّبِ الطَّعمِ بارِدِ  
وقد جاءَ (نِعَمَ العبدُ) في النَّصِّ خالدُ فِيا حُسْنِها من نِعْمَةٍ عندَ ناقِدِ<sup>618</sup>

<sup>613</sup> مفردة صنديد وهو السيد الشجاع، يُنظر: الجوهرى، "صند"، 499/2.

<sup>614</sup> العقل، ابن دريد، "جحو"، 1037/2.

<sup>615</sup> د.ر.ت، 85.

<sup>616</sup> من الكواكب السبعة وهي أسماء فارسية، يُنظر: عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدي، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تحقيق: حسن هاني فحص، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ/2000م)، 108/3؛ ابن سيده، المُخصَّص، 382/2.

<sup>617</sup> القاتل، أحمد مختار، "نقع"، 2273/3.

<sup>618</sup> د.ر.ت، 86.

ففي هذه القطعة استعرض الشاعر فتح خالد رضي الله عنه للعراق وكيف فلَّ بجيشه فلول فرسان فارس  
وكسر كسراهم، وكفى بقوله (جمره حامد) عن طمسيه لدين الضلالة المجوسي وإخامه للنار الموقدة التي  
يعبدها الجوس، ثم انثنى مُشيرًا إلى الحادثة التي أعزَّ الله بها دين الحقِّ لما شرب خالد السمَّ الرُّعافَ  
كأنَّه ينهلُ كأسًا من زلالِ الماءِ فكان على إثر ذلك خضوع العدوِّ واستكانته له،<sup>619</sup> وفي البيت الأخير  
مدحه بالاعتباس من الأثر المنسوب للنبيِّ الأكرم عليه السلام أنَّه قال لما رأى خالدًا مُقبلاً: "نعم العبدُ  
خالدٌ"،<sup>620</sup> حيث جعل من هذه الإشادة النبويَّة مريةً لا تُداني ولا تُجاري؛ ولم ينس أبو الهدي أن يُشير  
إلى وشائج النسبة التي تصلُّه بهذا المجد الخالديِّ فمن ثمة راح في ختام القصيدة يخاطب ممدوحه بتقديم  
المدحة إليه وينعتها - بالتشبيه البليغ - أهما قِلادة الدرِّ:

فلي نَسَبُ يُنمى إِلَيْكَ عَلَّتْ بِهِ جُدُودٌ لَعَمري نُظْمُوا كالفِرَاقِدِ<sup>621</sup>

وهاك نِظَامًا قال تاليه إِنَّهُ قِلادَةٌ دُرِّ في فَضائلِ خالِدِ<sup>622</sup>

وتجدُر الإشارةُ إلى أنَّ الشاعرَ قد مدح صحابيًا آخر هو أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري  
(ت. 52هـ/672م) رضي الله عنه، ولكنَّ دواعي هذا المدح لا تتعدى كونها منبعثةً من زيارةٍ لذلك القبر  
المنسوب إلى هذا الصحابيِّ في إستانبول،<sup>623</sup> ومن أجل هذا فقد أفرده بقصيدةٍ يتيمةٍ - في سبعة  
أبياتٍ - سردَ فيها بعض مناقبه التي من أجلها استضافته للنبيِّ الأكرم في داره، فحقق بذلك علم

<sup>619</sup> يُنظر: أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد - علي معوض، (بيروت: دار صادر، 1425هـ)، 218/2؛  
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، التنبؤات، تحقيق: عبد العزيز الطويان، (الرياض: أضواء السلف، 1420هـ/2000م)، 825/2.

<sup>620</sup> جار الله محمود بن عمرو الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، (بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1412هـ/1992م)،  
167/2.

<sup>621</sup> واجده الفرقد وهو نجم معروف من نجوم السماء، يُنظر: ابن دُرَيْد، "در"، 1147/2.

<sup>622</sup> د.م.ش، 18.

<sup>623</sup> يُنظر: أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، 1968م)، 485/3.

مجده وسما علوًا على كواكب السماء، ثم أشار إلى أن هذا الممدوح كأنه - وهو ثاوٍ في سُرارة أرضِ  
الرُّوم - ملاذٌ يؤنسُ كلَّ غريبٍ طريدٍ في تلك البقاع، حيثُ قال:

وأكرمه المختار إذ صار ضيفه وناخت له فضلًا على البابِ ناقته  
رئيسُ بني النَّجَّارِ سيِّدُهُم ومَن تعالت على هامِ السِّمَّاكِينِ<sup>624</sup> رأيتُهُ  
حمى عُرباءَ الرُّومِ إذ ذاك مثله مدى الدهرِ يحمي جنسه وعصابتة<sup>625</sup>  
وبناءً على ما سبق يُمكن القول: إنَّ أبا الهُدَى قد شَمَلَ الصَّحَابَةَ كُلَّهُم بمدحٍ عامٍّ وخصَّ  
أفرادًا منهم بمدحٍ خاصٍّ امتدَّ عند مدح بعضهم - كعليٍّ رضي الله عنه - إلى العديد من القصائد والمقاطع،  
وانحسرَّ عند بعضهم الآخر حتى لم يتجاوز القطعة أو القطعتين - كعثمانَ رضي الله عنه -، وإلى جانب ما  
أملته عليه عاطفةُ المحبة ودفعته إلى هذا المدح فإنَّ هناك أسبابًا أخرى دفعته إليه أيضًا كصلةِ القرابةِ  
أو الجوار - كما عند عليٍّ وخالده وأبي أيُّوب رضي الله عنهم -.

## 2 مدح العثمانيين

إنَّ مدحَ العثمانيين - والسُّلطان عبد الحميد بشكلٍ خاصٍّ - أمرٌ برزَ في أشعار المتأخرين،  
حتى اندفع بعضُ النقادِ إلى إطلاقِ الحكمِ القائلِ: "ما من شاعرٍ في الجيلِ الماضي - ويقصد به الجيل  
المعاصر للفترة العثمانية وخاصةً في نهاياتها - إلا ومدحَ عبد الحميد وغير عبد الحميد من سلاطين آل  
عثمان، وفرحَ بانتصار الأتراك في معاركهم وحزنَ لأحزانهم" وهو حكمٌ لا يتعدُّ عن الصَّواب كثيرًا،

<sup>624</sup> نجمان في السِّماء أحدهما يُسمَّى السِّمَّاك الأعزل والآخر يُسمَّى السِّمَّاك الرَّامح، يُنظر: الجوهري، "سمك"، 443/10.

<sup>625</sup> د.ف.م، 117.

إذ بجولةٍ في أشعار المبرزين من تلك الحِقبة يُبرهنُ على هذا الكلام، فقلَّما ترى مُحجماً منهم عن إبراز تلك العاطفة الدِّينية تجاه خليفة الإسلام.<sup>626</sup>

وأبو الهُدَى لم يكن بخارجٍ عن دائرة ذلك الزَّمان ولا ببعيدٍ عن الخطِّ العامِّ الذي انسلَّ فيه عامَّة شعرائه، ويلوِّح هذا جليًّا في هذا الموضوع بما سَطَّره من مدحٍ في السُّلطان عبد الحميد والعثمانيين وانتصاراتهم ومناسباتهم والإشادة بأعمالهم في مواطنٍ عدَّة، حيث تُطالع الناظر في الدواوين أكثر من سبعة مواضع في هذا الصَّدَد،<sup>627</sup> منها خمسةٌ جُرِّدَت خالصةً لمدح السُّلطان؛ ولعلَّ الخوض فيها يستدعي تذكُّر العلاقة الوطيدة التي جمعت بين الشَّخصيتين الشَّابَّتين ذاتا التوجُّه المُشترك في العديد من الجوانب ولعلَّ فكرة الجامعة الإسلاميَّة أبرزها - لا سيَّما إذا استذكر المرءُ أنَّه كان رئيسَ اللِّجنة المركزيَّة فيها-، ولهذا فإذا كان غيره من الشعراء قد أدكت العاطفة الدِّينية مدائحهم فإنَّ أبا الهُدَى قد شدَّ أزرها بإيمانه الجازم بضرورة الالتفاف حول هذا الخليفة ووجوب طاعته والإخلاص في نُصحِه والتصدِّي لسهام المارقين عن حُكمه والخارجين عليه، لذا فقد يجدُّ المُطلِّع على دواوينه ما يُبرِّز هذه العاطفة وهذا الإيمان ولو في غير مَعرضٍ المديح، ومما يدلُّ على هذا الكلام خِطابُه لصديقه وهو يندبُه كي يفرِّغ لُنصرتِه بعد أن رماه المفترِّون ببهتانهم، وما ذنبُه إلا محبَّة (أمير المؤمنين) وبغض (أهل المروق والباطل)، فقال:

فافرغ إلى الله بنصرٍ امرئٍ من قومك الزُّهرِ صديقٍ صدوقٍ  
حُبُّ أمير المؤمنين انطوى في سرِّه رغم صنوف المروق  
فحقُّه حقُّ مُصان الحِمى وإتما باطلهم في زُهوق<sup>628</sup>

<sup>626</sup> عمر دسوقي، في الأدب الحديث (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، 85/2، 89.

<sup>627</sup> يُنظر: د.ف.م، 144؛ د.ت.ب، 6، 74، 77، 94، 101؛ د.ر.ت، 139، 49، 131.

<sup>628</sup> د.ر.ت، 170.

ومما يسترعي الانتباه في مدح السلطان عبد الحميد الثاني أن أبا الهدي ما اقتصر في بنائها على شكل واحد بل نوع في المقدمات وتنقل عبر وثبات نفسية بين عدة مضامين وأفكار؛ فإذا كان قد افتتح أولى قصائده بالمدح المباشر لسلطان العثمانيين مُشَبِّهاً -تشيبيهاً بليغاً- إياه بالسيف الصائل الصَّارم، فقال:

عبد الحميد خلاصة الخلقاء سيفٌ أصولٌ به على الأعداء<sup>629</sup>

فإنه في قصيدة أخرى قد اهتمَّ بالمطلع فجرى به على عادة الشعراء من التمهيد بالغزل أو التسيب الرقيق، وذلك بقصد أن تهيح قرائح السامعين وترتاح نفوسهم وتتحرك مُتَهَيِّئَةً لتلقي الشعر الذي سيُلَقَى إليها بعد هذا التمهيد،<sup>630</sup> ولذلك استهلَّ مدحتَه بقوله:

ننى الرِّيمُ الدَّلَالَ إلى المِطَالِ<sup>631</sup> وقد يبدو المِطَالُ من الدَّلَالَ  
 ورُبَّ حُشَيْفَةٍ<sup>632</sup> عَبَثَتْ بقلبي فيا للقلبِ من طَعْنِ الغَزَالِ  
 يَخْفُ من العَرَامِ ثَقِيلُ طَوْرِي فيخَطِّفُنِي لآرامِ التِّلالِ<sup>633</sup>

فالمطلع مُضَمَّنٌ للتسيب الرقيق الذي يبتُّ فيه الشاعِرُ ما يُعانيه من محبوبه وما هو إلا الظبي جمالاً، وقد سَلَبَه بجماله لُبَّ قلبه ورماهُ بسهمِ العشقِ فيا لطول آلامه وأتعايه من هذا المحبوب المتدللِّ المماطلِ بوعود الوصال، فراح الشاعِرُ يمزحُ عنه تَصَبُّرُهُ وثباتُهُ لما فيه من هوى هذا الظبي وحبه.

<sup>629</sup> د.ت.ب، 6.

<sup>630</sup> يُنظر: دسوقي، الأدب الحديث، 84/1.

<sup>631</sup> التسيب والوعود الكاذبة الطويلة، يُنظر: ابن منظور، "مطل"، 624/11.

<sup>632</sup> تصغير مؤنث لخشف وهو الظبي أول ما يُولد، يُنظر: ابن منظور، "خشف"، 70/9.

<sup>633</sup> د.ت.ب، 6.

ولربما طرَحَ الشَّاعِرُ فِي مُقَدِّمَاتِ مَدَائِحِهِ كَلَّ هَذَا النَّسِيبَ، فَمَضَى مَعَ دَوْلَةِ الرِّيَاضِ وَالرَّوَضِ وَبَهْجَةِ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ يُسَرِّحُ الطَّرْفَ مُسَطَّرًا وَصَفَّ تِلْكَ الْحُلُلِ الْبَدِيعَةَ الَّتِي اكْتَسَتْ بِهَا الْأَرْضُ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ جَاعِلًا مِنْ شِعْرِهِ مِرَاةً تَعَكِّسُ مَا انْعَقَدَ فِي قَلْبِهِ مِنْ صَمِيمِ الْأَشْوَاقِ وَخَالِصِ الْمَحَبَّةِ الْمَحْبُوبَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَلْمَحُ - فِي مَطْلَعِ مِدْحَةٍ مِنْ مَدَائِحِهِ - هَفْهَافَ النَّسِيمِ وَقَدْ مَاسَتْ بِهِ فِي الرُّبَى الْوَرُودُ، وَدَاعَبَ الْأَزْهَارَ حَتَّى جَعَلَهَا تُعَانِقُ بَعْضَهَا، فَاسْتَهَلَّ رَاسِمًا بِكَلِمَاتِهِ هَذَا الْمَشْهَدَ الطَّبِيعِيَّ مُفْتَتِحًا بِهِ الْقَصِيدَ لِتَطْرَبِ الْأَسْمَاعِ وَتَرْتَاكِ النَّفُوسِ، وَقَدْ تَأَنَّقَ فِي اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ (الْيَاسْمِينِ، الْبِنْفَسَجِ، الْبَانَ، الْوَلْهَانَ، الْأَلْوَانَ، الرَّبِيعِ، الدُّرَّ)، فَجَاءَتْ مُتَّسِقَةً مَعَ الْمَقَامِ الْأَنْبِقِيِّ وَالْمَعْنَى الْجَمِيلِ الَّذِي طَرِحَ فِيهَا، حَيْثُ يَقُولُ:

ما بين مُنْعَجِ اللَّوَى وَالْبَانَ<sup>634</sup> أَضْنَى الْمَحَبَّ تَلَقُّتُ الْغِزْلَانَ  
 وَجَدَاوُلُ الْأَنْهَارِ تَلَطَّمُ بَعْضَهَا هَدَّرَتْ كَدَمِعِ الْعَاشِقِ الْوَلْهَانَ  
 نَسَجَ الرَّبِيعُ بِهَا بَسَاطَ أَزَاهِرٍ رَقَمَتْ صَنُوفَ بَدَائِعِ الْأَلْوَانَ  
 ما بين دُرِّ أَيْضٍ أَوْ عَسَجِدٍ<sup>635</sup> قَدْ فَصَّلَتْهُ قَلَائِدُ الْعَقِيَانِ<sup>636</sup>  
 وَالْيَاسْمِينُ عَلَى الْبِنْفَسَجِ عَاكِفٌ إِنْفَانٍ لِلتَّوْدِيعِ مُعْتَنِقَانِ<sup>637</sup>

وَيَلَاخِظُ فِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ كَيْفَ شَهِدَ أَبُو الْهَدْيِ مَجْلَى تَمَائِلِ الْوَرُودِ وَتَعَانِقِ الْأَزْهَارِ صُورَةً لِعَاشِقَيْنِ قَدْ احْتَضَنَا بَعْضُهُمَا وَكَأَنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا يُرِيدُ تَوْدِيعَ حَبِيبِهِ الْآخَرَ، وَقَدْ سَاقَ هَاتَيْنِ الصُّورَتَيْنِ عِبْرَ التَّشْبِيهِ

<sup>634</sup> اللَّوَى اسْمٌ لِأَحَدِ وَدِيَانَ بَنِي سُلَيْمٍ تُكثِرُ الشَّعْرَاءَ مِنْ ذَكَرِهِ، وَالْبَانَ مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنَ الْكُوفَةِ، يُنْظَرُ: يَاقُوتُ، الْبَلْدَانَ، 23/5، 332/1.

<sup>635</sup> اسْمٌ يَجْمَعُ الْجَوَاهِرَ كُلَّهَا، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "عَسَجِدٌ"، 290/3.

<sup>636</sup> الدَّهَبُ الْخَالِصُ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "عَقَا"، 81/15.

<sup>637</sup> د.ت.ب، 99.

التَّمثيليّ، ففَرَنَ بين صورة عكوف الياسمين على البنفسج وصورة وداع عاشقين قد مالا على بعضهما في حنوٍ ولُطفٍ.

ومما يسترعي الانتباه في مضامين المدائح أنّ أبا الهُدَى قد تَدَرَّجَ فيها -مع حسن التَّخَلُّص- من المقَدِّمات إلى ما يُريدُ أن يطرقه من أفكارٍ في مقاطع هذه المِدَحِ وذلك عبر "وثباتٍ نفسيّةٍ"،<sup>638</sup> تَتَنَقَّلُ بالمخاطَب من فِكْرَةٍ وشعورٍ إلى غيرها من بنات أفكاره؛ مع حرصه على كونها محصورةً في إطارٍ واحدٍ يَضُمُّها وهو المدح؛ ففي مِدْحَةٍ تَدَرَّجَ في قَصِيدِهِ من المطلعِ العزليِّ بالطِّبَاءِ والآرامِ الخلابَةِ إلى الفخرِ بعدم الالتفاتِ إلى كُلالِ ذلك بمدح أسلافِهِ الأطوادِ الشَّامِخَةِ المُتَحَلِّينَ بِجَلِيَةِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ الأَكْرَمِ عليه السَّلامِ:

يُجاذِبُنِي إلى العلياءِ بيتُ تَسَنَّمَ أهلهُ هام<sup>639</sup> المعالي  
ومَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ لَهُ دليلاً فغايتهُ الوصولُ بلا جدالٍ<sup>640</sup>

ثم يقفُ هُنَيْهَةً - كمن يلتقط أنفاسه ويستجمع أفكاره - فيمدحُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببضعة أبياتٍ يذكر فيها عدلَهُ وشجاعتهُ ومنها يتخلَّصُ إلى مديح الخلفاء الذين نابوا عن هذا النَّبِيِّ الأكرم فحموا شريعتهُ السَّمحاء ورفعوا رايات العدل ونشروها بجهادهم ونضالهم، وما مُرادُهُ بهذا المديح إلا العثمانيين أسلاف السُّلطان عبد الحميد، حيثُ انثنى بوثبةٍ نفسيّةٍ أخرى قائلاً:

حماها بعدهُ الخلفاءُ فينا أسودُ اللهُ ساداتُ الرِّجالِ  
وذا عبدُ الحميدِ الآنَ منهم إمامُ العَصْرِ ينبوغُ الكمالِ

<sup>638</sup> يُنظَر: سويف، الأسس النَّفسِيَّة للإبداع الفَنِّي، 226.

<sup>639</sup> جمعُ واحدِهِ هامة وهي الرَّأس، ورئيسُ القومِ يُسمَّى هامة، يُنظَر: الجوهري، "هيم"، 2063/5.

<sup>640</sup> د.ت.ب، 75.

تَسْلَقُ بَيْتَهُ صَهَوَاتٍ<sup>641</sup> مَجْدٍ لَعَمْرُكَ لَا تُكَيِّفُ بِالخَيَالِ  
بِحَقِّكَ هَلْ بَنُو عَثْمَانَ إِلَّا سَحَابُ الْفَضْلِ سَحَّ بِلَا انْفِصَالٍ<sup>642</sup>

وقبل أن يقرع باب المديح للسلطان يُمهّد بقطعةٍ يمدح بها أسلافه من الخلفاء العثمانيين فيشبههم تشبيهاً بليغاً بأنهم ليوث الشجاعة - ووجه الشبه بين عنصري التشبيه (الجرأة والإقدام) -، فهم ذوو المجد الأثيل الذي ارتقى مرقى لا يرقى له خيال إذ تسنمت مزاياهم أعالي قمم الشرف والسمو، ولكي يصعد بمدحهم لجودهم ومجدهم وسخائهم ويجعل منه مدحاً مستقراً في أعماق المتلقي فقد أتى بأسلوب القصر الإضافي، ليجعل حكمه قاطعاً بأن ممدوحيه قد فُصروا على الفضل والشرف فلا يعرفون سواه، وشبههم بالديمة المدرار، ثم طرَحَ هذا الأسلوب بصيغة الاستفهام الذي خرج به عن مقتضاه الظاهر مُعَبِّراً عن جزيل المدح والإعجاب بمؤلاء الممدوحين؛ وكثيراً ما كان يتعرّض لمدح شجاعة العثمانيين وإقدامهم في الجهاد وساحات الوعى والنزال، وقد أوجز بقوله (عيدهم يوم القتال) مُدججاً التشبيه البليغ بالاختصاص - إذ عرّف طريقي الإسناد - فكما أنّ لكلِّ قوم عيداً مُختصّاً بهم، فإنّ ممدوحيه خُصوا بكون عيدهم هو يوم القتال، وساق هذا التركيب المدحي، بتركيب الجملة الإسمية دالاً بذلك على رسوخ هذه الصفة فيهم وثبوتها مدى الأزمان، ولما أتى على شدة بأسهم أغرق في مدحها، فجعل ممدوحيه إذا ما شاموا خصمهم قد شبّت منه شرارة العداية فإنهم ينقضون عليه مُسعرين الجبال الشاهقة يطبقونها لهيباً عليه، ثمّ عرّج على علمهم الأعلم ساقى العدى كأس الردى، السلطان محمد الفاتح (ت. 886هـ/1481م)، فكانت أبياتُه قد رُفَلت بأسلوب الإطناب عبر ذكر الخاصّ (الفاتح) بعد إيراد العامّ (عموم الخلفاء العثمانيين)، فقال:

<sup>641</sup> واحده صهوة وهي من كلّ شيء أعلاه وهي من الفرس مقعد الفارس، يُنظر: ابن منظور، "صها"، 471/14.

<sup>642</sup> د.ت.ب، 75.

لديهم من كرام القوم شوس<sup>643</sup> كرام عيدهم يوم القتال

يُعيدونَ الجبالَ الشُّمَّ نارًا إذا ما الخصمُ أوقدَ بالذُّبالِ<sup>644</sup>

وهذا الفاتحُ الجَحْجَاحُ فيهم مُذيقُ الخصمِ كاساتِ الوَبالِ<sup>645</sup>

وأكثر ما قام بصدده مديح العثمانيين هو تمسُّكُهم بالدِّينِ الحنيفِ وإقامة العدل، إلى جانبِ نشرهم ببسالتهم وإقدامهم راياتِ الحقِّ والدِّينِ في الآفاقِ غيرَ آبهينَ بأعدائهم، حتى عدا وجه الأيَّامِ مستنيرًا بِخصالهم وشمائلهم الكريمة، وفي هذا يقول:

من آلِ عثمانَ الذينَ تَسَنَّموا قِمَمَ الفَخارِ بكلِّ أَحَدَبِ دامي

حَكِّمُوا بَعْدَ في الأُمورِ فَفَوِّمُوا عُوَجَ الشُّوونِ بِأَقومِ الأحكامِ

أخذوا بِشَرعِ الهاشِمِيِّ وَنَسَّقُوا من حُكْمِهِ المَرَضِيِّ كُلَّ نِظامِ<sup>646</sup>

ويحكي أوَّل هذه الأبيات حكاية الفخر الذي صعد العثمانيون إلى أعاليه من خلال الكناية (بكل أحدب) التي جلبها الشاعر ليقرن فخارهم بأعظم مزية تحلوا بها وهي إشهار سيف الجهاد إذ هو أبرز ما قامت عليه أركان دولتهم، وينتهي مادحًا عدالتهم وقيام أساس حكمهم على الشرع الحمدي حتى نالوا بذلك أشرف مراتب العلياء والأجداد، وعلى هذا النسق مضى الشاعر إلى أن وصل به مطاف المديح إلى الكلام على مقامهم ومكانتهم بين الملوك، فراح يُصوِّر ملوك الأرض والزمان بالقالب الجسماني ويجعل من بني عثمان أشرف وأرفع ركن فيه إذ هم رأس هذا القلب الجسماني:

<sup>643</sup> جمع واجده أشوس وهو الشجاع الجريء والشديد في القتال، وأصل الكلمة من الفعل شوس، يُنظر: ابن منظور، "شوس"، 116/6.

<sup>644</sup> واجده دبالة وهي الفتيلة التي تُسرج، ابن منظور، "ذبل"، 256/11.

<sup>645</sup> د.ت.ب، 76.

<sup>646</sup> د.ت.ب، 92.

وتوسَّطوا بمجوحة<sup>647</sup> العليا فهُم في جسم أملاك الوری كاهلام  
بيت الخلافة والإمامة والثقى والعزّ والمجد الصميم النَّامي<sup>648</sup>

وفي مدح شجاعتهم يقول مُضَمَّنًا أبياته الجناس الناقص (أبيض/أبيضًا)، وطباق التناقض  
(فتحوا/المغلقات)، ومكنيًا عن علوِّ أعلامهم وشموخ مجدهم وزين فعالهم ونقائها عن كلِّ شائبة تشوها  
من العيوب بلفظة (أبيض) وحرص على تنكيرها زيادةً في مدح عظم عُظمايهم:

فتحوا البلاد المغلقات وآمنوا روع العباد بشرعة العدنان  
من كلِّ أبيض لم يُحدر أبيضًا إلا وحضبه بأحمر قاني  
هو ذا ينبعتهم خلاصة بيتهم رحب الرحاب الشامخ الأركان<sup>649</sup>

وقد كان أبو الهدى يحرص على الانتقال من مدح العثمانيين بحسن التخلّص إلى مدح السلطان  
عبد الحميد - كما يظهر في البيت الأخير -، وتجدُر الإشارة إلى أنّ التركيز على مسألة حقّ الخلافة  
الشريعة في العثمانيين وتجسّد هذا الحقّ في السلطان عبد الحميد كان الأبرز من بين كلِّ الأفكار التي  
تواردت في غرض المديح عنده، ومن هنا صحَّ القول: إنّ العاطفة الدينية لم تكن وحدها هي المحرك  
لقريحة أبي الهدى في سكب أفكاره بقالب شعريّ وإنما تلك القاعدة الفكرية التي آمن بها وانطلق  
داعيًا إليها عبر رئاسته للجنة المركزية فيها - الجامعة الإسلامية -، التي كانت تُنادي بحقّ السلطان عبد  
الحميد في الخلافة، وتصرّح في وجه من خالفه بأنّه معدود من المارقين عن الدين والجنود القابعين في  
خندق أعداء الملة - شاء أم أبي، علم أم لم يعلم -، وبذلك يُفهم تعرّض أبي الهدى في تضاعيف مدحه  
للعثمانيين إلى التأكيد على قضية البيعة للسلطان عبد الحميد وتأييد فكرة القيام بحقوقها الواجبة في

<sup>647</sup> مجوحة كلِّ شيءٍ وسطه وخياره، ابن منظور، "مجم"، 407/2.

<sup>648</sup> د.ت.ب، 93.

<sup>649</sup> د.ت.ب، 101.

أعناق رعيته من المسلمين على امتداد رُقعة الممالك العثمانية، وهي التي دفعتة إلى إطلاق حكم "الخوارج" على كل من خلَع هذه البيعة للسلطان، كقوله في مدحة عثمانية لما وصل بها إلى ذكر السلطان عبد الحميد:

وَرِثَ الْخِلَافَةَ بِانْعِقَادِ الْبَيْعَةِ الـ عَرَا بِهَا التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ  
قُلْ لِلشَّقِيِّ الْخَارِجِيِّ تَعَانِدًا عَنْ طَاعَةِ الْخُلَفَاءِ لَيْسَ  
يَا غَافِلًا عَنْ أَصْلِ حِكْمَةِ شَأْنِهِ ذَا شَبَلٍ آلٍ بَيْتُهُمْ مَعْمُورٌ<sup>651</sup>

وبهذا يُعلم أن هذا النوع من المدح عند أبي الهدي قد تأكّد من إيمانه بالجامعة الإسلامية التي كانت تبث بين شعوب الإسلام وجوب الانضواء تحت ظلّ راية السلطان الواحد والالتفاف حوله في زمنٍ أرعدت فيه الأجواء بأصوات المُرَجفين وأمطرت بالخائنين، وكانت تُحدّر تلك الشعوب من أنهم إذا ما تركوا هذا الخليفة وحيداً في ميادين الصّراع ضدّ أعدائه فسيُسألون يوم الدين عن هذه الحقوق إن أهملت ولم يقوموا بواجبها؛<sup>652</sup> وتتجسّد كل تلك الأفكار في قوله بموضع يُشير فيه إلى حقّ الأسرة العثمانية في الخلافة:

وَأَلْ عُنْمَانَ بَيْتٌ مُكْتَبَرٌ وَبِهِمْ لَا زَالَ عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ فِي رَجُلٍ  
هُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَيْتِ الْخِلَافَةِ لَمْ يَبْرَحْ بِهَا الْفِرْدُ رَغَمَ الْمَارِقِ الْخَبَلِ<sup>653</sup>

وعلى هذا المنوال راح يُسَطّر هذه الأفكار في ثنايا مدحه؛ ولعلّ النّاظر في تلك المدح يلمح -إلى جانب ما سبق- تركيزه على فكرة مُهمّة نبتت هي الأخرى من الجامعة الإسلامية، وهي فكرة أخوة

<sup>650</sup> من الخوّر وهو الرجوع، يُنظر: أحمد مختار، "حور"، 578/1.

<sup>651</sup> د.ف.م، 144.

<sup>652</sup> يُنظر: حرب، السلطان عبد الحميد، 169، 171، 189، 190.

<sup>653</sup> د.ت.ب، 74.

الإنسانية والإسلام ونبذ العرقية والقومية التي كانت رباؤها تعصّفُ بأناسٍ في ذاك العصر، مما يعني أنّ أبا الهُدَى قد كان يسبّحُ بشعره عكسَ تيّارٍ آخرٍ برزت فيه بوادرُ الأفكارِ القوميةِ وأنفاسُ الدّعواتِ الانفصاليةِ للانسلاخ عن جسدِ الدولة العثمانية؛ ويظهرُ صدقُ هذا في قوله ضمنَ مدحةٍ للعثمانيين تعرّضَ فيها إلى مخاطبةٍ من يُريدُ أن يجرَّ بساطَ الخلافِ منهم، نابذًا لأخوةِ الإسلام مُتَعَصِّبًا لنزعةٍ عرقيةٍ أو قوميةٍ:

قل للجَهورِ لقد أوردتِ فلسفةً سقيمةً قستها طيشًا على زَللِ  
النَّاسِ كُلُّهُمْ أبناءُ آدمَ إنَّ نَسَبَتَهُمْ واختصاصُ اللهِ للرُّسُلِ  
فَقِفْ مع العلمِ تحتَ العقلِ مُستندًا للنَّصِّ أو كُنْ سَفِيهاً كيف شئتَ قُلِ<sup>654</sup>

وراح في موضعٍ آخرٍ مُنتَقلاً بحسن التَّخْلِصِ من مدحِ العثمانيين إلى مدحِ السُّلطان عبد الحميد، ليؤكِّدَ في مديحه على حقوقِ هذا الخليفة التي تأكَّدتْ ذمَّةُ الوفاءِ بعهودِها في أعناقِ المسلمين المستظِّلين تحت الرِّايةِ العثمانيةِ، ومضى يحثُّ على الوفاءِ بها جاعلاً من هذه الحقوق عهداً مسؤولاً عنه يوم القيامةِ كلُّ مُسلمٍ ذي دين، دخلَ قلعةَ الأخوةِ الإسلاميةِ واحتمى بِجَمَهاها، فقال:

أنا من أواخرِهِمِ مليكٌ برفعةِ قدرِهِ سَبَقَ الأَوالِي<sup>655</sup>  
تُؤدِّيهِ القلوبُ حقوقَ عهدٍ مؤكِّدةِ العهودِ على التَّوالي  
ويُسالُ كلُّ ذي دينٍ عليها إذا عُرِضَ البريَّةُ للسُّؤالِ<sup>656</sup>

<sup>654</sup> د.ت.ب، 74.

<sup>655</sup> الأوالي واحدها الأوى وتعني الأجدد والأحرى، وهي على غرار الأعلى والأعلى، يُنظر: الجوهري، "ولى"، 2531/6.

<sup>656</sup> د.ت.ب، 77.

ثم نادى بأن يربأ المسلمون بأنفسهم عن هرطقة القوميات والعرقيات، ويكتفوا بشرف أخوة الإسلام والإيمان، ويجعلوا منها حصناً جامعاً ارتضاه الله لشملة المسلمين وعصبيتهم، مكتفين بها وبعهد الوفاء لحامل راية الخلافة الإسلامية السلطان عبد الحميد، فقال:

كفى عصبية الإسلام فينا وهذا العهد عن قيل وقال<sup>657</sup>

ومما يسترعي الانتباه في هذه المقطوعات الآنف الذكر أنها لما تخللت قصائد المديح لوحظ فيها أنها لا تعدو عن كونها نظماً صُبت في قالبه أفكار أبي الهدى التي أراد طرحها خلال هذه المدائح، وكأنه أراد لهذه الأفكار أن تنجلي أمام القارئ بتجرد وصدق دون أي تزويق أو تحميل، فهو لم يشأ أن يجعلها مصبوغة بصبغة صورة بيانية أو كسوة بدعية؛ ولكن إذا ما انعطفت عين المطالع لهذه المدح إلى الصور البيانية التي وُشئ بها أوصاف ممدوحه - السلطان عبد الحميد - فسيجد اهتماماً أغرق فيه بالمبالغة؛ ومما جرى به على هذا المنوال قوله مادحاً شمائل عبد الحميد ودهائه في سياسته التي أنقذ بها جسد الدولة المتهالك، حتى صمدت زهاء ثلاثين عاماً أمام عتو العواصف التي هبت لتقويضها ودك حصونها من الداخل والخارج:

فمطبوغ على شرف المزايا ومطور على بيض الخلال  
وكم من رأيه أبدى شؤناً لصون الملك لم تحظر ببال  
فأحياء وكان على شفير بمرط من رسيس العهد بال<sup>658</sup>

فهو قد جعل من شريف الخصال وكريم الشمائل فطرة طُبعت عليها ذات هذا الممدوح، وهبها الله له، فما هي بالمكتسبة العارضة التي تزول بمحادثات الأيام والليالي، بل هي المزايا الطبيعية التي لم يشبها

657 د.ت.ب، 77.

658 د.ت.ب، 77؛ والرئيس هنا بقية الشيء وأثره، يُنظر: الزبيدي، "رسم"، 123/16؛ أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني، كتاب الجيم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1394هـ/1974م)، 297/1.

أدنى تكلفٍ، وأمّا سياسته وثاقب آرائه فقد أحييت كلّ مواتٍ من شأنِ عزِّ الدولة، وهي السياسة التي استعارَ لشأنها -استعارةً مكنيةً مُرشحةً- وصفَ إنسانٍ ارتدى رداءً قد مُرِّقت أوصاله، وانحدَرَ في دَرَكاتِ الانحطاط حتى بلغَ شفا جُرفِ الهاوية، فقد كادَ يتردَّى في مهاويها وينهارَ في دَرَكاتِها السَّاحقة لولا أن تداركته سياسةُ عبد الحميد برأيه الثَّاقِبِ وعزمه الصَّلد.

وانبرى في مقطعٍ آخر ليتوسَّع أكثر مُتعرِّضاً في مديحه لأخلاقه وخصاله وما تسنَّم لذروته من المجدِ والشرفِ الأثيلِ الذي ورثه ممدوحه عن أسلافه من الخلفاء العثمانيين الأماجد، فأتى بالاستعارة المكنية لَمَّا جعل العظائم خيلاً وذكر لازمها -وهي الصَّهوات- التي يمتطي ركابها فرسائها من أشاوسِ الأماجد، ولمَّا مدح هيبه هذا الممدوح شفعا بالاحتراس فلم تكن تلك الهيبه مشوبةً بكبرٍ مقيت بل أُشربت بالتواضع فازدهت تلك الهيبه ببردَةِ الأخلاقِ المحمَّديَّة وتناج المدرسة المصطفوية من أخلاقِ الصَّحابة الكرام:

فخرُ الملوكِ عمادُ دينِ المصطفى      عبدُ الحميدِ خليفةُ الإسلامِ  
والممتطي صهواتِ كلِّ عظيمَةٍ      من كلِّ مجدٍ مُشمخِرٍ ساميِ  
وشريفُ أخلاقٍ وزهرُ مناقِبٍ      ويدٌ مُعوَّدةٌ على الإنعامِ  
ومهابةٌ مشمولَةٌ بتواضعٍ      حُلُقُ النَّبيِّ وصحبه الأعلام<sup>659</sup>

وتجدُر الإشارةُ إلى ما اتَّفَقَ عليه النُّقادُ من ضرورةِ مُلائمةِ المديحِ للممدوحِ فُقْدامةُ بن جعفر (ت.337هـ/948م) اشترطَ أن يكون مدحُ الممدوحِ "بما يكون له وفيه، وبما يليق به ولا يُنافره"<sup>660</sup>، وبما أنَّ طبيعةَ الممدوحِ تختلف في هذا المقام -وخاصةً بكونه خليفةَ المسلمين وسلطانهم- فإنَّ هذا

<sup>659</sup> د.ت.ب، 92.

<sup>660</sup> فُقْدامة، نقد التَّبعير، 20.

سيدفعُ المادحُ إلى الإغراقِ في المبالغةِ في مديحِ صِفَاتِهِ والبلوغِ بها إلى أقصى درجاتِ التَّفْضِيلِ، ويُعَلِّلُ ابن رشيقي هذه الظَّاهِرَةَ إذا ما وُجِدَتْ في المديحِ فيقول: "إنَّ الملوكَ لا تُمدَّحُ بما يلزمها فعلُهُ كما تُمدَّحُ العامَّةُ، وإِنَّمَا تُمدَّحُ بالإغراقِ والتَّفْضِيلِ بما لا يَتَسَبَّحُ غيرُهُم لِبِدْلِهِ"<sup>661</sup>، ولربما كانت هذه الآراءُ تُعَلِّلُ الدَّوافِعَ التي جعلت من أبي الهُدَى يسْلُكُ بمدِيحِهِ هذا المسْلُكَ من الإغراقِ في المبالغةِ في المديحِ؛ وقد يُفَسِّرُ هذا التَّعليلُ ويُدَلِّلُ عليه ما عادَ به أبو الهُدَى في موضعٍ آخَرَ حيثُ يُلمَّحُ فيه إغراقه في المبالغةِ في مدحِ ممدوحِهِ -حسب ما اقتضاهُ المقام- فإذا كان ممدوحُهُ في المقطعِ الآنِفِ الذِّكْرَ فخرًا لكلِّ ملوكِ الأرضِ فهو هنا ليسَ سلطانَ المسلمين فقط بل هو ملكُ البرِّيَّةِ كُلِّهَا بل وتاجِ ملوكِ الدُّنيا أجمعِهِم، وهو خليفَةُ الرَّحْمَنِ والنَّاصِرِ للشَّرِيعَةِ، وهو صاحبُ العزمِ الذي عمَّلا على يافوخِ الثُّرَيَّا لَمَّا جعلَهُ مطيَّةً لرضاءِ باريهِ وطاعتِهِ، فعبد الحميدُ مثلما هو قُطْبُ رَحَا الدُّنيا بسياساتِها وعلومِها فهو كذلك في الدِّينِ والتَّقْوَى والقنوتِ والإخباتِ لمولاهِ الكَرِيمِ، وكأنَّه قد حيزتِ لذاتِ هذا الممدوحِ أطرافَ النَّبْلِ والمحاسِنِ أجمعِها؛ يقولُ أبو الهُدَى عَقَبَ إِحْسَانِهِ التَّخَلُّصَ من المَطْلَعِ التَّقْدِيمِيِّ الممَّهَدِ لقصيدَتِهِ إلى مديحِ عبد الحميدِ بعد أن وصفَ حالَ حادي الأظعانِ الذي طارَ بركبانهِ إلى إستانبولِ ليؤمَّ رِحابَ عبد الحميدِ الممدوحِ الذي هو السِّراجُ الوهَّاجُ والشَّمْسُ المنيرةُ لآفاقِ -فروق- عاصِمَةِ دارِ الخِلافةِ:

بيغي فَروقَ يريُدُ شمسَ سَمَائِهَا	ملكُ الوري عبدَ الحميدِ الثَّانِي
وَالنَّاصِرَ الدِّينِ المَبِينِ بِهَمَّةٍ	ذَنَّتِ السِّمَّاكَ بِطَاعَةِ الدِّيَّانِ
تاجُ الملوكِ حليمُهُم وسليمُهُم	هو جَدُّهُ ذو البأسِ والسُّلطانِ
وَرِثَ الفَخَّارَ مُؤَثَّلًا <sup>662</sup> ومُسَلَّسًا	عبدُ الحميدِ خليفَةُ الرَّحْمَنِ

<sup>661</sup> القيرواني، العمدة، 130/2.

<sup>662</sup> أصيلاً ضارباً في القِدَمِ، يُنظَرُ: ابن منظور، "أثَل"، 9/11.

فَلَكُ السِّيَاسَةِ وَالْفِرَاسَةِ وَالتُّقَى وَالدِّينِ وَالْعِرْفَانِ وَالْإِذْعَانِ<sup>663</sup>

فهو قد عادَ ليمدح عبد الحميد بما حازه من طيب المحتد وعراقة النَّسب الذي زها بالمجد الأصيل المُسلسل بأجداده كابرًا عن كابرٍ، ويُطنبُ بذكر الخاصِّ بعد العامِّ فيذكرُ منهم أحدَ أعلامهم السُّلطان سليم (ت. 926هـ/1520م) ذي الشَّكيمة والأيادي؛ وقد يكادُ مديحُه لأجدادِ عبد الحميد يتكرَّرُ في كلِّ مدحةٍ حميديَّةٍ، وكأنَّه أرادَ بمدحهم أن ينتزعَ من صدر القارئِ أيَّ استغرابٍ قد يُراوِدُه في ذاتِ هذا الممدوح إذ ما هو إلا وريثهم وناهيك بها من ورائته، فهي لم تشمل عرشَ خلافتهم فحسب وإنما هي ورائته لفعالهم وخصالهم؛ ومن المواضع التي حشدَ فيها مدحُه لعبد الحميد بنيله لباذخ الشَّرَفِ المتسلسل فيه عن أجداده من بني عثمان تلك القصيدة التي كانت انتصاراتُ عبد الحميد في حربهِ الأخيرة على اليونان (1315هـ/1897م)<sup>664</sup> سببًا مُحَرِّكًا لقريحة أبي الهُدَى كي يهرعَ ناظرًا لأبياتها في تهنئة السُّلطان ومُسْتَهْلًا لها بمطلعٍ ضَمَّنَه التَّشْبِيهَ البليغ، حيثُ جعلَ من هذه الفتوحاتِ أقلامًا صريرها يصدخُ بهتافِ النَّصرِ المبين الذي تقرُّ به عينُ الإسلام والمسلمين بل ونبئهم الكريمِ عليه السلام الذي كَتَبَ عنه بالقمر المنير بطيبة إعظامًا وإجلالًا، وكلُّ هذا بعد أن انبثق فجرُ النَّصرِ وعمَّ بضياؤه الآفاق، فقال مخاطبًا للسُّلطان:

بَدَا لِلنَّصْرِ صُبْحٌ مُسْتَنِيرٌ      وَسُرَّ بِطَيْبَةِ الْقَمْرِ الْمُنِيرُ  
وَجَلَّجَلَةُ الْفَخَارِ لَهَا سَنَاءٌ      وَأَقْلَامُ الْفُتُوحِ لَهَا صَرِيرُ  
وَبَيْتِكَ حِينَ تَنْظِمُهُ الْمَعَالِي      خَطِيرٌ<sup>665</sup> الشَّانِ يَعْقُبُهُ خَطِيرُ  
وَجَدُّكَ فَاتِحُ الْأَقْطَارِ يُدْعَى      بِنَصِّ الْمِصْطَفَى (نِعَمَ الْأَمِيرِ)<sup>666</sup>

<sup>663</sup> د.ت.ب، 100.

<sup>664</sup> يُنظر: كامل صدقي - عبد الواحد حمدي، تاريخ حرب الدولة العليَّة ودولة اليونان (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، 1315هـ/1897م)، 37.

<sup>665</sup> رفيع وشريف وذو أهمية، يُنظر: أحمد مختار، "خطر"، 662/1.

<sup>666</sup> د.ر.ت، 131.

فأبو الهُدَى يُعَرِّجُ على تَسْلُسُلِ الرِّفْعَةِ في أُسْرَةٍ ممدوحِهِ وتعاقُبِها فيهم عَلَمًا بعدَ عَلمٍ، ويخصُّ في هذا الموضوعِ جدَّه السُّلطانَ مُحَمَّدَ الفاتِحِ بعدَ أن أتى بالاقْتباسِ من حديثِ النَّبِيِّ الأكرمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم "لَتُفْتَحَنَّ القُسْطَظِينِيَّةُ فَلَنَعَمَ الأَمِيرُ أَميرُها ولنَعَمَ الجَيْشُ ذلكَ الجَيْشُ"،<sup>667</sup> وينطلقُ من مديحِ أجدادِهِ إلى تَهْنِئَتِهِ بالنَّصرِ على أعدائِهِ في حربِ اليونانِ، ولأنَّ الأذهانَ قد تَشَرَّبَتْ إلى مَعْرِفَةِ الشَّرارةِ التي أوقَدتْ تلكَ النَّارَ فقد أحسنَ أبو الهُدَى بتقديمِ مدحِ خِصالِ العفوِ والإحسانِ والبرِّ الذي عَمَّتْ أنداؤُهُ من السُّلطانِ لعمومِ رعيَّتِهِ، فقال وقد ضَمَّنَ البيتَ الثَّانِيَّ تشبيهًُا ضمنيًّا جعلَ من الغيثِ المنهمرِ يقصرُ عن أن يُداني فيضَ إحسانِ ممدوحِهِ:

عفوتَ عن المُسيءِ وليسَ بدعًا فمثلك عفوهُ عفوٌ كبيرُ  
وأتحفتَ البلادَ وساكنيها ببرِّ دونهُ الغيثُ المطيرُ<sup>668</sup>

فهو قد مَهَّدَ بمدحِ الصِّفَاتِ الرَّيْقَةِ من كرمٍ وعفوٍ وإحسانٍ لينتقلَ بعدها إلى الصِّفَاتِ القويَّةِ التي حازها ممدوحُهُ، وهذا من حسنِ الاحتِراسِ بمكانِ، إذ حرصَ ألا يتبادَرَ إلى الأذهانِ تفرُّدُ الممدوحِ بصفةِ البطشِ وطيشِ القراراتِ السَّريعةِ وسفكِ الدِّماءِ، فمضى في مديحِهِ مُصَوِّرًا صبرَ السُّلطانِ وحِلْمَهُ على أعدائِهِ الذين ما قَدَرُوا هذا الحِلْمَ حقَّ قدرِهِ، بل طَغَوْا وتمادوا فما كان إلا أن انقضَّتْ عليهم جيوشُ السُّلطانِ لتفتِكَ بهم وتسقيهم من كؤوسِ الرِّدَى والهزيمةِ، وقد حرصَ أبو الهُدَى على الإتيانِ بالاستعارةِ التَّصريحِيَّةِ المرشَّحةِ لمدحِ قوَّةِ الجيوشِ العثمانِيَّةِ بجعلِ أفرادِها (ليوثًا لهم زئيرُ)، ثمَّ كَتَبَ عن

<sup>667</sup> أحمد بن حنبل، المسند، 287/31 (رقم 18957)؛ محمد بن إسماعيل البخاري، التَّاريخ الكبير، إعداد: محمد عبد المعين خان، (حيدر أباد: دائرة المعارف العثمانِيَّة، د.ت)، 81/2 (رقم 1760).

<sup>668</sup> د.ت.ب، 77.

شِدَّةِ تِلْكَ الْحَرْبِ بِقَوْلِهِ (قَدْ يَشِيبُ لَهَا الصَّغِيرُ) وَهِيَ كِنَايَةٌ قَدْ تَكُونُ مُقْتَبَسَةً مِنَ التَّصْوِيرِ الْقِرَائِيِّ  
لَأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: 669

وَجَهَّزَ عِزْمَكَ الْعَالِي لِيُونَا      لَهَا فِي الْحَرْبِ عَنْ شَمِّمٍ 670 زَيْبُ  
وَلَمَّا أَنْ طَعَى الْيُونَانَ جَهْلًا      غَدَوْتَ بِنُورِ صَبْرِكَ تَسْتَنْبِرُ  
فَسَامَتْهُمْ جِيوشُكَ يَوْمَ طَاشُوا      بِحَرْبٍ قَدْ يَشِيبُ لَهَا الصَّغِيرُ 671

ثم استطرد أبو الهدى فراح يُصَوِّرُ سَاحَةَ تِلْكَ الْحَرْبِ، وَلَكِنَّ تِلْكَ السَّاحَةَ إِنَّمَا هِيَ سَاحَةُ الْإِنْتِصَارِ،  
فَلِكَاثَمَا صَوَّرَهُ مَرْسُومَةً بَرِيشَةَ الْكَلِمَاتِ أَمَامَ الْقَارِي، فَهِيَ هَامَاتُ صِنَايِدِ الْيُونَانِ تَتَقَادِفُهَا الرِّيَاحُ  
مُتَطَايِرَةً، وَجَنْدُهُمْ مَا بَيْنَ مُرْتَجِفٍ كَادَ قَلْبُهُ يَنْخَلِعُ فَالْتَوَى هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ يَلْهَثُ وَيَلْتَهُمُ الْفِرَارَ هَرَبًا  
مِنْ حَتْفِهِ الْمَحْتَمِ، وَآخِرُ قَدْ أَثَخَنَتْهُ الْجِرَاحُ فَلَا الْمَوْتَ يُنْهِي عَذَابَهُ بِهَا، وَلَا هِيَ بِالْمُلْتَمِئَةِ فَتُطَلِّقُ عِنَانَ  
قَدَمِيهِ لِلرِّيْحِ لِيَفِرَّ مِنَ الْمَوْتِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذَيْنِ الصَّنْفَيْنِ فَقَدْ اقْتَادَتْهُ الْأَصْفَادُ فَكَبِلَ بِهَا أُسِيرًا  
لدى تلك الجيوشِ العثمانيَّة، الَّتِي مَدَحَ بِأَسْهَائِهِ أَبُو الْهُدَى وَمَا سَامَتْ بِهِ أَعْدَاءُهَا مِنَ الْمَنَايَا، إِذْ اسْتَعَارَ  
لِلْمَنَايَا - اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً - وَصَفَ ذَاتِ ثَلَاعِبٍ جَرَحَى الْعَدُوَّ، فَقَالَ:

فَمُنْفَلِتٍ مِنَ الْمَوْتِ ارْتِعَاشًا      يَفِرُّ وَرَأْسُ مَقْدَامٍ يَطِيرُ  
وَمَجْرُوحٍ ثَلَاعِبُهُ الْمَنَايَا      وَمُعْتَقَلٍ بِسِلْسِلَةٍ أُسِيرُ  
وَبِلْدَانٍ جُنُودُكَ ذَلَّلْتَهَا      بِهَا لِدِمَائِ صَائِلِهَا خَرِيرُ 672

669 من قوله تعالى: "يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا"، المزل، 17/73.

670 الشَّمَمُ هُوَ ارْتِفَاعُ قَصَبَةِ الْأَنْفِ، وَمُدْخُ الْمَمْدُوحِ بِالشَّمَمِ إِذَا مَا كُنِّيَ عَنْ رَفْعَتِهِ وَعَلَوِّ شَأْنِهِ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "شَمَمٌ"، 327/12.

671 د.ر.ت، 132. وَفِي الدِّيَوَانِ "يَشِبُ" بِدَلِّ يَشِيبُ، وَ"لَهُ" بِدَلِّ لَهَا، وَلَعَلَّ الصَّوَابُ مَا أُثْبِتَ فِي الْأَعْلَى.

672 د.ر.ت، 132.

ويستلَبُ كلَّ استغرابٍ قد يُساوِرُ القارئَ في هذا الممدوح، إذا ما شخصَ بصرُهُ إلى صرح تلك الشَّمائلِ الحميديةِ والحِصَالِ السُّلْطانيةِ، فهي لم تأتِ إلا من معدنِها وَبَعَةَ مجديها وهم جُدودُه وأسلافُه العثمانيُّون، والشَّيءُ من معدنِه لا يُستغربُ فينعطفُ مرَّةً أُخرى إلى مدحِ شمائلِ السُّلْطَانِ عبد الحميد، وقد وُشِّيَ مدحُه بالكنايَةِ عن طيبِ شمائلِ أجدادهِ وزينِ فعالمِهم عبرَ وصفِها بقوله (يفوخُ بذكرها الرَّاكي العبير)، وألبَسَ هذه المعاني قوَّةً باستجلابِ وصفِ الخجلِ للكواكبِ والحسدِ للظَّباءِ - من طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ-، وذلك لكي يجعل تلك الشَّمائلِ تَسامى على الكواكبِ رِفْعَةً وتَفوقَ على الظَّباءِ رِقَّةً ولطافَةً، فقال وقد ضَمَّنَ البيتَ الأوَّلَ أسلوبَ الإطنابِ عبر التَّنْذِيلِ بِجَمَلَةٍ (والعدلُ رونقُه نضيرُ)، مما يتناسبُ مع مقامِ المديحِ الذي يقتضي بسطَ الكلامِ في الممدوحِ:

وُسُنتَ المُلكِ بالعدلِ ابتهاجًا بهِ والعدلُ رونقُه نضيرُ  
فِعَالٌ عن جُدودِكَ صَادِرَاتٌ يَفوخُ بِذِكْرِهَا الرَّاكي العبيرُ  
خِلَالُ تَخْجُلِ الأَقْمَارِ مِنْهَا وَيحْسُدُ لُطْفَهَا الظُّبِيُّ العَرِيرُ<sup>673</sup>

وإيمانِ النَّظَرِ في مِدْحِ أبي الهُدَى للسُّلْطَانِ عبد الحميد يبرزُ للنَّاظِرِ اهتمامُه بأحقِّيَّةِ الخِلافةِ في السُّلْطَانِ والتَّركيزُ على ما أحياهُ هذا الممدوحُ من مَوَاتِ الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ لتجتمعَ شعوبُ الدَّولةِ العثمانيَّةِ متوَحِّدَةً تحتَ رايتهِ الإسلاميَّةِ ولا تتفرَّقَ بهم السُّبُلُ، وهو نابعٌ من إيمانهِ بفكرةِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ، فحتى الذي يخرجُ على عبد الحميد فهو الخارجِيُّ اللِّتيم - حسبما يراهُ أبو الهُدَى-؛ ومن ذلك قولُه وقد تزيَّنتُ أبياتُه بالبديعةِ المعنويَّةِ -التَّفْرِيعِ- حيثُ استوجِبَ مدحُ ممدوحِه بإعطاءِ الخِلافةِ حَقَّها أن يتفرَّعَ عنه مدحُه بإحياءِ قلوبِ المسلمينَ وجمعِ شملِهِم:

أعطى الخِلافةَ حَقَّها بديانةً وصيانةً بعُدَّتْ عن الآثامِ

<sup>673</sup> د.ر.ت، 131.

أحيا قلوبَ المسلمين جميعَهُم فكأَنَّهُم كُلُّ أُولُو أَرْحَامٍ  
فاستعصمت كلُّ القلوبِ بِحَبِّهِ طَرًّا وما العادونَ غيرُ لِئَامٍ<sup>674</sup>

وأبو الهُدَى لا يفتأ مُكرِّراً مدحَ العدل الذي تحلَّى به ممدوحُهُ - كما في البيت الأخير -، ويستطرِدُ في كلِّ مدحَةٍ في مدحِ هذا السُّلطان بالرِّقَّةِ واللُّطفِ المعضودِ برجاحة الآراء، مما يعني أنَّ أبا الهُدَى قد شقَّ لنفسه طريقاً يُضادُّ به النَّظرة المُعاكِسة لهذه الرُّؤية تماماً، وهي التي أشاعها الفريق المعارض للسُّلطان والواصفَةَ له بأنَّه السُّلطان الأحمرَ والمستبِدَّ الجاهل والأخرقَ البليد وإلى غيرها من الصِّفات التي تولَّت الصَّحافة الأجنبيَّة والأقلام المُعارضَة آنذاك عِبءَ إشاعَتِها في أوساطِ العامَّة،<sup>675</sup> وهذا قد يُفسِّرُ شيئاً من مدحِهِ المتكرِّرِ لِلطفِ السُّلطان وإحسانِهِ وعدلِهِ وصوابِ سياستِهِ، كقولِهِ في مدحَتِهِ التي قدَّمها بين يدي إهدائه لكتابه "ضوء الشمس" الذي أَلْفَهُ مخصوصاً للسُّلطان عبد الحميد:

فاقَ الذين تَقَدَّموا من أهلهِ بالرِّفقِ والإحسانِ والإغضاءِ  
وروى حديثَ العدلِ نقلاً مُسنَدًا عن أهلهِ وصفاتِهِ العرَّاءِ  
شَهِدَ الزَّمانُ بأنَّه في رأيِهِ فوقَ ابنِ قيسٍ مُحكِّمِ الآراءِ<sup>676</sup>

فحكمةُ السُّلطان وآراؤه الثَّابِتة في سياسةِ سَلْطَنَتِهِ - ليست بنظرِ الشَّاعرِ فقط وشهادته وحده وإمَّا جعلها بشهادةِ أهلِ عَصْرِهِ كُلِّهِم - قد فاقتَ رجاحتُها وَعَلَّت على أعلى رموزِ الحلمِ والتَّأبِّي وأشهرِهِم على ألسنةِ العربِ وهو الأحنفُ بن قيس (ت. 72هـ/691م)؛<sup>677</sup> وانطلاقاً من هذه الرُّؤية التي يراها

<sup>674</sup> د.ت.ب، 93.

<sup>675</sup> يُنظر: سليمان جوقه باش، السُّلطان عبد الحميد الثَّاني شخصيَّته وسياسته، مترجم: عبد الله أحمد إبراهيم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2008م)، 219-220.

<sup>676</sup> د.ت.ب، 6.

<sup>677</sup> يُنظر: الزركلي، الأعلام، 1/276.

أبو الهُدَى في ذاتِ ممدوحِهِ وإيماناً منه بها فلا غرو أن يُعَبِّرَ عن مزيدِ محبَّتِهِ في هذا السُّلطان ويجعل ختام المدائحِ تديبجاً لها بدعواتٍ خالصةٍ لهذا الممدوح في أن يدومَ ظلُّهُ وتدولَ لدولتِهِ رِقابُ الملوكِ الآخرين خاضعةً، وتبقى دولتُهُ منصورَةً متفَيِّئَةً لِظلالِ عدالتِهِ، ومن ذلك اختتامُهُ لمدحِهِ بقوله:

ودامَ لنا إمامُ الدِّينِ كهفًا له تغدو الملوكُ من الموالِي

وظاهرُهُ مدى الأيَّامِ فتحَ ونصرٌ في الأمورِ بلا زوالٍ<sup>678</sup>

وهي تحكي براعةَ المقطعِ بختامِ القصيدةِ بما يتناسبُ مع الجوّ العامِّ للمدحِ، وهو ما تَكَرَّرَ في ختامِ مدحِهِ أخرى دعا له بطولِ البقاءِ وبأن يدومَ موثلاً يُدخِرُ للإسلامِ وللشريعةِ وأهلِها، وأن يبقى في سرورٍ وهناءٍ دائمين فقال:

فدُمَ للدِّينِ والإسلامِ عزًّا به فلكُ المفاخرِ يستنيرُ

وقلبكُ بالمسرةِ مُستضيءٌ وطرفكُ بالهنا أبداً قريرُ<sup>679</sup>

ومن جميع ما سبق ذكرُهُ في هذا المطلَبِ يظهرُ أنَّ أبا الهُدَى في مدحِهِ للعثمانيين عمومًا وللسلطان عبد الحميد خصوصًا ما كان في مديحِهِ شاعرًا مُتَكسِّبًا - كما درجَ على ذلك الكثير من الشعراء الممدَّاح للخلفاء وذوي المناصب -، بل كان مدحًا نابغًا من محبةٍ حقيقيةٍ يرى الشاعرُ أنَّها محبةٌ أوجبها عليه إخلاصُهُ للإسلام من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فهو مدحٌ نابغٌ من إيمانه بفكرة الجامعة الإسلامية وسعيه الحثيث لخدمةٍ مشروعها، فراح في مدحِهِ يُعَبِّرُ عن خَلجاتِ فؤاده تجاه السلطان عبد الحميد، ويُخالفُ في تسطيره هذه المدحِ الأفكارَ القوميةِ والعنصريةِ التي وُجِدَت عند غيره، من الأطرافِ المعارضةِ للسلطان، مما يبرِّحُ كفةَ القولِ بصدقِ مديحِهِ وخلوهِ من التَّكَلُّفِ

<sup>678</sup> د.ت.ب، 78.

<sup>679</sup> د.ر.ت، 132.

المصطنع، وكأنَّ هذا المديح لم يُشِئْهُ قائلُهُ للمدح فقط، وإنما جاءَ به ليكونَ حثًّا على الالتفافِ والتَّوْحُدِ حولَ هذا الممدوحِ السُّلطانِ عبد الحميد وليكونَ أيضًا تعريفًا بمنزِلَتِهِ ودفاعًا عنه أمامَ ما يُهاجِمُ به من قِبَلِ أعدائِهِ.

### 3 مدح الفضلاء

قد كان لأهل الفضل والعلم قسطٌ من مدائح أبي الهُدَى، حَصَّصَهَا للشَّاءِ عليهم وعلى منهجِهِم، ويعود الفضل في انطلاقه في ميدان هذا النوع من المديح إلى ما كانت تُملِّيه عليه البيئَةُ المحيطةُ به، فهو الشَّابُّ الذي نشأ في بيئَةٍ صُوفِيَّةٍ، وشاءت له الأقدارُ الإلهيَّةُ أن يترعرعَ في كنفِ والدِهِ فيفتَحَ عينيه على الدُّنيا وهو بين جدران زاويةٍ صُوفِيَّةٍ يستقبلُ الغادي والرائح إليها،<sup>680</sup> ومن المؤكَّد أنَّ دورةَ الأيام كانت قد دارتْ لثُسْفِرَ عن ولدٍ سارٍ سيرَ والدِهِ وأسرَتِهِ المُتَّصِفَةِ، فانجَلَّتْ مدائِحُهُ لِيُلاحِظَ النَّاطِرُ فيها أنَّ مُعْظَمَهَا في مشاهير أعلام التَّصَوُّفِ بدءًا من الجُنَيْدِ بن مُحَمَّدِ البغداديِّ (ت. 297هـ/910م) وانتهاءً بمن أخذَ عنه ممن عاصرُهُ؛ ويُضَمُّ إلى هذا مديحُهُ في والدِهِ وغيرِهِ من الفضلاء، وعلى ما يبدو أنَّ أبا الهُدَى قد قصَّرَ مدائِحَهُ الخاصَّةَ على فئَةِ الصُّوفِيَّةِ الذين تربطه بهم علاقةٌ محبَّةٌ خالِصَةٌ، وهي نابعةٌ من كونه مُتَمَمِّيًا إلى منهجِهِم الذي يُجِلُّهُ ويدعو إليه.

ولو اعتمدَ التَّرتيبُ الزَّمَنِيُّ لأولئك الممدوحين فلا غرو أن يكونَ الجُنَيْدُ أوَّهَمُ، فهو "شيخُ الصُّوفِيَّةِ الذي لم يُرَ في زمانِهِ مثلهُ في عِقَّةٍ وعزوفٍ عن الدُّنيا"<sup>681</sup> - كما يراه شمسُ الدِّينِ الدَّهَبِيُّ

<sup>680</sup> يُنظر: 15.

<sup>681</sup> شمس الدِّين محمد بن أحمد الدَّهَبِيُّ، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، 1405هـ/1985م)،

(ت. 748هـ/1347م) -، وقد حَصَّه أبو الهدى بقصيدةٍ واحدةٍ، استهلَّها بالمدحِ المباشرِ، وانتحَى في مديحِهِ منحى التَّعدادِ للمكارِمِ التي اختُصَّ بها، فشَبَّهَهُ تشبيهاً بليغاً بالبحرِ الهادرِ بصنوفِ المعارِفِ:

بِحُرِّ تَمَوَّجِ بالمعارِفِ وارتقى متنَ الفخارِ بِهَمَّةٍ وسَدَادِ  
وأتى بأحكامِ الطَّرِيقِ مُؤَيِّداً شَرَعَ الرَّسولِ بِصَحَّةِ الإسنادِ  
وأقامَ جدرانَ الحقيقتِ في الورى بيدِ الكمالِ لحاضرٍ ولبادٍ<sup>682</sup>

وأبرزُ ما يُلاحظُ في مدائِحِهِ لهذه الفِئمةِ هو تدقيهُه - كما يظهر في الأبياتِ السَّابقة - على تخصيصِهم بثلاثِ مزايا هي: التَّبَحُّرُ في العلومِ، والالتزامُ بمنهاجِ الشَّرعِ الحنيفِ - الكتابِ والسُّنة -، وما ينتجُ عن هذين الوصفين من الوصولِ بصاحبها إلى كُنهِ حقيقتِ المعارِفِ أو الحقيقتِ الكبرى التي هي معرفةُ الله؛ ومن هنا يتضحُ كيف أتى الشَّاعرُ بالاستعارةِ المكنيةِ لِيُصَوِّرَ تَمَكُّنَ ممدوحِهِ في هذه المزيَّةِ، حيثُ جعلَ الحقيقتِ بيتاً ثم ذكرَ لوازمَهُ وهي الجدرانُ التي جاءَ ممدوحُهُ - الجنيد - فأقامَ صرَحَها على أكملِ وجهٍ - بما أشارَ إليه من الكنايةِ بقوله (بيد الكمال) - وذلك لكي يُؤمَّ هذه الحقيقتِ مَنْ سيأتي بعده من الأجيالِ على مَرِّ العصورِ وفي مختلفِ البقاعِ. والشَّاعرُ يسيِّرُ على هذا المنوالِ في مديحِهِ لأربابِ التَّصوُّفِ ومشاهيرِهِم كعبدِ القادرِ الجيلانيِّ (ت. 561هـ/1166م) الذي كان - حسب ابن تيمية - "من أعظمِ مشايخِ زمانِهِم التزاماً بالشَّرعِ والأمرِ والنَّهي"،<sup>683</sup> ومدحَ الشَّاعرُ إلى جانبِهِ الشَّريفَ البدويَّ<sup>684</sup> (ت. 675هـ/1276م) وأبا المجدِ إبراهيمِ الدَّسوقيَّ<sup>685</sup> (ت. 676هـ/1277م)، وخصَّ كلَّ واحدٍ منهم

<sup>682</sup> د.ر.ت، 100.

<sup>683</sup> أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن القاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/1995م)، 488/10.

<sup>684</sup> يُنظر: أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود أرناؤوط، (دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ/1986م)، 602/7.

<sup>685</sup> يُنظر: الزركلي، الأعلام، 59/1.

بقصيدة مفردة،<sup>686</sup> ومدائحه فيهم لا تكاد تخرج عن المزايا الثلاثة - آنية الذكر - إلا بما يضيفه عليهم من مدح نبعتهم الشريفة لآل البيت النبوي، وما نالوه من علو كعب في إرشاد الخلق إلى خالقهم، وذلك كقوله في مدح الجيلاني:

وسليل آل عن مراتب قدرهم وسموها يتقاصر القمران  
وإمام إرشاد بكعبة هديه طافت شيوخ العجم والعربان<sup>687</sup>

ويبدو جلياً تعظيمه لباع الإرشاد الذي حازه ممدوحه، حيث جعل - بالتشبيه البليغ - ما يصدر عنه من هدي ونصح كعبة عظيمة يؤمها أرباب الاسترشاد والإرشاد، شرقاً وغرباً، عجماً وعرباً، فكأنها تطوف حول عظمة إرشاده وهديه؛ وهذا الإغراق في المبالغة في النعوت التي خص بها ممدوحه يؤكد مرة أخرى سمة ارتباط الشاعر بالتصوف واعتناقه لأفكاره، حيث جاءت هذه المدح منسجمة مع ما يقوم في أذهان المتصوفة من تعظيم وتبجيل لمشايخهم؛ وبإمعان النظر في مدح أبي الهدى لمشاهيرهم سيجد الناظر أنها مدح قلائل لا تتجاوز القصيدة الواحدة، لكنه سيلمح أن القدر المعلى من المدح كان الشاعر قد خصصه لجدّه الأعلى أحمد بن علي الرفاعي،<sup>688</sup> ذلك الرجل الذي وصفته السنة المؤرخين - كالذهبي وابن خلكان (ت. 681هـ/1282م) - بأنه "الزاهد الكبير"، "والفقيه الإمام القدوة عالي المقدار، رقيق القلب، غزير الإخلاص"، "والرجل الصالح الذي أحسن الناس به الاعتقاد"<sup>689</sup> ولم تكن صلة القرابة وحدها هي التي تُفسر إكثاره من مدح الرفاعي بل إن كون هذا الممدوح هو

<sup>686</sup> يُنظر: د.ف.م، 131؛ د.ر.ت، 127، 128، 173.

<sup>687</sup> د.ر.ت، 132.

<sup>688</sup> يُنظر: د.ف.م، 126، 128؛ د.ر.ق، 11، 14، 18، 25، 30، 38؛ د.ر.ت، 25، 41، 52، 67، 84، 77، 174، 185؛ د.ت.ب، 39؛ د.ر.ح، 57.

<sup>689</sup> يُنظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشر عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424هـ/2004م)، 605/12؛ المؤلف نفسه، أعلام النبلاء، 77/21؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 171/1.

مؤسس الطريقة الرفاعية<sup>690</sup> التي انتسب إليها أبو الهدي منذ أوائل حياته يجعل منه مادحاً مُندفعاً بعلاقة المحبة القوية التي انطوى عليها تجاه هذا الممدوح، ليصوغها بقصائد تُترجم مكنونات فؤاده، فقد حرص أن يذكره بألفاظٍ تدلُّ على انتمائه له ولمنهجه الذي راح يُشيع المدح له ضمن تلك المدائح الرفاعية كقوله، وقد أتى بالاستعارة المكنية ليأخذ بلب القارئ إلى تحيل تلك العزيمة المكونة في ذات ممدوحه فهي العزيمة التي لم يشبها شطح أو تجاوز للحدود الشرعية، فجعل منها خيالاً لها عنان لم يلو زمامها درك الشطوح والادعاءات الجانحة عن الصواب والحق، فاستهل المدحة متجاوزاً للمطالع التقليديّة، مُبادراً للمديح المباشر، مُنزّهاً منهج ممدوحه وجاعلاً له منهجاً مقصوراً على الشريعة والأدب، قائلاً:

شيخى الرفاعي طريقه الأدب إلى سوى الشرع ليس ينجذب  
لا الشطح يلوي عنان همته ولا الدعاوي إليه تقرب<sup>691</sup>

وحيثما آخر يرى أبو الهدي مُستهلاً مطلع قصيدته المدحية بالتشويق إلى مثنوى ممدوحه "واسط العراق"<sup>692</sup>، منثياً بكلماته إلى ربوعها ليعبر عن فيضان تلهفه الصادق وما قد ثار من لواعج شوقه الباسق إلى هاتيك الديار التي هاجت نسائهما أشواقه الكامنة، فإذا بهذه الأشواق قد قامت بعجها وعجيجها ناهضةً لتَهزَّ كيان الشاعر، حتى راح يستعطف رفيقه حادي النياق متوسلاً إليه أن يحمل هذه الذات الموهبة على جناح من السرعة إلى بطحاء العراق، إذ بها قد حلّ ممدوحه، ومن ثمّ أحسن التخلّص ليطرق فيما تلتته من الأبيات مديح أحمد الرفاعي؛ فقال:

<sup>690</sup> يُنظر: الزكلي، الأعلام، 1/174.

<sup>691</sup> در.ت، 25.

<sup>692</sup> بلدة في العراق تتوسط البصرة والكوفة، يُنظر: ياقوت، البلدان، 5/347.

أَمِنْ نَفَحَاتِ أَزْهَارِ الْعِرَاقِ دَعَاكَ صَمِيمٌ وَجَدَكَ لِلتَّلَاقِي  
 بِكَ الْأَشْوَاقِ قَامَ لَهَا عَجِيجٌ<sup>693</sup> مَعْرِبَةٌ<sup>694</sup> عَلَى قَدَمٍ وَسَاقٍ<sup>695</sup>  
 بِحَقِّكَ إِنْ تَهَزَّتْ<sup>696</sup> الْعَيْسَ صُبْحًا فَطَرَّ بِأَخِي التَّوَلُّهُ لِلْعِرَاقِ  
 لِأَعْتَابِ الْإِمَامِ ابْنِ الرَّفَاعِيِّ عَمِيدُ الْقَوْمِ مُتَمَنِّعُ اللَّحَاقِ<sup>697</sup>

وهكذا ينجلي أمام الناظر تعظيم أبي الهدي لمدوحه لما جعله إماماً مُتَمَنِّعَ اللَّحَاقِ في كناية منه عن  
 رُتَبَتِهِ الرَفِيعَةِ وشأوه القَصِي الذي لا يُبْلَغُ مُرْتَقَاهُ، حتى صارَ بِحَقِّ عَمِيدِ الْقَوْمِ الْمُتَصَوِّفَةِ؛ وتكادُ تكونُ  
 مِدْحُ الشَّاعِرِ لهذا الرَّجُلِ مُبْرَزَةً بوضوحٍ سَمَّةِ الإغراقِ والمبالغةِ في نعوتِ الممدوحِ، فصوتُ مدائِحِهِ لهذا  
 الرَّجُلِ يعلو ويعلو إلى أن يجعل منه إمامَ رجالاتِ التَّصَوُّفِ أجمعِهِم بل سيِّدَ جميعِ الصَّالِحِينَ على  
 امتدادِ العصورِ التي تَلَتْهُ، ومن ذلك قولُهُ وقد شَبَّهَ -تَشْبِيهًا مُرْسَلًا مُجَمَّلًا- الصَّالِحِينَ بنجومِ اللَّيْلِ  
 المتألِّقَةِ ممدوحَهُ الرَّفَاعِيَّ بالقمرِ المنيرِ:

سَيِّدُ الصَّالِحِينَ فِي كُلِّ عَصْرِ شَيْخُ أَقْطَائِهِمْ بِكُلِّ أَوَانٍ  
 بَعْدَهُ الْقَوْمُ كَالنُّجُومِ بَلِيلٍ وَهُوَ بَيْنَ الْجَمِيعِ كَالزَّبْرِقَانِ<sup>698</sup>

فإذا كانت سماءُ الصَّالِحِينَ تلمعُ بنجومِ أعلامِهِم فإنَّ ممدوحَهُ هو بدرُهُم السَّاطِعُ الكَامِلُ؛ ومما يسترعي  
 الانتباهَ خوضُ الشَّاعِرِ فِي خِضَمِّ الْأَقْبَابِ الصُّوفِيَّةِ -كالقُطْبِ والغوثِ والأبدالِ-<sup>699</sup> عندما يمدحُ

<sup>693</sup> مصدرٌ عَجَّ وهو رفعُ الصَّوْتِ والصِّيْبَاحِ، يُنظَرُ: الجوهري، "عَجَجَ"، 327/1.

<sup>694</sup> من عَرَبَدَ، والمعربُ هو الذي يُوذِي نَدِيمَةً فِي سُكْرِهِ، يُنظَرُ: الجوهري، "عَرَبَدَ"، 508/2.

<sup>695</sup> إذا قيل: قام فلانٌ على قدمٍ وساقٍ فالمرادُ بقوَّتِهِ وبطاقَّتِهِ الكَامِلَةِ، يُنظَرُ: أحمد مختار، "قدم"، 1785/3.

<sup>696</sup> حَرَّكَتْهَا ودفعتها لتنهض وتمشي، يُنظَرُ: الجوهري، "هَزَّ"، 900/3.

<sup>697</sup> د.ر.ت، 174.

<sup>698</sup> د.ر.ق، 62؛ والزَّبْرِقَانِ اسمٌ للقمرِ عند اكتمالِهِ، يُنظَرُ: ابن منظور، "زبرق"، 137/10.

<sup>699</sup> ألقابٌ اصطَلَحَ عليها المتصوِّفَةُ يُضْفَوْنَها على أعلامِهِم المجتهدِينَ فِي طَرِيقِ التَّصَوُّفِ امتلأتْ بها تراجمُهُم ويستندون إلى ذلك بأخبارٍ وآثارٍ مرويةٍ  
 فِي الأحاديثِ تجاذبتها الأقوالُ رَدًّا وتصحيحًا، يُنظَرُ: جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر السُّيُوطِي، الخبر الدَّالُّ على وجودِ القُطْبِ والأوتادِ والنُّجَبَاءِ  
 والأبدالِ، تحقيق: عبد الهادي منصور، (دمشق: دار البيروتي، 2005م)، 11.

ممدوحه، وهذا ينسجم مع اعتقاده الصوفي الذي ينجلي بقوة في مديحه لهذه الشخصية التي يراها أبرز الرجال في هذا المنهج؛<sup>700</sup> فيقول في قصيدة أخرى مادحاً تواضع ممدوحه وتمسكه بالسنة العراء:

مُتَوَاضِعٌ كَالشَّمْسِ يَلْمَعُ نَوْرُهَا      فَوْقَ الثَّرَى وَلَهَا الْعُلَى مِضْمَارُ  
غَوْثٌ عَلَى قَدَمِ الرَّسُولِ سَلْوَكُهُ      وَلِغَيْرِهِ فِي سِلْكِهِ أَطْوَارُ<sup>701</sup>

ويبدو أن الشاعر لكي يأخذ بعين القارئ إلى صورة التواضع التي اتسمت بها ذات ممدوحه، قام بجلب صورة صب عليها قلمه من سحر البيان بالتشبيه التمثيلي وبالإيجاز، فصوّر تواضع ممدوحه مع حقيقة رفعته بصورة الشمس ذات العلاء في قمة يافوخ الثريا التي تواضعت فتنزّل لامع نورها ليمتدّ منبسّطاً على ذرات الثرى، فكذلك ممدوحه امتدّ تواضعه شاملاً من حوله من الأدنى والأعلى مع كونه مرفوع المقدار إلى هام العلاء والمجد، لأنه سار بسير الاقتفاء للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد يُكتفى بما وقف عليه أنفاً من مديح الرفاعي لأن ما عداه مما تفرّق في شعره من مدح لأعلام طريقته التي انتسب إليها - كأستاذة الرواس وجده أحمد الصياد ووالده حسن وادي-<sup>702</sup> لا يتعدى حدود المعاني التي رسمها لممدوحه الرفاعي؛ إلا أن من الأهمية بمكان أن يُشار إلى تلك القصيدة ذات النفس الطويل التي أفاض فيها بمدح والده حتى جاوزت المئة، وحرص الشاعر فيها على أن يبني بُيائها بمطلع ضمّنه التثوق إلى مراح وطنه - حلب الشهباء- التي ازدهت ربوعها بساكنيها الكرام أهلها وعشيرته وجيرانه وأحبابه فراح يُعدّد نعوّتها التي ازدهت بمكارم أهلها، فمن ذلك قوله في المطلع المزيّن بجليّة التصريح (العرا/ الزهرا)، وحلل الجناس (كسرة/ كسرى، سُكاري/ سُكرى)

<sup>700</sup> يُظَر: د.ف.م، 151.

<sup>701</sup> د.ر.ق، 62.

<sup>702</sup> يُظَر: د.ت.ب، 109؛ د.ر.ت، 14، 18، 90؛ د.ر.ح، 26، 177.

والتسجيع (كرام/عظام)، إضافة للإطناب الذي يحكي كيف يستحلي أبو الهُدَى تردُّدَ مَرابعِ قومِهِ  
على لسانِهِ وذلك لفرطِ أشواقِهِ ومحبَّتِهِ إليها ولها:

رعى الله أطلاًلاً بشهباينا العرا وحيا ديارا دون أنوارها الزهرا  
معاهد أحب كرام وسادة عظام وأعيان سما شأنهم قدرا  
(بنحن قسنا) أيدوا السرر فاكثفوا بكسرة خبز عن رشيد وعن كسرى  
تعاموا عن الأكون حتى كأهم سكارى وتلقى الناس من شأنهم سكرى<sup>703</sup>

وها هنا يُلحظُ انتقالُ أبي الهُدَى بحسنِ التخلُّصِ إلى مدحِ أعيانِ حلبِ وساداتها أهلِ الزهدِ في المتاعِ  
الزائلِ العرور، الذين مدحهم لما اقتبسَ قوله تبارك وتعالى: "نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ"<sup>704</sup> بأنهم الذين عُمِرَتِ سرائرُهُم بفهمِ حقيقةِ هذه الآية فتأبَّدت  
بهذا الفهمِ سيرتُهُم في حياتِهِم، فما عادوا يحسدون رفيعًا ولا يحتقرونِ ضيعًا، بل كنزوا القناعةَ والرِّضا  
بما أعطاهم مولاَهُم فما اشْرأبتِ نفوسُهُم لمُلكِ ملوكِ الأرضِ وما تكالبَ عليه الناسُ، فمضوا سارينِ  
بهذه السيرة لا يلتفتون إلى غَبَشِ دنيا الدنيا فلكأهم سَكِرُوا بنشوةِ حبِّ الله والإيثارِ للدَّارِ الآخرةِ،  
حتى إذا ما نَظَرَ إليهم الناسُ تملَّكتهم نشوةُ الإعجابِ والانبهارِ بما تجسَّدَ في تلكِ الدَّواتِ من كريمِ  
الخصالِ وشريفِ الشَّمائلِ؛ ومضى الشاعِرُ مُستطرِّدًا على هذا المنوالِ في المديحِ لأعيانِ بلادِهِ الشَّهباءِ  
إلى أن أحسنَ التخلُّصَ مرَّةً أخرى إلى مقصودِهِ من المدحةِ والديهِ حسنِ وادي، الذي هو - في  
نَظَرِهِ - عينُ أعيانِهِم، في إطنابٍ مدحيٍّ جميلٍ يُذكرُ فيه الخاصَّ - والدهُ - بعد العامِّ - مراعٍ حلبِ

<sup>703</sup> د.ف.م، 148.

<sup>704</sup> الزُّخرف، 32/43.

وأهلها-، وذلك بعد أن أحسن التعليل معتدراً عن تقصيره في مديح أعيان الشهباء مُضمّناً لأبياته  
الطِّباق (طويل/قصير، خلوة/بارز):

طويلٌ مديحي حين يُثني عليهم      قصيرٌ فلا أحتاجُ أن أبسطَ العذرا  
ولا سيّما بالشَّهم مولاي والدي      ملاذي ومن أعددتهُ في الملا دُخرا  
كليث الشَّرى في غابةِ الشَّانِ بارزٌ      وفي خلوةِ العرفانِ مُنكسرٌ سراً<sup>705</sup>

فوالدهُ بلغَ من علوِّ الكعبِ في مضمارِ شؤوناتِ الشرفِ ما دفعه لتشبيه ذلك المضمار بالغابة التي  
برزَ فيها والدهُ هزيراً يزأُرُ بكلِّ فضيلةٍ ومجدٍ، وهو رغمَ هذا الطَّورِ العزيزِ ينطوي منكسراً ذوياً إذا ما  
انزوى مُحتلياً في مناجاته لخالفه العظيم؛ ولا يلبثُ أبو الهدى بالقارئ قليلاً حتى يعرج به في معارج  
الطَّابعِ الدَّائِي الذي صبغَ به هذه المدحة، ليبيِّنَ العلاقةَ بينه وبين ممدوحه، حيثُ راح يحكي حالَ  
هذا الوالدِ مع ربِّه وصدق التجائته إليه في الضراء والسَّراء، وما أسفرت عنه هذه الدَّعوات من أيادٍ  
بيضاء التي كَتى بها عما أجرته الأقدار في مسيرةِ ولدهِ المادحِ أبي الهدى فراح يرفلُ بِرُدَّةِ الإتحافات  
والإكراماتِ الإلهيةِ مجبوراً في كلِّ حلبةٍ صارعه فيها خصومه وراموا كسره فيها، فقال مُضمّناً لأبياته  
الطِّباق (فلّ/تجمَّعوا، بسط/انقبضوا):

وكم فلّ عزمًا من رجالٍ تجمَّعوا      علينا ببسطِ الكفِّ فانقبضوا دهرًا  
وكلُّ يدٍ بيضا لنا بالرِّضا انجلت      بسرِّ دُعاءه قد مُنحنا بها جبرًا  
ولم نره يوماً أقامَ لشأنه      مقامًا ولا كَتى بذاك ولا ورى<sup>706</sup>

<sup>705</sup> د.ف.م، 150.

<sup>706</sup> د.ف.م، 151.

فكم بدعواتٍ ممدوحِه - التي كَتَى عنها (ببسط الكفِّ) - تَفَرَّقَتْ جموعُ الأعداءِ، فتقهقرت فلوهُم لآويةً عن أذِيَّةِ أبي الهُدَى ورهطِه منقبِضَةً بانبساطِ هاتيك اليدِ الممدوحةِ المرفوعةِ دعواتُها إلى علياءِ خالقِها، وذَيْلِ الشَّاعرِ كُلِّ هذا المديحِ بإشارةٍ إلى تواضعِ هذا الوالدِ حيثُ لم يشهدَ لِنَفْسِه عظيمَ ولايةٍ أو مقامٍ عندَ رَبِّه، بل ولم تُفِّه شفتاهُ يومًا بكنايةٍ أو توريةٍ عن منزلةٍ أو إكرامٍ حَصَّه به خالقُه، فهو يزدادُ تواضعًا وانكسارًا لعلياءِ خالقِه القريبِ المحيِبِ.

ويظهرُ أنَّ مَنْ يُريدُ أن يلمَحَ من مدائحِ أبي الهُدَى الخاصَّةِ ما يخرجُ عن خِباءِ خيمَةِ ممدوحيه من المتصوِّفةِ فلن يجِدَ إلا النَّزَرَ القليلَ جدًّا ولربَّما كانت المناسباتُ قد أوجَّبت عليه ذلك، ففي مجلسٍ ضمَّه مع الأميرِ عون الرِّفيقِ باشا (ت. 1323هـ/1905م) - أحد الأشرافِ من أعضاء مجلسِ شورى الدَّولة -،<sup>707</sup> ارتجَلَ أبو الهُدَى بيتين في مدحِه، ضَمَّنَها حُلَى الجِناسِ (فريق/رفيق/الفريق، عين/عون)، وحسن التَّعليلَ لِمَا عَلَّلَ تسميتهُ بفريقِ المجدِ لصاحبه الشَّريفِ عون، حيث قال:

فريقُ بني الرِّسولِ فريقُ خيرٍ وأنتَ بعصرنا عينُ الفريقِ  
لِذاك رفيقُ مجدِكَ صرتُ أدعى وإسمكَ في الوَرَى عونُ الرِّفيقِ<sup>708</sup>

وفي مناسبةٍ أُخرى راح يمدحُ وَلَدَهُ حَسَنَ خالدٍ إذ حَالَتِ المفاوِزُ والقِفَارُ بينهما لِمَا بَعَثَهُ السُّلطانُ عبد الحميدِ بمهمَّةٍ خاصَّةٍ إلى اليمنِ،<sup>709</sup> فانبرى أبو الهُدَى ناظِمًا في مديحِه أبياتٍ منها قولُه

<sup>707</sup> يُنظر: إسماعيل حقي جارشلبي، أمراء مَكَّة المكَرَّمَة وأشرافها في العهد العثماني، مترجم: خليل علي مراد، (بيروت: الدَّار العربيَّة للموسوعات، 1424هـ/2003م)، 226.

<sup>708</sup> د.ف.م، 154.

<sup>709</sup> يُنظر: ثمرات الفنون، "مراسلات الحديدة" (21/تموز/1902م)، 6؛ مرآة الشُّرق، "لحمة موجزة عن تاريخ المغفور له حسن خالد" (4/كانون الثاني/1937م)، 6.

وقد مدَّحه بالجوِّد والكرم والفصاحة، وطيب السُّمعة حتى استعار -استعارةً مكنيةً- للدَّهر مَسامعًا يُنصتُ بها إلى شمائلٍ ممدوحه وخصاله الزَّاكية:

وَرَانَهُ كَرَمٌ جَمٌّ وَمَنْطِقُهُ يَكَادُ يَعَشُّقُ مِنْهُ اللَّفْظُ سَامِعُهُ  
يُنْتَقَى عَلَيْهِ رِعَاةُ اللَّهِ مِنْ أُمَّمٍ وَالِدَّهْرُ يُصْغِي لِمَا يُنْتَقَى مَسَامِعُهُ<sup>710</sup>

ومما يمكن إلحاقه بهذا المحور ما نظمهُ أبو الهُدَى في مديح نبيِّ الله زكريَّا عليه السلام، قائلاً:

وَأَبُو يَحْيَى شِفَا الْقَلْبِ الْعَلِيلِ وَنَبِيٌّ وَابُّهُ بَابُ السُّرُورِ  
أَمَلِي فِي رُحْبِهِ اللَّطْفُ الْجَمِيلِ حَاصِلٌ وَالضُّدُّ تَشْوِيهِ السُّرُورِ<sup>711</sup>

وقد يكون الباعثُ للشاعرِ على هذه المدحة زيارةً للمقام الموجود في مدينته حلب، الذي نَسبه بعضُ المؤرِّخين إلى هذا النبيِّ -حسبما يرى كامل الغزِّي (ت. 1351هـ/1933م)-،<sup>712</sup> مما يجعلُ القارئَ للأبيات يُرَجِّحُ أن تلك الزيارة هي التي دفعت الشاعرَ لينظِّم تلك القصيدة التي منها هذان البيتان اللذان يشرحان ما أمَّله في رحابِ ذلك النبيِّ من دعواتٍ توجَّهَ بها إلى مولاه بأن تغمرهُ الألفاظ ويندحرَ خصمُهُ مكتويًا بنيرانِ السُّرور.

ومن جميع ما سبق المرور عليه في غرض المديح ومحاوره التي دارَ عليها يمكن أن يُخلصَ إلى ما يلي:

■ على الرَّغم من تعدُّد الشَّخصيَّات التي مدحها أبو الهُدَى وانقسامها إلى فئاتٍ عدَّةٍ، إلا أنَّ قاسمًا مُشترَكًا ربطَ فيما بينها جميعًا ألا وهو الرِّابطُ الدِّيني والصفات الدِّينية، فكلُّ

<sup>710</sup> د.ر.ت، 154.

<sup>711</sup> د.ف.م، 97.

<sup>712</sup> يُنظر: الغزِّي، تاريخ حلب، 2/188.

ممدوحيه كانوا من ذوي الصبغة الدينية الذين ارتبطت أسماءهم بالدين وشعاراته، ولهذا يمكن القول: إنه انطلق في معظم مدائجه من المنطلق الديني، ولم يتخط هذا المنطلق إلا في مواضع يسيرة عندما مدح ولده حسن خالد وصديقه الشريف عون الرفيق باشا.

■ وإذا ما كان منطلقه في مدح دينياً بحثاً - كما بدا في مدح آل البيت والصحابة - أو معبراً عن أفكار دينية أو صوفية أراد إبرازها ولفت النظر إليها - كما ظهر في مدح العثمانيين والفضلاء - فهذا يعني أنه لم يكن مداحاً متكسباً في مدح يرجو به إفضال هذا أو عطايا ذاك.

■ ولما كانت مدائجه تُعبر عن كوامن مشاعره أولاً وأفكاره التي آمن بها ثانياً، فقد حلت من تكلف المتكسبين وتملقهم لمادحيهم، وبالوقوف على تلك المدائح تلوح استجابة أبي الهدى لصدق العاطفة تجاه ممدوحيه، التي خلعتها على معظم قصائده، ولربما برز في بعض المواضع أنه كان يقصد بمدحه التعريف بمكانة ممدوحيه والدفاع عنهم ولفت الأنظار إلى حقوقهم، أو الإشاعة لمنهجهم.

■ وقد برز هذا الغرض ضمن قصائد ومقاطع وبتف، وجاءت أكثر المدح وقد غلب عليها النفس القصير الذي لم يتجاوز أربعين بيتاً، ويستثنى من ذلك مدحته في أعيان حلب ووالده حسن وادي - حيث تجاوزت أبيتها المئة -.

■ وبرزت قصائد الغرض مبنية وفق بُنيان تنوعت فيه المطالع بين غزل ونسيب ووصف للطبيعة وجمالها أو أعرض عن كل هذا بالدخول المباشر إلى المديح، وأمّا الخواتيم فقد كانت تُختتم بالأدعية والصلاة والسلام على النبي الأكرم عليه السلام.

■ ويُلاحظ أن أبا الهدى في صلب مدائجه تنقل عبر وثبات نفسية بين الأبيات، وصب اهتمامه على الصفات الدينية لممدوحيه، وقد يؤخذ عليه أن تركيزه هذا ربما أذاه - في

بعض المواضع - إلى إهمال الصفات الأخرى، في حين أنّ بعض النقاد رأى المديح لا يكمل إلا إذا استجمع المادح لممدوحه أربع صفاتٍ وما تفرّع عنها، وهي صفات: العدل والعقل والشجاعة والعفة،<sup>713</sup> وعلى هذا يمكن القول: إنّ بعض مديحه جاء مُقَصِّراً عن استكمال جميع خصال المدح، وذلك لما ركّز على صفاتٍ دون أخرى؛ وقد لا يُجانب الصواب إذا ما قيل إنّ الشاعر في محور مديحه للعثمانيين استكمل جميع صفات المديح المطلوبة، فبرزت مدائحه فيهم مُتناسبةً مع مقامهم الملوكي السلطاني.

■ ويُلاحظ أنّ أبا الهدي في هذا الغرض قد تكرّرت معانيه المدحية في غالب قصائده، وقد يلمح القارئ في بعضها أنّه إزاء نسخٍ مُتكرّرة من معاني المديح، فمجدد ممدوحيه طالما كرّر وصف علوه بأنّه يناطخ السماء والنجوم، وشجاعتهم طالما شبّهها بالأسود، وكرمهم بالغيوث الهوامع.

■ وقد جاءت ألفاظه متناسقةً مع معانيه ومتناغمةً مع سياقها التي سيقت فيه، فشجاعة ممدوحيه في الحروب استدعت منه ما يُناسبها من ألفاظٍ قويّةٍ مُجلجلةٍ جزلةٍ، ولطافتهم استدعت ألفاظاً أنيقةً تُضفي على المدحة جمالاً آخر، يزيد ما زخرت به من جمال الخليل البديعة والاستعارات والتشبيهات حسناً وألقاً، بعد أن صبّت في قوالب من التراكيب المتينة.

<sup>713</sup> يُنظر: فُدامة، نقد النّبيّ، 20.

## المبحث الرابع: غرض الغزل

يُعدُّ هذا الغرض الأكثر التصاقًا بالنفوس والقلوب من بين الأغراض الشعريَّة عموماً، إذ عادةً ما تكون القصائد الغزليَّة ذات نغمٍ موسيقيٍّ يعذبُ في الأسماع بما عُزِفَ على أوتارِ الحسِّ المرهفِ والعاطفة الصَّادقة والمشاعر الفيَّاضة، التي تَلَجَلَجَت بين جوانح الشعراء.

والغزل في أصل اللُّغة مادَّةٌ اشتمَلت على ثلاثة معانٍ، أوَّها: من (عَزَلَ الصُّوفَ) وهو مدُّه وفتلُه خيطاناً، وثانيها: من (أَعَزَلَتِ الظَّبِيَّةُ) إذا صارَ لها غزالٌ - فوَلَدُ الظَّبِيَّةِ هو الغزالُ-؛ وأمَّا الذي بصَدَدِهِ هذا المبحث فهو المعنى الثالث الآتي من (عَزَلَ بالمرأة)، والاسمُ منه "العَزَلُ" ويعني اللهُو مع النِّسَاءِ، أو بتعبيرٍ آخر "تحديثُ الفتيانِ الجوارِي"،<sup>714</sup> وقد يُقالُ: غازَلَ مُعازِلَةً، ويُعنى بالمُعازِلَةِ مُفاكِهَةً النِّسَاءِ ومُراوَدَهُنَّ ومُحَادَثَهُنَّ والتَّوَدُّدُ إِلَيْهِنَّ،<sup>715</sup> وَمَنْ تَلَبَّسَ بِهَذَا الْفِعْلِ قِيلَ لَهُ: "عَزَلَ"، وتكَلَّفُ الْغَزَلَ يُقالُ له: "تَعَزَّلُ"؛<sup>716</sup> وقد عُدَّ الشَّاعرُ امرؤُ القيسِ (ت.80ق.هـ/544م) أغزَلَ مَنْ نظَمَ فِيهِ حتَّى ضُرِبَ به المثلُ الأعلى فقيلَ في الذي يُحسِنُ الغزلَ: هو "أغزَلَ من امرئِ القيسِ".<sup>717</sup>

وإذا ما وَقَفَ على معناه في الاصطلاح فلن يبتعد عن المعنى اللُّغويِّ كثيراً، إلا أنَّه سيُوقَفُ إزاءَ ثلاثة مُصطلحاتٍ آخِذٌ بعضها برقابِ بعضٍ، وهي: العَزَلُ والنَّسِيبُ والتَّشْيِيبُ، وما سببُ هذا الاقترانِ إلا الجامعُ المشتركُ بينها، الذي هو حُبُّ المرأةِ ووصفها حسَّاً ومعنىً، وهو سببٌ أدَّى إلى تقاربِ المدلولاتِ بين هذه المفرداتِ، ولذلك قد يبدو في كلامِ بعض النُقَّادِ واللُّغويِّين - كابن سَلَّامِ

<sup>714</sup> ابن سيده، المُخصَّص، 375/1.

<sup>715</sup> يُنظر: ابن منظور، "غزل"، 492/11؛ ابن دريد، "زغل"، 819/2.

<sup>716</sup> الزبيدي، "غزل"، 91/30.

<sup>717</sup> أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تجمُّع الأمثال، تحقيق: محيي الدِّين عبد الحميد، (مصر: مطبعة السُّنَّة المحمَّديَّة، 1374هـ/1955م)، 65/2.

الجُمَحِيّ (ت. 232هـ/846م)<sup>718</sup> وابن قتيبة الدِّينَوْرِيّ<sup>719</sup> وابن سيده (ت. 458هـ/1066م)<sup>720</sup> - ما يُشيرُ إلى تراوِّفِ هذه المصطلحات ويدفَعُ ببعضِ مؤرِّخي الأدبِ إلى القولِ: إنَّ هذه الاصطلاحات كثيراً ما تَقَعُ الواحدةُ منها محلَّ أُختِها؛<sup>721</sup> وعلى الرَّغمِ من هذا فقد يَلْمَحُ عند نُقَادِ آخَرِينَ التَّفريقُ بينها - مع اعترافِهِم بصعوبة التَّمييزِ بينها-، حيثُ جُعِلَ اصطلاحُ الغَزَلِ لِمَا نَظَمَهُ الشَّاعِرُ "لوصفِ المرأةِ - مدفوعاً إلى ذلك بعقيدةٍ أو مَسوقاً فيه بِصِنَاعَةٍ" فما الغَزَلُ إلا "التَّصَابِي" <sup>722</sup> والاستهتار <sup>723</sup> بمودَّاتِ النِّساءِ"، وأمَّا النَّسِيبُ فقد اختُصَّ بذكرِ أحوالِ العلاقةِ الغرامِيَّةِ بينِ المحبِّ ومحبوبِهِ التي غالباً ما تحكي الألمِ النَّاتِجَ عن الصَّبَابَةِ والحُبِّ والفراقِ،<sup>724</sup> وما وُجِدَ من الغَزَلِ أو النَّسِيبِ في مطالعِ قصائدِ الشُّعراءِ سُمِّيَ تَشْبِيهاً.<sup>725</sup>

ولمَّا كان هذا الغرضُ الشِّعريُّ مُرتَبطاً بالمرأةِ فلا بدَّعَ أن يحظى باهتمامٍ بالغٍ من الشُّعراءِ، إذ للمرأةِ حضورٌ تميَّزَ بِاشغالِ حَيِّزٍ كبيرٍ من تفكيرِ الإنسانِ وعواطفِهِ، حيثُ تمتَّعتْ ذاتُها بكونِها وهجاً من الأحاسيسِ وفيضاً من العواطفِ والمشاعرِ، فما إن يطرُقُ الأسماعُ حديثُ الحُبِّ والتعلُّقِ بهذه الدَّاتِ إلا وتنخلعُ قلوبُ السَّامعينَ لهذا الحديثِ وتنجدِبُ إليه ألبابُهُم وتتحوُّلُ كلُّ ذرَّةٍ من كيانِهِم إلى مَسامِعِ كُلِّها إصغاءً لما جُبِلتْ على حُبِّهِ، ويرى ابن قتيبة أن هذا الإلفَ للمرأةِ شيءٌ قد رَكَّبَ اللهُ

<sup>718</sup> يُنظر: محمد بن سلام بن عبيد الله الجُمَحِيّ، طبقات فحول الشُّعراء، تحقيق: محمود شاكر، (جدَّة: دار المدني، د.ت)، 545/2.

<sup>719</sup> يُنظر: ابن قتيبة، الشِّعر والشُّعراء، 554/2.

<sup>720</sup> يُنظر: ابن سيده، المخصَّص، 375/1، 376.

<sup>721</sup> يُنظر: محمد سامي الدَّهان، فنون الأدب العربيّ، (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 12/1؛ القيرواني، العمدة، 117/2.

<sup>722</sup> التَّصَرُّفُ على شاكِلَةِ الصَّبِيانِ والميلِ للعبِ واللَّهو، وتصابي الرِّجلُ للمرأةِ إذا ما استمالها وجَدَّها ليستهويها، يُنظر: أحمد مختار، "صبي"، 1267/2.

<sup>723</sup> هو أن يُتَّبِعَ الهوى ولا يُكْتَرِثُ بعواقبِ الفعلِ أو القولِ، يُنظر: أحمد مختار، "هتر"، 2221/3.

<sup>724</sup> يُنظر: قدامة، نقد الشِّعر، 42.

<sup>725</sup> يُنظر: السَّباعي بيومي، تاريخ الأدب العربيّ في العصر الجاهليّ (القاهرة: مطبعة العلوم، 1353هـ/1934م)، 113.

العِبَادَ عليه، فحُبُّ الغَزَلِ "لا يكادُ أحدٌ يخلو من أن يكونَ متعلِّقًا منه بسببِ وضاربًا فيه بسهمٍ"،<sup>726</sup> ولجذبِ القلوبِ واستصغاءِ المسامعِ ولفَتِ الأنظارِ دَرَجَتِ عَادَةُ الشُّعراءِ منذ العصرِ الجاهليِّ على الحرصِ على تصديرِ قصائِدِهِم بهذا الغرضِ المُحَبَّبِ ومن نَمَّةً كانوا يخوضون في خِصَمِ أغراضِهِم الأخرى، فضلًا عن أَنَّهُم قد تَمَيَّجُهُم عواصِفُ العواطفِ فيشرعون في بناءِ قصائدِ كَامِلَةٍ في الغزلِ يَبْثُونَ فيها فضلًا من تلكِ العواطفِ، فينبثونَ في الغوصِ إلى أعماقِ علاقَتِهِم بمحبوباتِهِم، على اختلافِ في مجرى حديثِهِم وتباينِ بَيْنِ كَلامِ عَفيفِ راقٍ وآخَرَ يَنحَطُّ مُتَرَدِّيًا إلى مهاوي المادِيَّةِ والشَّهوانِيَّةِ.

ولم يكن أبو الهُدَى نائيًا بشعرِهِ عن سَنَنِ مَنْ سَبَقَهُ من الشُّعراءِ، فقد أودَعَ شِعْرَهُ من الحديثِ عن المرأةِ بِغَزَلٍ تَنَاطَرَ بَعْضُهُ في مطالعِ القَصائِدِ، وجاءَ بَعْضُهُ الأخر في قصائدِ استقلَّت بِناءٍ جُعِلَ من أَلْفِهِ إلى يَأْتِيهِ مَبْنِيًّا على غَرَضِ الغَزَلِ، فضلًا عن التَّفِ التَّشعيرِيَّةِ المندرجةِ تحت هذا الغرضِ أيضًا؛ وأيًا كان شكلُ هذا الغرضِ أو موضِعُهُ فإنَّ ما يسترعي الانتباهَ فيه هو إمكانُ تقسيمِهِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ هي: (التَّشبيبُ والغَزَلُ والتَّسبيبُ)، وذلك باعتمادِ الرَّأيِ القائلِ بالتَّفريقِ بين هذه المصطلحاتِ، وقد يكون من الحَسَنِ تناولُ كلِّ قسمٍ منها على حِدَةٍ.

## 1 التَّشبيب

على الرَّغْمِ من أَنَّ هذا المصطلحَ قد يُرادُفُ - ولو عند بعضِ النُّقادِ - مُصطلحَ الغَزَلِ كما قد تَبَيَّنَ أَنفَاءً، إذ ما هو إلا قول الغزلِ والتَّسبيبِ في المرأةِ وترقيقِ الشُّعْرِ بِذِكْرِهَا،<sup>727</sup> لكنَّ الذين ميَّزوا هذا المصطلحَ عما سواه يبدو أَنَّهُم قد بَنَوْا كَلامَهُم على الأصلِ اللُّغويِّ لهذه الكلمة؛ فهو آتٍ من الشَّبَابِ فكأنَّ التَّشبيبَ هو عملُ الشَّبَابِ وحالُهُم؛ أو أَنَّ التَّشبيبَ آتٍ من التَّشبيطِ والتَّهيجِ المأخوذِ

<sup>726</sup> ابن قتيبة، الشَّعْر والشُّعراء، 76/1.

<sup>727</sup> يُنظر: ابن منظور، "شِبب"، 481/1، 482.

من شبابِ الفرس أي نشاطها ورفعها ليديها؛ أو أنه آتٍ من إيقادِ النار؛<sup>728</sup> وكلُّ هذه الأصول تلتقي مع قولٍ من قال بتقييد التشبيب بمطالعِ القصائد، فكأنَّ الشاعرَ يُريدُ أن يُذكي خواطرَ سامعيه ويهيج عواطفهم ويُنشِط أذهانهم بتشبيبه في مطلعِ القصيدة، ومن ثمَّ ينتقلُ بهم بعد هذا التنشيط والتَّهيج إلى حيثما يريد من ميادين الأفكار والأغراض.

وقد حظيت قصائدُ أبي الهدي بهذا النوعِ من الغزل، فكان يعمدُ إليه إذا ما أراد أن يطرقَ غرضًا من أغراضه، وقد تبينَ فيما سبقَ من الأغراضِ شيئًا من المطالعِ التي افتتحها به - كما في غرضِ المديحِ النبويِّ ومدحِ العثمانيين-،<sup>729</sup> وقبل أن يُلتمَسَ هذا التشبيب في القصائدِ الأخرى، تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ هذا التشبيبَ قد تردَّدَ بين نوعين، فاستهلالُ الغزلِ في موضعٍ واستهلالُ بالنسبِ في موضعٍ آخر؛ فمن الأوَّلِ قوله في مُفتتحِ قصيدةٍ مدحيَّة:

هَزَّ مِنْهَا النَّسِيمُ حَصْرًا رَفِيْعًا      غَزَّرَ حِينَ التَّوَى فَوَادًا وَجِيْعًا  
وَبكَشَفِ النَّقَابِ عَنْهَا تَرَاءَى      بَدُرُ وَجْهِ دَعَا الْهَيْلَالَ وَضِيْعًا  
يَسْتَعِيرُ الْخَطَّارُ<sup>730</sup> مِنْهَا اهْتِرَازًا      وَالصَّبَاحُ الصَّافِي الشُّعَاعَ طَلُوعًا  
وَإِذَا أَرْسَلَتْ مِنَ الطَّرْفِ سَهْمًا      صَارَ شَهْمُ الْبَيْدَا طَرِيْحًا صَرِيْعًا<sup>731</sup>

فالشاعرُ يسلكُ في هذا التشبيبِ مسلكَ الغزلِ المادِّيِ الحسبيِّ، الذي يمضي في تصويرِ جمالِ جسدِ المرأة، وبيانِ صفاتها الحسبيَّة، فيرسم صورةً بصريةً لمحبوبته محاولاً أن تنجلي لدى الناظرِ في هذا المطلعِ،

<sup>728</sup> يُنظر: القيرواني، العمدة، 127/2.

<sup>729</sup> يُنظر: ص 108، 183.

<sup>730</sup> خطران الرُّمَح هو ارتفاعه وانخفاضه للطعن، والخطارُ صفة للرُّمَح ذو الاهتزاز، يُنظر: الجوهري، "خطر"، 648/2.

<sup>731</sup> د.ف.م، 136.

ومستعينًا بما أوتيته من ذوقٍ لِيَصِفَ جزئيات الجمال في هذه المرأة؛ حيثُ إنَّ محبوبَةَ الشَّاعِرِ هَهَافَةٌ ذاتُ قِوَامٍ بَدِيعٍ وَجَسَدٍ صَافٍ أبيضَ بَخَصِرٍ رَفِيعٍ مَيَّالٍ وَوَجْهٍ مَنِيرٍ أَبَدَرٍ وَمُقَلَّةٍ فَتَّاكَةٍ، وَلَكِي تَنْطَبِعَ صُورَةُ المَحْبُوبَةِ الجَمِيلَةِ وَأوصافها الحسنى في ذهنِ السَّامِعِ لِحَا أَبِو الهُدَى إلى تردادِ الاستعاراتِ والتَّشْبِيهاتِ في هذا التَّشْبِيهِ، فوجَّهها شبيهُ البدرِ، والخَصْرُ لِدِقَّتِهِ مَادَتْ بِهِ نَسَائِمُ الرِّيحِ، فَانقَلَبَ - بالاستعارةِ المَكْنِيَّةِ - قوسًا تُرْسِلُ بِالحَاظِهَا سَهَامًا تَغْرُزُ فِي فؤَادِ المُحِبِّ الوهَانِ، وَمَا إنَّ أَمِيطَ اللِّثَامِ عن وَجْهِ المَحْبُوبَةِ البَدْرِيِّ حَتَّى انمَحَقَ بَدْرُ السَّمَاءِ وتضاءَلَ هَلَالًا وَضِيْعًا أَمَامَ رِفْعَةِ هَذَا الجَمَالِ الأَنُورِ لمحبوبةِ الشَّاعِرِ، فِي إِشَارَةٍ مِنْهُ إِلَى حُسْنِهَا الكَامِلِ المُكْتَمِلِ اكْتِمَالِ البَدْرِ وَإِلَى نَقْصِ جَمَالِ القَمَرِ الَّذِي جَعَلَهُ هَلَالًا نَاقِصًا مُتَضَائِلًا لَمَّا بَدَتْ بِكَمَالِ جَمَالِهَا الأَخْطَاذِ؛ وَلا سَطْرَافَهُ لِمَحْبُوبَتِهِ الَّتِي يُشَبِّبُ بِهَا فَقَدْ اسْتَطْرَدَ فِي مَبَالِغَةٍ جَعَلَ مِنْهَا الأَصْلَ فِي التَّشْبِيهِ إِذْ جَعَلَ القَارِيءَ يُحْسِنُ أَنَّ مَحْبُوبَتَهُ فِي عَيْنِهِ أَضْوَاءً مِنْ طَالِعَةِ الصُّبْحِ وَأَهْيَفُ مِنَ الرُّمَحِ، فَأتَى بِالاستعارةِ المَكْنِيَّةِ جَاعِلًا مِنَ الرُّمَحِ إِنْسَانًا يَأْخُذُ مِنَ مَحْبُوبَةِ الشَّاعِرِ الهَيْفَ وَالرِّشَاقَةَ، وَأَمَّا الصُّبْحُ فَقَدْ اسْتَمَدَّ مِنْهَا نُورَهُ وَإِشْرَاقَهُ وَلَمْعَانَهُ، وَيَكْفِي عِيونَهَا جَمَالًا أَنَّهُا تُرْسِلُ بِالحَاظِهَا سَهَامًا تَصْرَعُ الصِّندِيدَ مِنَ الكُمَاةِ فَتَرْمِيهِ طَرِيحًا عَلَى رَمَالِ قِفَارِ المَحَبَّةِ وَالعِشْقِ؛ ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَبِو الهُدَى بَعْدَ هَذَا التَّشْبِيهِ حَتَّى يَأْخُذَ بِمَسَامِعِ النَّاظِرِينَ إِلَى غَرَضِهِ الأَسَاسِ وَهُوَ المَدْحُ لِسِرَاجِ الدِّينِ المَخْزُومِيِّ (ت. 885هـ/1480م)<sup>732</sup> بَعْدَ أَنْ أَحْسَنَ التَّخْلُصَ فَأشارَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ المَحْبُوبَةَ قَدْ تَمَنَّعَتْ مُتَعَزِّزَةً وَتَحَجَّجَتْ عَمَّنْ أَرَادَ وَصَلَهَا، كَمَا قَدْ عَزَّ النَّازِلُ فِي رِحابِ مَمْدُوحِهِ:

عَزَّ مَعْنَى وَصَالِهَا مِثْلَمَا عَزَّ زَ نَزِيلُ السِّرَاجِ عَنِ أَنْ يَضِيْعًا<sup>733</sup>

<sup>732</sup> كان شيخ الإسلام في عصره وله مؤلفات عديدة، يُنظر: الزركلي، الأعلام، 6/238.

<sup>733</sup> د.ف.م، 136.

وإذا ما كان تشبيبُ الشَّاعِرِ في مطلعِ الغزلِ، فإنَّه لا يَرى بأسًا في الالتفاتِ إلى صبايِّه  
 والتَّشبيبِ بنسيبٍ يحكي ألمَ الفراقِ الذي أَجَّجَ نارَ الجوى، حيثُ راحتِ ألسِنَةُ اللَّهَبِ مُتصاعِدَةً  
 تتلَوَّى في أحشاءِ المُحِبِّ، فيلتوي إذ ذاكُ مُترجِّمًا لها بأهاتِ العويلِ والتَّدب؛ ومن ذلك قولُه وقد  
 أتى بالتَّصريحِ، ومراعاةِ النَّظيرِ (ندبها وعويلها)، والجناسِ (الوفا/الوفا، الرِّيم/رامة) والطِّباقِ  
 (كثيرها/قليلها، نقض/وفا):

ألا من لِنَفْسٍ بَانَ عنها حَلِيلُها      وطالَ لهذا نَدْبُها وعويلُها  
 تَحْنُ لآرامٍ بَسَلَعٍ كَثِيرُها      أقامَ على نقضِ الوفا وقليلُها  
 أُبرِجى ثباتُ الرِّيمِ في رامةِ الوفا      وتلكَ على الآسادِ صعبٌ حُلُولُها<sup>734</sup>

فأول ما يسترعي الانتباه في هذا التَّشبيبِ، ما عمَدَ إليه أبو الهُدَى من استشارةٍ لِشَفَقَةِ المُتَلَقِّي  
 واستعطافٍ يَسْتَرْجِئُه فيه، بعد أن لَقَّتْ انتباهه واسترعاؤه بحرف التَّنبيه "ألا"، ونكَّرَ لفظَةَ النَّفْسِ مُشعراً  
 بعظَمِ مُصايِّها بنأيِ حبيبها عنها، حتى باتت تجرُّ الآهاتِ التي حَكَّتْها قافيةُ الأبياتِ ذاتِ الحرفِ  
 المَدِّيِّ المُطَلَقِ المَدَى، الذي يعكسُ ما أورثه بُعدُ الحبيبِ في نفسِيَّةِ الشَّاعِرِ حتى علت منه أصواتُ  
 التَّدبِ والعويلِ؛ ويلفتُ الأنظارَ أنَّ الشَّاعِرَ تميَّزَ بالتَّقيُّدِ بما حرَّصَ عليه أربابُ الشِّعرِ التَّقليديِّ من  
 ذكرِ مواطنٍ محبوباتهم مُقيَّدةً بالأماكنِ والمعالمِ العربيَّةِ وخاصَّةً المشهورةِ في جزيرةِ العربِ، فنفسه ما  
 اشتاقت إلا إلى مَنْ أَحَبَّ مِنْ كَثَى عَنْهُمْ بِظَبَاءِ "سَلَعٍ" و"رامة"؛<sup>735</sup> ثم ما لبثَ حتى شرَّعَ في وصفِ  
 ما أرهقَهُ به المحبوبِ من تَدَلُّلٍ ومُنْعِ أضناه وذهبَ به كلَّ مذهبٍ من العنا والحزن، ومن ثَمَّةٍ يخلُصُ  
 إلى ما يُريدُه من الغرضِ الرَّئيسِ للقصيدَةِ.

<sup>734</sup> د.ت.ب، 125.

<sup>735</sup> سلع موضعٌ بقرب المدينة، ورامة موضعٌ في الطَّرِيقِ من البصرةِ إلى مكَّة، يُنظَرُ: ياقوت، البلدان، 236/3، 18/3.

تلك كانت أمثلةً لتشبيب أبي الهدي الذي عمَدَ إليه في مطالعِ القصائدِ، ويُمكنُ أن يُلاحظَ من خلالها اقتصاره على قطعِ استهلاكيةٍ ليست بالطويلةِ، إلى جانب كونها ليست بالجديدة المبتكرة، وما الغاية منها إلا السَّيرُ على المنوالِ التقليديِّ الذي دُرِّجَ عليه في بناء القصيدة العربية؛ وقد يظهرُ بعضُ التفصيلِ وغازاةِ العناصرِ المتناوِلةِ في القصائدِ المُستقلَّةِ التي خصَّصها للنَّسبِ والغزلِ، ولذلك قد يكونُ من الأهميةِ بمكانٍ إفرادُ كُلِّ منهما على حدةٍ في مبحثٍ مُستقلٍّ، لتتلمَّسَ أيادي البحث تلك العناصرَ والأفكارَ التي احتواها كلُّ من الغزلِ والنَّسبِ.

## 2 الغزل

إذا ما مُيِّزَ الغزلُ بأنه التَّصابي والاستهتار في ذكر النَّساءِ، فلربما استوجب هذا التَّمييزُ الخوضَ في غمارِ هذا الغزلِ، لِتُلمَّسَ عناصره التي قام على أساسها بُنيانه في شعرِ أبي الهدي، الذي ضمَّ غرضَ الغزلِ واحتواه بقصائدٍ مُستقلَّةٍ ونُتفٍ قصيرةٍ، وأياً كانت هذه الأشكال فإنَّ أبا الهدي كان يدورُ في فلكِ جمالِ محبوبته، ويُسيطرُ بكلماته ما جذبَ نظرَهُ وأخذَ بلبِّهِ من هذا الحُسنِ الذي حظيت به.

وأوَّلُ ما يسترعي الاهتمام أنَّ محبوبَةَ الشَّاعرِ لم يكنُ جمالها بالجمالِ المعتادِ بل إنَّها كانت عادةً الحُسنِ البديعِ التي غَدَت أصلاً للجمالِ ومعياراً لكلِّ معاييرهِ وميزاناً يقاسُ به أهلُهُ الذين حظوا به، فلا بدَّع أن تتجلى صورةُ هذا الجمالِ على لسانِ أبي الهدي الشَّعريِّ بصياغةٍ غزليَّةٍ، تُترجمُ انبهاره بمُتغزله الذي سَلَبَ لُبَّهُ بجماله الأخاذ؛ وإذا تأمَّلَ النَّاطِرُ لأبياته التي أتى فيها على جمالِ المحبوبةِ فسيلمَّحُ أنَّ أبا الهدي يستجمعُ كُلَّ صفاتِ المَلاحةِ ليضيفها على محبوبته المُتخيِّلة، حيث يرى النَّاطِرُ صورةَ امرأةٍ كاملةٍ الحُسنِ لم تجتمع فيها كلُّ صفةٍ جماليَّةٍ مُحبَّبةٍ إلى فطرةِ الشَّاعرِ فحسب بل إلى كلِّ ما فُطرت عليه الأذواقُ السَّليمةُ جميعها، فَمَن ذا الذي لا تسحرُهُ سهامُ الأُلحاضِ وسيوفِ

الحوَاجِبِ وَوَضَاءَهُ الْمُحْيَا وَهَيْفُ الْقَوَامِ؛ وَمَا يَشْهَدُ لِمَا ذُكِرَ قَوْلُهُ رَاسِمًا بِأَدَاةِ الشَّرْطِ لَدَى مُحْيِلَةِ الْقَارِي  
لَوْحَةً نَاطِقَةً بِحَسْنِ مَحْبُوبِيَّتِهِ الَّتِي أَقْبَلَتْ تَرْفُلُ بِثَوْبِهَا إِلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ كَسَى كَلِمَاتِهِ بِخُلَلِ الْجِنَاسِ  
(أَقْبَلَتْ/قَابَلَتْ، كَسَرَةٌ/كَسَرَى/يُكَسِّرُ، النُّورُ/الْمُنِيرُ) وَالطَّبَاقِ (الْفَجْرُ/الْغُرُوبُ، السُّودُ/الْمُنِيرُ،  
الْغُرُوبُ/الْفَجْرُ)، وَقَدْ سَحَّرَ كُلَّ ذَلِكَ فِي تَغَزُّلٍ بِجَمَالِ مَحْبُوبِيَّتِهِ الْحِسِّيِّ بِكُنَايَاتٍ تُشِيرُ إِلَى دَقَائِقِ  
جُزْئِيَّاتِهِ:

كَلَّمَا أَقْبَلَتْ وَقَابَلَتْ الشَّمْسُ      سَنَ يَقُولُ الْغُرُوبُ اللَّهُ أَكْبَرُ  
وَإِذَا أَسْدَلَتْ ذَوَائِبَهَا<sup>736</sup> السُّو      دَ حَسِبْتَ الْفَجْرَ الْمُنِيرَ تَسْتَرُ  
وَإِذَا مَا التَّوْتُ بِكَسَرَةٍ عَيْنٍ      قُلْتَ كَسَرَى لَوْ كَانَ فِي الْجَيْشِ يُكَسِّرُ  
وَإِذَا مَا تَبَسَّمَتْ خِلَتْ فَحَجَّ الذُّ      نُورٍ يَبْدُو مِنْ فَوْقِ جُمْلَةٍ جَوْهَرٍ<sup>737</sup>

فَهَا هِيَ الْمَحْبُوبَةُ الْهَيْفَاءُ قَدْ طَلَعَتْ بِطَالِعَتِهَا فَأَخْجَلَتْ طَلَعَةَ الشَّمْسِ حَتَّى صَاحَ الْغُرُوبُ بِهَا أَنْ حِيَهَلَا،  
فَمَا وَجَدَتْ الشَّمْسُ بُدًّا مِنَ اللَّيَازِ بِهِ، إِذْ أُنِيَ لَهَا أَنْ تُجَابِهَ جَمَالًا إِنْسِيًّا قَدْ غَطَّى نَوْرَهَا حَتَّى بُلِيَ  
بِالْحَمُودِ، وَهُوَ بِذَلِكَ يُكَيِّبُ عَنِ وَضَاءَةِ مُحْيَا مَحْبُوبِيَّتِهِ وَوَجْهَهَا الْمُنِيرِ الْمُزْرِي بِنُورِ الشَّمْسِ، ثُمَّ اسْتَطْرَدَ  
فِي وَصْفِ شَعْرِهَا الْفَاحِمِ الَّذِي انْسَدَلَتْ نَاصِيئَتُهُ عَلَى وَجْهِهَا الْمُنِيرِ، فَمَثَلٌ لَذَلِكَ بِالْفَجْرِ الَّذِي تَعَطَّى  
بِخِيُوطِ الظَّلَامِ بَعْدَ أَنْ اسْتَعَارَ لَهُ -اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً- وَصْفَ التَّسْتُرِ، وَالتَّفَتَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى طَرَفِ الْمَحْبُوبَةِ  
الَّذِي يَفْتَنُكَ بِجَمْعِ الصَّنَادِيدِ مِنَ الرِّجَالِ، وَرَاحَ يُبَالِغُ فِي وَصْفِ فَتْكِهِ وَسَحَرِهِ بِالْأَلْبَابِ، فَهُوَ لِحُظِّ لَوْ  
شَامَهُ كَسَرَى لِانْكَسَرَ خَاضِعًا لْجَمَالِهِ الْخَلَابِ، ثُمَّ انْتَهَى مُتَغَزِّلًا بِذَلِكَ التَّغْرِ الْبَسَامِ الْمَفْتَرِّ عَنِ أَسْنَانِ  
كَدَّرِ الْجَوَاهِرِ، فَيُخَالُ إِلَى مَنْ يَرْمَقُهَا أَنَّ شُعَاعَ النُّورِ تَبَدَّى مِنْ فَوْقِ هَذِهِ الدُّرَرِ؛ وَلَمْ يَطُلْ بِالشَّاعِرِ

<sup>736</sup> جمعٌ واحِدُهُ دُؤَابَةٌ وَهِيَ نَاصِيَةُ الشَّعْرِ وَمَنْبَتُهَا مِنَ الرَّأْسِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهَا ضَفِيرَةُ الشَّعْرِ الْمُرْسَلَةُ أَوْ الْمُرْخَاةُ عَلَى الْوَجْهِ، يُنْظَرُ: الرَّيْدِيُّ، "ذَاب"،

.416/2

<sup>737</sup> د.ف.م، 171.

المقام في رحاب الغزل بتلك الصِّفات، فقد ضاقت بمحبوبته صفاتُ هذا العالمِ الدنيويِّ فارتفع بأوصافها إلى عوالم الملكوت ليقول:

أو شريدًا من حورِ رِضوانٍ بالشَّمسِ      تَرَدَّى      وجاءنا      يَبَخَّرُ<sup>738</sup>

فقد ضاقت بمحبوبته كلُّ الأوصافِ الجميلةِ التي عهدتها البَشَرُ في هذا العالمِ الإنسانيِّ، فعلا بها إلى العالمِ الملكوتيِّ فخلعَ عليها خِلعةَ نعيمِ الجنانِ، فلا يحسبُ مَنْ يلقاها إلا أنَّ حوريَّتهً من جنَّةِ الرِّضوانِ نزلت من عالمها الأرفعِ إلى هذه الدُّنيا، فأقبلت على الناظرين بصورةٍ إنسيَّةٍ بهيَّةٍ تَرَدَّت رداءً نورِ الشَّمسِ، وهو يُشعِرُ بهذه الأوصافِ مَدَى الجمالِ الذي حَظِيَتْ به هذه المحبوبة؛ فهو جمالٌ خارقٌ عبَّرَ عن سحرهِ الجَدَّابِ لَمَّا مضى غَزَلًا فيه بموضعٍ آخرِ فرقى في المبالغةِ مَرَقَى جعلَ منه جمالًا يُجِيبِي رميمَ الموتى ودارِسَهُمْ، فقال:

نَقَشَتْ فِي جَبِينِهَا وَالْمُحَيَّا      سَطَرَ حُسْنٌ يُصِيرُ الْمَيِّتَ حَيًّا  
مُدَّ رَأْيَا السُّهَى سَهَاً وَتَوَارَى      حَجَلًا وَانْتَحَى مَكَانًا قَصِيًّا<sup>739</sup>

فهو إلى جانبِ الجناسِ النَّاقصِ (المُحَيَّا/حَيًّا، السُّهَى/سَهَاً) يأتي بحسنِ التَّعليلِ جاعلاً من جمالِ محبوبته سببًا في خفاءِ نجمِ السُّهَى وتواريه عن الأنظارِ حَجَلًا من حُسْنِهَا البَدِيعِ، وهو حسنٌ التَّفَتِ إلى الحديثِ عنه بغزلٍ ماديٍّ حَسِيٍّ، لِيَصِفَ صَبَاحَةَ حَدِّهَا المنيرِ مُشَبِّهًا لَهُ بالهِلالِ، ومُؤَكِّدًا لهذه الوضاعةِ بما يُشَبِّهُ الدَّمَّ فاستدركَ بأنَّ وجهها رَغَمَ صَبَاحَتِهِ وتَنَوَّرَهُ إلا أنَّه يكوي القلوبَ بنارهِ الحمراءِ مُكْنِيًّا بذلك عن حُمرةِ الحَدِّ وتَضَرُّجِهِ الوَرْدِيِّ الجميلِ، حتى حَكَى نارَ المِجوسِ، وشابَهَ عَبَدَتَهَا عاشِقُهُ

738 د.ف.م، 171.

739 د.ف.م، 181؛ والسُّهَى كوكبٌ من كواكبِ السَّمَاءِ يتراءى نجمًا خَفِيًّا بعيدًا لأهلِ الأرضِ فيمتحنون به قوَّةَ أَبصارِهِمْ، يُنظَرُ: الجوهري، "سَهَا"، 2386/6.

لَمَّا عَبَدَ ذَاكَ الْخَدَّ مَسْلُوبَةً إِرَادَتُهُ لَا يَرَى الْحَقَّ وَالْهُدَى إِلَّا فِي عَشِقِهِ لِهَذَا الْمَعشُوقِ الْجَمِيلِ، مِثْلَمَا  
أَوْلَيْكَ لَا يَرُونَ الْهُدَى إِلَّا بِعِبَادَتِهِمْ لِتِلْكَ النَّارِ، فَقَالَ:

خَدُّهَا وَالْهَلَالُ سَيَّانٌ لَكِنْ خَدُّهَا لِلْفؤَادِ أَسْرَعُ كَيْتًا  
عَبَدَتُهُ الْمَجُوسُ طَوْعًا وَكَرْهًا فَرَأَوْا فِي الْهَوَى صِرَاطًا سَوِيًّا<sup>740</sup>

والمعنى الذي أورده أبو الهُدَى من مُبَالَعَةٍ فِي حُبِّ الْمَحْبُوبَةِ وَتَحْوِيلِ هَذَا الْإِغْرَاقِ فِي مَبَالَعَةِ الْحُبِّ إِلَى دِينٍ  
يُذَانُ بِهِ وَيُرَى الضَّلَالُ فِيهِ عَيْنَ الْهُدَى، يُمَكِّنُ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَنِيرِ الطَّرَابِلْسِيِّ  
(ت. 548هـ/1153م):

أَنَا مِنْ أَجْلِ خَدِّهِ دِنْتُ لِلنَّارِ فِي وَفِي حَالِهِ عَبَدْتُ الشَّعْرَى  
فَضْلَالِي بَعْدَ الْهُدَى فِي هَوَاهُ هُوَ عِنْدِي خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا<sup>741</sup>

وقد أحاطَ غَزَلُ أَبِي الْهُدَى بِجَزَائِرِ مَحْبُوبَتِهِ الَّتِي غَزَلَ بِهَا، فَرَاحَ يَتَحَدَّثُ عَنْ عِذَارِ الْمَحْبُوبَةِ مَوْلِيًا إِيَّاهُ  
نَصِيبًا مِنْ غَزَلِهِ، حَيْثُ جَعَلَ مِنْ تَدَلِّيِ خِصْلَاتِهِ السَّوْدَاوَاتِ الْمَلْتَوِيَّةِ فَوْقَ صُدْغِيهَا<sup>742</sup> عَقَارِبًا تَلْدَغُ  
قُلُوبَ الْمُوهَّيْنَ بِهِ - وَذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ الْمُرَشَّحَةِ -، فَقَالَ:

وَلَهَا مِنْ عَقَارِبِ الصُّدْغِ لَدَغٌ كَمِ بِهِ عَاشِقٌ غَدَا مَرْمِيًّا<sup>743</sup>  
وَإِذَا مَا كَانَ الْعِدَارُ عَقْرَبًا، فَإِنَّ غَدَائِرَ الشَّعْرِ الْفَاحِمِ الْمُسْتَرْسِلِ مِنْ بَدْرِ جَبِينِ الْمَحْبُوبَةِ عَلَى كَتِفَيْهَا لَهَا  
شَأْنٌ آخَرَ مَعَ أَبِي الْهُدَى، إِذْ هِيَ حَيَّةٌ تَلْدَغُ بِالْبُعْدِ الْمُحِبِّ وَتُحْيِي بِالْقُرْبِ مَوَاتَ الْقُلُوبِ الْعَاشِقَةِ،

<sup>740</sup> د.ف.م، 181.

<sup>741</sup> أحمد بن منير الطَّرَابِلْسِيِّ، ديوان ابن منير الطَّرَابِلْسِيِّ، إعداد: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الجليل، 1986م)، 83.

<sup>742</sup> مفرضة الصُّدْغِ وهو ما بين اللَّحَاطِ وَأَصْلُ الْأُذُنِ، الرَّيْدِيُّ، "صدغ"، 524/22.

<sup>743</sup> د.ف.م، 182.

فقال، بعد أن ضَمَّن البيت إيجازًا بحذفه لكلمة المُقَرَّب، وحَلَّاهُ بحليَّةِ البديعِ من الجنسِ النَّاقصِ (حَيَّات/الحَيَّات، حياة/الحياة) وحِليَّةِ رَدِّ العجزِ على الصِّدْرِ، مُضفيًا بذلك إيقاعًا يرنُّ في الأسماعِ مُتَناعِمًا مع لطيفِ المعنى الغزليِّ الذي يرنو إليه:

هُنَّ حَيَّاتٌ مُبَعَدٌ وَحِياةٌ ما سَمَعنا الحِياةَ في الحَيَّاتِ<sup>744</sup>

أمَّا العيون فقد كان لها هي الأخرى نصيبٌ من رسمِ الشَّاعِرِ لها وتَعزُّلِه بها، فقد شَبَّهها بأزهارِ النَّرجسِ النَّديَّةِ تشبيهاً مُرسلاً مُجملاً -بحذفه وجه الشَّبه (وهو الجمال الأَحَادِ والرَّونق المتناسق بين البياض والاصفرار في النَّرجس والبياض والسَّواد في العيون)- لما ملكته من جمالٍ مُشعِّ رائقٍ، لِيُشيرَ بذلك إلى اتِّساعِها وجمالِها فقال وقد ضَمَّن بيتيه الجنس (الغض/عَضَّت/بالعَضَا)<sup>745</sup> الذي أضفى على التَّعبيرِ رونقًا خاصًا يزيدُ في حُسْنِه لما زانَ البيت من جرسِ موسيقيٍّ جَدَابٍ مُتناسِقٍ، فغَضُّ الطَّرْفِ العَضِّ الجميلِ أدَّى إلى إحراقِ قلبِ العاشِقِ أَيْما إحراقٍ، حتى لَكَأَنَّ غَضَّ العيونِ تحوَّلت إلى جمرِ العَضَا الذي لا تحمدُ نازُهُ في أحشاءِ هذا المُحِبِّ:

وعيونٍ كالنَّرجسِ العَضِّ عَضَّتْ فَكَوَتْ بِالعَضَا فَوادِي البالي

وانعقادِ التُّونينِ من حاجِبيها وَلَمَى شَهدِ ثغرها السِّلَسالِ<sup>746</sup>

ومن عيني المحبوبةِ ينتقلُ إلى حاجبيها اللذين استعارَ -استعارةً تصريحيَّةً- لتقوِّسِهما حرفَ التُّونِ، وأمَّا ريقُها فما هو إلا الرُّضابُ الخالصُ الصَّافي؛ والمُتأملُ لأوصافِ الجمالِ في هذه المحبوبةِ المُتَعزِّلِ بها

<sup>744</sup> د.ف.م، 182.

<sup>745</sup> الغض: الطَّرْفِ، وغَضَّتْ بمعنى خفَضَتْ بصرَها، يُنظَرُ: الجوهري، "غضض"، 1095/3؛ والعَضَا نوعٌ من شجرِ الباديةِ خشبُهُ صلبٌ وجمره مُتَوَقِّدٌ لا يَنْطَفِئُ، يُنظَرُ: أحمد مختار، "غضي"، 1626/2.

<sup>746</sup> د.ف.م، 164؛ واللَّمَى سوادٌ وسُمرةٌ اصطبَعَتْ بها الشَّفَتانِ واللِّتانِ وهي صفةٌ جماليَّةٌ تزيدُ المرأةَ حُسْنًا، يُنظَرُ: ابن منظور، "لما"، 258/15؛ والسِّلَسال هو الخالِصُ الصَّافي، يُنظَرُ: ابن منظور، "سلل"، 340/11.

قد يجد أن هذه التشبيهات مكرورةً قد انسابت على ألسنة الشعراء قبل أبي الهدي، فعلاقة العيون وجمالها بجمال عيون أزهار النرجس، طالما تحدت عنها الشعراء فهذا ابن الرومي (ت. 283هـ/896م) يقول:

وأحسن ما في الوجوه العيون وأشبه شيء بها النرجس<sup>747</sup>

وأما الخصلات المتدلّية على الأصداع، فكثيراً ما تخيلتها عيون الشعراء عقارباً تتلوى على صفحات الحدود فتلدغ قلوب المذنبين، ومن ذلك قول أبي بكر الصنوبري (ت. 328هـ/939م):

عقرب الصّدغ لماذا سألته وهو وحده  
تلدغ النَّاسَ جميعاً ثم لا تلدغ خده<sup>748</sup>

وإذا شوهدت الأصداع عقارباً فإن ذؤابات المحبوبة وغدائرهما بدت حيات في عيون الشعراء، كقول صفي الدين الحلبي وقد رأى شعر محبوبته انسدل على ظهرها والتوى حول صدغها:

فعلى الظَّهرِ حَيَّةٌ وعلى الصّدغِ عقرب<sup>749</sup>

وكثيراً ما قرأ الشعراء الحُسن المكتوب على صفحات حدود محبوباتهم، فانجلت لهم الحواجب نوناً تحكي تقوساً جميلاً يسحر الألباب، كما قال ابن الوردي:

---

<sup>747</sup> علي بن العباس بن الرومي، ديوان ابن الرومي، إعداد: أحمد بسج، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1423هـ/2003م)، 236.

<sup>748</sup> أبو القاسم الحسين بن محمد الزاغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (بيروت: دار الأرقم، 1424هـ/2003م)، 329/2.

<sup>749</sup> الحلبي، الديوان، 421.

أفدي الذي صُدغهُ لأمّ وحاجبُهُ نونٌ وقامتُهُ مَمْشُوقَةٌ أَلِفٌ<sup>750</sup>

وقد يُكتَفَى بهذه الأمثلة التي سَبَقَتْ دليلاً على دوران التّشبيّهات على ألسنة الشعراء وتكرّرها لتقريبِ جزئياتِ صورةِ الجمالِ التي حَظِينَ به محبوباتُ الشعراءِ المُتَعَزِّلِ بِهِنَّ.

ولربّما التّفَتَ أبو الهُدَى من الجزئياتِ إلى الإحاطةِ بكليّةِ هذه المحبوبةِ فَعَزَلَ بكاملِ قوامِها الممشوق، فإذا به يُصَوِّرُ بألّةِ الكلماتِ مِشِيَتَهَا، ولا غروَ "فالشّعْرُ جنسٌ من التّصوير"<sup>751</sup> كما يراه الجاحظ (ت.255هـ/869م)، وإذا بتصويرِ أبي الهُدَى يجعلُ القارئَ ينظُرُ مُحِيّاً هذه المحبوبةَ مُنْجَلِيّاً أمامَ عينيه، فاستطاعَ أن يجمعَ بين الصُّورةِ الحِسيّةِ للمحبوبةِ والصُّورةِ المعنويّةِ لحالةِ قلبه الجروحِ بِحُبِّها:

مَاسَتْ<sup>752</sup> بِحُلَّةِ دِيبَاجٍ مُسَهَّمَةٍ سِوَدَاءَ قَدْ سَحَبْتَهَا فِي سِوِيْدَائِي

كَأَنَّهَا وَهِيَ تَمْشِي فِي مُنْقَبِهَا زُمُخٌ مِنَ الْبَرَقِ يَلْوِي دَاخِلَ الْمَاءِ<sup>753</sup>

وهنا قد أضفى التّشبيهُ التّمثيليُّ رونقاً جعلَ من هذه التّنفةِ القصيرةِ صورةً حيّةً تحكي هَيْفَ المحبوبةِ بِمِشِيَتِهَا المُتَشَبِّهَةِ، فها هي قد أَقْبَلَتْ رَافِلَةً بِرُودِ الحَرِيرِ الأَسْوَدِ، وهي تَتَبَخَّرُ وتَجُرُّ أذْيَالَهُ المُسَهَّمَةَ بالألوانِ، وليت أذْيَالُ بُرْدِ النّعِيمِ هذا كانت تُسحبُ على الأرضِ العاديّةِ، بل إنّها سَحَبَتْ سِهَاماً مُنْعَرَةً فِي سِوِيْدَاءِ قَلْبِ العَاشِقِ المَكْلُومِ، وهذه الصُّورةُ التي هي مِشِيَتُهَا الهيفاءِ وهي رَافِلَةٌ بِحُلَّتِهَا تُمَثِّلُهَا صورةُ المَاءِ الرِّقَاقِ وقد لَمَعَ فِيهِ بَرَقُ السَّمَاءِ المُتَنَنِّيِّ على صَفْحَاتِهِ المتألّفةِ.

<sup>750</sup> ابن الوردى، ديوان ابن الوردى، 259.

<sup>751</sup> عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1424هـ/2003م)، 67/3.

<sup>752</sup> من الميس وهو التّبخّر، يُنظَرُ: الجوهري، "ميس"، 980/3.

<sup>753</sup> د.ت.ب، 10؛ ويروى "مَرَّتْ" بدل "مَاسَتْ"، يُنظَرُ: د.ف.م، 173.

وتجدُر الإشارةُ إلى أنَّ انشغالَ أبي الهُدَى بِجمالِ محبوبَتِهِ المادِيِّ لم يكن ليصرفَهُ عن العَزَلِ بِجمالِها المعنويِّ، حيثُ كان يُشيرُ إلى أنَّ محبوبَتَهُ لطيفَةُ الطَّبَعِ رقيقَتُهُ، فطبايعُها صَفَتْ حتى شَبَّهَها - تشبيهاً مُرسلاً مُجملاً أهملَ فيه وجهَ الشَّبهِ (العدوْبَةُ والصَّفَاءُ) - بالماءِ الرَّقراقِ، لكنَّها جمعتَ بين الصِّدِّينِ، حيثُ رَقَّ طبعُها لكنَّ قلبَها قد فسا على مُحِبِّها العاشِقِ لجمالِها، فَجَفَّتْهُ ولم تُعِرْهُ اهتماماً:

قد رَقَّ كالماءِ الفَرَّاحِ<sup>754</sup> طبعُ من أَحَبَّتُهُ لُطفاً وقلْبُهُ قَساً<sup>755</sup>

وبتثني في موضعٍ آخرٍ لِيُعَبِّرَ عن هُيامِهِ بهذه الطَّبِيعَةِ الرَّقِيقَةِ اللَّطِيفَةِ لمحبوبَتِهِ، التي أوصلَتْهُ إلى حالةٍ من السُّكْرِ جعلَتْهُ يَنْتَشِي بِخمرِ هذه الرِّقَّةِ والدِّماتَةِ:

وبلطفٍ قد أسكرتني وما ظنَّ نَيْتُ أنَّ المُحِبَّ بِاللُّطْفِ يسكُرُ<sup>756</sup>

ويَلْتَفِتُ إلى حلوِ منطِقِها وعذبِ معانيها التي سَلَبَتْ لُبَّهُ وسَحَرَتْهُ حتى احترقَ من وجدٍ ومن هَفِّ بِها وعليها، مُشَبَّهاً - تشبيهاً مُرسلاً مُجملاً - قلبَهُ المحروقِ بسوادِ خالِها الذي زادَ حُسْنُها حُسناً:

ومعانٍ من حلوِ منطِقِها العَدُّ بِ دَعَتْ مُهَجَّتِي كلونِ الخالِ<sup>757</sup>

ويقولُ مُضِيفاً إلى لُطفِ الطَّبَعِ، صورةً مُبتَكِرةً جعلت من عَيْنِ المحبِوبِ النَّاعِسَةِ نشوانَةً ثَمَّلاً بِخمرِ الجمالِ الذي أترَعَتْ بهِ، فَبَثَمَلِها هذا جَرَحَتْ طَرْفَ عاشِقِها الذي راحَ يرمقُها في انجلائِها البديعِ:

<sup>754</sup> الماء الصَّافِي الخالِص الذي لم يُخالِطُهُ شيءٌ يُطَيَّبُ بهِ، يُنظَرُ: الزَّبيدي، "فرح"، 48/7.

<sup>755</sup> د.ر.ح، 53.

<sup>756</sup> د.ف.م، 171.

<sup>757</sup> د.ف.م، 164؛ والخالُ شامَةٌ سوداءُ في البَدَنِ، الزَّبيدي، "خيل"، 451/28.

لطيفة الطبع تجلى وهي ناعسةٌ ثملاءُ تطرفُ عينَ العاشقِ الرائي<sup>758</sup>

ويكرّرُ شَعْفَهُ برقةً طبعها، ويقرنُ صورةَ الحاظِها الفاتنة بلوازمِ صورةِ الحروب التي تقيمها المحبوبة في ساحاتِ قلوبِ العاشقين، فهو يُزَوجُ إذن بين رِقَّةِ حسنائِه التي وُلِعَ بها وبين ما مَلَكَتُه من قوَّةِ جعلتها تطعنُ بسهامِ العيونِ وتقتل بنظراتِ المُقل التي استعار لها سيفَ الإمامِ عليّ رضي الله عنه - من طريق الاستعارةِ التَّصريحِيَّةِ -، ليقولَ مُخْلِياً غَزْلَهُ بمبالغةٍ تحكي جمالَ صفاتِ المحبوبةِ:

رقيقةً الطبعِ أختُ الطَّبِيِّ قاتِلَةُ الـ عُشَّاقِ طَعَّانَةٌ في أسْهُمِ المُقْلِ

محبوبةٌ برداءِ الحُسنِ طَلَعَتْها شمسٌ وفي طرفِها سيفُ الإمامِ عليّ<sup>759</sup>

وهكذا يتضح اهتمام أبي الهُدَى - ولو لِمَامًا - بالجمال المعنويِّ لمحَبوبَتِه إلى جانبِ بلوغِه بها الدَّورَةَ من الجمالِ الحِسِّيِّ المادِّيِّ الذي بثَّ ولوعَهُ به في غَزَلِيَّاتِه.

واللَّافِتُ للانتباهِ هو أنَّ أبا الهُدَى رَغِمَ إقامَتِه الطَّويلَةَ في مِرابِعِ الرُّومِ والتُّركِ، إلا أنَّه لا يُلَمِّحُ في غَزَلِه غيرَ العنصرِ العربيِّ، فلم يَرِ مُتَعَزِّلاً بعناصرِ تُركِيَّةٍ أو روميَّةٍ، بل على العكسِ من هذا فقد كَرَّرَ الموروثِ التَّقليديِّ لصفاتِ المحبوبةِ العربيَّةِ التي دَرَجَ عليها أربابُ الغَزْلِ - كما يدلُّ عليه ما سَبَقَ من صفاتِ المحبوبةِ -، ولطالما تَكَرَّرَتِ معالمُ الجِزيرةِ العربيَّةِ وبلادِ الرِّافدين التي ماسَ فوقِ ثراها ريمُهُ الذي يَتَغَزَّلُ به، فتبرُّزُ بين ثنايا غَزَلِيَّاتِه أسماءُ تلكِ المعالمِ، مثل: "الصِّفا" و"الكتم"<sup>760</sup> و"الأجرع"<sup>761</sup>

758 د.ت.ب، 10.

759 د.ف.م، 188.

760 يُظَر: د.ف.م، 187.

761 يُظَر: د.ف.م، 203.

و"الجرعاء" و"النَّقا" و"اللوى" و"البان" و"ذي سلم" <sup>762</sup> و"بغداد" <sup>763</sup> و"العُوَيْر"؛ <sup>764</sup> بل تارةً يَتَعَزَّلُ  
بعربيَّةٍ طِبَاعٍ مَحْبُوبِهِ، فَيُصْرِّخُ قَائِلًا عَنْهُ إِنَّهُ:

عَرَبِيُّ الطَّبَاعِ عَالِي المَزَايَا مُحْجَلٌ بِالبَّهَا سَنَا الأَقْمَارِ <sup>765</sup>

وإذا كان بعضُ الشعراءُ الذين انتقلوا للإقامةِ خارجَ بلادِ العَرَبِ قد أخذتْ بألبابِهِم حسناتُ الإفرنجِ،  
حتى قالَ قائلُهُم وقد مَلَأَ عينَهُ حُسْنُ الإفرنجيَّةِ "مارياً" فأنساهُ ذكرَ "سُعدى ورياً" من العَرَبِيَّاتِ، فراحَ  
مُتَعَنِّيًا:

إذا ما زُرْتُ مَارِيًّا فما سُعدى وما رِيًّا <sup>766</sup>

فإنَّ أبا الهُدَى لم يَتَسَرَّبْ إليه شيءٌ من ذلك، فقد صاحبَ غَزَلَهُ بالصِّفَاتِ العَرَبِيَّةِ تَرَدُّدُ أسماءِ العَرَبِيَّاتِ  
في غَزَلِهِ مثل: "ليلي" <sup>767</sup> و"سلمى" <sup>768</sup> و"زينب" <sup>769</sup> و"مي"، <sup>770</sup> وهذا التَّرَدُّدُ لأكثرَ من اسمٍ للمُتَعَزِّلِ  
بهنَّ من المحبوباتِ يُتَبَحُّ إِمكانيَّةُ القول: إنَّ هذا المُتَعَزِّلَ به لا وجودَ له إلا في مُخَيَّلَةِ الشَّاعِرِ، وقد لا  
يكونُ له وجودٌ على أرضِ الواقعِ، مما يجعلُ النَّاظِرَ فيه يستطيعُ أن يُطَلِّقَ على عمومِ غَزَلِ أبي الهُدَى

<sup>762</sup> يُنْظَرُ: د.ف.م، 187؛ د.ر.ب، 31.

<sup>763</sup> يُنْظَرُ: د.ف.م، 194.

<sup>764</sup> يُنْظَرُ: د.ر.ب، 59.

<sup>765</sup> د.ف.م، 164.

<sup>766</sup> محمد بن نصر القيسراني، شعر ابن القيسراني، تحقيق: عادل جابر صالح، (الأردن: الوكالة العربيَّة للتوزيع، 1991م)، 149.

<sup>767</sup> يُنْظَرُ: د.ت.ب، 79؛ د.ف.م، 171.

<sup>768</sup> يُنْظَرُ: د.ت.ب، 123.

<sup>769</sup> يُنْظَرُ: د.ف.م، 191.

<sup>770</sup> يُنْظَرُ: د.ر.ب، 30.

بأنَّه غَزَلَ تقليديًّا يسيرُ به سيرًا تقليديًّا على ما سارَ عليه غيرهُ من الشعراءِ، وإن كان لم يُعِدِمَ ناظرًا فيه شيئًا من الصُّورِ المُبتَكِرةِ.

ولعلَّ مَنْ يَطَّلِعُ على بُنيانِ غَزَلِيَّاتِ أبي الهُدَى سيلمَحُ شيئًا من السُّهولةِ والتَّناغمِ بين الكلماتِ وجماليَّاتِ معانيها والأوزانِ الخفيفةِ التي كان يسعى إليها في بعضِ الأحيان<sup>771</sup> ليُكوِّنَ نَعْمًا موسيقيًّا لطيفًا غنائيًّا يُضافُ إلى خصائصِ الغَزَلِ عنده؛ ومن ذلك قوله - وقد استخدمَ وزنَ البحرِ المُجْتَثِّ -<sup>772</sup> مُتَغَزِّلًا بالخالِ الذي زَيَّنَ وجنةَ محبوبِهِ، فافتَبَسَ له من القرآنِ وصفًا استمدَّه من الآية: "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً"،<sup>773</sup> وقد أوجَزَ بالحذفِ مُشيرًا إلى غايةِ بديعِ الحُسنِ الذي أودَعتهُ يدُ الخَلِّاقِ في هذا الخالِ الذي زَيَّنَ حَدَّ المحبوبةِ:

رَأَيْتُ نُقْطَةَ خَالٍ فِي وَجَنَةِ صَانِهَا اللَّهُ

تَقُولُ ذُوبُوا لِلْطَفِيِّ فَإِنِّي (صِبْغَةُ اللَّهِ)<sup>774</sup>

وتبرزُ مرَّةً أُخرى رِقَّةُ الغَزَلِ المُقْتَرَنَةِ بما سعى إليه الشَّاعرُ من الجرسِ الموسيقيِّ الغنائيِّ - وهو وزنُ البحرِ المتداركِ -<sup>775</sup> الذي يُلائِمُ طبيعةَ الجوّ الغزليِّ؛ حيثُ مضى يرسمُ بريشةَ الكلماتِ لوحَةَ الرِّياضِ الذي استعارَ - استعارةً تصرُّحيَّةً - لأزهارِهِ المتناثرةَ لألاءِ الجواهرِ، ثم كَتَبَ عن محبوبتِهِ بالضَّبِّيِّ الذي برزَ مستويًّا على عرشِ تلكِ الورودِ، واستعارَ - استعارةً تصرُّحيَّةً - لفتكِ عيونِهِ الفاتنةِ السَّيفَ البتَّارِ،

<sup>771</sup> يُنظر: د.ر.ت، 275، 165، 157، 175، 216، 217، 219.

<sup>772</sup> يُنظر: الهاشمي، الميزان، 104.

<sup>773</sup> البقرة، 138/2.

<sup>774</sup> د.ف.م، 175.

<sup>775</sup> يُنظر: الهاشمي، الميزان، 111.

وجلبب بالتشبيه التمثيلي صورة الليلة التي لاح قمرها الأبدر ليقرنها بشبيبتها وهي صورة المحبوبة لما  
تدلت أستار غرة شعرها الفاجم على وجهها المقيم، فقال:

روضٌ قد لألاً عسجدُهُ وأمالَ الزَّهرَ زَبْرَجْدُهُ  
والرَّيمُ تَبَوَّأَ ساحتَهُ فنصوفُ الوردِ تَوَسَّدُهُ  
ريمٌ ما أفتك ناظرُهُ كم قدَّ القلبَ مُهَنَّدُهُ  
فِطْرَتِهِ<sup>776</sup> وبُعْرَتِهِ ليلٌ قد لألاً فَرَقْدُهُ<sup>777</sup>

ومن هذه الأبيات الغزلية يمكن أن يُخلصَ إلى اقتراحِ غزله بالطبيعة وامتزاجه بها مُسقطاً لها على محاسن  
محبوبته، وارتباطِ نفسيته بها وجعله منها مُتَنَقِّساً وجدانياً يُشارِكُهُ في الارتباطِ بمحبوبته ويُدَكِّرُهُ بها  
ويتفاعل معه تفاعلاً إيجابياً، ويزيد هذا الامتزاج من منسوبِ الدقة في شعره المُتَدَقِّقِ في الغزل، من  
خلال وصف محاسن المحبوبة وصفاً حسياً جميلاً دقيقاً، على نحو قوله في أبياتٍ ضمَّنها الكثير من  
الصُّورِ الفنيَّةِ التي تقدِّفُ بالنَّاطِرِ إليها في جوِّ خياليٍّ يجمعُ بين جميع حواسِّه فيعطي كلاً منها نصيباً  
من التَّخيلِ لجمال المحبوبة، فالخالُ الذي زينها هو مسكٌ أسودٍ عطريٌّ يعبقُ بالطيب، ووجنائها ورودٌ  
سقيت من ماءٍ نضارةِ العيون، وثرعها الباسم أفحوانٌ ينجلي للنَّاطرين بين شقائق النعمان الحمراء،  
وجيدها الأبيض الطويل أعارَ الصُّبحِ إشراقه وتنوره، وصدورها جنةٌ ناضرةٌ تلالأَت على صَفْحَاتِهَا  
الأزهارُ وماست فوقَ رَشيقِ عُصنِ الحَصْرِ الرِّفيعِ الدَّقِيقِ، وكأنَّ الشَّاعِرَ بهذا الإسقاطِ للطبيعة على  
محاسنِ محبوبته يُرسلُ للمتلقِّي رسالةً تُفيدُ حُبَّهُ للطبيعة أيضاً وكأنَّها معشوقٌ آخرٌ يُقارَنُ بمحبوبته  
الجميلة:

<sup>776</sup> الطَّرة هي فُصَّة الشَّعر وما تنزَّون به المرأة، يُنظر: أحمد مختار، "طرر"، 1394/2.

<sup>777</sup> د.ر.ت، 81.

تبارك الله يروي الخال ذو العبق عن ورد حدِّ بأمواءِ العيون سُقي  
عن الشقيق يحفُّ الأحقوانُ به والجيدُ يجلو عمودَ الصُّبحِ للأفقِ  
عن جنةِ الصِّدرِ بالأزهارِ قد حَفَلتْ عن عُصنِ حَصْرِ رشيقي شقيقِ الوردِ<sup>778</sup>

وقد يجعل من جمالِ محبوبتهِ أصلاً انعكسَ حُسْنُهُ على كلِّ جمالٍ يراه من حوله، وهو في هذا يسلك مسلك المبالغة والإغراق في تشبيهه محاسن محبوبته، ومن هذا القبيل قوله:

قد نَرُقُبُ الزَّهرَ لأجلِ حُسْنِكُمْ والفَجَرَ في طُلوعِهِ والقَمَرَ  
ونعشِقُ الأغصانَ إذ تميلُ في غياضِها ترسُمُ عنكم منظرًا<sup>779</sup>

ولطالما اتَّخَذَ من الطَّبيعةِ مرآةً انعكست على صَفحاتها أطوارُ العشقِ والمحبَّةِ التي اكتنفت علاقتهُ بمحبوبته، موشياً تلك الانعكاسات بخللِ البديع التي تُعطيها رونقاً خاصاً من الجمال، كقوله وقد ضَمَّنَ أبياته الاستعارات المكنية لِمَا استعارَ للسماءِ وصفَ البُكاءِ وللأرضِ وصفَ الضَّحكِ، ثم أتى بالتشبيه التمثيليِّ عبرَ مُقايَسةِ صورةِ بُكاءِ السماءِ وضحكِ الأرضِ بصورةِ بُكائه من العشقِ وضحكِ معشوقه على لوعته، ولم يُعَدِم تلك المعاني من حلية البديع اللَّفظيةِ -الطِّباقِ-، فقال:

بَكَتِ السَّمَاءُ فأضحَكَتْ وجَهَ الفَلاَ وأتتْ بشأنٍ من شؤونِ غرامي  
أبكي فيضحكُ مَنْ أُحِبُّ لِلوعتي وأنا بُكايي لِثغري البَسامِ<sup>780</sup>

<sup>778</sup> د.ر.ب، 45.

<sup>779</sup> د.ر.ب، 31؛ والغياضُ جمعُ غَيْضةٍ وهي الأجمة مغيضُ ماءٍ يجتمع فينبت الشجر، الجوهري، "غيض"، 1096/3.

<sup>780</sup> د.ف.م، 189.

ويَتَّضِحُ مما سَبَقَ تسخيره لمظاهرِ الطَّبِيعَةِ التي بَدَت حوله وإشراكها في علاقته الوجدانيَّة الغرامِيَّة مع محبوبته؛ وهذه العلاقة الوجدانيَّة لا يُمكن أن يُلمَّ -بشكلٍ كاملٍ- بجزئياتها ويُحاطَ بملامحها إلا عندما يخوضُ الشَّاعرُ في الحديثِ عنها من خلالِ النَّسِيبِ، وهو ما يَلْتَمِسُهُ المطلبُ التَّالي.

### 3 النَّسِيبُ

يُعَدُّ النَّسِيبُ ميدانًا فسيحًا يَبْتُ فيه الشَّاعرُ مواجيدَهُ مع محبوبته التي وَلَهُ بِها حتى مَلَكَت عليه فؤادَهُ، فينطَلِقُ مُسَرِّحًا كَلِماتِهِ في ميدانِ الأشعارِ ليسَ لِقَصْرِ الكلامِ على أوصافِ محبوبته الجميلة وإمَّا لوصفِ علاقته بِها وما عَمَلَتْ بِهِ أخلاقُها في مُعاملتها لَهُ وما أَوْرَثَتْهُ من صِبايَةٍ وَجَوَى لَعِبًا بَلْبِهِ وكيانه، فما النَّسِيبُ -حسبما يرى قُدَّامة بن جعفر- إلا "ذَكَرُ حَلْقِ النِّسَاءِ وَأَخْلَاقِهِنَّ، وَتَصَرُّفِ أحوالِ الهوى مَعَهُنَّ".<sup>781</sup>

وفي بدايةِ طريقِ النَّسِيبِ عند أبي الهُدَى تجدُرُ الإشارةُ إلى ما لَهَجَ به من تحديدِ نوعِ المحبَّةِ بينه وبين محبوبته، فما هي بالمحبَّةِ العَرَضِيَّةِ التي تزولُ أو تحولُ، وما هو بمن يتنقَّلُ بفؤاده من واحدةٍ إلى أخرى، مُبَدِّرًا مشاعرَ الحُبِّ بين هذه أو تلك، كَمَن قال:

سَلَامٌ عَلَيْهَا ما أَحَبَّتْ سَلَامَنَا      فَإِنْ كَرِهَتْهُ فَالسَّلَامُ عَلَى أُخْرَى<sup>782</sup>

وإمَّا كان أبو الهُدَى يَحْرِصُ أن تَرْتَسِمَ في ذهنِ المُطَّلِعِ على نسيبه صورةَ الشَّاعرِ ذي الحُبِّ العُدْرِيِّ الذي لا يرى صاحِبَهُ حَوْلًا أو محيدًا عن حُبِّ محبوبته التي امتلأَ غرامًا بها، كقولهِ -وقد ضَمَّن بيتَ ديك الجنِّ الحمصيِّ (ت. 235هـ/849م)- مُتَحَدِّثًا عن حُبِّهِ الصَّمِيمِ لمحبوبته:

<sup>781</sup> قُدَّامة، نقد الشَّيخ، 42.

<sup>782</sup> يُنسَبُ إلى عمر بن أبي ربيعة، يُنظَر: عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، إعداد: فايز محمَّد، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ/1996م)، 192.

وَلَعْتُ بِهَا قَبْلَ الرِّضَاعِ وَإِنِّي عَلَى عَهْدِهَا بَاقٍ وَإِنْ مَسَّنِي الضَّنَا  
(أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا)<sup>783</sup>

فَعَشِقَهُ وَغَرَامَهُ بِمَحْبُوبَتِهِ خَالِصٌ خَالِدٌ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، وَهُوَ يَرَى قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنَّ حُبَّ مَحْبُوبَتِهِ قِسْمَةٌ  
أَزَلِيَّةٌ كَتَبَتْهَا عَلَيْهِ الْأَقْدَارُ الْإِلَهِيَّةُ، فَيَقُولُ:

كَتَبَ اللَّهُ أَنْ أُوَلِّعَ فِيهَا إِذَا الْعَشْقُ لَوْ عَلِمْتَ مُقَدَّرٌ<sup>784</sup>

وهذا الحبُّ الذي رآه الشَّاعِرُ أَزَلِيًّا قَدِيمًا كَانَ قَدْ تَمَلَّكَ عَلَيْهِ كُلَّ أَحْسَابِهِ، وَأَدَّى بِنَسِيهِ إِلَى الْإِصْطِبَاحِ  
بِصِبْغَةِ التَّهَالُكِ وَفَرَطِ الْوَجْدِ وَاللَّوَعَةِ فِي الصَّبَابَةِ وَالْغَرَامِ بِالْمَحْبُوبَةِ، فَمَضَى فِي نَسِيهِ يَشْرُحُ حَالَهُ مَعَهَا؛  
فَهِىَ تِلْكَ الَّتِي أَهْلَكَتَهُ بِدَلَالِهَا وَتَمَنُّعِهَا وَإِفْرَاطِهَا فِي بَعَادِ عَاشِقِيهَا الْمُغْرَمِينَ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا يَحْكِيهِ  
عَنْ حَالِهِ مَعَ مَحْبُوبَتِهِ وَقَدْ أَدْرَكَتُهُ الْحَيْرَةُ مِنْ أَهْوَالِ ضُدُودِهَا فَلَمْ يُلْفِ فِي لُغَةِ الْكَلَامِ مَا يَصْلِحُ أَنْ  
يُخَاطَبَ بِهَا بِهِ وَلَعَلَّهُ بِتَحْيِيرِهِ فِيمَا يُخَاطَبُ بِهِ مَحْبُوبَتَهُ قَدْ حَقَّقَ عُنُصْرًا مِنْ عُنَاصِرِ النَّسِيبِ الْمَهْمَةِ إِذْ يَقُولُ  
أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ: "وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي النَّسِيبِ دَلِيلُ التَّدْلِيهِ وَالتَّحْيِيرِ"،<sup>785</sup> حَيْثُ يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ  
افْتَتَحَهُ بِالتَّصْرِيحِ وَالْجِنَاسِ الْمَفْرُوقِ (أَمَلِكُ/أَمَّ لَكَ)، وَآتَى فِيهِ بِأَسْلُوبِ التَّجَاهُلِ<sup>786</sup> فَتَسَاءَلُ مُتَحَيِّرًا هَلْ  
مَحْبُوبُهُ مِنَ الْبَشَرِ فَهُوَ مَلِكُ الْجَمَالِ وَالْبِهَاءِ أَمْ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُطَهَّرِينَ:

<sup>783</sup> د.ف.م، 185؛ والبيت الثاني يُنظر: عبد السلام بن رغبان ديك الجن الحمصي، ديوان ديك الجن، تحقيق: أحمد مطلوب-عبد الله الجبوري،  
(بيروت: دار الثقافة، د.ت)، 194.

<sup>784</sup> د.ف.م، 171.

<sup>785</sup> العسكري، الصناعتين، 131؛ والتدليل هو شدة الهوى إلى حد يكاد فيه يذهب عقل المحب، يُنظر: الجوهرى، "دله"، 2231/6.

<sup>786</sup> يُنظر: أبو المظفر أسامة بن مُنقذ، البديع في نقد التبعير، تحقيق: أحمد بدوي-حامد عبد الحميد، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، د.ت)، 93.

يا مَلِكَ الحُسْنِ امرؤُ أَمَلَكُ بالله لا تقطع فتى أم لك  
في حَضْرَةِ الحُسْنِ ودَسَتْ البَها هل مَلِكُ أنت وإلا مَلِكُ<sup>787</sup>

وقد يُخاطَبُ محبوبَتُهُ التي كَتَبَ عنها -تعظيمًا- بريم حاجر، بعد أن رَجَا منها أن تطوي نَشْرَ البِعاد،  
وتعذرَه في دهشتِه وانبهارِه بِحُسْنِها الفَتان، وصرَحَ لها بِتَحْيِيرِها قائلاً:

جَهِلْتَ بِلَائِي فيكَ يا ريمَ حاجرٍ فهل أنتَ لي من حيرتي بكِ عاذِرٌ<sup>788</sup>

ويُكْرِرُ تَحْيِيرَهُ على هذه الشَّاكِلَةِ مُتَسائِلًا (ماذا أقولُ)، لِيُبْرِزَ في مقطعِ نَسِيبِ حكايةِ أَلْمِ الهوى التي  
أدرَكَتْ علاقته بِمحبوبته:

ماذا أقولُ لِمَنْ أقامَ بِعادَهُ حَرَبًا عليَّ وفي الفؤادِ وِدادُهُ  
يا أبيضًا جَرَحَ الفؤادَ بِأسمرٍ لي ناظِرٌ وعُلاكَ أنتَ سوادُهُ  
سَدَدَتْ بِالسَّهمِ المُراشِ بِمُهَجَّتِي رَمِيًا فلم يُخِطِ المرامَ سَدادُهُ  
رَفَقًا بذِي وَلِهَ إِلَيْكَ جَرى الهوى بِجميعِهِ مَلَأَ المَلا إِرعادُهُ<sup>789</sup>

فهو يتلو بنسبِهِ على المَسامِعِ خَبَرَ محبوبَتِهِ التي قد حازتَ من الخِلَقَةِ الجَميلَةِ ما دفعَهُ إلى أن يستعيرَ  
لعيْنِها الهدباءَ الفاتِنَةَ صِوْرَةَ الرُّمَحِ المُراشِ -من طريقِ الاستعارةِ التَّصريحِيَّةِ المُرشَّحَةِ-، حيثُ إنَّها  
بِالحاظِها قد سَدَدَتْ سَهامًا عَرَزَتْ الحُبَّ في صميمِ فؤادِهِ، فراحَ يعجَبُ -مُستَخدِمًا الطِّباقَ  
(أبيض/أسمر)- من حَسَناءِ بِيضاءِ أدمتِ بِرُمَحِ أسمرٍ من لَحْظِ مُقلَّتِها لُبَّهُ الذي عَدَا مَفْتونًا بِبَواها  
السَّاري في كُلِّ كُلبِهِ، وتغلَّعَ في رِبوْعِ كِيانِهِ فلِكانَتُهُ هزيمُ الرَّعدِ، مُكَنِّيًا بِذلكَ عن أَنَّهُ لا يَمْلِكُ لِكَنَمانِهِ

<sup>787</sup> د.ر.ح، 61.

<sup>788</sup> د.ر.ب، 28.

<sup>789</sup> د.ر.ب، 20.

سبيلاً، فغدا يستعطفُ محبوبتهُ ويتذللُ بين يديها راجياً أن تمحوَ بآيةِ السِّلْمِ والوصالِ حَرْبَ البعادِ، مُستندراً شَفَقَتَها بعد أن أقسمَ بعالي رُتَبِها أنّها عندهُ بمنزلةِ سوادِ العينِ، وهو بهذا القَسَمِ بمحبوبتهِ وهذه الكناية عن علوِّ منزلتها يُشعرُ الناظرَ مَدَى تمكُّنِ الحُبِّ في مُهجَتِه، الذي دَفَعَ به إلى التَّذلُّلِ بين يديها راجياً وصالها والقرب منها، ولا غروَ فالنسيبُ لا يتمُّ حُسْنُهُ إلا إذا تَضَمَّنَ الدُّلَّ عند الحبيبِ وشرَحَ مُعترَكَ الصَّبَابَةِ والغرامِ المُتَقَدِّ بين جوانحِ المحبِّ، ولهذا يرى بعضُ النُقَّادِ أَنَّ "النَّسِيبَ الذي يتمُّ به الغرض هو ما كَثُرَتْ فيه الأدلَّةُ على التَّهالكِ في الصَّبَابَةِ، وتظاهرت فيه الشُّواهدُ على إفراطِ الوجدِ واللَّوعةِ والخشوعِ والدَّلَّةِ"،<sup>790</sup> فلا غروَ من تَضَمَّنِ نسيبِ الشَّاعِرِ لذلك، كقولهِ مُفَتِّحاً قصيدةَ نسيبٍ مُتذلِّلاً بين يدي محبوبه مُستعظِفاً له بأن يُبرِدَ غليلَ أشواقِهِ التي أفنته من الحسرةِ والتَّوَقُّقِ لِلِقَاءِ المحبُوبِ الصَّدُودِ:

يا غزالِ الشَّعْبِ الجُفُولِ<sup>791</sup> كَفَّانِي صرْتُ من حَسْرَتِي عليك كَفَّانِي<sup>792</sup>

وهذا المطالعُ المُتَضَمِّنُ للتصريحِ والجناسِ التَّامِ (كفاني/كفاني)، يعودُ بالناظرِ مرَّةً أخرى ليظهرَ الآثارَ التي عَلِقَتْ بأعماقِ الشَّاعِرِ من الأفكارِ الصَّوْفِيَّةِ وما يحملُه أربابُها من فناءٍ بمحبوبِهِم وغيبَةٍ به وبجماله عما سواه، وذلك باستخدامِ أبي الهُدَى لوصفِ الفاني المُسْتَمَدِّ من مُصطَلَحِ "الفناءِ" عند الصَّوْفِيَّةِ،<sup>793</sup> ثم يشرعُ بعد ذلك مستطرِّداً في نسيبٍ يتحدَّثُ فيه عن لوعَتِهِ وغرامِهِ بمحبوبِهِ، وقد ظهرَ

<sup>790</sup> يُنظر: قدامة، نقد النِّعَمِ، 43؛ الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1/125.

<sup>791</sup> هو الذي يُسرِّعُ في اليَقَارِ والهربِ، يُنظر: الجوهري، "جفل"، 4/1657.

<sup>792</sup> د.ف.م، 165.

<sup>793</sup> يُنظر: المناوي، التَّعاريف، 98، 264.

في أبياتِه الجناسِ الاشتقائِيّ (تسحُّ/سَحَّ/سَحَابٍ، جيد/وُجُود) الذي بدأ به الاتِّفاقُ والاطِّراد،<sup>794</sup> إلى جانب مراعاة النَّظير في جمعِه بين الغرام والولوع وكذلك بين العزوة والرِّفاق:

ذبتُ من لهفَةِ الغرامِ وُلوعًا      وكَوْنِي      لواعِجُ      الهجرانِ  
ودموعي تسحُّ سَحَّ سَحَابٍ      وفؤادي      يفورُ      بالنيرانِ  
وأنا بين عَزَوِي<sup>795</sup> ورفاقي      كغريبٍ      ناءٍ      عن الأوطانِ  
خذُ لجيدٍ أتلفتَ فيه وُجودي      من دموعي      قلائدِ الجُمانِ<sup>796</sup>

فَتَمَنَعُ الحبوبِ وهجره لمحبِّه قد أضرَمَ نيرانَ التَّشَوُّقِ والتَّلَهُفِ في مُهَجَّةِ العاشِقِ الوهانِ فَاكْتَوَتْ بلهيبها، وأهرقت دموعه مُنَهَلَّةً كغيثِ الدَّيْمَةِ المِدرارِ، حتى صارَ لفرطِ غرامه وتوهُّه بمحبوبه مُنْفَرِدًا ذاهلاً عما حوله من البشرِ ناءٍ بفكره عما سوى محبوبه مُشَبَّهًا حاله -تشيبيها مُرسلاً مُجملاً حُذِفَ منه وجه الشَّبه (الانفراد والوحدة) - بالغريب الذي حالت الأيام بينه وبين وطنه، ثم عادَ بعد عرض حالته هذه ليستدرِّ عطفَ محبوبه مُتَدَلِّلاً بين يديه بأن يُزيِّنَ عُنُقَهُ بقلائدِ الجُمانِ التي سَكَبَتْها مشاعرُ الحُبِّ دموعًا سيَّالَةً من عيني الشَّاعرِ المُحبِّ، وليتوسَّلَ إليه طالبًا نشرَ بُردِ القربِ وطِيِّ ثوبِ البِعادِ، ويناديه مُتَعَجِّبًا من شِدَّةِ قربه إلى قلبه رِغمَ بِعادِهِ له، فيقول وقد ضَمَّنَ البيتَ إيجازَ الحذفِ -قُرِبَتْ من القلبِ وبُعِدَتْ عن العينِ والجِسمِ-:

يا ظريفَ الطِّباعِ قُرِبَتْ بَعْدُ      تَ لعمري الضِّدَّانِ لا يجتمعانِ<sup>797</sup>

<sup>794</sup> يُنظر: أبو المظفر، نقد الشعر، 87.

<sup>795</sup> القوم الذين ينتسب إليهم الرِّجل ويشدون من أزره، يُنظر: أحمد مختار، "عزو"، 1496/2.

<sup>796</sup> د.ف.م، 166.

<sup>797</sup> د.ف.م، 166.

ومضى في موضعٍ آخَرَ يُناقِشُ هذا المحبوب ويطلبُ منه أن يُرسلَ التَّحيَّاتِ مع نسَماتِ الصِّبَا إن تَعَدَّرَ القربُ واللقاءَ:

إن تكن لم ترَ قربي جائِزًا مع هَبَّابِ الصِّبَا ابعثْ لي سلامًا<sup>798</sup>

وعمضي في شرحِ حالتهِ مع تَمَنُّعِ محبوبه ودلاله العجيبِ، حيثُ لازمَ من أجله البكاءَ فاستعارَ لمُقلتهِ التي تَسَحُّ بالدموعِ وصفَ المدِّ والجزرِ -من طريق الاستعارة المكنية-، في إشارةٍ منه إلى غزارة تلك الدموعِ، فقال:

وتأمرُ عن عَجَبٍ وتنهى مُغاضِبًا (وما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ)<sup>799</sup>

ألفَتْ بك الدَّمعَ المُلحَّ فمقلتي يلدُّ لها في حُبِّكَ المدُّ والجزرُ<sup>800</sup>

وإلى جانبِ التَّدلُّلِ وظهورِ لوعةِ الوجدِ تبرزُ في نسيبِ أبي الهُدَى ظاهرةُ ذكرِ الأماكنِ والتَّشَوُّقِ لديارِ المحبوبةِ ومرابِعتها فضلًا عن أطلالِ منازلها، مما يُفيدُ أنَّه كان في نسيبه مُستَحضرًا للتُّراثِ العربيِّ القديمِ من جهةٍ، كما يُمكنُ أن يكونَ من جهةٍ أُخرى نوعًا من التَّعبيرِ عن الشَّوقِ الكامنِ في أعماقه إلى الدِّيارِ التي نأى عنها والمرابِيعِ التي شَطَّ مزاره عنها، ولربَّما كانت قد ساعدته طبيعةُ غرضِ النَّسيبِ على هذا إذ نصَّ قُدَّامةُ بن جعفرِ على دخولِ "التَّشَوُّقِ والتَّذكُّرِ لمعاهدِ الأحبَّةِ وآثارِ الدِّيارِ العافِيَةِ، وأشخاصِ الأطلالِ الدَّائرةِ" وكونِ ذلك من مُتِمَّاتِ النَّسيبِ وكمالِيَّاته،<sup>801</sup> ولهذا فقد رَدَّدَ أبو الهُدَى

<sup>798</sup> د.ر.ب، 55.

<sup>799</sup> هذا العجز تضمينٌ لقولِ أبي فراس الحمداني:

"أراك عَصِيَّ الدَّمعِ شيمتُكَ الصَّبْرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ"

يُنظَرُ: أبو فراس، الدِّيوان، 209/2.

<sup>800</sup> د.ر.ب، 32.

<sup>801</sup> قُدَّامة، نقد البتِّيعر، 43.

على المسامع الكثير من أسماء الأماكن المتداولة على ألسنة الشعراء التي ذكروها في أشعارهم، نحو قوله:

هَبْ لَنَا نَسِيمَ سَلْعٍ عَنبَرًا      وَطِيبُهُ بِكَلِّ رَحِينَا سَرَى  
يَا عَرَبَ جَرَعَاءِ النَّقَا بِحَقِّكُمْ      لَا تَقْطَعُوا بِالصَّدِّ عَنَّا الْخَبْرًا<sup>802</sup>

وكقوله بعد أن نزل إستانبول (فروق) مُتَشَوِّقًا لربوع بادية الشام التي ماست محبوبته فوق روايها ومشت فوق ثراها، وها هي الأيام والليالي انقلبت بحال البعادِ وسيف الاغترابِ آلامًا وأسقامًا من تباريح الهوى:

رعى الله ظبيًا لي ببادية الشام      ليالي آلامٍ عليه وأيامي  
لقد أبعد المرمى غزالك فأتيد      فأين فروق الروم من ربوة الشام<sup>803</sup>

وقد يلاحظُ تَفَنُّنُهُ في التلاعب بالكلمات إذا ما عرَّجَ بكلامه على ذكر الأماكن واشتاق إلى مرابع محبوبته، ويجعلُ من هذا التفنُّن وسيلةً قد تُعَبِّرُ عن تباريح الوجدِ وتلهب نيران اللوعة التي أضرمتها تلك المحبوبة الحسنة، فراح بذكر منازلها يُعالجُ آخر رَمَقٍ تَبَقَّى فيه من الحياة، كقوله في قصيدة نسيبٍ، وقد ذكر وادي المحبوبة وسقاه وفداه، واقتبس من القرآن الكريم وصف "المُعَصِرَاتِ"<sup>804</sup> لِيُطَلِّقَهُ على عيونهِ التي استنزفت منها الدُموع المَهْرَاقَةَ على تلك المنازل والآثار، ولكي تمثلُ أمام عيني النَّاطِرِ تلك الدُموع التي سَحَّتْ من مُقَلَّتَيْهِ العاشِقَتَيْنِ بِالْعِ أَبِو الهُدَى فتجاوزَ الدُموع إلى ذكر الدَّمِ المُرَاقِ الذي أعقب نفاذَ الدُموع، ثم جعلَ من حياتِهِ ومماتِهِ نقودًا تُبَدَّلُ في سبيلِ الوصالِ -

<sup>802</sup> د.ر.ب، 31.

<sup>803</sup> د.ت.ب، 95.

<sup>804</sup> من قوله تعالى: "وَأُنزَلْنَا مِنْ الْمُعَصِرَاتِ مَاءً نَجَّاجًا"، النبأ، 14/78.

وذلك من طريق الاستعارة التصريحية والكنائية-، ويظهر جلياً توشيته لهذه المعاني بحل الطباق (السكون/الحركات) والجناس (مربع/بارع/ربيع، الوادي/وادي، منزل/أنزل) ومراعاة التظير والترادف (المعصرات/السحاب/الممطرات):

وبؤدي الوادي الذي سكتته فهو وادي روجي وداء حياتي  
مربع بارع ربيع رباه من دموعي سقي بماء الحياة  
طلل طالما طلبت ثراه بنقود السكون والحركات  
منزل أنزل الدما من عيوني الـ مُعصرات السحاب الممطرات<sup>805</sup>

ويظهر في هذا المقطع النسبي ما عهد في الموروث التقليدي عند فئة كبيرة من الشعراء العرب من شدة تعلقهم بديار محبوبهم ومرابيعهم وأطلالهم،<sup>806</sup> فوادي المحبوبة لم يعد في عيني الشاعر ذلك الوادي الذي يضُم بين جنباته الحصباء أو الثرى بل هو في عينه الوادي الذي نزلت فيه روحه فصار سر الحياة مُعلقاً بين جنباته، كيف لا وقد كان فيه مسكن محبوبته، فلا بدع أن تُهراق عبراته على ذراه، وهي تلك العبرات التي أسماها ماء الحياة التي أحييت الربيع في تلك الربوع؛ وقد يبدو بإمعان النظر في هذا الحديث المُستفيض عن تلك الديار والمرايع أنه حديث لم يكن القصد منه رصف الكلمات وتأنيقها، وإنما كان حديثاً يؤدي به الشاعر وظيفة مهمة في سياق التسيب، من خلال ما يمكن أن يُطلق عليه مُسمى "الذاكرة المكانية"، فما المكان لولا تلك الرابطة الموثقة بينه وبين ذكريات الماضي الجميلة والعهود الأنيسة التي ضمها المكان، فبمجرد أن يذكر أبو الهدى ديار محبوبه ومرايع إقامته تعود به ذاكرة الحنين إلى الأيام الماضية، فكأنه لا يرى هذه الربوع بعين الحاضر بل بعين الماضي

<sup>805</sup> د.ف.م، 173.

<sup>806</sup> يُنظر: فدامة، نقد التبعير، 43.

المشحون بذكريات الحُبِّ والحبيبة، ومن هذه الشَّاكِلَة قَوْلُهُ وقد هبَّ به نسيْمُ الصَّبَا قَادِمًا من ديار  
المحبوب فراح يصفُ ما هاجه من الشَّوق قَائِلًا:

أتى بأخبارِ عُرْبِ الحَيِّ من تلك الضَّواحي والتَّواحي عَطَّرًا  
آهٍ لأَيَّامٍ مَضَتْ بقربكم راحت وأبقت عبرةً لن تفتُرًا<sup>807</sup>

وها هو أبو الهُدَى تُثارُ ركائبُ محبوبتِه "مَيِّ" بعد أن أزمعَ قومُها على الرِّحيل، فثارت معهم  
ركائبُ الحنين في قلبه، وتَسَعَّرَت نيرانُ تباريحِ الهوى في أحشائه، وعادَه طيفُ أوقاتِ الوصلِ بمحبوبتِه،  
وهاجَه خلُّو ربوعِ خيامِ المحبوبةِ، فشرعَ يُبدعُ في تصويرِ أوقاتِ الوصالِ التي حظيَ فيها بمحبوبتِه،  
فجعلَ من ساعةِ الثُّربِ صفحةً كتبَ فيها كلُّ يرَاعِ سطورَ الوصالِ فلم يُسمعَ حينئذٍ بصريِّ لغيرِ تلك  
السُّطور - وذلك من طريق الاستعارة التَّصريحِيَّة المُرشَّحة -، إذ قال:

خُذْ إِثْرَ مَيِّ فَالرِّكَابُ تَطِيرُ بِمُحْمُولِهَا وَلِذِي الْوُلُوهِ زَفِيرُ  
آهٍ عَلَى نَقَّاحِ مَسْكِ خِيَامِهَا كَمَ هَبَّ مِنْهَا لِلرِّفَاقِ عَبِيرُ  
فِي حَضْرَةِ وَشَى الْعَفَافُ سُجُوفَهَا<sup>808</sup> فِيهَا لِأَقْلَامِ الْوِصَالِ صَرِيرُ  
أَوْقَاتِ أَنْسٍ لَمْ يُدْنَسْ صَفْوَهَا كَدَّرَ وَلَمْ يَجْفُ الْعَشِيرَ عَشِيرُ<sup>809</sup>

وَأَنَّي لِلأَذْهَانِ أَنْ يَجْمَحَ بِهَا خِيَامُهَا يَمَنَةً أَوْ يَسْرَةً وَقَدْ احْتَرَزَ الشَّاعِرُ بِجَلْبِهِ لِكَلِمَةِ (الْعَفَافِ)، لِتَحْيِيمِ  
عَلَى جَوِّ اللِّقَاءِ صُورَةَ الصَّفَاءِ الَّذِي يُنْقِيهِ وَيَجْعَلُ مِنْهُ لِقَاءً صَافِيًا طَاهِرًا مِنْ دَنَسِ الْأَكْدَارِ، وَذَلِكَ  
لَمَّا اسْتَعَارَ لِلْعَفَافِ وَصْفَ الزَّيْنَةِ الَّتِي وَشَّتِ السِّتَارَ الْمُسَدَّلَ عَلَى ذَلِكَ اللِّقَاءِ الصَّافِي؛ وَكَثِيرًا مَا كَانَ

<sup>807</sup> د.ر.ب، 31، والعبيرةُ واحِدَةُ العَبْرَاتِ وَهِيَ الدَّمْعَةُ فِي الْعَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَسِيلَ وَتَفِيضَ، يُنْظَرُ: 1451/2.

<sup>808</sup> جَمْعُ وَاحِدِهِ السَّجْفُ بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا وَهُوَ السِّتْرُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "سجف"، 1371/4.

<sup>809</sup> د.ر.ب، 30.

يحرصُ على هذه النُقطةِ من تنزيهِ محبوبتهِ عما سوى العِقَّةِ والطُّهرِ والنِّقاءِ كقولهِ مُصَرِّحًا بذلكَ بعد أن ذكرَ ظرافةَ المحبوبِ وَرَقَّتُهُ:

تَسْلَطَنَّ فِي ظَرَفَتِهِ بِشَأْنٍ عَلاَ عَن ذُلِّ شَائِبَةِ الْحَرَامِ

رَعَى اللهُ الدِّيَارَ دِيَارَ نَجْدٍ فَكَمَ لِي فِي رُبَاهَا مِنْ ذِمَامٍ<sup>810</sup>

ولربما التفت أبو الهدى إذا ما تعدد عليه الوقوف على ديار محبوبته والأرض التي حلت بها، مُخْبِرًا بلسان الحبِّ أنَّه سيطيّرُ بجناحِ الرُّوحِ إليها لينتشقَ عبيرَ أثرها، داعيًا لتلك الأرض بسقيا الخيرات من الغيوث الهامعة قائلًا:

وَإِذَا مَا أُمَّ أَرْضًا بَعُدَتْ سَلَكَتْ رُوحِي سَبِيلَ الْأَثْرِ

لَا عَدَا الْهَطَّالُ أَرْضًا حَلَّهَا وَسَقَاهَا بِالنَّوَالِ الْعَمْرِ<sup>811</sup>

ومن العناصر التي حرص أبو الهدى على سوقها في نسيبه حتى صارت ظاهرةً من ظواهره، هي ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم، حتى بدا كأنه استمدَّ مُعْجَمَ كلماته وتعابيرِه منه في كثيرٍ من المواضع، ففي موضعٍ اقتبس من القرآن قوله تبارك وتعالى: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ"<sup>812</sup> وقوله: "وَالعَصْرِ"<sup>813</sup> ليجعل من ذلك توريةً عن جمال ذلك المحبوب الذي ينجلي كالنجم، فتقابلهُ المعصرات من عينيه فتسكبُ الدُموعَ بعد أن اعتصر قلبه الوجدُ واللَّهْفُ على هذا المحبوب ووصاله، فقال:

<sup>810</sup> د.ف.م، 170.

<sup>811</sup> د.ت.ب، 36.

<sup>812</sup> النجم، 1/53.

<sup>813</sup> العصر، 1/103.

يقرأ لي (والتَّجْم) حينَ ينجلي فتقرأ العينُ له (وَالعَصْر)<sup>814</sup>

وعلى هذه الشاكلة قوله وقد جعل للجمالِ القَتانِ دولةً تَرَبَّعت على عرشِ مُلكِها محبوبتُهُ التي هي عزيزةُ ذلكِ المِصر -مِصر الجمالِ البديع-، فراحَ يُخاطِبُها وقد أزالَ أدواتِ التِّداءِ بينهما لشدةِ القُربِ والحبِّ، قائلاً:

عزيزةُ مِصرِ الحُسنِ يُوسُفُكِ انطوى بسجنِ الجفَا منكِ على جُرفِ هاري  
فمُني له فضلاً بإطلاقِ قيدهِ وجُودي بريقٍ يُطفئُ اللَهْفَ النَّاري<sup>815</sup>

فهو قد جعل من نفسه يوسفَ السَّجينِ الذي حَبَسَتْهُ في سجنِ التَّمَنُّعِ والبِعادِ، فراحَ يستعطفُها في المَنِّ بإطلاقِهِ من حَبْسِهِ هذا، بعد أن أضافَ نفسَهُ إليها - (يوسُفُكِ) - إيغالاً منه في استعطافِها واستِدْرارِ شَفَقَتِها عليه، وفقَ ما يقتضيه مقامُ النَّسيبِ من إظهارِ التَّدَلُّلِ والعجزِ من المُحبِّ بين يدي محبوبتِهِ.

ولعلَّ من أجملِ الشُّواهِدِ على تأثُرِ مُعْجَمِهِ اللَّفْظِيِّ بِالآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ما اقتبسَهُ من السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا"<sup>816</sup> فكَتَبَ بِالنَّارِ وَالْوَرْدِ عَن تَضَرُّجِ حَمْرَةَ وَجَنَّةِ الْمُحْبُوبَةِ، وَبِالْبَرْدِ عَن أَسْنَانِهَا، فَقَالَ:

نَقَشَ الْجَمَالَ عَلَى صَحِيفَةٍ حَدَّهَا يَا نَارُ كُونِي وَزْدَةً وَسَلَامًا  
وَالْبَرْدُ حَوْلَهُ مُرَوِّقٌ ثَغْرَهَا بَرْدًا بِمِسْمِهَا اللَّطِيفِ تَرَامِي<sup>817</sup>

<sup>814</sup> د.ر.ب، 35.

<sup>815</sup> د.ف.م، 204.

<sup>816</sup> الأنبياء، 69/21.

<sup>817</sup> د.ف.م، 200.

وكثيراً ما كان يجتَمُّ قصائدَ هذا الغرض بما يُثبِتُ صدقَ حُبِّه للمحبوب كقولهِ وقد اقتبسَ

الحديث النبوي: 818

أنا في حبِّها على قدمِ الصِّدِّ ق (وإنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ) 819

أو أنَّه يجتَمُّ بالإعراضِ عن كلِّ عَزَلٍ ونسيبٍ، والتفاتٍ من المخلوقين الفانين إلى الخالقِ الباقي، وكأنَّه يربُّ بقلبه أن يحلَّ فيه ما سوى الله، وبذلك يظهر عليه مُجَدِّداً أثرُ التَّصَوُّفِ المتغلغلِ في أعماقهِ، ومن هذه الشَّاكِلَةِ قولُهُ -وقد ضمَّن الأبيات اقتباساً من المَثَلِ الواردِ في الحديث النبوي-: 820

يُقيِّمُها الخاطِرُ في ألواحِهِ يقرأُ منها خبراً مُسَطَّراً

يا قلبُ حلِّ القانِياتِ واذكر الـ باقي (فكلُّ الصِّيدِ في جوفِ الفِرا) 821

فهو ينطوي على قلبه بعد أن هاجتَهُ الدِّكرياتِ وقامت ماثلةً أمام عينيه تُثيرُ في نفسه مشاعرَ الحنين، وكأنَّ القلبَ يتلو من لوحها أخبارَ أوقاتِ الوصلِ والاتِّصالِ بالمحبوب، حتى إذا ما استرسلَ مع ذكرياتِ تلك الأيَّامِ السَّوالِفِ، عادَ ليصحو من سَكَرَتِها مُحاطِباً قلبه: أن تَدَكَّرَ -يا قلبُ- القديمِ الباقي واطرح جميعَ الفانِياتِ، فبهذا المَسْلِكِ ثمَّ الخيرِ العميمِ والفضلِ الجَمِّ، إذ سالكَه لا يفوته من لذاذاتِ الحقائقِ فائتٌ قطّ.

وبعد كلِّ ما سبقَ المرور عليه في غرضِ الغزل، يمكن استنتاجُ ما يلي:

818 البخاري، "بدء الوحي"، 1 (رقم 1).

819 د.ف.م، 173.

820 يُنظر: الميداني، الأمثال، 136/2؛ شمس الدِّين محمد بن عبد الرَّحمن السَّخاوي، المقاصد الحَسنة في بيان كثيرٍ من الأحاديثِ المشتهرة على الألسنة، إعداد: محمد عثمان الخشت، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1405هـ/1985م)، 515، (رقم 826).

821 د.ف.م، 173.

■ إنَّ هذا الغرضَ رغمَ تداخلِ أقسامِهِ وامتزاجِها بينَ نوعينَ هما الغزلُ والنَّسيبُ، فقد تمَّ تقسيمُهُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ هي: التَّشبيبُ والغزلُ والنَّسيبُ؛ ولم يكن أبو الهُدَى في قسم التَّشبيبِ ذا نفسٍ طويلٍ؛ كما أنَّ الوقوفَ على تشبيبِ أبي الهُدَى استوجِبَ عودةَ البحثِ أدراجَهُ كي يقتطفَ من غرضِ المديحِ - بنوعيه النَّبويِّ والعامِ - التَّشبيبَ الذي افتتحتَ به القصائدُ المدحيَّةُ، حيثُ إنَّه أكثرُ ما كان يأتي به مُوطَّئًا بأبياتِهِ بينَ يدي غرضِ المديحِ، إضافةً لكونه قد نوعَ في تشبيبه بينَ الغزلِ والنَّسيبِ.

■ وقد لُوحيَ في الغزلِ عندَ الشَّاعرِ تركيزه على الأوصافِ الحسيَّةِ الماديَّةِ للمحبوبةِ، وقد حرصَ على وصفِ جزئياتِ هذا الجمالِ والبلوغِ به إلى أعلى مستوياتِهِ التي تَطمَحُ إليها النفوسُ من خلالِ الإغراقِ بالمبالغةِ في التَّشبيهاتِ التي استخدمها؛ إلا أنَّ ذلك لم يكن مانعًا له من التَّعزُّلِ بالجمالِ المعنويِّ - ولو لِمأما-، إلى جانبِ إيلائهِ أهميَّةً بالغةً لصيغِ كلِّ ذلكِ بصبغةِ الطُّهرِ والعفافِ والبُعدِ عن شوائبِ الحرامِ؛ مما جعلَ غزلهُ يتنزَّهَ عن الفُحشِ أو الغزلِ البذيءِ بالمُذكرِ.

■ كما ظهرَ غزلهُ ممزوجًا بجمالِ عناصرِ الطَّبيعةِ، حيثُ كان يقرنُ بينَ جمالِها وبينَ جمالِ محبوبتهِ التي يتعزَّلُ بها، فيسقطُ جمالَ هذه على تلكِ، فتتضافَّرُ عناصرُ جماليَّةِ خياليَّةِ في لوحةِ الغزلِ التي يرسمها لمحبوبتهِ، أشاعتِ في شعرهِ الدِّقَّةُ في وصفِ محاسنِ المُتعرِّلِ.

■ وقد كان غزلهُ عربيًّا بحثًا لم يلمحَ فيه تعزُّلٌ بالعنصرِ التُّركيِّ أو الرُّوميِّ؛ فبالنَّظرِ في هذا الغرضِ - وخصوصًا قسمِ النَّسيبِ - وُجِدَتِ الأسماءُ العربيَّةُ للنِّساءِ المحبوباتِ، وأُلفيتِ فيه روحُ الموروثِ التَّقليديِّ العربيِّ من وقوفٍ على الدِّيارِ والمنازلِ والأطلالِ، الذي دَفَعَهُ إلى تردادِ الكثيرِ من المعالمِ العربيَّةِ - في الجزيرةِ العربيَّةِ وبلادِ الرِّافدينِ - التي دارتِ على ألسنةِ الشُّعراءِ السَّالفينِ؛ ونفدَ من الدَّاكرةِ المكانيَّةِ إلى الرِّمائيَّةِ بتذكُّرِ أوقاتِ الوصالِ بالمحبوبةِ،

فكأنه لم يكتفِ بالوقوفِ على تلك الأماكن الجامدة وإنما بثَّ فيها روح المشاركة له في تحريكِ لوعته واستنهاضِ تشوقه؛ ولربما كانت الغربة عن وطنه عاملاً مُساعدًا على صدق التشوقِ عنده.

■ إنَّ أبا الهُدَى في عَزَلِهِ بِمُحَبِّبَتِهِ كَانَ قَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا بِنَظَرَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا كَانَتْ نَظَرَةً كُلِّيَّةً شَامِلَةً، وَالْأُخْرَى نَظَرَةً جُزْئِيَّةً اِهْتَمَّتْ بِالتَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ فِيهَا، ثُمَّ عَادَ لِیُسَاطِرَ كُلِّ ذَلِكَ فِي عَزَلِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكِدْ يَخْرُجُ عَنِ السَّنَنِ الَّتِي اسْتَنَّهُ الشُّعْرَاءُ الَّتِي سَبَقُوهُ، فَكَرَّرَ الْأَوْصَافَ الْجَمَالِيَّةَ وَالتُّعُوتَ الْمِثَالِيَّةَ ذَاتَهَا الَّتِي دَارَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَبْتَعِدْ كَثِيرًا عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي أَتَوْا بِهَا، وَقَدْ يُعَلَّلُ هَذَا بِطَبِيعَةِ هَذَا الْعَرَضِ الَّتِي فَرَضَتْ هَذَا التَّشَابُهَ فِي التَّنَاولِ لِلأَوْصَافِ حَتَّى أَشَارَ بَعْضُ النُّقَادِ<sup>822</sup> إِلَى اسْتِوَاءِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ وَالْمَوْلَدِينَ وَالْمُحَدَّثِينَ فِي مَسْأَلَةِ تَنَاوُلِهِمُ لِلأَوْصَافِ الْجَمَالِيَّةِ فِي ذَاتِ الْمُحَبُّوبِ الْمُتَعَزِّلِ بِهِ.

■ وَقَدْ كَانَ يَحْرِصُ دَائِمًا عَلَى إِظْهَارِ صَدَقِ مُحَبِّبَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ لِمُحَبِّبَتِهِ؛ وَبِمَكْنُ الْقَوْلِ: إِنَّهُ قَدْ حَافِظًا عَلَى تَوَازُنِ الْعَاطِفَةِ لَمَّا طَرَقَ بَابَ الْعَزْلِ فَلَمْ تَكُنْ بِالْبَاهِتَةِ أَوْ الْمُفْتَعَلَةِ وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنَمُّ عَنِ فَرْطِ إِعْجَابٍ وَمَزِيدِ مَحَبَّةٍ فِي الْمُحَبُّوبِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ أَكْثَرَ حَرَارَةً لَمَّا طَرَقَ بَابَ النَّسِيبِ إِذْ يَشْعُرُ الْوَاقِفُ عَلَى أَيْبَاتِ النَّسِيبِ بِثَوْرَةٍ مِنَ الْمَشَاعِرِ الْمُتَوَقِّدَةِ فِي نَفْسِيَّةِ الشَّاعِرِ اتِّجَاهَ مُحَبِّبَتِهِ تَوَزَّعَتْ بَيْنَ حَنِينٍ وَشَوْقٍ وَحُبٍّ وَحُزْنٍ عَلَى الْفِرَاقِ، وَيُلَمَّحُ تَوَقُّدُ انْفِعَالَاتِ عَوَاطِفِهِ فِي أَشْعَارِهِ بِدُونَ أَيِّ حِجَابٍ يَسْتَرُهَا عَنِ النَّظَرِ فِيهَا.

■ كَمَا لَمْ تَخُلْ مَعَانِي الْأَبْيَاتِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي الْمُبْتَكِرَةِ الْبَدِيعَةِ وَخَاصَّةً عِنْدَمَا كَانَ يَأْتِي بِالِاقْتِبَاسِ، إِلَى جَانِبِ ظُهُورِ أَثَرِ التَّصَوُّفِ فِي هَذَا الْعَرَضِ مِنْ خِلَالِ بَعْضِ الْمِصْطَلَحَاتِ

<sup>822</sup> يُنْظَرُ: عَمْرٌ مُوسَى بَاشَا، الْأَدَبُ فِي بِلَادِ الشَّامِ (دِمَشْقُ: الْمَكْتَبَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ، 1391هـ/1972م)، 488.

التي كَرَّرها فيه، ولم يَعدَم النَّاطِرُ في شعر هذا الغرض من صورِ بلاغِيَّةٍ بَيَّانِيَّةٍ من استعاراتٍ  
وكناياتٍ وتشبيهاتٍ زادَ من بهائِها الإكثارُ من المُحَسِّناتِ البديعِيَّةِ التي جعلت الألفاظَ  
مُتَناعِمَةً مع المعاني وفقَ جرسِ موسيقيٍّ لطيفٍ يُناسِبُ مقامَ العَزَلِ، إذ كان أبو الهُدَى  
يستسيغُ لِعَزَلِهِ أن يُصَبَّ في قوالبِ الأبحرِ الشَّعْرِيَّةِ القصيرةِ الأقربِ إلى النَّفسِ والجاريةِ  
على الألسنِ لِحَفَّتِها ونغمها الغنائيِّ، مما يعني أنَّ عَزَلِيَّاتِهِ امتازتْ بموسيقيَّةٍ خارجِيَّةٍ خدمتها  
الموسيقا الدَّاخِلِيَّةُ؛ ويمكنُ القولُ: إنَّ معانيه كانت قريبةً للأذهانِ ولم يكتنفها الغموضُ،  
وأما الألفاظُ فقد كانت حلوةً رقيقةً تنسابُ بعدوَبَةٍ ولينٍ فلم يَشُبْها تنافرٌ أو غرابَةٌ أو  
فحشٌ؛ وربما يعودُ ذلك إلى ما اقتضتهُ طبيعةُ العَرَضِ من وجوبِ تخييمِ الصَّفَاءِ والرِّقَّةِ على  
جميعِ الشَّعْرِ الذي يندرجُ تحته، إضافةً إلى مَكَانَةِ الشَّاعِرِ والوضعِ الذي هو فيه الذي يُنَزِّهُ  
لسانَهُ عن الخوضِ بما سوى الطَّهْرِ والنَّقَاءِ.

## المبحث الخامس: غرض الوَعظ

يعودُ أصلُ كلمةِ الوَعظِ لُغَةً إلى كونها مصدرًا للفعل (وَعَظَ) وهي مُرَادِفَةٌ لِلْعِظَةِ والموعِظَةِ؛ وتعني "النُصْحَ والتَّذْكِيرَ بالعَوَاقِبِ"،<sup>823</sup> وعلى رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت. 170هـ/786م) فإنَّ الوَعظَ هو التَّذْكِيرُ بِالْخَيْرِ ونحوِهِ مما تَرَقُّ له القلوبُ،<sup>824</sup> وأمَّا ابنُ فارس (ت. 395هـ/1005م)<sup>825</sup> فقد بيَّن أنَّ معناه التَّخْوِيفُ والإِنْذَارُ؛ وتعبيرٍ آخَرَ يُقصدُ بالوعظِ الأَمْرُ والوصِيَّةُ بالطَّاعَةِ،<sup>826</sup> أو تذكيرُ المُخاطَبِينَ بما يجعلُ قلوبَهُمْ تَلِينُ لِلثَّوَابِ والعِقَابِ ودعوتهم إلى إِصْلَاحِ السَّيِّرَةِ وإلى التَّوْبَةِ إلى الله،<sup>827</sup> فإذا ما قَبِلَ المُخاطَبُ الوَعظَ قيل: قد اتَّعَظَ فُلَانٌ، وبهذا يظهرُ أنَّ الاتِّعَاضَ هو قبولُ الموعِظَةِ، وقد وَرَدَ في الأثرِ "لأَجْعَلَنَّكَ عِظَةً" ففُسرَ: لأَجْعَلَنَّكَ عِبْرَةً وموعِظَةً لغيرِكَ،<sup>828</sup> ويُلحَظُ اقترانُ الموعِظَةِ بِالْحِكْمَةِ في قوله تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"،<sup>829</sup> وتناوَلتِ العربُ في أمثالها "لا تَعِظِينِي وَتَعْظِعْظِي - أو تُعْظِعْظِي -" بمعنى اتركِي توصيَتِي وأوصِي نَفْسِكَ أو لا تأمري بالصَّلاحِ والاستقامةِ وتُفسِدِي في نَفْسِكَ وأنتِ معوجَّةٌ.<sup>830</sup>

<sup>823</sup> يُنظر: الجوهري، "وعظ"، 1181/3.

<sup>824</sup> يُنظر: الخليل، "وعظ"، 228/2.

<sup>825</sup> يُنظر: ابن فارس، مقاييس اللُغة، "وعظ"، 126/6.

<sup>826</sup> الفيومي، المصباح، 665/2.

<sup>827</sup> يُنظر: أحمد مختار، "وعظ"، 2468/3.

<sup>828</sup> يُنظر: مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير، التَّهْيَاة في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي - محمود الطناحي، (القاهرة: المكتبة الإسلامية، د.ت)، 260/3.

<sup>829</sup> التَّحَل: 125/16.

<sup>830</sup> يُنظر: الزبيدي، "عظظ"، 237/20، "وعظ"، 289/20؛ الميداني، الأمثال، 213/2.

وهذه المعاني اللغوية المُتقاربة فيما بينها لا تبعدُ كثيراً عن المعنى الاصطلاحيّ للوعظ، فالقاضي البيضاويّ (ت. 685هـ/1319م) عرّفه بأنّه "الخطابُ المُقنعةُ والعِبْرُ النَّافعةُ"،<sup>831</sup> أمّا محمّد رشيد رضا (ت. 1354هـ/1935م) فعرّفه بأنّه "الوصيّة بالحقّ والخير، واجتناب الباطل والشرّ، بأساليب التّرجيب والتّرهيب التي يرقُّ لها القلب، فتبعث على الفعل والتّرك".<sup>832</sup>

وانطلاقاً من استحضار المعاني اللغوية والاصطلاحية للوعظ، وبالاطّلاع على شعر أبي الهدى الذي سطره فيه، فإنّه ليُمكنُ تقسيمُ وعظه -رغم تداخلِ أجزاءه- إلى ثلاثة محاور رئيسية، تندرج كلّها ضمن الإطار العامّ لما اشتمل عليه الوعظ من معاني، وهذه المحاور هي:

- محور النّصح والإرشاد (المنبثق من المعنى الأوّل للوعظ)
- محور التّرهيد بالدنيا (المنبثق من معنى التّذكير بالعواقب وترقيق القلوب بالتّرجيب أو التّرهيب)
- محور الحكمة (المنبثق من معنى العبرة والاعتبار)

وسيتّم تناول كلّ محورٍ على حدة، في محاولةٍ لتلمّس العناصر والأفكار الأساسية التي بُني عليها كلُّ محورٍ.

---

<sup>831</sup> ناصر الدّين عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، تحقيق: محمّد المرعشلي، (بيروت: دار إحياء الثّراث العربيّ، 1418هـ/1997م)، 245/3.

<sup>832</sup> محمّد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار (القاهرة: دار المنار، 1366هـ/1947م)، 328/11.

## 1 النَّصْحُ وَالْإِرْشَادُ

إِنَّ طَبِيعَةَ الْبَيْتَةِ الَّتِي تَرَعَّرَ فِيهَا أَبُو الْهَدَى - كَمَا تَبَيَّنَ فِي سِيرَةِ حَيَاتِهِ - كَانَتْ تُحَيِّمُ عَلَيْهَا أَجْوَاءَ التَّصَوُّفِ، مِنْ خِلَالِ مَا يُعْرَفُ بِمُسَمًى "الشَّيْخِ وَالْمُرِيدِ"، وَيَبْدُو أَنَّهُ مَعَ انْتِقَالِهِ إِلَى عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ إِسْتَانْبُولَ لَمْ يَنْتَقِلْ عَنْ هَذِهِ الْأَجْوَاءِ فَهُوَ لَمْ يُلَفَّ بَعِيدًا عَنْهَا، بَلْ قَدْ أَوْكَلَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ عَبْدَ الْحَمِيدِ الثَّانِي رِثَاةَ مَجْلِسِ مَشَايِخِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ،<sup>833</sup> وَهَذَا السَّبَبُ قَدْ يَكُونُ مُفَسِّرًا تَخْصِيصَ جُزْءٍ مِنْ إِنتَاجِهِ الشِّعْرِيِّ فِي النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، فَقَدْ شَغَلَ حَيِّزًا كَبِيرًا مِنْ حَيَاتِهِ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ نُصْحُهُ ذَا طَابِعٍ دِينِيٍّ نَابِعٍ مِنْ مَصَادِرِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمُسْتَمَدًّا مِمَّا قَامَ عَلَيْهِ مِنْهُجِ سَلَفِ الْأُمَّةِ مِنْذَ فَجْرِ عَهْدِهَا، إِذْ نَصَحَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَزَلْ دَابَّ أَعْلَامِهِمْ - كَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ (ت. 110هـ/728م) وَسَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ (ت. 161هـ/778م) وَالْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضِ (ت. 187هـ/803م) - وَامْتَدَّ حُضُورُهُ حَتَّى الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ وَارْتَفَعَ مَعَهُ صَوْتُ التَّرْهِيدِ بِالْدُنْيَا الْفَانِيَّةِ<sup>834</sup> بَعْدَ انْتِشَارِ التَّرَفِّ وَاللَّهُوِ وَالْمَجُونِ، وَبَرَزَ نِتَاجُهُ مَنْثُورًا وَمَنْظُومًا فِي إِرْشَادِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا ارْتَضَتْهُ الْمَشِيئَةُ الْإِلَهِيَّةُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا مُوَصِّلًا الْمَهْتَدِينَ بِهِ إِلَى بَرِّ النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ بِرِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ كَانَ وَعْظُهُ مَبْتُوثًا فِي شِعْرِهِ بِشَكْلِ مَقَاطِعٍ وَتُنْفِيقِ وَقَصَائِدَ، وَعَلَى مَا يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يُؤَلِّهِمْ إِهْتِمَامًا بِالْعَمَلِ لِلْمَطَالَعِ وَالْمُقَدِّمَاتِ فَكثِيرًا مَا كَانَ يُبَاشِرُ الْمَسَامِعَ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَطْرُقَهُ مِنْ نَصَائِحَ وَإِرْشَادَاتٍ، وَقَلِيلًا مَا تَجِدُ قَصِيدَةً مُفْتَتِحَةً بِمَطَلَعٍ تَقْلِيدِيٍّ كَقَوْلِهِ فِي مَطَلَعِ افْتِتْحِهِ بِالتَّصْرِيعِ وَالْجِنَاسِ:

<sup>833</sup> يُنْظَرُ: بوزينار، "الصِّيَادِي"، 217/36.

<sup>834</sup> يُنْظَرُ: فَرُوح، تَارِيخُ الْأَدَبِ، 44/2.

أَقُولُ لِمُطَرِّبٍ يَجِدُو الْجَمَالَ رِعَاكَ اللهُ كَمَ تَصِفِ الْجَمَالَ  
 مَرَّرْتُ عَلَى الرِّيَاضِ مُنْمَنَمَاتٍ<sup>835</sup> فَهَلْ هَيِّمَتْ مُذْ شِمْتُ<sup>836</sup> الْعَزَالَ  
 وَرُبَّ مُهَيِّجَةٍ مَنِّي كَوَاهَا هَيْبُ جَوَى وَأَجَّجَهَا اشْتِعَالًا<sup>837</sup>

ففي هذا المطلع يُنادي على سائق الأظعان ويدعو له لَمَّا حَدَا رَكَائِبَهَا بِجِدْوٍ أترَع سامعيه بوصف الجمال وأهله، وراح أبو الهُدَى يُخبر عن سبب هذا الهيام لدى الحادي وهو رؤيته لغزال الرّوض ذي الحُسن البديع، ليخرَج بالاستفهام من معناه الحقيقي إلى معنى الإخبار عن سبب الهيام، إيغالا منه في تثبيت صورة الجمال في نفس مخاطبه، ومن هذا المَطَّلَع يستطرِد إلى وصف حالته مع تباريح الهوى والحبّ التي ألبت فؤاده، وبعد أن يجذب السامع إليه ويحرك مشاعره بما وصف من حالته الوجدانية، يَتَبُّ به إلى ساحات النصح والإرشاد الوعظية والحكمية.

ومن الممكن أن يميّز الناظر وصاياه الإرشادية إلى أقسام:

أحدها: ما كان دينياً بحثاً يرتبط بالتقوى ومعاملة العبد الخاصة مع ربه لكسب رضاه.

وثانيها: ما كان مرتبطاً بشؤون الأخلاق في الحياة العامة والمعاملة الحياتية التي توصل إليها أبو الهُدَى من خلال تجاربه الطويلة في معاملة أجناس الناس من قلب عاصمة الخلافة على اختلاف طبقاتهم وتنوع مشاربهم وأذواقهم.

وثالثها: لا ينفك عن سابقه إلا أنه متعلّق بما كان يلحظه أبو الهُدَى من فساد استشرى داخل خيمة التصوف فصار ينخر جسد الأمة بعد ما كان غرضه إصلاح أفرادها ومجتمعاتها، فانبرى

<sup>835</sup> منقوشات مُرَبَّنَاتٍ بالحسن البديع، يُنظر: ابن دُرَيْد، "منمن"، 224/1.

<sup>836</sup> رأيت، يُنظر: الجوهري، "شيم"، 1963/5.

<sup>837</sup> د.ر.ت، 201؛ والجوى هنا تناول مرض الحبّ والعشق، يُنظر: ابن دُرَيْد، "جوي"، 499/1.

أبو الهدى في شعره يُرشدُ إلى جوهرِ التَّصَوُّفِ وبيِّنُ زيفَ مُدَّعِيهِ، ويمكنُ القولُ: إنَّه نقدٌ للتَّصَوُّفِ وأفرادِهِ الموجودين في زمانِهِ، مطويٌّ بين ثناياهُ الإرشادُ إلى التَّصَوُّفِ الحقيقيِّ.

### أ المعاملة الخاصَّة

وهي التي يُعنى بها ما أوردَهُ في شعره الوعظيِّ من نصائحٍ تُصلِحُ علاقةَ العبدِ برَبِّهِ، ويُعدُّ الأمرُ بالالتزامِ بالشرعِ الحنيفِ وبالتَّقوى -التي هي الانضباطُ بالأوامرِ الإلهيَّةِ واجتنابُ نواهيها- أوَّلَ العناصرِ التي أكَّدَ عليها في شعرِ النَّصْحِ، ومن هذا القبيلِ قولُهُ وقد استعملَ طباقَ التَّضادِ (حَطَّ/شالَ)، والإيجازَ بالحذفِ (شالَ حملاً)، بعد أن جعلَ من تقوى الإلهِ أسًّا لبناءِ العُلا، الذي تُصدُّ به أثقالُ الحياةِ فتنزاح من على كواهلِ المُثقلَةِ:

وَشَيْدٌ بِالتَّقَى رُكْنَ المعالي فكم حَطَّ التَّقَى جَملاً وشالاً<sup>838</sup>

وقولُهُ حاضاً على التَّقِيْدِ بالحدودِ التي رَسَمَتها أناملُ الكتابِ والسُّنَّةِ وسارَ عليها السَّوادُ الأعظمُ من الأُمَّةِ، فهي مسلكُ الحَقِّ وأهلهِ:

واعملِ بشرعِ المصطفىِّ وبحكمِ ما هو في كتابِ الله من آياته  
وانهَجِ مع الإجماعِ غيرَ مُفارقٍ طُرُقَاتِهِ فالحقُّ في طُرُقَاتِهِ<sup>839</sup>

ومن ذلك تذكيرُهُ بوسعِ رحمةِ الله وإرشادُهُ لِمُخاطَبِهِ إلى تركِ القنوطِ، وإلى تعليقِ الآمالِ بسَحَّاحِ فيضِ العطاءِ الإلهيِّ الذي يُدهِشُ العقولَ، وتصعُرُ بطويلِ علوِّ تأثيرِهِ كلُّ النَّصائحِ والمواعِظِ

<sup>838</sup> د.ر.ت، 203.

<sup>839</sup> د.ت.ب، 13.

وتقصر، وتكادُ ألسنةُ الوعظِ تحرسُ إذا نطقتْ أفلامُ نفتحته، وقد أشارَ إلى عظمةِ هذا المنحِ الربانيِّ الرَّحمانِيِّ بأنَّه المنحُ الذي تشيبُ منه النَّواصي، لخيرتها في شؤوناتِ تقديره، فقال في مزينةِ الرَّحمةِ الإلهيةِ:

وبسرِّ من نَفحةِ الغيبِ تُغني عن فنونِ الوُعَاظِ والقُصَّاصِ  
فاختصاصُ الرَّحمنِ للعبدِ بالرَّحْمَةِ مَنحٌ تشيبُ منه النَّواصي<sup>840</sup>

حتى إذا ما انجلتْ صورةُ تلك الرَّحمةِ، انعطفتْ بمُخاطبِهِ إلى ساحةِ الأملِ وإخلاصِ العملِ، والفرارِ من اللهِ إليه، ودَبَّ عن ذهنِ سامعِهِ ما يُراوِدُهُ من خيوطِ القنوطِ، لِيُعَلِّلَ له سببَ إحسانِ الظَّنِّ بالبابِ الإلهيِّ، بأنَّه ملجأُ العُصاةِ وملاذُ التَّائِهينِ، فقال:

فَتَحَقَّقْ بِالصِّدْقِ خِلَّ وَلازِمِ بابَ رَبِّ الأربابِ بالإخلاصِ  
واحسِنِ الظَّنَّ لا تُبارِحِ جِماهُ فِحْمَاهُ حِصْنُ المُسيءِ العاصي<sup>841</sup>

ويُلحِقُ بهذا -الأملِ في رحمةِ الله- من المعاني الدِّبِنِيَّةِ التي أوردَها أبو الهُدَى في إرشادِهِ الشِّعريِّ ما دعا إليه من التَّفكُّرِ في تدبيرِ الله لعالمِ الدُّنيا الذي يعيشُ فيه الإنسانُ، وضرورةُ أن يسوقَ الإنسانُ نفسه بسائِقِ الرَّجاءِ برَبِّ العالمينِ مشفوعاً بالخوفِ من بطشه وعقابه:

تَدَبَّرْ صَنِيعَ اللهِ فِي الأَمْرِ إِنْ دَجَا وَحَلَّكَ بَيْنَ الخوفِ يا صاحِ والرَّجا  
فكم مَغْرِبٍ غَلْغالُهُ قامَ أسودًا بكرٍ فجاءَ الصُّبْحُ باللُّطفِ مُسرِّجًا<sup>842</sup>  
وفي البيتِ الثَّانِي تشبیهٌ ضمنيٌّ، يُؤكِّدُ ما أرشَدَ إليه من ارتقابِ فَرَجِ اللهِ ورجاءِ غاراتِهِ عند ضيقِ الخناقِ واشتدادِ الأزماتِ -الذي كَتَبَ عنه بالدُّجُوِّ واحْتباكِ الظُّلْمَةِ-، فقد شبَّهَ ذلكَ بحالَةِ إرخاءِ الغروبِ

<sup>840</sup> د.ر.ت، 147.

<sup>841</sup> د.ر.ت، 147.

<sup>842</sup> د.ر.ح، 15.

سدول ظلام الليل واختلاط سواد الكروب، فما يلبث الصبح حتى يُشرق بأنوار اللطف الإلهي التي جعلها مُسرحةً لقنديل الصبح - من طريق الاستعارة المكنية -.

ومما أشار إليه في شعره الوعظي نُصحه بأن يلزم الإنسان باب مولاه، وأن لا يُعلق بسواه أملاً، فالأمر بيده بدءاً وختمًا، وما رافق ذلك من حظه على القيام على قدم الطاعات في الليالي استمطاراً للفضل الإلهي، الذي تهب نسائمه في الأسحار، ويخلع الله فيها خلع القبول على عباده الأبرار، نحو قوله بعد أن صوّر شدة الأوقات العصبية إذا ما هي عصت بناجها أبناء الزمان، فاستدعى لتوصيف ذلك المشهد الاستعارة المكنية (تنضض<sup>843</sup> باس)، إذ استعار للباس والشدة وصف الحياة النضاضة السامة التي تُحرك لسانها، ثم لم يُبق إلا على وصفها المُلازم لها - وهو التَنضُّض -، وما الجامع بين العنصرين إلا الأذية واشتداد الإيلام، فهو يهيب بمخاطبه المنصوح إذا ما هو رأى إقبال شدة أو بأس أن يفزع إلى ربه مُنيباً آيئاً، مذيلاً العجز الأخير باستعارة تصريحية جعل فيها الفضل الإلهي بُردةً تنشرها الليالي والأسحار على من وقف بباب العطاء الإلهي قائماً في جوف الدياجي:

وارجع لربك مُعرضاً عن غيره إن مسَّ كربٌ أو تنضضَ باسٌ

وقم الدجا لله واغتم فضله فالفضلُ تنشرُ بُردهُ الأغلاس<sup>844</sup>

وينعطف بمخاطبه ناصحاً له بالإكثار من ذكر ربه ليتنور قلبه بنور الإيمان، ويشبه الذكر بالسراج الذي يستضيء به الذاكرون إذا ما احتلكت عليهم مُدهمات الحياة فيكون مُنقذاً لهم من مصارع الغفلة والتيه عن الصراط السوي، ويُلمح تقييده لهذا الذكر بزينة الإخلاص لوجه المذكور جلّ جلاله، وبهذا يحصل الرضاء والسُرور والأنس بالخالق في الوقت الذي ينفك عن الإنسان أقرب المخلوقين إليه

<sup>843</sup> تحركت الخطوب واشتدت، وأصله من التَنضُّض وهي تحريك الحية للسانها، يُنظر: الجوهري، "نضض"، 1108/3.

<sup>844</sup> د.ت.ب، 57؛ والأغلاس جمع غلس وهي الظلمة التي تكون آخر الليل، يُنظر: أحمد مختار، "غلس"، 1632/2.

ويتركوه وحيداً؛ وفي نُصَحِهِ يُلَحِظُ كَيْفَ اسْتَحْدَمَ أَسْلُوبَ الْإِقْنَاعِ مَعَ الْمُخَاطَبِ لَمَّا بَيَّنَّ لَهُ فَضِيلَةَ الدِّكْرِ فَقَالَ:

نَوَّرَ بِذِكْرِ اللَّهِ قَلْبَكَ مُخْلِصًا فَالذِّكْرُ مِنْهُ لِأَهْلِهِ نِبْرَاسُ  
وَأُنْسٌ بِرَبِّكَ رَاضِيًا بِجَنَابِهِ إِنَّ فَاتَكَ الْخِلَافُ وَالْجُلَاسُ<sup>845</sup>

وَيَبْتَضِخُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ نُصَحَ أَبِي الْهُدَى فِي شِعْرِهِ الْوَعْظِيِّ الْمُنْدَرَجِ تَحْتَ الْإِرْشَادِ فِي الْمَعَامَلَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ شَمَلَ التَّذْكَيرَ بِالْإِتِّزَامِ بِالشَّرِيعَةِ وَالتَّقْوَى وَالرِّضَا بِأَقْدَارِ اللَّهِ وَتَعْلِيقَ الْأَمَالِ كُلِّهَا بِفَسِيحِ فَضْلِهِ وَارْتِقَابِ الْفَرْجِ وَتَحْوِيلِ الْأَحْوَالِ إِلَى أَحْسَنِهَا، إِلَى جَانِبِ تَبْشِيرِهِ بِوَسْعِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَتَذْكَيرِهِ بِوَجُوبِ التَّعَرُّضِ لِنَفْحَاتِهَا بِالْقِيَامِ فِي الْأَسْحَارِ وَمُلَازِمَةِ الْأَذْكَارِ.

### ب المعاملة العامة

وَيُقْصَدُ بِهَا مَا أوردَهُ فِي شِعْرِهِ الْوَعْظِيِّ مِنْ إِرْشَادَاتٍ أَخْلَاقِيَّةٍ تَضْبِطُ مِيزَانَ عِلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِالْآخَرِينَ وَفَقَ مَا ارْتَضَتْهُ الْمَرْوَعَةُ وَالشَّرِيعَةُ الْغَرَاءُ، لِيَمْتَزِجَ أَبُو الْهُدَى فِي هَذِهِ النَّصَائِحِ بَيْنَ خَبْرَتِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، وَبَيْنَ مَا قرَأَهُ مِمَّا تَوَافَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ فِي صَفْحَاتِ كُتُبِهِمْ.

وَيُلْمَحُ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ النَّصَائِحِ - إِذَا مَا تَدَرَّجَ النَّاطِرُ فِيهَا مِنَ الْكُلِّيَّاتِ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ - إِرْشَادُهُ إِلَى أَنْ يَصْطَفِيَ الْإِنْسَانُ فِي صَفُوفِ حَزْبِ الْحَقِّ، وَبِنَبْذِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ، وَلَكِي يُقْنِعَ الْمُخَاطَبَ الْمَنْصُوحَ فَقَدْ اسْتَعْمَلَ التَّشْبِيهَ الضَّمْنِيَّ لِتَنْجَلِي النَّصِيحَةِ فِي ذَهْنِهِ وَتَسْتَقَرَّ، فَشَبَّهَ الْحَقَّ وَحِزْبَهُ بِالنُّورِ وَأَضْدَادَهُم بِالظُّلُمَاتِ، فَقَالَ:

<sup>845</sup> د.ت.ب، 56.

كُنْ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالزَّمِّ حِزْبَهُمْ مَا بِالضِّيَاءِ عَلَى الظَّلَامِ قِيَاسٌ<sup>846</sup>

ومن هذا القبيل قوله:

فاجعلَ الحقَّ طريقًا واستقمَ ليسَ يُعَلِّيَ اللهُ أَهْلَ الزُّورِ قَطُّ<sup>847</sup>

وإلى جانبِ هذا تأكيدُهُ في نُصَحِهِ على ضرورةِ إعمالِ العقلِ ليكونَ لِحَامًا لِشَطْحَاتِ النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا، حيثُ يقولُ مُستخدِمًا أسلوبَ الإطنابِ بالتكرارِ (العقل)، ومُحَلِّيًا له بالجناسِ (العقل/العقال):

واجعلَ نظامَ العقلِ تَهْجَكَ لِلْعَالَا فَالعقلُ لِلإنسَانِ عَيْنُ عِقَالِهِ<sup>848</sup>

وينبثقُ عن هذا كُلهِ إرشادُهُ إلى أن يفهمَ المسلم واقِعَهُ المُحيطَ بِهِ من خلالِ مُتَابَعَةِ أَهْلِ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ في العلمِ بشؤونِ الزَّمانِ وسياساتِهِ، وعدمِ الانجرافِ بما تسيّرُ فيه الدَّهْمَاءُ من العوامِ والجُفَّالِ، حيثُ يقولُ:

وافهمْ شُؤنَ العَصْرِ من علمائِهِ واحذرْ بأنْ تَلُوِيَّ إِلَى جُفَّالِهِ<sup>849</sup>

ومن لزومِ حزبِ الحقِّ وتحكيمِ حكمةِ العقلِ، ينتقلُ أبو الهُدَى إلى ضرورةِ مُعامَلَةِ المُسلمينَ فيما بينهم بالنَّظَرَةِ العادِلَةِ التي دَعَا إليها نبيُّ الإسلامِ بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لا فَضَلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ

---

<sup>846</sup> د.ت.ب، 56.

<sup>847</sup> د.ر.ب، 43.

<sup>848</sup> د.ر.ت، 207.

<sup>849</sup> د.ر.ت، 208.

إِلَّا بِالتَّقْوَى"،<sup>850</sup> فيصوغ من هذا الحديث شعراً يؤكد فيه أن يربأ المسلمون بأنفسهم عن دنيا القومية والعرقية المقيتة، ويذكر بالقاسم المشترك بين جميع الشعوب على اختلاف ألسنتها وألوانها في جميع أصقاع الأرض، ألا وهو دين التوحيد والإسلام، حيث يقول مستعملاً الجنس الاشتقائي (فِرْقٌ/فُرِقَتْ)، والطباق (شرق/غرب، الأعراب/الأعجام):

وسواءً في ساحة الدين عند ال عارفين الأعراب والأعجام  
فِرْقٌ فُرِقَتْ بشرقٍ وغربٍ باختلافٍ والجامع الإسلام<sup>851</sup>

ولا تَقِفُ تلك العدالةُ في النظرة الأخوية بين المسلمين فقط، بل إنَّها تقتضي رعاية حقِّ الإنسانية في عدم احتقار الإنسان لأخيه الإنسان والتعدي عليه وظلمه، فتمَّةً رابطٌ يربطُ بين البشر جميعهم وهو رابطُ الإنسانية التي تعودُ بهم إلى أصلٍ واحدٍ، إذ "النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمٌ مِنْ تُرَابٍ"،<sup>852</sup> ولذلك يُتابعُ أبو الهُدَى في إرشاده مُشيرًا إلى هذه الحقيقة التي أودعها الله في نظام هذا الكون:

وارعٌ حقًّا للآدميين طرًّا أَلزَمْتَنَا بذلك الأحكام  
وافهم السِّرَّ من نظامٍ بديعٍ جَلَّ مُبْدِيهِ زَانَهُ الْإِنْتِظَامُ<sup>853</sup>

وفي موضعٍ آخر يُشيرُ بنصحِهِ إلى طَرِحِ الْكَبِيرِ والنَّظَرِ إِلَى السِّرِّ الْخَلْقِيِّ الْمُوَدَّعِ مِنَ الْخَالِقِ فِي خَلَائِقِهِ إذ "الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ"،<sup>854</sup> فيقول:

---

<sup>850</sup> أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شُعَبُ الْإِيمَان، إعداد: عبد العليّ حامد، (الرياض: مكتبة الرشد، 1423هـ/2003م)، 132/7، (رقم 4774).

<sup>851</sup> د.ر.ت، 230.

<sup>852</sup> البيهقي، الشُّعَبُ، 125/7، (رقم 4764).

<sup>853</sup> د.ر.ت، 230.

<sup>854</sup> البيهقي، الشُّعَبُ، 521/9، (رقم 7045).

وافطن لنظم الخلق وازع كرامة الـ خلاق متحفيها لمخلوقاته<sup>855</sup>

وينادي بحسن الظن في كل المخلوقين من عباد الله، وينصح بمعاملتهم على ظواهرهم وأن توكل سرائر أهل العداوات إلى عالم السرائر الناقد البصير:

واصلح ضميرك للعباد جميعهم وكل العدو لناقد لم يغفل<sup>856</sup>

وإذ لم يزل الكلام على الكليات العامة التي أرشد إليها ناصحًا في شعره الوعظي، فإن مما يُضَمُّ إليها دعوته لحسن الأخلاق عمومًا دونما أيّ تفصيل، كقوله وقد شبه -تشيبيها بليغًا- حياة المرء بالقصة ونصحته بأن يجعل من حسن أخلاقه وفعاله في مسرح الحياة أحداثًا لها، حيث يقول:

أحبب قلبي والمحبة لم تزل تُعطي الحبيب مكانةً ومقامًا

هذي الحياة حكايةً فاجعل لها من طيب الصيت الكريم نظامًا<sup>857</sup>

وتارةً ينصح بكنز ثروة الأخلاق قبل ثروة الأموال فيقول:

أجل تُعلي الخلال<sup>858</sup> المرء قدرًا فقبل الثروة اكتسب الخلالًا<sup>859</sup>

ويُلمح هنا تَلطُّفُهُ في نُصحِهِ لمنصوحِهِ المُخاطَب، عبر مناداتِهِ بأداة نداء القريب (أ) ويزيد على هذا النداء بما يُفيد حُبَّهُ للمُخاطَب (حبيبي)، وكأنه قد اقترب من قلبه فراح يُدنيه ويهمس في روعه مُتَلطِّفًا

<sup>855</sup> د.ت.ب، 14.

<sup>856</sup> د.ت.ب، 85.

<sup>857</sup> د.ت.ب، 96.

<sup>858</sup> جمع واحد الخلة وهي الخصلة، يُنظر: الجوهرى، "خلل"، 1687/4.

<sup>859</sup> د.ت.ب، 14.

به، ليكون بذلك خطاب إرشادٍ الوعظي أرجى في أن تُحمَل هذه الإرشادات على محمل الجد وتُنقل إلى حيز التنفيذ؛ وهذا التلطف بالمنصوح في خطابه لم يكن فقط في هذا الموضع، فقد سار على منواله في جميع شعره الوعظي الإرشادي، وربما استعمل كلماتٍ أخرى تنضمُّ إلى هذه المذكورة آنفاً في التلطف بالمنصوح والرفق به، مثل مُناداته له: "يا حبيبي" "أي حبيبي" <sup>860</sup> "ابن الكرام" <sup>861</sup> "يا ابن وُدِّي" <sup>862</sup> "خلي" <sup>863</sup> "أخي" <sup>864</sup>.

أما إذا ما التفت إلى جزئيات هذا الإرشاد الذي طوي في ثنايا شعره الوعظي، فسيظهر أنها قد تنوعت وتشعبت، فمنها ما كان يدعو إلى مكارم الأخلاق الظاهرة التي تواطأ أهل المروءات على الدعوة إليها وتركية سيرة المُتَحَلِّين بها من كرمٍ وشجاعةٍ وحلمٍ وصبرٍ وإلى ما سوى ذلك من الشيم والشمائل الطيبة، وضمَّ إلى مُقابل ذلك كُله النهي عما يشين المرء من خوارم المروءة وشنائع الأخلاق، ولعلَّ من أكمل الأمثلة على هذا القبيل قوله حاديًا بسامعه للسعي إلى ذرورة مكارم الأخلاق:

واحرصن ببذل المالِ مجدك فهو في لَمَاعِ وجهِ المجدِ نُقْطَةٌ خالِه  
وأفرض جميلك فالسيادة للفتى بجميله الفياض لا بجماله  
وتوق شوم العدر لا تعمل به فالعدر يُدمي أهله بنصاله  
والق الأذى مُتغايًا فأخو المروءة لم يكن يُجري الأذى بخياله <sup>865</sup>

<sup>860</sup> يُظَر: د.ت.ب، 72، 73.

<sup>861</sup> يُظَر: د.ت.ب، 105.

<sup>862</sup> يُظَر: د.ر.ت، 147.

<sup>863</sup> يُظَر: د.ت.ب، 147.

<sup>864</sup> يُظَر: د.ر.ت، 203.

<sup>865</sup> د.ر.ت، 207.

وهذه النَّصَائِحُ تنجلي بصورةٍ بيانيَّةٍ قد تجعلُ من الكلامِ ينعزُّ في أعماقِ السَّمْعِ لينهَضَ للعملِ بها، إذ استعارَ الشَّاعرُ -استعارةً مكنيَّةً مُرَشَّحَةً- للمجدِّ وصفَ الإنسانِ الذي يُرعى ويحمي بحارسِ الكرمِ والجود، ثم عرَّجَ جاعلاً هذا الجود والكرمَ زينةً تزيِّنُ وجهَ إنسانِ المجدِّ وتزيده إشراقاً واستنارةً، وذلك عبرَ جليهِ للتشبيهِ البليغِ ليقرنَ به الكرمَ بنقطةِ الخالِ إذ كلاهما مما يزيِّنُ الوجهَ ويكملُ بهاءَهُ؛ ثم أشارَ إلى فعلِ الجمائلِ ومدِّ الأيدي لفعلِ الخيراتِ وجعلَ منها حقيقةً السِّيادةَ، فالمرءُ بمخبرِهِ لا بمنظرِهِ؛ ولَمَّا نُهيَ عن حُلُقِ العَدْرِ أتى بفعلِ التَّوقِّي لِيُبَالِغَ في نهيهِ عن هذا الخُلُقِ، كما استعارَ له -استعارةً مكنيَّةً مُرَشَّحَةً- وصفَ القوسِ ذاتِ السَّهامِ الدَّاميَّةِ التي ترتدُّ على الغادرِ فتُصيِّبُهُ بمقتلٍ، وذلك إيعالاً منه في تشنيعِ صورةِ العَدْرِ في ذهنِ المُخاطَبِ؛ ثم دعا إلى الصَّبْرِ واحتمالِ الأذى وعدمِ مُقابَلَتِهِ بمثله؛ وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ هذا النُّصحَ من الشَّاعرِ في دعوتِهِ إلى حميدِ الأخلاقِ ونهيهِ عن ذميمها -قد تكررَ مراراً-،<sup>866</sup> ولكنَّ ما يسترعي الانتباهَ أنَّ نُصحَهُ قد امتدَّ ليشمَلَ تقويمَ شخصيَّةِ المُخاطَبِ، فكأنَّهُ يأخذ بيده فيُعَلِّمُهُ السِّباحَةَ في جُحَّةِ بحرِ الحياةِ، أو يصوغُ له بإرشاداتِهِ فُلْكَاً من أساليبِ التَّعاملِ بما يكشفُ له سرَّ التَّجاحِ في دُنياه ويضمنُ له النَّجاةَ في أخراه؛ فمن ذلك قوله:

وإذا نطقتَ فكن حكيماً كَيْسًا      فكمنُ حالِ المرءِ في كلماتِهِ  
واقبضَ زمامَكَ إن جَلستَ بمجلسٍ      لا ترتفعَ بالحَدِّ عن مِرقاتِهِ  
فالمرءُ في حركاتِهِ معروفةٌ      أعراقُ نَبَعَتِهِ وفي سَكَناتِهِ  
ولرُبِّ ذي عقلٍ أعزَّ مُجالِسًا      وأهانهُ للرَّمشِ من لَحَظَاتِهِ<sup>867</sup>

<sup>866</sup> يُنظر: د.ت.ب، 73، 84؛ د.ر.ت، 207.

<sup>867</sup> د.ر.ب، 14.

فنصحه في هذه الأبيات يتعلّق بتقويم أسلوب الحياة، فهو يجلو أمام المُخاطَبِ صورةَ الشَّخصيَّةِ التي تُتَدَي خِصَالُهَا فِي التَّعَامُلِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ، فِيرشُدُهُ إِلَى اخْتِيَارِ طَيِّبِ الْكَلَامِ، وَيُعَلِّلُ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقِيقَةَ أَيِّ إِنْسَانٍ إِذَا تَطَهَّرَهَا أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ، إِنْ حَسَنَتْ فَهُوَ الْحَسَنُ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ، ثُمَّ يَنْصَحُهُ بِضَبِّ نَفْسِهِ وَبِأَنْ يَتَنَبَّهَ إِلَى حَرَكَاتِهِ وَسَكِّنَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ مِنْ أَنْ تَتَجَاوَزَ الْحُدُودَ فِي مَجَالِسِ الرِّجَالِ وَنَوَادِيهِمْ، وَيَهَيِّبُ بِمُخَاطَبِهِ فِي التَّدْقِيقِ عَلَى سَمْتِهِ الَّذِي يَتَعَامَلُ بِهِ مَعَ الْآخَرِينَ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ كَمَنْ عَاقَلَ قَرَبَ آخَرَ وَأَجْلَسَهُ فِي مَكَانٍ رَفِيعٍ لَكِنَّهُ نَزَلَ بِهِ فِي دَرَكَاتِ الْإِهَانَةِ بِنَظَرَةٍ شَزْرٍ أَوْ اشْتِمَازٍ مِنْ طَرَفِ عَيْنِهِ، ثُمَّ انصَرَفَ فِي نُصْحِهِ مُحْتَرِّزًا لِيَقُولَ:

وَابْهَجْ وَلَا تَقْعُدْ ثَقِيلَ الطَّبَعِ فِي دَسْتِ الْغُرُورِ وَخَلِّ أَهْلَ هِنَاتِهِ<sup>868</sup>

فَالانضِبَاطُ الَّذِي حَضَّ عَلَيْهِ فِي نُصْحِهِ قَدْ يُؤَدِّي بِالْإِنْسَانِ إِلَى مَهَاوِي الْانْقِبَاضِ عَنِ الْآخَرِينَ وَطَرَحِ بَسْطِ الْوَجْهِ وَالْبِشْرِ، فَلذَلِكَ حَذَّرَ مِمَّا أَسْمَاهُ "ثِقَلُ الطَّبَعِ" و"الغُرُورِ"، وَقَدْ تَكَرَّرَتْ ذَاتُ النَّصِيحَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ زَيْنَهُ بِالِاقْتِبَاسِ، وَحَضَّ فِيهِ عَلَى التَّوَاضُعِ وَالْبِشْرِ، مُسْتَعِيرًا لَهُ وَصْفَ اللَّبَاسِ، وَمُكَيِّبًا عَنِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ "رَبِّ الْكِسَاءِ"، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ عَابَتْهُ لَمَّا لَمْ يَرَ الْأَعْمَى فِي وَجْهِهِ الْبِشْرَ، فَحَرِيٌّ بِالسَّمَاعِ أَنْ يَتَحَلَّى بِهِ؛ يَقُولُ فِي ذَلِكَ:

وَلِلتَّوَاضُعِ انْتِهَاضِ الْبِشْرِ حُذْهُ كَالْكِسَاءِ

يَزِينُكَ الْبِشْرُ إِذَا نَحَّضْتَ مِنْهُ مَلْبَسًا

قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَبِّ الْكِسَاءِ (عَبَسَ)<sup>869</sup>

<sup>868</sup> د.ر.ب، 14؛ وَهَلَّتَاتِ جَمْعُ مَفْرُودَةٍ هَنَّةٌ، وَيُقَصَّدُ بِهَا الشُّرُورُ وَالْفُسَادُ، يُنظَرُ: أَحْمَدُ مَخْتَارٌ، "هِنُو"، 2371/3.

<sup>869</sup> الصِّيَادِي، نَوَائِجُ الْحِكْمِ، 27؛ وَالِاقْتِبَاسُ الْآخِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: "عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى"، عَبَسَ، 1/80، 2.

وإذا تُعَدِّي ما يتعلّق بالإرشادِ الأخلاقيِّ في جُزئيّاتِ شعره الوعظيِّ، فسُتلمَح النَّصائحُ العامّةُ التي تتناول علاقة الإنسان بَمَن حوله؛ فمن هذا القبيلِ ما نَصَحَ به من الرّوَّاجِ بالمرأةِ الصّالِحَةِ ذاتِ المحتدِ الأصيلِ حيثُ قال:

واقْتَنِ الطَّيِّباتِ إنْ رُمْتَ يوماً لك من زُمرةِ النِّساءِ عيلاً  
رُبَّ زاكِ الأعمامِ أرَداهُ خالٌ فانتخبِ للأبناءِ يا خِلُّ خالاً<sup>870</sup>

فهو يُردِفُ نُصحَهُ بما يُعلِّلهُ ويبيِّنُ سببَ الإرشادِ إليه، فأرشادُهُ إلى اختيارِ المرأةِ الصّالِحَةِ الطَّيِّبَةِ المَنبَتِ، عَلمُهُ بما قد ثَبَتَ عنده بتجربتهِ أو قد يكون من مُطالعاتِهِ من تأثيرِ الطِّباعِ على المخلوقاتِ وتأثيرِ الحَوَولةِ على الإنسانِ، فالأخلاقُ الطَّبَعِيَّةُ تصلُّ من السَّلفِ إلى الخَلْفِ إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ، إذ "النَّاسُ مَعادِنُ والعرقُ دَسَّاسٌ"<sup>871</sup> وقد تَضافَرَتِ العَرَبُ على تأييدِ ذلك كقولِ الزُّبيرِ بنِ العَوَّامِ (ت. 36هـ/656م): "مَن أراد أن يتزوَّجَ امرأةً فليَنظُرْ إلى أبيها وأخيها، فإنَّها تأتيه بأحدهما"<sup>872</sup>، وقال قائلاًها:

إذا كان الطِّباعُ طِباعَ سوءٍ فليسَ بِمُصلِحِ طَبَعًا أديبٌ<sup>873</sup>

فالطِّباعُ تسري إلى الوَلَدِ فثُردِيهِ أو تُعليهِ؛ وتُعَدُّ مسألةَ الطِّباعِ من الأمورِ التي نالت قِسْطًا وإفراً من جُزئيّاتِ شعرِ أبي الهُدَى الوعظيِّ الإرشاديِّ، فكثيراً ما كان ينصَحُ بِمُجانِبَةِ الرَّذيلِ الطِّباعِ ولتَميمِها، فمن هذا قولُهُ وقد مَيَّزَ بين شريفِ الأصلِ والطَّبَعِ وُضدَهُ من رذيلِهما:

<sup>870</sup> د.ر.ت، 205.

<sup>871</sup> البيهقي، الشَّعب، 349/13، (رقم 10469).

<sup>872</sup> الزُّبيرِي، نَسَب قريش، 239.

<sup>873</sup> أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: عبد المجيد قطامش-محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار الجيل، 1408هـ/1988م)، 30/2.

كم عديم من الحطام فخيم ال عرق لم تختطف هواه الحطام

وملّي دني عرق لفلس يجهد العزم كُله إبرام<sup>874</sup>

فهو يُخبر عن أخلاق شريف الأصل والطباع الذي لم تُعش بصيرته بهارج الدنيا وزخارفها، إذ هو - رغم فقره المُدقع - من المُحال أن يتلجج في صدره انبهار بزینتها يدفعه إلى السقوط من بُرج الشرف إلى مهاوي السكر واللهاث وراء سراب جمع حطامها؛ وبالمقابل فإن الرذيل الطباع والأصل يرى رغم غناه لاهثاً وراء أدنى بهرج من بهارج حطام الدنيا - ولو كان فلساً واحداً - يُعمل قوی عزمه جاهداً للوصول إليه، وهو بحالته هذه يصير مدعاةً للسام يملئه كل من حوله لرداءة أخلاقه؛ ومن أجل هذا انعطف أبو الهدي بالمسامع إلى ضرورة مقاطعة دني الطباع، فقال:

وإذا قاطع الكريم لئيم الط طبع عن غير موجب لا يلام

إنما الجذع كيفما هز جذع يا أبا اللب والحسام حسام<sup>875</sup>

وقد أتى بالتشبيه الضمني لتبدو حقيقة ما أرادته من نبد دني الطباع والأصل، فجعل من اللئيم جذع خشب محال أن ينقلب سيفاً بتاراً في حروب الحياة وإن أخذ صورة السيف، بينما يبقى السيف الحقيقي الحديدي على أصله مُهنّداً باتراً في ميادين مواجهة الحياة؛ ويرى أبو الهدي أن دني الطباع غير مستحق لأي مكرمة، إذ دناءة الطبع تجعلها حراماً عليه، فيقول:

وفتي أقام على دناءة طبعه تغدو عليه المكرّمات حراماً<sup>876</sup>

<sup>874</sup> در.ت، 230.

<sup>875</sup> در.ت، 230.

<sup>876</sup> د.ت.ب، 96.

ولم يكتفِ أبو الهُدَى بالتدقيقِ على أهميَّةِ شَرَفِ الحنيدِ، فقد عرَّجَ على ما يُغفلُهُ الكثيرُ من زَكَتِ أصولِهِم وشَرُفَتِ أنسابِهِم، حيثُ إنَّ فِعَالَهُم قَعَدَت بهم في محطَّاتِ العجزِ عن اللُّحوقِ بَدَرِبِ مكارِمِ أسلافِهِم، فاستغنوا بمُفاخَرَةِ الخلقِ بمناقبِ آبائِهِم وأجدادِهِم دون أن يُطالبوا أنفُسَهُم بحملِها على نَهْجِهِم والسَّيرِ على مسيرَتِهِم، فقال أبو الهُدَى مُحاطِبًا سامِعَهُ وناصِحًا له في هذا الخصوص:

وَإِذَا أَتَاكَ فَنِيٌّ بِجَدِّ قُلْ لَهُ      قَالَ النَّبِيُّ لِبَنْتِهِ الرَّهْرَاءِ (اعملي)  
 وَكُنِ الْعِصَامِيَّ<sup>877</sup> الَّذِي لَمْ يُقْصِهِ      عَنْ مَذْهَبِ الْفَضْلَاءِ عَظُمَ قَدْ بُلِي  
 وَإِذَا عَلِقْتَ بِنَسَبِهِ قُرْشِيَّةً      فَاحْمِلِي لِصِحَّتِهَا طِبَاعَ الْكَمَلِ  
 فَدَلِيلُ أَصْلِ الْمَرْءِ حَاصِلُ فِعْلِهِ      وَالْكُلُّ مِنْ حَوْأٍ وَآدَمَ فَاعْقِلِي<sup>878</sup>

فهو ينهضُ بِهَمَّةِ السَّامِعِ أن يتعدَّى نفعُهُ إلى تنبيهِ الخلقِ أيضًا، فضلًا عن نفسه التي بين جنبيه، فيقولُ لَهُ إذا ما أتاك أحدٌ بنسبٍ شريفٍ فاربأً به أن يقفَ مجدُهُ عند هذا الحدِّ، فأشرفُ الخلقِ النَّبِيُّ الأكرمُ عليه السلام قال لبضعته الرَّهْرَاءِ رضوان الله عليها: "اعملي لله خيرًا فإني لا أُغني عنك من الله شيئًا يومَ القيامةِ"<sup>879</sup> ويتابعُ في نُصحِهِ أن يكونَ السَّامِعُ فَعَالًا لا قَوْلًا حُجِبَ بِمآثِرِ أجدادِهِ الذين بليت عِظَامُهُم في التُّرابِ، فإذا ما كانَ الرَّجُلُ شريفًا ينتمي بنسبِهِ إلى الأُرُومَةِ القُرْشِيَّةِ الهاشميَّةِ فعليه أن يُتَمِّمَ الشَّرَفَ بِحُسْنِ الفِعَالِ وَجَمِيلِ الخِلالِ، إذ أصالةُ المرءِ إنَّما يُظهِرُ كُنْهَ حَقِيقَتِها طيبُ الخِصالِ وصالحُ الأعمالِ، وإلا فسيكونَ المرءُ سُبَّةً على نَسَبِهِ وأهلِهِ وأسلافِهِ، إذ لا فرقَ بين النَّاسِ - فالكلُّ ذوو أصلٍ واحدٍ- إلا بما انطَوَّت عليه السَّريرةُ من الإيمانِ وصدَّقتهُ السَّيرةُ من زكِّي الجميلِ والإحسانِ؛

<sup>877</sup> إشارة منه إلى المثل القائل: "كُنْ عِصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا" أي عليك بالفعال الحسنة ودَعَاكَ من الافتخار بعظام الأجداد، يُنظر: الميداني،

الأمثال، 331/2.

<sup>878</sup> د.ت.ب، 85.

<sup>879</sup> الهيثمي، مجمع الزوائد، 49/1، (رقم 147).

ويُكرَّرُ هذا المعنى مرَّةً أُخرى في موضعٍ آخر فيقول حاتماً على حُسنِ السِّيرةِ التي تنشرُ حقيقةَ أصلِ المرءِ:

زَكَ الْأَصُولَ بِكُلِّ فَعْلٍ طَبَّيْ مِنْشُورُ أَصْلِ الْمَرْءِ طَبَّيْ فَعَالِهِ<sup>880</sup>

ومن الجزئيات التي طرقتها في إرشاده الوعظي ما يتعلّق بمفهوم الصديق والصدّاقة، حيثُ أرشد السامع إلى انتقاء الأخيار الكرام صحباً ورفاقاً، والتفت مرَّةً أُخرى إلى فضيلة الأصل الكريم والفعال الجميلة التي يجب أن تتوفر في نوعيّة الأصدقاء، فقال:

واصْحَبْ شَرِيفَ الْأَصْلِ مَصْحُوبَ التُّقَى فَالْمَرْءُ مُنْجَذِبٌ إِلَى أَشْكَالِهِ  
واجْعَلْ صَدِيقَكَ مَنْ إِذَا الزَّمَنُ اعْتَدَى يَأْتِيكَ بَرٌّ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ<sup>881</sup>

فنوعيّة الأصحاب الذين أرشد إليهم هم الأشرافُ أُولو التَّقوى الذين يُقْتَدَى بِفَعَالِهِمْ إِذَا مَا صُحِبُوا، وأمّا الصديق فيجب أن يكون كريماً إذا ما ألّمت بصاحبه المُلّماتُ وأزماتُ الزّمانِ المريعة، فتفيضُ على مَنْ صادَقَهُ غيوثُ أياديه وجمائلُ فعّاله التي كَتَبَتْ عَنْهَا بِقَوْلِهِ (يَأْتِيكَ بَرٌّ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ)؛ فإذا ما حَظِيَ المرءُ بأحدٍ من هؤلاءِ الأخيارِ فإنَّ أبا الهُدَى قد نَدَبَهُ إِلَى التَّمَسُّكِ بِأَذْيَالِهِ وَالتَّبَاعِدِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنَ الْأَضْدَادِ -اللِّئَامِ-، حيثُ يقولُ:

تَمَسَّكَ بِالْكَرَامِ أَحْيَى وَاهْجُرْ لِعَامِ النَّاسِ وَاصْطَنِعِ الرَّجَالَ<sup>882</sup>

<sup>880</sup> د.ر.ت، 207.

<sup>881</sup> د.ر.ت، 207.

<sup>882</sup> د.ر.ت، 202.

ويُلمَحُ في وعظِ أبي الهُدَى الإرشاديِّ انتِهاضُهُ بِهَمَّةِ المُخاطَبِ إلى نشرِ الفضائلِ وتصحيحِ المفاهيمِ، فقد مرَّ آنفاً كيفَ كان يهيبُ بِمُخاطَبِهِ أن يُصَحِّحَ فكرَ الأشرافِ المُتقاعسينِ بالمفاخرِ عن حميدِ الفِعالِ، وهو هنا في هذا الموضعِ يهيبُ به أن يجعلَ بِطانتَهُ الخاصَّةَ من الرِّجالِ الحقيقيِّينِ الكاملينِ أو أن يصطنعَهُمَ لنفسِهِ بإحياءِ معاني الرُّجولَةِ وبتَّها فيهِم، ليكونوا من كَمَلِ الرِّجالِ الذين أشارتِ إليهِم لامُ التَّعريفِ الكَماليَّةِ (الرِّجالا)، إذ ما الرِّجالُ في مفهومِ أبي الهُدَى أيِّ رجالٍ، بل هم من تحقَّقَ بالمكارِمِ وزينِ الشَّمائلِ، وقد يدلُّ على مفهومِهِ هذا ما قالَهُ في قصيدَةٍ أُخرى تؤيِّدُ المعنى المذكورَ:

فانتقِ الحَيِّرينَ صحبًا وحاذِرُ أن ترى أكثرَ الرِّجالِ رجالًا<sup>883</sup>

ويبدو للنَّاظِرِ أنَّ الشَّاعِرَ لَمَّا كان قد اختطَّ لاختيارِ الصَّديقِ خطَّةً دقيقةً فقد حملتُهُ على أن يتَّخِذَ لمنصوبيهِ معيارًا دقيقًا في الحَدَرِ من أهلِ الزَّمانِ وتقلُّبِ أهوائِهِم، التي أدَّتْ إلى قِلَّةٍ من يُصَحِّبُ ونُدرةٍ من يُصادقُ، وكأنَّهُ يعودُ بمعياريهِ عبرَ ذاكرةِ الأيَّامِ إلى ما قاله الفقيهُ أبو إسحاقِ الشَّيرازي (ت. 476هـ/1083م):

سألتُ النَّاسَ عن خِلِّ وِفِّي فقالوا ما إلى هذا سبيلُ

تمسَّكْ إن ظفرتِ بوُدِّ حرِّ فإنَّ الحرَّ في الدُّنيا قليلُ<sup>884</sup>

فإذا كان الشَّيرازيُّ في زمانِهِ قد حَكى انعدامَ الخِلِّ الوِفِّيِّ ونزَلَ إلى رُتَبَةِ البَحْثِ عن حُرِّ يُصادقُ فما وَجَدَ إلا القليلَ الذين راحَ يُنادي بالتَّمسُّكِ بأذيالِهِم ومُلازِمَةِ مودَّتِهِم؛ فكيفَ بأبي الهُدَى الذي جاءَ بعَدَهُ بقرونٍ! إذ لا شكَّ من أن يكونَ لَهُ شأنٌ آخَرُ في رحلَةِ البَحْثِ عن الصَّديقِ الوِفِّيِّ، وقد تُلَمَّحُ

883 در.ت، 205.

884 السَّمعاني، الأنساب، 174/1.

في طيِّ إرشاداته الشَّعْرِيَّةِ الوَعْظِيَّةِ، سطورٌ تحكي هذه التَّجْرِبَةَ البَحْثِيَّةَ المُضْنِيَّةَ في طَلَبِ الوَفِيِّ من الأصدقاء في زمانه، حيثُ يقولُ أبو الهُدَى بلسانِ ناقدٍ نقدَ زيفَ معادِنِ النَّاسِ واستبانَ ذَهَبَهَا الصِّرْفِ من بَهْرَجِها، مُضَمَّنًا نُصْحَهُ أسلوبَ الإطنابِ بالتَّكرارِ (الزَّمان):

النَّاسُ خِلالَ الزَّمانِ ولم يَجِدْ أَنَا على رِغَمِ الزَّمانِ رَفيقًا  
أُمِّمُ تَوْمُكَ لِلزَّمانِ وربما جعلوا رَحيقَكَ لِلزَّمانِ حَريقًا  
فارفقَ بِنَفْسِكَ لا تكن لَكَ خادِعًا وتخوضُ بحرًا بالعِنادِ عميقًا<sup>885</sup>

وها هنا تبرزُ تجربته في رحلَةِ البَحْثِ عن الرِّفيقِ، حيثُ وَجَدَ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا هم أصدقاءُ الوقتِ والحاجة، يَلْتَفُونَ حَوْلَ الشَّخْصِ لِمَا رَبَّ وَقْتِيَّةً، حتى إذا ما انقضت تلك المآربُ ارتدُّوا على أَدبارِهِم ناكِصين مُنكرين لِلْمُتَجَمِّلِ وَجَمِيلِهِ، ويا ليتهم اكتفوا بصمتٍ أو إنكارٍ لِلجَميلِ فحسب، بل إنَّهم يردُّون الإحسانَ بالإساءةَ وَالجَميلَ بالقبيحِ، حيثُ عَبَّرَ عن ذلك -مُسْتَعْمِلًا الجِناسَ- بِرِدِّ الرَّحِيقِ بِالْحَرِيقِ، ومن أَجْلِ هذا فقد التَّفَّتْ بِإرشادِهِ إلى السَّامِعِ لِيستفيدَ من تجرِبته قائِلًا له: احذر أن تغتَرَّ بَمَن يُصَفِّقُ لَكَ مِن حَوْلِكَ ولا تنخدعَ بالمظاهرِ البَرَاقَةِ فتغرقَ في بحرٍ من الأوهام؛ وإذا ما كان حالُ الزَّمانِ وأهلِهِ على هذه الصِّفَةِ فعند ذلك ستشربُّ النَّفْسُ المُتَلَفِّيَّةُ لِلنُّصْحِ بِمِسامِعِها إلى الحِلِّ الأَنْجَعِ في التَّعامُلِ معهم، فعندئذٍ يَطْرُحُ أبو الهُدَى ذلك الحِلَّ ليقولَ ناصِحًا:

قَلِّدْ أُولِي التَّقْوَى فَصاحِبُهُم لَقَدْ يُرَجَى لَهُ تَقْلِيدُهُ تَحْقِيقًا  
واضْمِرْ لِكُلِّ النَّاسِ خَيْرًا وانْتَبِهْ لا تَتَّخِذْ غَيْرَ الكِرامِ رَفيقًا<sup>886</sup>

885 د.ر.ح، 12.

886 د.ر.ح، 13.

فهو ينصح بما يراه حلاً عنده، وهو تطهير ساحة القلب بإضمار الخير لجميع الناس، مع أخذ منتهى الحذر، والتّركيز مرّة أخرى على صُحبة كرام النّاس وأشرفهم، وبذلك تبدو النّصائح وكأنّها تندرج نزولاً عبر العصور، ففي عصر الشّيرازيّ نُزل من مرتبة الخلّ الوفيّ إلى الحرّ، وبالوصول إلى عصر أبي الهدى نُزل من مرتبة الحرّ إلى مرتبة الرّجل ذي الأصل الكريم، وفي البيت الأوّل تكرارٌ للمعنى الذي ورد على لسان أستاذه الرّوّاس لمّا قال:

فقلِّدِ القومَ يا هذا بسيرتهم فكم وكم جرّ للتقليد تحقيق<sup>887</sup>

إذ كلاهما يرى تقليد المتّقين في أخلاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم مدعاةً تجرّ إلى التّحقّق بما كانوا عليه حتى يكون سجيّةً في الإنسان، فإنّما "العلم بالتّعلّم والحلم بالتّحلّم"،<sup>888</sup> وبذلك نطق الذي لا ينطق عن الهوى عليه السلام.

ومن النّصح بصُحبة الكرام، ينتقل أبو الهدى ليُرشد بنصحِهِ إلى كينيّة مُعاملة الطّعام من الدّهماء والرّويضة، فلا يرى الهوادة مسلّكاً في مُجابّتهم وقرايعهم، بل يسمو بالسّامع المُخاطب لكي يُجرّد سيف عزمه وعزيمته في قرايعهم، ومن هذه الشّاكلة قوله وقد قيّد بالشرع الحنيف الانتصار حتى يكون به وله:

وإذا حوربت فابز أسداً واحذر الجبار أن يسألَكَ  
حكّم الشرع بما تقضي به واجعلن مذهبه مذهبَكَ<sup>889</sup>

<sup>887</sup> الرّوّاس، ديوان مشكاة اليقين، 99.

<sup>888</sup> البيهقي، الشعب، 236/13، (رقم 10254).

<sup>889</sup> د.ت.ب، 73.

وتارةً يُرى قد رَجَحَ بنصِحه وجهًا آخر من وجوه الانتصار وحثَّ عليه، وهو مُعاملةُ الخصم بالارتفاعِ عنه بالأخلاقِ العليَّة، بعد أن استعارَ لها وصفَ القوسِ الضَّاربةِ لسهامِها في كِبِدِ الخصمِ - من طريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة-، ثم أشارَ إلى تَحْيُنِ السَّاعةِ المُثلى للثَّارِ من الخائنين، فقال:

وإذا رأيتَ الخصمَ فَوِّقَ نَحْوَهُ من قوسِ عاليةِ الطِّباعِ سِهَامًا  
واسهرَ لأخذِ الثَّارِ من مُتَلَصِّصٍ خَبٍ بِأَثوابِ الخيَّانةِ قَما<sup>890</sup>

ورغمَ تَلَبُّدِ سماءِ الزَّمانِ بغيومِ الغدرِ والتَّلصُّصِ ودعوةِ الشَّاعرِ إلى وجوبِ التَّيقُّظِ وأخذِ الحذرِ من النَّاسِ، فإنَّ هذا لم يُنْسِه إرشادَ السَّامِعِ إلى مَدِّ يدِ العونِ والنَّفْعِ للنَّاسِ أجمعين، على قدرِ الإمكانِ وجهدِ الطَّاقةِ، وغضِّ طرفِ العينِ عما سوى الكمالِ، حيثُ يقول:

صِرْ للورى إن ساعدَ الإمكانُ نَفْعًا شامِلًا وتسودُ في أبطالِه<sup>891</sup>

ويحضُّ مرَّةً أخرى على فعلِ الجميلِ، واصطناعِ البرِّ الذي كَتَى عنه بالأيدي، فأصلُ المعاملةِ ليست مع النَّاسِ وإنما هي مع ربِّ النَّاسِ، وهو ما دَفَعَهُ إلى تشبيهِ أفعالِ المعروفِ بالودائعِ التي تُستودَعُ عند ربِّ العالمين ولا بدَّ للودائعِ من أن تُردَّ بفيضٍ من الإكراماتِ الإلهيَّة من المودِعِ تبارك وتعالى الذي لا تضيع عنده الودائعُ، حيثُ يقول:

ولا تقصُرْ جميلَكَ فالأيادي ودايِعُ حضرةِ الباري تعالى<sup>892</sup>

<sup>890</sup> د.ت.ب، 96.

<sup>891</sup> د.ر.ت، 208.

<sup>892</sup> د.ر.ت، 202.

وهكذا يتضح أنّ نصائح أبي الهدى في شعره الوعظي المتعلق بالمعاملة العامة بين الإنسان ومن حوله أولت اهتمامها بجوانب متعدّدة، كانت منها الكليّة التي أشار فيها إلى لزوم حزب الحقّ وتحكيم حكمة العقل والعدالة والتّحليّ بعموم محاسن الأخلاق والشّمائل، كما كان منها الجزئية التي خصّصت بالدعوة إلى مكارم الأخلاق بتعيينها والنهي عن ذمّيتها، ومرّت على الثوب المثاليّ الذي يراه الشاعر رداء التّجّاح في العلاقة بالنّاس، ويضاف إلى هذا ما ركّز عليه من أهميّة الطّباع الإنسانيّة وما لها من تأثير على تصرّفات المرء، إلى جانب ما أرشد إليه من مفاهيم الصّدّاقة والصّديق عبر تجربته التي عاشها في عصره.

## ج التّصوّف

قد مرّ في جزئيّات نصّح أبي الهدى في شعره الوعظيّ دعوته إلى مجابهة الدّهماء والرّويضة المتلصّصين بلا هوّادّة ولا لين، ويبدو أنّه قد جهّد في تطبيق ذلك النّصح على نفسه، ويظهر هذا جليّاً فيما سطره في نظمه مما يتعلّق في التّصوّف؛ حيث يرى نصّحه الصّريح لكلّ من انتسب إلى هذا المنهج.

وإنّ مما تجدر الإشارة إليه هو أنّ نصّح أبي الهدى المتعلّق بالتّصوّف وأهله كان قطعة شعريّة ذات وجهين، نُقش في وجه صفحتها الأولى ما يجلو للمطالع حقيقة التّصوّف في نظر أبي الهدى الذي يدعو بنصحه إليه، وأمّا الصّفحة الأخرى فقد نُثّر في أطرافها انتقاده للمظاهر التي رآها من حوله من الأدعياء الذين لم يسيروا وفق ما اختطّته مسيرة السّلف الأوائل الذين يراهم الشّاعر أهل التّصوّف الحقيقيّ.

وقد كانت بداية النصح في تعيين الطريق الصحيح الذي على المرء أن يسلكه، فهو يراه  
متمثلاً بالتحقق بالشريعة العزاء الحمديّة والتحلّي بالفضائل وإصلاح القلب، حيث يقول من قصيدة  
تخللتها عدّة نصائح كان من جملتها تعيين منهج السلوك:

واجعل سلوكك في الطريق تحقّقاً بشريعة المدثر المزمّل

واطلب بفضلك منتهى ما ترجي وانح بقلب خاشع متوكّل<sup>893</sup>

وينعطف في موضع آخر مُستخدماً أسلوب القصر الحقيقي بجعل الطريقة الحقّة مقصورةً على اتباع  
سنة المصطفى عليه السلام، وما جلته من حقائق ورفائق نُقلت كابرًا عن كابرٍ من لدن الصحابة والتابعين  
وأتباعهم من السلف الصالحين، ويراها أبو الهدى قد حُفظت جيلاً بعد جيلٍ مُتسلسلةً من مُتّقٍ عن  
مُتّقٍ من أهل العلم والمعرفة لتكون فيصلاً به يميز العقلاء بين الحقّ والباطل:

واعمل بسنة أحمد خير الورى فهي الطريقة والضلال سواها

وبها تسلسلت الأسانيد التي بعض الثقة العارفين رواها

وجلت لأهل الدين نصاً صادقاً من رده بالمنكرات تلاهى

وعليه قد درج الصحابة كلهم والتابعون ومن أحبّ الله<sup>894</sup>

والمُطلّع على هذه الأبيات قد تنجلي أمامه بوضوح تامّ نظرة أبي الهدى إلى التصوف وما يُسمى  
بالطريقة؛ إذ قصر تعريفها على أنه اتباع السنة الحمديّة وذلك لما عرّف طريق الإسناد في الجملة  
الإسميّة - (هي الطريقة) - وقد تفصّد سوق التعريف بتركيبها ليزيد من تأكيده ثبوت هذا المعنى عند  
المُتلقي لهذا النصّ ولكي يُرسّخه في ذهنه مُعلّياً من شأنه، ثم أتى بالإطناب بطريقة الطرد والعكس

<sup>893</sup> د.ت.ب، 85.

<sup>894</sup> د.ت.ب، 127.

فساقَ قوله (والضلال سواها) ليؤكد تعريفه للطريقة، إذ منطوق الجملة الثانية أفاد أن ما سوى هذا التعريف هو الضلال، بينما أكد مفهومها أن الحق هو التعريف المذكور - الاتباع للسنة السنينة -؛ وبانجلاء نظرة أبي الهدي للمطلع فقد تُفسر نصائحه التي وُجِّهت للمخاطبين التي يمكن أن تكون أقرب إلى النقد منها إلى النصح رغم اندراجها ضمن غرضه، ولعل الانحراف الذي نخر في جسد التصوف في عصر الشاعر كان مدعاةً إلى نصحه لمخاطبه وتبينه له الوجه الحق من بين الوجوه الزائفة المدعية الجاهلة، إذ يتابع أبو الهدي هذه الأبيات السابقة، بأبيات أخرى تُبين كثرة الدخلاء على منهج التصوف، من الذين خالفت أقوالهم وأفعالهم الشريعة الغراء، فكانوا من المحدثين المبتدعين في الدين الذين نصبوا فخاخ الاحتيال ليخدعوا بزورهم ومعسول أقوالهم البلهاء والجهلاء من عوام المسلمين - على حد زعمه -؛ ويمكن أن تُعد هذه الأبيات تصويرًا من الشاعر يشهد على الفساد الذي استشرى في مدعي التصوف في زمنه، حيث يقول:

كم قد تصوف مُحدثٌ في ديننا      وأتى لبث الزيف يرصدُ جاهًا  
ورأى مخالفة الرسول طريقةً      جهلاً وظنَّ بأنه يرضاهَا  
شَبَكَاتُ سَفْسَطَةٍ يُصَادُ بِمِثْلِهَا      قَوْمٌ جَهْلُهُا أَعْمَاهَا  
جاءت تقولُ بوحدةٍ مردودةٍ      نصُّ الشريعةِ والكتابُ أباهَا<sup>895</sup>

ويُلحظُ في البيت الأخير نبذُه للاعتقادِ المردود الذي يُسمى بوحدة الوجود؛<sup>896</sup> وإذا كان حال التصوف على ما قد صوره من جهلٍ وانحرافٍ وبدعٍ، فلا غرو أن يأخذ بنصحه مخاطبه إلى جادة الطريق الصحيح والصراط السوي، فينصحه بأخذ طريقته ومنهجه في السير إلى محطات النجاة في

<sup>895</sup> د.ت.ب، 128.

<sup>896</sup> وهو قائم على جعل وجود الخالق عين وجود المخلوقات، يُنظر: محمد بن علي الشوكاني، الصوامر الحيداء القاطعة لعلائق أرباب الاتحاد، تحقيق:

محمد صبحي حلاق، (صنعاء: دار الهجرة، 1411هـ/1990م)، 61.

الآخِرَةَ مِنْ مَعِينِ شَرِيعَةِ الْهَادِي الْبَشِيرِ، وَطَرَحَ كُلِّ مَا عَدَاهَا مِنْ تَزْوِيقِ الْمُدَّعِينَ وَتَزْوِيرِ الْمُضِلِّينَ،  
وَذَلِكَ بِتَحْقِيقِ الْعِبُودِيَّةِ الْخُلُصَاءِ لِلْمَوْلَى سُبْحَانَكَ وَقَمَعَ حِظْوَةَ النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا، حَيْثُ يَقُولُ:

دَعُ جَهْلَ مَنْ ضَلَّ الطَّرِيقَ وَتَاهَا وَخَذِ الطَّرِيقَةَ مِنْ شَرِيعَةِ طَه  
وَاقْطَعِ حَبَالَ الزُّورِ وَالِدَّعْوَى وَكُنْ عَبْدًا نَأَى عَنِ نَفْسِهِ وَهَوَاهَا<sup>897</sup>

وهو لا يفتأ ينصحُ المُخاطَبَ بأن لا ينخدعَ بالفخاخِ التي ينصبها المدَّعون ليصيدوا النَّاسَ بها من  
مظاهرِ حِدَاةٍ تُعشي أبصارَ الناظرين فينقلبوا مُعْتَرِينَ بها من ارتفاعِ بناءٍ أو تزويقِ منطِقٍ وكلامٍ أو  
تَزْيِيٍّ بلباسٍ مُعَيَّنٍ، إذ كُنْهُ حَقِيقَةُ الْأُمُورِ بِالْجَوْهَرِ وَليْسَ بِالْمَنْظَرِ؛ وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ وَقَدْ أَرْشَدَ إِلَى  
عَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِالْأَزْيَاءِ وَالْإِنْجَابِ بِالشَّكْلِ الظَّاهِرِ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَعْنَى:

فَكُنْ يَا ابْنَ الْكِرَامِ مَتِينٌ دِينٍ وَلَا تَغْفَلْ بِزُهْوِ الطَّيْلِسانِ<sup>898</sup>

وَيَنْصَحُ الْمُخاطَبَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِطَلْبِ الْعِلْمِ الَّذِي يُعْلِي جِدَارَ شَرَفِ الْإِنْسَانِ وَمَجْدِهِ فَتَسْمُو بِهِ  
حَقِيقَتُهُ، فَهُوَ يَرَى أَنَّ الْبِنَاءَ الْحَقِيقِيَّ لَا بَعْلُو الْجُدْرَانِ وَارْتِفَاعِ الْمَبَانِي الْمَشِيدَةِ وَإِنَّمَا بِمَا كَتَبَ عَنْهُ تَعْظِيمًا  
وَإِجْلَالًا وَتَفْخِيمًا بِالْمِزْيَةِ الَّتِي لَمْ تُجْهَلْ وَلَعَلَّهَا التَّقْوَى، حَيْثُ يَقُولُ:

وَأَطَّلْ جِدَارَكَ لِاقْتِنَاءِ شَوَارِدِ الْعِلْمِ الَّذِي يُدْنِيكَ لِلشَّرَفِ الْعَلِيِّ  
مَا الْمَجْدُ بِالْحَجَرِ الرَّفِيعِ بِنَاؤُهُ لَكِنَّهُ بِمِزْيَةٍ لَمْ تُجْهَلِ  
وَإِنْظُرْ بَعِينَ الْإِعْتِبَارِ جَمِيعَ مَا أَبْصَرْتَهُ وَاهْجُرْ طَرِيقَ مُعَقَّلِ<sup>899</sup>

<sup>897</sup> د.ت.ب، 85.

<sup>898</sup> د.ت.ب، 105؛ وَالطَّيْلِسانِ وَشَاخٌ أَخْضَرٌ أَوْ كَسَاءٌ يَضَعُهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْمَشَائِخِ عَلَى أَكْتافِهِمْ، يُنظَرُ: أَحْمَدُ مَخْتَارٌ، "طَيْلِسَانَ"، 1432/2.

<sup>899</sup> د.ت.ب، 85.

ويتبيّنُ مما سبق أن نُصحَ أبي الهُدَى الذي تعلّقَ بالجانبِ الصُّوفيِّ كان قد أُجْمِلَ في الدَّعوةِ إلى اتِّباعِ السُّنَّةِ والشَّريعةِ والتَّحذيرِ من أعرَضَ نائِها عنها في دروبِ الضَّلالةِ، كما ضمَّنَ شِعْرَهُ التَّحذيرِ من الاغترارِ بالمظاهرِ الخداعةِ والأفكارِ الهدامةِ التي استشرت في متصوِّفةِ زمانِه.

## 2 التَّرهيدُ بالدُّنيا

والمراذُ به معناه اللُّغويُّ الذي هو خلافُ التَّرجيبِ بها<sup>900</sup>-الدُّنيا-، وكثيراً ما يبرزُ شعْرُ التَّرهيدِ عادةً في الأوقاتِ التي يطغى فيها تيارُ الانكبابِ على اللُّهو والاغترارِ بمتاعِ الدُّنيا والانشغالِ بمشاغليها عن الآخرةِ، أو شيوعِ التَّقصيرِ في الطَّاعاتِ والهجومِ على المخالفاتِ، فعندئذٍ تنطقُ في المجتمعِ ناطقةُ ألسنةِ الوعظِ لتجلو للنَّاسِ حقيقةَ زوالِ الدُّنيا وفنائها وتقلُّبِ أحوالها.

وقد وجدَ التَّرهيدُ طريقَهُ في وعظِ أبي الهُدَى من خلالِ أكثرِ من محورٍ حاولَ المرورَ عليه، وقد كان من أوَّلِ المحاورِ محورُ التَّنبيهِ على الغفلةِ عن حقيقةِ تحوُّلِ أحوالِ الدُّنيا وتقلُّباتها بأهلها خفصاً ورفعاً، حيثُ تابعَ أبا يعقوبَ الحُرَيْمِيَّ (ت. 212هـ/ 827م) القائِلَ:

لعمركُ ما الدُّنيا بدارٍ إقامةٍ ولكنَّها دارٌ انتقالٍ لمن عَقَلَ<sup>901</sup>

فأحقَّ بها قطعةٌ أودعها استعارةً تصریحیَّةً جعلت من حُلُقِ التَّعالي عن الحقائقِ ميلاً تكتحلُّ به عينُ بصيرةِ الغافلِ فيصيرُ أعشى عن حقيقةِ الأيامِ الحُبلى بمخفيَّاتِ شؤوناتِ القضاةِ التي لا يُحيطُ بها خيالٌ مُتخيِّلٍ، حيثُ يقولُ مُتحدِّثاً عن حقيقةِ الدُّنيا التي لا يقرُّ لها قرارٌ:

<sup>900</sup> يُنظر: الجوهری، "زهد"، 481/2.

<sup>901</sup> الأصفهانی، محاضرات الأدباء، 394/2.

وقد تصرعُ الأيامُ صرعةً غادِرٍ      غفولاً بأميالِ التَّعالي قد اكتحلَ  
تُقيمُ شؤوناً لم تُحَيَّنْ لعاقِلٍ      ويقصرُ رغم المرءِ في طولِه الأمل<sup>902</sup>

ويروحُ تارةً أخرى مؤكِّداً للمعنى السَّابِقِ ومُبرِّزاً له بصورةً بيايئةً أخرى، مُستدعيًا التَّشبيهِاتِ البليغةَ البديعةَ، حيثُ شَبَّهَ حكمَ القَدَرِ الإلهيِّ الأزليِّ بالقيدِ الذي كُتِبَتْ به كلُّ أصنافِ البريَّةِ، فكما كانَ المُقيَّدُ لا ينفكُ من قيدهِ المُكبَّلِ به فكذلك الوري لا فرارَ لهم من أقدارِهِم المكتوبةِ عليهم، هذه الأقدار التي لكلِّ منها وقتٌ وإبَّانٌ، ثم راحَ يُشَبِّهُ تلكَ الأوقاتِ بالقَدَرِ التي يُطَبَّحُ فيها، ليجمع بهذا التَّشبيهِه البليغَ بين مثالِ القَدَرِ التي تُحَضَّرُ فيها الموائدُ، ومثالِ المواقيتِ التي تُحَصَّرُ في ثناياها الأقدارُ، فتنجلي ليأخذ كلُّ نصيبه المُقدَّرُ عليه؛ ثم استعارَ -استعارةً تصريحيَّةً- لتقلُّباتِ الأحوالِ وتغيُّراتها لفظةَ المسك ليجعلَ منها العطرَ الذي كتبَ اللهُ أن يُضَمَّحَ به جميعُ مخلوقاتِهِ، فقال:

فإمَّ<sup>903</sup> الوري في قيدِ حُكْمٍ لأجلِها      موائدُ في قَدَرِ المواقيتِ تُطَبَّحُ  
تُعَيَّرُها الأيامُ حالاً ومشهداً      فكلُّ بِمِسْكِ الانقلابِ مُضَمَّحٌ<sup>904</sup>

ويُلحِظُ في تبيانِهِ -مُرَهِّداً- لحقيقةَ الدُّنيا اهتمامهُ بجلبِ الصُّورِ والتَّشبيهِاتِ التي قد تُحَفِّزُ من ذهنِ المُسْتَمِعِ فتجعله يُبادِرُ إلى قبولِ الحقيقةِ المطروحةِ في هذا الوعظ؛ فها هنا لَمَّا جعلَ من الأقدارِ موائدَ تُطَبَّحُ في قَدَرِ الأيامِ، فقد أشاعَ في نفسِ المُتلقِّي إدراكاً عميقاً لهذه الحقيقةِ، فكما أنَّ حياةَ الإنسانِ مُتلازمةٌ مع الطَّعامِ والشَّرَابِ، فإنَّ حياته مُتلازمةٌ مع تقلُّبِ تلكَ الأقدارِ فلا بُدَّ أن يتناولَ نصيبه منها. ولربَّما مثَّلَ لحقيقةَ الدُّنيا بما قد مرَّ في مُطالعاتِهِ واستقراءاتِهِ للتَّاريخِ من عدمِ خلوصِ

<sup>902</sup> د.ر.ح، 102.

<sup>903</sup> الجماعات، يُنظر: ابن دُرَيْد، "فمي"، 972/2؛ ابن منظور، "فم"، 447/12.

<sup>904</sup> د.ر.ت، 72؛ ومُضَمَّحٌ من التَّضَمُّحِ وهو التَّنَطُّحُ بالطَّيبِ، يُنظر: الجوهري، "ضمخ"، 426/1.

صفائها وهنائها للطاهرين من النَّاسِ وهم آل البيت النبويِّ وأمهم الزَّهراءُ البتول رضوان الله عليهم أجمعين، فهذا هو يهمسُ في الآذانِ أن حريُّ بَمَنْ يتأمل سيرهم وتَعكَّرُ أيامهم أن لا يخلدَ إلى متاعِ الدُّنيا الرَّائِلة التي تتقلَّبُ أيامها مُسرعةً كطيفِ الخيالِ، وإنَّ مَنْ يظنُّ الخلودَ والبقاءَ فيها فقد توهمَ ضرباً من الخيالِ شَبَّهَهُ تشبيهاً بليغاً بالخبالِ<sup>905</sup> - بعد أن حدَفَ وجه الشَّبه (مُخالفة العقل والحقيقة) - وقد أتى الشَّاعرُ بفعلِ المُعاركةِ ليشعرَ بالتَّكْدِ والكَبْدِ الذي يُعانيه مَنْ يعيشُ غَمراتِ أيَّامِ الحياة، التي شَبَّهَ أيَّامها برمشةِ العين، حيثُ يقول مُضَمِّناً لأبياته الجناسِ النَّاقص (خيال/ خبال، تمثَّل/ مثالها)، وطباق الإيجاب (قصاراً/ طولها):

خيالُ البقا فيها خبالٌ وإمَّا      تمثَّلَ للأبصارِ وهما مثالها  
تُعَارِكنا أوقاتها وهي رَمْشَةٌ      من العينِ إذ تجري قصاراً طولها  
ولو كانَ فيها للمسرَّةِ منزعٌ      لَسرَّ بها الطُّهُرُ البتولُ وآلها<sup>906</sup>

ومن جملةِ المحاور التي دارَ عليها وعظَّ أبي الهُدَى التَّزهيدِيُّ ما قامَ به من الالتفاتِ إلى مُخاطبةِ المُغتَرِّبِين الذين ألْهَاهُم الانغماسُ في سَكْرَةِ دُنْيَاهُم عن إقامةِ أمورِ دينهم، علَّ بِمخاطبتهِ لهم أن تنقشِعَ عن بصائرهم غيومُ الوهمِ والغفَلاتِ، فمن هذا القبيلِ قوله مُخاطباً لمن غَرَّه إمهالُ ربِّ العالمين فظنَّه - جهلاً منه وغفلةً - إمهالاً حيثِ راحَ غيرَ عابئٍ بأوامرِ مولاهُ يُحَرِّبُ دينه لأجلِ دُنْيَاهُ:

حَرَّبْتَ دينَكَ للدُّنيا وعن طَمَعٍ      طَمَّتَكَ من حيثِ لا تدري البليَّاتُ  
قد غَرَّكَ اليومَ إمهالُ رَتَعَتَ بِهِ      هَوَّنَ عليكِ فللإمهالِ أوقاتُ  
تبغي البقاءَ بذِي الدُّنيا اتَّعِظْ وَأَفُقْ      هل للبقاءِ الذي تبغي علاماتُ<sup>907</sup>

<sup>905</sup> الخبال مُرادفُ الخَبَلِ والخَبَلُ وهو الفسادُ والجنون، يُنظَرُ: الجوهري، "خبل"، 1682/4؛ ابن منظور، "خبل"، 198/11.

<sup>906</sup> د.ت.ب، 124.

<sup>907</sup> د.ر.ت، 55.

فهو يُخاطِبُهُ ويحاولُ بمخاطَبَتِهِ إيقاظَ شعورٍ قد وأدتهُ سكرةُ محبةِ الدنيا، فينادي عليه بالاعتِاظِ والإفاقة من نومةِ العَقَلاتِ ووهمِ الخلودِ في دارِ الفناء، ويتساءلُ -مُوجَّحًا مُفَرِّعًا- عما رآه هذا المُعْتَزُّ من إشاراتٍ جعلتهُ ينسى الموتَ ويتوَهَّمُ خيالَ البقاءِ (هل للبقاءِ الذي تبغي علاماتُ؟)؛ ويستطرِدُ في تساؤلاتٍ أُخرى يُثيرُها في نفسِ المُخاطَبِ لِتَحَرِّكٍ فيه شيئًا من الاعتبارِ والتدكُّرِ والتَنَبُّهِ، حيث يقول مُستَعْمِلًا التَّسْجِيعِ (كانوا/فبانوا):

أين النَّبِيَّونَ طُرًّا أين آدَمُهُمُ أين الملوكُ الألى أين الكَتِيباتُ  
كانوا فَبانوا فلم تُبَصِّرْ أَمَّا كِنُهُمُ كَأَتَمُّ قَبْلُ لا جاؤوا ولا ماتوا<sup>908</sup>

وبسوقه لأسلوب الإطنابِ عبرَ تكراره لأداة الاستفهام (أين) أكثرَ من مرّةٍ حرصٌ منه على أن تتأكَّدَ في ذهنِ مُخاطَبِهِ حقيقةُ فناءِ الدنيا وزوالها بما حوته من بهارجِها الخداعة، إذ طَوَّتْ يدُ الفناءِ الملوكَ الجبابرةَ والجيوشَ الجرارةَ وفئامًا من البشرِ جاءتِ ثم سارتِ عابرةً إلى قدرها من الموتِ المحتوم، فكأنَّ الشاعِرَ يستثيرُ في أعماقِ المخاطَبِ الاعتِاظَ وأخذ العبرةَ ممن جاءَ قبلَهُ من الأممِ السَّابِقَةِ وسَبَقُوهُ- على اختلافِ طبقاتهم- إلى عالمِ الفناء؛ ويكرِّرُ ذاتَ الأسلوبِ في موضعٍ آخر، ثم يصل به المطاف إلى أن يقول مُشَبِّهًا -تشبيهاً مُرسلاً مُجملاً- الدنيا الفانية بالخيالِ، ثم يعطفُ بأسلوبِ القصرِ -عبر استخدام الأداة (بل)- مُشَبِّهًا حقيقتها -تشبيهاً بليغاً- بالظلالِ الرَّائِلَةِ:

في الدَّهرِ موعظةٌ للمرءِ كافيةٌ إنَّ حَلََّ في قلبِهِ فهمٌ وإيمانُ  
مثلُ الخيالِ وبل عينُ الظلالِ فما لدارِ دُنيا امرئٍ ركنٌ وئيبانُ<sup>909</sup>

908 د.ر.ت، 55.

909 د.م.ش، 194.

وَيُضَمُّ إِلَى مَحَاوِرِ التَّرْهِيدِ الوَعْظِيِّ فِي شِعْرِ أَبِي الهُدَى مَا عَرَّجَ إِلَيْهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى إِعْدَادِ الزَّادِ  
مِنَ دَارِ الفَنَاءِ إِلَى دَارِ البَقَاءِ، الَّتِي أَوَّلُ مَنَازِلِهَا حُفْرَةُ القَبْرِ، فيقول:

وَاعْمَلْ لِقَبْرِكَ إِنَّهُ البَيْتُ الَّذِي بِالصَّالِحَاتِ يُرَى بِهِ الإِنْسَانُ<sup>910</sup>

وَالقَبْرُ هُوَ المَحْطَّةُ الَّتِي يَنْزِلُ عِنْدَهَا جَمِيعُ القَادِمِينَ مِنَ عَالَمِ الفَنَاءِ فيجْمَعُهُمُ التُّرَابُ بِمَنْزِلَةٍ تَتَّحِدُ المَرَاتِبُ  
عِنْدَهَا، وَيتساوى فِيهَا المَلِيكُ وَالمَمْلُوكُ وَالأَنْدَادُ وَالأَضْدَادُ:

وَالكُلُّ فِي بَحْرِ المَعَا مَعَ لِلْفَنَاءِ المَحْضِ صَائِرٌ

فَلدى التُّرَابِ تَسَاوَتْ أَلْأَشْبَاهُ طُرًّا وَالنَّظَائِرُ<sup>911</sup>

وَقَدْ يُرَى أَبُو الهُدَى مُتَكَلِّمًا بِلِسَانِ العُصَاةِ المُقْصِرِينَ الَّذِينَ اعْتَصَرَهُمُ الأَسَى عَلَى مَا مَرَّ مِنْ  
مَاضِي أَعْمَارِهِمُ الَّتِي أَمْضَوْهَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَسَكْرَةِ العَقْلَاتِ، الَّتِي سَوَّدَتْ كِتَابَ الأَعْمَالِ  
وَصفحاتِهِ البِيضَاءِ، نَحْوَ قَوْلِهِ مُضَمَّنًا أَبْيَاتَهُ الجِنَاسِ الاِشْتِقَاقِي (شَبَابُ/المَشِيبِ) وَالمَطْبَاقِ (سُودُ/بِيضُ،  
شَبَابُ/مَشِيبُ):

نَمُرُّ عَلَى الأَيَّامِ بِيضٌ صَحَافِنَا بِسُودِ الحَطَايَا وَالدُّنُوبِ تُلَطَّحُ

يُنَبِّهُنَا هَذَا المَشِيبُ وَقَدْ مَضَى شَبَابٌ لَنَا فِي غَفْلَةِ العَيِّ أَشْرَحُ<sup>912</sup>

ثُمَّ يَعودُ بِلِسَانِ الوَعْظِ لِیُخَاطِبَ الغَافِلِ الَّذِي أَهْلَاهُ طَوْلُ الأَمَلِ وَالأَمَانِي عَنِ تَذَكُّرِ مَحْطَّةِ المَوْتِ وَالفَنَاءِ  
الَّتِي يَقتَرِبُ مِنْهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ:

<sup>910</sup> د.ت.ب، 57.

<sup>911</sup> د.ر.ت، 102.

<sup>912</sup> د.ر.ت، 72؛ وَأَشْرَحُ أَصْلُهَا مِنْ شَرَحِ الشَّبَابِ وَهُوَ قَوْنُهُ وَنَضَارَتُهُ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "شَرَحٌ"، 29/3.

فيا وَسِنًا<sup>913</sup> أقصى الأماي وفرسحُ يُفَرِّبُهُ نحو المنايا وفرسحُ

نعم ها هي الأعمارُ تمضي وهذه شهورُ الأماي من يد العُمر تُسَلِّحُ

كأنَّ لصيدِ المرءِ في كلِّ خطوةٍ من الأرضِ جُبٌّ بالدَّواهي مُفَحِّحٌ<sup>914</sup>

فنداؤه الوعظي للغافل يدعو فيه للتنبه والتذكر إذ إن إقامته في الدنيا ستنتهي قريباً بما تحمله له أيامها الحبلَى بالدَّواهي والمصائب، ويُشَبِّهها بالجُبِّ الذي نُصِبَتْ في قعره الفِخاخُ لكي يُصَادَ المرءُ الغافلُ بها ويلقى حتفه؛ وإتيانه بهذه الصورة التَّشبيهيَّة يجعلُ المنصوح يتلقَى هذه النَّصيحة وقد أُشيع في نفسه حقيقةُ الخوفِ من الغفلةِ عبر المثالِ الحسيِّ الذي ضربَهُ بهذا التَّشبيه؛ حيثُ قرَنَ بين صورتين إحداهما صورةُ الأعمارِ وهي تمضي مليئةً بالأماي التي تُفَرِّبُ من المنايا، والأخرى صورةُ المرءِ الذي يمضي وفي كلِّ خطوةٍ تترصدهُ حفرةٌ مليئةٌ بالفخاخ المهلكة.

ومن خلال ما سبق يتضح أنَّ التَّزهيدَ بالدُّنيا في شعرِ أبي الهُدَى الوعظي أكثرُ ما كان تركيزُهُ على قضيةِ فناءِ الدُّنيا والتَّنبيه على زوالها وتقلُّبِ أحوالها، فكانت هذه القضية هي الأساس في التَّغيير من الدُّنيا وإيثارها على الآخرة، وفي المرتبة الثانية جاءت مخاطبةُ المغتربين بمتاعها الزائل بأن يتعظوا بمن سبَقهم، كما تضمَّن التَّزهيدُ ذكرَ القبرِ ووجوبَ التَّزودِ بالصَّالحات، إضافةً إلى استشارةِ مشاعرِ النَّدم لدى السَّامعِ لما تكلم بلسانِ العُصاةِ على عمره المنصرمِ بما حُشي من الخطايا والآثام، ولعلَّ استشارة هذه المشاعر قد تكونُ إحدى السُّبل التي انتهجها في وعظه ليُثَمِّرَ في نفسِ المُخاطبِ التَّأثُّرَ والتَّندمَ

<sup>913</sup> من الوَسْن وهو النَّعاس، يُنظَر: الجوهري، "وسن"، 2214/6.

<sup>914</sup> د.ر.ت، 73.

الذي يُنتجُ التَّوبَةَ، إذ النَّدْمُ هو أولى مراتبها وأعظمها،<sup>915</sup> واندرَجَت كلُّ هذه المحاور ضمن الإطارِ الوعظيِّ الذي يقوم على التَّرهيب والتَّريغيب والتَّذكير بالعواقب.

### 3 الحِكْمَة

ترتبطُ الحِكْمَة في معناها اللُّغويِّ بالعلم،<sup>916</sup> ومن جملةِ التَّعريفاتِ التي عرَّفها بها الجرجانيُّ (ت. 816هـ/1413م) قولهم بأنَّها "كلُّ كلامٍ وافقَ الحقَّ"،<sup>917</sup> وقد طواها الشُّعراءُ في سطورِ أشعارهم منذ العصر الجاهليِّ، حيث يقول شوقي ضيف: "وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطرون خبراتهم شعراً، لينتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم"،<sup>918</sup> ولربما ربط شوقي ضيف في تصنيفه لشعر شاعرٍ بين "الحِكْمَة والعِظَة الحَسَنَة"،<sup>919</sup> وكذلك كان أبو الهُدَى يودعُ خبراته ونتيجة ما أفادَهُ من دروسِ الحياة في أشعاره، وتكادُ تقتربُ كثيراً من النَّصح والإرشادِ الوعظيِّ، إلا أنَّ ما يجعلها تنفرد عنه هو أنَّها كانت حِكْماً مُلقاةً على جانبي طريقِ القصائدِ والأشعار، دون أن تُضمَّن قول الشَّاعرِ افعَل أو لا تفعل، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ أبا الهُدَى لمَّا تكلمَّ عن موضوعاتِ شعره وأغراضه فقد دمجَ بين شعرِ الحِكْمَة والموعظةِ بأنِّ واحدٍ،<sup>920</sup> ولعلَّ استنادَهُ في هذا القرانِ بينهما على الآية الكريمة التي قرنتهما - "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" -،<sup>921</sup> وقد كان تصنيفُ الشَّاعرِ لها مُدجَّجَةً مع غرض

<sup>915</sup> يُنظر: ابن حجر، فتح الباري، 471/13.

<sup>916</sup> يُنظر: الجوهري، "حكم"، 1901/5.

<sup>917</sup> الجرجاني، التَّعريفات، 91.

<sup>918</sup> ضيف، تاريخ الأدب، 627/5.

<sup>919</sup> ضيف، تاريخ الأدب، 290/9.

<sup>920</sup> يُنظر: الصِّيَّادي، نوابغ الحكم، 24، 27.

<sup>921</sup> النَّحل، 125/16.

الوعظ، إضافةً إلى تضمّنها لمعاني العبرة - وهي من معاني الوعظ اللغويّة-، يدفعان إلى إفرادها كمحورٍ ثالثٍ ضمن الإطار العامّ للغرض الشعريّ "الوعظ".

وقد لا تبتعد كثيراً تلك النُّقاط التي دارت حولها أبياتُ الحكمة عن تلك التي دارت عليها أبياتُ التُّصحّ والإرشاد؛ كما أنّها تحلّلت القصائد الطّوال، أو اتخذت شكلَ قصيدةٍ كاملةٍ ذاتِ نفسٍ قصيرٍ - ولم يرد بهذا الشكلِ إلا قصيدةٌ يتيمةٌ،<sup>922</sup> وقد تأتي على شكلِ نبتةٍ مُلحقةٍ بقولِ أحدِ الحكماءِ من الشعراءِ.

وأبرز ما وردَ من النُّقاطِ الحكميّةِ في شعر أبي الهُدَى هي مسألةُ الطّبعِ الوراثيِّ المُركَّبِ في أعماقِ الإنسان، حيثُ يراه العِلّةُ التي ليسَ لصاحبها من بُرءٍ، فهيهات أن يُشفَى من سورها ويُبدّلَ بها طبيئاً من الطّباعِ والخِصالِ، ومَن زعمَ تبدّلَ سوءِ الطّباعِ في هذا الشّخصِ إلى حَسَنِها فقد ارتكَبَ عيباً شنيعاً، ويزيدُ أبو الهُدَى على ذلك أنّ من العيبِ بمكانٍ أن يُعاتبَ هذا المُبتلى بسوءِ الطّباعِ على ما يصدُرُ منه مما اقتضته طِباعُهُ وأملتها عليه، فإنّ عتابه سيكونُ عيباً فوقَ العيبِ الأوّلِ الذي لا يراه عاقلٌ من العقلاء؛ يقول في نبتةٍ شعريّةٍ:

إذا ساءَ طَبْعُ المرءِ عَزَّ دَواؤُهُ فزَعَمُ انقِلابِ الطَّبَعِ عَيْبٌ بلا ريبِ  
وإنَّ عتابَ المُبتلى بطِباعِهِ على حَكمِها الخَلقيِّ عَيْبٌ على عيبِ<sup>923</sup>

وإذا ما تبادلَ إلى الأذهانِ تساؤلٌ عن سيِّءِ الطّبعِ الذي يذمُّه أبو الهُدَى ويُحذّرُ منه، فلربما كان في شعرِ أبي الهُدَى ما يرسمُ في مُخيّلةِ القارئِ انطباعاً عن هذا السيِّءِ الطّباعِ دنيّ الأصلِ، فهو - حسب

<sup>922</sup> يُنظر: د.ر.ت، 183.

<sup>923</sup> د.ت.ب، 19.

تَجْرِبَةُ أَبِي الْهَدَى - شَخْصٌ عَمِيَّتْ عَيْنُهُ عَنْ رُؤْيَةِ كُلِّ خَيْرٍ وَبَرٍّ حَوْلَهُ فَهُوَ لَا يَرَى سِوَى الْعِيُوبِ  
وَالذَّنُوبِ:

ولكن لئيم الأصل والطبع لا يرى سوى العيب شيئاً والكريم حمول<sup>924</sup>

وقد رأى أبا الهدى أن لئيم الطباع ودين الأصول لا ينفع معه أي معروف ولا اصطناع يد من أيادي  
الخير، فهو منكّر لها جحد، بخلاف الرجل الأصيل الكريم الطبع فهو يحفظ ذمّة أي خير أسدى إليه  
أدنى برّ أو مدد له يد معروف:

دني العرق يكفر كل برّ ويشكر بعضه الشهم الكريم<sup>925</sup>

ويرى أن الحبب الدني الأصل لا يفني بعهد ولا يعى ذمّة وفاء، وهيئات أن يرجى منه ذلك، فإنما  
يطلب الشيء من معدنه، وهل يرجى الوفاء من غير الكريم الأصل الشريف، ولكي تتضح الصورة  
المعنوية هذه فقد أتى بالصورة التشبيهية حيث جاء بالتشبيه الضمّيّ مشبهاً حالة هذا الدني بالسرّاب  
الذي ببيعة لا يسقى منه الصادي قطرة ماء، وبالسحاب الذي لا ماء فيه فيرجى غيثه للعطاش،  
وكذلك الدني الذي لا ترجى منه شيم الكرام والأشراف:

لن يرجى من الدني وفاءً إنما يعرف الكرام الكرام

فوفاء العهد حلة مجد وهي من غير أهلها لا ترام

لا يفيض السرّاب قط شراباً لا ولا يرسل المياه الجهم<sup>926</sup>

<sup>924</sup> د.ر.ت، 183.

<sup>925</sup> د.ر.ت، 236.

<sup>926</sup> د.ر.ت، 229؛ والجهم هو السحاب الذي لا يمطر لفرغ من الماء، يُنظر: ابن منظور، "جهم"، 111/12.

وَيُفَصِّلُ حَالَ هَذَا الدَّيِّ الطَّبَعُ فَيَجْعَلُ الحَقْدَ مَلءَ قَلْبِهِ والشَّوْمَ مدموغٌ على سِيما وجهه أَمَا عَيْنُهُ  
فهي سوداويَّةٌ لا ترى سوى الفُبْحِ والشَّوْمِ، وهذا يَصِلُ بِهِ إلى تصديق قولِ الأوَّلِ من أنَّ عينَ المحبَّةِ  
لا ترى إلا الجميلَ وخلافُها عينُ البُغْضِ التي ترى الجميلَ قبيحًا، حيثُ يَقولُ وقد ضَمَّنَ البيتَ الأخيرَ  
قولَ عبدِ الله بنِ معاوية (ت. 131هـ/747م):

ففي قَلْبِهِ حَقْدٌ وشوْمٌ بوجهه وفي عَيْنِهِ سَخَطٌ يرى الصُّبْحَ داجيًّا  
(وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدي المَساويًا)<sup>927</sup>

ومن أجلِ هذا فقد وصلَ إلى نتيجةٍ في حياته دَوَّهاً بِمُخْلِصَةٍ تفيِدُ وجوبَ الإعراضِ عن كلِّ مَدَمَّةٍ  
جاءتَ للمرءِ الكريمِ من إِيامِ الطِّباعِ الجاحدين، إذ ما على المرءِ سوى التَّحَلِّيِ بِكريمِ الخصالِ وجميلِ  
الشَّمائِلِ، فإنَّ أمثالَهُ من كِرامِ النَّاسِ سيغضُّونَ طرفَهُمْ إذا ما بدأ لعيونِهِمْ شيءٌ من عيوبِهِ ويعفونَ  
عنها، حيثُ يَقولُ وقد ضَمَّنَ البيتَ الأخيرَ ما قالَهُ الشَّاعرُ الجاهليُّ السَّموألُ الأزديُّ  
(ت. 64ق.هـ/560م):

وما ضَرَ ممدوحُ الكِرامِ مَدَمَّةً أتت من لئيمٍ واللَّئيمُ رذيلُ  
ولا عيبٌ في عينِ الكِرامِ لمُخْلِصٍ ودادًا وعفوُ الحَيِّرينِ جزيْلُ  
(إذا المرءُ لم يَدنَسْ من اللُّومِ عِرْضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلٌ)<sup>928</sup>

<sup>927</sup> د.ر.ت، 289؛ والبيت المضمَّن أصلُهُ: "لكِنَّ" بدل "كما"، "فعينُ" بدل "وعينُ"، يُنظر: عبد الله بن معاوية، شعر عبد الله بن معاوية بن عبد

الله بن جعفر بن أبي طالب، إعداد: عبد الحميد راضي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1396هـ/1976م)، 90.

<sup>928</sup> د.ر.ت، 183؛ والبيت المضمَّن يُنظر: السَّموألُ بن غريص الأزدي، ديوان السَّموأل، صنعة نفطويه، تحقيق: واضح الصَّمَد، (بيروت: دار

الجيل، 1416هـ/1996م)، 66.

وفي مُقابلِ صورةِ الدَّيِّ فَإِنَّ أبا الهُدَى بتضمينه للبيتِ الأخيرِ بدأ وكأنَّهُ يرسمُ حدودًا للكرِيمِ وأخلاقِهِ التي عليه أن يكونَ مُتحلِّيًا بها، فالرَّجلُ الكَرِيمُ الشَّرِيفُ بعيدٌ أشدَّ البعدِ عن اللُّؤمِ وأهله، كما أنَّ أخلاقَهُ وشيمَهُ ومنطقَهُ وأفعالهُ كُلُّها قد انضَبَطَتْ وفق حدودٍ تحدُّها معرفةُ قدرِ المرءِ لنفسِهِ وعدمُ تجاوزهِ لحدودِها، حيثُ يقولُ مُضَمِّنًا قولَ السَّموأل:

إذا المرءُ لم يضبط على حُكْمِ حَدِّهِ أَفاويلَهُ والفعلَ فهو جهولُ  
 (وإن هو لم يحمل على النَّفسِ ضيمَها فليس إلى حملِ الثَّنَاءِ جميلٌ)<sup>929</sup>  
 وإن جازَ يبغِي الصَّدَرَ وهو مُؤَخَّرٌ تأخَّرَ رَغَمًا عنه وهو ذليلٌ<sup>930</sup>

فهو يُفيدُ مما علَّمتُهُ الحياةُ أنَّ على المرءِ التَّحَلِّيَ بالصبرِ كي يصلَ إلى المراقِي الحميدةِ، كما أنَّ عليه ألا يتعدَّى حدودَهُ فيتقدَّم في موضعٍ حُفُّهُ فيه التَّأخِيرُ فهو -رغمَ أنفِهِ- لن يلقى سوى التَّأخِيرِ والذِّلَّةِ إذ ما عَرَفَ قدرَ نفسِهِ وتجاوَزَ حدودَهُ.

ومن جملةِ الحِكَمِ التي أشارَ إليها في شعرِهِ ما حَبَّرَهُ من تجرِبَتِهِ في صداقاتِهِ مع صنوفِ النَّاسِ، فهو يرى أنَّ أشنعَ صنوفِ الأصدقاءِ مَنْ أَكثَرَ اللُّؤمَ والعِتَابَ وصَحِبَ المرءَ لأغراضٍ متى ما تحقَّقت لوى رأسَهُ وسلكَ طريقَ الجفَاءِ وتركَ صديقَهُ وحيدًا، وأمَّا الصَّدِيقُ المثاليُّ الذي يراه أبو الهُدَى أهلاً للصُّحبةِ والصَّدَاقَةِ فهو الذي يثبُتُ على العهدِ صادقًا على طريقِ المحبَّةِ والوفاءِ تُريه عينُ الرِّضَا والحُبِّ والوفاءِ كلَّ جمالٍ وحُسنٍ من شيمِ صديقِهِ، حيثُ يقولُ مُستعملاً مراعاةَ النَّظيرِ (يروح/يغدو):

<sup>929</sup> يُنظر: السَّموأل، الديوان، 66، وفيه فليس إلى "حسن" بدل "حمل".

<sup>930</sup> د.ر.ت، 183.

أَحْسُ الصِّحَابِ الْمُكْتَبِرِ اللَّوْمِ وَالَّذِي يَرُوحُ وَيَعْدُو فِي الْحَبَّةِ مُغْرَضًا  
وَأَشْرَفُ أَحْبَابِ الْفَتَى الصَّادِقِ الْوَفَا وَمَنْ لَمْ يَزَلْ فِي الْحَبِّ مِنْهُجَةً الرِّضَا<sup>931</sup>

ومن أبرز الحكيم التي أفادها في حياته وراح يُسَطِّرُهَا شِعْرًا، وَصَدَّقَ بِهَا مَا تَوَاتَرَتْ بِتَوَافُقٍ عَلَيْهِ  
عُقُولُ الْعُقَلَاءِ، هِيَ أَنَّ الْمَرْءَ بِجَوْهَرِهِ لَا بِمَنْظَرِهِ، وَبِأَفْعَالِهِ لَا بِأَسْمَائِهِ، حَيْثُ يَقُولُ أَبُو الْهَدَى:

وَتُكَبِّرُ لِلْخِصَالِ فِتْنِي نَحِيفًا وَحِينًا تُصَغِّرُ الضَّخَمَ الْمُحِجَّتًا<sup>932</sup>

وفي أنفاس هذا البيت ما يقترب من قول الأَوَّل - وهو العباس بن مرداس (ت. 18هـ/639م) -:

فَمَا عِظَمَ الرَّجَالِ لَهُمْ بِفَخْرِ وَلَكِنْ فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرٌ<sup>933</sup>

وفي موضع آخر يُشِيرُ إِلَى عَدَمِ الْإِنْخِدَاعِ بِالْمُظَاهِرِ وَإِلَى الْإِلْتِفَاتِ إِلَى حَقِيقَةِ الْجَوَاهِرِ، فَالكَثِيرُ مِنْ لِيَامِ  
النَّاسِ وَأَرَادَهُمْ لَمْ يَكُنْ لِحِصَالِهِمْ مِنْ سِتْرٍ سِوَى ثِيَابٍ مُوَشَّاةٍ مُطَرَّرَةٍ، فِي حِينٍ أَنَّ الْكِرَامَ وَأَهْلَ الشَّيْمِ  
الْحَمِيدَةَ وَالْخِصَالِ الْمَجِيدَةَ قَدْ سَتَرْتَهُمْ جُنَّةُ الْأَسْمَالِ وَقَلَّةُ ذَاتِ الْيَدِ:

فَكَمْ حِطَّةٍ فِي دَرَعِ شَخْصٍ مُقَمَّشٍ وَكَمْ هَمَّةٍ قَعَسَاءَ فِي ثَوْبٍ جَائِعٍ  
وَكَم مُكْتَبِرٌ لَمْ يَرْفَعْ النَّاسُ قَدْرَهُ وَذِي قَلَّةٍ كَالْبَدْرِ عَالِي الْمَطَالِعِ<sup>934</sup>

وهو يقترب بهذا المعنى من قول الحريري (ت. 516هـ/1122م):

<sup>931</sup> د.ر.ب، 42.

<sup>932</sup> د.ر.ع، 15.

<sup>933</sup> العباس بن مرداس، ديوان العباس بن مرداس، تحقيق: يحيى الجبوري، (بغداد: دار الجمهورية، 1388هـ/1968م)، 59.

<sup>934</sup> د.ر.ع، 46.

وَلَكُمْ أُخِي طَمْرَيْنٍ<sup>935</sup> هَيْبَ لِفَضْلِهِ وَمَقْوَفِ الْبُرْدَيْنِ عَيْبَ لِفُحْشِهِ<sup>936</sup>

ووفق ما سبق يُمكنُ إجمالُ الحِكْمِ التي أودَعها شعرُهُ بالتركيزِ على حُكْمِ الطَّبَاعِ وضرورةِ الحَذَرِ مِنَ اللَّئَامِ، فحاولَ أن يُقدِّمَ للقارئِ خُلاصَةَ تجربَتِهِ في كشفِ أخلاقِهِم، ولذلك كان يرى أنَّ من أبرزِ الحِكْمِ في الحياة أن ينتبه المرءُ إلى أخلاقِهِ ولا يتجاوز حدودَهُ، كما دعا في شعرِهِ الحِكْمِيَّ إلى التَّدقيقِ في جوهرِ الأشخاصِ وحُسنِ اختيارِ الصَّدِيقِ الصَّدُوقِ، وحرصَ على سَوَقِ كلِّ ذلكِ مُجرِّدًا من صِيغِ الأَمْرِ ومُرادِفَاتِهِ، وبذلك يكونُ إفرادُ محورِ الحكمة عن محورِ النُّصحِ والإرشادِ في شعرِ أبي الهُدَى الوعظيِّ أقربَ للصَّوابِ على الرَّغمِ من تقاربِ النَّقاطِ التي دارَ في فلكِها كُلُّ من المحورين.

وبعد أن تمَّ الكلامُ على مُجْمَلِ محاورِ الوعظِ والنَّقاطِ التي دارتِ عليها وقبل أن يُتكلَّمَ عن التَّيَجَّةِ تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ أبا الهُدَى قد كان يُذَيِّلُ قصائِدَهُ المُتَمَحِّضَةَ لغرضِ الوعظِ بِخَوَاتِيمِ يُمكنُ أن تمنحَ القصيدةَ ميزةَ براعةِ المقطع، حيثُ إنَّ الخاتمةَ كانت تُذَيِّلُ القصيدةَ بما يجمعُ كلَّ ما ذكِرَ فيها؛ فمن ذلك قولُهُ في خِتامِ إحدى القصائدِ الوعظيَّةِ:

واستصحب الإخلاصَ فالعملُ الذي تَمَسَّسَهُ شائِبَةُ الرِّيا لم يُقبَلِ  
واعمل بنصحي إن فقَهْتَ فكلُّ مَنْ يستغنِ بالمُعطيِ الكريمِ هو المَلِي<sup>937</sup>

فهو يخبِئُ نصابِحَهُ الوعظيَّةَ بما ينفُخُ الرُّوحَ فيها إذا ما طُبِّقَتْ في ساحاتِ العملِ، وهو النُّصحُ بِمُراعاةِ الإخلاصِ لوجهِ الله، حيثُ إنَّ كُلَّ عملٍ شَيَّبَ بالرِّياءِ لن يحصد سوى العدم والخيبة والخسران، ثم

<sup>935</sup> مثنى طمرٌ وهو التَّوبُّ الخَلْقُ، يُنظَرُ: الجوهري، "طمر"، 726/2.

<sup>936</sup> القاسم بن علي الحبري، مقامات الحبري (بيروت: دار بيروت، 1398هـ/1978م)، 178؛ والمقوَّف يعني المزيَّن والرَّقِيق الجميل، يُنظَرُ: ابن دريد، "فوف"، 245/1.

<sup>937</sup> د.ت.ب، 87.

يُذِيلُ الخاتمةَ بتوصيةٍ يطلبُ فيها من السامعِ أن يعملَ بجميعِ تلكِ النَّصائحِ ويعتمدَ على الله مُستغنياً به عما سواه فهو الكريمُ المُغني لمن استغنى به.

ولربما ختمَ وعظه - مع براعةِ المقطعِ - بالنصيحةِ التي ذُيِّلتَ بالسلامِ على النَّبيِّ الأكرمِ، كقوله وقد نصَحَ السامعَ بتعميمِ نفعِهِ - ما استطاعَ - للخلقِ أجمعين، وبأن يُسَلِّمَ جميعَ أمورِهِ مُعتمداً على مولاهُ ربِّ العالمين، إذ منهجُ التسليمِ هو منهجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

وتجرَّد ما ساعدَ الحظُّ للنَّفِّ مع فغرِّ الورى به بسام  
واترك الأمرَ للإله وهذا منهجُ المصطفى عليه السلام<sup>938</sup>

وقد ينتقلُ من النَّصحِ إلى الاختتامِ بالدُّعاءِ للمنصوحِ بأن يُكْتَبَ له النَّفعُ بتلكِ النَّصائحِ التي اعتصرها صادقُ الحُبِّ والودِّ من النَّاصِحِ لمنصوحِهِ، كقوله مخاطباً له بعد أن أنهى وصاياهُ:

إن تكن عن صدقٍ سيرٍ نشأتُ أسألُ اللهم أن تنفعَكَ<sup>939</sup>

ويلاحظُ في ما سبقَ من الخواتيمِ براعةَ المقطعِ التي كان أبو الهُدَى يصبُّ اهتمامَهُ عليها، إلا أنَّه لربما أعرَضَ عن كلِّ هذه الخواتيمِ ولجأ إلى ختمِ القصيدةِ برِدِّ عجزِ بيتها الأخيرِ على صدرِ بيتِ مطلعها، وهي حليَّةٌ لفظيَّةٌ من حُللِ التزيينِ البديعيَّةِ، وإمَّا يلجأُ إليها الشاعِرُ حسبما يرى عبد الله الحامدُ إذا ما ارتجَّ عليه بسببِ تدافُعِ الألفاظِ وتزاحُمِ الخواطرِ والأفكارِ، فيقفُلُ القصيدةَ باستدعاءِ صدرِ بيتها الأوَّلِ، ومن هذا القبيلِ قوله في مطلعِ قصيدةٍ وعظيمةٍ زهديةٍ:

<sup>938</sup> د.ت.ب، 73.

<sup>939</sup> د.ر.ت، 231.

هو الدهر لا خلٌ يدوم ولا أخٌ حوادثُه الأيامُ تأتي وتُسَخُّ<sup>940</sup>

واختتامُه لها بقوله:

فيا قلبِ حلِّ الفانياتِ فإتِّمَّا هو الدهرُ لا خلٌ يدومُ ولا أخٌ<sup>941</sup>

وهذه الظاهرة الختامية تُعدُّ من الظواهر التي شاعت بين الشعراء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.<sup>942</sup>

وفي ختام هذا الغرض الشعري يمكن التوصلُ إلى القولِ بالنتائج التالية:

- إنَّ انطلاقَ الشاعرِ في هذا الغرض وتدوينه للكثير من الأشعار فيه كان نابغاً من البيئة التي عاشَ فيها ولها - وهي بيئة التصوف الإرشادية -، ولذلك فقد تنوعت الموضوعات التي طرَّقها في ثناياها وتَشَعَّبَت لتشملَ علاقة الإنسان برَبِّه، وعلاقته بمن حوله، إضافةً إلى الجانبِ الزُّهديِّ والحِكَميِّ الذي اشتملت عليه أشعارُ هذا الغرض.
- قد لا يُبتعدُ عن الصَّوابِ إذا ما قيلَ: إنَّ أبا الهُدَي كان صادقاً فيما يدعو إليه، إذ هو نابغٌ عن إيمانٍ يقينيِّ بما يقوله وينصحُ به، فلئن حوَّطبَ من قبله من الوعاظِ بأنَّه يصطنعُ القولَ اصطناعاً ولا يحملُ نفسه عليه حتى قيلَ:

<sup>940</sup> د.ر.ت، 231.

<sup>941</sup> د.ر.ت، 231.

<sup>942</sup> يُنظر: عبد الله الحامد، الشِّعر في الجزيرة العربيَّة خلال قرنَين (الرياض: مطابع الإِشعاع، 1402هـ/1981م)، 433، 434.

ما أفتح التَّزْهيدَ من واعظٍ يُرْهِدُ النَّاسَ ولا يَزْهَدُ  
لو كان في تَزْهيدِهِ صَادِقًا أَضْحَى وَأَمْسَى بَيْتُهُ الْمَسْجِدُ<sup>943</sup>

فإنَّ سيرةَ أبي الهُدَى كانت قد شَهِدَتْ لَهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ مَشَاغِلِ الدُّنْيَا وَالزُّهْدِ فِي زَخَارِفِهَا  
بِالْإِنْكَبَابِ عَلَى الْكُتُبِ وَالْعِلْمِ وَعَدَمِ الْإِعْتِرَارِ بِمَا نَالَهُ مِنْ حِطِّ دُنْيَوِيٍّ وَافِرٍ فَسَمَتَهُ لَهُ  
الْأَقْدَارُ الْإِلَهِيَّةُ؛<sup>944</sup> مما يعني تأكيد صدقه في وعظه ونُصْحِهِ التَّزْهِيدِيٍّ؛ وقد أنتَجَ ذلك  
صدقَ العاطفةِ في تضاعيفِ أشعارِهِ، حتى إنَّه ليشعرُ الواقفُ إِزاءَ وعظه بِجِوَارَةِ العاطفةِ  
التي حكمتها أَلْفَاظُ الرِّفْقِ وَالتَّلَطُّفِ بِالْمَنْصُوحِ، التي تُثِيرُ مَشَاعِرَ التَّأَثُّرِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْإِعْطَافِ  
فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّيِّ لَهَا.

■ لم يكن شعْرُهُ الوَعْظِيُّ يَحْمِلُ الصُّورَةَ الْقَائِمَةَ الْقَائِمَةَ عَلَى تَخْرِيْبِ الدُّنْيَا تَمَامًا وَالْإِنْكَبَابِ  
عَلَى الْعِبَادَةِ، بل كان وعظه - حسبما ظَهَرَ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُشْتَمِلِ عَلَيْهَا - مُتَّزِنًا يَهْتَمُّ  
بِإِعْمَارِ الدُّنْيَا مِنْ خِلَالِ إِصْلَاحِ جَمِيعِ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تَرْبِطُ الْإِنْسَانَ بِمَنْ حَوْلَهُ كَمَا دَعَا  
الْمُتَلَقِّيَّ إِلَى إِدْرَاكِ خَفَايَا شُؤْنَاتِ عَصْرِهِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ، وَأَنْ لَا يَنْحَرِطَ مَعَ غَوْغَاءِ النَّاسِ  
الْعُنَائِيِيِّينَ الْمَسِيَّسِينَ بِأَعْلَامٍ أَوْ بِإِعْلَامٍ أَوْ بِأَقْلَامٍ؛ وقد كانت غَايَةُ الزُّهْدِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ هِيَ  
الْحِرْصُ عَلَى أَنْ لَا تُعْشِي غِشَاوَةٌ الْإِنْشِغَالَ بِإِعْمَارِ الدُّنْيَا قَلْبَ الْإِنْسَانِ فَتُنْسِيَهُ حَقِيقَةَ  
فَنَائِهَا وَتَقْلِبُ أَحْوَالَهَا؛ وهو في عَمُومِ وَعْظِهِ اتَّخَذَ الْمَعَانِي الدِّينِيَّةَ وَمَصَادِرَهَا مُنْطَلَقًا لِكُلِّ  
مَا نَصَحَ بِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ، مَشْفُوعًا ذَلِكَ كُلُّهُ بِأَسَالِيْبِ تُفِيدُ الْإِقْنَاعَ لِلْمَخَاطَبِ الْمَنْصُوحِ  
(كَالِاقْتِبَاسِ وَالتَّضْمِينِ وَالتَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ بِالصُّورِ إِلَى جَانِبِ تَبْيَانِ الْعَوَاقِبِ وَالْمَالَاتِ).

<sup>943</sup> قائل هذه الأبيات هو سُلمُ الحامِرِ فِي حَقِّ الشَّاعِرِ الْعَبَّاسِيِّ أَبِي الْعَنَابِيَّةِ لَمَّا خَالَفَتْ سِيرَتُهُ مَا صَمَّنَتْهُ أَشْعَارُهُ الْوَعْظِيَّةُ مِنْ قِيمِ الزُّهْدِ وَالتَّزْهِيدِ،  
يُنْظَرُ: فَرْوُخٌ، تَارِيخُ الْأَدَبِ، 3/192.

<sup>944</sup> يُنْظَرُ: الصَّبَّادِيُّ، الْفَرْقَانُ، 96.

■ أمّا بالنسبة للصورة البيانية والحلّة البديعية فقد قلّ بوضوح بروزها في هذا الغرض، قياساً إلى الأغراض الأخرى، كما أنّ الألفاظ والتراكيب قد كانت سهلة وواضحة خالية من التعقيد أو الغموض وقد تحوي في بعض المواضع ألفاظ التلطّف والتّجبّب إلى المخاطب؛ كما لوحظ إكثاره من الاقتباسات؛ ولعلّ كلّ هذا كان مُستنداً إلى طبيعة الوعظ، إذ الغاية العظمى منه هو وصول التّصائح والوصايا مُجرّدة إلى المتلقّي لكي يتصحّ ويتعظّ بها، وليس المراد الأعظم منها إظهار الصنعة الشعريّة أو البلاغيّة البيانيّة.

## المبحث السادس: غرض الهجاء

يُعدُّ هذا الغرضُ من الأغراضِ الشِّعريةِ الأصيلةِ في الأدبِ العربيِّ منذ العصرِ الجاهليِّ، وحسبما يذكر ابن رشيقي فإنَّ هذا الغرض - على رأي قومٍ من النُّقاد - قد عُدَّ قسيماً لنقيضه المديح في التَّفَرُّدِ بِنِيةِ الشِّعرِ العربيِّ، حيثُ رأوه مبنياً على هذين الغرضين فقط وكلُّ ما عداهما من الأغراضِ فهو فرعٌ عن أحدهما.<sup>945</sup>

والهجاءُ لغةً لفظَةٌ مُرادفةٌ للهِجْوِ والتَّهْجَاءِ وأصلها من الفعلِ (هَجَا)، وتعني الذَّمُّ<sup>946</sup> الذي هو خلاف المدح، وحُصِّنَ الهجاءُ بالشتيمِ بالشِّعرِ، حتى فُسِّرَ بأنَّه "الوقيعَةُ في الأشعار"، فإذا ما هجا شاعرٌ آخَرَ مثلهُ نَشَبَتْ بينهما "المُهاجاةُ"<sup>947</sup> ولا يخرجُ المعنى الاصطلاحِيُّ عن المعنى اللُّغويِّ إذ هو ذكْرُ مساوِيٍّ المَهْجُوِّ وعيوبِهِ وجميعِ النَّقَائِصِ التي فيه.<sup>948</sup>

وبشكلٍ عامٍّ تعودُ أصولُ غرضِ الهجاءِ في بداياتهِ إلى استعارِ نيرانِ التَّفَاخُرِ أو الحروبِ بين القبائلِ العربيَّةِ، حيثُ ينهَضُ شاعرُ القبيلةِ فيعمدُ إلى سَلْبِ كلِّ كريمةٍ للقبيلةِ الأخرى وينسبها إلى قبيلتهِ، أو أنه ينظُمُ ابتداءً قصيدةً يريدُ بها خالصَ الهجاءِ لمن أَمَامَهُ، ثم مع بروزِ الحركةِ السِّياسيةِ المرتبطةِ بنماءِ العصبيَّاتِ القبليَّةِ في العصرِ الأمويِّ دخلَ الهجاءُ مرحلةَ النَّقَائِصِ التي تهافَّت عليها النَّاسُ،<sup>949</sup> إلا أنَّه مع فتورِ العصبيَّاتِ السِّياسيةِ راحَ الهجاءُ يتَّخَذُ طابَعاً فرديّاً يَصوِّرُ شاعرُ الهجاءِ فيه

<sup>945</sup> يُنظر: القيرواني، العمدة، 121/1.

<sup>946</sup> يُنظر: الجوهرى، "هجا"، 2533/6.

<sup>947</sup> يُنظر: ابن منظور، "هجا"، 353/15.

<sup>948</sup> يُنظر: ابن الأثير، جوهر الكنز، 309.

<sup>949</sup> يُنظر: فَرُوح، تاريخ الأدب، 83/1، 361/1.

كلّ قبائح المهجور وينتقص منه مُظهرًا سوءاته وعيوبه،<sup>950</sup> ولم يزل هذا النوع شائعًا فيما تلا ذلك من العصور الأدبية،<sup>951</sup> وصولًا إلى عصر أبي الهدى.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنّ هجاء أبي الهدى قد اتخذ طابعًا خاصًا، جعله مذهبًا مُتفردًا جامعًا بين مذهبين من الهجاء هما - حسبما ميّرها عباس العقاد (ت. 1383هـ/1964م) - المذهب البدويّ والمذهب الحضريّ،<sup>952</sup> وعلى ما يبدو أنّ تنقله وانقسام حياته إلى شطرين متوزعين بين حياة البادية وحياة الحاضرة - خان شيخون وإستانبول - كان قد أفرز هذه الصبغة التي تلوّن بها هجاؤه، فاصطبغ هجائه بصبغة المذهب البدويّ ظهر خلال شعره الذي حرص فيه على أن يسلب من مهجوره جميع الفضائل التي تعتز بها النفس العربية البدوية الأصيلة - من جود وشجاعة وطيب محتدٍ وشرف نسبٍ - فلو سمعت أيُّ أذنٍ عربيّة بدويّة صفات مهجوره لأيقنت أنّ المهجور من الأراذل وسفلة الناس؛ غير أنّ معاشرته للناس وإبرام العلاقات معهم وما أعقب ذلك من معاناة أسقمته تجعل الناظر يميل إلى إمكانية القول: إنّ مذهبه اصطبغ من جانبٍ آخر بصبغة المذهب الحضريّ، لأنّ أساس المذهب الحضريّ هو أن يكون الهاجي أنيسًا بفطرته، بخلاف المذهب البدويّ الذي يشترط فيه أن يكون الشاعر نافرًا بفطرته.

ولفهم طبيعة العلاقة التي ربطت بين أبي الهدى والناس من حوله لا بُدّ من المرور على ما قيده بنفسه مُتحدّثًا عن تجربته في العلاقات مع الناس والمجتمع المحيط به، إذ لم تكن بالتجربة التي ملؤها الصفو أو السرور أو التعظيم المُفخّم - لما حظي به من مكانةٍ خاصّة عند السلطان عبد الحميد-، فعلى العكس تمامًا فإنّ شعره قد حكى ما يدلُّ على أنّه مُنيّ بخيباتٍ أُمّ كبرى، وبيِّنُ

<sup>950</sup> يُنظر: مصطفى الشكعة، فنون الشعر في مجتمع الحملايين (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1378هـ/1958م)، 303.

<sup>951</sup> يُنظر: محمد التونجي، حول الأدب في العصر السلجوقي (بنغازي: مكتبة فورينا، 1394هـ/1974م)، 138.

<sup>952</sup> يُنظر: عباس محمود العقاد، ابن الترومي حياته من شعره (مصر: شركة مساهمة، د.ت)، 218-219.

حجم الألم الذي أورثته إياه تلك الحَيَّيات والخِيانات ما قيَّدته أنامله في كُتبه<sup>953</sup> أو دواوينه؛ ولو أفسح المجال لرصد الحال في تلك العلاقات لكان من خير ما يوصِّفها لسانُ أبي الهدي لَمَّا قال:

إني ابتليتُ من الرِّمانِ بمعشَرٍ أطوارُهُم كعجائبِ الأيامِ  
أفعالُ أعداءٍ وقولُ أحبَّةٍ وطباعُ أوغادٍ وزِيُّ كِرَامٍ<sup>954</sup>

فعلى ما يبدو من وصفه أنَّ علاقاته مع النَّاسِ شابَّتْها العُصَصُ من تَقَلُّبِ أهواءِ معشَرٍ منهم وتدثُّرهم بدثارِ النِّفاقِ، بإظهارهم له مَرَضِيَّ الصِّداقَةِ ومَعسولَ الكلامِ مع إبطانهم له نقيضَ ذلك كُله من كَنِّ العداوةِ والبغضاءِ وتَرَبُّصِ الشَّرِّ به، مما دفعه إلى وصفهم بالأعداءِ الأوغادِ المُتَرَبِّصِينَ -زورًا- بحليَّةِ الأصدقاءِ الكِرَامِ؛ وقد كان أعجبُ عَجِبِهِ ممن أفاضَ عليهم فيضَ الإحسانِ فبدَّلوا الملاحَةَ بالقباحَةَ وقاحَةً وكُفْرًا بالجميلِ، وترسَّخَ في أعماقِهِ أنَّ هذا الجحودَ والنُّكرانَ للجميلِ قد صارَ صِفَةً ظاهِرَةً في غالبِ مَنْ أحسنَ إليه، حتى إنَّه لم يعدْ يستبَعِدُهُ من أَلطَفِ النَّاسِ وأطيبِ المعادِنِ، فالظُّباءُ الرِّقِيقَةُ قد تنقَلَبُ بعد جميله ذئابًا تنهَشُ عِرْضَهُ وتعوي عليه؛ يقولُ واصفًا عَجِبَهُ:

عجبتُ لأبناءِ الرِّمانِ وإنِّي أرى مَنْ لهم أخلصتُ وُدِّي أعجبًا  
يُقَابِلُ إحساني بكلِّ إساءَةٍ فلو أنِّي أحببتُ ربمَّا تَدَائِبًا<sup>955</sup>

غيرَ أنه يُبيِّنُ في ثنايا شعره ما يدلُّ على أنَّ هذه الحَيَّيات والخِيانات لم تكن لِشِئْنِهِ عما طُبِعَ عليه من كَرَمِ الأخلاقِ وشريفِ الخِصالِ -رغمَ حداقته وإدراكه لما أكتنَّته صدورهم- حيثُ يقولُ واصفًا حاله

<sup>953</sup> يُظَر: الصِّيَّادي، الفرقان، 2؛ المؤلَّف نفسه، نوايغ الحكم، 4؛ المؤلَّف نفسه، صوت الهزار، 11.

<sup>954</sup> د.ت.ب، 95.

<sup>955</sup> د.ر.ت، 30.

مع مَنْ أدركَ بفراسته ما انطوا عليه من إضمارِ الخيانةِ لكنَّه تابعَ معهم بمنهجِ غضِّ الطرفِ والمعاملةِ بالحسنى علَّها تُجدي في نبيهم عن فعلِ السوءِ:

تَفَرَّسْتُ فِي الْبَعْضِ الْخِيَانَةَ ثُمَّ لَمْ أَتَابِعْ فؤَادِي وَأَتَّبَعْتُ حَلِيبي  
فَأَوْلَيْتُهُمْ قُرْبًا فَكَانُوا عَقَارِبًا وَأَقْبَحُ غَدْرِ النَّاسِ غَدْرٌ قَرِيبٌ<sup>956</sup>

وهنا قد يردُّ على المُلمِّسِ تَفَهُمَ نَفْسِيَّةِ الشَّاعِرِ تساؤلٌ مفادُهُ أن هل أثَّرت تلك الخيانات في نفسيَّته وجعلت منه ينفِرُ عن النَّاسِ؟ وهل دفعته مجبورًا إلى أن يقبضَ يدَ الإحسانِ مغلولَةً إلى عُنُقِ المعاملةِ معهم؟ ولربما يكونُ جزءٌ من الجوابِ مطروحًا في قوله بعد أن وَصَفَ كُفْرَانَ الكَثِيرِينَ لجميله ومقابلتهم إحسانَهُ بالإساءةِ:

والحمدُ لله فكم خائنٍ قابِلْتُهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ<sup>957</sup>

إذن فالشَّاعر لم يكن في أصله نافرًا من النَّاسِ لكي يُقالَ: إنَّ هجاءَهُ مُنْتَمٍ للمذهب البدويّ - وهو القائمُ على نفورِ الشَّاعرِ أصلًا من النَّاسِ -، بل إنَّه قد أنسَ النَّاسَ وخالَطَهُمْ وأحسَنَ إليهم وبادرَ بنصحهم وإرشادهم، وإذما لُمِحَ الهجاءُ عنده فإنَّه نابغٌ من خيالاتِ الأملِ التي شَهِدَهَا مع بعضهم رغمَ مساحتِهِ للكثيرِ منهم، وإِنَّمَا برزَ هجاؤُهُ نَفَثَاتٍ أخرجها من صدرِهِ المحزونِ لتردِّي حالِ تلك العلاقاتِ، فأفرَزَ بنتاجهِ الشَّعريِّ غرضَ الهجاءِ الموزَّعِ على شكلِ قصائدٍ ومقاطعٍ وتنفٍ؛ ومن الممكنِ تصنيفُ هذا الهجاءِ - حسبِ أصنافِ المهجويين - إلى ثلاثةِ أقسامٍ هي: (الأفراد، الفئات، الزَّمان)، وقد كان لكلٍّ منها ما يُميِّزُهُ عما سواه، وستُفردُ السَّطورُ القادمةُ كلاً على حِدة.

<sup>956</sup> د.ر.ت، 29.

<sup>957</sup> د.ر.ت، 70.

## 1 هجاء الأفراد

يُعدُّ هذا الصِّنفُ الأقلُّ من بين أصنافِ الهجاء الأخرى عند الشَّاعر، حيثُ جاءَ بأشكالٍ لم تتعدَّ التَّنَفَّ أو التَّشْطِيرَ القصيرَ لبعضِ أبياتِ الفُضلاءِ، وعلى الرَّغمِ من أنَّ الشَّاعِرَ كانَ يوجِّهُ فيه هِجاءَهُ إلى أشخاصٍ مُعيَّنين فيذمُّهم ويذكر نقائصَهُم، إلا أنَّ النَّاظِرَ فيه لا يلمَحُ أسماءً تُعيَّنُ هؤلاءِ الأشخاصِ، فأبو الهُدَى كانَ يكتفي بتوجيه الهِجاءِ إلى فعلِ الشَّخصِ، ويُمكنُ أن يُفسَّرَ عدمُ ذكرِ أسماءِ المهجَّوِينَ باصطِباعِ لسانِ الشَّاعرِ بالأثرِ الدِّبِّيِّ الذي قد يقبِضُ جِماحَ اللِّسانِ عن التَّشهيرِ بالأشخاصِ، ولم يلمَحُ في كلِّ شعره الهِجائيِّ اسمًا لمهجَّوٍ سوى في موضعٍ واحدٍ، حيثُ وجَّهَ الكلامَ لمهجَّوِهِ ذاكِرًا اسمَهُ وناعتًا له بأشنعِ الأوصافِ فقال:

إلى الأعورِ الدَّجَّالِ أفعى مُويلِحِ إشارةً من يفدي جنابَ الرِّفاعيِّ  
كفرتَ جميلَ ابنِ الرِّفاعيِّ ناجحًا وسرُّ الرِّفاعيِّ قاتلٌ للأفاعيِّ<sup>958</sup>

وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ المهجَّوَّ كانَ قد كفرَ جمائلِ أبي الهُدَى التي أسداها إليه وآذاهُ في نسبِهِ واستنقَصَ من شرفِهِ بالنَّسبةِ إلى آلِ الرِّفاعيِّ، حيثُ يزعمُ أبو الهُدَى أنَّ مهجَّوَهُ قد تطاولَ على النَّسبِ الشَّريفِ لآلِ الرِّفاعيِّ، فعندئذٍ انبرى في هجائه بهذه النَّتفةِ الشَّعريَّةِ، التي رماه فيها بالكذبِ والدَّجَلِ والعورِ، وجعلَ منه بالاستعارة المكنيَّةَ كلبًا ناجحًا بالباطلِ وإنكارِ الجميلِ؛ مع تعريضِهِ بأنَّ هذا المهجَّوَّ لم يدرِ أنَّ أبا الهُدَى لا يهابُ أحدًا ويفدي بروحِهِ جدَّهُ الرِّفاعيِّ الذي اتَّصلتْ به نسبُهُ الشَّريفةُ الحُسينيَّةُ، وجعلته نقيبًا لجميعِ الأشرافِ في بلاده.

<sup>958</sup> د.ر.ب، 66.

وعلى ما يبدو أنّ مسألة النسب الشريف كانت قد أخذت حيزًا واسعًا من تفكير أبي الهدي، وذلك بسبب ارتباط نسبه بالشرف الحسيني وكون هذه النسبة إحدى مقومات شخصيته التي كان يراها تحضه وتدفع به إلى التحقّق بما تقتضيه كمالات هذه النسبة، إضافة إلى قيامه بمهمة نقيب النقباء الأشراف؛ ولهذا فإنّ قسمًا من هجائه قد انصرف إلى مدّعي الشرف بالنسبة المزوّرة إلى آل البيت، فمن ذلك قوله في هجاء أحد المدّعين الذين خالفت فعائلهم ما يقتضيه الشرف النسبي - ويلاحظ أنّه أهمل تسمية المدّعي المهجوّ -:

قل للشريف بزعمه مع أنّه من سقم خستته بغير علاج  
 قطعته صدمة زيغه وهو الذي بفعاله من عنصر الأعلاج<sup>959</sup>  
 أتصحّ نسبك التي قد أوضحت ما فيك مطوي من الأوشاج<sup>960</sup>  
 لو أنّها صحت لكانت مهّدت عذر اليزيد وحجة الحجاج<sup>961</sup>

فهذا الشريف قد لازمت الخسنة فعاله حتى أضحي بها سقيمًا لا يُرجى له أيُّ برء، وقد كذّبت فعاله نسبه إذ برزت للعيان كأخلاق غلاظ الكفار، حتى أبرزت حقيقة نسبه الأصلي، إذ لو كانت أخلاق الأشراف المنسوين إلى آل البيت كفعال هذا المدّعي فحقّ للتاريخ أن يعذر قتلة آل البيت ومبغضيه، فقد استوجبت مثل هذه الفعال مثل تلك المعاملة، وأبو الهدي بذلك يُبالغ في ذمّ فعال هذا المهجوّ الذي لم يرع حقوق ما ادّعاه من النسب الشريف، ويطعن في نسبه ويرميه بالزيغ والضلال.

<sup>959</sup> واجده عليّ وهو الرجل الشديد الغليظ الضخم من كفار العجم، يُظن: ابن منظور، "علاج"، 326/2.

<sup>960</sup> يُريد أن نسبه ليس خالصًا إلى آل البيت الأَطهار بل إنّ نسبه مختلط فلا ينتمي إليهم، وقد أوضحت ذلك أفعاله وفضحت كذبه، يُظن: أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عبّاد، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد آل ياسين، (بيروت: دار عالم الكتب، 1414هـ/1994م)، "شجو"، 140/7؛ ابن منظور، "وشج"، 399/2.

<sup>961</sup> د.ر.ت، 65؛ والأبيات تشطير لشاعر ذكر أبو الهدي أنّ اسمه "الجبرتي".

وفي هجاء أبي الهدي يبرز جلياً تعظيمه للحقوق التي تُوجبها النسبة الشريفة على المرء من شريف الأخلاق وجميل الشمائل، فهو لما راح يهجو مُدّعياً آخر ممن زور انتسابه لآل البيت، انتقصه بأن طبايعه تُكذّب نسبه المُدعى زوراً وافتراءً، إذ لو كان حقيقياً لاتصّف بشيمة الجود والسخاء، لكن طبايعه نسبتة إلى أحسن الناس من لئام الباهليين،<sup>962</sup> حيث يقول هاجياً هذا المُدعي النسبة إلى سراقه قريش، وذاماً له على شدة بخله - بعد أن استعمل التكرار والجناس (قريش) - أنه يبيع كل قبيلة قريش بقرش واحد:

عجباً من كاذبٍ في زعمه      أنه من زهرٍ سادات قريش  
 باهلي الطبع لو جرّته      تشتري منه قريشاً بقريش<sup>963</sup>

ولم يتجاوز هجاء الأفراد هذا الحد من التفت الشعريّة، التي لم يكن بها ذكر لأسماء معيّنة لأشخاص مقصودين سوى ذلك الذي تعدّى على نسب الشاعر، ويُلاحظ أنّ جميع شواهد الهجاء في هذا الصنف قد ارتبطت بما يخصّ النسب الشريف، ولربّما أملاها الشاعر بدافع من الوظيفة التي أوكل بها من الإشراف على نقابات الأشراف وتعيين نقبائها.

<sup>962</sup> نسبة إلى باهلة وهي قبيلة من قبائل العرب يُستنكف من النسبة إليها، حتى قيل:

"إِذَا قِيلَ لِلْكَلبِ يَا بَاهِلِي      عَوَى الْكَلْبُ مِنْ لُؤْمِ هَذَا النَّسَبِ"

يُنظر: صلاح الدين خليل بن أبيك الصّغديّ، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط-تركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م)، 147/24.

<sup>963</sup> د.ت.ب، 59.

## 2 هجاء الفئات

إنّ هذا الصّنف قد يُمكنُ عدُّه من الهجاء المُثري للنّقْد الاجتماعيّ، حيثُ يكونُ الشّاعرُ في هذا النّوع من الهجاء مُتجاوزًا لعلاقته مع الأفراد، ومتوجّهًا إلى فئات المُجتمَع بشكلٍ عام، وكأنّه يطمحُ إلى تقويم ما يراه مثالًا تتعارضُ مع القيمِ المُثلى المُشتركة بين جميع العقلاء من عناصرِ المُجتمَع الذي يعيش فيه، عبرَ تعريّة المساوي التي ظهرت أمام عينيه لفئةٍ من فئاتِ هذا المُجتمَع، ولذلك فإنّ هذا الصّنف من الهجاء عند أبي الهدى يُمكنُ أن يُطلقَ عليه ما سمّاه الدكتور أحمد فوزي الهيب (ت. 1442هـ/2021م) بالنّوع الهجائيّ الإيجابيّ "الذي تجاوز الحدود الفرديّة الضيّقة ليتناول ما يراه من مثالب ذات آثار سلبيةٍ على المجتمع"؛<sup>964</sup> ولربما كانت إقامته في عاصمة الدّولة العثمانيّة - إستانبول - التي تردُّ إليها فئاتٌ مُتنوّعةٌ من كلّ حدبٍ وصوبٍ قد أتاحت له رؤيةً واضحةً لم يشبّها تخمينٌ أو تكهّنٌ لما يجري في ساحة المُجتمَع من الحوادث؛ كما يُمكنُ القولُ بتوّع هجائه على ثلاث فئاتٍ هي:

- فئة المُعارضين والمُعرضين عن قيم الإسلام والمُنبهرين بالعرب.
- فئة المُدّعين من المُتصوّفة.
- فئة الحُساد.

### أ فئة المُعارضين والمُعرضين

ويتمثّل هجاؤه هذه الفئة في نقدِ الحالة التي وصلوا إليها من الانسلاخ عن القيم والأخلاق الإسلاميّة، والتّقليد الأعمى للغربيين بدعوى الانفتاح والتّحضّر والتّمُدّن، بينما هم في حقيقتهم إنّما

<sup>964</sup> أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعريّة زمن المماليك في حلب الشهباء (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1986م)، 164.

يَجْرُونَ لَاهِثِينَ وِراءَ شَهواتِهِمِ السُّفَلِيَّةِ وَمَلَدَاتِهِمِ الدُّنْيَوِيَّةَ الدَّنِيَّةَ، مُتَّخِذِينَ مِنْ ذَلِكَ التَّقْلِيدِ سِتارًا لِيُعَادُوا بِهِ الْإِسْلَامَ وَخَلِيفَتُهُ عَبْدَ الْحَمِيدِ الثَّانِي؛ يَقُولُ أَبُو الْهُدَى مُسْتَحْدِمًا الْكِنَايَةَ عَنْ ضَلالِ مَسِيرَةِ هَذِهِ الْفِئَةِ (لا سَهْلٌ ولا أَجْبالٌ) وَسُلُوكِهَا الطَّرِيقَ المَوْحِشَ الخاطِئِ السَّيِّئِ العاقِبَةَ (بُرِّ طَرِيقِهِمْ أَوْحالٌ):

رَامَ التَّفَرُّجَ بَعْضُهُمْ فَتَمَرَّقُوا فِي السَّيْرِ لا سَهْلٌ ولا أَجْبالٌ  
صَقَلُوا الشُّعُورَ وَمَسَدُوا أَثْوابَهُمْ وَمِنَ البَطالَةِ فَوْقَهُمْ أَثقالٌ  
رَفَضُوا لِسوءِ الحِطِّ عَهْدَ نَبِيِّهِمْ وَعَدَدُوا عَلَى الدِّينِ المُبِينِ وَصالُوا  
آرَأَوْهُمْ حَطًّا وَكُلَّ زَعومِهِمْ غَلَطٌ وَبُرِّ طَرِيقِهِمْ أَوْحالٌ<sup>965</sup>

فأبو الهُدَى يهجو هذه الفِئَةَ بأنَّ أفرادَها طَمَحَتْ بِهَمِّ خيالائِهِمُ لِلوَصُولِ إلى ما بَلَغَتْهُ الحِضارَةُ الغَربِيَّةُ -الإفْرنجِيَّةُ-، لَكِنَّ هَمَّهُمْ سارتْ بِهَمِّ فِي الطَّرِيقِ الخاطِئِ، حَيْثُ فَهَمُوا الحِضارَةَ بأنَّ يُصَفِّفَ الواحِدُ مِنْهُمُ شَعْرَهُ عَلَى الهَيْئَةِ الإفْرنجِيَّةِ وَأَنْ يَشْفَعَ ذَلِكَ بلبسِ لِباسِ الإفْرانجِ، فِيهَتَمُ بِالقَشْرِ وَيُهْمِلُ اللَّبَّ، وَيَهْجُرُ دِينَ نَبِيِّهِ العَظِيمِ وَيَخُونُ ميثاقَ الوِفاءِ بِالعهودِ الرَّبائِيَّةِ بِنِصْبِ رايَةِ العِداةِ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَكْتَفِي بِالتَّشْدِيقِ هَمًّا وَلَمَزًا بِالهَجُومِ عَلَى الشَّرْعِ الحَنِيفِ، فِي حِينِ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمُ لَمْ يُطالِبْ نَفْسَهُ بِالعَمَلِ وَالتَّهَوُّضِ بِالأَسبابِ الَّتِي جَعَلَتِ الإفْرانجِيَّينَ -الغَربِيَّينَ- يَتَقَدَّمُونَ سائِقِينَ أُمَّتَهُ وَيَتْرَكُونَهَا خَلْفَهُمْ فِي رِكابِ الحِضارَةِ؛ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا اسْتَطَرَدَ فِي هِجائِهِمُ، مُسْتَعْمِلًا مُراعاةَ النِّظيرِ (الأقوالِ والأفعالِ)، وَاسْتَحْضَرَ الاسْتِعارةَ المَكْنِيَّةَ المُرَشَّحةَ لَمَّا جَعَلَ هؤُلاءِ المَهْجُوعِينَ بِهائِمًا ثُمَّ حَذَفَها مِنَ التَّرْكِيبِ وَذَكَرَ شَيْئًا مِنْ لَوازِمِها وَهُوَ (المُراح)<sup>966</sup> وَلَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا وَإِنَّمَا زادَ بِأَنَّ جَعَلَهُمْ (حِلْسًا)<sup>967</sup> لِذاكَ المُراحِ، زِيادَةً

<sup>965</sup> د.ر.ت، 190.

<sup>966</sup> هو المُنائِحُ والمَأوَى الَّذِي تَبِيثُ وَتَأوِي إِلَيْهِ الدَّوابُّ مِنَ الإِبِلِ وَالغَنَمِ لِيلاً، يُنظَرُ: الرِّبِيدِيُّ، "روح"، 419/6.

<sup>967</sup> الحِلْسُ كِساءٌ يَوْضَعُ تَحْتَ بَرْدَعَةِ البَعيرِ، وَيُستَخدَمُ أَيْضًا فِي البُيوتِ، يُنظَرُ: الجَوْهَرِيُّ، "حلس"، 919/3؛ وَالمُراحُ

في الإقذاعِ والدِّمِّ لهؤلاءِ المهجورينَ الذينَ أقدتْهم بطالتهم في دستِ الخمولِ والكسلِ، وقد برَزَ في أبياتِهِ تعظيمُهُ للعلمِ لَمَّا استعارَ له -استعارةً تصريحيَّةً- وصفَ السِّناءِ المُتألِّئِ الذي أهملَهُ مَنْ هجَاهم وأعرضوا عَنْهُ:

طَرَحُوا الصِّنَاعَةَ وَهِيَ دِينًا تُبْتَعَى فَالْكُلُّ حِلْسٌ مُرَاحِهِ بَطَّالٌ  
 لَا الْعِلْمُ بِالنَّظْرِ اسْتَفْرَزَ بِعِزِّهِمْ وَبِهِمْ تَلَأْلَأَ مِنْ سِنَاهُ كَمَالٌ  
 وَكَذَا الصِّنَاعَةُ لَمْ تُؤَيَّدْ وَهَمَّهُمْ كِي يَسْتَرِ الْعَيْبَ الْقَبِيحَ الْمَالُ  
 خَلَطُوا السِّيَاسَةَ بِالْفَسَادِ لِجَهْلِهِمْ فَتَبَايَنَ الْأَفْعَالُ وَالْأَقْوَالُ<sup>968</sup>

فهم -بنظره- فئةٌ لم يكن نصيبها إلا غشاوة الأبصار بحضارة الإفرنج، حيث تفهقر أفرادها حاقدين على دينهم وهما منهم أنَّهُ سبب التآخُرِ عن ذلك الركب، فاكتفوا بمُعَارِضَةِ الدِّينِ ودولتِهِ، والقعود في فِخَاخِ البِطَالَةِ والكسَلِ، دون أن يحملوا أنفسهم على تعلُّمِ الصِّنَاعَاتِ الجديدة أو الإبحار تعمُّقًا في دراسة العلوم الحديثة على الرَّغْمِ من أَنَّ الدِّينَ الصَّحِيحَ قد عدَّ العلمَ وتعلُّمَهُ جُزْءًا من الدِّيَانَةِ يُؤَجِّزُ عليه المرءُ ويُجْزِي أَجْزَلِ النَّوَابِ؛<sup>969</sup> فلا هم فهموا حقيقةَ الزَّمانِ وطبيعته، ولا هم فهموا حكمةَ الشَّرْعِ وأحكامه، بل اكتفوا بكيلِ الاتِّهَامَاتِ والافتراءات وقعدوا عاجزين في ساحاتِ البِطَالَةِ، حتى صاروا سُبَّةً وعارًا على دينهم وعصرهم:

وَتَعَلَّمُوا الزُّورَ الْقَبِيحَ فَقَوْهُمُ كَذِبٌ وَزُورٌ فَاسِدٌ وَوَبَالٌ  
 جَهِلُوا الزَّمانَ وَحِكْمَةَ الشَّرْعِ الْمُصَنِّعِ فَأظلمَ نِ الأرجاءُ والأطلالُ<sup>970</sup>

<sup>968</sup> د.ر.ت، 190.

<sup>969</sup> يُنظَر: ابن ماجة، "الإيمان وفضائل الصَّحابة والعلم"، 1 (رقم 223).

<sup>970</sup> د.ر.ت، 190.

وتارةً يهجو هذه الفئة بوصمهم بعارِ انعدامِ الآدابِ الحَسَنَةِ، وخلوهم من صدقِ المقالِ،  
وتنكُّرهم بين المسلمين بسيماءِ الإسلامِ ولسانِ أهليهِ، مع أنَّهم سُبُّةٌ على الشرعِ الحنيفِ شَبَّهَهُمْ -  
تشبيهاً مُرسلاً مُجمَلاً- بالمُصِيبَةِ العَظِيمَةِ التي حَلَّتْ بِساحَةِ الإسلامِ:

قَوْمٌ تَعَالَوْا بِسُوءِ الخُلُقِ وَالآدَبِ وَفَتِيَةٌ صَدَّرَتْهُمْ هِمَّةُ الذَّهَبِ  
وَكُلُّهُمْ بِسِمَاتِ المُسْلِمِينَ وَفِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ هُمَ لِلدِّينِ كَالنُّوبِ<sup>971</sup>

فهم فئةٌ من النَّابِتَةِ الذين أَعْلَتْ مراتِبهم الأموالُ، ورفَعَ أصواتهم سوءُ الأدبِ والخِصالِ، ولولا المالُ لَمَا  
ارْتَفَعُوا وَلَمَا عُرِفُوا، إذ لا عقلَ لهم ولا رأيَ وإِنَّمَا صَوْلَةُ الذَّهَبِ وتأثيرُ قُوَّتِهِ التي استعارَ لها -استعارَةً  
مَكْنِيَّةً- وصفَ ذاتِ إنسانِيَّةٍ تَمْتَلِكُ الهِمَّةَ الفَعَّالَةَ التي جعلتْ لهؤلاءِ النَّابِتَةِ ناطِقَةً من الألسنِ، فراحَ  
أبو الهُدَى يهجو ما فاهت به ناطقَتُهُمْ قائلاً:

تفلسفوا بعقولٍ كُلُّها غَلَطٌ بَحْتٌ سَقِيمٌ وقاسوا الرُّؤسَ بالذَّنْبِ<sup>972</sup>

ويعضي أبو الهُدَى يطرحُ تلكَ الأفكارِ التي لاكتها ألسُنُ تلكَ الفئةِ التي يراها مُتَحَفِيَّةً بقناعِ الإسلامِ  
زوراً ونفاقاً؛ فَمِنْ قَائِلٍ بِفلسفَةِ الحُلُولِ والاتِّحَادِ<sup>973</sup> وآخَرٍ يدَّعي بأنَّ الطَّبِيعَةَ هي التي أوجَدتْ نَفْسَها،  
ومُدَّعٍ إِبْطالَ يومِ المحشَرِ والجزاءِ، ويُرَدِّدُ الجُهْلَاءُ ما لاكته تلكَ الألسنُ وينشرونه مزوَّرينَ لحقائقِ الدِّينِ  
بين أفرادِ المُجْتَمَعِ على مَرَأى ومسمَعٍ من الجميعِ دونِ أدنى حَجَلٍ، حيثَ يقولُ مُضَمِّناً كَلِمَاتِهِ  
الطَّباقِ (المنخفضت/شامخ الرتَب، فتنق/ارتقتهم، الجدّ/اللعب):

<sup>971</sup> د.ت.ب، 20؛ والنُّوبُ هي المصابِبُ والنَّوْازِلُ، يُنظَرُ: أحمد مختار، 2300/3.

<sup>972</sup> د.ت.ب، 21.

<sup>973</sup> ادِّعاءُ شهودِ الكونِ كُلُّهُ أَنَّهُ هو الحقُّ المطلقُ، يُنظَرُ: المرجاني، التَّعْرِيفَاتُ، 8، 92.

كَيْدًا لَقَدْ لَعِبُوا بِالَّذِينَ فَانْحَفَضَتْ أَحْكَامُهُ حِينَ نَالُوا شَامِخَ الرَّتَبِ  
وَالْجَهْلُ أَعْيَا الْوَرَى عَنِ فَتَقِ رَنْقَتِهِمْ وَاسْتَهْدَفَ الدِّينُ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ<sup>974</sup>

ويظهر - كما في البيت الثاني - جمع أبي الهدي إلى جانب الهجاء طرْحًا حَفِيًّا منه للحلول التي تُواجه بها هذه الفئة من المعارضين المُعرضين الذين استهدفوا الدين وهو التسلُّح بسلاح العلم، إذ لولا الجهل والجهلاء لَمَا استشرى خطرُ هذه الفئة التي هجأها بالزُّور والتفاني وسوء الأخلاق والفلسفة الهابطة؛ كما يظهر أيضًا لَمَّا هجأ المنبهرين بحضارة الغرب المُعادين للإسلام طرْحُهُ لِحْلٍ ناجع هو الأخذ بأسباب التهوُّص عند الغرب من صناعةٍ وعلومٍ مُستجدَّةٍ وعدم الاكتفاء بتقليدهم في المآكل والمشارب والملابس، وهو بذلك يقترب بنظرته من ذات النظرة التي كانت عند السُّلطان عبد الحميد الثاني؛<sup>975</sup> وهذا قد يُؤكِّد تصويب الرأي القائل بتصنيف هذا النوع من الهجاء عند أبي الهدي ضمن ما يُسمَّى بالنقد الاجتماعي.

## ب فئة المتصوِّفة

وهي الفئة التي يرى الشاعر أفرادها دُخلاء على التصوِّف الحقيقي، ومن الجدير بالذكر أنَّ هجاءه مُنطِقٌ من كونه مُتقلِّدًا لمنصب شيخ المشايخ، فهو غير بعيدٍ عن أعماق الأجواء الحقيقية لمشايخ التصوِّف آنذاك، وقد برزت في شعره<sup>976</sup> صورة التصوِّف الحقيقي التي ارتسَّمت في ذهنه خلال ما بُنِّه في وعظه ناصحًا لأهل التصوِّف، حيثُ كان يرى أنَّ الطريقة محضُ اتباعٍ لسُنَّةِ أحمدَ صلَّى الله عليه

<sup>974</sup> د.ت.ب، 21.

<sup>975</sup> يُنظر: حرب، مُتكررات السُّلطان عبد الحميد، 164.

<sup>976</sup> وذلك في غرض الوعظ، يُنظر: ص 269-270.

وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَلَالٌ فِي ضَلَالٍ -عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ-؛ وَمَنْ أَجَلَ هَذَا فَإِنَّ أَبَا الْهُدَى رَاحَ يَهْجُو كُلَّ مُخَالِفٍ لِهَذَا الْحَقِّ الْأَبْلَجِ مِمَّنْ اتَّخَذَ الطَّرِيقَةَ أَسْلُوبًا لِحِدَاعِ النَّاسِ أَوْ إِشْغَالِهِمْ بِمَا لَا يُجْدِي.

وَقَدْ كَانَ يُسَلِّطُ هِجَاءَهُ عَلَى الْمَشَايخِ الْمَدَّعِينَ لِلْإِرْشَادِ زُورًا وَمُهْتَانًا وَيَعِيْبُهُمْ بِأَنَّهُمْ أَرَادُوا النَّاسَ، فَكُنِّيَ بِقَوْلِهِ (لَا قَالَ وَلَا حَالٌ) عَنْ تَرَدِّي حَالَتِهِمْ وَسُوءِ طِبَائِعِهِمْ، فَلَا هُمْ اهْتَدَوْا بَعْلِمٍ يُتَّفَعُ بِهِ وَلَا هُمْ تَزَكَّوْا بِزَكَاةٍ الْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ، وَإِنَّمَا رَأْسُ مَا لِهِمُ الْأَمَانِيُّ وَالْأَمَالُ وَسَكْرَةٌ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ الَّتِي أَبْطَلَتْ كُلَّ عَزِيمَةٍ مِنْهُمْ عَلَى التَّغْيِيرِ أَوْ الْإِحْسَانِ؛ يَقُولُ هَاجِيًّا لَهُمْ بِأَنَّهُمْ "الطَّعَامُ"<sup>977</sup> الَّذِينَ ضَلُّوا عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ:

وَطَعَامٌ قَوْمٍ تَزْعُمُ الْإِرْشَادَ لَا قَالَ وَلَا عِنْدَ التَّرَاخُمِ حَالٌ  
قَدْ أَخْطَأُوا النَّهْجَ السَّوِيَّ وَأَبْطَلَتْ عِزْمَ الْعِزَائِمِ مِنْهُمْ الْأَمَالَ<sup>978</sup>

وَيَكَادُ يُكْذِبُ الْوَاقِعَ الْمُرِيرَ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ مَنْ تَصَدَّى الْجُهَّالِ لِمَقَامِ الْإِرْشَادِ فَيُظُنُّ أَنَّهُ فِي أَحْلَامٍ لَيْسَتْ لَهَا أَيُّ عِلَاقَةٍ فِي حَقِيقَةِ الْوَاقِعِ، فَيَقُولُ:

جَاهِلٌ مُرْشِدٌ وَخَبَلٌ<sup>979</sup> أَمِيرٌ مَا لِهَذَا الْمَنَامِ مِنْ تَعْبِيرٍ  
هَذِهِ آيَةُ الزَّمَانِ فَهَاتُوا أَسْمِعُونَا غَرَائِبَ التَّفْسِيرِ<sup>980</sup>

فَهُوَ يَتَعَجَّبُ مِنَ الْوَاقِعِ الْمُرِيرِ فِي عَصْرِهِ مِنْ انْقِلَابِ الْمَوَازِينِ، وَلَا يَرَاهُ إِلَّا مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ الَّتِي لَا تَفْسِيرَ لَهَا، إِذِ الْمَنْطِقُ الْعَقْلِيُّ لَا يَقْبَلُ بِهَذَا الْعَبَثِ الْحَاصِلِ عِنْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ، فَيَهْجُوهُمْ بِأَنَّ الْجُهَّالَ مِنْهُمْ

<sup>977</sup> أَوْغَاذُ النَّاسِ وَسَقَلْتُهُمْ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "طَعْمٌ"، 368/12.

<sup>978</sup> د.ر.ت، 190.

<sup>979</sup> فَاسِدُ الْعَقْلِ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "خَبَلٌ"، 1682/4.

<sup>980</sup> د.ر.ب، 37.

قام الواحد منهم بصورة مُرشِدٍ للخلق، بل ويدعي زوراً ومُبتاناً أنه على قَدَمِ رجالات السلف الصالحين أهل صدق المعاملة مع الله، يقول مُستعملاً الجنس الاشتقائيّ (الخبَل/البلخي):

والخبَلُ كالبَلخيِّ صارَ عارفاً به ومطموسُ الفؤادِ قُطباً<sup>981</sup>

فهو يهجوهم بأنَّ كلَّ مخلولٍ عقلٍ وفاسدٍ طَورٍ قد صارَ يجلسُ مُتصدِّراً في مقامِ الإرشادِ بثِقَةٍ وقوَّةٍ يتكلَّمُ وكأنَّه الزَّاهد المشهور والمجاهد الكبير شقيق البَلخيِّ (ت.194م/810م)،<sup>982</sup> بل وكلُّ مَنْ طُمست بصيرتُه أُضفيَ عليه من الجهالِ كلِّ عالٍ من الألقاب وشريفٍ من الرُّتب؛ وتعدُّ هذه الصِّفة -إلقاء الألقاب جُزافاً- من أبرز الأشياء التي هجا الشاعِرُ بها هذه الفئَة، حيثُ يرى ضمنَ قصيدةٍ أُخرى -بثَّ في كلماتها ما في قلبه من الحُزن- أنَّ الصالحين قد ذَهبت رِكائبُهم، وأقفرت الدِّيارُ من بعد رحيلهم وبقيت هذه الفئَة من المُدعين تتملُّ بسكرةٍ الادِّعاءاتِ والخيالاتِ الفارغة بتعظيم هذا وذاك من المشايخ الضَّالِّين، فيقول:

راح الكرامُ الصادقون وقد مَضوا وتخالَفَ الأطوارُ والأزمانُ  
تمضي الرِّجالُ على خيالٍ زُعموها وكذا فلانُ شأنُه وفلانُ<sup>983</sup>

ومن جُملة ما هجا به أبو الهُدَى هذه الفئَة ما رَمَها به من تلبُّسٍ بأزياءٍ مُعيَّنة يُقلِّدون بها الأوائلَ من قافلةِ التَّصوِّفِ الحقيقيِّ، مع انحصارِ الكثيرين منهم بقوَّعةِ الرُّموزِ والحروفِ والتَّكهُناتِ للمستقبل، ويُرافِقُ ذلك تقاعُّسٌ عن العلم الحقيقيِّ، وبطالةٌ حطَّتْهم في دركاتِها عن مراتبِ التَّرقِّي في درجاتِ منازلِ العلم والأخلاق العليَّة، حيثُ استخدمَ التَّشبيه التَّمثيليِّ ليجعلَ من تشبُّه هذه الفئَة

<sup>981</sup> د.م.ش، 49.

<sup>982</sup> يُنظر: الزركلي، الأعلام، 3/171.

<sup>983</sup> د.ر.ت، 273.

-زورًا- بالأوائل من القوم الصالحين كمُشابهة بُغاثِ الطير لسباعِها؛ فبعد أن ساقَ أبياتَ جدِّه أحمد الصيَّاد القائل في قطعةٍ له مُحاطبًا أحدَ أفرادِ هذه الفِئَةِ، مُعَرِّضًا بتفَاعُسه عن العلمِ وهبوطِهِ في دَرَكِ الجَهِلِ:

القومُ في السُّورِ الأولى منازلُهُم وأنتَ بينَ أبي جادٍ وهوازٍ<sup>984</sup>

أحقُّ أبو الهُدَى هِجاءُهُ لِكُلِّ هذه الفِئَةِ مُضَمِّناً قولَهُ إيجازِ الحذفِ (لا خَلاقَ لهم)،<sup>985</sup> فقال:

يُزَاحِمُ القومَ قومٌ لا خَلاقَ لهم بزعمِهِم طيشَ هَمَّازٍ ولَمَّازٍ

ما ماثلوا القومَ في عالي مَرَاتِبِهِم إلا كما ماثَلَّ العصفورُ للَبَّازِ<sup>986</sup>

ولعلَّ أبرزَ هِجاءِ أبي الهُدَى لهذه الفِئَةِ كانَ قد صَبَّهَ على ما انتشرَ بينَ الجُهِهالِ من مُنحَرَفِ العقائدِ الباطِلَةِ، وشيوعِ الغناءِ والرَّقصِ في أوساطِهِم، كما قد مضى يُشَبِّهُ انكباهُم على المَلذَّاتِ والطَّعامِ والشَّرابِ بيَهُم الإبلِ الجائِعَةِ، فقال مُشَطِّراً قولَ القاضي أبي إسحاق إبراهيم بن عسكر الموصليِّ (ت. 610هـ/1213م) في ذمِّ الصُّوفِيَّةِ المُبتَدِعةِ،<sup>987</sup> وهو يتساءلُ وقد خَرَجَ بتساؤله عن مُقتَضَى الظاهرِ ليكونَ أبلغَ في التأثيرِ فبدأ بالتساؤلِ مُتَعَجِّباً مُسْتَنكِراً من أحوالِهِم المُنكَرَةِ مع ادِّعاءِهم الباطِلَةَ بأنَّهم على الحقِّ والهُدَى:

<sup>984</sup> د.ر.ح، 134.

<sup>985</sup> النَّصيب، ولعلَّ المراد لا نصيبَ لهم من أخلاقِ أولئك وشمايلِهِم، أو من نصيبِ الخيراتِ الأخرى، وبالمعنى الأخيرِ يضمُّ إلى البيتِ اقتباسَ التَّلْمِيحِ من القرآنِ الكريمِ، يُنظَرُ: الجوهري: "خلق"، 1471/4؛ آل عمران، 77/3.

<sup>986</sup> د.ر.ح، 134.

<sup>987</sup> يُنظَرُ: كمال الدِّين المبارك بن الشعار الموصلي، قلائد الجمال في فرائد شعراء هذا الزَّمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2005م)، 76/1.

(متى سَمِعَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ) عَقَائِدَ أَسْلُوبُهَا مُبْتَدَعٌ  
وَأَنَّ طَرِيقَ رِجَالِ الْهُدَى (بِأَنَّ الْغِنَا سُنَّةٌ تُتَّبَعُ)  
(وَأَنْ يَأْكَلَ الْمَرْءُ أَكْلَ الْبَعِيرِ) وَقَدْ أَلِفَ الْقَوْمُ تَرَكَ الشَّبَعُ  
وَأَنْ يَسْمَعَ الْقَوْلَ قَوْلَ الْقَبِيحِ (وَيَرْفُصَ فِي الْجَمْعِ حَتَّى يَقَعَ)<sup>988</sup>

وينجلي مما سبق سوقه من الشواهد أن أبا الهُدَى قصرَ هجاءه لفئة المدعين على عِدَّةِ أمورٍ هي: التَّشْبُه من دون أدنى حَقُّق، وبروزِ ظاهرة الجُهَّال الذين ضلُّوا وأضلُّوا، كما انتقدَ ظاهرة الألقاب التي تزيد من كِبَرِ هؤلاء الجُهَّال وأتباعهم، إضافةً إلى إصاقِ تَهْمَةِ الجهل الذي هوى بهم في مهاوي الانحرافات في العقائد والأعمال ودركاتِ الاتباع للشهوات الدنيوية؛ وهجاء هذه الفئة من المتصوِّفة يُمْكِنُ عَدُّهُ توثيقًا تاريخيًا لمرحلةٍ من مراحل هذه الفئة في ذلك العصر، من خلال تسليطِ الشاعِرِ الضَّوءِ على فسادها الذي يراه مُتَفَقِّشِيًا ينخرُ في جسدِ المجتمع آنذاك.

### ج فئة الحُساد

لَمَّا كَانَ أَبُو الْهُدَى قَدْ تَبَوَّأَ مَكَانَةً لَمْ يَكُنْ فِي مُخَيَّلَةِ أَحَدٍ حَتَّى الطَّمُوحِ إِلَيْهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ يِنَالَهَا وَيَصِلَ إِلَى سُدَّتِهَا،<sup>989</sup> فَقَدْ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَرْمُقَهُ عَيُونَُ فِئَةٍ مِنَ الْحُسَادِ وَتَرْمِيَهُ بِشَرَرِ الْأَكَاذِيبِ وَالْإِفْتِرَاءَاتِ، وَلَطَالَمَا نَثَرَ أَبُو الْهُدَى فِي بَطُونِ كِتَابِهِ مَا يُعَبِّرُ عَنْ أَلَمِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَكَاذِيبِ وَالشَّائِعَاتِ الَّتِي لَفَّقَتْهَا عَلَيْهِ، وَفِي شِعْرِهِ الْهَجَائِيِّ مَا وُجِّهَ مَخْصُوصًا ضِدَّ هَذِهِ الْفِئَةِ -فِئَةِ الْحُسَادِ-، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْأَصْنَافِ الَّتِي اعْتَرَضَتْهُ مِنَ الْحُسَادِ وَالْحَاقِدِينَ، وَقَدْ أَتَى بِالْأَدَاةِ (كَمْ) وَحَرِصَ عَلَى

<sup>988</sup> د.ر.ح، 134.

<sup>989</sup> يُظَر: ص12.

تكرارها ليلفت الأذهان إلى كثرة من لقيهم من هؤلاء الأشخاص، وبتكرارها إطنابٌ يدلُّ على ما احتدَم في داخله من مشاعرِ الألم منهم:

عَجِبْتُ لِمُبْتَاعِ الضَّلَالَةِ بِالهُدَى      عَنَادًا وَهَلْ ذُو الْعَيِّ غَيْرُ مُعَانِدِ  
فَكَمْ جَاهِلٍ يَبْدُو بِأَمْرَاطِ عَالِمٍ      وَكَمْ كَافِرٍ مُسْتَصْحَبِ اسْمِ عَابِدِ  
وَكَمْ نَاقِصٍ يَحْتَالُ فِي طَوْرِ كَامِلٍ      وَكَمْ مِنْ حَرِيصٍ لَا بَسَّ ثَوْبٍ زَاهِدٍ<sup>990</sup>

فهم مُعَانِدُونَ ضَالُّونَ تَلَبَّسُوا مُتَشَبِّعِينَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، وَالَّذِي يَلْفِتُ الْإِنْتِبَاهَ فِي هَجَائِهِ لِهَذِهِ الْفِئَةِ لَيْسَ انْتِقَاصُهُ مِنْهُمْ عَبْرَ عَيْبِهِمْ بِالْجَهْلِ وَالنَّقْصِ وَالْبُخْلِ وَلَكِنْ مَا وَصَمَهُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ الَّذِي غَطَّوهُ بِسِتَارِ الْعِبَادَةِ وَأَطْوَارِهَا، مِمَّا يَجْعَلُ النَّاطِرَ فِي هَذَا الْهَجَاءِ يُرَجِّحُ اشْتِمَالَ هَذِهِ الْفِئَةِ الَّتِي هَجَاهَا أَبُو الْهُدَى عَلَى طَائِفَةٍ مِمَّنْ زَاغَتْ عَقَائِدُهُمْ مِنَ الْعِبَادِ، وَقَدْ لَا يَتَرَجَّحُ تَعْيِينُ مَنْ عَرَّضَ بِهِمْ فِي هَذَا الْهَجَاءِ، فِيمَا إِذَا كَانَ الْمَعْنِيُّونَ هُمْ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَتَارَةً يَأْتِي بِهَجَاءٍ يَسْمُ فِيهِ حُسَادَهُ بِأَنَّهُمْ فَنَاءٌ أَذِلَّاءٌ أَكْثَرُوا التَّهْوِيلَ بِإِشَاعَاتٍ كَاذِبَةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تَلْفِيهِمْ وَلَمْ يَهْتَمَّ بِتَفْنِيدِ أَكَاذِبِهِمْ، بَلْ لَمْ يَكْتَرِثْ بِهِمْ أَصْلًا، فَمَثَلُهُمْ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ وَيُتْرَكُ عَلَى حَالِهِ، وَيَسُوقُ فِي هَجَائِهِ التَّشْبِيهَ التَّمثِيلِيَّ لِصُورَتَيْنِ مُتْقَابِلَتَيْنِ، فَيَأْتِي بِصُورَةٍ تَطَاوَلَ حُسَادُهُ عَلَيْهِ وَإِهْمَالِهِ لَهُمْ لِصَغَارِهِمْ فَهُوَ تَارِكُهُمْ عَلَى حَالِهِمْ، ثُمَّ يَأْتِي بِصُورَةٍ مُشَاهِمَةٍ أُخْرَى هِيَ صُورَةُ تَطَاوُلِ الدُّبَابِ عَلَى الْبَشَرِ وَإِهْمَالِهِمْ لَهُ بِسَبَبِ هَوَانِهِ :

تُرَكُّوا عَلَى تَهْوِيلِهِمْ لِهَوَانِهِمْ      وَكَذَا الدُّبَابُ لضعفِ صُورَتِهِ سَلِمَ<sup>991</sup>

<sup>990</sup> د.ر.ت، 83.

<sup>991</sup> د.ر.ت، 238.

لكنّ نبرة الصّوت الهجائيّة ترتفع عند الشّاعر في موضعٍ هجا به المفترين المتّهمين من حسّاده  
بأنّهم من بقايا قاتل الإمام الحسين رضي الله عنه ومن لفّ لفّه من لفيّف أعداء آل البيت النّبويّ، إذ جعل  
مهجّويه من أذناّب ذاك اللّيف، ولم يكتفِ بهذا بل وصّمهم - من طريق الاستعارة المكنيّة - بأنّهم  
كلابٌ شيمتها النّبأخ على الأشراف الذين ابتلوا في كلّ عصرٍ بأمثالهم من الأوغاد، فيقول:

لَعَنَ الْإِلَهَ يَزِيدَ وَالْبَاقِينَ مِنْ أَشْيَاعِهِ الْأَنْدَالَ طَائِفَةَ الْخَنَا<sup>992</sup>

لَا بَأْسَ إِنْ نَبَحُوا عَلَيْنَا فِرْيَةً فَالْحُرُّ مُتَّحِنٌ بِأَوْلَادِ الزَّيْنَا<sup>993</sup>

ويبدو أنّ حسّاده قد أنصّبوا المطايا ماضين في دربٍ أدبته، إلى أن أوصلوه إلى مرحلةٍ راح يهجوهم  
بإقذاع حبسهم فيه ضمن قفص الاتّهام بأنّهم ذرّيّة السّفاح - كما ظهر في البيتين السّابقين -، وهي  
هُمّةٌ تتكرّر في موضعٍ آخر أردف إلى جانبها ذمّاً شنيعاً لصفات هؤلاء الحسّاد فقال:

يُنَازِعُنِي الْمَجْدَ الصَّمِيمَ سَوَاقِطٌ مَعَ الْعَرَضِ الْأَدْنَى تَقَلُّ وَتَكْتَرُ

دَعِيُونَ لَا أُمَّ حَصَانٌ وَلَا أَبٌ وَلِلْفَيْلِ مِنْهُمْ يَسْجُدُ الْمُتَكَبِّرُ

ثَقِيلٌ إِذَا لَاقَى الْكِرَامَ بِمَحْفَلٍ خَفِيفٌ إِذَا قَامَ كَالْقَرْدِ يَسْكُرُ<sup>994</sup>

فمهجّوؤه من أداني النّاسٍ وعديمي الشّرف الذين هجاهم بأنّهم المتكبرون الثّقلاء عبّاد الأغراض الذين  
يخطّون رواجلهم حيثما سار بهم غرضهم ضاربين بالقيّم والأخلاق عرض الحائط، ولكي يبالغ في  
إقذاعه في هجائهم فقد أتى بأسلوب المطابقة في تبين شنيع طبائعهم فهم متكبرون على الخلق  
لكنّهم أدلاء يشوبهم الصّعار إذا ما لاح لأعينهم بريق المال، وهم الثّقلاء المتجهّمون على كلّ شريفٍ

<sup>992</sup> الفحش، يُنظر: الجوهري، "خنا"، 2332/6.

<sup>993</sup> د.ر.ت، 268.

<sup>994</sup> د.ر.ت، 110.

كريم الطباع لكنهم إذا ما خلوا مع شهوات الحرام الدنيئة فهم الأخفأ الذين شبّه واحدُهم -تشبيهاً مُرسلاً مُفصّلاً- بالقرد زيادةً منه في التشنيع عليهم ومبالغةً في هجائهم.

ويأتي في موضعٍ آخر بصورةٍ بيانيةٍ يُضَمُّنها الكناية عن جمائله وإحساناته المُتفَرِّدة إلى هذه الفئة (الأيادي البيض) وتُكرّر الأيام لهذه الجمائل وإبدائها بما عبّر عنه (بلون ذنوبي) كنايةً عن تشويبهها وقلبها سوداءً مُكفّهرةً كُفراً وجحداً، كما استعار لعزمه وهمته صورةَ الركن الذي يُهدُّ -من طريق الاستعارة المكنية-، مُبالغةً منه في تصوير أثر هذا الحاسد اللئيم في تكدير صفو حياته بما افتراه عليه من الاتِّهامات وما تلبّسَ به من الخيانات، وقد استعار لافتراءات الحواسد اللئام صورةَ السِّلاح الذي يُرمى به وذكر شيئاً من لوازمه وهو الهدف، وجعل من الهدف ذاته التي لم تنزل تُصوّب إليها غرائب افتراءات اللئام، حيث يقول:

بذلتُ الأيادي البيضَ غيرَ مُشاركٍ      بعَصْرِي فأبدتها بلونِ ذُنُوبِي  
وأعنتُ فؤادي باللئامِ ولم أزل      لهم هدفاً يُرمى بكلِّ عَجِيبِ  
وما هدَّ عزمي الحظُّ إلا بخائنٍ      عَتَلٍ زَنِيمٍ مُفْتَرٍ وكذوبٍ<sup>995</sup>

ولا بُدَّ أن مهجّويه بلغوا من إبدائه حدّاً جعله يندفع إلى هذا المستوى من الإقذاع في الهجاء، إذ إن هذين الشاهدين السابقيين هما أقدم ما عاب به أبو الهدي هاجياً أيّ فئة، أمّا ما عداها من الأبيات الهجائية فلم تتعدّ وصم مهجّوي هذه الفئة -فئة الحُسّاد- بالحرص والبخل والجهل والنفاق المحض.

وقد خلا هذا الصنف -هجاء الفئات- في كثيرٍ من مواضعه من الصُّور الفنية البيانية واكتفي فيه بما يدلُّ على تشرب هجائه للمذهب البدوي الذي يُيدي سُخطَ الشاعرِ واشتمزازه بل واستصغاره

<sup>995</sup> د.ر.ت، 28.

في بعض الأحيان من المهجّوين الذين تولّوا أذيتَهُ بدافع الحسد والبغضاء؛ مما يُرجّح صواب إمكانية القول: إنّ القيمة التّاريخيّة الاجتماعيّة لهذا الصّنف من الهجاء تفوق القيمة الأدبيّة، حيث وثقت ما ماجت به فئات المجتمع الذي عاش به الشّاعر آنذاك من فسادٍ وما كان يحمله الشّاعرُ ومَن على شاكَلتِهِ من نظرةٍ لتلك الفئات.

### 3 هجاء الزّمان

قد يحسُن في بداية هذا المطبّ استذكار حقيقة وجود هذه الظّاهرة في الشعر العربيّ منذ أمدٍ بعيدٍ يعودُ إلى العصر الجاهليّ، ويُطالِع النّاظرُ في كتب الأدبِ فصولاً معقودةً لأجل هذه الجزئيّة الشعريّة - القائمة على ذمّ الزّمان - فهذا أبو القاسم الأمدئيّ (ت. 370هـ/980م) في موازنته بين أشعار أبي تمام وأبي عبادة البُحتريّ (ت. 284هـ/897م) أفردَ باباً كاملاً في "ذكر الزّمان وظلمه واعوجاجه" ثم فرّع عنه فصلاً في ذمّ الزّمان على لسان الشّاعرين،<sup>996</sup> وابن عبد ربّه الأندلسيّ (ت. 328هـ/940م) في عقده أوقف فصلاً "لذمّ الزّمان" عضده برسالةٍ نثريّةٍ للجاحظِ رُفمت سطورها لذمّ الزّمان وأهله،<sup>997</sup> أمّا أبو منصور الثّعاليّ (ت. 429هـ/1038م) فإنّه لمّا جرّد قلمه لنشر فرائد المنظوم الشعريّ خصّصَ باباً للأشعار التي بهذا الصّدّد فأسماه "باب ذمّ الزّمان وانحطاط الكرام وارتفاع اللّثام"،<sup>998</sup> ولعلّ بروز هذه الظّاهرة في الشعر العربيّ دفع بالكاتب الأندلسيّ أبي عبد الرّحمن محمّد بن طاهر (ت. 508هـ/1114م) إلى إطلاق الحكم بأنّ "ذمّ الزّمان وبنيه مما أكثر النَّاسُ فيه"،<sup>999</sup> وهو حكمٌ قد لا يبعدُ عن الصّواب كثيراً إذا ما طوّلت السّطور التي حطّتها أفلامُ أعلام التّراث العربيّ في هذا

<sup>996</sup> الحسن بن بشر الأمدئيّ، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتريّ، تحقيق: السيّد أحمد صقر، (القاهرة: دار المعارف، 1982م)، 233/2، 235.

<sup>997</sup> شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسيّ، العقد الفريد (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1404هـ)، 186/2.

<sup>998</sup> أبو منصور عبد الملك بن محمّد الثّعاليّ التّيسابوريّ، نثر النّظم وحلّ العُقد (دمشق: مطبعة مجلس المعارف، 1300هـ/1883م)، 70.

<sup>999</sup> علي بن بسّام الشّنتريني، الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عبّاس، (تونس: الدّار العربيّة للكتاب، 1981م)، 32/5.

الشَّانِ، فعَلَامَةُ البَلَاغَةِ عبد القاهر الجرجاني كانت "أشعاره كثيرةً في ذمِّ الزَّمانِ وأهله"،<sup>1000</sup> وصلاح الدِّين الصَّفديّ (764هـ/1296م) جعل "ذمَّ الزَّمانِ والإخوان" غرضًا مُفردًا من بين أغراضه الشعريَّة التي بَوَّبَ وفقها شعره،<sup>1001</sup> وقد رصَّد أبو هلالٍ العسكريُّ هذه الظَّاهرة -هجاء الزَّمان- فرأى أنَّه ما من أحدٍ من الشعراءِ أَكثَرَ "في ذمِّ الزَّمانِ إكثارَ إبراهيم بن العباس" <sup>1002</sup> ويعني به الكاتب الشَّاعر أبا إسحاق الصُّويِّ (ت. 243هـ/857م)، وقد تَفَشَّت هذه الظَّاهرة وشاعت حتى وقعت "في كلام كثيرٍ من علماء المسلمين نظمًا ونثرًا"،<sup>1003</sup> ولَقَّت انتباهَ الحافظِ ابنِ عبد البرِّ (ت. 463هـ/1071م) فرأى أنَّها ظاهِرةٌ لم تتدقَّق على ألسنة الشعراءِ في الجاهليَّة فحسب بل استمرَّ إنشادُها على ألسنة الرِّواة والشُّعراءِ بعد الإسلامِ فدُمَّت الدنيا وسبَّ الدهرُ ودُمَّت اللَّيالي والأَيَّام حتى كانت أشعارُ هذا الباب "أكثرَ من أن يُحيطَ بها كتابٌ لو أُفردَ لها".<sup>1004</sup>

لكنَّه إذا ما سلِّمَ لمُتَنَبِّتِ إثباته لحضور هجاء الزَّمانِ في شعرِ الشعراءِ، فسيُستشكَلُ تصادُّمُ هذه الظَّاهرة الشعريَّة مع صريحِ النَّصِّ النَّبويِّ القائلِ: "لا تسبُّوا الدهرَ فإنَّ الله هو الدهرُ" و"لا يقولنَّ أحدُكم يا خيبة الدهرِ فإنَّ الدهرَ هو الله" إلى جانبِ ما وردَ في الحديثِ القدسيِّ: "يؤذيني ابنُ آدم

<sup>1000</sup> جمال الدين علي بن يوسف القفطي، إنباه الرِّواة على أنباه التَّحاة، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1406هـ/1986م)، 2/189.

<sup>1001</sup> صلاح الدِّين خليل بن أبيك الصَّفديّ، الرِّوض الباسم والعرف النَّاسم، تحقيق: محمَّد عبد المجيد لاشين، (القاهرة: دار الأفاق العربيَّة، 1435هـ/2005م)، 23.

<sup>1002</sup> أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكريّ، ديوان المعاني (بيروت: دار الجليل، د.ت)، 2/199.

<sup>1003</sup> صدر الدِّين علي ابن معصوم الحُسَيْنِي المدنيّ، أنوار الرِّبيع في أنواع البديع، تحقيق: شاکر هادي شكري، (التَّجف: مطبعة التَّعمان، 1388هـ/1968م)، 2/343.

<sup>1004</sup> يوسف بن عبد الله ابن عبد البرِّ، الاستنكار، تحقيق: سالم عطا-محمَّد عوض، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1421هـ/2000م)، 8/551، 552، 553.

يَسْبُ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ"،<sup>1005</sup> ولعلَّ هذا الاستشكال - لا سيَّما وقد وردَ على لسانِ علماء المسلمين - قد يزولُ إذا ما استصحَبَ الدَّهْرُ أَنَّ الجاهليَّينَ كانَ منهم دهرِيُّونَ لم يُؤْمِنُوا بوجودِ الإلهِ الخالقِ جلَّ وعلا فكانوا إذا ما نَزَلَتْ بساحتِهِمْ مُصِيبَةٌ أو حَلَّتْ بدارِهِمْ كارِثَةٌ نَسَبُوا فَعَلَ هذه المصائبِ إلى الدَّهْرِ والزَّمانِ فبادروا إلى هجائِهِ وَسَبِّهِ وَشَتْمِهِ لأَنَّهُم رَأَوْهُ الفاعِلَ الحَقِيقِيَّ إذ قالوا: "إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتِنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"،<sup>1006</sup> ولا شكَّ أَنَّ الانطلاقَ في ميادين هجاءِ الزَّمانِ لا يجوزُ - حسبما يرى علماء الشَّرْعِ الحنيفِ - إذا كانَ على اعتقادِ أَنَّ الدَّهْرَ سَبَبٌ للحوادثِ، وإِنَّمَا جازَ هِجَاؤُهُ باعتقادِ أَنَّهُ ظرفٌ للحوادثِ وليس سببًا لها، والمسلمُ إذا ما صَدَرَ منه هجاءٌ للزَّمانِ فَإِنَّ أَكثَرَهُ يَنْصَبُ على ما يراهُ من فسادِ مُستَشَرِّ في مظاهرِ اجتماعيَّةٍ أو سياسيَّةٍ وما إلى ذلك.<sup>1007</sup>

وإنَّ أبا الهُدَى قد عاصرَ الفترةَ الزَّمنيَّةَ التي امتلأتْ بالحوادثِ الجسامِ فقد كانتِ الدَّولةُ العثمانيَّةُ تَلْفِظُ أنفاسَها الأخيرةَ، حيثُ أخذتْ تقاومُ الاحتضارَ الذي طالَ جَسَدُها المُنْهَكَ الذي أُطْلِقَ عليه مُسَمَّى "الرَّجُلِ المَرِيضِ"،<sup>1008</sup> ولعلَّه رأى بأَمِّ عَيْنِيهِ كيفَ أخذتِ الأَكَلَةُ تقضمُ رُقْعَةَ بُلْدانِها المُتْرَمِيَّةِ الأَطرافِ، بل إِنَّه لم يَكُنْ بمنأى عما يُحَاكُ من مُؤامراتٍ للإجهازِ على بني الإسلامِ، ولا عما يُنْصَبُ من فِخاخٍ لإسقاطِ دولَتِهِمْ، فهو - كما قد مرَّ في حَيَاتِهِ - مُستشارُ السُّلطانِ عبد الحميدِ والمقرَّبُ من البابِ العالِي الذي رُبِطَتْ به كلُّ شُؤوناتِ الدَّولةِ، ومن المُؤكِّدِ أَنَّهُ كانَ يرى ما لا يراهُ غيرُهُ ممن لم تسنحَ لهم ظروفُ تلكِ الأَيَّامِ العصيَّةِ أن يضعوا أيديهم على حقيقةِ الجُروحِ التي مُنيتْ

<sup>1005</sup> ابن عبد البرِّ، الاستدكار، 550/8.

<sup>1006</sup> الجاثية، 24/45.

<sup>1007</sup> يُنظَر: ابن عبد البرِّ، الاستدكار، 553/8؛ ابن معصوم، الأنوار، 343/2.

<sup>1008</sup> أطلقهُ قيصرُ روسيا سنة 1269هـ/1853م ثم لم يلبث أن شاع بعد ذلك بين جميع أعداء الدَّولة العثمانيَّة وغيرهم، يُنظَر: مجمع اللُّغة العربيَّة في القاهرة، مجموعة المصطلحات العلميَّة والفنِّيَّة التي أقرَّها المجمع (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريَّة، 1399هـ/1979م)، 126/21.

بها معاقِل المسلمين حتى راحت تنهاوى صروحها أمام الأعين الواحدة تلو الأخرى بدعاوي الحقوق والحريّات وإلى غير ذلك مما لاكنه ألسنُ الأعلام والإعلام وما هيّجته من رياح الفتن الطائفية والعرقية التي أودت بتلك البلدان،<sup>1009</sup> مما استثارَ دفينَ الحزنِ عند أبي الهُدَى على حالة تلك البلادِ وما وصَلت إليه.

وقبلَ البدءِ بما في صَدِده هذا المطلبُ قد يحسُنُ تَلْمُسُ مشاعرِ أبي الهُدَى التي عاشها في تلك الأيّام، عندما يُلْمَحُ الحزنُ في أبياتٍ عبّرَ فيها بألمٍ عما لحقَ بتلك البلاد الإسلامية من تَسَلُّطِ الأشرار من غير المسلمين وانخداع المسلمين ببضاعَتِهِم وارتشافِهِم سَمِّهم الزُّعافِ رحيقًا فُلبِت فيه الحقائق، حتى صارَ الدَّواءُ داءًا والعدوُّ صديقًا يُسْتَنجَدُ به ويُستعان، حيث يقول:

وديارٍ طالت يدُ الدِّينِ فيها      لَعِبَتْ فوق سطحِها الكُفَّارُ  
وتعدَّى الحدودَ كلُّ لئيمِ الطِّ      طَبِعَ واستُحسِنَ الصِّرَّارُ  
وتوالى قلبُ الحقائقِ حتى      قال قومٌ في اللَّيلِ هذا النَّهارُ<sup>1010</sup>

ولربما استرعى الانتباهَ ما يُثيرُ التَّساؤلَ عن مغزى التفاتِ أبي الهُدَى إلى هجاءِ الزَّمانِ بأكمَلِهِ وما حمَلَهُ من نقضٍ وقبضٍ ورفعٍ وخفضٍ، مع العلم بأنَّ الكلامَ قد لا يُقدِّمُ بَلَهَ لا يُؤخِّرُ في ساحةِ الواقعِ شيئًا، ولكنَّ أبياتٍ كان قد حَبَّأها في ثنايا قصيدةٍ هجائيةٍ من هذا الصِّنفِ قد يتلاشى بها هذا التَّساؤلُ، حيث استجلبَ لِمَا نَظَمَهُ من الأبياتِ التي يبوخُ فيها بهجاءِ الزَّمانِ الاستعارةَ التَّصريحِيَّةَ فجعلَ منها خيطًا يُخاطُ به ما لحقَ بالقلبِ من جروحِ هاضمتها أحوالُ الزَّمانِ وتقلُّباتُ أهله، رغمَ

<sup>1009</sup> يُنظر: الأمير شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن سويدان، (دمشق: دار ابن كثير، 1432هـ/2011م)، 577؛ حسَّان علي حلاق، دور اليهود والقوى الدَّولية في خلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عن العرش (بيروت: الدَّار الجامعية، د.ت)، 32، 113.

<sup>1010</sup> د.م.ش، 118.

علمه اليقيني أنه يسلي نفسه بشيء قد لا يجدي نفعاً، إذ التيار أعتى من أن يُقاوم، وشؤونات الزمان  
وماسيه أعسى من أن تُقوم، فيقول:

ونفتة مصدر يفوه بسرّها أخو أرق أعنته سود الطوائل  
يخيط بها جرح الفؤاد بزعمه وذلك زعم باطل أي باطل  
زماناً رأينا من عجيب فعّاله شؤوناً تهز الأرض هزّ الزلازل<sup>1011</sup>

إذن فالشاعر لم يكن بهذا الصنف من شعره الهجائي إلا راجياً سلوان قلبه المكلوم من شؤونات عجيبة  
نابت حسام أمته المثلوم، مع علمه أنّها كلمات هيهات أن تُداوي جراحه وإنما هي مُتنفّسٌ بيتٌ فيه  
ما توقّد من لهيب حزنه، علّ بهذا البتّ أن يُخفّف به شيء من وطأة الآلام والعُصص التي يظهر في  
شعره كيف كان يتجرّعها من زمانه المريض، ولذلك فقد يكمن ضمن ثنايا هذا النوع شيء من بوحه  
بالأسى والألم لما حلّ بواقع تلك الأيام، وبهذا يغدو غرض الهجاء في هذا الموضع مزوجاً بغرض  
الشكوى.

ويمكن القول إنّ أبا الهدي لم يلق بالاً إلى المُقدّمات والمطالع التي يستفتح بها قصائد هذا  
النوع من الهجاء، وعلى الرّغم من جريانه على هذا المنوال في عموم قصائد هذا الصنف من الهجاء،  
فإنّه قد يستهلّ بعضها بالبيت والبيتين ثم يتتابع بعد ذلك مجيء الأبيات مُسترسلةً في الهجاء؛ ولعلّ  
مما يمثّل هذه المطالع قوله مُفتتحاً قصيدته مخاطباً محبوبته "مي"، ولعلّه يكتي بها عن نفسه التي راح  
يُصبرها بأن ما تمرّ به من أحداثٍ حسامٍ إنما هي حوادثٌ دنيويةٌ من شأنها التحوّل والتغيّر فهي ما  
تلبث تبرز في لحظة ثم تنطوي مُتغيّرةً في لحظةٍ أخرى، فيشبهها تشبيهاً بليغاً بالأفياء المتحوّلة - بعد أن  
أهمل أداة التشبيه ووجه الشبه بين عنصري التشبيه وهو (الانتقال والتغيّر والتحوّل) -، وكأنّه يُقدّم

<sup>1011</sup> د.ر.ت، 182.

لنفسه ولسامعه رسالة مفادها أن ما للعاقِل في مُجابهة ما لا طاقة له به في هذا الزمان إلا الصبر والتصبر:

صبراً أمي فذي الشُخوصُ حَيالٌ والحادثاتُ كما عَلِمَتِ ظلالٌ<sup>1012</sup>

وتارةً يستفتح هجاءه طالباً من مخاطبه أن يُقلِّب طرفه في حوادث الزمان وعجائبه وتقلبات أحواله، التي تنم عن فساد طوره وقساوة أيامه العصيبة، مُستعيراً لهذا الزمان وصف اللدغ اللاذع الذي فاق جراح الحراب والأسنة - وذلك من طريق الاستعارة المكنية المرشحة - حيث قال:

أجل طرف اعتبارك في الزمان تر العجب العجاب بلا تواني

مشى متبهينسا<sup>1013</sup> ينساب لوماً وجاوز لدغ طعن السنان<sup>1014</sup>

وقد كان هذا الهجاء للزمان مُتَشَعِّباً إلى نقدٍ لأبرز ما مثل أمام عيني أبي الهدى من معاييه ونقائصه، كما أنه سلك في هجاء هذه المظاهر مسلك تصويرها بما أوتيه من صورٍ بيانيةٍ تشرح شناعتها وتطبع لدى القارئ شعورَ الاشمزاز من قباحتها؛ فهذا هو وقد صور تردّي حالة زمينه بصورة بيانية تصوّر حالة الزمان وترديه؛ فجعل للمجد والشرف إنساناً أصابته الرزايا حتى راح يعض بدمع الأسى كئيباً وحيداً بعد أن بارزه بالعداء وارتقى مكانه نقيضه إنسان العار والدل؛ فقال:

تنكر قوم بالزمان وطورهم به يعرف الخذاق شأن الأوائل

وقد شرق المجد الأثيل بدمعه وبات عليلاً ناكصاً رأس خامل<sup>1015</sup>

<sup>1012</sup> د.ر.ت، 189.

<sup>1013</sup> مُتَبَحِّثراً، يُنظَر: الجوهري، "بَحَس"، 910/3.

<sup>1014</sup> د.ت.ب، 109.

<sup>1015</sup> د.ر.ت، 185.

وبهذين البيتين يكونُ أبو الهُدَى قد أعرَض عن الأسلوب المباشر في هجاء الزَّمان وأهله ورميهم بجهلٍ محتدِّهم ونَسبهم وسوءِ فعَالهم، واكتفى بالإحالة إلى فهم السَّماعِ لِمَا يُرمى إليه من هذا المعنى المُراد من خلال لجوئه إلى الإيجاز والاكتفاء بالإشارة الرمزِيَّة التي يُدرِكها القارئ اللَّماح،<sup>1016</sup> فهو قد أشار في البيت الأوَّل -من طريق الكناية- إلى استتارِ فئامٍ من النَّاسِ بعباءةِ الزَّمنِ رغمَ انكشافِ حقيقةِ أمرهم وأصلِ منشئهم لدى كلِّ عاقلٍ، وذلك بما يقترفونه من فعَالٍ ويتزيُّونَ به من أطوارٍ تحكي سوءَ أصلهم وشرَّ منبئهم الذي نبتوا منه، ثم التفت إلى معنى المجدِ المُجرَّد فجعلَ منه ذاتًا إنسانيَّةً استعارَ لها وصفَ العُصَّةِ ولكنها ليست بماءٍ أو بريقٍ وإنما هي عُصَّةٌ بالدموعِ المنسكبة حُزنًا وألمًا على ذويه من رجالات المجدِ الأصيل، وجعل هذه الاستعارة المكنيَّة مُرشحةً بإضافة وصفِ العِلَّةِ والتَّنكيصِ والخمولِ لذاتِ المجدِ، إغراقًا منه في تصويرِ حالةِ هذا الزَّمانِ، ورميه بعيبِ ظاهرةِ انتكاسِ الأمورِ فيه على رأسها. وعلى ذات الوتيرة سارَ في بدائعِ تصويراته البيانيَّة التي رسمَ بها لوحةَ ذمِّ الزَّمانِ العصيب عندما قال:

دواعٍ من الأيَّامِ لا دَرَّ دَرُّها لها مُقلُّ الآسادِ كالأنفِ تَرَعَفُ<sup>1017</sup>

لها اللِّينُ يبكي والعزائمُ ترتدي حدادًا وعينُ المجدِ بالحزبي تُظرفُ<sup>1018</sup>

فهو يأتي بلفظة (الآساد) للكناية عن أعالي النَّاسِ وأشرفهم ويجعل عيونهم تبكي كمدًا وقهراً ويبالغ في وصفِ هذا البكاءِ فيجعل العيونَ مُجاوِزةً لحدِّ استنزافِ الدموعِ إلى أن صارت تنزِفُ الدِّماءَ، مُشبِّهاً لهذا التزييفِ بالرُّعافِ، مُبالغةً منه في الكناية عن درَجَةِ الحُزنِ الذي اعتَصَرَ عليه النَّاسُ وحُلِّصَ

<sup>1016</sup> يُنظر: حَبَنَكَة، البلاغة، 96/1.

<sup>1017</sup> بضم العين وفتحها وهو من الرُّعاف أي الدَّم الذي يخرج من الأنفِ لمرضٍ ونحوه، يُنظر: الجوهري، "رعف"، 1365/4.

<sup>1018</sup> د.ر.ت، 185؛ وثيابُ الحدادِ هي ثيابُ المأتمِّ السود، يُنظر: الجوهري، "حدد"، 463/2.

أشرفهم، ثم يَسْتَطِرِدُ في ذَمِّ حَوَادِثِ الأَيَّامِ فيسْتَعِيرُ لِلدِّينِ وَصَفَ البُكَاءِ وَيَجْعَلُ الهِمَمَ العَلِيَّةَ إنساناً يرتدي ثوبَ الأَحْزانِ، وَأَمَّا المجد فقد جعل له هو الآخر عينا نالها وخزاتٍ من الأَسَى والأشجان التي جَرَّتْها مصائبُ تلك الأَيَّامِ - وكلُّ ذلك من طريق الاستعارة المكنية-؛ والشاعرُ بكلِّ هذا يُحاوِلُ أن يُجَلِّيَ أمام السَّامِعِ شيئاً من صورة القَتَامِ الذي نابَ أَيَّامَ ذلك الزَّمانِ العَصبِ، الذي انبرى لهجائه عبرَ نقدِ المظاهرِ السَّلْبِيَّةِ التي فَشَتْ في أَيَّامِهِ وأدَمَّتْ فؤادَهُ بِجَرَبَةِ الأَحْزانِ والأَسَى.

ومن أبرز هذه المظاهر التي هجا بها الزَّمانَ وجعلها وصمةً عارٍ في جبينه، هي ظاهرة ارتكاس المعالي، بتسلُّطِ الأَسافِلِ على الأَعالي، حيثُ يرى أبو الهُدَى تقدُّمَ الجُهلاءِ على العلماءِ، والنَّتْنَى على الأشرافِ، والأصاغرِ على الأكابرِ، فاستجلبَ لتصويرِ هذه الحالة المقيتة الاستعارة المكنية فجعلَ لِلزَّمانِ مُقَلَّةً تنظُرُ إلى أبنائه، ولكنَّهُ شَفَعَ الاستعارة بالكناية القائلة بأنَّ هذه المقلة قد أعشاها العَمَى، ليشير بذلك إلى انمحاقِ العَدالَةِ في عينِ الزَّمانِ حيثُ راحت تنظُرُ إلى الرِّجالِ فتُسَقِطُ كواكبَهُم إلى الحضيضِ وترفَعُ بأرذالِهِم إلى مواقعِ النُّجومِ، حيث يقول مُستخدِماً الجِناسَ الاشتقائيَّ (الباهلي/يباهل)، والتَّرادُفَ (تبَّ/سُحفاً)، ومُضَمِّناً أبياته إشاراتٍ إلى أمثال العربِ ورموزها:

تَبَّاً وَسُحفاً لِلزَّمانِ فَإِنَّهُ نَظَرَ الرِّجالَ بِمِقَلَةٍ عَمياءِ  
نابَ ابنُ سينا كُلِّ سَمَجٍ<sup>1019</sup> فَاجِرٍ وَالتَّلُّ مُسْتَعَلٍ على سينا  
والباهليُّ مَضَى يُبَاهِلُ<sup>1020</sup> هاشِماً وَيَقولُ مادِرُ بئسَ بخلُ الطَّائِي<sup>1021</sup>

<sup>1019</sup> القبيح الذي لا ملاحاة له، يُنظَرُ: ابن منظور، "سَمَجٌ"، 300/2.

<sup>1020</sup> من المُباهلة وهي المُلاعنة، يُنظَرُ: الجوهري، "بخل"، 1643/4.

<sup>1021</sup> د.ت.ب، 9.

فارتكاس المعالي من عجائب الزمان التي برزت لعيني أبي الهدى فآلمته وجعلته يندفع إلى هجاء الزمان بها، فالعالم الكبير ناب مقامه كل جاهل من الفجار، وكل لئيم عديم أصل صار يبارز الأشراف بالعداوة، ويحاول أبو الهدى سلوك طريق المبالغة في تصوير انقلاب الموازين وارتكاس أحوال أهل الزمان رأساً على عقب حتى عدا الوضع يتجرأ على الرقيق، فإذا كانت العرب قد ضربت بمخارق - مَادِر - الهلالي (ك. ح قبل البعثة النبوية) المثل الأعلى في البخل، وبحاتم الطائي (ت. 46ق. هـ/ 577م) القمّة السامقة في الجود والسخاء،<sup>1022</sup> فإنّ زمان الشاعر قد انتكست فيه أحوال الناس حتى صار البخيل المادري يُعير الكريم الحاتمي بكرمه، مما يعني أنه أراد هجاء زمانه بظاهرة أخرى هي انقلاب مكارم الأخلاق فيه وتحولها في أعين أهله إلى معائب ومساوي يُعير المتحلي بها ويُستنقص، فهو زمن صار فيه المعروف مُنكراً والمنكرُ معروفاً، مما أدّى بالشاعر أن يمضي مُستهجناً حالة زمنه مُتسائلاً باستفهامٍ خرج عن مُقتضاه الظاهر ليحكى شدة تعجبه المشفوع بوصف حالة الأسي التي ألمت به، حيث يقول وقد أسعفته قافية الأبيات بحرف الروي - الهمزة المُشبعة بالكسر - على عزف آهاته التي امتلأت بها قيثارة صدره، وكأها ترن بنغمة طويلة في أذن السامع:

أهّي القيامة قد تُبدل كلُّ أر ضٍ غيرها نوعاً وكلُّ سماءٍ  
 أهّي يطولُ وزفرتي لا تنطفي أسفاً وسيال السحاب بُكائي<sup>1023</sup>

فهو يقرن حالة الزمن المريع بأحوال القيامة، ثم يعطف مُشبهها بكاءه تشبيهاً بليغاً بهتان الدير الهطالة - بعد أن أهمل أداة التشبيه ووجه الشبه وهو (التَهطال والتحدّر) -، ويستعير لفرات الأسي التي تلهب في صدره وصف النار - على سبيل الاستعارة المكنية - حيث جعلها ناراً مُستعرة هيهات أن

<sup>1022</sup> ورد في أمثال العرب قولهم "أبخل من مادِر" و"أجود من حاتم"، يُنظر: الميداني، الأمثال، 111/1، 183/1.

<sup>1023</sup> د.ت.ب، 9.

يُلمَّ بلهائِها انطفاءً بعد كُلِّ هذا الأسي الذي لحقَ بها من الزَّمان الرديِّ؛ ولم يكن أبو الهُدَى بمُكتَفٍ  
بتنهَّداتِ أساهِ وسحاحِ بُكاهِ، بل قد أشركَ معهُ المروءةَ فاستعارَ لها هي الأخرى -استعارةً مكنيةً-  
وصفَ البُكاءِ على الألى من ذوي المجدِ والشرفِ، حيثُ يقولُ في مقطعٍ هجائيٍّ ضمن قصيدةٍ أخرى  
يذمُّ بها زمانه:

كأني بالمروءة وهي تبكي      على من بادَ من أهل المعالي  
فقام الأعجمي بنا خطيباً      وهُرُّ البيت يزأرُ للقتال<sup>1024</sup>

وعلى ما يبدو أنَّ مراحِلَ تهاوي الممالكِ ونهاياتِ أيَّامِها قد حرَّكتِ قرائحَ بعض الشعراءِ في هجاءِ  
الزَّمانِ وأهلِهِ مُثريينَ بأشعارِهِم النِّقدَ الاجتماعيِّ لمظاهرِ الفسادِ في عمومِ مجتمعِ ذلك الزَّمانِ، فإذا كان  
أبو الهُدَى هنا يهجو زمانه بتسنيُّمِ زمامِ الأمورِ من غيرِ أهلِها، حيثُ الألكُنُّ قامَ يخطبُ مُستفصِحاً  
والقطُّ قامَ بموائِهِ مُستزيراً مُستأسداً، فكذلك كانت قريحَةُ ابنِ رشيقي الشَّعريةَ قد فاضتِ بما يقربُ من  
هذا، حيثُ قالَ وقد شهدَ تهاوي صروحِ دولةِ الأندلسِ في نهاياتِ أيَّامِها:

مما يُزهدُّني في أرضِ أندلسٍ      سماعُ مُقتدِرٍ فيها ومعتضِدِ  
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها      كاهرٍ يحكي انتفاخاً صولةِ الأسدِ<sup>1025</sup>

وإذا كان الزَّمانُ على هذه الحالِ من التَّردِّي وسقوطِ المروءاتِ وأهلِها، وارتفاعِ الأراذلِ وازدهارِ رُبُعِها،  
فلا بدع أن يلتفتَ أبو الهُدَى إلى هجائه بل وحتى تقبيحِهِ، إذ هو زمانٌ لا يلتفتُ إلى مجدِ الأماجدِ

<sup>1024</sup> د.ت.ب، 87.

<sup>1025</sup> يُنظر: محيي الدِّين عبد الواحد بن علي المراكشي، المُعجَب في تلخيصِ أخبارِ المَغْرِب من لدن فتح الأندلسِ إلى آخرِ عصرِ الموحِّدين، تحقيق: صلاح الدِّين الهواري، (صيدا: المكتبة العصريَّة، 1426هـ/2006م)، 59؛ الحسن بن رشيقي القيرواني، ديوان ابن رشيقي القيرواني، إعداد: عبد الرحمن ياغي، (بيروت: دار الثقافة، 1409هـ/1989م)، 59.

ولا فضل الأفاضل، فاستعمل أسلوب الإيجاز وأوكل إلى القارئ أن يلمح اهتمام الزمان وأهله بإعلاء أصداد حزب العلاء سفلة الناس وأوغاد سُوقَتِهِمْ، وراح يُكَنِّي بنوم السادة من أماجِد العقلاء والعلماء عما ألمَّ بهم من تدهور أحوالهم وتغيُّر أياَمِهِمْ وما لحق بهم من ضعفٍ وتحييدٍ عن مكانهم المعهود، فالزمانُ أحرهم ليُقَدِّمَ مَنْ هو دونَ أخصصهم من الأردال، ثم شُفِّعَت الكنايةُ الأولى بأخرى تؤكدُ معناها حيث جعلت كوكب السماء الأنور العالی - السُّهّا - ينحطُّ في الحضيض ليرتفع مكانه كلُّ خافِتٍ ساقِطٍ، فكانت هذه الكنايات يُعَلِّلُ ما تقدّمها من تقبيح لهذا الزمان وهجائه:

لحاً<sup>1026</sup> اللهُ دهرًا لا يرقُّ لماجدٍ وقاتلَ وقتًا لا يلينُ لفاضلٍ  
ونامَ به وهنًا فُرُومٌ<sup>1027</sup> أُولي النُّهى وصارَ السُّهّا من دونِ ذُبلِ الخوامِلِ  
وشنَّ الأَداني حَيَّبَ اللهُ سعيهم على الدين والإسلام غارةً قاتِلِ<sup>1028</sup>

ولعلَّ البيتَ الأخيرَ يحكي ظاهرةً أخرى هجا بها أبو الهُدَى زمانه الذي عاش فيه، وهي ظاهرةُ الهجوم على الشرعِ الحنيفِ ومحاوله وأدِه في عُقرِ دارِه؛ ويُضافُ إلى تلك الظاهرةُ ظاهرةُ تسلُّطِ الأجنبيِّ على ديارِ المسلمين وأمصارِهِمْ، حيثُ يقولُ مُستعملاً الاستعارةَ المكنيةَ جاعلاً بها الدينَ يذرفُ الدموعَ على ما حلَّ به من عُربةٍ شديدةٍ في هذا الزمان جعلته يهوي بأهله في هوةِ الشدائدِ والكروب:

والثُّعلبانُ<sup>1029</sup> سَطًا وصارَ مُبارزًا وبقيدِ صنكٍ أثقلَ الرِّيبالُ<sup>1030</sup>

<sup>1026</sup> قَبَّحَ ولَعَنَ، يُنظَرُ: ابن منظور، "الحا"، 242/15.

<sup>1027</sup> جمعٌ واحدُه قَدَمٌ وهو السَّيِّدُ، يُنظَرُ: الجوهري، "قرم"، 2009/5.

<sup>1028</sup> د.ر.ت، 183.

<sup>1029</sup> دَكَّرَ الثُّعالبِ، يُنظَرُ: ابن منظور، "ثعلب"، 237/1.

<sup>1030</sup> من أسماء الأسد وتعني الجريء المصور، يُنظَرُ: ابن منظور، "رأبل"، 262/11، 264.

والدِّينُ يبكي غربَةً أَلَقَتْ بِهِ فِي وَهْدَةٍ<sup>1031</sup> مِنْ دُونِهَا الْأَهْوَالُ  
فَلَتَاتُ وَزِرٌ لِلزَّمَانِ تَظُنُّهَا لَيْلٌ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتَامِ سِدَالٌ<sup>1032</sup>

وَيُلْحِظُ أَنَّ أبا الهُدَى اختارَ لكلماتِهِ أن تلبَسَ ثوبَ الكِنَايَةِ مرَّةً أُخْرَى حيثُ كَتَبَ عَنِ الْأَجَانِبِ  
الدُّخْلَاءِ بِالثُّعْلَبَانِ، وَأَمَّا صَاحِبُ الْأَرْضِ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَمْ يُعِدْ بِيَدِهِ حِيْلَةً فِي قِرَاعِهِمْ فَقَدْ جَعَلَ مِنْهُ  
ضِرْغَامًا مُكَبَّلًا بِالْقِيُودِ الَّتِي أَثْقَلَتْ كَاهِلَهُ، وَلرَبْمَا كَانَ وَقُوعَ اخْتِيَارِهِ عَلَى لَفْظَةِ (الرِّيبَالِ) الَّتِي يَكْتَنِفُهَا  
شَيْءٌ مِنَ الْعَرَابَةِ - إِذِ الْأَلْسُنُ لَمْ تَعْتَدْ تَرْدَادَهَا كَثِيرًا - لِنُتَعَبَّرَ عَمَّا وَقَرَ فِي قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِ لَغْرِيْبِ شَأْنِ  
الْمُسْلِمِ صَاحِبِ الْحَقِّ الْهَصُورِ الَّذِي مَا عَرَفَ يَوْمًا ذِلَّةً أَوْ خُنُوعًا، وَلَكِنَّهَا عِيُوبُ الزَّمَانِ الَّتِي شَبَّهَهَا  
تَشْبِيْهًا مُرْسَلًا مُجْمَلًا - لَمَّا أَهْمَلَ وَجْهَ الشَّبْهِ (الظُّلْمَةِ) - بِاللَّيْلِ الَّذِي أَسَدَلَ عَلَى ذَلِكَ الْعَصْرِ سِتَارًا  
مِنَ الظُّلْمَةِ شَابَهُ عُبَارُ الْفِتَنِ وَتَغْيُرِ الْأَحْوَالِ، وَيَكَادُ أَبُو الْهُدَى يُتْبِعُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ بِمَا يُفَسِّرُ هَذِهِ  
الْعِيُوبِ الَّتِي امْتَلَأَ بِهَا الزَّمَانُ، وَيَمْزُجُ بِكَلِمَاتِهِ شَيْئًا مِنَ الْبُوحِ بِشِكْوَاهُ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي أْتَرَغَ قَلْبُهُ  
أَسَى وَحُزْنًا، وَبِهَذَا يَكُونُ قَدْ ضَمَّ إِلَى جَانِبِ غَرَضِ الْهَجَاءِ شَيْئًا مِنْ غَرَضِ الشُّكُوى وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الْأَلَمِ  
الَّذِي حَلَّ فِي قَلْبِهِ بِسَبَبِ تَغْيُرَاتِ الزَّمَانِ وَتَقَلُّبَاتِ أَحْوَالِهِ، إِذْ يَقُولُ مُضَمِّنًا لِكَلِمَاتِهِ الْجِنَاسَ الْاِشْتِقَاقِيَّ  
(عَجَبٌ/نَعَجَبٌ) وَطَبَاقِ الْإِيْجَابِ (حَدِيثٌ/قَدِيمُهَا):

عَبَّتْ بِنَا أُمَّمٌ حَدِيثٌ قَدِيمُهَا عَجَبٌ وَنَعَجَبٌ كَيْفَ آلَ الْحَالُ  
كَانَتْ جَحَاجِحُهَا تُهْزُ لِاسْمِنَا رَهَقًا وَتُرْعَدُ مِنْهُمْ الْأَبْطَالُ<sup>1033</sup>

فَهُوَ أَتْبَعَ هَجَاءَ الزَّمَانِ بِتَعْجَبٍ مِمَّا حَلَّ فِي أَيَّامِهِ مِنْ تَحَوُّلِ الْأَحْوَالِ، وَمَا حَدَّثَ فِيهِ مِنْ تَكَاَلُبِ  
الشُّعُوبِ الْغَرِيبَةِ عَلَى أُمَّتِهِ الْمُشَارِ إِلَى مَاثِرِهَا الَّتِي قَدْ اِزْتَنَّتْ بِهَا جِبْهَةُ التَّارِيخِ بِمَا حَفَلَتْ بِهِ مِنْ

<sup>1031</sup> الهُوَّةُ وَالْمَكَانُ الْمُنْحَفِضُ فِي الْأَرْضِ كَأَنَّهُ حُفْرَةٌ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "وهد"، 470/3.

<sup>1032</sup> د.ر.ت، 189.

<sup>1033</sup> د.ر.ت، 189؛ وَالرَّهَقُ اسْمٌ مِنَ الْإِرْهَاقِ بِمَعْنَى أُنْهَمَ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِنَا وَلَا اِحْتِمَالًا، يُنْظَرُ: الزَّبِيدِي، "رهق"، 381/25.

بطولاتِ رجالِها الأفاضالِ الذين بلّغت بهم شجاعَتُهُم أنّ أسماءَهُم كانت كافيةً لدحرِ تلكِ الشعوبِ المُتسلِّطةِ الغريبةِ، حتى إنّ أكابرَ أعاضِمِها كانت ترتعدُ فرائصُهُم وتهتُّ عروشُهُم بمجردَ أن تطرُقَ مسامِعَهُم أسماءُ أفاضالِ رجالِها أُمَّتِهِ.

ولم يكنِ التَّلْمِيحُ بمَقْيَدِ لأبي الهُدَى أو مانعٍ له عن التَّصريحِ في هجائهِ بنقدِ ظاهرةٍ تسلَّطِ الأجنبيِّ العُرباءِ، فقد غدا مُتخَلِّياً عن التَّلْمِيحِ والاستتارِ بستارةِ البَيانِ والكنائياتِ، فراحَ يُصرِّحُ بأسماءِ تلكِ الجسومِ الغريبةِ التي تسلَّلتِ دخيلةً على المجتمعِ المسلمِ لتنخرَ جَسَدَ الأُمَّةِ الواحدِ وتعيثَ فساداً وتعدّيّاً على أجزائهِ، فها هي الأيَّامُ قد احتفتْ بأبناءِ فرنسا وبريطانيا وألمانيا ورومانيا وأترعتُهُم عِزّاً، فغدوا أصحابَ التَّفوؤِ والمالِ والكلمةِ المسموعةِ التي لا تُثنى بأخرى، في حين أنّها أفضتِ المسلمَ-أيّاً كانَ عِرْقُهُ- عن جذورهِ، ولم يبقَ له سوى أن يتجرَّعَ كأسَ المقتِ والذُلِّ والفقْرِ، فالأرضُ لم تُعدْ أرضه والخيراتُ نُهبتْ من يديه، فيقولُ ناقداً ومُصَوِّراً حالةَ ذلكِ الزَّمنِ العصيبِ:

والحِبُّ من أرضِ باريزِ طويلُ يدٍ      والمقتُ للمُسلمِ التُّركيِّ والعربيِّ  
 وإن أتى الصُّبحَ من برلينِ ذو عَدَمٍ      يُمسي المساءَ وهو محشُوٌّ من الذهبِ  
 والإنكليزيُّ رَبُّ الدَّارِ صاحبُها      وصاحبُ الدَّارِ مِنَّا حارسُ التُّربِ  
 ولا بنِ باصيلِ قَصْرٍ بالنُّصارِ<sup>1034</sup> زَها      وابنِ الكِرامِ يَصُرُّ الأهلَ في العُلبِ<sup>1035</sup>

ويُلمَحُ في البيتِ الأخيرِ كيف صوِّرَ حالةَ الضَّنكِ والفقْرِ المُدقعِ الذي حلَّ بأهلِ المروءاتِ من كِرامِ النَّاسِ وأشرافِهِم، فقد قابلَ تَنعُّمَ الأجنبيِّ وتسلُّطَهُ بصورةَ الشَّرِيفِ ذي المروءةِ الذي لَمَحَ بضنكِ عيشِهِ

<sup>1034</sup> الذهب، يُنظر: الجوهري، "نصر"، 829/2.

<sup>1035</sup> د.ت.ب، 21؛ والفعل "يصرُّ" مأخوذٌ من الصَّرِّ وهو الجَمْعُ والضَّمُّ والشَّدُّ والقبضُ، فكلُّ شيءٍ مصرورٌ فهو مجموعٌ مشدودٌ عليه، يُنظر: ابن منظور، "صرر"، 452-451/4.

باستعماله للفعل (يصرُّ) ليُشيرَ بدقَّةٍ إلى الشِدَّةِ التي وقعَ بها الفردُ من كِرامِ النَّاسِ حتى في العثورِ على محلِّ إقامةٍ له حيثُ استعارَ للمنزلِ -استعارةٌ تصريحيَّةٌ- لفظَ العَلْبِ الصَّغِيرَةِ الضَّيِّقَةِ التي يُجمَعُ فيها أهلُ ذلكِ المنزلِ محصورينَ بشِدَّةٍ وفاقَةٍ تكادُ تخنقهم؛ فلا بدَّعَ من أن تظَهَرَ شكوى أبي الهُدَى وألمُه من لؤمِ الزَّمانِ وأحواله التي رَفَعَت الرِّخيصَ وحطَّت كلَّ رَفِيعٍ من الكِرامِ، فالأَيَّامُ أَرَدَتِ بالمسلمين حتى صاروا غَرَضًا للتَّوَابِ والشَّدَائِدِ غُرْبَاءَ كَغُرْبَةِ دِينِهِمُ الباكِي للأهوالِ التي نَزَلَتْ بساحتِهِ، فيستطرِدُ مُستعمِلًا التَّشْبِيهَ التَّمثِيلِيَّ بجعلِ صورةِ المسلمِ صاحبِ الحَقِّ وابتعادِ النَّاسِ عنه ورميهِ بالخيانةِ العُظْمَى كصورةِ مريضٍ أجربٍ ابتعدَ عنه أهلُ عصرِهِ خشيةً أن تصيبَهُمُ بلواه، كما استعارَ -استعارةٌ مكنيَّةٌ- للزَّمانِ صِفَةَ الغيظِ والبُغْضِ على أهلِ الدِّينِ مُلَمَّحًا إلى شمولِ هذا الغيظِ لجميعِ أهلِ الدِّينِ الحنيفِ دونَ تمييزٍ بين عِرْقٍ وآخَرَ إذ تكفي للبطشِ بهم تُهمَّةُ الانتماءِ لِعُصْبَةِ الدِّينِ الحنيفِ، فيقول:

كأنَّما المسلمُ المأمونُ منهجُهُ أخو الخيانةِ يعدو العيرَ بالجرِّبِ  
 قد راحَ في حَنَقٍ<sup>1036</sup> هذا الزَّمانُ على عصابةِ الدِّينِ من عُجمٍ ومن عَرَبِ  
 ويلاه من سَفَهِ الأَيَّامِ قد فَتَكَتْ بربِّ مجدٍ وأعلتْ فاقدَ الحَسَبِ<sup>1037</sup>

وبإتيانهِ بالنَّدْبَةِ (ويلاه) يجعلُ من كلماتِهِ تَضِحُ في أذنِ السَّامِعِ مُعَبَّرَةً عن حجمِ الشَّكوى التي امتلأَ بها الشَّاعرُ من أَيَّامِ ذلكِ الزَّمانِ العصيبِ والتي استعارَ لها -استعارةٌ مكنيَّةٌ- وصفَ عدمِ التَّعَقُّلِ والفتكِ حيثُ راحت تبطِشُ بكلِّ أجدٍ منار، وتهوي به إلى الحضيضِ لكي ترفعَ كُلَّ مُدَنَّسٍ باللُّؤمِ والعار؛ فلا غرو أن ينبري أبو الهُدَى مرَّةً أُخرى ليهجو الزَّمانَ بظاهرةٍ تسلطُ التَّنِي الذين شبَّهَهُم -

<sup>1036</sup> غيظ، يُنظر: الجوهري، "حقيق"، 1465/4.

<sup>1037</sup> د.ت.ب، 21.

تشبيهاً بليغاً- بسوءاتِ العصر، ولكي يترسَّحَ ذلكَ في ذهنِ القارئِ فقد جَلَبَ أسلوبَ التَّوكيدِ  
بالقسَمِ قائلاً بإقْداعٍ شديدٍ:

تَبَّا لِعَصْرِ يَسُودُ الْأَرْدَلُونَ بِهِ      وَهُمْ لَعَمْرُ الْعُلَا لِلْعَصْرِ سَوَاءَاتُ  
آبَاؤُهُمْ مِنْ طَعَامِ الْقَوْمِ أَهْلُ حَنَا      وَالْأَمَّهَاتُ حَسِيسَاتُ دَنِيَّاتُ<sup>1038</sup>

ويُضَافُ إلى ما سَبَقَ من جَمَلَةِ الظَّوَاهِرِ التي هجا بها أبو الهُدَى زمانه وانتقدَه عليها ظاهراً  
تخادُلُ أبناءَ الزَّمانِ عن نُصْرَةِ الحَقِّ البَيِّنِ وأهلِهِ، حيثُ راح يرميهم بالبِكمِ والعمى من خلال التَّشبيهِ  
المُرسلِ المُجَمَّلِ -الذي أهمل فيه وجه الشَّبه (انعدامُ النطقِ)-، وفي مُقابلِ تلكِ الخِصَلَةِ الدَّمِيمَةِ  
فقد ضَمُّوا إليها موالاةَ الأعداءِ الحَقِيقِيَّينِ، ولعلَّ هذا ما استشرَفَهُ من واقعِ تلكِ الأيَّامِ التي كانت  
حُبلى بما تلاها من وطءِ أقدامِ الغُرباءِ بِحَيْلِهِمْ وَرَجْلِهِمْ لِلدِّيَارِ الإِسْلامِيَّةِ بعد أن حُدِعتْ شعوبُها بأمانِ  
الحُرِّيَّةِ والاستقلالِ، ويُدَثِّرُ أبو الهُدَى كلَّ هذا التَّقدِّمِ والهجاءِ المقذعِ لواقعِ الزَّمانِ بما يُبرِّزُ شكواه وألمه،  
ويقوِّي كلامه عبرَ الخُروجِ بالاستفهامِ عن مقتضاهِ الظَّاهرِ إلى معنى التَّكثيرِ الذي أفادته الأداة (كم)  
للدِّلالَةِ على تأكيدِ انتشارِ هذه الظَّاهرةِ بين أبناءِ ذلكِ الزَّمانِ وفشوِّها في مجتمعاتِهِمْ، إضافةً إلى  
الإطنابِ بأسلوبِ التَّكرارِ للأداة، وهو تَكَرُّرٌ ينقلُ إلى نفسِ المتلقِّي السَّماعِ لهذا الهجاءِ مشاعرَ الحزنِ  
المحتدِمَةِ في أعماقِ الشَّاعرِ. فيقول مُستعمِلاً أسلوبَ التَّرادُفِ (بواعثاً/دواعياً) مؤكِّداً به ما يجُرُّه هذا  
الزَّمانِ ويهيضُ من جروحِ في أفئدةِ الكِرَامِ، كما ضمَّ إليه أسلوبَ الإيجازِ بالحذفِ في عجزِ البيتِ  
الأوَّلِ (تثيِّرُ دواعياً) وهو بذلك يتركُ للسَّماعِ أن يتخيَّلَ تلكِ الدَّواعي، دواعي حُزنٍ أو كربٍ أو  
كَمَدٍ أو خيبةِ آمالٍ وإلى غيرها مما يحكي آلامَ ذلكِ العصر:

<sup>1038</sup> د.ر.ت، 56.

وكم يشهد الشَّهْمُ الغيورُ بواعثًا تُثيرُ به أسقامَهُ ودواعيًا  
 كأنَّ بني الأيامِ بكمَّ إذا دُعوا لحقِّ صراحٍ ما أجابوا المُنَادِيا  
 عُمَاةٌ وأهلُ الحقِّ بين ظُهُورِهِم ولكنَّهُم طيشًا يَرَوْنَ المُرَائِيا  
 يُعَادُونَ لِلحَقِّ الصَّدِيقِ وكم وكم يُوالونَ للغيِّ الجليِّ الأَعَادِيا<sup>1039</sup>

وقد تبينَ فيما سبقَ كيفَ كانت تُسمَعُ شكواه وبوحُه بما الذي نشرَ طيِّه في تضاعيفِ هجائه  
 للزَّمانِ، إلا أنَّه كثيرًا ما كان يلتفتُ بالمسامعِ لينقلها إلى ساحةِ أرضِ قلبه التي هشمها وطءُ جيشِ  
 الأحزانِ المتواليَّةِ التي حشدَها عليه الزَّمانِ، إذ يكادُ أبو الهدي يجذب أزمَّةَ عواطفِ السَّامِعِ ويغمسه  
 في خضمِّ ما اعتراه من مشاعرِ الأسى والحزنِ، بعد أن سحرَّ الجناسَ الاشتقائيَّ (كسرتُه/كسرَ،  
 الهمُّ/هم) لإيضاح ذلك، حيثُ يقول بتساؤلٍ مُعطى خرج به عن مُقتضاهُ لِيبرزَ تَعجُّبه الممزوجِ بالألم  
 من ظلمِ الزَّمانِ وجوره في مُساواةِ الرِّفيعِ مع الوضيعِ:

أَيصْفُو القلبُ في زمنٍ تَساوى به زُهْرُ الأسودِ مع النِّعاجِ  
 لقد كسرتُه أحزانٌ تَوالتْ عليه من القلى كسرَ الرُّجاجِ  
 رأى تركَ الجِدالِ وعن عَناءٍ كَفاهُ الهمُّ همَّ الاحتجاجِ<sup>1040</sup>

فهو يصفُ هذا القلبَ بالتَّصدُّعِ بما حلَّ به من الانكسارِ، ثم يلتفتُ إلى تشبيهِ تمثيليٍّ قُرنت فيه صورةُ  
 انكسارِ القلبِ بصورةِ الرُّجاجِ حالةً انكساره، في إشارةٍ منه إلى انعدامِ إمكانِ رأبِ هذا الصَّدعِ الذي  
 حَلَفْتُهُ في قلبه أحداثُ هذا الزَّمنِ وهومُه التي حَفَلتْ بما أيَّامُه، حتى أثقلتْ كاهلُه فلم يَعدْ به اندفاعٌ  
 حتى إلى الدِّفاعِ عن نفسه وردِّ فِئامِ المعتدين عليها، وللإغراقِ في المبالغةِ في وصفِ حالةِ الهمومِ التي

<sup>1039</sup> د.ت.ب، 133.

<sup>1040</sup> د.ر.ع، 17.

أحاطت به من كلِّ جانب فقد استعار -استعارةً مكنيةً- للهَمَّ وصفَ ذاتِ كفته مؤنَّةً الاهتمامَ بالجِدالِ والدِّفاعِ عن نفسه أمامَ مَنْ يُجادِلها.

ولم يكن امتزاجُ هجاءِ الزَّمانِ بالشَّكوى مُميِّزًا وحيدًا لشعر أبي الهُدَى، فقد ضمَّ إلى جانبِهِ حرصَهُ على التَّصويرِ التَّهكُّميِّ إضافةً إلى إبرازِهِ الزَّمانَ وأبناءَهُ وهم عارون عن كلِّ فضلٍ أَثيرٍ، فتارةً يعيبُ الزَّمنَ بانقراضِ الأخلاقِ فيه مُستعيراً له وصفَ المرضِ العُضالِ -من طريقِ الاستعارةِ المكنيةِ المرشَّحة- ومُعبرًا عن يأسِهِ من عودةِ أبناءِ الزَّمانِ إلى رُشدِهِم عبرَ دقةِ الاختيارِ للفظِ (هيهات)، ليستبعدَ شفاءَهُ وتعافيه من عِللِهِ المُزمنةِ، فقال:

سَلامٌ على الدُّنيا قد انقَرَضَ الوَفاً وماتَ أخِلاءُ المودَّةِ والصِّفا  
زَمانٌ مريضٌ الطَّورِ أَرَمَ داوُهُ وهيهاتَ أن يُرجى لعلَّته الشِّفا<sup>1041</sup>

ويستخرُّ في قصيدةٍ أخرى مِمَّنْ تصدَّرَ من أبناءِ الزَّمانِ في صدورِ المراتبِ وهو خاوٍ من كلِّ حقيقةٍ تُؤهِّلُهُ لذلك، فيهجوهُ بأنَّه في عدادِ الحيواناتِ لولا اللِّسانُ النَّاطِقَةُ التي تتحرَّكُ في فيه، وقد كَتَبَ عن ذلكَ بقولِهِ: (ربُّ خِطامِ)،<sup>1042</sup> بعد أن رصَّعَ بيتهُ باستعارةٍ جعلَ فيها للمعالي جَسَدًا يُتَخَطَّى ويُتجاوزُ مِمَّنْ هو على هذه الشَّاكِلَةِ من أبناءِ الزَّمانِ:

كم فيه من مُتَخَطِّي عُنُقِ العِلا خَطاً ولولا النُّطقُ ربُّ خِطامِ  
ولكَمَ فَنَى بالعلمِ سُهَمٌ ثوبُهُ<sup>1043</sup> هَدَفًا أُقيمَ لرشقِ كُلِّ سِهامِ<sup>1044</sup>

1041 د.ت.ب، 69.

1042 هو زِمَامُ الدَّابَّةِ، يُنظَرُ: الجوهري، "خطم"، 1915/5.

1043 القَوْبُ المُسَهَّمُ هو المُخَطَّطُ المُزَيَّنُ، يُنظَرُ: الجوهري، "سهم"، 1956/5.

1044 د.م.ش، 184.

ومن الملاحظ أنَّه يُضيفُ ظاهرةً أُخرى إلى مثالبِ الزَّمانِ الذي يهجوهُ، وهي ظاهرةُ التَّعدِّي على أربابِ العلمِ والفتوَّة، ومُناصبَةِ النَّاسِ لهم العداواتِ والبغضاء، وجعلهم مَرْمَى لسهمِ كُلِّ رامٍ بالافتراءات والشَّائعات.

وتارةً يُبالغُ أبو الهُدَى في تَهكُّمِهِ فينزلُ بأبناءِ الزَّمانِ المُتقدِّمينَ زورًا وافتراءً بعد تأخيرِ أربابِ المجدِ والشَّرَفِ عن منازلهم الرِّفِعة، وهو بأبياتِهِ يُوضِّحُ الطبقاتِ الاجتماعيَّةِ التي طالتها يدُ الجورِ والظُّلمِ في زمانِ الزُّورِ فيقولُ مُجرِّدًا مهجوِيهٍ من أبناءِ الزَّمانِ من كلِّ فضيلةٍ ومجدٍ وشرفٍ:

وآخرُ من عصابةِ أهلِ حالٍ تَشِيخُ فوقه شيخُ الغواني  
وفردٌ جامعٌ كلِّ المزايا لستِرِ الحالِ مُفتكِرًا يُعاني  
وآخرُ قد حَلا من كُلِّ مجدٍ ويُعلَفُ كالحِمَارِ بلا امتنانٍ<sup>1045</sup>

فطبقةُ الشُّيوخِ وأربابِ التَّدِينِ الحقيقيِّ قد طالتهم يدُ الدُّلِّ وحوصروا حتى علَّت فوقهم الشُّيوخُ الفاسقةُ التي راح يُكني عنها بقوله: (شيخ الغواني)، وأما الشُّرفاءُ والأحرارُ الحقيقيُّون فقد انعمسوا في بحرِ الهمومِ باحثين عما يسدُّ رمقَ العيشِ، رغمَ أنَّ أصدادهم من كلِّ حَبِّ عارٍ من كلِّ مجدٍ راح يتقلَّبُ في أمواجِ من النِّعمِ، فيشبههُ -هكِّمًا واستهزاءً واحتقارًا- بحمارٍ يُعلَفُ ليلاً نهارًا بلا طائلٍ أو فائدةٍ لمُجتمعه وعصره.

ويتَّضحُ مما أُوردَ من شواهدِ الهجاءِ عند أبي الهُدَى أنَّ عمومَ هجائه للزَّمانِ لم يكن التَّشاؤمُ باعثه الأوَّلُ ولا النَّظرةُ السُّوداءُ التي قد تُعشي أربابَ الشَّعرِ إذا ما هم لم ينالوا ما رُبُّهم، بل كان باعثه الأوَّلُ هو حقيقةُ ما يراه من هياجِ الفتنِ وتدهورِ أحوالِ المسلمين على امتدادِ رُقعةِ دولتهم العثمانيَّة،

<sup>1045</sup> د.م.ش، 184.

وَأَخْدَعِيهِمْ وَخَدَعِيهِمْ مِنْ طَرْفِ أَطْرَافٍ غَرِيبَةٍ مَا عَهَدَ مِنْهَا أَبَدَ الدَّهْرِ أَنْ تَرْقُبَ فِي شَعُوبِ الإِسْلَامِ  
 إِلَّا وَلَا ذِمَّةً،<sup>1046</sup> وَيُمْكِنُ أَنْ يُلْمَحَ هَذَا الأَسَى الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى هِجَاءِ الزَّمَانِ فِي كَلَامِهِ لَمَّا تَكَالَبَتِ  
 الجيوشُ المَعَادِيَةَ الغَرِيبَةَ عَلَى الأَفْطَارِ الإِسْلَامِيَّةِ، مُعَبِّرًا عَنْ حَالَةِ الأُمَّةِ الَّتِي عَدَّتْ تَكَرُّعًا -بِالْعُصَصِ-  
 مِنْ حِيَاضِ السُّمُومِ إِنْ مَا هِيَ سَكَتَتْ عَنْ حَقُوقِهَا، وَتَكْتَنِفُهَا أَيْدِي المُنُونِ إِذَا مَا هِيَ طَالَبَتْ بِأَدْنَاهَا  
 وَأَبْسَطَهَا، وَبِالْجِنَاسِ الَّذِي أَتَى بِهِ (طَلَبْنَا/طَلَبْنَا) وَطَبَاقِ الإِيجَابِ (سَكْتْنَا/حَكِينَا)، يُوَضِّحُ هَمَّ الأُمَّةِ  
 فِي عَصْرِهِ إِذْ هِيَ -مَطْلُوبَةٌ- مَدِينَةٌ بِوَجِبِ الإِيفَاءِ وَالإِذْعَانِ، وَهِيَ -طَالِبَةٌ- تَرُومُ مَا هُوَ أَعَدُّ مِنَ  
 المَسْتَحِيلِ، فَحَقَّقَ لِأَبِي الهُدَى أَنْ يَنْسَاءَلَ بِتَفَجُّعٍ بِلِسَانِ كُلِّ حُرٍّ مِنَ المَسْلَمِينَ:

يَا أُمَّةَ الحَقِّ أَيُّ ذَنْبٍ لَدَا الزَّمَانِ المُعَادِي جَنِينَا

وَنَجْرَعُ السُّمَّ إِنْ سَكْتْنَا وَدُونَا المَوْتُ إِنْ حَكِينَا

وَإِنْ طَلَبْنَا زَمَنًا مُحَالًا وَإِنْ طَلَبْنَا يَكُونُ دِينًا<sup>1047</sup>

وَكَثِيرًا مَا كَانَ أَبُو الهُدَى يَجْعَلُ هِجَاءَهُ لِلزَّمَنِ وَظَوَاهِرِهِ مُشْرَبًا بِمَعْنَى آخَرَ، وَهُوَ مَا يَعْبُدُ الرَّأْيَ  
 القَائِلَ بِأَنَّ هِجَاءَ الزَّمَانِ الوَارِدَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ الإِيمَانِ مِنَ الشَّعْرَاءِ إِثْمًا هُوَ لاسْتِثَارَةَ الإِعْتِبَارِ فِي نَفْسِ  
 القَائِلِ وَالمُتَلَقِّي، فَتَكُونُ الكَلِمَاتُ مُجَادِيفَ الإِبْحَارِ فِي مَحِيطَاتِ التَّفَكُّرِ بِمَقَادِيرِ الإِلَهِ العَظِيمِ جَلَّ جَلَالُهُ  
 وَالتَّدَبُّرِ فِي تَصْرِيْفِهِ لِلأَيَّامِ وَاللَّيَالِي فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا؛<sup>1048</sup> فَقَدْ يَلْتَفِتُ أَبُو الهُدَى زَمَانًا عِنَانَ قَلْبِهِ عَنْ  
 الجُرِي فِي سَاحَاتِ الأَسَى مُحَاطِبًا لَهُ بَعْدَ كُلِّ مَا لَحِقَ بِهِ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، فَيُنَادِي فِي أَعْمَاقِ

<sup>1046</sup> جَوَارًا وَقَرَابَةً وَعَهْدًا، يُنْظَرُ: الجوهري، "ألل"، 1626/4.

<sup>1047</sup> د.ت.ب، 106.

<sup>1048</sup> يُنْظَرُ: ابن عبد البر، الاستدكار، 551/8.

نفسه طالبًا منها التسليم لما يجري من هذه العجائب في الزمان إذ هي في حقيقتها أقدار الله الخافض  
الزافع علّ وعلّ، فيقول:

عجائب أقدار خفايا رموزها تنيه لها الأفكار من كل عاقل  
قضى الأمر بالتسليم لله إنّه له الفعل والمخلوق ليس بفاعل<sup>1049</sup>

وعلى هذه الشاكلة كان أبو الهدى يحرص أن تكون خواتيم هجائياته للزمان وما بثّ فيها من شكواه  
وألمه، حيث يلاحظ فيها ميله إلى الخواتيم الهادئة الباعثة على الصبر وتفويض الأمور لله وعدم  
الاعتراض على أقداره في كونه الفسيح، ومن جملة تلك الخواتيم قوله بعد أن أنهى استطراده في ذمّ  
الزمان وإيضاح عيوب أهله:

فكيف يؤمّل الفضلاء فيه غيائًا من فلان أو فلان  
فكن بالصبر مُدرعًا وسلّم أمورك للكريم المُستعان<sup>1050</sup>  
وعلى ذات الشاكلة هذه خاتمة التي قال فيها مواسيًا نفسه:

أسفنا على حظّ الزمان وأهله وليس لنا والله أن نتأسفا  
نتائج نيات تبذت لأهلها فدع كدر المعنى وحذ كلما صفا<sup>1051</sup>

فهو يُطمئن نفسه -بخاتمة حوت براعة المقطع- أنّ الزمان ما هو إلا مظاهر لما انطوت عليه قلوب  
أهله وما حملته من نوايا ومقاصد، إذ لا طائل من الحزن والأسى، فحقّ للنفس أن تترك الأكدار  
والأشجان متجهةً إلى ما يُصفيها ويسلك بها مسلك النقاء لتصل إلى مقرّها الأخير بقلب سليم؛

<sup>1049</sup> د.ر.ت، 185.

<sup>1050</sup> د.ت.ب، 113.

<sup>1051</sup> د.ت.ب، 70.

وفي هذا الجانب يبرز الأثر الصوّي الذي ظهر كيف ينجح إليه أبو الهُدَى بين الفَيَنةِ والأخرى خلال مجموع أشعاره كلّها.

ويُلاحَظُ في عموم هجاءِ أبي الهُدَى للزّمانِ أنّ ذمّه له يكادُ يتلخّصُ بنقدِ ظواهرِ سلبيةٍ كادت كبدُ الشّاعرِ تنفطرِ منها، وقد حاولَ أن يُشركَ الدّينَ والمروءاتِ وأهلها في ملحمةِ الهجائيةِ للزّمانِ، ومزجَ هذا كلّهُ بتشكيكه وإبرازِ الآلامِ التي حلّت به من تلكِ الظّواهرِ، ويُمكنُ حصرُ تلكِ المظاهرِ بارتكاسِ منازلِ أشرفِ النَّاسِ وأكابرِهِم مقابلِ ارتفاعِ منازلِ الأراذلِ من سُوقَتِهِم، وتسلُّطِ الأجنبيِّ على ديارِ المسلمينِ، وتوسيدِ الأمورِ إلى غيرِ أهلِها، فالجاهلِ حلَّ مكانِ العالمِ، والسّفيفِ حلَّ مكانِ العاقلِ الرّشيدِ، إضافةً إلى انقلابِ المفاهيمِ لدى المجتمعاتِ التي عاصرتِ ذلكِ الزّمانِ، فقد صوّرَ أبو الهُدَى كيفَ استبدلَ النَّاسُ الأعداءَ بالأصدقاءِ، وكيفَ افتقدوا ميزةَ الإنصافِ، وصارتِ مكارمُ الأخلاقِ عيباً لمن تحلّى بحليتها وتزيّياً بها من ذوي المروءاتِ والأحرارِ، وانطلاقاً من هذا الواقعِ الحافلِ بهذه التناقضاتِ راحَ أبو الهُدَى يسبُّ الزّمانَ ويهجوهُ ويُعرّي ذويه من كلّ فضلٍ وفضيلةٍ مع حرصِهِ في بعضِ جوانبهِ على التّصويرِ التّهكُميِّ لمهجويهِ من أبناءِ الزّمانِ.

وبعدَ المرورِ على شواهدِ الهجاءِ عندِ أبي الهُدَى جميعها وبكافّةِ أنواعِها وما تفرّغَ عنها من أقسامٍ وأصنافٍ يمكنُ أن يُستنتجَ ما يلي:

■ إنّ غرضَ الهجاءِ عندِ أبي الهُدَى اصطبغتْ أشعارُهُ بين المذهبيِّين الهجائيِّين البدويِّ والحضريِّ، وقد كان في الكثيرِ من جوانبهِ نابغاً من مكانةِ أبي الهُدَى التي حظيَ بها، التي بوّأتهُ موقعاً يدفعُهُ لهجاءِ ما يراه من فسادٍ ومُفسدينِ.

- وبما أنّ مكانته العلميّة - شيخ مشايخ دار الخِلافة - والاجتماعيّة - نقيب نقباء الأشراف - هي التي دفعت به إلى جوانب مُتعدّدةٍ من الهجاء وأصنافه، فقد كان هذا الهجاءُ يحطّي بإمكانية تسميته بالنقد الاجتماعيّ.
- إلا أنّ النتاج الهجائيّ في شعر أبي الهُدَى كانت القيمة الأدبيّة الشعريّة في قسم منه قد انخفضت فلم تحطّ بلباسٍ بيانيّ أو زينةٍ بديعيّة وإنما انخفضت في بعض الأحيان لتغدو لا تعدو عن كونها نظماً تنهال فيه الشتائم على الشّخص المهجور، مما يجعل بعض جوانب الهجاء عنده إلى القيمة التاريخيّة - التي تُعطي صورةً المجتمع آنذاك - أقرب منها إلى القيمة الأدبيّة.
- وقد كان أبو الهُدَى يُنوع في نظمه الهجائيّ بين أشكالٍ مُتعدّدةٍ، إلا أنّ القصائد المخصوصة بهجاء الرّمان نال بعضها استفاحاً مُمهّداً قبل أن يُبدأ الهجاء فيها ويحتدم؛ في حين أنّ الخواتيم في عموم أنواع الهجاء كانت في الدّعوة إلى التّسليم والصبر وتفويض الأمور للخالق المُدبّر.
- في هجاء الأفراد لم يعتن أبو الهُدَى بتعيين أشخاصهم، ولعلّ في عدم التّعيين هذا ما يُبرز أثر التّدنن الذي كَبَح من جراح قلمه الهجائيّ في تعيين أشخاصهم، وإلى جانب هذا الأثر الدّينيّ ظهر أثر التّصوّف على الشّاعر فيما كان يُخاطب فيه قلبه إذا ما هو أراد أن يختم قصائده الهجائيّة.
- وقد أقلّ من هجاء الأفراد لكنّه توسّع في هجاء الفئات ونقد مساوئهم التي برزت لناظره، وأمّا هجاء الرّمان فقد نال من شعره التّصيب الوافر، وتميّز عن غيره بالصّور البيانيّة من استعاراتٍ وتشبيهاتٍ أنطقت الحروف جاعلةً المسامع والأذهان تنطلق في تحيّل صورة ذلك العصر الذي عاشه أبو الهُدَى.

- ولم يخلُ هجاؤه من ألفاظٍ مُقدِّعةٍ في قِراعٍ مهجويِّه، كما أنَّ أشعاره قد احتوت على قسطٍ من الكلماتِ الغريبةِ التي تُحاكي شدَّة استغرابِ الشَّاعرِ من حالِ الذين أسقطَ عليهم هجاءه؛ وأمَّا التَّراكيب فقد جَنَحَتْ إلى القوَّة والجزالة التي تقتضيها طبيعةُ الهجاء.
- كما أنَّ هجاء أبي الهُدَى يُثيرُ في السَّامعِ مشاعرَ الاشمئزاز من المهجويِّين، وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ مَرَجَ هجائه للزَّمان بالشَّكوى جعلَ مشاعرَ الحزنِ والألمِ تحتدُّ فيما بين الكلمات، وتجعلُ الناظرَ فيها ينغمسُ مُتعاظماً مع تجرِّبةِ الشَّاعرِ الوجدانيَّة التي عاشها في ذلك الزَّمان، مما يؤكِّدُ صدقَ عاطفةِ الشَّاعرِ في غرضِ الهجاء.

## المبحث السابع: غرض الرثاء

إنَّ من جملة الأغراض التي طَرَقَ أبو الهُدَى بابها غرضُ الرِّثاءِ، ولعلَّ في دخوله إلى مضمارِ هذا الغرضِ دليلٌ على ما امتلَكه من سُرعةِ تفاعلٍ وقوَّةِ تأثيرٍ يتفاعلُ بهما مع ما يدور حوله من الأحداثِ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى قد يُفسِّرُ ذلك التصاقه بالشِّعرِ بشكلٍ خاصٍّ وحرصه على تسجيل الأحداثِ في السِّجِلِ الأدبيِّ المنظوم.

والرِّثاءُ في اللُّغةِ هو بكاءٌ على الميِّتِ ومدحٌ له، وأصله من قولهم: (رثيتُ الميِّتَ ورثوتهُ ورثأتهُ مرثيةً ورتثيةً ورتثياً) بمعنى عدَّدتُ محاسنَ شمائله وبكيتُ عليه ونظمتُ فيه شعراً، وهو يحملُ معنى الرِّقَّةِ والشَّفَقَةِ إذا ما عُديَّ فعله باللامِ فقيل: رثى له حيثُ يصيرُ بمعنى رَقَّ له وأشفقَ عليه؛<sup>1052</sup> ويكرَّرُ ذاتُ المعنى عند مَنْ أرادَ تعريفه في الاصطلاحِ فالنُّقَّادُ القُدَّامى عدُّوه باباً من أبوابِ المديحِ<sup>1053</sup> وقُدَّامةُ بن جعفر أكَّدَ أنه لا فرقَ بينَ قصيدةٍ في الرِّثاءِ وأخرى في المدحِ إلا بما حَوَّتهُ من ألفاظٍ دالَّةٍ على الموتِ -مثل كانَ وتولَّى وقضى نحبُه-،<sup>1054</sup> وقد عدَّ الرِّثاءُ من فنونِ الشِّعرِ الغنائيِّ الذي يُعبَّرُ فيه عن مشاعرِ الحزنِ واللُّوعةِ التي تنتابُ الشَّاعِرَ عندَ فقْدِ لعزيرٍ أو كارثةٍ تحلُّ بقومٍ أو مدينةٍ.<sup>1055</sup>

وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ هذا الغرضَ من أقلِّ الأغراضِ الشِّعريَّةِ التي قيَّدَ فيها أبو الهُدَى أشعاره، وذلك إذا ما قيسَ نتاجه فيه على ما سواه من الأغراضِ التي سَبَقَ الحديثُ عنها سالفاً، إذ لم يحظَ هذا الغرضُ إلا ببضعِ قصائدٍ، ويكادُ مُعظَمُ رثائه يكونُ محصوراً في موضوعاتِ رثاءِ الأقاربِ.

<sup>1052</sup> يُنظر: الخليل، "رثي" 234/8؛ ابن منظور، "رثاً"، "رثاً"، 83/1، 309/14؛ الجوهري، "رثي"، 2351/6.

<sup>1053</sup> يُنظر: القبروايني، العُمادة، 122/1، 147/2.

<sup>1054</sup> يُنظر: قُدَّامة، نقد الشِّعر، 33.

<sup>1055</sup> يُنظر: إميل بديع يعقوب-ميشال عاصي، المعجم المُفصَّل في اللُّغة والأدب (بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م)، 663/1.

ولا شك أن فقد الإنسان لأحبابه أو لأقاربه من جملة المصائب التي تقذف به في جُبِّ لوعة الأحران، لا سيَّما إذا ما وُتِرَ أحدَ والديه لأنَّ فطرته مُنقادَةٌ إلى حُبِّهما وفرطِ التَّعلُّقِ بهما، فإذا ما كان الفاقِدُ شاعرًا فلا بدَّع أن يُترجمَ لوعته وأشجانه بقصائدٍ يُحَيِّمُ عليها جوُّ من الحزنِ النَّابعِ من مرارةِ الفقدِ، وما تفاوُتُ شاعريَّةِ شاعرٍ عن آخرٍ إلا بما يستطيع أن يخلِّقه من جوِّ الحزنِ والألمِ في مرثياته، وقد حاول أبو الهدى أن يبلغَ مرثياته الشَّأوَ القصيِّ من هذا الجوّ حينما سلَّكَ برثائه مسلكَ رثاءِ الأقارب، فحظيت دواوينه بمرثياتٍ في والديه وإخوته.<sup>1056</sup>

وعلى ما يبدو أنَّ الشَّاعِرَ قد كان أوَّلَ ما مُني به من مرارةِ الفقدِ هو إدراكُ منيةِ والدته، وذلك في وقتٍ مُبكرٍ من شبابه، فإنَّه لم يكن قد ألقى بعضا التَّسيارِ في إستانبول حتى تناهى إلى سمعه نعي والدته أواخرَ سنة (1297هـ/1880م) في مِراعِ وطنه من ولاية حلب، فسَطَرَ في رثائها قصيدةً -زادت على عشرين بيتًا - لم يَشَأْ لُبْنيتها أن تُسهَّلَ بأيةِ مقدِّمةٍ، بل استفتحتها بثناءٍ يستذكرُ فيه أوقاته معها وأيديها البيضاء عليه فقال مُعَدِّدًا محاسنها ومآثرها:

والدَّةُ اللهُ كم مرَّةٍ أغرَفني حَظِّي بإكرامِها  
 وكم لأجلي في الليالي دَعَت وأسدلت دمعًا بأيامِها  
 طاهرةٌ طيبةٌ دأبها الذُّ تقوى كما شاعَ في أقوامِها  
 سليمةُ القلبِ وجلَّ الذي ما سيرَ المكرَ بأوهامِها  
 شريفةُ الطَّبَعِ ومن لُطفِها ترغَّبُ في خدمةِ حُدَّامِها<sup>1057</sup>

<sup>1056</sup> يُنظر: د.ت.ب، 95؛ د.ر.ت، 132، 116.

<sup>1057</sup> د.ف.م، 153.

فهي التي حَقَّه وإبلٌ إحساناتها الذي استعارَ له وصفَ الإغراقِ، ليُبَالِغَ في توصيفِ عِظَمِ اهتمامِها به وحنوِّها عليه الذي عبَّرَ عن فرطِها باستخدامِهِ الطِّبَاقِ (اللِّيالي/أَيَّامِها) إذ جعلها تشغلُ نفسها به شفقةً ورقَّةً واهتمامًا سحابةً نهارها وتُدَبِّرُهُ بدعائها ساعاتِ ليلها، وأتى في ثنائيه على خصالها بأسلوبِ التَّرادُفِ (طاهرةٌ/طَيِّبَةٌ) وأطنبَ مُحْتَرِّزًا بأنَّ هذا الخلقَ موروثٌ عن قومها وليسَ جديدًا مُكْتَسَبًا أو غريبًا عليها، فهي الشَّرِيفَةُ اللَّطِيفَةُ التي نَزَّهَها -بإتيانهِ بأسلوبِ الاستتباعِ-، عن المكرِ الذي قلَّما حَلَّتْ أنثى منه، ثم أطنبَ بأسلوبِ التَّذييلِ ليؤكِّدَ طهارتها وطيبَةَ قلبها لَمَّا قال: (وجلَّ الذي ما سَيَّرَ المكرَ بأوهامها)، ثم استطرَدَ في كلماتِهِ الرِّثائيَّةِ التي أودَعَهَا شرحَ حالِهِ حزينًا على أَيَّامِهِ التي تَقَضَّتْ بِقُرْبِها ونيلِ بَرِّها وعطفِها حاكيا حالةَ الأسي التي نَزَلَتْ بِهِ وما اعتراه من آلامٍ بفقدِها، حيثُ يقولُ مُتَفَجِّعًا من مرارةِ الفقدِ، وقد هدَّدَ عزمَهُ ما اجتمعَ عليه من مَعاولِ البُعدِ والعُربَةِ ومُصِيبَةِ الفراقِ للوالدَةِ الرُّؤومِ، فَحَقَّقَ لَهُ أن يَنْتَرِعَ من صَدْرِهِ الآلامِ مُتَأَوِّهاً:

أَوَّاهُ ما أحلى زمانًا مَضَى      بقربِها      ونيلِ      إنعامِها  
 وحين لا مانعَ عن قُرْبِها      وشمِّ      أيديها      وأكمامِها  
 لله أشكو بُعْدَها إِنَّهُ      لمُهَجَّتِي      جاءَ      بإضرارِها  
 وإنَّهُ قابلَ لي جُثَّتِي      لسطوَةِ      الفقدِ      بإعدامِها<sup>1058</sup>

فهو بعدَ تَفَجُّعِهِ وتَأوُّهِهِ من حُرْقَةِ فقدِ والدتهِ راحَ يُصَوِّرُ الحالةَ التي بُليَ بها بالبُعدِ عنها وفراقِها، فاستعارَ -استعارةً مكنيَّةً- للبُعدِ وصفَ الإحراقِ والإضرارِ ثم أنزَلَهُ على فؤادِهِ الذي اعتَصَرَتْهُ آلامُ مُصابِ الفقدِ، بل أطنبَ مُسْتَطَرِّدًا بعدَ نقلِ حالةِ أعماقِ باطنِهِ إلى السَّامِعِ فراحَ يحكي حالةَ ظاهرِ جَسَدِهِ فاستعارَ -استعارةً مكنيَّةً- للبُعدِ وصفَ إنسانٍ أجهزَ على شخصِهِ بالإعدامِ، مُبالِغَةً منه في

<sup>1058</sup> د.ف.م، 153.

نقل صورة الأسي والحزن التي عاشها بفقد والدته، مما يجعل الكلمات الرثائية هذه تستدر عطف السامع وتجعله يشترك مع الشاعر في مشاعر الأسي ولوعة الأشجان التي نزلت به؛ ولعل هذه الأبيات من البواكير الشعرية التي نظمها أبو الهدي في بدايات مسيرته الشعرية، فلربما لفت انتباه الناظر فيها تدبج الشاعر في شاعريته ونهوضه بنظمه إلى مستوى قد يكون أرقى من هذا المستوى الذي مر، إذا ما قيس برثائه لوالده الذي توفي بعد مرور عقد من الزمن على تاريخ نظم هذه المراثية (1312هـ/1894م)، حيث يلاحظ كيف ارتقى بشاعريته في المراثية المطولة - إذ جاوزت أباها ستين بيتاً - التي رثى بها والده، فهو قد اختار لها المطلع الأنيق الذي يرى فيه محاولة الشاعر أن يجود بما يتناسب مع مقام الرثاء، إذ الرثاء - حسبما يرى يحيى الجبوري (ت. 1440هـ/2019م) - مما يطمح إلى تجويده عند كل شاعر راث لأنه "تعبير عن خلجات قلب حزين وفيه لوعة صادقة وحسرات حري"،<sup>1059</sup> فلا بدع أن يفتتح أبو الهدي مراثيته موشباً المطلع بزينة التصريح قائلاً:

رعى الله قلبي كيف أودى به الضرُّ وفارقه بالرغم عن جهده الصبرُ  
لوته إلى الشهباء منه جواذبٌ لها اهترت من مطوي مكنونه السرُّ  
فطار بريح الأني والحزن عاكفاً هناك على قبر بصندوقه البحرُ  
على قبر برهان الحقيقة والذي سما رتبةً ينحط عن مجدها النسرُ  
على قبر فحل لم يرغ قط قلبه صدام العدا في الحرب والكر والفر<sup>1060</sup>

فها هو الشاعر قد مثل أمام نظر السامع لهذا المطلع وقد حطت بساحة قلبه جيوش الضر فكادت تحطمه بعد أن لم تدع للصبر مجالاً، وها هو قلبه قد أبرزه مصوراً بريشة الحروف وقد تداعت جواذب

<sup>1059</sup> يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1986م)، 165.

<sup>1060</sup> د.ت.ب، 47.

أسى الفراقِ عليه وهي تهزُّ بعمقِ أعماقِهِ لتحطُّ به عند تلك الربوعِ الحليبيَّة الشهباءِ التي ثوى فيها والدُّه المرثيُّ، فلم يكن لهذا القلبِ إلا أن يستجيبَ لتلك الجواذبِ، فاستدعى له أبو الهدى الاستعارة المكنية المرشحة ليُلبسَهُ أجنحةً ريشتْ من الأنين ولوعة التذكار، وبهذا يكون قد أحسنَ التخلُّصَ يجعلُ هذا القلبِ يطيرُ إلى مثوى والدِهِ ليعكِفَ عليه هناك لا يلوي على غيره أحدًا، وفي هذا إشارة من الشاعرِ إلى مقدارِ الحزنِ والأسى الذي جثَمَ في أعماقِهِ حتى عادَ جسدًا بلا قلبٍ أو روحٍ، فأنى للقلبِ أن يعودَ إليه وهو قد ألقى بجناحي تحليقه عاكفًا عند مثوى والدِهِ، الذي يرثيه بأنَّه (البحر) كنايةً عن الجودِ والكرمِ، وأنَّه (برهان الحقيقة) في كناية عن الشأو القصي الذي ارتقاه في مراقي الحقائقِ المعرفية، التي عبَّرَ عن عِظَمِها وعلوِّ رُتبتِها بكنايةٍ أخرى جعلَ نسرَ الأعالي يقصُرُ به حالُهُ عن أن ينالَ سموَّ عُلاها، ومن ثمَّ راحَ مُستطرِدًا في إضفاءِ الثناءِ على شمائلِ مرثيِّه آتياً بأسلوبِ التكرارِ (على قبرِ) حيثُ كَرَّرَها أكثرَ من عشرِ مرَّاتٍ، ليؤكِّدَ تلك الصِّفاتِ الحميدة من جهةٍ وليبرزَ بها اضطرارَ مشاعرِ الحزنِ في أعماقِهِ من جهةٍ أخرى؛ ثم تدرَّجَ بالأسماعِ واثبًا بها من وثبةٍ نفسيَّةٍ إلى أخرى، فبعدَ أن أبلَغَ في الثناءِ على صفاته انتقلَ إلى تذكاري الأيَّامِ السَّالفةِ بالقربِ منه وما أترعت به -على رغمِ صعوبتها- من صفاءٍ وأنسٍ وسرورٍ أضفاهُ ذاك الوالدِ الرَّؤوفِ، فيقولُ مُتَشوِّقًا ومُتَحَسِّرًا عليها:

فما أبرك الأوقاتِ مرَّت بقربه      حلاً بتجلِّي حاله كأسها المرُّ  
ويا ما أحيلاً زهرَ أيَّامنا التي      به حينما نلقاه ينشِخُ الصَّدْرُ  
باعتابه اللهُ كم طابَ عمرنا      وهل طابَ إلا ضمنَ أعتابه العمر<sup>1061</sup>

<sup>1061</sup> د.ت.ب، 48.

فهو يتذكّر تلك الأوقات التي عبّر عن شدّتها باستعارته لها -استعارةً تصريحيّةً- لفظَ الكأس المرّ، لكنّه عادَ يتعجّب من جمالِ أوقاتها حيثُ انتفت مرارثها بحالي جمالِ حالِ والده، ويكادُ الإطنابُ يكونُ مُحَيِّمًا على عمومِ المرثيّةِ ولعلّ به تَسَيُّ للشاعرِ بسطُ ما تَلَجَّلَجَ في صدره من مشاعرٍ وأحاسيسٍ، حيثُ أكَّدَ المعنى الأوّلَ بتذكُّرِ الأيّامِ وتعجُّبه من صفائها وجمالها الذي طابَ بلقيا والده والانشراحِ والسرورِ الذي كان يعمُّ بالاتّصالِ به والقربِ منه، وراحَ في البيتِ الأخيرِ يتذكّرُ طيبَ عيشه لمّا كان مُجتمِعَ الشَّمَلِ بوالده ثم راحَ مؤكِّدًا هذا المعنى بتساؤلٍ خرَجَ به عن مُقتضاهُ الظاهرِ ليمدحَ مؤكِّدًا طيبَ تلك الأوقات، جاعلاً السامعَ يصلُ إلى قناعةٍ يُبرِّزُ بها ما قطعهُ الشاعِرُ على نفسه من لزومِ الحدادِ والحزنِ إلى يومٍ أن يأذنَ الله بقاءِ مرثيتهِ في العالمِ الأبديِّ، حيث قال مُستطرِدًا:

إلى أن نلأقيه فمنا لأجله دموعٌ سخياتٌ وقلبٌ به جمرٌ  
فقدناه لكن ما فقدنا فيوضه (وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدر)<sup>1062</sup>  
يعزُّ علينا طيئه في حُفيرةٍ وإن كان في أطرافها البرُّ والبحرُ<sup>1063</sup>

فهو رفيقُ الحزنِ مذ أن فارقه إلى أن يلقاه، وما استعارته للدموع التي يبكيها وصفَ السخاءِ ولا جعلُ الجمرِ مُضطرِّمًا في قلبه إلا تعبيرٌ بل إشاعةٌ لجوِّ الأسى والحزنِ في هذه المرثيّة وإظهارٌ للفجعة التي لا سبيلَ لتجويدِ المرثيِّ إلا بها وبما يصحبها من الحسرةِ والاستعظامِ لهولِ الفقدِ،<sup>1064</sup> ومن أجلِ هذا فقد عبّرَ عن ذلك بتشبيهه الضمّيِّ لفقدِ والدهِ بافتقادِ البدرِ في داجي اللَّيالي، مع استدراكٍ بمدحِ عطاياه الهاطلة، وإظهارِ استعظامِهِ لهولِ هذا الفقدِ فقد هالهُ أن يُوارى الثرى وهو الطودُ الشامخُ الذي

<sup>1062</sup> هذا العجزُ تضمينٌ لببيتِ عنترَةَ بن شدّاد الذي يقول في صدره: "سيدكري قومي إذا الخيلُ أقبلتْ"، يُنظر: عنترَةَ بن شدّاد، ديوانِ عنتر، إعداد:

خليل الخوري-أمين الخوري، (بيروت: مطبعة الآداب، 1311هـ/1893م)، 44.

<sup>1063</sup> د.ت.ب، 48.

<sup>1064</sup> يُنظر: القيرواني، العمدة، 147/2.

انطوت بين جنبيه أكمل صفات الإحسان والجلود التي أشار إليها باستخدامه لام التعريف الكمالية (البرُّ والبحرُ)، وفي تجاور هاتين الكلمتين إضفاءً حليةً بدعيّةً هي إيهامُ التَّناسُبِ<sup>1065</sup> بينهما، لكنَّ ما أرادَهُ أبو الهُدَى أنَّ مَنْ يرثيه هو البرُّ المُحسِنُ وصاحبُ الأيدي الذي كَتَبَ عن جوده بالبحرِ، فلا ريب أن ينفَجِعَ بتغييبه في حَفَنَةِ من التُّرابِ؛ ولم يزل بمرثيته مُستَمِرًّا على هذه الوتيرة إلى أن حَتَمَهَا بالدُّعاءِ والتَّقديسِ لربِّ العالمين بقوله مُستخدِمًا الجِناسَ التَّافِصَ (الحَبْرُ/الخَبْرُ):<sup>1066</sup>

رُزِقْتَ حَيَاةً مَحْضَةً أَبَدِيَّةً      وفي مثلكم كم صدَّقَ الحَبْرَ الخَبْرُ  
عليك سلامُ الله فاهنأ بقرِبه      تعالى له سبحانه الخلقُ والأمرُ<sup>1067</sup>

فمرثيته مرزوقٌ بحياة السَّعَادَةِ الأبديةِ ويؤكدُ حياته تلكَ بالأداة (كم) الخبريةِ لِيُفِيدَ تَعَجُّبًا يمدحُ به كثرةَ تصديقِ الأخبارِ الطَّيِّبَةِ في مَحَبَرِ هذا المرثيِّ، فَلَمَّا جاءَ في أخبارِ الإيمانِ أنَّ المؤمنين يُرْزَقُونَ بحياةِ السَّعَادَاتِ والتَّعْليمِ الأبديةِ فلا بدَّ أن يصدِّقَ هذا الحَبْرُ في مَحَبَرِ هذا المرثيِّ، ولربما كان الشَّاعرُ بتقديسه لله ولأفعاله والتَّسليمِ لأقداره قد أضفى على مرثيته براعةً المقطعِ، وهذا يُبيحُ القولَ: إِنَّهُ جعلَ الخاتمةَ تتناغمُ مع وثباتِ القصيدةِ وتنفُّلاتها ولتناسبِ البداية مع النِّهايةِ.

ورغمَ أنَّ أبا الهُدَى كان قد خصَّ أخاهُ الشَّقِيقَ نورَ الدِّينِ (ت. 1313هـ/ 1896م)<sup>1068</sup> بقطعةٍ رثائيَّةٍ،<sup>1069</sup> إلا أنَّها لم ترقَ إلى القصيدةِ التي رثىَ به أُختهُ الشَّقِيقَةَ خالديَّةَ (ت. 1321هـ/ 1903م) التي

<sup>1065</sup> وهي الملحقة بمراجعة النَّظيرِ، يُنظَرُ: حَبْنَكَة، البلاغة، 384/2.

<sup>1066</sup> عُدَّتْ هذين اللَّفْظَينِ الأخيرَينِ من الجِناسِ التَّافِصِ، إذ يفتحُ الخاءُ تعني واحدَ الأخبارِ، أمَّا إذا ضُمَّتْ فهي من حَبْرَتِ الرَّجُلِ وأخبرُهُ بمعنى الاختبارِ والابتلاءِ أو العلمِ بالشَّيءِ، يُنظَرُ: الجوهري، "خبر"، 642/2؛ ابن منظور، "خبر"، 227/4؛ الزَّبيدي، "خبر"، 126/11.

<sup>1067</sup> د.ت.ب، 48.

<sup>1068</sup> يُنظَرُ: الصَّيَّادِي، التَّاريخُ الأوحد، 143؛ جريدة طرابلس السَّام، "وفاة السيِّدِ نورِ الدِّينِ الصَّيَّادِي"، السَّنَة 4، العدد 146، (1896م/1313هـ).

<sup>1069</sup> يُنظَرُ: د.ر.ت، 132.

سَلَكَ فِيهَا ذَاتَ الْمَسْلَكِ الَّذِي سَلَكَهُ فِي مَرْتَبَتِهِ لَوْلَادِهِ، فَتَأَنَّقَ فِي مَطْلَعِهَا وَأَوْدَعَهَا فَيْضَ مِشَاعِرِهِ  
وَوَصَفَ مَا هَاجَهُ خَيْرُ وَفَاتِمَا مِنْ جُرُوحٍ وَأَكْدَارٍ، فَقَالَ مُتَفَجِّعًا مُتَأَوِّهًا:

خَبْرٌ طَوَى شِقَقَ<sup>1070</sup> الْبِقَاعِ فَأَخْبَرَا فَجَرَى لَهُ مَاءُ الْمَدَامِيعِ أَحْمَرًا  
يُرْوِي أَحَادِيثَ الْأَجْبَةِ مُرْسِلًا مِنَّا الْعِيُونَ لَهَا سَحَابًا مُمَطَّرًا  
وَإِذَا هُفَفَ قَلْبِي فَالْتِي قَدْ أَزْمَعْتَ تَرَكْتَ لَنَا صَفْوَةَ الْقُلُوبِ مُكَدَّرًا<sup>1071</sup>

فَنَعِي أُخْتِهِ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ جَابَ الْمَفَاوِزَ وَالْوَهَادَ حَتَّى تَنَاهَى إِلَى مَسْمَعِهِ فَرَاخَ يُصَوِّرُهُ بِمُبَالَغَةٍ  
أَغْرَقَتْ فِي وَصْفِ حُزْنِهِ عَلَيْهَا إِذْ لَمْ تَكْفِ الدُّمُوعُ لَوْصِفِ ذَلِكَ الْحُزْنَ بَلْ جَعَلَ الدِّمَاءَ تَسِيلًا مَكَاتِمًا،  
وَعَرَضَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُبَالَغَةِ الدَّلَالَةَ عَلَى اسْتِنزَافِ الْحُزْنِ لِدُمُوعِهِ إِلَى أَنْ عَدَا يَنْزِفُ الدِّمَاءَ مِنْ عَيْنَيْهِ حُزْنًا  
عَلَى فِرَاقِ أُخْتِهِ، الَّتِي أَتَاهُ نَبَأُ مَوْتِهَا فَانْهَلَتْ لَذَلِكَ عَيْنَاهُ بِفَيْضٍ مِنْ بُكَاءٍ لَمْ تَلْقُ بِرِسْمِهِ إِلَّا الِاسْتِعَارَةَ  
التَّصْرِيحِيَّةَ بِأَنَّهُ الدِّيمَةُ الْمِدْرَارِ الَّتِي سَالَ سَحَّاحُهَا حُزْنًا عَلَى فِرَاقِ الْمَرْتَبَةِ -أُخْتِهِ-، فَلَا غُرُوَّ أَنْ تَنْقَلِبَ  
الْقُلُوبُ مِنْ صَفَاءٍ إِلَى غَمُومٍ وَأَكْدَارٍ يَصِيحُ الشَّاعِرُ بِتَفَجُّعٍ مِنَ الْآلِمِهَا.

تِلْكَ كَانَتْ أَهْرُزُ مَرْتَبَاتِ أَبِي الْهَدَى الَّتِي تُلْحَقُ بِرِثَاءِ الْأَقَارِبِ الَّتِي يُلْمَخُ فِيهَا مَا يُصَدِّقُ قَوْلَ  
الْمُبَرِّدِ (ت. 285هـ/898م) فِي مِثْلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الرِّثَاءِ بِأَنَّهُ "يَقْرُبُ مِنَ الْقَلْبِ وَيُضْطَرُّ إِلَى تَصَدِيقِهِ  
وَيُرْتَاخُ لِعَهْدِ قَائِلِهِ وَيُرْحَمُ لَشَكْوَى بَيْتِهِ"،<sup>1072</sup> وَلَعَلَّ صَدَقَ الرِّثَاءُ عِنْدَ أَبِي الْهَدَى نَبْعٌ مِنْ صَدَقِ الْعَاطِفَةِ  
عِنْدَهُ، وَهِيَ غَالِبًا مَا تَسْتَعْرِ عِنْدَ مُعْظَمِ الرُّثَاةِ لِذَا كَانَتْ الْمَرَاثِي عِنْدَهُمْ عَلَى حَالَةٍ مِنَ التَّجْوِيدِ "لَأَهْمَّ

<sup>1070</sup> تعني المسافات البعيدة، وهي جمع واحد النِّقَّة بكسر النِّين وضوِّها بمعنى السَّفَر الطَّوِيلِ والمسافة البعيدة، يُنظَر: ابن منظور، "شقق"،  
184/10.

<sup>1071</sup> د.ر.ت، 116.

<sup>1072</sup> محمد بن يزيد المبرِّد، التَّعَاذِي وَالْمَرَاثِي وَالْمَوَاعِظُ وَالْوَصَايَا، تحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، (القاهرة: دار نضرة مصر، د.ت)، 181.

ينظموها وأكبادهم تحترق"،<sup>1073</sup> فلا غرو أن يلمح هذا الاحتراق والأسى في مرثيات أبي الهدي في أقاربه وهي التي تلحق باللون الرثائي الذي سماه شوقي ضيف "النذب".<sup>1074</sup>

إلا أن لونا آخر من الرثاء عند أبي الهدي يمكن أن يلحق بما سمي "ندب آل البيت الكرام"، الذي يعبر فيه الشاعر عن حزنه إذا ما هوى نجم لامع من سمائهم في غياهب الموت، وهو لون طالما سيطرت فيه مرثاة ملتاعة؛<sup>1075</sup> وهذا اللون يلمح في رثاء أبي الهدي للإمام الحسين الشهيد رضي الله عنه، الذي قد يطلق على المرثيات التي قيلت فيه مسمى "الطقييات"،<sup>1076</sup> وهي مرثيات لم تنزل نندرها ألسنة الشعراء وأقلامهم - على تفاوت بين قلة وكثرة - في كل عصر وفي كل جيل،<sup>1077</sup> إذ لم ينزل استشاده عبر العصور يوحى للشعراء بمرثية هي الغاية في الحزن الممض والألم المحرق"،<sup>1078</sup> وقد اختار أبو الهدي لقبه أن يسطر في هذا النوع من المرثيات، فأتى بأربع قصائد تجاوزت اثنتان منها أربعين بيتا وأما الثالثة فقد بلغت تسعة وثلاثين بيتا، وأقصرهن كانت أحد عشر بيتا استبكت في مطلعها كل محب لرسول الله أن يجري عينيه حزنا على سبط النبوة الشهيد فقال مفتتحا مطلعها دون أي مقدمة تمهيدية متابعا ما كان يجري به الشعراء منذ العصر الجاهلي من ترك المقدمات إذا ما هم

<sup>1073</sup> يُنظر: الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418هـ/1998م)، 320/2.

<sup>1074</sup> يُنظر: شوقي ضيف، الرثاء (القاهرة: دار المعارف، 1407هـ/1987م)، 5.

<sup>1075</sup> يُنظر: ضيف، الرثاء، 38.

<sup>1076</sup> نسبة إلى الطف وهي أرض في العراق من ضاحية الكوفة كان فيها استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه، يُنظر: باقوت، البلدان، 36/4.

<sup>1077</sup> يُنظر: جواد شبر، أدب الطف أو شعراء الحسين من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،

1388هـ/1969م)، 21/1.

<sup>1078</sup> يُنظر: ضيف، الرثاء، 40.

وقفوا في سُوحِ الرِّثاءِ، لِيُعَبِّرُوا عن شُغْلِهِم عن التَّقْدِيمِ والتَّأْتِي فِيهِ بِهَوْلِ المَصِيبَةِ التي حَلَّتْ بِهِم وما أَوْرَثَتْهُ  
من الحَسْرَاتِ والأشْجَانِ وهذا ما يراه ابن رشيقيّ وإِجْبًا على كِلِّ رَاثٍ اتِّبَاعُهُ والسَّيْرُ عَلَيْهِ: 1079

يا مُحِبَّ المِصْطَفَى فابكِ الحُسَيْنَا وَأَسْلِحِي حَزْنَنا مِنَ العَيْنَيْنِ عَيْنًا  
جَدِّدِ الحُزْنَ لِمَا قَدْ نَالَهُ أَيُّ قَلْبٍ مَوْمنٍ يَسْلُو الحُسَيْنَا<sup>1080</sup>

وهذا المَطْلَعُ يدلُّ على أَنَّ رِثاءَ الحُسَيْنِ عند أبي الهُدَى كان نابعًا من كونه يرى أَنَّ مَحَبَّةَ الحُسَيْنِ والحُزْنَ  
على ما انْتَلَمَ من الإسلامِ باستشهادِهِ دِينًا وإِيمَانًا، إذ هو يأتي بصيغَةِ السُّؤالِ وما قصدهُ إلا التَّعَجُّبُ  
والتَّعَجُّيبُ من فؤادٍ تَمَرَّ عليه مُصِيبَةُ سبِطِ النُّبُوَّةِ وهو سألِ خالٍ كأنَّ شيئًا لم يكن، فلا غرو أن يَسْتَنْزِلَ  
الدَّموعَ من عينِ كِلِّ مُحِبِّ للنُّبُوَّةِ مُسْتَعِيرًا -استعارةً تصرِيحِيَّةً- للمُؤَلِّ لفظَ الينبوعِ (العَيْن) لتتفجَّرَ منها  
دموعُ الحُزْنِ للمُصِيبَةِ العُظْمَى باستشهادِ رِجائَةِ النَّبِيِّ الأكرمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويبدو أنَّ أبا الهُدَى في هذا النَّوعِ من الرِّثاءِ كان قد حرصَ على الغاياتِ الرِّثائِيَّةِ الخالِصَةِ في  
قصيدةِ الرِّثاءِ، فأجرى بين جَنَباتِ القصيدةِ الوصفِ الموضوعيِّ للأحداثِ الدَّامِيَةِ في وَقَعَةِ كَرْبِلاءَ،  
حتى لِيَكادُ وصفُ تلكِ الوَقَعَةِ وأحداثِ استشهادِ سبِطِ النُّبُوَّةِ يُوازِي صوتَ الشَّاعرِ في وصفِ  
انفعالاتِهِ ومدى تأثُّرِهِ بتلكِ الواقِعَةِ، إلى جانبِ سِيَرِهِ على النَّمَطِ التَّقْلِيدِيِّ من مُقَدِّمَةٍ وتَخُلُّصٍ إلى  
الغرضِ الرَّئِيسِ وخاتِمَةٍ يُنهي بها بَراعةً المِقطَعِ ما قد استفتَحَهُ من بَراعةِ الاستهلالِ؛ ولعلَّ من أَجْمَلِ  
المَطالِعِ التي افتتَحَ بها رِثاءَهُ قولُهُ وقد أتى بحلِيةِ التَّصرِيحِ في البيتِ الأوَّلِ، وأظْهَرَ حالَةَ من التَّبَدُّلِ  
والتَّغْيِيرِ عَمَّتِ الأكوانِ وظواهرها الطَّبِيعِيَّةِ وَبَثَّ فيها رُوحَ الحِياةِ بما أضفى عليها من صفاتِ الأحياءِ  
من حُزْنٍ ولوعَةٍ على المرثِيِّ الشَّهيدِ:

<sup>1079</sup> يُنظَر: القيرواني، العُمدة، 152/2.

<sup>1080</sup> د.ر.ب، 58.

أَحْمَلُ<sup>1081</sup> هذا الأفقِ غَابَ هِالَالُهُ ونَالَ خَمُولًا بعدَ سَطَعِ جَمَالُهُ  
 أمَ الفَلَكِ الدَّوَارِ للحُزْنِ لم يَدُرْ أمَ الرِّفْرِفِ القُدْسِيّ قُدَّتْ<sup>1082</sup> جِبَالُهُ  
 أمَ الطَّفِّ أبكى الدِّينَ والشَّرْعَ والهَدَى لما فيه قد نَالَ الحُسَيْنُ وآلُهُ<sup>1083</sup>

فالمطلعُ يكتسبُ أهميَّتهُ من حيثُ إنَّه نابعٌ من حالةِ الشَّجْنِ التي حَفَّتْ بنفسيَّةِ الشَّاعرِ وحرَّكتِ قريحَتَهُ،<sup>1084</sup> لأنَّ المطلعَ هو أوَّلُ دَفْقَةٍ من مشاعرِ الشَّاعرِ التي يُلقِيها في مَسامِعِ المتلقِّي، إذ يُحاولُ من خلالِهِ التَّنْفِيسَ عن الحُزْنِ الذي امتلأَ به صدرُهُ ومن ثمَّ يدخلُ إلى عوالمِ الرِّثاءِ لواقعةِ استشهادِ الحُسَيْنِ؛ وهو هنا لم يَشَأْ في افتتاحِ مرثيَّته أن يُعبِّرَ عن حُزْنِهِ فقط، بل ضمَّ إلى ساحَةِ الأحرانِ العوالمِ التي أحاطتْ به جميعها، فحتى عالمِ الفِضَاءِ وما امتلأَ به من أَجْرَامِ سَيَّارَةٍ راحَ يتساءلُ في تعجُّبٍ عن وقوفِها بعدَ أن تساءَلَ عن هلالِ السَّماءِ كيفَ حُسيَفَ وحَفَّتْ أنوارُهُ، ومن ثمَّ التفتَ مع حسنِ تَخُلُّصٍ - إلى حادثةِ الطَّفِّ وأحداثِها الدَّامِيةِ التي تساءَلَ عنها بجعلها - من طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ - قد أسألتِ عينَ الإسلامِ حَزَنًا لما حلَّ بالسَّبِطِ الشَّهيدِ وعِترَتِهِ في تلكَ الواقعةِ؛ وبهذا المطلعِ الرِّثائيِّ يُمكنُ القولُ: إنَّ أبا الهُدَى قد انطلقَ بمقدِّمَتِهِ من رُويَّةِ دينيَّةٍ، خلافًا لما قد يُشاعُ من تفسيرِ التُّقَادِ بأنَّ مُقدِّماتِ الشُّعراءِ التَّقليديَّةِ يكونُ غالبُها مُنطلقًا من خوفِ الفناءِ والقَلَقِ الوجوديِّ الباعثِ على التَّسَبُّبِ بالحياة.<sup>1085</sup>

<sup>1081</sup> قطفية أو نسيج له وبر، أحمد مختار، "خمل"، 700/1.

<sup>1082</sup> من القَدِّ وهو الشَّقُّ طولًا والقطعُ الذي يستأصلُ الشَّيءَ، يُنظَرُ: الجوهري، "قدد"، 522/2؛ ابن منظور، "قدد"، 344/3.

<sup>1083</sup> د.ر.ب، 47.

<sup>1084</sup> يُنظَرُ: مقبول علي بشير النعمة، المراثي في عصر صدر الإسلام (بيروت: دار صادر، 1417هـ/1997م)، 186.

<sup>1085</sup> يُنظَرُ: حسين عطوان، مُقدِّمة القصيدة العربيَّة في الشعر الجاهلي (القاهرة: دار المعارف، 1390هـ/1970م)، 217، 219.

وقد كانَ ذكْرُ تلكَ الواقعةِ -حادثة الطَّف- وما قد جَرى فيها أوَّل ما حَرَصَ أبو الهُدَى أن يَخْلَصَ إليه في مرثيَّته، حيثُ حاولَ تصويرَ بلاءِ الحُسَيْنِ فيها وتصويرَ شجاعتهِ في قِراعِ المُعتدِّين من قاتليهِ؛ فمن ذلكَ قولُهُ وهو يَصِفُ هولَ الواقعةِ وأحداثها الدَّاميةَ، عبرَ استعارتهِ المكنيةَ للموتِ وصفَ الحَبِطِ التي هي من صفاتِ الوحشِ الكاسِرِ، فجعلَ الموتَ يخبِطُ بالفريقينِ المتقابلينِ، وبإسنادهِ العيثَ إلى رمحِ الممدوحِ وسيفهِ مجازٌ عقليُّ يوضِّحُ قوَّةَ أثرِ سلاحِ الممدوحِ وأثرَهُ في الجموعِ المعتدِّيةِ، حيثُ قال:

وكم رَدَّهم والموتُ يخبِطُ جمعَهُم      وقد عاثَ فيهم رُحْمُهُ ونِصالُهُ  
أَذارَ بهم طرفًا من السَّيفِ جارِحًا      وما كانَ إلا بالدِّماءِ اكتحالُهُ  
ولا حَتَّ لهم إذ يدهمُ الصَّفَّ منهم      شؤونُ عليٍّ في الوَعَى وفعالُهُ  
ثباتُ عليٍّ في الصُّفوفِ وفي الرِّضَا      خِصالُ إمامِ القبلتينِ خِصالُهُ<sup>1086</sup>

فالحُسَيْنُ لا زالَ يُقَلِّبُ سيفَهُ بين هاماتِ أعدائِهِ هادِرًا بين صفوفِهِم، مُذَكِّرًا بحالِهِ وشِدَّةِ بأسِهِ وشِدَّةِ كَرِهِ عليهم بشأنِ أبيهِ ليثِ المعاركِ والحروبِ، وبرضاهُ وبتسليمِهِ لأقدارِ الله وحُكمِهِ في هذه الدَّارِ الفانيةِ يحكي شأنَ جدِّهِ المصطفى وسيرتَهُ وحالَهُ، ومما يلفتُ الانتباهَ ليسَ فقط جمالُ الاستعارةِ المكنيةِ المرشحةِ التي جعلَ بها للسَّيفِ عينًا جارِحَةً مقصورًا اكتحالها على دماءِ المعتدِّين وإثما ما تحرَّاهُ من الدِّقَّةِ في انتقاءِ الأفعالِ التي وَصَفَ بها بسالةَ الحُسَيْنِ وشجاعتهِ (يردُّ/يخبِطُ/عاث/يدهم) التي تشترِكُ جميعها بما أَلَمَّتْ به من معاني القوَّةِ والشِدَّةِ التي تُناسِبُ مقامَ الكلامِ.

وفي مُقابلِ توصيفِ بسالةِ الحُسَيْنِ في جهادِهِ، يُعَرِّجُ أبو الهُدَى أثناءَ رثائهِ إلى جانبٍ يتناولُ خِلالَهُ المعتدِّين عليه، ويمكنُ القولُ: إنَّهُ في تناوله لهم كان قد جَنَحَ بالمرثيةِ إلى ما يقربُ من الهجاءِ؛

<sup>1086</sup> د.ر.ب، 49.

كقولِهِ فِيهِمْ بَعْدَ أَنْ أَحْسَنَ التَّخْلُصَ مِنْ وَصْفِ جِهَادِ الْحُسَيْنِ إِلَى هِجَائِهِمْ وَكَيْلِ الْوَعِيدِ لَهُمْ بِالْعَوَاقِبِ  
الْمُخْزِيَةِ:

وَأَعَادَ مِنْ جُثْثِ الْكِلَابِ حُسَامَهُ      وَبِيَاضُهُ الْوَضَّاحُ يَلْمَعُ أَحْمَرًا  
تَبًّا لِأَجْلَافِ دَهْوِهِ لِيُطْفِئُوا      مِنْ نَبْعَةِ الْقُدْسِ السِّرَاجِ الْأَنْوَرَا  
لَعَنَ الْإِلَهَ مُقَاتِلِيهِ فَيَأْتَهُمْ      هَدَمُوا مِنَ الْإِسْلَامِ رَكْنًا أَشْهَرَا  
كَفَرُوا حَقُوقَ الْمُصْطَفَى فَمَقْرُهُمْ      قَعْرُ الْجَحِيمِ وَذَنْبُهُمْ لَنْ يُعْفَرَ<sup>1087</sup>

وَيُلَاخِظُ فِي هِجَائِهِ لِلْقَتْلَةِ الْمُعْتَدِينَ أَنَّهُ كَانَ هِجَاءً إِسْلَامِيًّا يَقُومُ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ عَلَى نَزْعِ صِفَةِ الْإِيمَانِ  
مِنْهُمْ وَوَصْمِهِمْ بِأَتَمِّهِمْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ الْمُتَجَرِّعِينَ لِسُوءِ الْعَذَابِ فِي مَهَاوِي دَرَكَاتِ نَارِ جَهَنَّمَ، فَهَمَّ  
الْهَادِمُونَ لِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ الْمُبِينِ بِفَعْلَتِهِمُ الشَّنِيعَةِ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ لَا يَتَحَرَّجُ مِنْ ذَمِّهِمْ بِأَشْنَعِ  
الْأَلْقَابِ، وَهَذَا نَابِعٌ مِنْ نَظَرِيَّتِهِ وَإِيمَانِهِ الْجَازِمِ بِأَتَمِّهِمْ مُحَارِبُونَ لِلدِّينِ الْمُبِينِ وَنَبِيِّهِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَيْثُ  
يَقُولُ فِيهِمْ:

مَا حَارَبُوهُ بَلِ النَّبُوَّةَ حَارَبُوا      وَالِدِّينَ وَالشَّرْعَ الْأَعَزَّ الْأَظْهَرَ<sup>1088</sup>

وَعَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ قَوْلُهُ فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْقَاتِلَةِ:

رَفَعَتْ مَنَارَ عَدُوِّ آلِ مُحَمَّدٍ      فَمَقْرُهَا فِي الْأَسْفَلِينَ تَنْزُلًا<sup>1089</sup>  
وَلَعَلَّ أْبْرَرَ مَا يَلْفُتُ الْإِنْتِبَاهَ فِي مَرْتِبَاتِ أَبِي الْهُدَى لِلْحُسَيْنِ أَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يَسْلُكَ بِجَانِبِ مِنْهَا  
مَا سَلَكَ بِهِ الْأَوْلُونَ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ مِمَّا يُعَدُّ أَحَدَ أَكْثَرِ عُنَاصِرِ رِثَائِهِمْ أَصَالَةً أَلَا وَهُوَ ارْتِفَاعُ

<sup>1087</sup> د.ر.ب، 26.

<sup>1088</sup> د.ر.ب، 26.

<sup>1089</sup> د.ف.م، 112.

الصَّوْتِ الْمُنَادِي بِأَخِذِ الثَّأْرِ مِنَ الْمُعْتَدِينَ؛ وَيُظَهِّرُ هَذَا جَلِيًّا عِنْدَمَا قَالَ بَعْدَ تَحْلِيَةِ أَيْبَاتِهِ بِالْتَّرَادُفِ  
(أَشْرَافٍ/سَادَةٍ) وَالْجِنَاسِ النَّاقِصِ (نَسِيمٍ/النَّسِيمِ، تَشْكُ/تُشْكُ)،<sup>1090</sup> وَالطَّبَاقِ (صَحَّ/اعْتِلَالُهُ،  
حَرَامٌ/حَالَالُهُ، حُسَامٌ/انْفِلَالُهُ):<sup>1091</sup>

كَأَنَّ نَسِيمَ الطَّفِّ يَأْتِي بِعَطْرِهِ      وَقَدْ صَحَّ مِنْ ذَاكَ النَّسِيمِ اعْتِلَالُهُ  
فَتُنْدَبُ أَشْرَافٌ وَتُرْعَدُ سَادَةٌ      وَتَبْكِي حُسَامًا قَدْ شَجَّاهَا انْفِلَالُهُ<sup>1092</sup>  
تَرُومٌ لَهُ سَفَكَ الدِّمَاءِ وَإِنَّهُ      حَرَامٌ وَهَذَا لَوْ فَفَهَتَ حَالَالُهُ  
وَتَشْتَاقُ حَرْبًا لَا تَشْكُ بِأَهْمَا      تُشْكُ بِهَا فِي كُلِّ جِزْءٍ نَبَالُهُ<sup>1093</sup>

فهو ينتشِقُ رِيحَ مَرْتَبَتِهِ الشَّهِيدِ مِنَ النَّسَائِمِ الْقَادِمَةِ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الَّتِي حَرَّ بِهَا شَهِيدًا  
فِيكَتِي عَنْ دِمَائِهِ الزَّكِيَّةِ بِالْعَطْرِ الَّذِي طَابَتْ بِهِ تِلْكَ النَّسَمَاتُ، وَهِيَ الَّتِي هَاجَتْ بِكُلِّ شَرِيفٍ أَرْوَمَةً  
وَحُلْفًا حَتَّى جَعَلَتْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَزِينًا كَثِيمًا يَنْزِفُ الْعَبْرَاتِ عَلَى هَذَا الشَّهِيدِ الَّذِي جَعَلَهُ الْمُهَيَّبُ  
الْبِتَّارُ - مِنْ طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ الْمُرَشَّحَةِ - لِيُشِيرَ إِلَى عِظَمِ شَجَاعَتِهِ الَّتِي غَابَتْ شَمْسُهَا  
بِاسْتِشْهَادِهِ الْمُكْتَبِيِّ عَنْهُ بِانْفِلَالِ الْحُسَامِ وَانْتِلاَمِهِ بِالْمُصِيبَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِسَاحَةِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ  
انْعَطَفَ إِلَى تَعَطُّشِ كُلِّ مِنْهُمْ إِلَى أَخِذِ الثَّأْرِ بِقَتْلِ قَاتِلِيهِ وَإِسْعَارِ حَرْبِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِ،  
فَجَعَلَ مِنْهُمْ مُشْتَاقِينَ إِلَى الْحَرْبِ عَلَيْهِمْ مَوْقِنِينَ بِالْإِنْتِصَارِ حَيْثُ سُبُّهُ عَلَى الْمُعْتَدِينَ غَارَاتُ الشَّهِيدِ  
فَتُشْكُ بِكُلِّ جَوَانِبِهَا نِصَالُ شَجَاعَتِهِ وَرِمَاحُ بَسَالَتِهِ؛ وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يَسْتَثِيرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ وَيَسْتَنْهَضُ

<sup>1090</sup> الأولى من الشكِّ وهو خلافُ اليقين، والثَّانِيَّةُ مِنْ قَوْلِهِمْ شَكُّنُهُ بِالرُّمَحِ إِذَا حَرَفْتُهُ وَانْتَضَمْتُهُ وَقِيلَ حَرَفْتُهُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "شكك"، 4/1595؛  
ابن منظور، "شكك"، 10/452.

<sup>1091</sup> الحُسَامُ مِنَ الْحَسَمِ وَالْقَطْعِ وَالْبِتْرِ وَقَابَلَهُ ضِدُّهُ وَهُوَ الْإِنْفِلَالُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "حسم"، 5/1899؛ ابن منظور، "حسم"، 12/134.

<sup>1092</sup> انْكَسَاؤُهُ وَانْفِلَالُهُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "فلل"، 5/1792؛ ابن منظور، "فلل"، 11/530.

<sup>1093</sup> د.ر.ب، 26.

به صدق الانفعال العاطفي مع عاطفة الشاعر الجياشة التي اكتنفت عنصر مطالبته بالتأثر للحسين الشهيد؛ ويكاد يكون التفجع على المرثي قريباً مُلازماً لعنصر المطالبة بالتأثر الذي حوته المرثية الحسينية عند أبي الهدى، فمن تفجعه قوله وقد أتى بالإطناب بتكرار لفظة (هفي) ليُشعر بما احتدم في داخله من اضطراب نيران العاطفة ويلهب بقبس منها مشاعر الحزن والأسى في نفس المتلقي والسماع للآيات تجاه مرثيه، فإذا كان قد دعا السامع إلى البكاء على الحسين في موضع فإنه قد بكى وأبكى في هذه الآيات التي أطلق فيها زفراته الحري قائلًا:

ليث الكريمة<sup>1094</sup> وابن سلطان الحمى فلك الوحي الشمس التي لن تُسترا  
هفي لكوكب حسنه لما هوى من عرشه الأعلى لمُنْبَسِطِ الثرى  
لهفي لأسرتيه الكريمة مُدْ غَدَتْ أسرى وهم آل الذي ليلاً سرى  
هفي على آل الرسول فدمعهم حتى القيامة لم يزل مُتَحَدِّراً<sup>1095</sup>

فبعد أن استدعى التشبيهات البليغة لمرثيه بأنه الأسد والشمس التي لا يشرق شروقها غروب، بدأ بإظهار التفجع على مرثيه وهو مزوج بما اعتلج في أعماقه من إعظام لشخصية المرثي الذي انجر على أفراد عترته جميعهم، فتصوير جمال مرثيه استدعاه إلى استجلاب صورة بيانية له استعار بها -استعارة تصريحية- لفظ الكوكب الذي سقط من سماوات بُرجه على صفحات التراب، فلا بدع أن يتصدع قلب الشاعر على عترته الطاهرة التي لن يرقاً دمعها إلى يوم الدين في كناية منه على دوام هذا الحزن الدفين في سلالة المرثي إلى آخر أيام الدنيا.

<sup>1094</sup> هي السددة في الحرب والنزلة من نوازل الدهر، يُنظر: الجوهري، "كره"، 2247/6؛ ابن منظور: "كره"، 536/13؛ وفي الديوان "الكريمة" وقد تكون كناية عن أمه الزهراء، ولعل الصواب ما أثبت أعلاه إذ إنها تناسب مع مقام الكلام عن شجاعته.

<sup>1095</sup> د.ر.ب، 25.

لكنَّ كلَّ هذا التَّفجُّع على المرثيِّ والتَّحسُّر على أُسرِّته وطلَّب الثَّارات للشَّهيد ما يلبثُ أن يهدأ في بعضِ جنَّاتِ المرثيَّة، مما يلفتُ انتباهَ النَّاظِرِ إلى كونِ الشَّاعرِ قد وقفَ قليلاً في خِصَمِ القصيدةِ وكأنَّه يلتقطُ أنفاسَهُ النَّظميَّةَ ليستعيدَ عنفوانَ النَّظمِ بوَثْبَةِ نفسيَّةٍ جديدةٍ ومن ثمَّ يتابعُ في نظمِ عقدِ مرثيَّته، فكان أن أنتجت تلك الوقفات الهادئة صورةً جديدةً من صورِ الرِّثاءِ يصدِّقُ عليها ما أشارَ إليه شوقي ضيف أنَّها صورةُ "العزاء"، إذ يكون الشَّاعرُ فيها مُتأمِّلاً بعقله نافذاً من نافذةِ الموتِ إلى التَّفكيرِ في حقيقتهِ وتأمُّلِ حقيقةِ الحياة؛<sup>1096</sup> وتظهرُ هذه الصُّورةُ بشكلٍ خافتٍ في مرثياتِ أبي الهدى، على نحوِ قوله مُتفكِّراً بما قدَّره ربُّ العالمين على سبطِ النُّبوةِ الأطهر، حيثُ رأى ذلك الموتَ رتبةً كسنته حُلَّةَ الجلالِ في كلِّ العوالمِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، وصبرَ نفسه على ما أصابها من تأثُّرٍ بتلك الواقعة بأنَّ ما عليها سوى الإيمانِ بالقدرِ المُحتَمِّ فالأقدارِ الإلهيَّةِ لا دَخلَ للعبدِ بها ولا مفرَّ منها، وما من سبيلٍ لاستقبالها إلا سبيلُ الرِّضا والتَّسليمِ لمُقَدِّرها الحكيمِ العليمِ جلَّ وعلا:

أعطى ابنَ فاطمةِ البتولِ جلالَةً رَفَعَتْ له في كلِّ فحجٍ مَظَهراً  
للهِ أقدارٌ تُقَابِلُ بالرِّضا والعبدُ لم يكُ في الشُّؤونِ مُحَيَّرًا<sup>1097</sup>

وعلى هذه الشَّاكِلَةِ تفكُّرُهُ في المرثيَّةِ الأخرى بأنَّ كأسَ الشَّهادَةِ الذي ارتشفَ منه مرثيُّه هو ذاتِ الكأسِ التي شربتَ منها أعظمُ البَشَرِ من الرُّسُلِ والأنبياءِ، وبأنَّ المقامَ الذي وقَّفَ فيه في ساحاتِ الوعى هوَ مقامُ المجدِ والشَّرَفِ المؤبَّدِ، حيثُ قال مُستخدِماً أسلوبَ القصرِ ليبيِّنَ عنانيتهُ ببسطِ حقيقةِ موتِ مرثيِّه الشَّهيدِ المقدام، وليقطعَ بكونه عزًّا وارتفاعاً عليًّا لشأنه:

<sup>1096</sup> يُنظر: ضيف، الرِّثاء، 6.

<sup>1097</sup> د.ر.ب، 27.

جِلالَةُ شَأْنٍ بِالشَّهادَةِ نالها تَفَكَّرَ فَزَهَّرَ الأَنْبياءُ مِثالُهُ  
وما الموتُ إلا العِزُّ إن كان مُبرِّمًا على المجدِ في عَجِّ الحروبِ سِجالُهُ<sup>1098</sup>

وقد استطاعَ أبو الهُدَى أن يَخْتارَ لِحواثِمِ مَرثِيَّاتِهِ من الطَّفِياتِ ما يُزَيِّنها بالتَّناسُبِ مع المطالِعِ،  
فكان أن حازتِ براءة الاستهلالِ والمقطعِ؛ حيثُ حَتَمَ إحداها بِسلامِهِ على ذاتِ مَرثِيَّهِ مع ما يُشيرُ  
إلى دوامِ الحُزَنِ الدَّفِينِ بداخلِ القائلِ:

عليه سلامُ اللهِ ما مَرَّ ذِكْرُهُ وجاراهُ من جَوِّ العيونِ زُلالُهُ<sup>1099</sup>

في حين أنَّه ذَيَّلَ خاتمةَ الأخرى بتضمينِهِ عجزها الأخيرَ عجزَ مطلعِ قصيدَةٍ لعمر بن الفارضِ  
(ت. 632هـ/1235م)، تشرِّحَ حالةَ الحبِّ المُضطربِ في قلبِهِ تجاهَ مَرثِيَّهِ، فقال مُحاطِبًا له وكأنَّهُ أمامَهُ  
يطلبُ منه جائزةَ القبولِ على قصيدَتِهِ:

خذاها ابنَ حيدرةِ الوَعَا مَرثِيَّةً نظمتَ بذكركَ من صفاتِكَ جوهرًا  
وامنُّنْ بِجائزَةِ القبولِ تَحُنُّنًا (وارحَمَ حَشًّا بِلَظَى هِواكَ تَسَعَّرًا)<sup>1100</sup>

ومن جميع ما سبق يُستنتجُ:

■ أنَّ أبا الهُدَى رغمَ إقلالِهِ في هذا الغرضِ إلا أنَّه استطاعَ أن يُلَمَّ بصورتين من الصَّورِ التي  
حُرِّرتَ للرِّثاءِ وهي: النَّدْبُ والعزاءُ، واقتصرت مَرثِيَّاتُهُ على ندبِ الأَقارِبِ والحُسَيْنِ الشَّهِيدِ  
الذي تَحَلَّلَ مَرثِيَّاتِهِ صورةً خافِتَةً من العزاءِ.

<sup>1098</sup> د.ر.ب، 48؛ والعجُّ الصِّياحُ، يُنظَرُ: الجوهري، "عجج"، 327/1.

<sup>1099</sup> د.ر.ب، 48.

<sup>1100</sup> د.ر.ب، 48؛ والعجزُ الأخير من بيتِ لابن الفارضِ بقول في صدرِهِ: "زِدني بِعَرطِ الحَبِّ فيكَ تَحِيْرًا"، يُنظَرُ: عمر بن الفارض، ديوان ابن

الفاضر (بيروت: دار صادر، د.ت)، 169.

■ وقد بُنيت مَرثيَّاتُهُ على نَمَطِ القُدَماءِ، وظهرَ هذا جليًّا في ترتيبه لأجزائها على مُقَدِّمَةٍ يُحسِنُ التَّخَلُّصَ منها إلى الغرضِ ويحرصُ بعدَ المرورِ عليه أن يُحسِنَ الخاتمةَ؛ وفي بعضها كان يُهمِلُ المُقَدِّمَةَ تمامًا ويزجُّ بالمسامعِ في عوالمِ الرِّثاءِ.

■ وقد تراوحت تلك المَرثيَّات التي أتى بها بين البَساطَةِ والرَّخِيفَةِ الفنِّيَّةِ، فَنَطَقَتْ أساليبُها حاكِيةً المستوى الذي تدرَّجَ فيه أبو الهُدَى في شاعريَّتِهِ عبرَ حياتِهِ بدءًا من باكورةِ أعمالِهِ في مرحلةِ الشَّبابِ لَمَّا رَثَى والدِتهُ إلى آخرِ المَسنويَّاتِ التي وصلَ إليها لَمَّا رَثَى أختَهُ قبلَ سنواتٍ قليلةٍ من وفاتِهِ؛ ولم تخلُ مراثيهِ من صورةٍ بيانيَّةٍ أو حُلَّةٍ بديعيَّةٍ.

■ وبما أنَّ غالِبَ مراثيهِ -بما فيها ندبُهُ للحُسينِ- قد يُمكنُ أن تُحصَرَ في رثاءِ الأَقرابِ، فقد نَبَضَتْ عاطفَةُ الحُزنِ ولوعةُ آلامِ الفراقِ بينَ جَنَباتِها، لأنَّ رثاءَ الأَقرابِ عادةً ما تكونُ فيه المشاعرُ أكثرَ حرارَةً، وهذا انعكسَ على جودَةِ الرِّثاءِ عندَ أبي الهُدَى وتأثيرِهِ في نفس السَّامِعِ.

■ كما أنَّ توهجَ العاطفَةِ عندَ الشَّاعِرِ انعكسَ على انتقائِهِ للألفاظِ المُعَبِّرةِ عن الحُزنِ والأسى الذي التاعَ به قلبُهُ، على رَغمِ ما امتازت به من سهولةٍ وبُعدٍ عن العامِّيِّ المبتدلِ أو الغريبِ الوحشيِّ مع متانةِ التَّراكيبِ التي رُصَّت فيها وقوَّتِها؛ إلى جانبِ ما رافَقَ ذلكَ من موسيقاهِ الشِّعريَّةِ التي اشتملتَ على قوافٍ حزينةٍ تُلائِمُ غرضَ الرِّثاءِ.

## المبحث الثامن: أغراضٌ أخرى

إنَّ الجَوْلَانَ فِي التَّنَاجِ الشَّعْرِيِّ لِأَبِي الهُدَى الَّذِي انْتَثَرَ فِي دَوَائِبِهِ كَشَفَ عَنْ أَغْرَاضٍ شَعْرِيَّةٍ كُبْرَى دَارَ فِي فَلَكِهَا نَصِيبٌ وَافٍ مِنَ الْأَشْعَارِ، وَقَدْ كَانَ الْمُرُورُ عَلَيْهَا مُهِمَّةً مَا مَضَى مِنَ الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ، حَيْثُ نَالَ كُلُّ غَرَضٍ مِنْهَا نَصِيبًا مِنَ الشِّعْرِ الْمُنْدَرَجِ تَحْتَهُ.

إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الضَّرُورَةِ بِمَكَانٍ أَنْ يُلْفَتَ الْإِنْتِبَاهُ إِلَى أَنَّ التَّنَاجِ الشَّعْرِيِّ لِأَبِي الهُدَى لَمْ يَكُنْ مَقْتَصِرًا عَلَى تِلْكَ الْأَغْرَاضِ فَقَطْ، فَثَمَّةُ أَغْرَاضٍ أُخْرَى خَاضَ فِيهَا بِصُورَةٍ تَقْلُ عَنْ سَابِقَاتِهَا، إِلَى أَنْ كَادَ بَعْضُهَا أَلَا يُلْمَحَ إِلَّا لِإِمَامًا.

وَلَمْ يَكُنْ بَدُّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى مَجْمُوعِهَا، وَإِفْرَادِهَا بِمَبْحَثٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا مُسْتَقَلَّةً عَنِ الْأَغْرَاضِ الرَّئِيسَةِ السَّالِفَةِ، لِأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ، أَحَدُهُمَا: هُوَ قِلَّةُ وَرُودِ مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ مِنَ الْأَشْعَارِ مِنْ جِهَةٍ، وَلِضِحَالَةِ الْعُنَاوَاتِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا مَوْضُوعَاتُهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَالْأَمْرُ الثَّانِي: هُوَ كَوْنُ بَعْضِهَا مُنْبَتِّقًا عَنِ الْأَغْرَاضِ الرَّئِيسَةِ أَوْ بَارِزًا بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْأُخْرَى فِي تَضَاعُفِ أَشْعَارِهَا، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: قَدْ بَرَزَ غَرَضُ (الطَّبِيعَةِ) خِلَالَ مُقَدِّمَةِ مَدْحِيَّةِ فِي الْعُنْمَاتِيِّينَ،<sup>1101</sup> بَيْنَمَا انْكَشَفَتْ عُنَاوَاتُ مِنْ غَرَضِ (الشُّكُوى) فِي قِصَائِدِ الْهَجَاءِ وَالْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ،<sup>1102</sup> وَمِنْ غَرَضِ (الْغُرْبَةِ وَالْإِعْتِرَابِ) فِي قِصَائِدِ الدُّعَاءِ وَالْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ،<sup>1103</sup> وَمِنْ غَرَضِ (التَّشَوُّقِ) فِي قِصَائِدِ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ وَالْمَدِيحِ الْعَامِّ وَالرِّثَاءِ.<sup>1104</sup>

<sup>1101</sup> يُنظَرُ: ص 184.

<sup>1102</sup> يُنظَرُ: ص 143، 311-312، 316.

<sup>1103</sup> يُنظَرُ: ص 85، 143-144.

<sup>1104</sup> يُنظَرُ: ص 139، 142، 206، 237، 333.

ولعلَّ ما يسترعي الاهتمام أَوْلًا من هذه الأغراضِ التي يُريدُ هذا المبحثُ أن يمرَّ عليها هو غرضُ (الفخرِ)، الذي تميَّزَ بانِبْثاقِهِ عما تصدَّى له أبو الهُدَى من هجاءٍ لمُفرزاتِ الرِّمَنِ من الحُسَّادِ والمُعَارِضِينَ والمُعْرِضِينَ الذين رَمَوْهُ بِنِبَالِ الافتراءاتِ، فكانَ كثيرًا ما يخلُصُ بعد هجائِهِم مُلتفتًا إلى فخرٍ يُشيدُ به بما حُبِّيت به شخصيَّتهُ من صفاتِ المجدِ والسُّودِدِ؛<sup>1105</sup> إلا أنَّ ناظرًا في شعرِهِ لا يملكُ غضَّ الطَّرْفِ عن فخرِئِهِ التي حاولَ نَسَحَ مَطْلَعِهَا على منوالِ لامِيَّةِ الطُّغْرَائِيِّ (ت. 580هـ/1184م)،<sup>1106</sup> حيث قال:

شَهَامَةُ الطَّبَعِ قَادَتْنِي إِلَى الْأَدَبِ وَعِزَّةُ النَّفْسِ رَفَّتْنِي إِلَى الرَّئِبِ<sup>1107</sup>

وهي تقع في واحدٍ وعشرين بيتًا قامَ فخرُهُ فيها على عناصرِ العلمِ والأدبِ وكريمِ الأخلاقِ، وأشدُّ ما يَلِفُ الانتبَاهَ فيها افتخارُهُ بالمعاني التي يُجِلُّهَا أمثالُهُ من أربابِ التَّدْبِيرِ كزُهْدِ بالدُّنْيَا وشِدَّةِ خَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَثِقَّةِ بِهِ وَحُسْنِ ظَنِّ بَعْوَايِدِهِ وَتَجَرُّدِ عَنِ الْاعْتِمَادِ عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، مما يعني أَنَّهُ افْتخَارٌ بِالصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ الْمُحْضَةِ، كقولِهِ:

وَلِي مِنَ اللَّهِ خَوْفٌ لَا يُجَدُّ وَلِي حَسْنُ الظُّنُونِ بِهِ فِي كُلِّ مُنْقَلَبٍ  
وَلِي عَنِ الْغَيْرِ تَجْرِيدٌ وَلِي هَمٌّ تَعْلُو بِأَنْ تَنْسَبَ التَّأثيرَ لِلسَّبَبِ<sup>1108</sup>

<sup>1105</sup> يُنظَر: د.ر.ت، 28، 29، 109، 110، 256.

<sup>1106</sup> وهي المشهورة باسم "لامِيَّةِ العجم" التي مطلعها:

أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الْخَطَلِ وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى الْعَطَلِ

يُنظَر: مؤيِّد الدِّينِ الحَسِينِ بنِ عَلِيِّ الطُّغْرَائِيِّ، دِيْوَانِ الطُّغْرَائِيِّ، تَحْقِيقُ: يحيى الجبوري-علي جواد الطاهر، (الدُّوْحَةُ: مطابع الدُّوْحَةِ الحَدِيثَةِ، 1406هـ/1986م)، 301.

<sup>1107</sup> د.ف.م، 155.

<sup>1108</sup> د.ف.م، 155.

ويُلحظُ إتيانُهُ بصفاته الفخرية مُنكرةً (خوفٌ/تخريدٌ/هممٌ) وما تنكيه لها إلا ليُباليغَ في الدلالةِ على عظيم شأنها وعلو كعبه فيها؛ وعلى هذه الشاكِلةِ قوله في موضعٍ فخريٍّ آخر، وقد افتخرَ بهمته المتوجهةِ إلى الخالقِ لا إلى أحدٍ من المخلوقين، مُستخدماً في فخره أسلوبَ القصرِ مؤكِّداً به افتخاره بهمته العلباءِ وليقطعَ الحكمَ مؤكِّداً كونها عليّة الشانِ مقصورةً على ما يُقرُّبه من الله:

ولي همّةٌ شمّاءُ عن شيمٍ علّتْ      لقد أخذتْ إلا عن الله جانِباً<sup>1109</sup>

ولئن كان ابن رشيقي يرى بأنّ الفخرَ الحلالَ هو "غيرُ المُدعى فيه ولا المُنتحل"،<sup>1110</sup> فهو وصفٌ لا يبعدُ أن يصدقَ على فخريّاتِ أبي الهدى لَمّا برَزَ في مواضعٍ منها عنصرُ الافتخارِ بخدمةِ الدّينِ الحنيفِ وصدقِ الإخلاصِ لخليفةِ المسلمين والولاءِ له، نحو قوله:

عربيُّ عرقٍ من ذوائبِ<sup>1111</sup> هاشمٍ      ضربتْ على الشرفِ الصّميمِ خيامي  
أفدي بنورِ الرّوحِ شرعَ محمّدٍ      وأصونُ عهدَ خليفتي وإمامي<sup>1112</sup>

وقد ضمَّ أبو الهدى إلى مفاخره فخره بأهله وعشيرته، وكان أوّل ما لاحَ في افتخاره من صفاتهم هو ذلك المقام الرّفيح الذي ترّبّعوا على عرشه من الشّجاعةِ في النّزالِ والبلاءِ الحسَنِ في ساحاتِ الوغى، وهو الذي عدّه لسان الدّين بن الخطيب في صدرِ ما افتخرتْ به العربُ في قديمها وحديثها إذ كانَ أعظمَ فخرها "عدوّ يُغلبُ وثناءٌ يُجلبُ"،<sup>1113</sup> ولذلك يجِدُ النَّاطِرُ أنّ أبا الهدى يلهجُ

<sup>1109</sup> د.ر.ت، 22.

<sup>1110</sup> يُنظر: القيرواني، العمدة، 2/146.

<sup>1111</sup> جمعٌ واحدُه دُوَابَةٌ وهي ناصيةُ الرّأسِ والشّعرُ المصفورُ منه، وهي من الجبلِ أعلاه، وسيقت هنا بتشبيهه بليغٍ للدّلالةِ على الجِدِّ الأثيلِ والشّرفِ الأصيلِ، يُنظر: ابن منظور، "دأب"، 380/1.

<sup>1112</sup> د.ر.ت، 232.

<sup>1113</sup> يُنظر: المقرئ، نفع الطّيب، 402/6.

مُفْتَحِرًا بَأَنَّهُ الْمُنْسُوبُ إِلَى زُهْرِ الْعَشَائِرِ مِنْ فُرْسَانِ الْكَرْبَهَةِ الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ سَاحَاتِ الْحُرُوبِ مَلَاعِبًا لَهُمْ، وَكَأَنَّهَا مُتَنَفَّسُهُمْ الَّذِي يَفْرُونَ إِلَيْهِ، وَهَذَا إِغْرَاقٌ مِنْهُ فِي تَنْبِيهِ صُورَةَ ثَبَاتِهِمْ وَعَزْمِهِمْ فِي الْحُرُوبِ فِي ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي، فَهَمَّ يَتَبَارُونَ فِيهَا بِكَرِّهِمْ وَقَرِّهِمْ وَعَجِّهِمْ وَتَجِّهِمْ وَنِزَالِهِمْ، وَهَمَّ الْأَشْرَافُ الْأَطْهَارُ، أَوْلُو السِّيُوفِ الْبَوَاتِرِ، ضَرَاغِمَةَ الْحُرُوبِ، حَيْثُ يَقُولُ:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ فَرَعْتُ أُصُولَهُ لَقَدْ تَخَذُوا بِيَدِ الْوَطِيسِ<sup>1115</sup> مَلَاعِبًا  
أَوْلُو الْهِنْدَوَاتِيَّاتِ<sup>1114</sup> إِنْ مَا ذَكَرْتَهُمْ ذَكَرْتَ الْأَسْوَدَ الطَّاهِرِينَ الْأَطْيَابِ<sup>1116</sup>

وَمَا أَنَّ مَقَامَ الْفَخْرِ مَقَامٌ قَوَّةٍ وَاعْتِزَازٍ فَإِنَّ النَّقَادَ رَأَوْا الْغَايَةَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ وَالتَّرَاكِبُ فَخْمَةً مُفَحَّمَةً مِنْ غَيْرِ تَصْنُوعٍ تُنَاسِبُ مَقَامَ الْإِفْتِخَارِ؛<sup>1117</sup> وَقَدْ حَرَصَ أَبُو الْهَدْيِ عَلَى هَذِهِ الْمِيزَةِ لَمَّا وَرَدَ بِفَخْرِهِ عُنْصَرَ الْإِعْتِزَازِ بِقَوْمِهِ إِذْ يَرَاهُمْ السَّادَةَ الْكِرَامَ الْأَطْهَارَ مِنْ ذُؤَابَاتِ قُرَيْشِ الْهَاشِمِيِّينَ؛ وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي جَرَتْ هَذَا الْمَجْرَى قَوْلُهُ:

عَيْبِي فَخَاژٌ لَمْ تَزَلْ أَذْيَالُهُ مَسْحُوبَةً شَرْفًا عَلَى كَيْوَانِ<sup>1118</sup>

<sup>1114</sup> جَمْعُ هُنْدَوَاتِيٍّ وَهُوَ اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى السِّيْفِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْهِنْدِ وَهُوَ الْمَطْبُوعُ مِنْ حَدِيدِهَا وَمِثْلُهُ الْمَهْنَدُ، يُنْظَرُ: ابْنُ دُرَيْدٍ، "دنه"، 687/2؛ ابْنُ مَنْظُورٍ: "هند"، 438/3.

<sup>1115</sup> الْبَيْدُ جَمْعٌ وَاحِدُهُ بَيْدَاءٌ وَهُوَ اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى الصَّحْرَاءِ الْوَاسِعَةِ لِأَنَّهَا تُبِيدُ مَنْ يَسْلُكُهَا وَتُهْلِكُهَا، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ: "بيد"، 558/1؛ وَالْوَطِيسُ مِنَ الْوَطْسِ وَهُوَ الضَّرْبُ الشَّدِيدُ وَالْكَسْرُ وَالذَّقُّ وَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ التَّنُورِ، وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الْمَعْرَكَةِ لِأَنَّ الْخَيْلَ تَطْسُهَا بِجَوَافِرِهَا، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "وطس"، 989/3؛ ابْنُ مَنْظُورٍ: "وطس"، 255/6.

<sup>1116</sup> د.ر.ت، 22.

<sup>1117</sup> يُنْظَرُ: الْقِيَرَوَانِيُّ، الْعُمَدَةُ، 124/1.

<sup>1118</sup> اسْمٌ فَارِسِيٌّ لِكَوْكَبِ زُحَلٍ، يُنْظَرُ: الْخَلِيلُ، "كوي"، 421/5؛ الْأَحْمَدُنَكْرِيُّ، جَامِعُ الْعُلُومِ، 108/3.

قد جاء عن زُهرِ العشيِّرةِ تُثَمِّها<sup>1119</sup> بيضُ الوجوهِ عواطِرُ الأردانِ<sup>1120</sup>  
 ينصبُّ في عليا لُؤيِّ مجدها مُستكملُ البرهانِ في عدنانِ  
 حمَّلتُهُ سِلْسِلَةٌ يَيطُ<sup>1121</sup> بفخرِها عرشُ العَلا عَلَوِيَّةُ الأركانِ<sup>1122</sup>

فهذه القطعة الفخرية يُلحظُ دِقَّةُ اختيارِ أبي الهُدَى لألفاظِ الفخارِ بقومِهِ، وحشدهِ للصَّورِ البيانيَّةِ التي تُعبِّرُ عن عُلا مجدِ حَسَبِهِ ونَسَبِهِ الذي يفتخِرُ بِهِ، ففي البيتِ الأوَّلِ استدعى بقوله (لم تزل أذِيالُهُ) كنايةً عن استمراريَّةِ شرفِهِ ودوامِهِ أَبَدَ الأيَّامِ في علوِّ وارتفاعِ، وعَبَّرَ عن سموِّه وباذخِ عُلاهْ بكنايةٍ أُخرى إذ جعلَهُ يعلو على كوكبِ السَّماءِ (كيوان)، واستعارَ -استعارةً مكنيَّةً- للفخارِ وصفَ الحملِ الثَّقيلِ -الأطيط- ليشيرَ إلى عِظَمِهِ وسموِّهِ، إلى جانبِ التَّشبيهِ البليغِ الذي جعلَ العَلا عَرشًا تستوي عليه معاني الفخارِ -بعد حذفهِ لأداةِ التَّشبيهِ ووجهِ الشَّبهِ (السموُّ والارتفاعُ والعِظَمَةُ)-، وكلُّ ذلكِ إغراقٌ منه في فخرِهِ بمحتدِهِ الأصيلِ بالتَّسبِبةِ إلى الأَسرةِ العَلَوِيَّةِ الهاشميَّةِ الفُرشِيَّةِ العدنانيَّةِ، التي رَفَّتْ مَرَقَى من العلياءِ جَعَلَهُ يُكَيِّ عن فِعالِها الحَيِّرةِ المُشرِّقةِ على وجوهِ أعلامِها بأنَّهم كانوا (بيضَ الوجوهِ وشُمَّ الأنوفِ)، أشرافٌ ضُمَّتْ إليهِم طيبةُ الأعراقِ وطهارةُ الأصولِ بما كَتَبَ عنه بقوله إِيَّهم (عواطِرُ الأردانِ)؛<sup>1123</sup> وعلى هذا المنوالِ كان أبو الهُدَى يسيِّرُ في فخرِيَّاتِهِ إذا ما مرَّ بعنصرٍ الافتخارِ بالنَّسبِ الذي أَكثَرَ من التَّدقيقِ عليه، ويبدو أنَّ هذا التَّدقيقَ دَفَعَهُ إلى تركيزِ على عُنصرٍ آخرٍ ألا وهو الفخْرُ بالسَّيرِ على حُطَا فِعالِ آبائِهِ وخصالِهِم الشَّريفةِ، فيجدُهُ النَّاطِرُ يُعَرِّجُ مُشيرًا إلى أَنَّهُ الرَّجُلُ العِصاميُّ

<sup>1119</sup> الشَّمُّ جمعٌ واجدُهُ أَشَمٌ وهي صِفَةٌ مخصوصةٌ في أنفِ الرَّجُلِ ويُرادُ عندَ إطلاقِها على الرَّجُلِ أَنَّهُ الكَرِيمُ ذو الأَنفَةِ والعِزَّةِ، فهي كنايةٌ عن الشَّرَفِ والرِّفْعَةِ وكَرَمِ النَّفْسِ يُنظَرُ: ابن دُرَيْدٍ، "شَم"، 140/1؛ ابن منظور، "شَم"، 327/12.

<sup>1120</sup> جمعٌ واجدُهُ الرُّدُنُ وهو أصلُ الكَمِّ للقميصِ، وقيلَ مُقَدَّمُ كَمِّ القميصِ، يُنظَرُ: ابن منظور، "ردن"، 177/13؛ ابن سيده، "ردن"، 505/2.

<sup>1121</sup> من الأطيط وهو صوتُ الرَّحْلِ والإبلِ من شدَّةِ ثِقَلِ أحمالِها أو صوتِ الحِبالِ إذا ما سَمِعَ لها صريرٌ ثم أُطِيقَ على كَلِّ ما يُشبهه هذا الصَّوتُ، يُنظَرُ: الجوهري، "أطط"، 1115/3؛ ابن دُرَيْدٍ، "أطط"، 58/1.

<sup>1122</sup> در.ت، 256.

<sup>1123</sup> يُنظَرُ: أحمد مختار، "ردن"، 188/2.

الذي يشرفُ بالفعال وليس العظامي الذي يكتفي بالمقال ويقعد في دَسِ البطالة والخمول، نحو قوله بعد أن افتخرَ بنسبته الخالدية العلوية:

وأنا التَّقِيُّ المجدِ من فرعيهما مع طهرِ هاتيكِ العظامِ عِصامي<sup>1124</sup>

وكقوله في فخريّة أخرى:

وقمتُ عِصامياً بنفسِ أبيّةٍ وعلمٍ وعرفانٍ جليلٍ المزيّة<sup>1125</sup>

فإذا كانت العربُ تناقَلت المثلَ القائل: "كُن عِصامياً ولا تكن عِظامياً"،<sup>1126</sup> فأبو الهُدَى لم يُفتَهُ الاحترارُ في فخره بأنّه "العصامي" الذي ما ثناءهُ عن زَيْنِ الفِعالِ وكريمِ الحِصالِ اكتفاءً بتردادِ أمجادِ آبائِهِ الأوّلين من الرّاحلين؛ كما لم يُفتَهُ - حتى وهو في هذا المقام من الافتخارِ والاعتزاز - التّعريجُ على المعاني الدّينيّة، فهو بعد تعدادِ مفاخرِهِ يلوي عُنقَ القصيدةِ خاتماً لها بأنّ حقيقةَ العِزِّ تكون بحسن الارتباطِ برَبِّ العالمين، على نحو قوله:

العِزُّ باللهِ والدُّنيا مُوَلّيةٌ والمجدُ بالفضلِ لا بالمالِ والنَّشَبُ<sup>1127</sup>

ونحو قوله:

وما جَهِلَ الأخيأرُ زُهَرَ مَناقبي ولي شَرَفٌ في جَبهَةِ الفجرِ يُزهرُ

وما ضَرَبَني أيُّ من المالِ فارغٌ ولي من جنابِ اللهِ عِزٌّ ومظهُرُ<sup>1128</sup>

<sup>1124</sup> د.ر.ت، 232.

<sup>1125</sup> د.ر.ت، 63.

<sup>1126</sup> يُنظر: الميداني، الأمثال، 331/2.

<sup>1127</sup> د.ر.ت، 47؛ والنَّشَبُ لفظةٌ أعمُّ من المالِ فهي تشمله وتشمل العقار، يُنظر: الجوهري، "نشَب"، 224/1.

<sup>1128</sup> د.ر.ت، 109.

ولم يكن هذا الغرض مُتجاوزًا ما سوى هذه العناصر الفخرية السالفة، وهي عناصرٌ عربيةٌ أصيلةٌ أجمعَ عليها العرب حديثهم وقديمهم، من محاسن الأخلاق والنسب الأصيل والذكر الجميل، فالعرب لم تفتخر قطُّ "بقصرٍ يُبنى ولا عرسٍ يُجنى، إذ الذهبُ يذهبُ ويفنى النشَب،<sup>1129</sup> وكلُّ الذي فوق الترابِ تُراب، وتبقى المحاسن تُروى وتُنقل، والأعراضُ تُجلى وتُصقل"،<sup>1130</sup> وهذا ما دارَ في أرجاءِ فخرِيَّاتِ أبي الهُدَى، وزادَ عليها أن صَبَغَها بلونٍ من المعاني الدنيئة التي نمتَ عما امتزجَ بنفسيتهِ وأعماقه من تعظيمٍ لها وإجلالٍ.

ومما حظيَ ببعضِ اهتمامِ أبي الهُدَى من الأغراضِ الأخرى غرضُ (التأريخِ الشعريِّ) أو كما يُطلقُ عليه آخرونَ مُسمًى "التأريخِ الحرفيِّ" ويرى الرَّافعيُّ أنَّ سببَ هذه التسميةِ هو الرجوعُ إلى حسابِ أرقامِ الحروفِ الأجديةِ،<sup>1131</sup> وأياً كان المُسمًى فإنَّ ما يُقصدُ به "هو أن ينظمَ الشاعرُ في آخرِ أبياتِهِ كلماتٍ إذا حُسبت حُرُوفُها بحسابِ الجُمَلِ اجتمعتَ منها سنواتُ التأريخِ المقصودِ، من ولادةٍ أو زواجٍ أو وفاةٍ أو سفرٍ أو بناءٍ مسجدٍ أو تعيينٍ في وظيفةٍ" وإلى غير ذلك من المناسباتِ،<sup>1132</sup> ولعلَّ بداياتِ ظهورِ هذا الغرضِ حسبما وصلَ إليه الرَّافعيُّ كانت في القرنِ التاسعِ الهجريِّ،<sup>1133</sup> وقد شاعَ في العصرِ العثمانيِّ على وجهِ الخصوصِ فقيِّدٌ نثرًا ونظمًا، إذ كانَ أهلُ العصرِ العثمانيِّ يتغنَّونَ بهذا البابِ فلكلِّ حادثٍ تأريخٌ في بيتٍ من أشعارِهِم؛<sup>1134</sup> وعلى هذا السَّنن تَبِعَهُم أبو الهُدَى في

<sup>1129</sup> المأل والعقار، يُنظر: الجوهرى، "نشَب"، 224/1.

<sup>1130</sup> يُنظر: عبد الرَّحمن بن عُبيد الله السَّقَّاف، العود الهندي عن أماليِّ في ديوان الكنديِّ (جدَّة: دار المنهاج، 1432هـ/2011م)، 530؛ المُفري، نفع الطَّيب، 402/6.

<sup>1131</sup> يُنظر: الرَّافعيِّ، آداب العرب، 250/3.

<sup>1132</sup> يُنظر: جَبور عبد التَّور، المُعجم الأديبيِّ (بيروت: دار العلم للملايين، 1984م)، 56.

<sup>1133</sup> يُنظر: الرَّافعيِّ، آداب العرب، 250/3.

<sup>1134</sup> يُنظر: باشا، الأدب العثماني، 78.

التأريخ لما عاصره من الأحداث حوله. ويبدو أن أول ما أرخه منها هو حدث تهنئته بحوليّة تولّي السلطان عبد الحميد الثاني للخلافة العثمانيّة سنة (1301هـ/1883م) حيث قال في ذيل قصيدة التهنئة المدحيّة للسلطان:

خَطَّتْ يَدُ الْعَوْنِ تَارِيحُهُ: (نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)<sup>1135</sup>

1301هـ=312+494+65+90+340

ومما أرخه أبو الهدى في شعره حوادث بناء الصروح العلميّة وإعمارها، ومن ذلك حادثه إعمار السلطان عبد الحميد للرواق الرفاعيّ في البصرة سنة (1307هـ/1889م)، بتجديده له بعد أن تقدّم عهدُه، وحينئذٍ أرخ أبو الهدى الحدث هذا بقوله:

أَبُو الْهَدَى قَالَ بِتَارِيحِهِ: (حِيُّ الرَّفَاعِيِّ مُشْرِقٌ أَنْوَرٌ)<sup>1136</sup>

1307هـ=312+494+65+90+340

وكذلك من الأحداث التي أرخها أبو الهدى وفيات الأعيان من اتصلت بينه وبينهم روابطٌ محبّة أو قرّية، وفي مطلعهم والدّه حسن وادي، الذي أرخ وفاته بقوله:

أَرَخْتُهُ: (وَادِي الصَّفَاءِ مُمَجَّدٌ عَلَّمُ الْحِمَى حَسَنٌ أَبُو الْبَرَكَاتِ)<sup>1137</sup>

1312هـ=312+494+65+90+340

---

<sup>1135</sup> د.ر.ت، 49.

<sup>1136</sup> د.ر.ت، 139.

<sup>1137</sup> د.ر.ت، 59.

ويُلحَقُ بتأريخِ الوَفَيَاتِ ما أَرخَّ به وفاةُ مُفتي المدينة المنورة أحمد أسعد المدنيّ (ت. 1314هـ/1896م) وهو من الأعيانِ المُقَدَّمين عند السُّلطان عبد الحميد، إذ لَمَّا تَوَفِّي في إستانبول نَظَمَ فيه أبو الهُدَى أبياتٍ ذَيَّلها بقوله: <sup>1138</sup>

أنت ضيفُ الكريمِ بُشراكِ أَرخ: (في عَلَيِّ الجَنَّاتِ مَثوأكِ يُحمَد) <sup>1139</sup>  
=312+494+65+90+340 = 1314هـ

وإذا كان أبو الهُدَى قد تابع ما يُهمِّمه من مُجرياتِ الأحداثِ في عصرِهِ فأناهاها شيئاً من التأريخِ بشعرِهِ، فإنَّه لتجدُرُ الإشارةُ إلى كونه لم يُهمل ما مرَّ به من المناسباتِ أيضاً، وذلك عبرَ توثيقها بِقِطْعِ شعريَّةٍ نُحِلِّدُ ذكراها في سجلِّه الأدبيِّ المنظوم، فعلى هذا النحوِ حَلَّدَ ذكرى وداعِ والدِهِ الذي أتى لزيارته في إستانبول ثم قفل راجعاً إلى حلب، <sup>1140</sup> وكذلك ما نَظَمَهُ حينما قَدِمَ ولدهُ حَسَنَ خالد من مُهمِّمةٍ أرسَله فيها السُّلطان عبد الحميد، <sup>1141</sup> وهي لا تتجاوز مُسمَّى التُّنْفِ أو في أقصى أحوالها قد تصل إلى مُسمَّى القِطْعِ الشعريَّةِ.

ومما انتَثَرَ في ثنايا دواوين أبي الهُدَى لِمَأمًا، ما يُمكنُ إلحاقُهُ بغرضِ (الإخوانيَّاتِ)، التي يُتصدُّ بها الأشعارُ التي تُصوِّرُ العلاقاتِ الاجتماعيَّةِ بين الشاعِرِ وأصدقائه أو من تربطُهُ بهم رابطةٌ مؤدَّةٍ أو حُبِّ، وهي نفيضُ عادةٍ بما يُعبِّرُ عن التَّهْنِئَةِ أو العتابِ والشكوى أو الودِّ والصداقة أو الاعتذار؛ <sup>1142</sup> ومن هذا القبيل ما بعثَ به أبو الهُدَى لصدِّيقٍ له كان قد أرسَلَ إليه صورةً شخصيَّةً له، فاهتاجت

<sup>1138</sup> يُنظر: البيطار، حلية البشر، 215.

<sup>1139</sup> د.ر.ب، 20.

<sup>1140</sup> يُنظر: د.ت.ب، 95.

<sup>1141</sup> يُنظر: د.ر.ت، 112، 136.

<sup>1142</sup> يُنظر: الشكعة، فنون الشَّعر، 267؛ جبَّور، المعجم الأدبي، 9.

العواطف في صدر أبو الهدى وترجمها بكنائيات لطيفة، وجعل من صورة صديقه - بالتشبيه البليغ -  
كعبة للحسن، وكفى عن عينيه الجميلتين بالحجر الأسود الذي راح أبو الهدى يلثمه مُتَشَوِّقًا إلى  
صديقه، فراح يُصَوِّرُ حالته قائلاً:

من رَسِمِكَ الأملَسُ قد شاهدتْ عيناى شكلاً مثَلُ السُّودَا  
كعبةٌ حُسنٍ أشرقتْ شمسُها قَبَلْتُ منها الحَجَرَ الأَسودَا<sup>1143</sup>

وعلى هذا النحو قوله في صديق له فارسي الأصل مُلَاطِطًا مُتَحَبِّبًا إليه في رسالة بعثها له، وقد ضَمَّنَهَا  
نداءً له الذي يُعَبِّرُ عن فَرطِ أشواقه إليه:

يا كسرويَّ الطَّرْفِ حسبك أني أصبَحْتُ لا أجدُ اللياذَ بحارسِ  
حاربتني وغزوت قلبي فارسًا ويلاه من هذا الغزالِ الفارسي<sup>1144</sup>

وهذه التتفة أتت بالكناية عن جمال عيني ذلك الصديق الفارسي بأنها كسروية لها من عظمة الجمال  
ما لكسرى من عظم المملك والجاه، وأبو الهدى لا يملك إلا أن يخضع لها ويقع في حبها إذ لا يحجز  
قلبه عن ذلك أي حاجز، وزينت في البيت الأخير بالجناس الناقص (فارسًا/الفارسي)، مما أضفى على  
التتفة جوًا من الود والمحبة التي توطد العلاقة الأخوية فيما بين الأصدقاء. ومما وثق به اشتياقه لصديق  
له التتفة التي أرسلها إليه قائلاً:

أيامُ بُعدِكَ يا حبيبُ لها من الشنَاءِ مقاييسُ وتمثالُ  
تغيبُ أبكي ودمعي السَّيلُ مُنحدِرُ فالشَّمسُ غائبةٌ والغيثُ هَطالُ<sup>1145</sup>

<sup>1143</sup> د.ر.ب، 92.

<sup>1144</sup> د.ر.ب، 145.

<sup>1145</sup> د.ر.ت، 188.

فهو يُعَبَّرُ عن حالته مع صديقه الحبيب الذي غاب عن عينيه، فلم يزل دمعُهُ مُذ تَفَارَقًا بانسكابٍ  
 مما دَفَعَهُ لتشبيهه - تشبيهًا مُؤَكَّدًا مُفَصَّلًا - بالسَّيْلِ في الانحدار؛ ولكي تنجلي حالته هذه ساقَ  
 التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيَّ فَأتى بِصُورَةِ غِيَابِ صَدِيقِهِ وَبُكَائِهِ عَلَيْهِ فِي مُقَابِلِ صُورَةِ يَوْمِ شَاتٍ غَابَتْ شَمْسُهُ  
 وَتَحَدَّرَ غَيْثُهُ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ شَاعَ الْجُوُّ اللَّطِيفُ فِيمَا نَظَّمَهُ أَبُو الْهَدَى مِمَّا يُلْحَقُ بِغَرَضِ  
 الْإِخْوَانِيَّاتِ.<sup>1146</sup>

أَمَّا إِنْ التَّمَسَّ غَرَضُ (الْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي) فَلَنْ يُلَمَّحَ فِي جَمِيعِ دَوَائِنِ أَبِي الْهَدَى إِلَّا نَتْفَةَ  
 بَيْتِيَّةٍ دَوَّنَهَا مُلَغِرًا فِي (الْبَسْمَلَةِ)، بِقَوْلِهِ:

مَا النَّقْطَةُ الْجَلِيلَةُ الْبِنَاءِ ضَمَنَ مِدَادِ مَبْدَأِ الْأَشْيَاءِ  
 وَذَلِكَ الْحَبْلُ الْجَلِيلُ الْقَدْرِ مَبْدَأُ كُلِّ أَوَّلٍ مِنْ أَمْرِ  
 وَالْعَقْدَةُ اللَّطِيفَةُ الْخَتْمِيَّةُ لِنَقْشِ رَمِزِ النَّقْطَةِ الْبَدِئِيَّةِ<sup>1147</sup>

وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ إِمْكَانُ حَصْرِ الْأَغْرَاضِ الَّتِي لَمْ يَحْفَلْ بِهَا الشَّاعِرُ - كَمَا عَهْدَ  
 عَنْهُ فِي الْأَغْرَاضِ الرَّئِيسَةِ - بِأَنَّهَا: (الْفَخْرُ، الشُّكُوى، التَّشْوِيقُ، الْعُرْبَةُ، الطَّبِيعَةُ، التَّأْرِيخُ، الْإِخْوَانِيَّاتُ،  
 الْأَلْغَازُ)، وَهِيَ مُتَنَازِرَةٌ فِي دَوَائِنِهِ إِمَّا بِشَكْلِ دُجِحَتٍ فِيهِ مَعَ الْأَغْرَاضِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي سَبَقَ الْمُرُورُ عَلَيْهَا،  
 أَوْ بِشَكْلِ مُسْتَقَلٍّ عَلَى قَلَّةٍ مِنَ النَّمَاذِجِ الَّتِي تَوَكَّدُ إِهْمَالَ الشَّاعِرِ الْإِحْتِفَالَ بِهَا كَثِيرًا.

<sup>1146</sup> يُنظَر: د.ر.ح، 164؛ د.ر.ت 48، 92.

<sup>1147</sup> د.ف.م، 152.

## الخاتمة

ختامًا بعد هذه الرحلة البحثية في حياة أبي الهدي وأشعاره التي ضمها سقف خيمة الأغراض الشعرية التي بُيئت فيما سبق، يُمكن القول إنه قد تمّ الوصول إلى عدّة نتائج يصحُّ إجمالها فيما يلي:

1. قد عاش أبو الهدي فيما يُسمّى في التاريخ الأدبيّ بالعصر الحديث، وهو العصر الذي اتّسم من عاش فيه من الشعراء بالاتّجاه إلى تقليد فحول الشعراء، وهي سمة لم يخل منها أبو الهدي، إلا أنّ تقليده اتّصف بكونه تقليدًا واعيًا مُحكمًا في كثيرٍ من المواضع وضعيفًا متأخرًا في مواضع أخرى.

2. تنوّعت الأغراض الشعرية في شعر أبي الهدي، حيثُ نظّم في جُلِّ الأغراض العربية التقليدية المعروفة (المدح، الهجاء، الغزل، الرثاء)، لكنّ ما ميّز أغراضه أنّها انتمت لأغراض العصر الأدبيّ العثمانيّ، حيثُ برزت فيها بعض فنونه المستحدثة مثل: التّاريخ الشعريّ والألغاز، إلى جانب ظهور بعض سمات أشعار ذلك العصر في شعره مثل: الشكوى والاعتراب والاتّجاه نحو الدّات، مما يجعل أشعاره مطبوعةً بالطابع الدّاتيّ إضافةً إلى الطابع التقليديّ.

3. على الرّغم من أنّه نظّم في أغراضٍ متعدّدة إلا أنّها تفاوتت فيما بينها بغزارة الأشعار، فكان أغزرها غرض المديح النبويّ، ثم تلتته -على التّرتيب- أغراض: المدح، الغزل، الوعظ، الهجاء، الدّعاء، الرثاء؛ وأمّا الأغراض الأخرى (الغربة، التّشوق، الشكوى، الطّبيعة، الإخائيّات، الفخر، التّاريخ الشعريّ، الألغاز) فلم يحفل شعره بها كثيرًا، بل ربما برز بعضها في تضاعيف أشعار الأغراض الرّئيسة أو انبثق عنها.

4. قد أثرت في عموم أغراضه الشعرية الكبرى عدّة عوامل أهمّها:

أ) القرآن الكريم والحديث النبوي والتصوف، إذ لما كانت هذه العناصر مجتمعة لها الأثر الكبير في التكوين الثقافي الفكري لأبي الهدي، فقد كانت حاضرة في شعره بقوة، فبدأ معجمه اللغوي وكأنه قد استمد من هذه العناصر، عبر الاقتباسات الكثيرة، وما لحقها من ظهور المصطلحات والأفكار الصوفية بين الفينة والأخرى، وخصوصاً في أغراض المديح النبوي والمديح العام.

ب) التسمية المثبتة لآل البيت النبوي، التي جعلت منه نقيباً للأشراف، وشد من عضدها ملكائه العلمية التي جعلته يتسّم مكانة اجتماعية وسياسية مرموقة؛ كلُّ هذا مما أهل شخصيته أبي الهدي ومنحه نوعاً من القوة في الانطلاق والتدفق في شعره، وخصوصاً في أغراض الهجاء والوعظ والفخر.

ج) طبيعة الفترة الزمنية التي عاصرها أبو الهدي وما رافقها من أحداثٍ اختلطت فيها الأمور وانقلبت فيها المفاهيم، وتسلط فيها الغرباء وصارت لهم صولتُهُم وجولتُهُم في المجتمع، إلى جانب العربة التي أمضى تحت ظلها شطر عُمره، وما تعرّض له من الحساد، وما جرّه عليه كلُّ هذا من شعورٍ دائمٍ بالألم والاعتراب عن الأهل والوطن؛ حيث خيمت نتائج هذا الأثر - من شكوى وألم - على عموم أغراضه الشعرية وخصوصاً في غرض المديح النبوي، وغرض الهجاء الذي برزت فيه ملامح النقد الاجتماعي للظواهر السلبية المنتشرة في ذلك الزمان.

5. قد كان أسلوب أبي الهدي أسلوباً أدبياً متوازناً يجمع بين كثافة الأفكار والقدرة على انتقاء التراكيب المناسبة لها، فجاءت تراكيبه متميزة بالسلامة اللغوية وحسن الصياغة، ولم يلمح في عمومها - إن لم نقل كلها - ما تُعابُّ عليه نحوياً أو لغوياً، بل كانت متينة قوية السبك؛ غير أنّ الأفكار والمعاني لم تخرج عن سنن القدامى إلا لماماً، ولم يكتنفها في عموم الأغراض

الشَّعْرِيَّةُ أَيُّ غَمُوضٍ، كما أنَّها كانت مُستوحاةً من البيئَةِ التي عاشَ فيها، ولم تتخلَّلها المعاني الفاحشةُ أو البذيئةُ إلا ما حُصِرَ في غرضِ الهجاءِ من نزرٍ قليلٍ رَمَى به حُسْنادَه؛ في حين أنَّ ألفاظَهُ كانت سَمحةً مُستساعةً لا يَجْنَحُ فيها إلى الغريبِ إلا إذا ما أَرادَ أن يُغربَ ويُعلي من شأنِ المعاني المطروقةِ، فاستطاعَ بذلك أن يُمسِكَ بزمامِها حسبَ المعنى الذي يريدُ أن يطرفَهُ، مع اهتمامٍ ملحوظٍ بالمُحسِّناتِ البديعيَّةِ. وهذه الموسيقى الدَّاخِليَّةُ للقصيدَةِ الشَّعْرِيَّةِ عند أبي الهُدَى لم تكن بأكثرَ اهتمامًا من الموسيقى الخارجِيَّةِ التي كان يَخْتارُ بها قوافي الأبياتِ وأوزانها - كما يُلَمَحُ ذلك جليًّا في غرضي الغزلِ والرِّثاءِ-.

6. إنَّ الصُّورَةَ الفنيَّةَ في شعرِه كانت مُستَمدَّةً مما حَفَلَتْ به ذاكَرَتُهُ من تُراثِ أدبِيٍّ، وما وقَعَتْ عليه عينُهُ من بيئَتِهِ، وكانت مُدجَّجَةً مع شعورٍ صادقٍ يُسكَبُ على الأشعارِ بما صنَعَهُ خياله المتوقِّدُ من تشبيهِاتٍ واستعاراتٍ وكنائياتٍ؛ فلم تَعَدَمِ الأَغراضُ الشَّعْرِيَّةُ عنده من جماليَّاتٍ كان لها بالغُ التأثيرِ في ذهنِ المتلقِّيِّ، وقد بلغتِ الدَّرُوةَ في غرضي الغَزَلِ والمديحِ النَّبويِّ.

7. كانت العاطِفَةُ الشَّعْرِيَّةُ حافِلَةً بالتَّنوعِ على تنوعِ الأَغراضِ الشَّعْرِيَّةِ؛ ففي المديحِ النَّبويِّ والمدحِ والإخوانيَّاتِ والغزلِ برَزَتْ عاطِفَةُ الحُبِّ والشُّوقِ والإعجابِ، وفي الدُّعاءِ برَزَتْ عاطِفَتا الخوفِ والرَّجاءِ، وفي الهجاءِ برَزَتْ عاطِفَتا العَضَبِ والألمِ والحزنِ، وفي الرِّثاءِ برَزَتْ عاطِفَتا الحزنِ والغضبِ، وقد حَلَّتْ بعضُ الأَغراضِ -ولو في بعضِ جوانِبِها- من العاطِفَةِ كغرضِ الوعظِ والألغازِ؛ وتنوعِ العواطفِ يُعَدُّ نِقْطَةً إيجابِيَّةً تُحَسَّبُ في سَجَلِ الإبداعِ لأبي الهُدَى، ويُضافُ إليها ما صاحبها من الصِّدقِ العاطفيِّ فكانت وقودًا لأشعارِ غالبِ أَغراضِهِ.

8. إنَّ التُّراثِ المنظومِ لأبي الهُدَى لا يُمكنُ أن يُطلقَ عليه -بمجموعِهِ الكُلِّيِّ- مُسمًى الشَّعْر، فقد نَزَلْ في بعضِ الأحيانِ إلى مرتبَةِ النَّظْمِ العاديِّ؛ إلا أنَّ هذا لا يُفقدُ مجموعَهُ الكُلِّيَّ القِيَمَةَ التَّاريخِيَّةَ التي نَقَلَتْ صورَةً صادِقَةً لذلك العصرِ العَصيبِ الحَرَجِ الذي عاشَهُ، فقد حَلَّدَ في

شعره جميع ملامحه السياسيّة والدينيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، بل قد خلّد للأجيال الرّؤية السياسيّة التي كان ينظر بها من هم على شاكلته لأحداث ذلك العصر.

ووفق هذه النتائج يُمكن التوصية بلفت أنظار الباحثين إلى أنّ المجال لا يزال مُتسعاً لإعمال النظر في تراث أبي الهدي الأدبيّ الثريّ، بله التعمق بشكل أكبر في تراثه الشعريّ؛ ولا يزال الباب مفتوحاً للتّقيب عن تراث من هم على شاكلته من أدباء العصور المتأخّرة ودراسة ما خلفوه من تراث شعريّ يثري مكتبة اللّغة العربيّة ويُسهّم في خدمة التّراث الإسلاميّ العظيم.

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبشيرلي، محمد. "قاضي عسكر". موسوعة إسلامية لوقف الديانة التركي. 140/25-142. أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م.
- ابن الأثير، محمد. الحلة السيراء. تحقيق: حسين مؤنس. المجلد 2. القاهرة: الشركة العربية، 1963م.
- ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد. النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق: طاهر الزاوي-محمود الطناحي. المجلد 3. القاهرة: المكتبة الإسلامية، د.ت.
- ابن الأثير، نجم الدين أحمد بن إسماعيل الحلبي. جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات الصناعات). تحقيق: محمد زغلول سلام. الاسكندرية: منشأة المعارف، د.ت.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد. عرف التعريف بالمولد الشريف. تحقيق: محمد أبو الخير الملقني. بيروت: دار الحديث الكائنات، د.ت.
- ابن الرومي، علي بن العباس. ديوان ابن الرومي. إعداد: أحمد بسج. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 3، 1423هـ/2003م.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تحقيق: محمود أرناؤوط. المجلد 7. دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ/1986م.
- ابن الفارض، عمر. ديوان ابن الفارض. بيروت: دار صادر، د.ت.
- ابن القيسراني، محمد بن نصر. شعر ابن القيسراني. إعداد: عادل جابر صالح. الأردن: الوكالة العربية للتوزيع، 1991م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر. ديوان ابن الوردي. تحقيق: عبد الحميد هندراوي. القاهرة: دار الآفاق العربية، 1427هـ/2006م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. الفتاوى الكبرى. تحقيق: محمد عطا - مصطفى عطا. المجلد 2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. النبوات. تحقيق: عبد العزيز الطويان. المجلد 2. الرياض: أضواء السلف، 1420هـ/2000م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن القاسم. المجلد 10. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/1995م.
- ابن حجر، أحمد العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق: عادل أحمد - علي معوض. المجلد 2. بيروت: دار صادر، 1425هـ.
- ابن حجر، أحمد العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تحقيق: عبد العزيز بن باز. المجلد 7، 13. القاهرة: المكتبة السلفية، د.ت.
- ابن خلكان، شمس الدين. وقفيات الأعيان. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 1، 3. بيروت: دار صادر، 1970م.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن. جمهرة اللغة. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. المجلد 1، 2. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 1، 1987م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد. الطبقات الكبرى. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 3. بيروت: دار صادر، 1968م.
- ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد، منبج المدح، تحقيق: عفت وصال حمزة، دمشق: دار الفكر، الطبعة 1، 1407هـ/1987م.
- ابن سيده، علي بن إسماعيل المرسي. المحصن. تحقيق: خليل إبراهيم جفال. المجلد 1، 2، 4. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1417هـ/1996م.
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. الحكمة العروضية. تحقيق: محسن صالح. بيروت: دار الهادي، الطبعة 1، 1428هـ/2007م.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن إبراهيم العلوي. عيار الشعر. تحقيق: عبد العزيز المانع. القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.
- ابن عباد، الصحاح أبو القاسم إسماعيل. المحيط في اللغة. تحقيق: محمد آل ياسين. المجلد 7. بيروت: دار عالم الكتب، 1414هـ/1994م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. الاستدكار. تحقيق: سالم عطا-محمد عوض. المجلد 8. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1421هـ/2000م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي الجاوي. المجلد 2. بيروت: دار الجيل، الطبعة 1، 1412هـ/1992م.
- ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي. العقد الفريد. المجلد 2. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1404هـ.

- ابن عساکر، أبو القاسم علي بن حسن. تاريخ دمشق. تحقيق: عمر غرامة العمروي. المجلد 63. بيروت: دار الفكر، 1415هـ/1995م.
- ابن فارس، أحمد الزّازي. مجمل اللّغة. تحقيق: زهير سلطان. المجلد 2. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة 2، 1406هـ/1986م.
- ابن فارس، أحمد الزّازي. معجم مقاييس اللّغة. تحقيق: عبد السّلام هارون. المجلد 2، 6. بيروت: دار الفكر، 1399هـ/1979م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. البداية والنهاية. تحقيق: عبد الله عبد المحسن الرّكزي. المجلد 3، 5. مصر: دار هجر، 1424هـ/2003م.
- ابن ماجة، محمّد القزويني. سنن ابن ماجة. إعداد: محمّد فؤاد عبد الباقي. المجلد 1، 2. بيروت: دار إحياء الكتب العربيّة، د.ت.
- ابن معصوم. صدر الدّين علي الحسيني المدني. أنوار الرّبيع في أنواع البديع. تحقيق: شاكر هادي شكر. المجلد 2. النّجف: مطبعة النعمان، الطّبعة 1، 1388هـ/1968م.
- ابن منظور، محمّد بن مكرم. لسان العرب. المجلد 1، 2، 3، 4، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15. بيروت: دار صادر، 1414هـ/1994م.
- ابن منير الطّرابلسي، أحمد. ديوان ابن منير الطّرابلسي. إعداد: عمر عبد السّلام تدمري. بيروت: دار الجيل، 1986م.
- أبو السّعد، عبد الرّؤوف. مفهوم الشّعر في ضوء نظريّات النّقد العربيّ. القاهرة: دار المعارف، الطّبعة 1، د.ت.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى. شرح نقائض جرير والفرزدق. تحقيق: محمّد إبراهيم حور-وليد محمود خالص. المجلد 3. أبو ظبي: المجمع الثّقافي، الطّبعة 2، 1418هـ/1998م.
- أبو عُذّة، عبد الفّتاح. قيمة الرّمن عند العلماء. حلب: مكتب المطبوعات الإسلاميّة، الطّبعة 10، د.ت.ن.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ. ديوان أبي نواس. تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي. أبو ظبي: دار الكتب الوطنيّة، الطّبعة 1، 1431هـ/2010م.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشّيباني. المُسنَد. إعداد: شعيب الأرنؤوط وآخرون. المجلد 22، 31. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1421هـ/2001م.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشّيباني. فضائل الصّحابة. تحقيق: وصيّ الله محمّد عبّاس. المجلد 1. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة 1، 1403هـ/1983م.
- الأحدنكري، عبد النّبي بن عبد الرّسول. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون. تحقيق: حسن هاني فحص. المجلد 3. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطّبعة 1، 1421هـ/2000م.
- الأخرس، عبد الغفّار بن عبد الواحد. الطّراز الأنفس في شعر الأخرس. د.ت.ن.
- أرباجي، سيف الله. السّلطان عبد الحميد الثّاني مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية. مترجم: عبير سليمان. القاهرة: دار النّيل، الطّبعة 1، 2011م.
- أسامة بن مُنقذ، أبو المظفر. البديع في نقد الشّعر، تحقيق: أحمد بدوي-حامد عبد الحميد. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، د.ت.
- الإسفرائيني، طاهر بن محمّد. التّبصير في الدّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفِرَق الهالكة. تحقيق: كمال يوسف الحوت. بيروت: دار عالم الكُتب، 1403هـ/1983م.
- الأصفهاني، الرّغب أبو القاسم الحسين بن محمّد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء. بيروت: دار الأرقم، 1424هـ/2003م.
- آل جندي، أدهم. أعلام الأدب والفن. المجلد 1. دمشق: مطبعة مجلة صوت سوريا، 1954م.
- إلهامي، محمّد (تحرير). السّلطان عبد الحميد الثّاني في الذاكرة العربيّة. المجلد 1. إستانبول: دار الأصول العلميّة، الطّبعة 1، 2019م.
- الأمدي، الحسن بن بشر. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري. تحقيق: السيّد أحمد صقر. المجلد 2. القاهرة: دار المعارف، الطّبعة 4، 1982م.
- الأمير شكيب أرسلان. تاريخ الدّولة العثمانيّة. تحقيق: حسن سويدان. دمشق: دار ابن كثير، 1432هـ/2011م.
- الأنصاري، حسان بن ثابت. ديوان حسان بن ثابت. تحقيق: عبده مهنا. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطّبعة 2، 1414هـ/1994م.
- الأنصاري، كعب بن مالك. ديوان كعب بن مالك. تحقيق: سامي مكّي العاني. بغداد: مكتبة النّهضة، 1386هـ/1966م.
- أوزتونا، يلماز. تاريخ الدولة العثمانيّة. مترجم: عدنان محمود سلمان-محمود الأنصاري. المجلد 1. إستانبول: منشورات فيصل للتمويل، 1988م.
- باشا، عمر موسى. الأدب في بلاد الشّام. دمشق: المكتبة العبّاسيّة، الطّبعة 2، 1391هـ/1972م.

- باشا، عمر موسى. تاريخ الأدب العربيّ العصر العثمانيّ. دمشق: دار الفكر، 1409هـ/1989م.
- الباعونيّة، عائشة بنت يوسف. شرح الفتح المبين. القاهرة: المطبعة الخيريّة، 1304هـ/1886م.
- الباعونيّة، عائشة بنت يوسف. مولد النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. تحقيق: عبد القادر عمر نبهان. دمشق: المطبعة الحفنيّة، 1301هـ/1883م.
- بحرق، محمّد بن عمر الحضرميّ. حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبيّ المختار. تحقيق: محمّد غستان عزقول. جدة: دار المنهاج، الطبعة 4، 1436هـ/2016م.
- البُخاري، محمّد بن إسماعيل. التّاريخ الكبير، إعداد: محمّد عبد المعين خان. المجلّد 2. حيدر أباد: دائرة المعارف العثمانيّة، د.ت.
- البُخاري، محمّد بن إسماعيل. الجامع الصّحيح. إعداد: محمّد زهير النّاصر. المجلّد 1، 4، 6، 8، 9. بيروت: دار طوق النّجاة، 1422هـ/2001م.
- البُرعي، عبد الرّحيم بن أحمد. ديوان البُرعيّ. تحقيق: عليّ الهواري. القاهرة: مطبعة التّفقّم العلميّة، 1324هـ/1906م.
- بركات، مصطفى. الألقاب والوظائف العثمانيّة. القاهرة: دار غريب، 2000م.
- البُرّار، أحمد بن عمرو. البحر الرّخّار. تحقيق: محفوظ الرّحمن زين الله وآخريّن. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكّم، 1427هـ/2006م.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر. خزائن الأدب ولبّ أبواب لسان العرّب. تحقيق: عبد السلام هارون. المجلّد 1. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة 4، 1418هـ/1997م.
- البغوي، الحسين بن مسعود. معالم التّنزيل. تحقيق: محمّد النّمر وآخريّن. المجلّد 3، 8. الرياض: دار طيبة، 1409هـ/1988م.
- البكري، محمّد توفيق. صهاريج اللؤلؤ. تحقيق: أحمد بن أمين الشنقيطي-أبو بكر محمّد لطفي المصريّ. مصر: مطبعة الهلال، 1906م.
- بوحوش، رابع. البنية اللغويّة لبردة البوصيريّ. الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1982م.
- بوزينار، شيت طوفان. "الصّيّاديّ". موسوعة إسلاميّة لوقف الديانة التّركي. 218-216/36. أنقرة: نشر وقف الديانة التّركي، 1989م.
- البوصيري، شرف الدّين محمّد بن سعيد. الكواكب التّريّة في مدح خير البريّة. تحقيق: يوسف النّبّهاني. طنجة: دار الحديث الكتّانيّة، د.ت.
- البوصيري، شرف الدّين محمّد بن سعيد. ديوان البوصيريّ. تحقيق: محمّد سيّد كيلاني. القاهرة: مطبعة مصطفى الباي، الطبعة 1، 1374هـ/1955م.
- البيضاوي، ناصر الدّين عبد الله بن عمر. أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل. تحقيق: محمّد المرعشلي. المجلّد 3. بيروت: دار إحياء الثّراث العربيّ، 1418هـ/1997م.
- البيطار، عبد الرّزاق بن حسن الميدانيّ. حلية البشر في تاريخ القرن الثّالث عشر. تحقيق: محمّد مهجة البيطار، دمشق: مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، الطبعة 2، 1993م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. دلائل النّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة. تحقيق: عبد المعطي قلنجي. المجلّد 1، 5. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1405هـ/1984م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. شُعَبُ الإيْمَان. إعداد: عبد العليّ حامد. المجلّد 7، 9، 13. الرياض: مكتبة الرّشد، 1423هـ/2003م.
- بيومي، السّباعي. تاريخ الأدب العربيّ في العصر الجاهليّ. القاهرة: مطبعة العلوم، 1353هـ/1934م.
- بيومي، زكريا سليمان. قراءة جديّة في تاريخ العثمانيّين. جدة: عالم المعرفة، الطبعة 1، 1991م.
- الرّمذي، محمّد بن عيسى. الجامع الكبير. إعداد: بشار عوّاد معروف. المجلّد 6. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1416هـ/1996م.
- التّنوخي، المحسن بن عليّ. المستجد من فعّلات الأجواد. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1426هـ/2005م.
- التّهانوي، محمّد عليّ. كسّاف اصطلاحات العلوم والفنون. مترجم: عبد الله الخالديّ. تحقيق: عليّ دحروج. المجلّد 1. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة 1، 1996م.
- التّونجي، محمّد. حول الأدب في العصر السّلاجوقيّ. بنغازي: مكتبة قورينا، 1394هـ/1974م.
- الثّعالي، أبو منصور عبد الملك بن محمّد النيسابوريّ. نثر النّظم وحان العُمد. دمشق: مطبعة مجلس المعارف، 1300هـ/1883م.
- الثّعالي، أبو إسحاق أحمد. تفسير الثّعاليّ. تحقيق: الطّاهر بن عاشور. المجلّد 3. بيروت: دار إحياء الثّراث العربيّ، 1422هـ/2002م.

- ثمرات الفنون. "مراسلات الحديّدة". (21/تموز/1902م)، 6.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. *البيان والتبيين*. تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة 7، 1418هـ/1998م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. *الحيوان*. تحقيق: محمّد باسل عيون السود. المجلّد 3. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 2، 1424هـ/2003م.
- جارشلي، إسماعيل حقيّ. *أمراء مكّة المكرّمة وأشرفها في العهد العثمانيّ*. مترجم: خليل علي مراد. بيروت: الدّار العربيّة للموسوعات، 1424هـ/2003م.
- الجبوري، يحيى. *الشعر الجاهليّ خصائصه وفنونه*. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، الطبعة 5، 1406هـ/1986م.
- الجبوري، يحيى. *شعر المتوكّل اللّيثي*. بغداد: مكتبة الأندلس، 1971م.
- الجزاويّ، أبو العبّاس أحمد بن عبد السلام التّالديّ. *الحماسة المغربيّة*. تحقيق: محمّد رضوان الدّاية. المجلّد 1. دمشق: دار الفكر، الطبعة 1، 1411هـ/1991م.
- الجرجانيّ، الشّريف علي بن محمّد. *التّعريفات*. تحقيق: محمّد عيون السّود. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 2، 1424هـ/2003م.
- الجمحيّ، محمّد بن سلام بن عبّيد الله. *طبقات فحول الشعراء*. تحقيق: محمود شاكر. المجلّد 2. جدّة: دار المديني، د.ت.
- جوقه باش، سليمان. *السّلطان عبد الحميد الثّاني شخصيّته وسياسته*. مترجم: عبد الله أحمد إبراهيم. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2008م.
- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد. *تاج اللّغة وصحاح العربيّة*. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. المجلّد 1، 2، 3، 4، 5، 6، 10. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 4، 1407هـ/1987م.
- جيجك، محمّد خليل. *نراء المعنى في القرآن الكريم*. القاهرة: دار السلام، 1999م.
- الجيوسي، سلمى. *الاتجاهات والحركات في الشعر الحديث*. مُترجم: عبد الواحد لؤلؤة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، الطبعة 2، 2007م.
- الحاكم، محمّد بن عبد الله النّيسابوريّ. *المُسْتَدْرَك على الصّحاحين*. تحقيق: مُصطَفَى عبد القادر عطا. المجلّد 3. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 1، 1411هـ/1991م.
- الحامد، عبد الله. *الشّعر في الجزيرة العربيّة خلال قرنين*. الرّياض: مطابع الإشعاع، الطبعة 1، 1402هـ/1981م.
- حبّنكة، عبد الرّحمن حسن. *البلاغة العربيّة*. دمشق: دار القلم، 1416هـ/1996م.
- حرب، محمّد. *السّلطان عبد الحميد الثّاني آخر السّلاطين العثمانيّين الكبار*. دمشق: دار القلم، الطبعة 1، 1990م.
- حرب، محمّد. *العثمانيّون في التّاريخ والحضارة*. القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، الطبعة 1، 1994م.
- حرب، محمّد. *مذكرات السّلطان عبد الحميد الثّاني*. دمشق: دار القلم، الطبعة 3، 1991م.
- الحريري، القاسم بن علي. *مقامات الحريري*. بيروت: دار بيروت، 1398هـ/1978م.
- الحريري، محمّد بن عمر. *نتيجة المفاخر في أخبار بني رفاعة السّادة الأكابر*. ميشيغان: مكتبة جامعة ميشيغان، Puplic Domain، 595.
- حسنين، إبراهيم. *سلاطين الدّولة العثمانيّة*. الاسكندريّة: دار التّعليم الجامعي، الطبعة 1، 2014م.
- الحكيم، يوسف. *سوريا والعهد العثماني*. بيروت: دار النّهار، بيروت، الطبعة 4، 1991م.
- حلّاق، حسّان علي. *دور اليهود والقوى الدّوليّة في خلع السّلطان عبد الحميد الثّاني عن العرش*. بيروت: الدّار الجامعيّة، د.ت.
- الخليبي، شهاب الدّين محمود بن سليمان. *أهني المنائح في أسنى المدائح*. القاهرة: مطبعة جريدة الشّورى، د.ت.
- الخليبي، علي بن إبراهيم. *إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون*. المجلّد 1. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 2، 1427هـ/2006م.
- الخلّي، صفّي الدّين عبد العزيز بن سرايا. *ديوان صفّي الدّين الخلّي*. بيروت: دار صادر، د.ت.
- الحمداني، أبو فراس الحارث بن سعيد. *ديوان أبي فراس الحمداني*. تحقيق: سامي الدّهان. المجلّد 2. بيروت: المطبعة الكاثوليكيّة، 1945م.
- الحمصي، قسطنطي. *أدباء حلب ذوو الأثر في القرن الثّاسع عشر*. حلب: المطبعة المارونيّة، 1925م.

- الحموي، تقي الدّين أبو بكر بن حجّة. *خزانة الأدب وغاية الأرب*. تحقيق: عصام شقويو. المجلّد 1. بيروت: مكتبة الهلال، الطبعة 1، 1406هـ/1986م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. *معجم البلدان*. المجلّد 1، 3، 4، 5. بيروت: دار صادر، الطبعة 2، 1995م.
- الحنبلي، زين الدّين بن رجب. *ذيل طبقات الحنابلة*. تحقيق: عبد الرحمن العبيكان. المجلّد 1. الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة 1، 2005م.
- الحويني، أحمد محمّد. *أدب السّيّاسة في العصر الأموي*. بيروت: دار القلم، د.ت.
- الحويني، أحمد محمّد. *الأدب العربيّ وتاريخه*. القاهرة: دار المعارف، 1977م.
- الخطّابي، حمد بن محمّد. *شأن الدّعاء*. تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق. القاهرة: دار الثّقافة العربيّة، 1412هـ/1992م.
- الخطيب، أبو عبد الله محمّد لسان الدّين. *الإحاطة في أخبار غرناطة*. تحقيق: يوسف علي الطّويل. المجلّد 1. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 1، 1424هـ/2003م.
- خفاجي، محمّد عبد المنعم. *دراسات في الأدب العربيّ الحديث ومدارسه*. المجلّد 1. بيروت: دار الجيل، الطبعة 1، 1412هـ/1992م.
- الخنساء، تماضر بنت عمرو. *ديوان الخنساء*. تحقيق: حمدو طمّاس. بيروت: دار المعرفة، الطبعة 2، 1425هـ/2004م.
- درنيقة، محمّد أحمد. *معجم أعلام شعراء المديح النبويّ*. بيروت: دار ومكتبة الهلال، الطبعة 1، 2003م.
- دسوقي، عمر. *في الأدب الحديث*. القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- الدّقّر، عبد الغني. *الإمام التّووي*. دمشق: دار القلم، الطبعة 4، 1994م.
- الدّمشقيّ، شمس الدّين بن ناصر الدّين. *مورد الصّادي في مولد المهادي*. تحقيق: إبراهيم راشد المريخي. القاهرة: الدّار الغنّاء، الطبعة 1، 1429هـ/2008م.
- الدّميري، كمال الدّين محمّد بن موسى. *المقصد الأتم في شرح لامية العجم*. تحقيق: هاني الميران - عباس الجراخ. عمّان: دار الرّضوان، 1433هـ/2012م.
- الدّهّان، محمّد سامي. *فنون الأدب العربيّ*. المجلّد 1. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 3، د.ت.
- ديك الجنّ، عبد السّلام بن رغبان الحمصيّ. *ديوان ديك الجنّ*. تحقيق: أحمد مطلوب-عبد الله الجبوري. بيروت: دار الثّقافة، د.ت.
- الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة. *التّشعر والشّعراء*. تحقيق: أحمد محمّد شاكر. القاهرة: دار المعارف، 1386هـ/1967م.
- الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة. *غريب الحديث*. تحقيق: عبد الله الجبوري. المجلّد 2. بغداد: مطبعة العاني، 1397هـ/1977م.
- الدّهبيّ، شمس الدّين محمّد بن أحمد. *تاريخ الإسلام ووفّيات المشاهير والأعلام*. تحقيق: بشّار عوّاد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، الطبعة 1، 1424هـ/2004م.
- الدّهبيّ، شمس الدّين محمّد بن أحمد. *سير أعلام النّبلاء*. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين. المجلّد 14، 21. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1405هـ/1985م.
- الرّازي، فخر الدّين محمّد بن عمر. *التّفسير الكبير*. المجلّد 19. بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ، الطبعة 3، 1420هـ.
- الرّافعي، محمّد رشيد بن عبد اللطيف الطّرابلسي. *تخميس التّصنيفة الغرّاء*. طرابلس: مطبعة البلاغة، د.ت.
- الرّافعي، محمّد محمود. *شرح الهاشميّات*. مصر: مطبعة شركة التّمذّن الصّناعيّة، الطبعة 2، د.ت.
- الرّافعي، مصطفى صادق. *تاريخ آداب العرب*. تحقيق: عبد الله المنشاوي-مهديّ البحقيري. مصر: مكتبة الإيمان، د.ت.
- الرّاوي، إبراهيم محمّد. *بلوغ الأرب في ترجمة السّيد الشّيخ رجب ودّرّيته أهل الحسب*. بيروت: مطبعة جريدة الإقبال، 1330هـ/1912م.
- الرّؤاس، محمّد بهاء الدّين. *ديوان مشكاة اليقين ومحبّة المتّقين*. دمشق: دار الفكر، الطبعة 2، د.ت.
- الرّؤاس، محمّد بهاء الدّين. *ديوان معراج القلوب إلى حضرات الغيوب*. تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط. دمشق: المطبعة العلميّة، الطبعة 1، 1389هـ.

- الرَّيْدِي، مرتضى محمد بن محمد. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: مصطفى حجازي وآخرين. المجلد 2، 6، 7، 11، 12، 16، 18، 20، 21، 22، 25، 28، 30، 38. الكويت: دار الهداية، 1965م.
- الزَّيْرِي، مصعب بن عبد الله. نَسَب قريش. تحقيق: ليفي بروفنسال. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 3، 1402هـ/1982م.
- الرَّزْقَانِي، محمد بن عبد الباقي. شرح الرَّزْقَانِي عَلَى الْمَوَاهِبِ اللَّدِّيَّةِ بِالْمَنْحِ مُحَمَّدِيَّةً. المجلد 5. بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1417هـ/1996م.
- الرَّزْكَلِي، خير الدِّين. الأعلام. المجلد 1، 2، 3، 6. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 15، 2002م.
- الرَّزْمَشَرِي، جار الله محمود بن عمرو. أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلميَّة، الطبعة 1، 1419هـ/1998م.
- الرَّزْمَشَرِي، جار الله محمود بن عمرو. القسطاس في علم العروض. تحقيق: فخر الدِّين قباوة. بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة 2، 1410هـ/1989م.
- الرَّزْمَشَرِي، جار الله محمود بن عمرو. ربيع الأبرار ونصوص الأختيار. تحقيق: عبد الأمير مهنا. المجلد 2. بيروت: مؤسَّسة الأعلمي، 1412هـ/1992م.
- السَّخَاوِي، شمس الدِّين محمد بن عبد الرَّحْمَنِ. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. إعداد: محمد عثمان الخشت. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة 1، 1405هـ/1985م.
- سركو، ماري دكران. دمشق في فترة السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي. دمشق: منشورات الهيئة العامَّة السُّورِيَّة للكتاب، 2010م.
- سركيس، يوسف إيلان موسى. معجم المطبوعات العربيَّة والمُعَرَّبَة. المجلد 1. مصر: مطبعة سركيس، 1346هـ/1928م.
- السَّعْدِي، ابن القطاع علي بن جعفر الصقلي. الدرَّة الخطيرة في شعراء الجزيرة. تحقيق: بشير البكوش. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة 1، 1415هـ/1995م.
- السَّقَّاف، عبد الرَّحْمَنِ بن عُبيد الله. العود الهندي عن أماليِّ في ديوان الكندي. جدَّة: دار المنهاج، الطبعة 1، 1432هـ/2011م.
- السَّمْعَانِي، عبد الكريم بن محمد. الأنساب. تحقيق: عبد الرحمن اليماني وآخرين. المجلد 1. حيدر أباد: مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة، 1382هـ/1962م.
- السَّمْوَال، ابن غريز الأزدِي. ديوان السَّمْوَال، صنعة نبطويه. تحقيق: واضح الصَّمْد. بيروت: دار الجليل، الطبعة 1، 1416هـ/1996م.
- سويف، مصطفى. الأسس النَّفْسِيَّة لِلإِبْدَاعِ الْفَنِّيِّ فِي الشَّعْرِ خَاصَّةً. القاهرة: دار المعارف، 1959م.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. الكتاب. تحقيق: عبد السلام هارون. المجلد 1. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408هـ/1988م.
- السَّيْوِي، جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر. الخبر الدَّالُّ عَلَى وَجُودِ الْقُطْبِ وَالْأُوتَادِ وَالشُّجْبَاءِ وَالْأَبْدَالِ. تحقيق: عبد الهادي منصور. دمشق: دار البيروتي، 2005م.
- السَّيْوِي، جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر. الخصائص الكُبرى. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلميَّة، د.ت.
- السَّيْوِي، جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر. المُزْهَرُ فِي عِلْمِ اللَّغَةِ وَأَنْوَاعِهَا. تحقيق: فؤاد علي منصور. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلميَّة، الطبعة 1، 1418هـ/1998م.
- الشَّافِعِي، محمد بن إدريس. الرِّسَالَة. تحقيق: أحمد شاكر. المجلد 1. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، الطبعة 1، 1357هـ/1938م.
- الشَّامِي، محمد بن يوسف. سبل الهدى والرَّشَادِ فِي سِيَرَةِ خَيْرِ الْعِبَادِ. تحقيق: عادل عبد الموجود - علي معوض. المجلد 1، 3. بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1414هـ/1993م.
- الشَّايِب، أحمد. أصول النَّقْدِ الأَدْبِيِّ. القاهرة: مكتبة النَّهْضَة، الطبعة 10، 1994م.
- شُبْر، جواد. أدب اللَّطْفِ أَوْ شِعْرَاءِ الْحَسَنِ مِنَ الْقَرْنِ الأوَّلِ الْمَجْرِيِّ حَتَّى الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. المجلد 1. بيروت: مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة 1، 1388هـ/1969م.
- الشَّقْرَاطِسِي، أبو محمد عبد الله. القصيدة الشَّقْرَاطِسِيَّة. تحقيق: نزار حمَّادي. تونس: دار الإمام ابن عرفة، د.ت.
- الشُّكْعَة، مصطفى. فنون الشَّعْرِ فِي مَجْمَعِ الْحَمْدَانِيَيْنِ. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريَّة، 1378هـ/1958م.

- الشَّنْبَرِي، علي بن بسَّام. *الدَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ*. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 5. تونس: الدَّارُ الْعَرَبِيَّةُ لِلْكِتَابِ، الطَّبْعَةُ 1، 1981م.
- الشَّنْطِي، مُحَمَّدُ صَالِح. *فَتْحُ التَّحْرِيرِ الْعَرَبِيِّ ضَوَابِطُهُ وَأَنْمَاطُهُ*. حائل: دار الأندلس، الطَّبْعَةُ 5، 1422هـ/2001م.
- شوقي، جلال. "منظومات السيرة النبوية حتى نهاية القرن الرابع الهجري". *مجلة مركز بحوث الشَّيْخَةِ وَالسِّيَرَةِ 2/2* (1407هـ/1987م)، 532-614.
- الشُّوكَّانِي، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِي. *الصَّوَرُمُ الْحَيْدَادُ الْقَاطِعَةُ لِعَلَّامِقِ أَرْبَابِ الْإِتِّحَادِ*. تحقيق: مُحَمَّدُ صَبْحِي حَلَّاق. صنعاء: دار الهجرة، 1411هـ/1990م.
- الشُّيبَانِي، أَبُو عَمْرٍو إِسْحَاقُ بْنُ مَرَارٍ. *كِتَابُ الْجَيْمِ*. تحقيق: إبراهيم الأبياري. المجلد 1. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1394هـ/1974م.
- شيخ أمين، بكري. *تحليل بلاغي وجمالي في نصوص أدبية*. بيروت: دار العلم للملايين، 2004م.
- صدقي، كامل - حمدي، عبد الواحد. *تاريخ حرب الدولة العلية ودولة اليونان*. القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، 1315هـ/1897م.
- الصَّعْغَانِي، الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ. *الْعَبَابُ الرَّخِخُ وَاللُّبَابُ الْفَاخِرُ*. تحقيق: مُحَمَّدُ حَسَنُ آلِ يَاسِينَ. العراق: دار الرِّشِيدِ، 1981م.
- الصَّعْثَدِي، صَاحِحُ الدِّينِ خَلِيلُ بْنُ أَبِيكَ. *الْوَاقِعُ بِالْوَفَايَاتِ*. تحقيق: أحمد الأرنؤوط-تركي مصطفى. المجلد 24. بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م.
- الصَّعْثَدِي، صَاحِحُ الدِّينِ خَلِيلُ بْنُ أَبِيكَ. *التَّرْوِضُ بِالْبَاسِمِ وَالْعَرَفُ النَّاسِمِ*. تحقيق: مُحَمَّدُ عَبْدِ الْمَجِيدِ لَاشِينَ. القاهرة: دار الآفاق العربية، الطَّبْعَةُ 1، 1435هـ/2005م.
- الصَّعْثَصَانِي، أَحْمَدُ الْمُرْسِي. "الدولة العثمانية والولايات العربية". *المجلة التاريخية المغربية 29، 30، 338، 339*.
- صوت الشعب. "الحسب السَّيِّبُ أَبُو الْهَدْيِ الصَّيَّادِي". (5/كانون الأول/1931م)، 1.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *أَزْهَارُ الْحَدِيثِ*. تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط وآخرين. دمشق: دن، 1395هـ/1975م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *التاريخ الأوحى*. مصر: مطبعة المحروسة، د.ت.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *الفرقان الدامغ بالحق أباطيل أهل البهتان*. مصر: مطبعة الهلال، 1324هـ/1906م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *الفيلذة الخضراء*. تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط. دمشق: المطبعة العلمية، 1389هـ/1969م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *آيات العرفان في مولد سيد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة والسلام كلَّ آن*. إستانبول: مطبعة مهرا، 1302هـ/1884م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *تشطير البردة*. الإسكندرية: المطبعة الحليمية، 1309هـ/1891م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *حضره الإطلاق في مكارم الأخلاق*. دن، 1301هـ/1883م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *خلاصة البيان في حكم نوع الإنسان*. إستانبول: مطبعة كلمة الحق، 1326هـ/1908م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان التبيين الجامع بين الحكمة والبيان*. مصر: المطبعة العمومية، 1315هـ/1897م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان الدر المنتظم مختصر براهين الحكم*. دن، 1326هـ/1908م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان الرِّوَضِ التَّبْسِيمِ*. دن، 1322هـ/1904م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان الفيض المحمدي والمدد الأحمدي*. إعداد: يوسف التَّبْهَاتِي. إستانبول: مطبعة الجوانب، 1298هـ/1881م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان اللؤلؤ والمرجان في مدائح حبيب الرحمن عليه صلوات الملك الدَّيَّانِ، القاهرة: دار الكتب والمخطوطات والوثائق القومية المصرية، 75277ز.*
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان روضة العرفان السديلة منظوماته بمنشور الدرر الحسان*. دن، 1322هـ/1904م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان قرة العين في مدح الإمام أبي العامين*. إستانبول: المطبعة العثمانية، 1302هـ/1884م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *ديوان مرآة الشهود في مدح سلطان الوجود*. مصر: المطبعة العمومية، 1316هـ/1907م.
- الصَّيَّادِي، مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدْيِ. *صوت المنار وزيق العذار*. مصر: مطبعة التمدن، 1321هـ/1903م.

- الصيَّادي، محمد أبو الهدى. ضوء الشمس في قولهِ بُني الإسلام على خمس. تحقيق: محمد سليم الحُمَامي. دمشق: المطبعة العلميَّة، الطَّبعة 2، 1394هـ/1974م.
- الصيَّادي، محمد أبو الهدى. قصيدة زاد القيامة في شيءٍ من أخبار الحبيب المُظَلَّل بالعمامة. مصر: مطبعة الظَّاهر، 1323هـ/1905م.
- الصيَّادي، محمد أبو الهدى. نوابغ الحِكَم. مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م.
- صيرما، إحسان ثريا. السُّلطان عبد الحميد الثَّاني وسياسة الجامعة الإسلاميَّة. مترجم: كمال أحمد خوجة. pdf: د.ت.ن. [http://drsamarai.com/wpcontent/uploads/2019/10/66\\_Sultan\\_Abdul\\_Hamid\\_II\\_and\\_the\\_policy\\_of\\_the\\_Islamic\\_League.pdf](http://drsamarai.com/wpcontent/uploads/2019/10/66_Sultan_Abdul_Hamid_II_and_the_policy_of_the_Islamic_League.pdf)
- ضيف، شوقي. الرِّثاء. القاهرة: دار المعارف، 1407هـ/1987م.
- ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي. المجلد 1، 5، 7، 8، 9. القاهرة: دار المعارف، 1960م.
- ضيف، شوقي. فصول في الشَّعر ونقده. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 3، د.ت.
- الطَّائي، أبو تمام حبيب بن أوس. ديوان الحماسة. تحقيق: أحمد حسن بسج. بيروت: دار الكتب العلميَّة، الطبعة 1، 1418هـ/1998م.
- الطَّبَّاح، محمد راغب. إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشَّهباء. المجلد 7. حلب: دار القلم العربي، الطبعة 2، 1988م.
- الطُّبراني، سليمان بن أحمد. المعجم الكبير. إعداد: حمدي عبد المجيد. المجلد 4. القاهرة: مكتبة ابن تيميَّة، الطبعة 2، د.ت.
- الطُّغرائي، مؤيد الدِّين الحسين بن علي. ديوان الطُّغرائي. تحقيق: يحيى الجبوري-علي جواد الطَّاهر. الدُّوحة: مطابع الدُّوحة الحديثة، الطَّبعة 2، 1406هـ/1986م.
- الطُّويراني، حسن حسني باشا. القول الفصل. مصر: المطبعة العمومية، 1313هـ/1895م.
- العاكوب، عيسى علي. موسيقا الشَّعر العربي. دمشق: دار الفكر، الطبعة 2، 1421هـ/2000م.
- العبَّاس بن مرداس. ديوان العبَّاس بن مرداس. تحقيق: يحيى الجبوري. بغداد: دار الجمهوريَّة، 1388هـ/1968م.
- عبد الحميد، أحمد مختار. معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة. بيروت: دار عالم الكتب، 2008م.
- عبد الله بن معاوية. شعر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. إعداد: عبد الحميد راضي. بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة 1، 1396هـ/1976م.
- عبد التَّور، جبَّور. المُعجم الأدبي. بيروت: دار العلم للملايين، الطَّبعة 2، 1984م.
- العبيسي، الحطيئة جلول بن أوس. ديوان الحطيئة. تحقيق: حمدو طمَّاس. بيروت: دار المعرفة، 1426هـ/2006م.
- عثمان أوغلو، الأميرة عائشة. والدي السُّلطان عبد الحميد الثَّاني. مترجم: صالح سعداوي الصَّالح. عمَّان: دار البشير، الطَّبعة 1، 1991م.
- العراقي، عبد الرِّحيم بن الحسين. المورد الهني في المولد السنِّي. تحقيق: عمر أعميري. القاهرة: دار السَّلام، 1431هـ/2010م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. الصِّناعتين. تحقيق: علي البجاوي-محمد إبراهيم. بيروت: المكتبة العصريَّة، 1419هـ.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. الفروق اللُّغويَّة. تحقيق: محمد إبراهيم سليم. القاهرة: دار العلم والنُّقافة، د.ت.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. جمهرة الأمثال. تحقيق: عبد المجيد قطامش-محمد أبو الفضل إبراهيم. المجلد 2. بيروت: دار الجليل، الطَّبعة 2، 1408هـ/1988م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. ديوان المعاني. المجلد 2. بيروت: دار الجليل، د.ت.
- عصفور، جابر. مفهوم الشَّعر دراسة في الثَّراث التَّقديسي. القاهرة: مطابع الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، الطبعة 5، 1995م.
- عطوان، حسين. مُقايمة القصيدة العربيَّة في الشَّعر الجاهلي. مصر: دار المعارف، 1390هـ/1970م.
- العظمة، عبد العزيز. مرآة الشَّام تاريخ دمشق وأهلها. تحقيق: نجدة فتحي صفوة. لندن: رياض الرِّيس للكتب والنَّشر، 1987م.
- العقَّاد، عبَّاس محمود. ابن الرُّومي حياته من شعره. مصر: شركة مساهمة، د.ت.
- العقَّاد، عبَّاس محمود. دراسات في المذاهب الأدبيَّة والاجتماعيَّة. القاهرة: نخضة مصر، 2006.
- علي رضا، محمد رشيد. تفسير المنار. المجلد 11. القاهرة: دار المنار، 1366هـ/1947م.

- عمر بن أبي ربيعة. ديوان عمر بن أبي ربيعة. إعداد: فايز محمد. بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ/1996م.
- العمرى، أحمد عزت باشا الموصلي. العقود الجوهريّة في مدائح الحضرة الرفاعية. مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م.
- عنتر بن شداد. ديوان عنتر. إعداد: خليل الخوري-أمين الخوري. بيروت: مطبعة الآداب، 1311هـ/1893م.
- عوض، عبد العزيز محمد. الإدارة العنمانيّة في ولاية سوريّة. القاهرة: دار المعارف، 1969م.
- العزّي، كامل بن حسين. نهر الذهب في تاريخ حلب. المجلد 1، 2. دمشق: دار القلم، 1419هـ/1999م.
- الفارابي، محمد بن محمد. إحصاء العلوم. تحقيق: عثمان محمد أمين. القاهرة: مطبعة السعادة، 1350هـ/1931م.
- الفارابي، محمد بن محمد. جوامع السّبع. تحقيق: محمد سليم سالم. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، 1971م.
- الفاروئي، عزّ الدين أحمد الواسطي. التّفحة المسكّية في السّلالة الرّفاعيّة الرّكيّة. إستانبول: مطبعة محمد أسعد نومرو، 1301هـ/1883م.
- الفرايدي، خليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق: مهدي المخزومي-إبراهيم السّامرائي. المجلد 2، 3، 5، 8. بيروت: مكتبة الهلال، د.ت.
- الفرزدق، همّام بن غالب. ديوان الفرزدق. تحقيق: علي فاعور. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1407هـ/1987م.
- فُرُخ، عمر. تاريخ الأدب العربيّ. المجلد 1، 2، 3. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 4، 1981م.
- الفيومي، أحمد بن محمد. المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير. المجلد 2. بيروت: المكتبة العلميّة، د.ت.
- القاري، ملّا علي بن سلطان. مجموع رسائل الملّا علي القاري. إعداد: ماهر أديب حبّوش وآخرين. إستانبول: دار اللباب، 1437هـ/2016م.
- القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبّي وخصومه. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-علي محمد البجاوي. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.
- القدسي، عبد القادر بن تقيّ الدّين الحلبي. الكوكب المنير في ترجمة الأستاذ أبي الهدى الشّهير. د.ت.ن.
- القسطلاني، أحمد بن محمد. المواهب اللدنيّة بالمنح المحمّديّة. المجلد 2. القاهرة: المكتبة التوفيقيّة، د.ت.
- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف. إنباه الرّواة على أنباه التّحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المجلد 2. القاهرة: دار الفكر العربيّ، الطبعة 1، 1406هـ/1986م.
- القيرواني، الحسن بن رشيق. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه. تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد. بيروت: دار الجيل، الطبعة 5، 1401هـ/1981م.
- القيرواني، الحسن بن رشيق. ديوان ابن رشيق القيروانيّ. إعداد: عبد الرحمن ياغي. بيروت: دار الثّقافة، 1409هـ/1989م.
- كالو، محمد محمود. الأدب العربيّ عبر العصور. تركيا: منشورات كلية التّربية بجامعة أديمان، 2018م.
- الكتّاني، محمد عبد الحيّ. فهرس الفهارس. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 1. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، الطبعة 2، 1982م.
- كثير عزة، كثير بن عبد الرحمن الخزاعي. ديوان كثير عزة. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار المعرفة، 1391هـ/1971م.
- كعب بن زهير. ديوان كعب بن زهير. تحقيق: علي الفاعور. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1417هـ/1997م.
- كوندوز، أحمد آق وآخرون. الدولة العثمانية المجهولة. إستانبول: مطبعة ماس، الطبعة 1، 2008.
- الكيواني، أحمد بن حسين. ديوان أحمد الكيواني. تحقيق: عمر نبهان. دمشق: المطبعة الحنفيّة، 1301هـ/1883م.
- الماوردي. علي بن محمد. تسهيل النّظر وتعجيل الظّفر في أخلاق الملّك وسياسة الملّك. تحقيق: حسن السّاعاتي - هلال السّرحان. بيروت: دار النّهضة العربيّة، د.ت.
- مبارك، زكي. المدائح النّبويّة. القاهرة: دار المحجّة البيضاء، 1354هـ/1935م.
- المبرد، محمد بن يزيد. التّعازي والمرثي والمواعظ والوصايا. تحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل. القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت.
- المبرد، محمد بن يزيد. الكامل في اللّغة والأدب. تحقيق: محمد إبراهيم. المجلد 3. القاهرة: دار الفكر العربيّ، 1417هـ/1997م.
- المبرد، محمد بن يزيد. المقتضب. تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة. المجلد 4. بيروت: عالم الكتب، د.ت.
- المتنبي، أحمد بن الحسين. ديوان المتنبي. بيروت: دار بيروت للطباعة، 1403هـ/1983م.

- مجاهد، زكي محمد. الأعلام الشَّرْقِيَّة في المئة الرَّابِعة المِجْرِيَّة. المجلد 3، 4. مصر: مطبعة حجازي، 1955م.
- مجمع اللُّغة العربيَّة في القاهرة. مجموعة المصطلحات العلميَّة والفنِّيَّة التي أقرَّها المجمع. المجلد 21. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1399هـ/1979م.
- المحلِّي، جلال الدِّين - السيوطي، جلال الدِّين. تفسير الجلالين. القاهرة: دار الحديث، 1416هـ/1996م.
- محمد، محمود سالم. المدائح النَّبَوِيَّة حتى نهاية العصر المملوكي. دمشق: دار الفكر، 1417هـ/1997م.
- مرآة الشَّرْق. "لمحة موجزة عن تاريخ المغفور له حسن خالد". (4/كانون الثاني/1937م)، 6.
- المُرادي، أبو الفضل محمد خليل. سلك النَّزْر في أعيان القرن الثَّاني عشر. المجلد 2. بيروت: دار ابن حزم، 1408هـ/1988م.
- المراكشي، محيي الدِّين عبد الواحد بن علي. المُعْجَب في تلخيص أخبار المِغْرِب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين. تحقيق: صلاح الدِّين الهواري. صيدا: المكتبة العصريَّة، 1426هـ/2006م.
- مسلم بن الحجاج. المسند الصَّحيح. إعداد: محمد فؤاد عبد الباقي. المجلد 4. بيروت: دار إحياء التَّراث العربي، 1412هـ/1991م.
- مصطفى، إبراهيم وآخرون. المعجم الوسيط. المجلد 1. الاسكندرية: دار الدَّعوة، د.ت.
- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله. الألامع العزيري شرح ديوان المتنبي. تحقيق: محمد سعيد المولوي. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1429هـ/2008م.
- المغربي، أبو القاسم الحسين بن علي. أدب الخواص. تحقيق: حمد الجاسر. الرياض: دار اليمامة، 1400هـ/1980م.
- المقري، شهاب الدِّين أحمد بن محمد. نفع الطَّيب من غصن الأندلس الرَّطيب. تحقيق: إحسان عبَّاس. المجلد 6. بيروت: دار صادر، 1388هـ/1968م.
- المقريزي، أحمد بن علي. إمتاع الأسماع. تحقيق: محمد عبد الحميد التَّميسي. المجلد 3. بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1420هـ/1999م.
- الناوي، زين الدِّين عبد الرَّؤوف بن علي. التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة: عالم الكتب، الطبعة 1، 1410هـ/1990م.
- مندور، محمد. في الأدب والتَّقدّم. القاهرة: نخضة مصر، 1988م.
- الموصللي، كمال الدِّين المبارك بن الشَّعار. قلائد الجمال في فرائد شعراء هذا الرِّقَاب. تحقيق: كامل سلمان الجبوري. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2005م.
- موجو، أحمد. "ديوان همايون". موسوعة إسلاميَّة لوقف الدِّيانة التُّركي. 430-432. أنقرة: نشر وقف الدِّيانة التُّركي، 1989م.
- المولحي، إبراهيم بن عبد الخالق. ما هنالك من أسرار البلاط العثماني. تحقيق: أحمد حسين الطَّماوي. القاهرة: المركز العربي للإعلام والنَّشر، د.ت.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. مجمع الأمثال. تحقيق: محيي الدِّين عبد الحميد. مصر: مطبعة السُّنَّة المحمَّديَّة، 1374هـ/1955م.
- التَّعمة، مقبول علي بشير. المرثي في عصر صدر الإسلام. بيروت: دار صادر، 1417هـ/1997م.
- الهاشمي، أحمد. ميزان الدَّقْب في صناعة شعر العرب. تحقيق: علاء الدِّين عطية. دمشق: دار البيروني، الطبعة 3، 1427هـ/2006م.
- الهلل. "السَّيِّد محمد أفندي أبو الهدى الصَّيَّادي". (1/يونيو/1893م)، 369.
- الهيبي، أحمد فوزي. الحركة الشَّعريَّة زمن المماليك في حلب الشَّهباء. بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، 1406هـ/1986م.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. أشرف الوسائل إلى فهم الشَّمائل. تحقيق: أحمد المزدي. بيروت: دار الكتب العلميَّة، الطبعة 1، 1419هـ/1998م.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. العُملة في شرح البركة. تحقيق: بسَّام بارود. عمَّان: دار الفتح، د.ت.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. المُختَصَر من إتمام النَّعمة الكبرى على العالم بمولد سيِّد ولد آدم. تحقيق: مُرْهَف عبد الوهَّاب الهوَّاس. د.ت.ن.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. المنح المكيَّة في شرح الحمزيَّة. القاهرة، مطبعة التَّقَدُّم، 1326هـ/1908م.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. شرح متن القصيدة الحمزيَّة للبوصيري. القاهرة: المطبعة الخيريَّة، 1307هـ/1889م.

- لهيثمي، علي بن أبي بكر. *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*. إعداد: حسام الدين القدسي. المجلد 1، 8. القاهرة: مكتبة القدسي، 1414هـ/1994م.
- الواحدي، علي بن أحمد. *الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. تحقيق: صفوان داوودي. دمشق: الدار الشامية، 1415هـ/1995م.
- الواقدي، محمد بن عمر. *المغازي*. تحقيق: مارسدن جوس. المجلد 2. بيروت: دار الأعلمي، 1409هـ/1989م.
- ياغي، إسماعيل أحمد. *الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث*. الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة 1، 1996م.
- اليحصي، عياض بن موسى. *الثبغا بتعريف حقوق المصطفى*. المجلد 1. بيروت: دار الفكر، 1409هـ/1988م.
- يعقوب، إميل بديع-عاصي، ميشال. *المعجم المُصنّف في اللغة والأدب*. المجلد 1. بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م.
- اليعمري، محمد بن سيد الناس. *عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسيّير*. تحقيق: إبراهيم رمضان. المجلد 1. بيروت: دار القلم، 1414هـ/1993م.